مؤلفات مارون عبود

المجموعة الكاملة

في النقد الأدبي

المجلد الرابع

دار مارون عبود

مؤلفات مارون عبود
المجموعة الكاملة

في النقد الأدبي

يحتوي هذا المجلد على :

على المحك

مجددون ومجترون

في المختبر

المجلّد الرّابع

دار مارون عبود

ص.ب ٨٠٨٦ – ١١

تلفون ٩٣٤٧١٤

على المحك

نظرات وآراء في الشعر والشعراء

جميع الحقوق محفوظة

المؤلف

١٨٨٦ – ١٩٦٢

مؤلفات مارون عبود

المجموعة الكاملة

- مدخل للمؤلفات الكاملة

الاول : في الدراسة
أدب العرب ـ الرؤوس
الثاني : رواد النهضة الحديثة ـ الشعر العامي ـ جدد وقدماء
الثالث : النقد الاجتماعي
سبل ومناهج ـ حبر على ورق ـ آخر حجر
الرابع : النقد الادبي
على المحك ـ مجددون ومجترون ـ في المختبر
الخامس : دمقس وارجوان ـ نقدات عابر ـ على الطائر
السادس : في القصة
فارس آغا ـ الامير الاحمر
السابع : في الاقصوصة
احاديث القرية ـ وجوه وحكايات ـ اقزام جبابرة
الثامن : في النقد السياسي
من الجراب ـ قبل انفجار البركان ـ اشباح ورموز ـ مناوشات

التاسع : التراجم
احمد فارس الشدياق (صقر لبنان)
ابو العلاء المعري (زوبعة الدهور)
بديع ألزمان الهمذاني
امين الريحاني
العاشر : رسائل واحاديث صحفية
الحادي عشر : من كل واد عصا
الثاني عشر : فهرس شامل للموضوعات ـ الاعلام ـ الاماكن ـ الامثلة

الفهـرس

فهرس القسم الاول ـ على المحك

الموضوع	صفحة
انقد ام حسد	١٣
امارة الشعر	٢١
الشعراء	٣١
الزهاوي ، بشارة الخوري ، شبلي الملاط	٣٧
شعراء الفرح والترح	
معروف الرصافي بشارة الخوري	٥٥
محصول الشهر	٦٩
بيدر مصر	٧٦
قصيدتا الجارم في الملك فؤاد وسعد	٨٣
بشارة شيخ السفرة	٨٧
قصيدة بشارة في فلسطين	٩١
قصيدة بشارة في الدندشي	٩٧
البراعم لعمر يحيى	١٠٥

الموضوع	صفحة
عبقر لشفيق معلوف	١١٧
هريستي وزبوني	١٣٨
محصول الشهر	١٤٢
موسى نمور ، خليل المطران ، شبلي الملاط ، بشارة الخوري ، الدكتور حبيب ثابت	١٤٥
عباس محمود العقاد	١٧٣
الدرة العقادية	١٧٩
النقد الادبي واشهر معاركه	١٨٤
ثلاثة دواوين للعقاد	
وحي الاربعين	١٩١
هدية الكروان	٢١٣
عابر سبيل	٢٢٣

فهرس القسم الثاني ـ مجددون ومجترون

الموضوع	صفحة
كمقدمة	٧
المجترون	١١

الموضوع	صفحة
بشارة الخوري وامين نخله في رثاء احمد شوقي	٤٠

الموضوع	صفحة
شوقية بشاره	٤٤
شوقية امين	٥٢
دفتر الغزل لامين نخله	٦١
القفص المهجور ليوسف غصوب	٧١
الموسجة الملتهبة ليوسف غصوب	٨٧
قارورة الطيب ليوسف غصوب	٩٥
افاعي الفردوس للياس ابو شبكة	١٠٥
الى الابد للياس ابو شبكة	١٢٣
ابو شبكة الكاتب	١٣٢
امين تقي الدين	١٣٧
فليكس فارس	١٤٥

الموضوع	صفحة
ديوان الشبيبي	١٦٦
الامواج لاحمد الصافي النجفي	١٧٢
الاشعة والاغوار والتيار لاحمد الصافي النجفي	١٩٤
عمر ابو ريشة في ديوانه	٢٠٤
عاشقة الليل لنازك الملائكة	٢١٥
سابا زريق في ديوانه	٢٢٦
ما وراء البحار	٢٣١
مدرسة رومنطيقية	٢٣٣
جبران	٢٤١
المدرسة الجنوبية	٢٤٧

فهرس القسم الثالث ـ في المختبر

الموضوع	صفحة
المعركة الادبية في مصر	٥
ادب القصة بين العقاد والرافعي	١١
القصة المصرية بين الشبان والشيوخ	٢٢
اشياخ الادب في مصر	٣٢
مجمع اللغة العربية الملكي	٣٩
الادب والنقد في مصر	٤٣
طه حسين في آثار ثلاثة	٦١
حياتي لأحمد امين	٦٨
اليوم خمر لتيمور	٧١
توفيق يوسف عواد من الصبي الأعرج الى الرغيف	٧٣
قصص تقي الدين العشر	١٠٤
الباب المرصود لعمر فاخوري	١٣٩
الف ليلة وليلة لكرم ملحم كرم	١٥٥

الموضوع	صفحة
وفاء الزمان وسجل التوبة لامين الريحاني	١٢٦
ابو الهول وفنيانوس لشكري الخوري	١٧٣
الوعي القومي لقسطنطين زريق	١٧٦
مصطلح التاريخ لأسد رستم	١٨٨
الحب اقوى لرئيف خوري	١٩٧
مذكرات الارقش لميخائيل نعيمة	٢٠٨
شفتان بخيلتان لرياض طه	٢٣٢
تاريخ الادب العربي ح. فاخوري	٢٣٧
الفوضى العالمية على ضوء الانجيل للخوري حنا مارون	٢٤١
الرمزية والادب العربي لانطون غطاس كرم	٢٤٥
اعلام الحرية لقدري قلعجي	٢٤٨
الاسلاك لاميل حائك	٢٥١

جرى حديثٌ بين الشيطان وإيفـــان ، في رواية « الاخوة كرامازوف » للقصصي العظيم دوستويفسكي ، فقال الشيطان لايفان :

« يجب أن تشكّ وتجحد ، فبدون الشكّ والجحود لا نقد . وبدون النقد كيف ننقّح ونهذّب ؟ اذا توارى النقد لم يبقَ إلاّ « اوصانا » وهذا لا يكفي . يجب أن نضعَ التقريظَ والنقدَ في كفّتي الميزان . ومع ذلك فما أنا الذي اخترعتُ النقد ، ولستُ أنا تيسَ الخطيئة . يجب أن أنتقد لأن النقدَ أصلُ الحياة » .

(الرؤوس ٢٧٨)

أنقدٌ أم جَسد؟

الويل للناقد في أمة لم يألف أدباؤها إلا قرابين المدح ونذورَ الثناء ، يطرحها المؤمنون على أقدام تلك الآلهة ، ثم َحسْبهم الرضا والشفاعة ...

والذي لفَّه ضبابُ الندّ والبخور بإزار َحجَبه عن الأبصار ، حتى تنكَّرت سحنته وأصبحَ شبحاً مقدساً ، يؤذيه النقد ويذيبه التحليل . وكيف لا ؟ أما صار عند نفسه كتابوتِ العهد ، مَن لمسه صُعِق ؟

ومَن لم يبرح هياكل التقريظ الموصدة النوافذ يضرّه القعود بالمروحة . ومن لم يتعودِ النظرَ الى شمسِ الحقيقة يتململ إذا فَجأه نورُها ، ويرمد إذا ثار في وجهه الرهج ، فماذا نفعل لأصحابنا ليألفوا تقلبات الأنواء واكفهرار الأجواء ؟

ان عاصفة امرىء القيس أنزلتِ العُصمَ من « القَنان » واقتلعت نخل تَيماء ، وهدمت الأطم إلا المشيد بجندل .. وهكذا النقد فبصره يرتدّ كليلاً دون جبل السموأل . ولكن أدباءنا المعروفين ، كذلك « المدلَّل » القائل فيه شاعره المأفون :

خطَراتُ النسيمِ تجْرَحُ خدَّيْه ولَمْسُ الحَريرِ يُدمي بَنانَهْ

فلله آدم ، كَمْ ولد أسباطُه من أشكالٍ ومِن ألوان ! ولله شاعرُنا

العربي كيف هـامَ في محبوب إذا لمسه تضرج بدمه ولوّثه بـــه . هذا الحبيب ، كما صوّره لنا شاعِره – والشعراء في كل وادٍ يهيمون – كتلك الديدان التي تنفزر إن لمستَها ؟

لقد تجـاوزَ أدباءُ العرب تخومَ البشرية ، فصاروا طوباويين ، فلِمَ لا تحفُّ رؤوسهم بهالاتٍ من نور كصُور القديسين ؟ إن أمثلةَ الكهرباء سهلٌ اصطناعُها ، ولكن كيف نحتـــال لمجرى كهربائي يتصل بهم فلا يفارقهم في الحل والترحال ؟

إذا كتب أحدهم مقالاً لم يَرُقْ لك ، فالويلُ لك إذا جهرتَ بعقيدتك ، فديوان تفتيشهم يؤدبك . وإذا أسمعوك قصيدةً ولم تكبِّر – كما أشار مولاي محمد علي منذ سنوات – عند كل بيت ، فأنت حسود . وإذا لم تصفـّقْ لكل شطر فأنت لئيم خبيث . أمـا إذا نقدتَ فأنتَ كافرٌ بالعباقرة ، تتهاون بنوابغ الأمة ...

يجب أن تقول في الشعراء الكبار – وما أكثرهم عندنا ، أتمّ الله نعمة الشهرة عليهم – ما قاله بيار لويس في فيكتور هيغو :

« عندما تقرأ فكتور هيغو يجب أن تقول : هذا سامٍ ، هذا فريد ، هذا عجيب ، وإذا كنتُ لم أفهم فأنا حمار . يجب أن نقول في فكتور هيغو مقال النصارى في يسوع : هذا إنسان ، هذا إله » . وأخيراً ثلّثَ لويس الأقانيم وقال : « الآبُ والإبنُ وفيكتور هيغو ... » .

مثل هذا القول يرضي شعراءنا ، مفاخر العرب وسادة العجم ، بيضات الزمان ، ومفارد الأوان . أمّا كتـّابنا ، فعليكَ ، لكي ترضي كبارَهم ، ان تقول فيهم ما قاله فيكتور هيغو في رنان: « إن الله خلقه بمرسوم خاص » .

هكذا قـل إن كنت تؤثر رضاهم على سخطهم . وإذا التقيت أحدهم على أثر قصيدة أو فصل أذاعته إحدى الصحف أو المجلات فضّ شفتيك

كالعنز ، واستلهم بديهتك ، والويل لك إن تخننك البلاغة ! هات أضخم الألقاب والنعوت ، ولا عذرَ لك إذا قلت : لم أقرأها . عليك أن تقرأها وإلا فأنت جاهل لا تتذوق الأدب الرفيع ثم هب انك لم تقرأهـا فلا تكسر خاطره وقل فيها ما يتوقع أن يقال ، تعوّد أن تسمع ، وترحّم بينك وبين نفسك على الحريري القائل :

والصّدقُ إن ألقاكَ تحتَ العطبِ لا خيرَ فيهِ ، فاعتصمْ بالكَذِبِ

أما إذا تلهجمتَ ولم تقرظْ ، فأنت حمارٌ يا صاحبي ... كما قال بيار لويس عن قارىء فيكتور هيغو .

الحسد ترسٌ تناقلته أيدي أدباء العرب منذ عرفوا النقد ، فكم اتقى به المتنبي صدماتِ منتقديه ، سواءٌ أمتحاملين كانوا أم منصفين .

أما قال المتنبي منذ ألف سنة :

أزِلْ حسدَ الحسادِ عنّي بِكَبْتِهِمْ فأنتَ الذي صيَّرتَهُم ليَ حُسَّدا

ثم قال أبو فراس : مَشَيْتُ اليهـا فوق أعناقِ حُسَّدي . . .
وكذلك قال شوقي أمس ، وكذا يقالُ اليوم ، فقل معي إذنْ : أعوذ بالله من الحسد ، فالحسود لا يسود ...

لقد عفّتْ هذه الدعوى معالم الحقيقة ، فأغامتْ سماء الأذهان وتنكّرتِ الحجة ، وكاد يتجمجم كل ناقد مخافةَ هذا الظن ، ولكن الاخلاص للفنّ يدرأ الشبهات . وكم نتمنى على الله أن يكون فينا من يحسد لنرفع رؤوسنا بين أمم الارض ...

فحتّام تلوك ألسنتنا هذه الكلمة ، وإلامَ يقبع وراءَها أدباؤنا كالصائد في داموسه ، وفيهم من لم تخطر له ببال يوم كان ينقد ولا يُنتقد ؟

لقد قال طه حسين يوم نقد شوقي : « ان شوقي شبع مدحاً ولم يشبع نقداً » . ثم أشبعه ... فما باله يتبرّم ويضيق صدره بالنقاد ؟ أ آمين مفروضة

على قرّائه وليس لهم أن يفكروا أو يمحّصوا؟ وبعد فما دعـــاه لذكر الحسد في معرض كلامه عن بارتو وبوانكاره؟ الفتوى عند سلامة موسى صاحب كتاب «العقل الباطن».

تطالع مقال الأديب اليوم، وخصوصاً المأجور منهم، فتأسف على دقائق هَدَرْتَـها. فإذا قرأت مثلاً مقالة طه «التأديب» أي درس الأدب، تقرأ صفحتين من جريدة الإخاء الوطني العراقية ولا تظفر إلا بغمزات ولمزات.

ما هكذا كان يكتب طه. لقد كنا نظفر بشيء متى قرأناه. فهو إما اكتفى وشبع شهرة فطرح «منجله» واستراح، واستهزأ بقرائه كما قال عنه حسين هيكل، وإما انه يكتب لأجل الجمال، كما يشمّ من الكلام المنقول عنه في المقـــال عينه. ورحمات الله على الفن! ما دخلت السياسة شيئاً إلا أفسدته. صدق الكلام المأثور...

لقد قرأنا لبعض شعراء العرب في مصر، والعراق، وسورية، والمهجر، قصائد طوّبتها الصحف ونعتت شعراءها بالكبار. ومعظم هذه القصائد لا يتعدى مبتذلَ القولِ ويدور على كل لسان.

شعر «مناسبات»: تهنئة، ورثاء، ومديح، وبكاء على المجد الضائع، والثروة المفقودة. ويضحكنا شعر بعضهم الذي لم يفق تعبيره كلام العامة، فكأنه أخبار محلية في جريدة. فهل الشعر ما استقام وزنه ورُصِفَت قوافيه كداميك البنّائين...؟ لقد بتنا، إذا عرفنا «المناسبة» عرفنا ما سيقال فيها، ومتى عرفنا الشخص عرفنـــا القافية، كما سمعنا في لوكندة قاصوف بعرس صلاح المنذر قصيدة على الحاء... لقد أتعب شاعرية شعرائنا اسم تلك العروس اللطيفة (ليندا) فما ذكره منهم إلا أمراء الكلام...

وبعد، أفليس ما ننماه على المتقدمين هو هو الذي ننظمه اليوم، ونسميه شعراً؟ ويا ليت لنا بلاغة اولئك! فأكثر كلامنا حركات سيمائية تسحر

عيون الناس ، بل هذيان محموم يضحكه ذكره متى فارقه العارض . .

أما آن أنْ يتعدى النظمُ هذه المناسبات ، ويتجاوز شعرنا « يا ليل » المغني و « يا عين » المطرب ؟

فما تقول في قصيدة يُمدح بها او يُرثى ملكٌ ، او يهنأ عريس ، او تنظم لحفلة ، فلا تفهم منها إلا أنها تصلح لكل ملك ، ولكل حفلة ، ولكل من سيتأهّل منذ نوح حتى المسيح الدجال ؟ . .

أليست قصيدة كهذه ، في نظرك كما هي في نظري ، مثل « شروال » اهالي قرية ... الذي كان يلبسه كل من يتغرّب عن القرية — وأبعد غربة كانت الى جبيلْ — حتى صار شعار الضيعة ؟ . .

أليست كتلك الخلعة التي كان يُلبسها المشايخُ ، في ذلك الزمان ، كلَّ عريس مشمول بالرضا ، ثم تعود الى « الدار » لتعاد ، بعدئذٍ ، الى كل عريس؟

الشعر الحقيقي هو ما لا تستطيع ان تفصله عن صاحبه ، ولو حللته في مختبر باستور . ومــا يخرجه ويذيعه الأديب على الملأ يصبح ملك الجمهور يحق لكل مفكر ان يقول كلمته فيه ، ولا حسد ولا حقد ولا غيرة هناك ... فإن أصاب الناقد أفاد ، وإن اخطأ هزيء به الناس . فلماذا كل هذه الضوضى ؟ وهل يكترث النقاد — في الغرب — لغير الشعر البارع والنثر الممتع ؟

هناك يمتاز الأديب بكثرة منتقديه ، فترك النقد عندهم منقصة وسبّة . وهذا شوقي ماذا تنقّصه النقــد ؟ لقد استحثه فاحتث ، وجلّى على شيخوخته .

أنظلّ في القرن العشرين كما كنا في القرن السابع ؟

قال الأخطل : « جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر » ، فجرّ هذا الرأي الأدبي الى هجاء كان جنايةً على الأدب والأخلاق .

وكذا حدث في القاهرة . فقد حمل ابو شادي حملة شعواء على العقاد فسبّه هذا بما يندى له جبين الأدب . وكذا حدث بين شبلي وبشاره في حفلة تأبين المرحوم وديع عقل وإن كان تلميحاً لا تصريحاً .

وأرى اليوم طلائع مثل هذه في حديث بشارة مع صاحب المروبة ، الحوماني ، ثم في ردّ أبي شبكة على بشارة ، كما أذكر حملة نقدية كادت تكون خصبة لو لم تنتــه بالحيد عن خطط النقد ، وتعقد الهدنة على ضفاف البردوني ، فلو لم يهتم منها بشارة ما أخرج قصيدته الرائعة « عمر ونعم » ، وما قال له بدوي الجبل كما نشر في « برقه » : « ما هذا يا رجل ؟ المتنبي من خدامك الخ ... » .

وأذكر – وما اكثر ما اذكر – حملة لغوية ، منذ سبع وعشرين سنة ، على الملاط ، أوقد نارها بشارة ، وكان من فرسانها ابراهيم منذر ويوسف مراد الخوري ومن لا أسميهم ... وكانت الساحة جريدة « لبنان » للأسود ، فاتهمهم الملاّط بالحسد ، ثم سكنت الزوبعة بعد ان قالوا ما قالوه .

والآن امامي مجلة العروبة (العدد ١٤) ، قرأت فيه مقالة لمدافع عن بشارة أسمى نفسه «قزم ...» ختمها ببيتين من نظم بشارة في ابي شبكة ، وهما :

أبا شبكة ، والأيــامُ مهزلةٌ ماذا ، أحقاً حذقتَ الشعرَ أم لَعِبا؟
لو كنتُ في الوحشِ لأرضاك لي ظفراً او كنتُ في الطيرِ لا ارضاك لي ذنبا!

حقاً انها لبدعة جديدة في الردّ على النقــاد بهذا العصر ... فما هذا يا أبا عبد الله ؟.. لقد كدت اصيح بملء فمي : « أكذّبُ نفسي عنك في كل ما ارى ... » لولا خشيتي وخوفي قانون « إقلاق الراحــة » ... بيد اني ثُبت الى نفسي وقلت : لعـل الأخ بشارة يريد ان يقول الشعر في كل الاغراض كسميّه الأخطل ، فلا حول ولا ...

* * *

هكذا سار ويسير النقد عندنا ... تختم المأساة بأكل اللحوم ونبش القبور! فمن لنا بزياد جديد وبقراء جديدة الحدود ؟ أمـا هواة النقد فنقول لهم ما قاله أمس المندوب السامي للصحفيين : « انتقدوا الأعمال لا الأشخاص » ، ونزيد : « كونوا منصفين » .

فهل من نقاد مخلصين للفن لا يحابون كاتبـاً ولا يمالئون شاعراً ، فلا يكيلون الثناء لشهير ، ولا يتعامون عن جيّد جاء من نكرة ؟

ليت الصحف والمجلات تقلع عن هذه الألقاب التي تغرّ الأدباء وتخدع القراء ... وليتها تذكر اسماءهم كما يذكر في اوربا اسم فاليري ، وكبلنغ ، وطاغور ، وولز ، وشو ، وجيد ، ومن اليهم من كبار كتّاب العـالم ، ثم لا يُعرض لمحصولهم الأدبي إلا في مختبرات التحليل . فلتتركنَّ الصحف هذه الطلاسم التي ترقي بها قرّاءها ، وتنفج الادباء حتى يصبحوا كالقطن المنفوش .

حقاً ان محصولنا الادبي في تأخر مستمر ، ونحن عـلى ابواب مجاعة روحية . فأدباؤنا اكتفوا بشهرة جوفـاء تذهب بذهابهم كصدى ينقطع بانقطاع الصوت . انهم كتلك الزهرة « شبّ الليل » التي تعيش في الظـل ليلة واحدة . فإلى النور ايها الاخوان ، الى الأدب الخالد ، ولا يغرنّـكم ما يقال اليوم ، فالغد حكم جبار لا يعرف رحمة ولا محاباة .

وبعد فأقول ، والأسف ملء الفؤاد ، اننـا إذا قرأنا شيئاً قيّماً فهو عيال على كتاب الغرب وشعرائه ، إن لم يكن نصاً فمعنى. فعلى رفوفي كتب اعظمتها جدَّ الاعظام حتى كتبتُ الى احد مؤلفيهـا ، وأنا لا اعرفه ، أثني على جهوده وعمق تفكيره ... وكم كانت خيبتي مُرةً بعد سنتين ، إذ عرفت أن معظم الكتاب « مأخوذ » ...

والبلية انك إذا أرشدت الناس الى هذا الأخذ الشريف ، وقلت كلمة

في احد هؤلاء « الطوباويين » تغامزوا جميعاً عليك وقالوا : « حسد ! » وهكذا ينجو المتلبسون بالجريمة ...

وجماع الكلام ان الناقد النزيه كالصقيل الماهر يبدو جوهر السيف تحت انمله شيئاً فشيئاً ، او كالمرشد الأمين يجذبك الى متحف مليء بعرائس الفنون ، ويدلك عليها واحدةً واحدة ويشرح لك معاني جمالها . وما كان النقد قط ، منذ كان ، إلا معواناً على رقي الفنون . وفنان لا يسمع غير التقريظ لا يبدع ، والماء إن لم تصفـّقه الرياح ركد وأسن .

١١ — ١٩٣٤

إمارة الشعر

وتفرقوا شِيعاً فكلُّ قبيلةٍ		فيها أميرُ المؤمنينَ ومنبرُ

لعنةُ الله على هذه الإمارة الجوفاء ، إمارة الشعر ، فهي سخافة بلقاء أسقطتنا من عيون المغاربة . وأشد الناس رقاعة وعتاهية شاعرٌ يحلم بها ، وشرُّ الثلاثة أديب يدعو اليها ، ويحمل الناس عليها حملاً . فهل كانت إمارة شوقي – وهو شاعر جيله – غير مهزلة سجَّلها الدهر ، وأبى ان يكتمها علينا التاريخ الذي لا يُمحى ما يسجل ؟

وأنكى البلايا ان تكون « الردّة » في مدرسة طه حسين . أما أنكر شيخ هذه الطريقة على الناس مبايعتهم امس ؟ فكيف يمهّد اليوم لها ويوطّنها ليتقمّصها فلان ؟.. أنسيَ ، هداه الله ، ونفعنا بعلمه ، كيف سخر من مهرجان شوقي ، وكيف شهَّر من مؤمّريه رجلاً يؤثره ، أي حافظ ابراهيم ؟ وإن أنسَ لا أنسَ انه لم يسلمْ من لسانه وألسنة أنصاره أحد حتى النظّارة .

أخارجيّ الأدب المتبوع يجترحُ اليومَ ما عدّه أمس جريرة لا تغتفر ؟! لقد كان أحرج من النظام في حظار العفو ، فما عدا مما بدا حتى حشر الناس حول العقاد فأيقظ فتنة نائمة وأعادها جذعة ؟!

ألا ليتَ الطفولية تعود ! فـكم لهونا بمثـــل هذه الأضحوكة يوم كنا غلماناً تغلي صدورنا توقاناً الى الرجولية . فمن لا يذكر مثلي تلك الأعراس الصبيانية ... فعريسنا كان صبياً شارباه من صوف ، والعروس صبية ذوائبها من ألياف ، لا حرج علينـــا بنوعها ان اجتمع فيها الطول ، فما اجملها اعراساً حافلة بكل طريف : دفوف من تنك ، وخيول من قصب ، والشراب ماء مصبوغ ، لا اذكر بماذا ..

فهلا تتذكر معي تلك السخرية وتقول : « إنها وإمارة الشعر صنوان ؟ تلك شهرة غلمان ، وهذه امنية شيوخ قلائد العقبان ، وكهول شكسبير وشبنهور وهوفمان ؟.. » ولقد صدق اغوسطينوس حين قال : « الرجال اطفال كبار . » ورحم الله نيتشه القائل : « طلبت رجالاً عظاماً فلم أجد إلا قروداً تقلد حركاتهم ... »

* * *

منذ سنوات اربع عرفت استاذاً اجنبياً « جامعيـــاً » ودكتوراً من السوربون أيضاً ، تفرد للأدب ومارسه تعليماً ونقداً ، فتذاكرنا مرة أدب المغاربة واتجاهاته الحديثة ، ومناحيه الأشبة ، وموجاته الصاخبة ، قبل الحرب وبعدها ، فانجرّ الحديث الى أدب المشارقة عامة ، فأدب العرب خاصة ، وتلوى البحث كما طابت له الريح فتناولنا حتى اللغة العامية والفصحى ، فإذا صاحبي على دين كليمان هيار يرى رأيه ، وملء عينـه مرونة اللغة العربية وكفاءتها ، كما وصفها لنا المستشرق ماسينيون ، ولو شكا حسين هيكل عجزها عن تأدية مراده ... ودعا سلامه موسى في « يومه وغده » الى نبذها وأشار علينا ، أصلحه الله ، بالالتحاق بأوروبا حيث نفنى في ذلك الخضمّ العجاج ، منتظرين « كالبهائي » ان نؤهَّل يومـاً الى « الانعدام » في ذات تلك الوحدانية ...

فمن يقرأ محاضرة ماسينيون ولا يقول مع الشاعر :

نعيبُ زمانَنا والعيبُ فينا وما لزَمانِنا عيبٌ سِوانا ..؟

واطّرد الحديث فقال صاحبي : « عندكم امير شعراء ؟ »

قلت : « نعم يا سيدي ، فنحن العرب نحب التأمّر ، ولو على أهل البيت ... »

قال : « وهل لأميركم هذا عرشٌ وتاجٌ وصولجان كأحشورش استير ؟ »

قلت : « نعم ، ويصلب هامان ... له كل ما للملوك المهازل من أزياء وطراز . أما لهذا من أثرٍ في بلادكم ؟ »

أجاب : « لا ، فنحن الى الجمهورية أميل منا الى الملكية . »

فقلت : « أما والله انك لجـادّ . دع المزاح . أتظن ان كبار ادبائنا يشايعون هذه البدعة ؟ »

قال : « أظن نعم . »

قلت : « لا يا صديقي العزيز ، ألم تقرأ ما كتب طه حسين عنها ؟ فطه حسين اديب مجدد ، ضخم أمره ، وله تشيّع انصارُ الجديد . فهو شيخ أزهري « شرقاً » وسربوني « غرباً » ، وشمالاً وقبلةً يعلم الله ماذا . فهذا الإمام ولفّهُ يسفّهون حتى من يتحدث بالامارة ، وإن خبرت انه جاء على ذكرها فالهزء والسخر . »

فقاطعني وقال : « لا تدافع يا صاحبي ، حقاً يا صديقي انكم معشر الشرقيين ، مطبوعون على التبجيل والتعظيم . » وابتسم .

فقلت : « ما لك ؟ » .

قال : « ألستم تقولون عندما تذكرون الله : « سبحانه وتعالى ، جل

جلاله ؟ » . بينا نحن لا نقول إلا : Le Bon Dieu . وإذا ذكرتم شعراءكم وكتّابكم نسجتم حول اسمائهم عناكب ألقاب ونعوت حتى يختنقوا فيها كالذبابة التي تجذبها الرتيلاء ؟ ان الألقاب عندكم تكال ولا توزن .

قلت : « أما تعظيمنا لله فما أخاله عيباً . اما الشعراء فهم ابناء الآلهة ، أليس كذلك ؟ . . »

فلنعدْ عن هذا ، انني لم افرغ بعد من حديث « الامارة » ، فاسمح لي ان ادرأ هذه الشبهة ، فأنتم كالحجاج وكثيراً ما تأخذون بالشبهات .

ألم يأتِكَ نبأ العقاد ، وهو من مدرسة المجددين ، على طريقة غوت وشلي وشكسبير وهوفمان ؟..

فما سمع بمهرجان الإمارة حتى هدر كالجمل الاورق ، وطفق يكتب فصولاً « الشعر في مصر » يدحض بها تلك الضلالة ، هاك نتفاً منها . قال لا فض فوه :

« ونظرت الى العصور الحديثة بعد الاسلام ، فلم أعثر بشاعر واحد انبتته مصر يذكر بين اعاظم الشعراء وتذكر له رسالة من رسالات الحياة . فكل شعرائها عرب او مقلدون للعرب ، وكل هؤلاء وهؤلاء عالة على الأدب ونفاية ضئيلة ، اولى بها ان تبيد وتهمل . »

فطابت نفس صديقي واهتز لما قلت وغمغم

فقلت : اسمع ايضاً :

« فشاعت بيننا مقاييس الادب الافرنسي الدارجـــة ، وهي الطلاوة السطحية واللبــاقة العابثة . ومشينا معه في عيوبه ومحاسنه ، وهي شبيهة بعيوبنا ومحاسننا ، فلم نفطن الى فارق بين الصحيح والزيف ، وبين الصدق والتمويه ، ولم نخرج مما نحن فيه الى مذهب غيره » .

وتفرست بوجه صاحبي ، فإذا بلونه قد اكفهر ، وابتسامته اصفرّت وقال: « انت ماكر خبيث » .

قلت : « لا . صبراً ! » وسقت الكلام :

« وخفيت علينـــا مقاييس الجد والاستقامة والبساطة التي امتاز بها الشعر الانكليزي والالماني . »

وحباً بالاختصار قلت له : « ويقول عن شاعركم العظيم هيغو انه مجلجل مزوّق خلاّب . فهل من يقول هذا يؤمن بإمارة شعر ، و ... »

فقطع علي حديثي وقال : « أينظم شعراً صاحبك هذا ؟ »

قلت : « نعم . »

قال : « وكيف اسلوبه وديباجته ؟ »

قلت : « لا يطبع على غرار هيغو . »

قال : « لا شك . اظن انه نيء التعبير . »

قلت : « لم اقرأ له بعد ما يصح السكوت عليه فأحكم . اليك الآن ما يقوله عن « امير الشعراء » وإمارته في معرض نقده « خطاب العرش » الذي ألقاه الامير في مهرجان « المبايعة » على وفود الشرق قال ، اي العقاد :

« وقد يكون اميراً كأمير الشعراء ، لا حس فيه ولا عبقريه ، ولا اشمار له ولا الحان » ثم « فإن كان إمارة كذّابة في هذه الدنيا فهي إمارة هذا الذي لا يكفيه ان يعد شاعراً حتى يعد امير شعراء ، وحتى يقال انه عنوان لأسمى ما تسمو اليه النفس المصرية من الشعور والحياة . »

فقاطعني هنا قائلاً : « ايطمع هذا ان يكون امير شعراء ؟ »

قلت : « لا لا لا ، اسمع ايضاً » :

« انما هم جميعـــاً — اي شعراؤنا — سواسية في تشبيه الورد بالخدود ، والبلابل بالقيان ، والازهار بالاعطار » ثم يقول : « فكل شعرائنـــا طويل قصير ، بدينٌ هزيلٌ ، ابيض اسود ، احول اعمش ... وكل مـــا يشهدونه من

روعة الحياة لا يتعدى ذلك الذي يشهده كل ذي عينين حيوانيتين، كلبيتين او بقريتين او فيليتين الى آخر مـا في الحديقة من ذوات العينين . فلو نظمت الكلاب والقطط يوماً باللغة العربية لعلمت منها انهـا هي ايضاً تفهم كما يفهم شعراؤنا ان الورد احمر الخ . وربما زادت على شعرائنا بفهم ما لا يفهمونه وهو تحية الحب الخ . »

فصاح صاحبي : « هوبّلا ، إنه يغالي جداً ، هذا سباب وشتائم ، مـا هذا نقداً » .

وكان معي صديق يسيغ الادب ويلذ له حديثه فقال لي : « فضحتنا يا شيخ، بحياة أبيك ، كفّ عنا شرّك ، أإلى هذا الحد ينتهي تجريسك بنا؟»

فأجبت : « لا تحتدّ يا أخي ! كل هذا في كتاب العقاد « ساعات بين الكتب » .

فقال صاحبنا الاستاذ الافرنسي : « ولكنهـا ساعات سويداء ، اظن انه كان يحلم بالإمارة والتقنفش ساعة كتب هذا ! »

وافترقنا على ان نلتقي ، ولكن البحر ابتلع صاحبي الاستاذ ففجع به الادب والعبقرية .

* * *

وكان مساء ، وكان صباح عام ثان ، على لغة سفر التكوين ، وطوى الموت امير الشعراء ، فخوى العرش الأسنى ، فقلت في نفسي : « لقد أراح القضاء طه والعقاد من خزعبلةٍ خالط ألمها اللحم والدم » . ولشدّ مـا تعجبت حين فجأتني الصحف بشاول بين الانبياء .

لقد آمن طه بمـا جحده امس ، والتفت صوب العراق ، وشوقي لم يُدفن بعد ، وقال : إن إمارة الشعر ستكون في العراق بعد شوقي ، كأنها الخلافة البطرسية ، فلا بد منها للكنيسة الكاثوليكية ...

يا سبحان الله ، إن التحوّل والتطور اظهر في الآراء والاميال منها في

كل ما هو كائن ، وإلا فكيف يعترف طه بامارة زائفة تهزّأ بها امس ؟ وهبه اقرّهـــا وارادها فلِمَ أشاح وجهه عن خليل مطران وهو أحد الثلاثة المفروضين ... ؟ ألم يثن عليه طه ؟ ألم يقدمه حين ذكره في مقالاته « حافظ وشوقي » ؟

ودارت الافلاك دورتها والعقاد كالسماك الأعزل ، لا يفتأ يذكر يوسف ، لا يشارك ولا يساهم ادباء الجيل في شيء حتى كان يوم ٢٧ ابريل فإذا بحفلة تقام للعقاد بمسرح الازبكية من اجل « نشيد » نظمه ، فينتصب طه حسين فيهـا خطيباً ، ويتكلم عن « العقاد الشاعر » وتكلم وتكلم وتكلم (على لغته) حتى نودي بالعقاد امير شعراء ، فحلّ اليوم ، في شرع طه والعقــاد ، ما لم يجز البارحة . انما لنكد طالعها وبمن طالع الادب والتاريخ لم يكن في الحفلة شاعر ، فكانت الحفلة مفلسة « أدبياً » غير مكثور عليها « وطنياً ». فكانت إمارته كولاية ابن المعتز ، فلم يُحص بين الخلفاء ..

أما الشعراء فأدركوا بدهائهم – وهم ابناء الالهام – تلك الحيلة المدبرة ، فلم يقعوا في فخ ّ معاوية الذي اوحى الى « مسكين » ان ينصبه ، فراح ، واأسفاه ، تعب النقادة الحاذق سدى كصيحة النسر في الجو ، وارفضّت الحفلة عن لا شيء ، اللهم إلا عن شنشنة نعرفها من اخزم ...

وهكذا فشل العقاد وطه ، كما فشل الهراوي من قبل بدعوته الى «الموسم» فقامت عليه قيامة الكتّاب والشعراء في « السياسة » يتهمونه بمراودة إمارة الشعر عن نفسها ، كما راودها ويراودها في كل قطر غواة ، وهواة ، هم اشبه بضفدعة لافونتين ، فانشقّوا وما صاروا جواميس ...

وأتت نوبة العقاد وطه بعد شهرين ، فثار عليهما الشباب الشعراء وشقوا عصا الطاعة . انقلابات ومفاجآت تذكرني بما يحدث في المكسيك والبرازيل واميركا الوسطى حول انتخابات الرؤساء ...

وإذا كنت لم تملّ حديثي بعد فاسمعْ أحدثْكَ كيف ردّ الشعراء على حفلة العقاد .

التأموا بمسرح« ألهمبرا »، – اظنها الحمراء تنكرت علينا ككلمة Alcool فعرّبها احد الفطاحل « الالكحول » – وأقاموا حفلة كبرى لزكي مبارك افتتحها خليل مطران (لا اقول شاعر الاقطار ، فلكل قطر من فيض الله ألف شاعر ، وأنا لست من مذهب من فاته اللحم ...) افتتحها خليل بنثر وشعر ، وقال فيها شعراً : ناجي « وراء الغمام » وأبو شادي « الينبوع » والهراوي « الموسم » والزجال رمزي نظيم ، وغاب عنها صاحب الملاح التائه ، وغنّى عبد الوهاب ، وهذا هو الوفاء . فهو يرعى عهد « اميره » في مثواه . أولم يقل عبد الوهاب عن نفسه : « انه قصيدة من قصائد شوقي»؟ إذن كيف لا يكون مطرب حفلة تقام رداً على طه والعقاد ؟

وبعد ، أفلم ترَ مثلي ان الناس احتفلوا ليكرموا كاتباً – أنا ارى رأي المازني في شاعرية زكي وقد عاهدت نفسي ألا احابي – فتجمّعت فئة من رؤوس الشعراء لتقول فيه شيئاً ؟ واحتفي بشاعر نظم « نشيداً » لم يترنم به احد ، بل بكاتب أقام الدنيا وأقعدها ليحطم شاعر الجيل ، فما حضر الحفلة شاعر ... ألا رحم الله الصاحب بن عباد ، فهو والعقاد عندي سواء ، كما سوف ترى .

روى سلامه موسى صاحب المجلة الجديدة عن طه حسين في معرض الكلام عن الذين « يسمون انفسهم ادباء الشباب » انه قال له : « حب الشهرة عدو الفن » .

لقد وقعت على موضوع عتيد . إنما اسأل الآن الدكتور طه حسين ، على عجل : هل يطيق مولانا ، أيده الله ، ان يطبق لنا ما نصح به ادباء

الشباب ، على طه حسين ؟ اقول هذا ولا إخـال مطلبي يعجز من عنده مقياس ديكارت [1] .

* * *

قل معي إذن، يا اخي، قاتل الله إمارة الشعر، البشمة امس ، الحلوة اليوم في عيني العقاد ! ان هذه الامارة فتنة عمياء كنايا زهير فهي في أدبنا بيت الداء وطلابها متخمون حتى الأفواه، يضغون ما يتجشأون ويجترّون، وعلى هذا الضعف في المعدة والامعاء يحاولون ان يكونوا امراء . ولما أتى نبأ إمارة العقاد خليل مطران ظلّ يردّد حتى آخر الليل بيته في علي يوسف :

بنات الدهر عوجي لا تهابي   خلا الوادي من الأسدِ الغضابِ

هلا ، هلا ، يا خليل ، ففي كل واد أسد وأشبال لولا تقليم اظافرها . فالمستأثرون بالشهرة الناهون عن طلابهـا يحوّلون الانظار عن الأجم ، فعطفاً على الذرية ففيها بقاء النوع ، وتعهدوا الشباب كالبستاني الذي يشد الفسيلة الجذعة الى جذع الشجرة الشائخة .

بحياتك قـل لطه عني ان يلاطف أدباء الشباب — قد تكون كلمة يلاطف لا تعجبه ككلمة « تلاشى » — ويجري معهم على ما عوده إياه حفني ناصف . أما قال طه عن حفني : « كنا تستعينه على ان نكون خيراً منه . وكان يعيننا على ذلك راضياً به ... » فما بقي من جملة الاستاذ لا يعنيني ، ولا أقول لا يعجبني ، كما يقول هو ، فأنا حسبي الرضا .

---

(١) لقد بعلت بأمري - على لغة المنفلوطي الذي فرض درسه مجلس معارفنـا الأعلى ، وقد كنت بينهم ولا فخر ، وأهمل جبران - وتلفت كثيراً لعلي ارى المازني إما هنا وإما هناك فـا وقفت له على اثر ،فقلت في نفسي : لئن تخلف عن شهود حفلة تنصيب الامير ليسمعنا مقالاً اشبه بخاطِ لي زيد قباء ... ولكنني تعبت الليل كله ولم اصطد شيئاً كما قال بطرس لمعلمه .

وقصارى الكلام : إن كنا نروم خلق أدب عربي غزير المتاع ، عظيم الخطر ، يتعدى ما يشهده ذووه من روعة الحياة ذلك الذي يشهده كل ذي عينين حيوانيتين كلبيتين او بقريتين الخ .. فلا نزدر نتاج الشباب ، ولنمدّ اليه مبضع النطاسي لا مدية الجزار .

أما اذا اردنا أدباً ، ان نظمت فيه الكلاب والقطط باللغة العربية ، علمت انها هي ايضاً تفهم كما يفهم شعراؤنا ان الورد احمر الخ... فاجعل « صاحبك » امير الشعراء وخاتمة الادباء .

وان رأى سموه ان كلمتي هذه لاذعة قارصة جارحة ، فإنني أحيله على زميله العتيق ، الصاحب بن عباد القائل : هذه بضاعتنا ردت الينـا . والسلام على من أدى الأمانة ورد التحية .

٨ – ١٩٣٤

الشعراء

لولا الشاعر لماتت الآلهة ، فالشعراء خالدون ومخلدون .

لا نعني بالشاعر كل علاك وقواقة ، فمن مقلع واحد يصنع المثالون شخوصهم ، فمنهم من يرفع ليصير إلهاً في المحراب ، ومنها ما يبطح ليجعل اسكفـّة للباب .

ولا نعني بالشاعر ذلك الصاف الكلمات ، الغوّاص على « درر » الألفاظ ، فمن يعجز عن التفكير والابداع يعتصم بالفصاحة الجوفاء ، ومن لا يحسن رمي الطير في مهابّها يقبع في الداموس ، ومن يفته إبداع الجديد يكثر من اجترار القديم ، فحتامَ ننبش القبور لنلبس الأكفان عربية وأعجمية ، وإلامَ يهيم شعراؤنا المناكيد في كل واد ؟..

فمنهم من ينكت الطلول والدمن ويستوحي دارة جلجل حيث توقـّح امرؤ القيس وقعد على ثياب العذارى ، فأخرجهن من مستحمّهن على حد قول ايوب : عرياناً خرجت من بطن أمي ...

ومنهم من يفتش عن نفسه بين حكم ابن أبي سلمى الجافة كرمـــال الصحراء ، وزهديات أبي العتاهية الملمومة من هنا وهناك كخبز الشحاذين ، أو كالرداء المعدّ يصلح لجلّ الناس ولا يليق بواحد .

ومنهم من ينشدها في طويلات الأخطل التغلبي فيقفو أثره حتى يغرق في موطىء رجله ، وتهبُّ هوج الرياح فتزدرده الصحراء .

ومنهم من يتمنتر فيعرض سيفاً ورمحاً ، ويناجي عبلةً وهمية كغول تأبط شراً .

ومنهم من يتبع النابغة الى دار مية ، ويلحقه مع من لحقه في يوم صيده المشهور ، فيختفي عنه زياد ويتركه مع واشق وضمران ..

ومنهم من يهدج حول بيت الفرزدق كالقنافذ فيراه موسعاً لكيره في المقعد ... فيدعه ويتبع جريراً فيظمأ في فيفائه ، ويتوه في بهائه التي تكذب فيها العين والاذن .

ومنهم من يشوقه ابن ابي ربيعة فيضمّخ ويقف مثله في الدروب حتى اذا أدرك أن مطلبه عسير قعد حسيراً ، والعين بصيرة واليد قصيرة .

ومنهم من يتغلغل في ماخور ابي نواس ، ويأوي الى خمارته ، فيضرب معه بسهم ظفر ، كما قال البديع ، فيحلو إنشاده لأنه صادف نفسه .

ومنهم من يغزو أبا تمام ويشنُّ الغارة على البحتري ، ويقف بباب المتنبي فيصدف عنه شيخ الشعراء هازئاً متمتماً : أراه غباري ثم قال له الحقِ ...

ومنهم من يقصد البهاء فيرى في الفسطاط رجلاً مخنّثاً حتى الميعان ، فيتفيأ في ظلال واحته ، مستروحاً نسيمها البليل ، ثم يُسفّ ولا يقع .

ان معظم شعرنا العربي لا تزال في أنفه الخزامة ، وفي حنجرته هدير الفحول ، وفي رجله خلاخيلُ تُخشخِش . لقد صور الجاهليون والعباسيون أنفسهم ومحيطهم في شعرهم ، اما نحن فنصورهم هم في شعرنا ، كما كان يفعل مصوّرونا منذ نصف قرن إذ يصورون مار جرجس ومار شليطا ومن اليهم – كأننا صبية مدارس ينسخون المثل ليأخذوا العلامة ...

أما كان أولى بالبحتري ان يسأل أبا تمام متى يأكل حين سأله متى ينظم؟

أتسأل الطير متى تغرد ، أم الرياح متى تهب ، أم النــــار متى تتقد ؟؟ ان الشاعر يقول متى جاش صدره . عفواً ، لا يفعل هذا إلا شاعر وجد نفسه . اما من يفتش عنها بين طلول الجاهليين وخمّارات العباسيين وقصور الغربيين فينظم كل ساعة ...

يسألون لماذا أخرج المهلهل وعمرو بن كلثوم شعراً رقيقاً جياشاً وهما قبل الفرزدق الخشن الذي ينحت من صخر كما قيل فيه . فقل لهم ان الفرزدق قال قافية لا يعدلها شعر عربي هلهلةً ورقةَ نسجٍ وهي : « هذا الذي تعرف البطحاء وطأته » . وكذلك فعل دعبل الشاعر في قصيدته : « مدارس آيات خلت من تلاوة ... » التي احتذى مثالها حافظ ابراهيم في رثاء الامام محمد عبده فكانت خير ما قاله .

ويسألون لماذا يخشن الشاعر الواحد الجاهلي ويرق ؟ أليس هذا دليل النحل ، كما يزعم نقاد اليوم ؟ فقل لهم : لا ، فالشاعر المطبوع يلبس لكل حالة لبوسها ، يخشن ويرق في قصيدة واحدة . فما الشعر إلا عود أوتاره ألفاظه ، يصفّفها الشاعر ويصلحها لتخرج اللحن الذي يود .

أما الشاعر المتلمس بين خرائب المتقدمين وقبور المتأخرين فاكسعه وقل له : ارجع الى بيتك وفتش عن نفسك في حنايا ضلوعك ، وثنايا لحافك ، وبين جدران مخدعك ، وإن لم تجدها هناك اولاً فلن تلتقي بها أبداً .

لا تفتش عليهـــا في شكسبير وشلر وغوث وهيغو وموسه وبودلير فهؤلاء قد عتقوا ، وإن ابدعوا ولم يروا ما ترى من العجائب . قل له : انظر يا أعمى القلب فكلُّ ما حولك يدعوك ، فلماذا تزج نفسك في الأعماق كالخلد ؟ طالع كتاب الطبيعة فكل كلمة منه جبل ، إلا انها لا تضطرك الى نظارتين ! اسمع يا أطرش ، ان احاديث الدنيا كلها في بيتك ، تسمع روزفلت ان سعل ، والميكادو إن تنحنح ... انظر يا اعمى ! فالسينما تريك غرائب الكون متحركةً ناطقة ...

كان ابو تمام فطناً فأخرج معاني جديدة فلماذا لا تأتي أنت بمثلها ؟ انك عييّ ما دمت تسأل : ما ترك الأول للآخر ؟ الجواب عندي : ترك له الراديو والراديوم والسينما والطائرات والغازات التي تخنقك ...

نحاول التجديد فنتقمّص ثياباً بطلت في بلادها . ثم نتباله ونقول : انظروا اننا جدد . لقد أسأنا من جهتين : التقليد ولبس ثيابٍ أخلاق .

قال العجّاج : « كان الكميت والطرمّاح يسألانني عن الغريب فأخبرهما به ، ثم اراه في شعرهما ، وقد وضعاه في غير مواضعه لأنهما قرويّان ، يصفان ما لم يريا ، وانا بدوي اصف ما ارى فأضعه في مواضعه » . فهلا نتعلم من هذا البدوي ؟

كثيرون منا يفتشون عن انفسهم في ألفاظ هاموا بها ، وكثيراً ما يسوقون المعنى لأجلها ، ثم يطلبون منا ان نتذوقها كما تذوقوها هم ، ونستحليها كما استحلوها ، كأمٍّ بلهاء تستغرب كيف يغبى عليك جمال ابنها البشع .

ان مخيلة الشاعر المبدع راديو يلتقط حديث عوالم الأثير ، وقريحته راديوم يشع نوراً خالداً ، فعبثاً يحاول قرع باب الفن إن لم يكن في عونه قلب متقد وعين ثاقبة ، وإن فعل فهو كالنادبة تُبكّي ولا تبكي ، او كأبي الطيّب عندما استزادوه ، في اللاذقية ، رثاء ونفي شماتة ...

ما الشعر إلا حلم يقظة ، فالذي ليس له عين ترى ، وقلب يحس ، وأذن تسترق ، وعقل يحلم ، والذي لا يصغي ليسمع صراخ نفسه ، وعويل قلبه فهيهات ان يرتقي قمة الفن . فكم من إناء طريف حطم وسحق بعدما قال سيلي بريدوم قصيدته « الإناء المشعوث » ... وكم بين النساء مثل شولمية سليمان السمراء ، ناطورة الكروم ... وما اكثر اصحاب الزهريات والربيعيات بيد انهم لم يتحدوا بأقانيم الطبيعة كالشاعر المتشائم ابن الرومي . حقاً ان في الكلام عقداً ورقى ، وليس بضخامة تآليفه يقوّم الشاعر . فقد تخلده اسطر

ولا يخلد بألف قصيدة كلها ثرثرة وهذيان محموم . فشهر صمت خير من وأوأة دهر ، وقد قال شكسبير : أشعر اني أقلّ وحدة حين اكون وحدي .

ان الفن قيد الارواح والدهور ، فلولا الذي تركه الجدود من فن خلفهم ما عرفنا انهم مروا من هنا في طريقهم الى الأبد . والشعر والتصوير توأمان مدادهما ألفاظ وأصباغ . تترك الشمس عند المغيب مشاهد وألواناً فتانة ، والفنان الجبار يلتقط تلك المشاهد ويقيدها ، أمـــا المشهد فيتلاشى ثم يتجدد ، وأما القصيدة والصورة فتخلدهما العبقرية الفنية .

دخل أحدهم معمل مصور فأعجبته صورة حمار فساوم المصور عليها فأغلى ثمنها ، فقال له الرجل : اشتري بهذا المبلـغ عشرة حمير ، فأجابه المصور : الحمير كثيرة ورخيصة .

اجل ان الفن الرفيع عزيز ندر ، فلعـل لهذا العصر من وده نصيباً فنضمّ الى متحفنا الفني طرفاً جديدة . أما اكثر ما نقرأ ونسمع من الشعر فالنثر الحي خير منه .

قالت الشاعرة الافرنسية مدام دي نواي :

« متى انحدرت الشهوة المتقدة الى اعماق القلب يَتـَـولّد المقطع الجميل ، ويسري الدم في العروق ، وتسير الكلمات مشتبكة متساندة هاتفـــة ، كأنها ذوات أفواه متفجرة كالينبوع المتدفق ... » .

فهلا نتعلم منها ولا نفجر قوافينا كما فجرها بشارة (العربي القحاح) نبعة نبعة ، رغم أنف بشار ، ولا نقول قصيدة كالتي أنشدها العقـاد بعد انقلاب أرقص الناس « بأدنى الثغر او اقصى الصعيد » .

يرحم الله شوقياً وحافظاً فكانا إذا أنشدا أطربا . إن لهما من مقلدات الشعر ما نذكرهمـا به في مثل ساعة الوفديين ، وقد انقشعت عن مصر العزيزة ظلمات الارهاب والارهاق .

كم وددتُ أن أرى طه حسين ساعة كان يلقي « اميره المفن » قصيدته في الانقلاب الخطير لأقول له : « دائماً الفرح عندكم يا دكتور . ولكن حدثاً كهذا يجعل عالي مصر سافلها ، ويعيدك الى منصب لا تصلح إلا له . لا يلذ لنا ، نحن العرب ، حدثٌ بلا شاعر ، ففتش في قابل عن غير صاحبك هذا » .

وبعد فلله درّ ظرفاء مصر الذين ردوا على إمـــارة العقاد الشعرية فأمّروا « البرنسا » على الشعراء في حفلة احيوها لهذه الغاية .

٢ — ١٩٣٥

الزّهاوي ، بشاره الخوري
شبلي الملاّط

أنا إن رثيتُكَ لا أقلِّـــدُ أو أبالغُ في النحيبِ
لا البدرُ هاوٍ من ذرا هُ ولا الطبيعةُ في شحوبِ
لكنّ لحنـــاً للمكا رمِ نامَ في الوترِ الطروبِ
يتألمونَ لـــه إذا افتقدوكَ في اليومِ العصيبِ
هي دمعةٌ جمدتْ على شفةِ المرتّلِ والخطيبِ

نقولا فياض

واعجباً لهذا القمر ، فكم مرةٍ ينشقُّ ويهوي ، وللشمس كيف يحترق قلبهـــا حزناً وتكفّـن وتدفن ، ولا يتألم لهذا الخطب الجسيم غير الذين يقولون الشعر ، عربي اللسان – فكل فقيد عندهم قمر يجلو الدجى ، ولو كان عبداً ككافور ، وكل ميت نجم يأتم الهداة به ، ولو كان أبشع من بشار ، وكل هدرة سيف تقطع رقاب الدواهي وشمس تضيء .

وكأني بالدكتور فياض ، الخطيب الشاعر ، أحسّ بصيبة الأدب العربي ، وأدرك أن هذا الضرب من الشعر صار اكره من طعام لا تقبله النفس ، وأشأم من أحلت أملط يصبحك فجر الاثنين ، فقـــال للناس في رثائه للمرحوم الدكتور الصليبي :

أنا إنْ رثيتُكَ لا أقلِّدُ أو أبالـــغُ في النحيبِ
لا البدرُ هاوٍ من ذراهُ ولا الطبيعةُ في شحوبِ

حلوٌ هذا القولُ من شاعر وخطيب تعرفه المنابر ، فانفعْ به ، اللهم ، أبطالَ معارك الرثاء والمديح ، فيتعظوا ويقلعوا عن تلك الصور السمجة ، والتعابير التي ينظمونها كما يصفّ الصبيان الكعاب . ان لحن المـكارم الذي نام في الوتر الطروب ، والدمعة التي جمدت على شفة المرتل والخطيب ، تساوي ألف شمس تكسف ، ومليون قمر يخسف ، ومليـــار سيف يسقط بعد طول الضراب ، وغيرها من معجزات النوّاحين التي تُضحك الأم فوق نعش وحيدها .

ظن بعضهم اننا نتشفّى بهذه الكلمات التي تذيعها « صوت الاحرار » وخالوا اننا نحاول الحطّ من قدر النوابغ والعبقريين حتى استجهلونا وعدّوا ما نكتبه تحاملاً على امراء الأدب ، وتهجماً على الشعراء العظام. الله، الله ! كيف يفوت هؤلاء الأذكياء النبهاء ان الادب لا يصلح إلا بنقد لا هوادة فيه ؟ فعلى المريض ان يقبل العلاج المرّ ، وان يصبر على مبضع يشرط جلده ليستأصل الدمّلة قبل ان تستشري ، وتمسي آكلة تسرح وترعى .

ان رسائل السبّ التي يشرفوننا بها ويفكهوننا بتلاوتها كثيرة جداً ، وخصوصاً في هذه الايام ، فالحديدة حامية . أما مـا انطوت عليه تلك الرسائل فكلها بصّرتني تورية عبقرية ... ناس يحبوني وناس يسبوني... واني ، علم الله ، لأقرأ السبّ كأنه الثنـــاء ، فلا هذا يغضبني ولا ذاك يثنيني ،

ما دمت لا ارى إلا كما قال ابو الطيب : وذكر « شعر » ومحصولي على كلم.

ليطمئن أصحاب تلك الرسائل فما ضاع ثمن طابع البريد ... فسنعلن رسائلهم العاطرة بكل مـــا فيها من مسك ينم عن اخلاقهم الذكية ، وسوف نتمتع جهاراً بتلك الالقاب السابغة : كصاحب الاذن الطويلة ، والذنب الأعقف ، وهلم جرا ...

* * *

ان محصول شباط كان هواء وعواصف هوجاء ، فلا بد من عودة الى كانون . كان من مواد هذا الفصل قصيدة « سليل القرد » للزهاوي ، رحمه الله ، فطواه الموت مأسوفاً عليه ، وطوينا نحن كلمتنا في قصيدته هذه،رجاء ان نقول فيه يوماً كلمة أعم وأوفى . فتفكير الزهاوي يستحق الدرس. وهو شاعر — على قلة حظه من النظم — سار الى غاية ، وشمّر لغرض .

مات كبلنغ شاعر الامبراطورية الانكليزية منذ أسابيع فقالت الصحف الكبرى الاوروبية : انكلترا بين حدادين ، فاستوى عندهـــا الشاعر والامبراطور العظيم . أفلا يعذرنا اللائمون اذا نشدنا شاعراً كنصف كبلنغ ؟ ولماذا لا يكون لنـــا هذا الشاعر ، لو قلع شعراؤنا طيلسان ابن حرب ، وخلعوا مداس ابي القاسم الطنبوري ، ناظرين الى ما قدامهم لا الى ما خلفهم ، وعافوا مستنقعاتهم فـلا ينقنّون بلا شيء كشيوخ محارب . . . ولكن من أين يأتيهم الإبداع وهم لا يعرفون ، بل لا يقلدون إلا أبا الطيب ، وأبا تمام ، والبحتري ، وأبا نواس ، ويشنون الغارة حتى على شوقي ؟

كيف يكون لنا شعراء كبار حقـــاً ، في عصر ثائر على كل شيء ، وشعراؤنا يحومون كالرخم في جو ضيّق ، بأجنحة قصيرة القوادم ، ممعوطة الخوافي ، كالدجاجة في كانون ؟ بل كيف يُخلق منهم الشاعر المنشود ومثلهم الأعلى إرضاء العوام ، لا الشعور والفن ؟

ان هؤلاء الشعراء ، شعراء الظل ، كمن يأكل ثروته في حياته ، ولا يبقي لذريته شيئاً . فلن يكون حظهم من ملكوت الأدب اكثر من غني المسيح الذي قال له الانجيـل : تذكر يا هذا ، انك أكلت خيراتك في حياتك ولعازار في بلاياه ...

كيف يخلق عندنا هذا الشاعر ولا تطوُّر في تفكيرنا وتعبيرنا وصورنا ومقاييسنا – نمسح بالخطوة والقصبة ، ونكيل بالصـاع والاردب ، ونقيس بالشبر والبـاع والقامة ، فقليل من الهم يكشف لنا خبايا هذا الشعر ، لأننا نقرأه منذ اجيال . معانٍ مبتذلة ، وصور مضحكة مبكية ، وفخر صفيق . فلو أهدى الينا هؤلاء الشعراء ، كما قال رمي غورمون في بعض شعراء جيله : « سلاّت حافلة بأزهار طريفة معقمة بطفيليات كبرياء فارغة » ، لهان علينا الأمر ، ولكننا لا نظفر إلا بالشوك من هذا العلّيق ...

قلنا لا بد من رجعة الى كانون ، فما نظمه الشاعران شبلي ملاط وبشارة الخوري اذيـع فيه ، ما خلا ابياتاً شباطية لبشارة ستقرأها . أما الآن فسنعالج قصيدته في الزعيم الكبير ابراهيم هنانو .

جعل الاستاذ بشارة الزعيم المندوب سيفاً يسقط بعد طول الضراب ، وابراهيم هنانو سيف اي سيف ، ولكن شاعرنا اغرب جـداً فيما بعد . فأقام لهذا السيف الكريم مأتماً في الخدود للأدمع الحمراء ، وجعلها كبقايا جيش كسيح من الشهب ترامى الشهاب إثر الشهاب ... من منا يستغرب تشبيه الدموع بالنيازك ؟ فالدموع عندما تتدحرج وتتدهور في الخدود تمثل أصدق صورة للنيازك الهاوية ! وهل في وسعنا غير الايمان بما يقول بشارة ؟ فإن لم نؤمن كفرنا بلاهوته ، وكانت خطيئتنا عظيمة لا يحلهـا إلا رئيس أساقفة بعد التوبة النصوح والندامة الكاملة ، ووفاء القانون .. وابدع من هذا ما يقوله الشاعر في هذا الجيش الكسيح ، اي المكسوح لا المقعد :

يتعثّرنَ تارة بالذي جف وحيناً يطفون طفو الحباب

أيجوز لمثلي يا ترى ان يسأل : كيف تتعثر الدموع بالذي جف ؟

لقد أدركت ذلك ، فليسمح لي الاستاذ ان اشرح لقرائه آيتـه هذه فهي اعظم من آية يونان ... ان الدموع كماء البحر في الملوحة ، ومـاء البحر كما تعلمون ، ايها القراء الألباء ، يصير ملحـاً متى تبخـّر ، وهكذا رأى الشاعر الدموع تتعثر في خدود الناس بالدموع التي تجمّدت وتبلورت ، وسدّت على اخواتهـا الطريق فيطفون طفو الحباب ... ألم ترَ في زمانك الى « سكر » مطحنـة ؟.. اني اخشى ان تدري الحكومة بهذه الملاحات الجديدة فتحجزها ...

ثم ينتقل بشارة الى الاستفهام الذي ذاب به غراماً ، منذ رثاء زغلول الى اليوم ، حينما سأل الناس اذا كان زلزل الهرم ، وإلى المبالغـة التي عشقها ، منذ سقوط عبد الحميد حتى الساعة ، فأوصى قلل الشرق بقوله : « حاذري ان تميدي ... » اما اليوم فتساءل بشارة إذا كان مأتم الزعيم هنانو طغيان بحر فقال :

أطغى البحر ذو العباب على العُرب فلفّ القصور بالاطناب

لينعم بالأ شكسبير . فلئن أرسى المراكب في حلب فأضحك الناس ، فهذا طوفان جديد قـال له الشاعر كن فكان ، فخلق بحراً ذا عباب يغطي عورة شاعر الانكليز الأعظم ، فلا يصيبه مـا اصاب نوح ، بعد طوفان التوراة .

وانتقل الشاعر الى الاستفهام عن مشهد أغرب فقال :

أمْ هو الحشرُ يومَ زلزلَتِ الأرض على صوتِ بَرْقِهـا الصَخّاب

لا تتعجب ايهـا القارىء من قوله : يوم زلزلت الارض ، فهو يحدثك عن الدهر العتيد ، ولكنه جاء بالماضي على حد آية القرآن الكريم : لو ترى إذ وقفوا على النار . وان تقل : ليس العهد بالبرق يصخب ، قلنا والقافيةَ

يا لبيب ؟ . ثم مـــا يدريك ؟ فقد يكون برقاً جديداً ، فكل القصيدة عجائب ، وقد يكون برق الارض غير برق السماء !

وخاف علينا الشاعر من الموت رعبـــاً ، فأخذ يهدىء روعنا ويؤكد لنا ، بأعظم الايمان وأغلظها ، ان القيامة لم تقم ، ولكنه مأتم ابراهيم ، فاسمع ما يقول :

لا وَربّي بَلْ ذاكَ مصرعُ ابراهيمَ هَـــزَّ السماءَ بالأربـــابِ

ثخينة يا استاذ ، فلا موت المسيح ، ولا موت محمد أحدث شيئاً من هذا ! أحشفاً وسوء كيلة ؟

كنت استغنيت عن هذا القسم العظيم ، فنحن نصدقك بلا حلف ، ومن من الناس لا يصدق هذا ؟ فالارض تدور وتهتز ، وقد تكون جنة الخلد كذلك فمن يعلم ؟ ولكن ألا تخاف على شوقي الذي جعلتـه فوق سدرة المنتهى أن يمسه سوء في هذه الدربكة ؟

وانقض الشاعر ثانية على الاستفهام انقضاض الصقر على فريسته . اني اترك لك وصف استفهامه هذا ، قال :

سألوا : من قضى ؟ فقلنا : حسامٌ عربيُّ الأفعـــال والأنسابِ

أي سألوا : من مات اليوم ؟ فقلنا : حسام ، أي السيف الذي سقط بعد طول الضراب ، وسبحان الباقي ! أما ما قاله بعد :

بل لواءٌ من الكرامةِ في الذروةِ إرثُ الأحقابِ للأحقـابِ
وكتابٌ من السماحةِ والأخلاقِ صلـّتْ عليـهِ أمّ الكتابِ

إن ابراهيم لحقيق بهذا الوصف . فقد كان يرحمه الله ، لواء كرامة في أعلى ذروة ، وكتاب سماحة وأخلاق ، ولكن « صلـّتْ عليه أم الكتاب » قلقة باردة ، بل ليست من الشعر ، فما جرّ شاعرنا اليها إلا قوله في اول

البيت » وكتاب » فتذكر أم الكتاب بمناسبة الدفن .

ويكرُّ الشاعر على الاستفهام كرّةً ثالثة ، نجانا الله من الرابعة ، فيسأل سؤالاً لا أدري ماذا اقول فيه ، فيقول :

سألَ السيلُ نفسَهُ ما سيولٌ   من أناسٍ سدّتْ عليَّ شعابي

كأنه بإكثاره من « السين » في هذا البيت ، يريد ان يسمعنا موسيقى المطر ، لأن دفن الفقيد كان في يوم ماطر . أما كم مرة يستفهم الناس ، فذلك ما يعرفه الشاعر الملهم وحده . ثم يغرب في التصور وهو يظن انه يبدع صوراً ومشاهد لم يظفر بمثلها رافائيل ، فيقول في البيت الذي يلي :

أطرقوا واجمينَ في الحِلَلِ السودِ .   كأطيافِ جِنّةٍ في ثيابِ

إنه لمشهد غريب رؤية أطياف من الجن بعد « صلت عليه أم الكتاب.. » وكم أضحكني قوله : « في ثياب » . توقعت حدثاً غريباً قبل ان يقولها ، وإذا الخطب هين ، والحمد لله . أذكرني هذا ما لاحظه بديع الزمان الهمذاني في المقامة العراقية على قول أحدهم :

عاتبتُها فبكتْ وقالتْ يا فتى   نجّاكَ ربُّ العرشِ مِن... عتَبي

ومثل هذا فعل بشارة ايضاً في قصيدته « الحلبية » الاخرى ، حين زوّج عظيم الجن بماردة مساء ، فما تكشف الصبح حتى وضعت « المحروس » ولم تطرق به كما عبر الرافعي ، ثم كان مؤتمر جني لينتقوا إسماً للطفل فمنهم من قال « صاعقة » ، ومنهم من قال « عاصف » ، وأخيراً اختال مدة مارد لسن، لا ادري إذا كان رقص الشرلستون او الدبكة ، ثم قال : سمّيتهُ المتنبي...

أفلا تراها اخت « اطياف جنة في ... ثياب » ؟ وهؤلاء الجن صاروا بعدئذٍ في المأتم كنشاوى مدهدهين الخ... ولا عجب في هذا ايضاً، فالجنّ، نجّانا الله منهم ، كانوا يظهرون لمار انطونيوس ، كما خبرنا السنكسار ، بألف شكل وشكل ، ولماذا لا يكونون في يد الشاعر كخاتم لبيك ؟

أما مقطع « أي أبا طارق » الخ، فشعر جيد لولا تكرار التشبيه بالسيف والمبالغة ، ولولا تفدية الشاعر الميت بأبيه ، فوالده ، رحمه الله ، مات منذ عشرين عاماً وأكثر ، وأنا حضرت دفنه .

وأرى بشارة تعرّف حديثاً بالجن والمردة والأطياف فأكثر منها هذا الاكثار المضحك ، ولكل جديد روعة ، إلا جديد بشارة لأنه عتيق جداً.

وشاء بشارة ان يخبر الناس ، في هذا المضيق ، عن تكريمه في حلب ، فعاد الى السيف والمارد ، ومارد بشارة تارة يسقط من السماء كالملائكة ، وطوراً يتزوج في الصحراء كما علمت . ثم انتقل الشاعر الى قلعة حلب فأبرزها لنا في مأتم ابراهيم كجنان أبي نواس ، ولكنها تلطم بالعناب لا الورد، اسمع:

لَطَمَتْ صدرَها له ُالقلعة ُ الثكلى فرقَّتْ لها عيونُ السّحابِ

وواساها بشارة ، جبر الله خاطره ، ونابت لديه عن حلب ، من باب تسمية الكل باسم البعض ، فخبرنا عن تكريمه وكيف كان الفخر ملءَ اهابه . رحم الله لافونتين .

وشمر الشاعر شاداً الرحال الى دمشق ، وبلا حيّا الله ، وسلم الله ، سأل اخت مروان مستفهماً منها ايضاً عن محفله في الأمس ، كما سأل شوقي عنه من قبل : أفي المصلّى ام المحراب مروان ؟

قضت القافية على شوقي فسأل عن مروان ، فأما ما قضى على بشارة فلا ادري. اظن ان بشارة يريد موكب مروان لا محفله ، وآية ذلك تسخيره الشمس لتعطي يمينها للركاب (كذا) . وبعد وصف أبهة مروان وعظمته البائدة عزّى دمشق قائلاً :

هما يومانِ يا دمشقُ فيومٌ لِزوالٍ وآخرٌ لإيابِ

فكسر البيت كما عدّى اعطى باللام ، وهذا لا نغتفره لشاعر يطمح الى الإمارة ، فالناس على دين ملوكهم .

وحام بشارة مرات حول كلمة شوقي الرائعة في الثورة الافرنسية، فعاد بالخفين المهودين . قال شوقي في دمشقيته :

دمُ الثوارِ تعرفُـــه فرنسا وتعلَمُ أنهُ عدلٌ وحقُّ
وللحريّـــةِ الحمراءِ بابٌ بكلّ يدٍ مضرّجةٍ يُدقُّ

أما بشارة فاسمع كيف قال :

وسلاحٌ من الحقوقِ المدمّاةِ نسيجُ القلوبِ والألبـاب
شهرتْ مثلَه فرنسا على الظلـ ـمِ فردتْهُ من دمٍ بخضابِ

فهذه « المدمّاة » ، و « ردته من دم بخضاب » ما مثلت لي إلا أنفـاً راعفاً ، ومنديلاً توسّخ ، فقط ، لا غير . ومن الحيف ، بل من الكفر بالفن ان نقابل هذا بذاك . ففي قول شوقي جمال ورواء ، وفي قول بشارة دمامة وقبح . هذا نظم منحطّ وذاك شعر سامٍ .

قال أناتول فرانس في سيلي بريدوم: « كان بريدوم شاعر الاناء المشعوث، فصار شاعر العدالة » . وبشارة كان شاعر قلبـه فصار شاعر السياسة ، وما دخلت السياسة شيء إلا وأفسدته . وقد اتخـذ بشارة هذه الكلمة المأثورة شعاراً « لبرقه » عندما كسدت سوق السياسة عنده... فطلقها وعافها، ولكن بشارة لا يتعظ ...

٣ — ١٩٣٦

٢

لماذا ارتجّت الأمم ، وهذت الشعوب بالباطل ؟ كما قال ابو سليمان في مزموره الثاني :

– ذلك لأننا دخلنا قدس الاقداس ، وخرجنا منه قائلين للناس: فارغ..

ذلك لأننا لسنا « تابوت » العهد اللبنـاني وهو لم يتعود إلا المباخر تتدلدل حوله وحواليه ، فيتنشق رائحة بخورها ولا يؤذيه دخانها .

عتب علينا صديق عزيز نحترم أدبه ونُجلّه، وأسف على جهد نبذله لنخلق اعداء لنا في كل بلد ينطق بالضاد ، وسيتعلم « الحرف الجاف » الذي خلقه مجدداً المجمع العلمي المصري .

هذا الصديق محب للسلامة كثيراً ، يريد ان ينجو بشارة حتى من الهمس. أما السلامة فنحن في حبها على دين الاستاذ الطغرائي ، وهل النقد شجار ونقار ؟ اننا نأسف ان يظل هذا الأدب لعبة يتلهّى بهـا من يفرقعون اصابعهم ويتوهمون انهم قذفوا قنابل تنسف الارض فتخرج أثقالها ، ثم يعجبون كيف لا تقول الناس : « ما لها ؟» .

خبرنا هنري دي رينه كيف استقبل ادباء القرن التاسع عشر النقادة فردينان برينتيير وخلعوا عليه الألقاب الشريفة ... ونظموا له في حياته ، ما زعموا انه سيكتب على قبره ، وإليك العبارة فاقرأها واعذر اصحابنا:

Avec son œuvre tout entière
Ci - gît Ferdinand Brunetière

وبعد : فبشارة يسمّي نفسه اليوم شاعر الأمة ، كما سماهـــا ، أمس ،

الاخطل الصغير ، ففي قصيدته لفخامة رئيس الجمهورية – اده – يقول :

عجباً لشاعرِ أمّةٍ حسناتُهُ   في جيدها ، ويُكافأ المتملّقُ
انا لا أمنّ ، رضيتُ أني طيرها الشادي وأني جفنُها المغرَوْرقُ

وهذا ايضاً من تركة المرحوم شوقي ، اما شوقي فبسط جناحيه على الشرق كله حين قال :

كان شعري الغناءفي فرح الشر   ق وكان العزاء في أحزانـه

اما بشارة فرجل قنعان ... اكتفى بقطعة كالتي تمنّاها المتنبي على كافور والتي وليها دعبل الخزاعي . بسط سلطانه علينا وقال انه لا يمن ونحن لا ندري بماذا ، أبالرثاء والمديح ؟ أهذا هو الشعر؟ ثم هبه رضي هو ، كما قال، فمن يكفل له رضا البنت ، وإقناع أمها وأبيها بهذا العريس ... أما مَنْ هذا المتملق الذي يكافأ ، فأظن القارىء يعلم أن الشاعرين شبلي وبشارة عوّدانا مثل هذا التعريض ، في كل مناسبة . فبشارة يقول لفخامة الرئيس : « ويكافأ المتملق » . وشبلي يؤلمه : « غمط الجميل ، والخيانة ، وطول المطهر » ، كما ستقرأ . اما الآن فاسمع حديث بشاره :

نفسُ الكريمِ علىالخصاصةِ والأذى   هي في الفضاءِ مع النسورِ تحلّقُ
سيانِ عند اليأسِ موت عاجلٌ   او حرمةٌ تُرعى وعيش مُورِقُ

أما الخصاصة فكلٌ خبرها عند صديقنا الريحاني الذي قال له في حفلة جامعة عاليه الوطنية : انك صاحب بيت وبستان ، وصيت رنان ... لقد كان اولى بأخينـــا بشارة ان يكتمها – والرزق على الله – متمثلاً بقول الشاعر : « وإذا تصبْكَ خصاصةٌ فتجمّل » . وأما الاذى فكلنا نفدي الشاعر بآبائنا.. لا عاش من يرشقه بوردة .

وشاء بشارة في هـــذه القصيدة ان يجدّد في التعبير فجاءنا بلفظـة

« شروال » التي لا تشرى بفلس ، ويلفظها الشعر كما تقيء المعدة ما يشوّشها. ولا بدع في محاولته هذه ، اما اراد ان يطول نَفَسه في القصيدتين السابقتين فتضعضع ولم يتماسك كالبحتري حين زعزعه الدهر ، وبرزت الكثيرات من قوافيه ساهمة كاشرة كالفرس في آخر الشوط !

وبشارة يحوم حديثاً حول المسيح ، ولماذا لا ؟ اما فعل هذا شوقي من قبل حتى شرد يسوع وراء دجلة ..؟ ففي « الحلبية » شبه بشارة بالمسيح ، فأخطأ لغة بقوله « تغالو » ولحن في « لا شَدواً ولا زغباً » . ثم عاد فرأى المسيح في شخص فخامة الرئيس — اده — حيث قال خاتماً هذه المنظومة :

فابسُطْ يمينَكَ كالمسيح فربما بُعثَ الدفينُ وعادَ حياً يُرزَقُ

اما الاصلاح فمرجوّ من الرئيس وأمين السر اللذين مدحهما بشارة ، فكلاهما كفؤ لاكبر من منصبه ، وآثارهما تشهد لهما ، وما ننقد نحن إلا هذا النظم ..

وبعد ايام ظهر المسيح ثالث مرة — فتراءى لبشارة افندي طبعاً — متحداً بلاهوته وناسوته ، في شخص الصديق الدكتور فغالي . ليس في هذا غرابة ، فالمسيح ظهر للرسل الاطهار مرات ، والتعليم المسيحي يعلمنا انه موجود في كل مكان . اسمع هذه القصيدة العصماء ولا تعجب إن سمّيتها قصيدة ، فكل سبعة ابيات قصيدة ، وهذه ثمانية :

يداك ام يدا المَلَكْ حيّرتَ من تأمّلَكْ
يامخرج الروحِ من الروحِ ولولاكَ هلَكْ

وهل وقت التوليد ساعة تأمل ، وصلاة عقلية يا اخي ؟! لقد كانت تلك الاعرابية خطيبة امرىء القيس ابلغ واشعر منك حين قالت لسائلها عن امها : « ذهبت تشق النفس نفسين» (راجع شعراء النصرانية) .

لم يظهر المسيح بعد، بل بشّر به « الملاك » في مطلع القصيدة ، فتهيأ للأمر ايها القارىء لتشهد الآية :

كأنمــا الله الى الناس مسيحاً أرسلكْ
يا عجباً من ساحرٍ فجّر نوراً من حَلَكْ

كان ملاكاً ، ثم تجسّد وتأنس مسيحاً ، ثم مسخ ساحراً عجيباً ــ أفلا تراها اخت اطياف جنة في ثياب ... بعد ما صلت على المرحوم ابراهيم ام الكتاب ؟ فحذار يا بشارة ان تجرب الرب إلهك فيما بعد ..

أناملي العشر وإن قلّتْ تفدّي أنملكْ

لقد فدّى هذه المرة بما علك ، سلمت يداه للبحث والتنقيب والكتابة ، فالأمة في حاجة الى شاعرها وطيرها الشادي، الباكي ، المولع بالتفدية كالعجائز:

يا واحدَ التوليدِ ما خابَ جنينٌ املكْ

وماذا تراه يؤمل الجنين ؟ ان باب المجــاز واسع فليعبر هذا البيت بسلام لئلا نتهم بالتعنُّت ، ولندع ابا نواس يستعدي الادباء المنصفين على بشارة . فكأن بشارة قرأ حديثاً تلبيات ابي نواس فنسج على منوالها واليك الخبر :

حج ابو نواس حين حجت جنان ، وقال شعراً في التقائها عند الحجر الاسود ، ولما احرم النواسي لبى شعراً ، وهذه ابياته نقلاً عن الاغاني ، فقابلها بشعر بشارة ثم قل في ذلك ما تشاء . قد حكّمتك ولا أخشى ان تكون كأبي موسى :

إلهنــا مــا أعدلك مليك كلّ من مَلَكْ
لبيك قد لبّيتُ لكْ لبيك إن الحمدَ لك
ما خاب عبدٌ أمَّلك أنت لهُ حيثُ سلك

لولاك يا رب هلك	كلُّ نبيٍّ وملك
وكل من اهل لكْ	سبَّح او لبَّى فلكْ

بيد ان أبا نواس قال: ما خاب عبد أملك، كما قرأت. واخيراً أسفَّ الشاعر بشارة حتى هذى فقال:

لولاك ما كان نجا	ولا زقا ولا دلكْ

ونسي، على قرب المسافة، انه قال لنا فوق: ولولاك هلك. ثم يختم هذه التهليلة الرائعة بقوله:

إن نقتَسِمْه بيننا	فالجسمُ لي والروحُ لكْ

لا اعتراض على هذه القسمة فقد يكون رضي بها الدكتور فغالي، إنما لي ملاحظة أخرى على هذه الأبيات «الأبيات» هداني اليها علم فرويد. ولماذا لا ندعي علم النفس والعقل الباطن؟ فكل الناس يدعونه. إن العقل الباطن عمل عمله الخطير هنا فنظم بشارة ابياته هذه، دون ان يشعر، على لحن: «المجد لك يا إلهنا المجد لك» التي تقال عند النصارى حين يكلل العرسان...

والآن وقد مات الزهاوي فجأة فلا بد ان يكون بشارة وغيره شرعوا في النظم. ليت الرجل مرض وترك مجالاً لحليم دموس ليقولها يوم نعيه. البكاء على رأس الميت حلو، ولكن موته بغتة أراحه وأراحنا من عذابين، اما نحن فإلى حين. فمن الرب نطلب ان يلهم «شعراء الظل» شيئاً، فنسمع شعراً لا نرى قلع اضراسنا كلها في ساعة واحدة أهون من سماعه، كما كتب إليَّ طالب الحقوق البيروتي الذي لم أفكَّ اسمه.

* * *

ومن محصول هذا الشهر ايضاً قصيدة الشاعر شبلي ملاط وهو الذي علَّم بشارة قول الشعر فخراً بنفسه، وإن أقلَّ شبلي منه اليوم فلابتذاله. اما بشارة فتفرد به حق صار شاعر نفسه قبل كل شيء.

وقصيدة الملاط ، وهي في فخامة الرئيس – اده – ايضاً بدأها بقوله :

بيني وبينك ذمةٌ لا تُخفَر   تتغيّر الدنيا ولا تتغيّرُ

فجاء عجز مطلعها على قياس : تتزعزع الدنيا ولا تتزعزع . ويمضي الاستاذ في قصيدته مبيناً تعلقه بفخامة الرئيس حتى يقول :

لا عاشَ من غمطَ الجميلَ ، وخان من   لولاه ليسَ له مقــامٌ يُذكرُ
لا يختفي مثلي ولو رفعوا الذي   دوني ولي بالأرزِ عهدٌ أشهر

الى ان يصرخ – بعد وصف ما لاقى من أهوال – كما صرخ سمعان الشيخ:

اطلق سراحي إن أردتَ وخلّني   فلقد سئمتُ وطالَ ذاك المطهرُ

المعضلة أعوص من المسألة الالمانية الافرنسية ، ساعد الله الرئيس المدبِّره الحازم على حلهــا ، فيجد منصباً يليق ببشارة فيملأ عينيه ، ويُذهب خصاصته ، فلا يقول لنا عجباً لشاعر أمة ... كما قال في حلبيته :

ويُمطرُ الضيمُ في أرضي وأشربُهُ   وكنتُ لا أرتضي أن أشربَ السُّحُبا

اما خير حل للقضية فهو إخراج شبلي من مطهره ليدخله بشارة التائق اليه .

ثم يقول شبلي شعراً في المركة الانتخابية فيعدد انصار الرئيس واحداً واحداً من نواب وصحف وزعماء ، فتأتي الاسماء بلقاء ، وبعضها نابيــة ، ناهيك بما يتعمّده من جناس وتورية ، فلولا الوزن والقافيــة خلت انك تقرأ نثراً حتى يقول :

وإذا نسيتُ فلستُ أنسى « روكسا »   انّ ابن صنّينَ الأشمّ غضنفرُ

يذكرني هذا النسيان بالنسوان اللواتي يزغردن في ايام الفرح ويغنين لهذا وذاك حتى اذا نسين واحداً ، وإن غائباً ، اعتذرن اليــه بقولهن : « آووها ، لا تقول يا فلان اني نسيتك . انت الياسمين وأنا خبيتك الخ » . إنَّ « خبيتك » تحتاج الى شرح أي خبأتك ... وهكذا فعل بشاره ايضاً في

حفلة نقيب الصحافة الجليل خليل كسيب، لفخامة الرئيس. راجع صوت الاحرار ٣٠ ك ٢ ، ترَ انه نسي ، ثم أوحى اليه بذلك شعر صلاح اللبابيدي فاعتذر.

وبعد ذكر الأنصار اجمعين يفقّط لنا استاذنا الملاط حساب المسلمين الذين انتخبوا الرئيس فحصل « اليكون » سبعة. وكأنه شاء ألا تفوته عبارة « عدا السهو والغلط » التي لا بد منها لكشف التاجر فقال: « وربة ثامن يتستر ». خير لك ولي ان تسمع البيتين بنصهما وفصهما:

زعموا بأن المسلمينَ تنكّبوا عمّن تؤيدُه البلادُ وتؤثرُ
فاذا الألى قد بايعوهُ سبعةٌ منهم ، وربّة ثامن يتسترُ

ويمضي شاعر الأرز متدفقاً كنبع قاديشا فيصف لناهدوء الانتخاب قائلاً:

وجرى انتخابٌ هادىءٌ مترصّنٌ حرٌ عليه من المهابةِ مَظهَرُ
في دورتيه كان « ادةُ » ظافراً والله يُسْعِدُ من يشاءُ وينصر

حلو هذا التسليم الرباني. ثم يصف الشاعر اصوات المدافع وحرس الرئاسة خلف الرئيس وأمامه وحواليه ، ويدقق حتى لا ينسى التصفيق المالىء الفضاء ، واستبشار الخلق ، وخصوصاً معلمنا شبلي الذي غلب السرور عليه حتى أبكاه ، فقال:

وترقرقتْ عيني وقلتُ لصاحبي يا ليتَ نعومَ المكرزل ينظرُ

وقد عجبت لهذا الصاحب من أين نبت بغتة ؟ وأين كان مخبّأ ؟ ولكن الوزن في شعرنا يخلق لشعرائنا ما لا يعلمون...

أما « يا ليت نعوم المكرزل ينظر » فاخت الحكي البليد ، واذا قلت: الزجل خير منها ، ظلمت الزجل وحقّ ربي. اما استاذي فرآها آية حتى جعلها عنوان قصيدته... وشاء الشاعر ان يبين جدارة الاستاذ اده بهذا المنصب السامي فقال:

أميلُ قد عدلَ الزمانُ فأنتَ مِن ... كلّ الجوانبِ بالرئاسة أجـــدرُ
علــماً ومقدرة ومنزلة فـــما ... احد عليـك بأي شيء يفخر

ان جدارة الرئيس ، رجل الساعة ، لا قول فيها ، وقد اقرت له بها امهات الصحف الاوروبية . وأما « من كل الجوانب » و « فما احد عليك بأي شيء يفخر » ، فهذه بنت عم « على الاطلاق » في قول بشارة في المتنبي:

رب القوافي« على الاطلاق »شاعرهم ... الخلد والمجد في آفاقه اصطحبا

واخت « شروال » في قوله لفخامة الرئيس عن الدكتور ايوب :

«شروال» او هو منكما اقترح الهدى ... صدر بكل يتيمة يتـــدفق

ان هذه الهنات كثيرة في قصيدة الشاعر شبلي الملاط ، فيخيل إليّ انه نظمها ساعة نخوة ، فوثق بكل كلمة قالها حتى « الأبتر » ومعناها المقطوع الذنب ، وليست صفة للسيف ، « وليتك مقمر » وهي كنـــاية مشهورة عن الشيب ...

أكاد أجزم أن الملاط لم ينقّح بيتاً من قصيدته هذه ، ولا شطب فوق شعر استقام وزنه . فهو في نظمه ، وخصوصاً في هـــذه الآونة ، يستسلم لسجيته السخية حتى تكاد ترى بطانتها وظهارتها . وهذا من عيوب استاذنا، فلو تأنّى لأجاد وقال شعراً يحيـا ، ولكنه يرحّب بأول قادم . ومن يقرأه في هذه الايام يشايعني على ما اخذته به .

اما بشارة فيخالفه في هذا ، فإنه كثير التنوّق حتى التعمّل ، يتعنّى كثيراً فتتفكك منظوماته ، ويجتهد في عمله ليخرج لك صورة فلا يوفق كثيراً لضعف خياله . ولكنه إن اخطأ الإبداع فلا يفوتـه أن يزخرف ويموّه ويزبرج .

وبشارة يحاول ان يخلق لك اسطورة فتأتي بليدة لا تستفزك روعتها، بل تضحكك عقدتها حين يفكها بشارة وتنجلي عن لا شيء . كما فعل في

اسطورة ميلاد المتنبي التي أراه استلهمها من حلم والبة بن الحبـاب في غلامه الشاعر ابي نواس . وان تسنح لك فرصة ارغب اليك ان تقرأ رثاء بشارة لمحيي الدين الخياط (جواهر الأب ج ٥) فهناك ترى ايضاً شبه اسطورة ، ولكن درجة حرارتها ٥٠ تحت الصفر .

إن بشارة يجيد الغزل فقط ، وعلى النمط العتيق ، وبخاصة اذا حُرم . فعندما تغزل في صدر « الحلبية » أجاد التحرق ، وان حمل القرب على فمه لا على الجحش مثل الزير أبي ليلى المهلهل ... اسمع البيت :

ما للشفاه الكسالى لا تزودنا فقد حملنا على أفواهنا القربا

فهو يريد ان يكون أقوى من الجمال التي حملتها فوق ظهورها .

أما شبلي فيجيد الشعر القصصي حق الابداع ، وإن لم يوفق اليوم في قصيدة الرئيس فلأنه ألزم نفسه ما ليس يلزمها ، تعمد سرد ما كان في غنى عنه ، فأسماء العلم يابسة لا تلين مهما نقعتها في بحور الشعر . ولكن قصيدته ستبقى وثيقة تاريخية كيفما دارت بهـا الحال ، وقد تغنيه عن تدوين وقائع جلسة الانتخاب اذا حورها قليلاً ...

وقصارى الكلام ان الشاعرين لم يقولا شعراً في هذه الاعوام الاخيرة ، بل هما يكرران ما قالاه . فخير للقارىء ان يسمع شعرهمـا ، في الرثاء والمديح والسياسة ، ولا يحلله وينقده . ومن نقد قصيدة واحدة من شعرهما فكأنه نقد شعرهما كله . ولعلنا ننظر قريباً في غير هذه الناحية من شعرهما ، وهي خير وأبقى من هذه . اما الآن فما يتكردس أمامنا من الآثار الأدبية يدعونا الى الاحتفاء به والقيام بواجبه فنودعها آسفين ، فإلى حين ...

٣ — ١٩٣٦

شُعَراءُ الفرح وَالترح

١

مَعروف الرّصافي ، بشارة الخوري

* * *

ان شعر الفرح والترح ، كالرثاء والمديح والتهنئة ، ميراث أجيال بعيدة وتركة دهور مات عنها جدودنا الشعراء الدوّارون ، كالقرّادين اليوم . وكنا بارّين بهذه الثروة المباركة فأنميناها . إن مدحنا رجلاً أنشدناه شعراً ، وان قلنا لرجل : خلف الله عليك ، نظمناها شعراً ، وإن جلسنا الى مائدة ، دار الشعر في أشداقنا مع اللقمة ، وإن شربنا هزجنا وتغنينا نظماً ، فكأنما الشاعر عنانا بقوله :

ولا تشربْ بلا نغمٍ فإني رأيتُ الخيلَ تشربُ بالصفيرِ

لقد كان لكل أمة شعراء دوّارون ، ولكن الأدب عندهم نبذ منذ اجيال هذه الاغراض ، أما عندنا فكثير من الشعراء ينتظرون تلك الساعة

التي لا يعرفها احد ، كما انتظر احد الكهنة موت واحد ليقبض« المعلوم » ويدفع للسكّاف ثمن المداس ... اما « شعراء الظل » فينتظرون الموت لا لشيء ، فهم يعطوننا الشعر مجاناً كما أخذوه من الآلهة ، وسيان عندهم ساعة الفرح وساعة الحزن . فهم يلبسون لكل ساعة لبوسها إمـا نعيمها وإما بؤسها . اذا سألتهم دمعة برشموا وجوههم وذرفوها كأنهم فجعوا حقاً بأخ أو بابن عم ، وان تطلب ابتسامة تأخذها منهم عريضة ملء الفم فائضة عليه ، فشعارهم : افرحوا مع الفرحين وابكوا مع الباكين ، كما علـم مار بولس اخوته المؤمنين بالمسيح مصلوباً .

هذه أسباب انحطاط الشعر عندنا ، فالذين قالوه ، في كل عصر ، اكثر من النمل ولكنهم بادوا مثله وذهب ذكرهم مع الدويّ لتفاهة اغراضهم وابتذالها . قالوه كما يقوله اكثرنا اليوم ، غبّ الطلب ، فكأنما الشاعر هو الحاكي ، شُدّ جنزيرُه ، وضعِ الابرة والاسطوانة ، وركب البوق تسمع الصوت الذي تشتهي ...

قال زهير قصائد شتى في المديح ما حفظ منها الناس ، على صدقها ، إلا ما مس حياتهم فقط ، وقال الأخطل ، والفرزدق ، وجرير ، وأبو تمام ، والبحتري ، والمتنبي وغيرهم ، شعراً في المديح والرثاء نسيه الناس لم يعلق بأذهانهم منه غير شذرات فنية صبغها الشاعر بدم قلبـه ، فكانت قطعة ارجوانية لم يأخذ الدهر شيئاً من لونها . امـا نحن فما زلنا نقلد اولئك الشعراء متمسكين بأذنابهم ، سائرين خلفهم كالعميان . أمّتْ في نفوسنا هذه العاطفة ظروفٌ وأحوالٌ أماتتْ عزة النفس ، ثم كان للمدرسة اليد الطولى في إحيائها حقباً من الزمن . فقد كنا في المدرسة نعد الايام والجمع منتظرين عيد معلمنا لنهنئه بالشعر ونظهر براعتنـــا للمعلمين والتلاميذ ، فيجلس على كرسي متقنفشاً ، ويتبارى الصف في مدحه وتقريظه . وقد يكون الاستاذ فرنجيـاً ونسمعه شعراً عربياً فيبتسم متهللاً كالأطرش في

الزفّة عند ذكر اسمه الكريم . وقد يسمعونه شعراً سريانياً ايضاً كما فعل احد اصحابنا بأحد « الاخوة » في مدرسة ... قال له قصيدة سريانية أي عربية الألفاظ سريانية اللهجة فاستغلب الضحك على الناس عند سماعها، ولكن حبل الكذب قصير فما جازت الاضحوكة اياماً حتى حس بها « الفرير ميشال » وكان قصاص التلميذ الخفيف الروح ركوعاً في المائدة وأكل الخبز المقرمش اسابيع .

وقس علينا طلاب المعاهد الشرقية كلها وشعراء كل محيط ، فلا بد من تهنئة الأمير بالعيد ، وبالرجوع من السفر ، ولو كان يوم صيد ، ليقال له : على الطائر الميمون ، والعود أحمد ، وغير هاتين الكلمتين من الرواسم المعلومة ، ثم بسلامة قلبه اذا زكم ، فنقول له كالمتنبي الذي قال : « اذا اعتل سيف الدولة اعتلت الأرض » .

ثم لا بدّ ، إن زار الضيعة مدير الناحية او القائم مقام ، من تكليف طالب نظم قصيدة يقال له فيها : حجارة الضيعة رقصت فرحاً ، والشحرور غنّى ، والأغصان صفقت ، والعندليب صاح في الافنان ، وعظام الجدود تهللت في المقبرة بزيارة ابن البيت الكبير ، وقد يكون الكلب لا يعرف بابه ... وإن كان الزائر مطراناً فالأمر هيّن ، يقال له ، مثلاً : « مبارك الآتي باسم الرب » . وإن وافق ذلك اسمه فهناك البلاغة والتصفيق الحاد.. وان مات رجل عنده من الوجاهة عشر الخبز فلا بدّ من رثائه وإقامة وصيّ على البائسين والمساكين بعده ... واذا سيم شاب كاهناً فلا بد ان يهنأ ، وان يقال له : انت الصفا وعليك أبني بيعتي ، وما تربطه على الارض يكن مربوطاً في السماء ، وبالاختصار يسلمونه مفاتيح السماء ويستريحون .

واذا صار شيخ او إمام قاضياً او مفتياً فلا بد من القصائد ايضاً ، فتعطى القوس باريها ، ويهنئون المؤمنين باستقرار الحق في نصابه . واذا صار رجل عضو بلدية او مختاراً في ضيعة فيها احزاب فيفيض الشعر

احمر كنهر ابراهيم في الربيع . يهنىء بعضهم بعضاً بالفوز . ويعرضون بالخصوم بالشعر الحامي ... واخيراً هل يؤاخذني القارىء اذا خبرته ان احدهم هنأ بالشعر صاحباً لنا شفي من داء البواسير ؟..

اما عدة هذا الشعر وبردعته فأولها ان تكون القافية موفقة: اذا كان اسمه لوقا كانت القافية حريقـــاً وضيقاً وحندقوقاً ... واذا كان اسمه فنيانوس مثلاً ، حاولوا إدخال اسمه في الشعر وجعلوا القافية ملائمة اسم ضيعته أو مهنته ، أو عائلته أو مركوبه ، وما شاكل ذلك ولا ينصاعون!.. فاذا كان اسمه غير طيّـع نجروه ليدقّ ويدخل حيث يريدون . واذا كانت رتبته التي يهنأ بهـــا لا توافق الوزن الشعري حذفوا منهـا شيئاً غير خائفين بأساً . ولماذا الخوف؟ ألا يجوز للشاعر مـا لا يجوز لغيره ؟ كما فعل أحدهم حين قال منذ اشهر : ومن غدا كاردينالاً الخ . فكسر الشعر والتبس علينا الكردينال السامي الاحترام بالدواء المعدّ في الصيدليات للمصابين بالنقطة .

ان البند الاول من دستور شعر المناسبات كثرة الاعلام لتعلو الآهات والحسرات في المناحات ، والتصفيق الحادّ في مواقف الفرح .

اننا لا نلوم الشعراء وحدهم بل نلوم ايضاً من يقبلون على هذا الشعر الكذاب ويرغبون فيه . فالشعر عاطفة وفن ، واذا خـلا من هذين كان تمثالاً غير ناطق الملامح . فلو حضر شاعر حفلة صلاة « كبيرة » فهناك من يقول له ، بعد الصعود الى القلاّية : أسمعنا شيئاً في أبينا الخوري وقداسه الحلو . فيصفه من طربوشه الى « سكربينته » ... وقد يقول لـــه ، كما قـــال أحدهم لخوري صار كاهناً بالغلط ، ثم لا ادري كيف صار وكيلا للمطران :

وستلبس « الاسكيم » بعد هنيهة وتحمّر الازرار والزنارا

فمصيبة الشاعر انهم يطلبون منه الشعر في كل محضر وكل محفل ، والشعر لا يستجيب كلما دعي . الشاعر كالطائر يغني متى تحرك للغناء، وعبثاً تكلفه الامر اذا لم يندفع .

كان عندي كناري كنت اصفر له ليغني فيُكَركِر قليلاً ثم يقف ، وعبثاً كنت أهيّجه . أما متى طاب له الغناء فيغني ما شاء ، وقد يسكت اياماً حتى اظنه نسي التغريد ، او احسبه زكرياء بعد خروجه من الهيكل . ثم يعود فينطق ويفرفر في قفصه ، وهكذا الشعراء .
اما الشاعر الذي يغني للبشر متى أرادوا فاقلّ عقلاً من الطير .

* * *

أمامنا شاعران : واحد عراقي والآخر لبناني ، فاضت قريحتها حين مرّ الوفد العراقي بسورية وفلسطين ولبنان قاصداً مصر . اما الشاعر العراقي معروف الرصافي فترك في كل وليمة أثراً ، وفي كل حفلة ذكرى – راضياً او مكرهاً لا ادري – اما في بيروت فكانت الكلمة لزعيم شعراء الفرح والترح الاستاذ بشارة الخوري . قال قصيدة سينية من وزن :

أصبَحَ الملكُ ثابِتَ الأساسِ   بالبهاليلِ من بني العبَّاسِ

وراعى القافية كما يقتضي شعر المناسبات ، ان لم يكنْ في اسماء الاشخاص فعلى الأقل باسم الضيعة ... ولا سيا ان هذه القافية تستدعي ما قاله بشارة :

وفدَ هارونَ هذه رايةُ « الفَضلِ »   وهذا فخرُ القريضِ النوّاسي

أرأيت كيف يقال شعر المناسبات ؟ الوفد وفد هارون . بعد ألف سنة وأكثر ، رحمة الله على ترابه ، وليغضبْ دعبل الخزاعي ما شاء ،

فقد أمنّا شر لسانه الفالت . والقريض قريض النواسي شاعر بلاطه ، والفضل جعلت بين هلالين تنبيهاً الى التورية وغيرها ، والحاذق يفهم ، ثم جاء :

نَفَحَ الطيبُ طيبِ دجلة مَن فَوْدَيْكَ   في موكبٍ مـن الاعراسِ

هذا لغز ، ان هبوب الطيب من نهر دجلة اختراع جديد ، قد يكون تحول ذلك النهر الى « كولونيا » فصار في العراق نهر عطر وينابيع نفط . أما ذكر موكب الاعراس فلا بد منه تتمة لنفح الطيب وتصديقاً لقول المثل العربي : لا عطر بعد عروس ، ناهيك ان القافية سينية ، وأية كلمة احلى من الاعراس يسدّ بها الشاعر الفراغ ؟

كنت اتوقع ظهور جنان لأبي نواسنا في هذا العرس ، كما ظهرت لذاك في المأتم تلطم الورد بعناب . ثم قال الشاعر :

غَزْوَةٌ للقلوبِ قامَ بها الحبّ   فكان الآسيُ نفسَ المؤاسي

فجاء ذنب هذا البيت ، لتكرار السين ، كرأس نوع من السمك اسمه ابو منشار — انظر رسمه في المنجد — ثم قال الناظم :

صفّقَ الأرزُ للمبشّرِ بالوفدِ   وأهدَتْ تيجانَهنَّ الرّواسي

أليس من البلية ان يكون الشاعر لبنانياً ويقول : صفق الارز للمبشر بالوفد .. فكأن بشارة ما رأى الأرز في حياته . ان الارز لا يصفق يا أخي ! الأرز شيخٌ وقورٌ مترصّن ، ويده لا تطاوعه ، ولكنه إذ يرحب ، يمد يده احتفاء ، فاذا شئت ان تسخّره في قابل ، فهذا ما يقدر عليه . على الشاعر ان يكون ذا عينين على الأقل ! أما « اهدت تيجانهن الرواسي » ، فقد تكون صخور لبنان صالحة للتيجان ونحن لا

ندري ، أما اذا كان يعني الزهر فهذا اوانه .

ثم جاءنا ببرناس لأن القافية سينية ، ولو كانت رائية لحلت محلها عبقر دون شك ، وانتهى الى قوله :

عزّ بالصّيدِ من ذوائبِ فهرٍ وزَهَتْهُ الوفودُ من عباسِ

ان هـذا شرط اساسي في قصائد المناسبات . وكل سر « الصناعة » هنا . فالقصيدة من اولها الى آخرها مُسَخَّرة بل مؤسسة على هذه الكلمة « عباس » ، ففيها يرى شاعر المناسبات كل الروعة والفن ، وان جاءت عابسة بل كاشرة بليدة قلقة تصيح المدد .

ثم قال بشارة عن جبلنا العزيز ، وفي هذا دعوة وتشويق الى الاصطياف يستحق عليها بشارة مكافأة أخرى :

هو جينيف يعربٍ كلُّ ما فيه مؤاتٍ وكلُّ مـا فيه آسِ

أرأيت ما أحلى جينيف هنـا ؟ انها احلى من « شمس الشمّوسة ! » . أرأيت كيف يقـول الشعر شعراء المناسبات ، وكيف يلوي زعيمهم الاعلام لياً ويطويها طياً على هواه ؟ لم تخضع له سويسرة فاحتل بلحظة إحدى مدنها واستولى عليها ... ولا غرابة في الالتجـاء الى جنيف فهي اليوم مرجع جميـع الشعوب الضعيفة ، وللعراق كرسي فيها ، ولنـا عن قريب إن شاء الله فنريح الامم المظلومة من بلاياها واوجاعهـا وبخاصة « معذبتنا » القديمة الحبشة .

اما تكثير الاعلام فقد وفّاه شاعرنا بشارة حقه ، فذكر لنا في تسعة ابيات احد عشر علماً ، وهي : هارون ، الفضل ، النواسي. دجلة ، الارز ،

لبنان ، برتاس ، فهر ، عباس ، جنيف ، يعرب . اما كلمة الوفد فرددها مرات ليفهم الناس انه يحكي للوفد ...

ان هذه لا تستحق التفات ناقـــد ، ولكننا نريد ان نزف بشارة ، وهو الشاعر اذا لم يطمع ، عن هذا النظم البارد . فلعل في النقد بعض الفـائدة له فيقلع عن خطته هذه فلا يقول الشعر للرائح والجائي . ولا يدكدك الاوزان بهذه الالفاظ ويحسبها شعراً . اما نصيحتي له فهي ان لا يلبي الدعوة اذا لم يوفق الى قول شعر ، فالمعد التي كانت تقبل جرعات كبيرة من هذا الشعر اصبحت تقيء « المسهل » اذا لم يكن من نوع «الملبس» و « الليموناضة » ...

٢

وهذا معروف الرصافي شاعر العراق ، وأحـــد أعضاء وفده ، كان ينثر الشعر حيث يمر الوفد كأنما هو يبذر ترمساً وكرسنة . وقال أبياتاً كالشعر لا شك في انه نظمها مكرهاً وأنشدها مرغماً ، وإلا 'عدَّ عيّـاً أو غير مكترث ، فلفق ما لفق حتى استقام الوزن ، واصطفت القوافي ، وتزاحمت الرواسم ، وقـال الرصافي شعراً صفق له الحاضرون حين انتهى من انشاده ، وقرظته الصحف لأن قائله معروف . بيد انني احلف لك الف يمين ان شاعر « ام اليتيم » و « الطبيعة شعر » و « تربية البنات » و « قصة أبي دلامة » الطيبة ، كان غير راضٍ عن هذا الشعر الخفيف الذي عرضه في أسواقنا . فكل ما قاله معروف من البضاعة الرائجة وإن نقدناه فلكي يعدل هؤلاء الشعراء عن قول مثله .

اسمع ما قاله الرصافي بحيفـا في سفح جبل الكرمل ، حيث لا يزال

النبي الياس « حيناً » يسمع ، كما تؤكد لنا التوراة :

قفا صاحبيّ بهذا البلد   نحيّ رجال الهدى والرشد

خاطب الرصافي الناس بلغة الجمال كأنه في صحراء امرىء القيس لا في موطن « مار ياس » – بلهجة الجدعان – الذي طار منذ آلاف من السنين على مركبة نارية قبل ان يعرف الناس البنزين والمازوت . قال معروف : « قفا صاحبيّ » وأغلب الظن ان الوفد العراقي عشرات ، فلو قال قفوا لهان الخطب . أما شطره الثاني فليس فيه زيادة على قولهم : السلام على المؤمنين . لا شبيه لبيت معروف هذا إلا قول خليل مطران في ذكرى صديقه حافظ ابراهيم : « عظم الله فيك اجر الضاد » ، اي عظم الله اجركم!

أما البيتان الثاني والثالث فهما حشو بل تفسير للبيت الأول ، ما زاد فيهما معروف شيئاً على مـــا اعتاد الناس أن يقولوا : أي ان رجال حيفا اوادم جـداً – وهم كذلك – ولولا القافية والوزن والطمع بزيادة بيت لما قال :

بني كرامَ بيوتٍ لهـــا   بأرضِ العروبةِ أعلى عمدْ

وحيث لا بد من ذكر حيفا ، وفقاً لمراسم شعر المناسبات ، ليعرف الناس ان الأبيات في أجاويدها ، اضطر الشاعر أن يهدر كالحمام مرجعاً:

كرامٌ بحيفـا أُقيمتْ لهمْ   بروجٌ تطاولُ برجَ الأسدْ

كأنني بمعروف ينظر الى البيوت القائمة على ظهر الجبل ، كفندق هرسليا ، وغيره وما بناه الانكليز على جبل الكرمل ، فخطر على باله برج الأسد . وقد يكون قصد الشاعر ان يورّي بقوله برج الأسد عن الأسد البريطاني والله أعلم ... رحم الله من قال : المعنى بقلب الشاعر ، فكم نفضُ بها من مشاكل شعرية ... وشاءت القافية في بيت تالٍ ان يقول فقال :

فنخلدُ في الدهرِ شكراً لهمْ ونُثْني عليهم ثناءَ الأبدْ

إن معنى الصدر والعجز واحد أي الى أبد الآبدين ودهر الداهرين. وأي حرج على الشاعر؟ فالشكر لا يشبع منه!

ثم شاء الشاعر ان يقول حكمة كمألوف شعراء العرب، ويزود الناس نصيحة، فقالها على نسق قول الكهنة عندنا: «يا اخوتي المباركين، الحاضر منكم يخبر الغائب، نهار الثلثاء عيد مار يوسف، بطالة من جميع الاشغال العالمية». وإليك كلمته:

فيا سادة قد حللْنا بهم وفود العراق فيمن وفدْ
ألا أبلغوا الشعب ان العلى له في الحياةِ إذا ما اتحدْ

انها نصيحة تسوى جملاً ومن النوق العصافير... أما قوله: «وفود العراق فيمن وفد» فأشك في روايته هذه ولا أعلم صحيحها، فمثل هذا لا يقع من معروف، فهو لا يكسر البيت ولو كان يمرّ على الصراط.

أما في مصر فروت لنا جريدة البلاغ ما يأتي: «وبعد تناول الطعام – في حفلة عزام – أنشد شاعر العراق الكبير الاستاذ معروف الرصافي هذه الأبيات:

المجدُ والفضلُ منشورانِ في علمٍ على بيوتٍ بناها آل عزامِ
لما حللنا ضيوفاً في مرابعهم نلنا بها كل إعزازٍ وإكرام
فسوف نشكرهمْ شكراً نخطُّ به لمجدهمْ سفرَ إجلالٍ وإعظام

وقد صفق الحاضرون إعجاباً بهذه البديهة المؤاتية.

ولمن لا يصفق الحاضرون يا ترى؟ فأفٍّ لهذا التقريظ، بل لهذا

التصفيق الذي يغش الشاعر ويصفق الشعر . أقال معروف غير شعر هزيل مبتذل ، وإن كان موزوناً مقفى ؟

لقد صح بنا قول المثل العامي : كله عند العرب صابون . أما قوله : « فسوف نشكرهم الخ ... » فدلني على علمه كل العلم بأنه لم يقل شيئاً . لقد كان الأعشى أحكم من معروف حين قال لرسول الحلق : « قل له سيأتيك ثناؤنا » . أما كان أخلق بمعروف أن يطبق « سفر الاجلال والاعظام » ولا يفتتحه بهذه الأبيات المزّة ؟..

وفي حفلة الدكتور عفيفي باشا كانت جمهرة من الباشاوات ، وكلهم عظيم ، وأساتذة وشعراء ، منهم خليل ، إلا أنه لم يقل شيئاً بهذه المناسبة ، والعهد بالخليل غير بخيل . أما معروف فقال أبياتاً لا أشك في أنك حزرت أيها القارىء ان قافيتها ظاء ، كما يقتضي شعر الفرح والترح ، فاسم صاحب المأدبة حافظ ، فالقافية إذاً ظاء ، كما كانت زاياً في رثاء المرحوم الملك فيصل لأنه أبو غازي . أما أبياته هذه فسأسردها لك واحكم أنت بنفسك على شعر المناسبات :

لدى العفيفي حافظ   للمكرمات حافظ

الله يخزي الشيطان ، ما استطعت السكوت كما وعدتك . انه بيت موفّق جداً ، فيه الاسمان عفيف وحافظ ، وفيه الجناس المطرف ، المتوّج ، المذنّب ... سمّه ما شئت . اسمع الآن ما بقي من هذه اليتيمة :

لسانه وهو طلق   الدر في القول لافظ
وطرفه للمعالي   مدى الحياة ملاحظ
له شمائل غر   بها تزول الحفائظ
بها تنال المعالي   بها تطيب المواعظ

كأني بلافظ بن لاحظ صاحب امرىء القيس لم يكن حاضراً ... فهـذا النظم كجنين لم يكدْ يبصر النور حتى صرخ صرخة طارت معها روحه . لا شك أن آثار هذا الشعر البشع ستمحى من العقول بعد غسل الأيدي وتنظيفها من وسخ المائدة ... نجنا يا رب ، من هذا الأدب وهذا الشعر!

ثم مرّ الوفد ببيروت فقـــال بشارة منظومته الهارونية النواسية العباسية البرناسية — كما مرّ بك — وقال معروف ايضاً أبياتـــاً نفض طوقه على أثر إنشادهـا ، كما قرأت في الصحف ، ولكنه تمّم الواجب — كبّر الله واجبه .

أما درة بشارة فنشرتهـــا صحف كأخواتها السابقات ، وكما ستنشر وتقرظ اللاحقات ، وكما سننقدها نحن في محصول الشعر ، وهكذا حتى يفنى شعر الفرح والترح أو يستقيم لأشياخه القول فيه .

وبرح الوفد بيروت ماراً بدمشق في طريقه الى العراق ، فقال معروف قصيدة خيالية في تحية دمشق ، فقام يحدّث الناس برؤيا ، ولكنهـا نبثة فجة ، كان الرصافي فيها حالماً ومعبراً ، وهذا مطلعها :

عندي حديث عن دمشق فأنصتوا فلقد رأيتُ اليوم طيف خيالها

طبعاً أنصت الناس للشاعر الكبير ليقصّ عليهم ما رأى ، والأحلام لذيذة ، ولو تأنّى الشاعر لما جمع بين الطيف والخيال ، وفي جعبته ألفاظ كثيرة والنظم يؤاتيه ، وهو من شعراء القصص البارعين كالملاط عندنا . أما ماذا قصّ معروف اليوم وماذا رأى ، فإليك ما يقول :

شاهدتُها والغلُّ ناهزَ قرطَها والقيدُ مُنْعَطِفٌ على خلخالِها

ثم رأى معاوية قبالها وأبا عبيدة عن يمينها ، وخالداً عن شمالها — ان

خالداً غير محظوظ في دمشق حتى في القصص الخيالية ...

وسيوفهم بأكفهم مسلولة   والنار تلمع من شفار نصالها

رحم الله عنترة القائل : « هل غادر الشعراء من متردم » فما تراه يقول اليوم لو سمع معروفاً يسرق شطره ويعلق في ذنبه هذا الضمير ...؟

ثم رأى الحزن لوّح خدها - دمشق - وإذ لا بد للعربية من خال يتم به حسنها ، صاغه لها معروف من سواد لاح له كما تقرأ :

شاهدتها والحزن لوّح خدها   وحكى سواداً فوقه من خالها

ولم يرَ فقط بل سمع أيضاً أبا يزيد هاتفاً بمقالة دهش المدى بمآلها:

صبوا لظاكم في طريّ جمالها   اني افتديت جمالها بجلالها

ان صب اللظى في طريّ الجمال بدعة جديدة ، كنفح الطيب من دجلة ، أما كيف يبقى الجلال متى أكل اللظى الجمال فهذا ما يعرفه الشاعر الملهم ولا ندركه نحن . ثم رأى أبا يزيد ينتحي أرضاً بلقعاً بالفتاة التي ناهز الغل قرطها ، وانعطف القيد على خلخالها ، وهناك أخذ يخط بالسيف خيوط مثالها ، كما فعل أرخميدس من قبل :

وعلا به ضرباً على اغلالها   وعلى قيود الرجل من تمثالها
حتى لقد نهضت وفك اسارها   وانبتّ منقطعاً وثيق عقالها

أرأيت « قيود الرجل » و « حتى لقد نهضت » ما أبشعها ؟ ثم ألا تنبئك « وثيق عقالها » ان هم الشاعر سد الفراغ ليستقيم الوزن ؟ فبعدما صوّرها مغلولة مقيدة وقاسى أبو يزيد مع صاحبيه خالد وأبي عبيدة ما قاسوه من ضرب وطعن كانت النتيجة ان قال لنا الشاعر : وانبت منقطعاً وثيق عقالها ...

فالبت يا استاذ معروف ، وأنت سيد العارفين ، لا يكون في الحديد ،

وهل « منقطعاً » غير حشو ؟ ثم كيف يجوز في فنك أن تتحول تلك القيود والأغلال الى عقال يتجمع على حله ثلاثة رجال من أشهر أبطال التاريخ العربي : ابو زيد ، وأبو عبيدة ، وابن الوليد وسيوفهم بأكفهم مسلولة؟ أكل هذا ليحلوا عقالاً ؟ لقد ظلمتهم يا سيّد : ان العجلة من الشيطان ، والخلاصة ان قيودها انفكت :

فمشوا ثلاثتهم بها وسيوفهم ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ شُبّكنَ كالإكليل فوق قذالها

وأخيراً عبر معروف رؤياه هذه بدمشق تفوز باستقلالها ، وكفى الله المؤمنين القتال والوفد الجدال ، والكتلة النضال ...

ويلي ذلك بضعة أبيات وطنية عادية ووعظات زهيرية أوسية . وإذ لا بد من ذكر الزعيم العامل فخري البارودي صاحب الدعوة ، ختم معروف منظومته هذه بقوله :

اني لأشكر لابن باروديها ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ هماً بناء المجد من أفعالها
ازعيم كتلتها هنيئاً للعلى ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ في الدهر انك من بغاة وصالها

وقد سد الشاعر بالدهر ثلمات كثيرة ، فكأنه ملك يديه وطوع بنانه . وهو لو فكر قليلاً لسلم شعره من هذا الحشو الذي لا يبيض وجهه بعد جلال الشيب وتخطي العمر .

أراح الله الأدب العربي من شعر المناسبات ، كوليرا الشعر ، وطاعون الأدب ، أو فليمنّ علينا بدستور جديد ...

• — ١٩٣٦

محصول الشعر

الشعراء الكبار نادرون ، بل هم أندر جداً من العلماء الكبار.
(بلدوين)

١

وإن شئت فقل محصول شهرين ثلاثة ، منذ وفـاة جلالة فؤاد الأول ملك مصر حتى إفلات المتنبي من بلوى أنسته وحشته عنــد كافور . وكان أشد سهامها إيلاماً له قصيدة حليم دموس ، فصحّ فيه – بعد ألف عام – قوله : « وصرتُ اذا أصابتني سهامٌ ... »

قال أحـــد الكتاب الفرنسيين بمناسبة ذكرى الشعراء الرمزيين : « اوحد أمجاد الفن ان يحبنا أبناء من احتقرونا وازدرونا » . فمن مبلغٌ هذه الكلمة اخواننـــا الشعراء كيلا يَستَـنْـدُوا الأكف في المحاضر ، ويستعطوا الاستحسان في زوايا المقـاهي ، ويحكوا الجماهير في رقبتهم ؟ فقد أحسن الرصافي هذه المرة إذ عدّى عن الشعر وقـال نثراً في حفلة الشام ، فغلب المسك على ريح « البصل » .

أنا لم اقرأ كلمته ولكنها بلا شك خير من ألفية لا إبداع فيهـا ولا تجديد . فليس الشعر أن نعود القهقرى ، بل أن نثب الى الأمام لنضرب الأرقام القياسية للأجيـــال الآتية . ليس الشعر أن نحملق في الارض

مفتشين على السنابل ساقطة لنلتقطها بأصابع رخوة وجبين مغبر؛ بل أن ننظر الى السهل المنبطح أمامنا فنبذر فيه حبوباً سليمة بكف كأن كل اصبع منها سهم يبلغ أبعد مدى، ثم نشق الارض بمحراث تدفعه ذراع قوية كذراع الرب ... تحلم بالشتاء والربيع وترجى حلول الصيف للوقوف على البيدر بجبهة عالية، كما يرجو المؤمن ساعة الدينونة ليلقى وجه ربه.

فقبل الخوض في موضوعنا الصاخب لا بد من ترصيد الحساب بيننا وبين بعض قرائنا.

وصلني مكتوب عن طريق «صوت الأحرار» عليه طابع بريد بروكلن، توقيعه «عابرة سبيل»، وتاريخه ٤ حزيران. ان تاء التأنيث المربوطة لم تخف عليّ ذكورة الكاتب، ولكنني سأخاطبه، تيمناً وتبركاً، كأنه أنثى، وإن خُدعت فلي مثل في التوراة، ذلك الأب القديم ابن جدنا ابراهيم الذي افتداه الرب بكبش. ألم يقل: الصوت صوت يعقوب، واللمس لمس عيسو، حين بارك يعقوب مشتري بكورة أخيه بطبخة عدس؟ فلتحيَ «المجدرة» التي أبقت لفلسطين نسل يعقوب المبارك!..

قالت لي هذه السيدة، أو الآنسة، بل العفريتة، في كتابها: «بما أن الوقت وقت مطالبات كما تصرّحون، فلا أعلم لماذا لم تنشر «صوت الأحرار» خطبة عكاظ الحكة، لأن من يقرأ مداعبتكم للشيخ يكون كالأطرش بالزفة وأكثر» — ومع ذلك زغردت لنا من بعيد، سلم فمك — فهل «صوت الأحرار إخبارية يا ترى»؟.

أنا يا مولاتي لم أنشر خطابي، الذنب ذنبي فلا تلومي غيري، وأنا لا ألوم غيرك، فقد جعلتني في حديثي معك كمن يلحس الفرن ... والبقية عندك، لأنكِ لبنانية تفهمين كلامنا وأمثالنا، والدليل قولك لي:

« وأخيراً ، لا بد من يعطيكم العافية ، والتحية القروية لدفاعكم الحارّ عن حشو أدبنا العربي بالتبن بدل الزبيب الدربلي ، كما قلتم مرة ، فالشعر ابن الإلهام لا عبد المقام ، هذا اذا وثقنا برأي قادة الشعر في العالم ... الى الآن لم ينظم جون مايسفيلد ، شاعر الدولة في انكلترا ، قصيدة رثاء للملك السابق ، ولا قصيدة مدح أو تهنئة للملك الجديد ، لأنه مـا لم توحِ له الآلهة ذلك لا يفعل » .

اسمعي يا عزيزتي جوابي عن هذا : قد تكون آلهة مايسفيلد شاعر دولة انكلترا آلهة انكليزية باردة لا طائرة مطوقة حنون كآلهة المتنبي التي تخيلها شاعرنا ... وبعد تناولي رسالتك ، عفواً ، بعد أن شرفني كتابك العزيز ، جاءتني الى « صوت الأحرار » مجلة عربيـــة — « البرازيل المصورة » — أرسلها « أحد المعجبين » فوجدت فيها مطلوبك ، أي شاعراً عربيـاً سدّ غيبة مايسفيلد شاعر الدولة الانكليزية — في ذمتك هذا اللقب — فرثى بعبرة حارّة صاحب الجلالة الملك الامبراطور جورج ومدح خليفته ادوارد وهنأه ، وهذا مطلعها الساحر :

مات المليك العظيم القدر والداب   فابكوا عليه وكحل العين من صاب

الى أن يقول :

فقد رأيناه حراً كاملا ورعاً   مع ان مخدمه ما كان بالنابي

نعم ان الملك جورج أخ لنا ، وهو حامي الايمان والماسونية في العالم .

فليرحم الله ملكاً جـاء ساحته   كما يجيء الأسير الخـاسر الآبي

وليُجلسنْهُ يمينـاً مع ملائكة   ويُلْهِمِ الصبرَ أهلَ الكوكبِ الخابي

لا تعجبي من « يجلسنه يميناً » ، فهذه من طراز « يميناً سر ، وشمالاً در » لغة الكشاف الذي ابتدعته انكلترا . ثم شاء شاعرنا الفحل الهدّار ان يحاكي الشاعر العربي الذي قال : « هنا محا الخ » . ولكن في ذنب قصيدته

لا في رأسها ، فانتقل الى مدح ادوار . فاسمعي كيف يقول « مايسفيلدنا » ، وهذا ابداع لا يأتي بمثله إلا دموس في الشرق :

وفضله شاع في الدنيـــا بأجمعها وقد أشع كمثل الشمس في آب
وقد تبوّأ عرشاً لا مثيل له إذ قام جبريل والأملاك بالباب

مسكين هذا الملاك العجيّ . فكلما عنّ لشاعر غرض اتخذه مرسالاً أو بوّاباً ، كما جعـله بشارة ، بدلاً من باسيل القمر ، بوّاب بكركي ، يوم مات البطرك الياس . ولم يحرم الشاعر الملك ادوار من طير أبابيل فقال :

في الجو طير أبابيـل لتحرسه فتعتلي وتصيد الزردق الهابي

ولم ينس هذا الشاعر الكبير مصيبتنا القومية ، وهذا ما يؤهله للقب شاعر العروبة ، فذكر بها صاحب الجلالة رأساً ، غير مكتف بمعـــاتبة جون بول ، كبشارة الذي يأتيك خبره فاسمعي الآن قول شاعر « البرازيل المصورة » :

فان لفظـــاً تؤديه يفرجه وينعم الخلف من حيفا الى الكاب
هذا رجاء فأيّد مـــا يهم به لطفاً من الملك المحفوظ بالآب . .

والابن والروح القدس ، وربما يقصد الآب الضابط الكل مـــا يرى ومـــا لا يرى ... كيف رأيتِ ؟ أأعجبكِ هذا الشعر يا اختي ؟ قولي معي يخزي العين ، فالجملة يحملتها مدفع رشاش ، ولكني سأكتفي منهـا بكلمة أخرى وجهها الشاعر تهنئة لفخامة الرئيس الاستاذ إده ، فاسمعي الغرائب العجائب :

بمثلك قد لاقت رئاسة لبنـــان لأنك في الكهلين في عزم شبان
ولا عجب في أن تعز وترتقي الى القبة الخضراء في الفلك الثاني

ألا ترين معي ان الله رفع شاعرنا هذا الى أسفل ، فحلّق في جوّ

أعلى من جو شعرائنا الذين مدحوا فخامة الرئيس ؟ ويكفينا منـــه هذا الختام لنعدّه مع الفحول :

ودم يا اميل الخير للمجد والعلى   فطلعتك الغراء خير للبنان

وإذا قلبت الصفحة الاولى قرأت على الصفحة الثانية قوله ايضاً لرئيس ولاية سان باولو :

فدم يا رئيس الخير للعز والعلى   لتحيا الرعايا في حماك وترتعا

فافتحي مناخيرك ، يا اختي ، وتنشقي عبير هـــذا الأدب ، واسألي مار شليطا ، إن كنت تؤمنين بشفاعـة القديسين واختصاصهم مثلي ، أن يشفع بنـــا لدى الله ، فلا تقع هذه المجلة في أيدي المتشرقين فتتخذ نموذجاً للشعر العربي في القرن العشرين ، عصر الأعاجيب ، فيطول عمر الانتداب سبع سنين ... وتعود وفود العرب من باريس ولنـــدن تلعن الشعر والشعراء .

وإن لم تعجبك بضاعة البرازيل التي أمداهـا إليّ هذا الشيطان « أحد المعجبين » حتى ضعت بين « المعجب » و « العابرة » ، فدونك مـــا قاله شاعر مصري يوم مات المرحوم الملك فؤاد . الشاعر هو عبدالله العفيفي، وقصائده تحلّ اليوم في جريدة الاهرام الخطيرة محل قصائد شوقي :

هل تعرفون على من نُـكـِّسَ العلمُ   هذا عمـــاد الحمى والملك ينهدم

لا يا سي عبد الله ، ما عرفنا على من نُكس العلم ، وليتك ما خبرتنا! لقد ذكرتني بكاهن أخذ جمجمة من المقبرة قبل أن وقف ليعظ ، وعرضها على المؤمنين وأخذ يسألهم عنها على نمطك حتى أزعجهم ، فقال له واحد ساذج : هذه جمجمة طنوس يافث يا محترم ، ماذا تريد منا بعد ؟

ثم ضاق الوزن فلم يسع « الى » فقال عبد الله :

فؤاد أين ، ومصر غير آمنة　　　الريح عاتية والموج ملتطم

لا اعلم ، وشاء الشاعر أن يورّي فجاءنا بهذا البيت المفكك الأوصال الممزق كالأشلاء :

أحالهـــا الحزن أشلاء ممزقة　　　جسم بغير فؤاد كيف ينتظم

ثم خبرنا ان يراعه كان يستمد الوحي من الفقيد العظيم بقوله :

قد كنت وحي يراعي حين اشرعه　　　فالآن بعدك لا شعر ولا قلم

صدق الشاعر . فقد نظم بمناسبة الاربعين ، قصيدة طويلة لا وحي فيها، ومع ذلك افتتحت بها الاهرام نشرتها ، وضبطتها بالشكل الكامل خوفاً من أن تضيع بعض الفائدة ، أو أن يغرب شيء عنا من اسرارها البيانية. القصيدة منتقاة الالفاظ ، جيدة الوصف ، حافلة بالعاطفة ، ولكنها عاطفة من لا يؤاتيه الإبداع فيخرجها بصورة رائعة .

نظم قصيدته هذه على وزن قصيدة ابن سينا العينية التي قال مثلها الحوراني في رثاء ابراهيم اليازجي . وقد رأيت في قصيدة عبد الله بيتـاً ينظر – كما يعبر صاحب اليتيمة – الى بيت الحوراني ولكن شتان بينهما، قال الحوراني :

كيف التفتُّ أراه مبتسماً على　　　عهدي به فكأنه يحيا معي

وقال العفيفي :

أنّى التفتُّ فملء عيني شخصه　　　وحديثه المأثورُ يملأ مسمعي

وأغرب عبد الله كما يغرب عندنا أبو عبد الله ، فخبرنا أن النيل واله – كناقة الخنساء – متعثر ، يفيض بعبرة منهلة وهم مترع – لا بدع فالأيام

ايام الفيضان – حتى لبس السواد وسمى زهره بقادمتي غراب أبقع . هذه عادة شعرائنا في الرثاء لا يقلعون عنها ولو انقلعت عيون النقاد كلهم . انهم يسخّرون الطبيعة لمـــا يريدون ويشهدون عليها زوراً . ان مصيبتنا بشعرائنا كبيرة ، يقولون بل ينظمون الشعر لا أدري لماذا ...

أتريدين أيضـاً من هذه البضاعة ؟ خذي لديّ منها اكثر من ذنوب أبي نواس . نظم العلامة الاستاذ عيسى اسكندر معلوف عضو المجمع الملكي المصري تاريخاً لوفاة الملك فؤاد ، قال :

رمت أرض الكنانة بالفواجعْ سهام مزقت منـــا الاضالعْ
بلاد العرب قد فقدت فؤاداً عزيز الملك محمود الصنائعْ

الى أن يقول :

نعزي الدولة العظمى بخطب يخفف وقعه « سعد الطوالعْ »
فؤاد غـــاب لكن ارّخوه بفاروق فؤاد العرش راجعْ
١٣٥٥

وفي القصيدة تنجيم وكشف بخت ، وهذا يقتضي الحساب. أما الحساب فمضبوط ، ولكن الشاعرية خائرة خائرة ، يذكرني نفس الشاعر بالمرحومة عائشة الباعونية . ليت الاستاذ المعلوف يعمل بمثلنا اللبناني : طلعت ذقن ابنك احلق ذقنك . لقد جرّب الاستاذ آلهة الشعر طويلاً فما حنّت وما رقّت ، وما نظرتْ عطفاً اليه كما ترجى ابن الفارض ، فليدعها وشأنها . أما نجاوز حد الاربعين ؟ فليترك الشعر للمحروسين ...

وماذا تريدين مني أيضاً يا عزيزتي ، ذكريني . وأخيراً قلت لي : « عسى ألا أكون أزعجتكم بتطفلي على ساحة أدبكم ، أو عكرت دقيقة من وقتكم أو أن العطلة الخ .. » .

قلت بنبرة قوية تكادين تسمعينها من بروكلن ، لو تمسكت بخيط مخائيل نعيمه الذي مدّه لماري هاسكل :

« حاشاكِ يا ست ، أهلاً وسهلاً بك ، شرّفتِ وما كلّفت ، ثنّي ولا تجعليها بيضة الديك ، وإذا زرتنا مرة أُخرى فارفعي إزارك – بلا معنى – لا تؤاخذيني ما قلت اخلعي عذارك لا تقطعي عني رسائلك ، ففيها إلهام ووحي . عشتِ يا عروس وسلمتِ للأرمل الذكر – كما قال جرير – الذي يغتنم الفرصة ليسرق إعلاناً في « صوت الأحرار » وينشره بلا ثمن ولا رقم ...

حيا الله روحك الخفيفة . أما ما بقي من كتابك فسيبقى سراً مطوياً لا يُنشر إلا بعد موتي ، وهو أبيض كقلبك ، أسود كحظي من الدنيا ..

بَيْدَر مِصْر

٢

أما الأديب الاستاذ محمد أسعد الكيلاني ، الذي أحال عليّ غريمه (المنار ٢٣ تموز) ببراعم الشاعر الاستاذ عمر يحيى فهو عندي باليمين وحوالته مقبولة ، ولولا انصرافي الى درس محصول الشهر لأديتها « غب الاطلاع » ، فللاستاذ عندي مبلغ من الفضل ، بل أمانة في صندوقي تخوله حق التحويل على مصرفي ساعة يشاء ، ولصاحب « البراعم » ايضاً كرامة يستحقها ديوانه الذي أهداه إليّ منذ اشهر .

ولا بد ايضاً من رد كلمة جاءتنا من خلف سبعة بحور – كما يقولون في لبنان – بعث بها الى « الهدى » حضرة الاستاذ حنا الخوري الفغالي .

تجاهل الاستاذ حنا وقال : « انه لا يعلم ولا بشارة الخوري يدري أسباب غضبتنا » . قلت : « والداعي » ايضاً » لا يعلم انه غضبان » .

وأخيراً افترض اخونا حنا الأسباب ليقول : « إن كانت ليعرب وثاراته فقد أخفق مارون عبود . وإن كانت سياسة ، فهل دخلت السياسة شيئاً إلا وأفسدته » .

أما ثارات يعرب فندع الكلمة الفصل فيها للمنصفين الذين رفعت عن أعينهم الغشاوة . وأما السياسة فما أبعدنا عنها ! .إنا نؤمن إيمان بطرس بإفسادها ، ونصدق هذه الكلمة المأثورة تصديق أبي بكر ، وعندنا على ذلك براهين قاطعة : أولها افسادها شعر اخينا بشارة . فلو ظل ابو عبد الله زهيراً كما نشأ ، يبكي وينوح وينتظر الحبيب في الزاوية ، حتى اذا أخلف الميعاد صرخ من قلب مقروح بلسان البهاء زهير :

وودعتني يوم الخميس فلا الخميس ولا الأحد

لكان له الشعر الغنائي المحبوب على علاّته . ولكنه عدا طوره ومزاجه ، شاء ان يقول شعراً قومياً سياسياً ، وعضلاته رخوة ، فأخرج هذا الشعر المشرشر ، الذي رأيت وترى نقده .

ان بشارة شاعر مقاطع ، وإن أردت كلمة أوضح فقل « طقاطيق » مثل : الهوى والشباب ، وجفنه علم الغزل ، وغيرهما من شعره الرائق ، فهو لا يسكّ في هذا الميدان .

وهناك رسائل شتى لا ينفسح المجال لذكرها ، منها واحدة توقيع صاحبها « اخوكم ابو احمد » طواها على « حاملات الطيب » — طرابلسية معلمنا شبلي الملاط — فطوينا الثنتين معاً لمّا بدا لنا من مرسلهـــا عيب نفسه ، فهو يتمثل بشمشون حين قال : علي وعلى اعدائيّ يا رب ... أما الآن فلنعد الى موسم الشعر في مصر .

إن الحصاد كثير والفعلة قليلون ، فنسأل رب الحصاد ان يرسل فعلة لحصاده . يظهر ان عالم الادب العربي جارى الطبيعة هذا العام فكانت هذه الآونة ايام حصاد . الحصاد كثير كما قلنا ولكنه خفيف ، البيادر كبيرة ولكنها قش سنابله هيفاء ، فحظ الإهراء منها قليل ، اما حظ المتبن فكثير . هذا ملخص رأينا العـــام في بيادر هذا الشهر ، فلنذرّ أولاً بيدر مصر .

ان حلم فرعون الذي عبره له يوسف بن يعقوب يصح في مصر الأدبية ايضاً . ابتلعت البقرات السبع العجاف ، القباح الهيئات جداً ، البقرات السبع ، السمان الأبدان ، الحسان الصور . وقد ذهبت السنابل السبع الحسان وجاءت السنابل الجافة الدقاق ، كما تقول التوراة بالحرف . فموسم الشعر الذي اقيم هذه السنة ، بعد استمداد سنوات ، فحل قبل ان اكتنز ، فلم يبيّض الوجه ، وكان ابشع جداً من البقرات السبع العجاف ، وكأنهم شعروا بفشل موسم الرز فشاؤوا ان يعتاضوا منه بموسم الفول ... فقد بلغنـــا انهم سيقيمون موسمـــاً آخر سموه اولاً « موسم الشباب » ثم « مهرجان الشعر الحديث » فاغضبوا الدكتور زكي فقامت قيامته عليهم في « الجهاد » . ان تسميته بالمهرجـــان ألبق وأليق ، فمن الموسم ترجى الغلة ... اما المهرجان فاسمه يدل عليه . ولماذا نستعجل الأمر قبل اوانه؟ قد يكون بين فتيان هذا المهرجان من يحقق قول شاعر الشباب الخالد : ويأتيك بالأخبار .

وكأني بالدكتور مبارك قد شعر بمحل « الموسم » فكتب في « الجهاد » يخاطب العرابي باشا وزير معارف مصر : « لو كان الشعراء ينتظرون منك هذا الصدر الرحب لمـــا طوى الهراوي قصيدته في معاتبة رئيس الوزراء ،

ولما أخفى الأسمر قصيدته في « الامتيازات الأجنبية » ، ولما اغفل صاحبنا فلان – اي هو الدكتور زكي – قصيدة « غريب في مصر » لينشد قصيدة « غريب في باريس » .

قلت : وأيّ فرق بينهما ؟ فليس في هذه من ملامح باريس إلا :

أديم أجوائها سواد فلا شروق ولا غروب

فلولا هذا البيت لاستطعت ان تعنونها « غريب في تل أبيب » ومع ذلك فأنت لا تخطىء اذا عنونتها « غريب في وطن بلفور » . إن « غريب باريس » قصيدة الدكتور زكي ، من البضاعة الرائجة في البندر لفظاً ومعنى ، فهي معرض للألفاظ المسوّسة ، والصور البائخة : كرقابة النجم ، وشهود الزهر ، والصبا والشمول ، وعيون المهى ، ومجنون ليلى . ليت دكتورنا استبدل المجنون بابن ابي ربيعة ، فمحيط باريس ربيع قلبه . إنه يلائمه جداً ، ولا يرى فيه مثل ابي الاسود ... انه يغنيه عن « عتيق » فيكون عتيق نفسه في بلد يريه كل ساعة جديداً ، كما نتوقع الجديد من دكتورنا الذكي وهو يأتينا بشيء من مثله ، إنما في غير الشعر .

هذا ما ازعم للدكتور فعسى ان أقرره عليه ، فنصيحتي له – إن جاز لمثلي ان يعالج دكتوراً – ان يطلّق النظم ثلاثاً ، فليس لما ينتجه هيئة من يعيش . قلت هذا لأن طعم قصيدته « يا أهل اسيوط » مـا زال تحت اضراسي ، ولا ازال اذكر مطلعها الرائع بإعجاب ...

يا أهلَ أسيوطَ لا زلتمْ بعافيةٍ وإن تمرّد فيوجدي بكُمْ دائي

عوفيت يا صاحب ، وشفاك الله من وجدك بالشعر ، الزمِ المنثورَ يا شيخي ، فلا خبز لك في معجن عبقر . ليس الفن الشعري ان نردد ما قيل ، بل ان نقول ما لم يُقَلْ ، ومن يعمل غير ذلك ضل وانتحر على أقدام الآلهة .

اني أخاف عليك الضجر والملل ، أيها القارىء ، ان فصلت لك وصف هذا الموسم الماحل ، ولذلك اجمل قائلاً لك : ان اغراضه مما قرأت وتقرأ كل يوم . فهناك وصف خمر ، وحكم ، وقوميات حتى الوقوف على الاطلال.. ما في وقوفك ساعة من باس ... ان اكثر شعره مقول ، بل هو محصول أعوام سالفة تشم الطمن إذا استروحته ، وترى العفن إن تأمّلته ، أما المستبضع مثلي فلا مقرّ له من احتمال الروز والتقليب . فاسمع كلمتي في ثلاث اربع قصائد :

افتتح الموسم الاستاذ الجميّل بكلمة من منثوره كانت خيراً من شعر الموسم ، ودلت بوضوح على ثقافة انطون العميقة وروحه الشعرية التي عرفناها يوم كان بيننا يحرّر « البشير » . أما « عاصفة روح » ، قصيدة ناجي التي استغربها بعضهم ، فهي من الشعر الحديث الذي يتعمل شبابنا اليوم لقول مثله ، ويسمونه الشعر الرمزي . ان موسيقى قصيدة ناجي وافية ، والتزاوج بين ألفاظها ملائم ، فلا خوف من الطلاق الباكر . امـا ان نطلب المعاني المستقلة من مثل هذا الشعر فليس هذا غرض نظّامه ...

في القصيدة ألفاظ تخالهـا تعريباً لتعابير شعراء المدرسة الرمزية الافرنسية ، ولكن المخالفة تبرر انتحالهـا ، فالدكتور حسن الذوق للتفصيل . وهو بارع في القصّ على الهنداز ... اكتفي بأن ادلك على عبارة واحدة لتقيس عليها وهي « زورق سكران » – Bateau ivre – لستيفان مالرمه ، استعملها الدكتور بقوله :

لا يم الرياح زورق غضبان

وعندي أنه لو أبقاها كما قالها ذاك لطابقت المرام اكثر ، فالسكر أحرى من الغضب بزورق يتقلب بين أكف الامواج .

أما الشاعر الحاج محمد الهراوي ، داعية الموسم الذي لم يتحقق إلا بعد

ثلاث سنوات — ليته ما كان ! — فقال قصيدة عنوانها « التجديد والتقليد »، افتتحها بهذين البيتين :

هذا مجـــالُ تنازعِ الأفهامِ من غيرِ تفرقةٍ وغيرِ خصامِ

الحمد لله !

يا قادةَ الرأيِ الجديدِ تحيةً لو صح زعمكمو ، وألفَ سلامِ

لا أدري هـــل ردُّوا عليــه السلام ، أم اضطر الدكتور زكي ان ينهج نهج الحجاج في العراق ، ليجبرهم على ذلك ... ثم أخذ مولانا يفنّد زعم المجددين ويزدري قصصهم ، ويقول ان سوقها بارت في الغرب — من خبَّرك هذا يا حاج ؟ — ويخبرنا ان الشرق سبق اليها حتى قال :

أتعيدُ ثرثرة الحديث مجدداً وترده لخرافـــةِ الأصنام ؟

اذا كان الهراوي يعدُّ القصص إعادة حديث ، فما تراه كان يقول في شعره لو قرأه وهو يعلم انه له ؟

وشاء الشاعر أن يحدد لنا الشعر تحديداً قاطعاً مانعاً فقال ، ولم يُجِدْ :

والشعرُ ما هو غيرُ موسيقيّةٍ في حسنِ قافيةٍ ونظمِ كلامِ

ألم تهزك هذه « الموسيقى » ؟ ألم تتذبذب كرقاص الساعة حين سمعت « ما هو غير ؟ » ، والله مـــا قتلنا إلا مثل هذا النظم الذي يعده صاحبه انموذجـاً ، ولكنه ، ايضاً بلا قيمة . وتخطى الشاعر الى بحث النثر فعيَّر الناثر قائلا له :

فتقول في « اثنين يوم » مثلهم لا في مدى يومـــين في الأيام

شاء أن يتهكم فجـاء بالسمج البليد ! ما سمعنا أحداً عبَّر هكذا حتى ولا طه حسين الذي يفتخر بأنه يفكر في الفرنسية ، فاثنين يوم أبشع من ربابة بشار ، و « مدى يومين في الايام » معفنة . ثم هـل يكون اليومان من الحيوانات ؟! عفواً لم انتبه الى الضرورة التي تحل من الناموس ،

فداود أكل خبز التقدمة لما جاع ، فالقصيدة ميمية وأنت في حاجة الى كلمة – في الايام – لتسد بهــا فم الفراهيدي ... ليتك لم تنظم هذه التوافه شعراً ، فالشعر براء من كلام ليس فيه حسن قافية كما قلت ، ولا هو نظم كلام كما أمرت :

وتقول مثل الثلج غرة وجهه   لا مثل وجه البدر حين تمام

قاتل الله الجمود والتحجُّر ! أنناضل الجديد بهـذا السلاح الصدىء ؟ والاستاذ يريد في بيت آخر أن لا نصف الثغر إلا بالدر المنظوم ، فلا فضّ فوه ليظل حرياً بهذا التشبيه ... وتطرق الى ذكر الألفاظ الدخيلة مثل « أوكازيون » و « ركلام » فأصاب . إننا في غنى عن تعريب لفظة تؤديها لغتنا . ثم ختم هذه المنظومة الفريدة بقوله :

ما لي وللنقّادِ أسمعُ رأيَهم   ما قادني عقلي الى الأوهـامِ

ولكن النقــاد لا يعفونك ، وسيّان عندهم سمعت أم لم تسمع ، فهم ينتقدون ولا يبالون بالمنقود ، بل يجعلونه عبرة للأجيال الآتية التي يرجى صلاحها .

وأخيراً توارى عنا الهراوي وهو يردد هذا البيت الفذ :

وطني هو الملي عليّ قصائدي   جدداً وشعري لوحةُ الرسّامِ

ولكنه رسام مخربش ، وجديدك أعتق من توتنخامون . والحق نقول لك ، بعد هذا الموسم : تمخض الهراوي فولد ... تمامة .

حاشية – فتشت كثيراً على قصيدة محمد الأسمر لأنني تعوّدت أن أقرأ له شعراً فما وجدتها . فلعل له عذراً دلنا عليه الدكتور زكي الذي نقدر أدبه ، ما خلا الشعر منه – وهو عاذرنا .

وبعد هذه المرّة العجلى بالموسم سنذهب بك الى ساحة امير الشعراء الاستاذ العقاد ، فتسمع قصيدته التي قالهـــا في رجل مصر المرحوم سعد ، فتطرب وتهتف : ان من البيان لسحرا !..

قصيدتا الجارم في الملك فؤاد وسعد

٣

لم تمسح مصر دمعتها الحرّى على ملكها المحبوب حتى قام فيها « موسم الشعر » ، وما انفخت دفّ الموسم وتفرّق العشاق حتى جاء يوم سعد .

قرأت بعد كتابة الفصلين السابقين من محصول الشهر قصيدة لشاعر مصري هو علي الجارم قالها في جلالة الملك فؤاد . على القصيدة رزانة المشايخ ، ووقار الخوارنة والأئمّة . خلعت عليها قافيتها شدة وأسراً فقرأنا عاطفة صماء في معرض الرثاء الذي يقتضي رقة وليناً . مـــا عرضتُ لهذه إلا لأتحدث الى اخت لها وأقابل بينها وبين « عذراء » العقاد في سعد .

في علي الجارم نخوة عنترة متأنٍّ ، أنبأني بها إنشاده في الراديو ، فهو ينتخي حتى في الرثاء . أما نظمه فعربي التفكير كأنه لم يقرأ في حياته غير العربية . لا تلتمس عنده صورة ولا تعبيراً ، جديدين ، فهو من نوع الشاعر الذي يريده الهراوي . يقول لك كالأقدمين :

جَلَلٌ هزَّ كلَّ ركنٍ وهدّا ومصابٌ رمى القلوبَ فأردى

فتخالك تقرأ دالية البحتري أو كأنك أمام شاعر في الخيـام يهجس

بزتها ، وناظم كالشنفرى يتصور الرمي فالارداء ... إن الألفاظ امنية الجارم لا المعاني ، فهو يقول لك لا لشيء :

كلُّ صدرٍ بـه أنينٌ ووجدٌ ... مرسلٌ َخلْفَه أنيناً وَوَجْدا
وخشوعٌ من الجلالِ تراءى ... وجلالٌ من الخشوعِ تبدّى
فرأتْ حزمَ جاهدٍ لن يبارى ... ورأتْ جهدَ جاهدٍ لن يحدّا

ذكرني هذا بقصيدة رفيق لنا قالها يوم عيد استاذنا الخوري انطون رومانوس ، كانت كلها على هذا الحدو :

متغزلاً في مدح انطون التقي ... في مدح انطون التقي متغزلا

والشاعر يصور هول المصاب فيوفق الى هذا البيت الجميل ، على ما فيه من مبالغة :

ونشيجٌ أقضَّ من مضجعِ الليلِ ... وماجتْ له الكواكبُ سهدا

ورأى شيخنا الحشد العظيم فشبهه ، على عادة شعرائنا الكبار ، بالبحر والجبال ، ولم ينس ان يقول ايضاً :

فوقَ سطحِ البيوتِ كالنحلِ فانظرْ ... ثم إياكَ أنْ تحاولَ عـــدا

لمـاذا يا شيخ ؟ وماذا يصير لو عدّ ؟.. آه ! تذكرت الآن ، كانوا ينهوننا عن عدّ النجوم خوفاً على أصابعنا من الثآليل ... وبعد فمند ابي شادي الخبر اليقين لأنه أدرى بالنحل ...

وتجتاز القصيدة من الباب الى المحراب فترى الشاعر لا يتخيل إلا سيفاً وزهوراً ، وكواكب ودوحة تمد الظلال في مصر مدّاً ، إلا أنـه لم يقل كالأخطل : ما أن يقاس بأعلى نبتها الشجر . ثم رأى رأياً يفضح الصبح ، وجبالاً تسير في يوم حشر ، وصخراً وشوكاً ووردا ، ودرعاً وسداً ، حتى اذا أراد ان يظهر مقام الملك الراحل قال هذه الحكمة البرزة ، وإن لم تكن أعيت رياضتها كسرى وصدرت عن ابي كرب كقول حبيب ، بل افترعتها أقلام كثيرة :

وإذا اللهُ رامَ إصلاحَ شعبٍ ... مَلّكَ القائدُ الطريقَ الأسدّا
انمـــا الناسُ بالملوكِ وأعلى ... الملكِ شأواً ما كان حباً وودّا

لا نجرّم الجارم إن استعار « إنما الناس بالملوك » فقـد تكون المعارضة بغيته ، ولا يريد بنيان الممالك على الأسل ، كما قال ابو الطيب . وبعد ، فالشعراء جيران على بعد الزمان والمكان ، والعارية مألوفة بينهم ، واليوم نحن كلنا اخوان بنعمة المستعمرين ... ثم شاء الشاعر ان يحدثنـا عن الموت فما عدا كلام المعزين البلداء في كل مأتم :

حُكـّمَ الموتُ في الأنامِ فسوّى ... لم يدعْ سيداً ولم يُبقِ عبدا

وبينا هو يسحق النمال إذا به يقنص الأسود ، وكل مهد يصير لحداً ، لا ينقصه إلا : ضاحك من تزاحم الاضداد ، وغيرهـــا من مجتر الكلام والافكار ... ثم لا ادري ما الحكمة التي حملت الجارم على تفضيل «سوح» على ساح ؟ قد يكون عدها تجديداً ، فتجديد اخواننا المصريين كثير في مثل هذه الصيغ ، فهم يقولون بلا ضرورة : إخلاد بدلاً من خلد ، وحسيس أصوات ، وقراب ذلك ، وعكوف عليه ، وعَوْضُ بدلاً من ابداً ، وندوات بدلاً من أندية ، ونحن عسيون الخ ..

وقال الجارم قصيدة أخرى في سعد وهي غرضنا ، نظمهـا على طراز قصيدة شوقي في استقبال ام المحسنين ، وكاد يبدأها مثله ، قال :

اكشفوا الترب عن الكنز الدفين ... وارفعوا الستر عن الصبح المبين

ومضى يبعث الصور والمعاني القديمة ، ولا جرم ، فنحن في موقف بعث ، وإخراج رفات من ضريح ، فقال في الابيات التالية للمطلع دون ان ينقطع نفسه : ابعثوه عسجداً ، ثم اجتلوه درة ، وانتضوه سيف وغى ، وقناة هي كالحق صفاة لا تلين ، هزت جيش الأباطيـــل ثم السناء والسنى ، والمحراب ، وعرين الضيغم ، وقصب المجد ، وعلماً في فدفد ، وروضة ثم دوحة

وشمساً ، كأنما شاعرنا هو المرشال فوش يوم كان يعرض الجنود القدماء امام قوس النصر ... والاستاذ الجـــارم كما أريتك مولع بالتلاعب الذي كانوا يسمونه بديعاً ، فيقول لك : ان الحق يميناً لا تمين .

ومع ان الشيخ ، كما ظهر لي ، كثير العناية بالديباجـة لم يتورع عن ان يقول : ذاك بعث « حبيت » مصر به . ثم : هـل ترى للشمس في الأفق تنين ، ــ جمـع تنّ أي مثل ــ تجنا يا رب من محشر القافية ... وهذه « التنين » مثل « صبير » احمد رامي في « أوبة الطيار » و « غسيل » بشارة الخوري في قصيدة فلسطين . ويمضي الناظم حتى آخر منظومته يعرض علينا صورة العجائز .

النظم رصين ، والقافية طنانة كالنحل الذي رآه على السطح ونهـــانا عن عده . اما الافكار فمن جيل الخبز ، إلا انها مهما جار عليها الزمان تظل اقرب الى النَـفَـس الشعري من قصيدة العقاد .

الجارم يخشى الهلاك إذا تعدّى ناموس الاقدمين ، واللغة ككل الكائنات تحتاج الى التطور . أمـــا العقاد فيتأبّى التقليد ، وهو عاجز عن التجديد ، فسبحان واهب اللحم لمن ليس له أضراس ...

بشارة شيخ النفرة

لا ديك الفجر ولا بلبل الصباح يغنيان الانشودة التي يشتهيانها.
روستان

٤

خطب المستر ستانلي بلدوين ، وزير انكلترا الاول ومستشار جامعة كمبردج ، في مئتي مندوب من ممثلي جامعات الامبراطورية البريطانية ، فجاء في خطابه : « ان الشعراء الكبار نادرون ، بل هم أندر جداً من العلماء الكبار الذين يخلق علمهم الشيطاني المواد التي تبيـــد الانسانية ، فلذلك اسألكم ايها السادة ، أن تكثروا بين نتاج جامعاتكم عدد الشعراء الذين ينفخون في اوروبا ، بل في العالم اجمع ، روح الاتحاد والحرية » .

فاستغرب هذا الطلب كاتب افرنسي فقــال : « ان الشعراء لا يُعملون توصية ، فمهما كانت قوة الوزير البريطاني الأول ، ومهما اشتد ميل الجامعيين الانكلوسكسون فلن يستطيعوا ان يفبركوا الشعراء جامعيــاً ، ولا أن يصدّروهم بالجملة كالمحامين والاطباء والمهندسين الخ » .

أجل ، ان حاجة العالم الى شعراء حقيقيين كحاجة الغابة الخرساء الى

طيور فصيحة تخفف من الذعر الذي تلقيه وحوشها في النفوس ، فكلما ابتعد العالم عن الشعر اقترب من الهمجية . ولكن خلق الشعراء مستحيل، اما تجويدهم فممكن . ليس الشعر علماً ولا التغريد صناعة ، ولو كانا كذلك لأتقنها المتشاعر والغراب . ومن يحاول ان ينتج من نفسه ما ليس فيها فإنما يدرك فشلاً مخزياً . كثيرون من الشعراء – كالعقاد والزهاوي مثلاً – يتعبدون ويحاورون طول العمر فلا تتعرف اليهم الآلهة ولا يرون لها صورة وجه . فكم من كاهن يأكل ربه كل يوم ، وربه لا يدخل تحت سقف بيته ، بل يصرخ به : أغرب عني لا أعرفك . وكم من مؤذن يذكر الله ورسوله ، كل يوم خمساً ، فيرقص صوته على السطوح ويتغلغل في النوافذ. ان مناجاة رجل عامر القلب بالايمان ، لا يسمع جاره همسته ، تسبقه الى اذن من وسع كرسيه السماء والارض .

بعض الناس يصلح شماساً للكنيسة فيريد ان يكون واعظاً، وبعضهم يحسن التكهن فيطمح الى عرش راعي الرعاة . وهذي مصيبتنا الكبيرة بأخينا بشارة الخوري : الاخطل الصغير ، شاعر لبنـــان ، شاعر العرب – ميراث حلال زلال عن الكاظمي في حياته – واليوم شاعر الاقطار العربية.. مسكين خليل مطران عاقل جداً ، تأكل الدجاجة عشاه ولا يكشها ، انه لا يهش ولا ينش ولا يسائل عن شيء.

لا بد لحصول الشهر من بشارة ، فالزيتون شيخ السفرة ، وما شيّخوه إلا لأنه مجهز كشعر أبي عبد الله الذي لا يبخل ، كلما سنحت الفرصة ، بقصيدة تناسب المقام ، حتى صار كالخوري ينتظر من يرقدون بالرب ليرفع عقيرته مرتلاً : « عبدوخ أنيح باينون كيني .. »

ان بشارة ينظم ونحن نقدره ، ونـعزي خصيصاً بشعره ، كلما قدر لنا ذلك . اما رجاله الذين يطلمون علينا من هنا وهناك ظانين انهم يدافعون

عنه فيشبهون متّى الاطرش . مرّ رجل على متّى هذا وهو يحرث حقله فحيّاه قائلاً : عوافي يا متّى . فأجابه متّى : أزرع بطاطا ... فتبسم له الرجل وقــال : عزرائيل يسحب روحك . فقــال متّى : انا وابن عمي سليمان .

اننا نرثي جداً لرجل حاد عن الطريق فقلنا له : من هنـا يا أخ ، فتنأ وأجابنا : ماذا يعنيك مني ؟

لا أناقش بشارة في قصيدته لغبطة البطريرك فهي من نوع « نظم المنثور » وأكثرها مما يقوله رافعو الكؤوس في المآدب ، والمؤهلون بالضيف، ولكن لي كلمة أقولها قبل كبّ السلة . ان بشارة لم ينس عيسى بن مريم في يوم الشعانين فشبه بـه البطرك انطون ، وكاد يكون هذا طبق ذاك لولا ان المسيح الملك — كما لقبه البـابا اخيراً — ركب جحشاً . وصاحب الغبطة أقلته سيارة جلس فيها عن يساره ممثل قيصر . مشى حوله وحواليه من يعتصرون الزيت ولا يحملون ابداً غصن الزيتون ... وأغرب من هـذا جمزة الشاعر المبدع ، بل قفزته العـالية من على ظهر الأتان الى جناحي النسر ، فتدهوره من عل ، كحصان امرىء القيس ، ثم اندفاعه الى الغابة ليشبه بليثها قائلاً : « يا نسر لبنان بل يا ليث غابته » .

صرتُ اكره جـداً هذا التشبيه بالنسر وزميله الليث ، فقد خمّ لكثرة ما ناشته الأيدي ، ولا تنس ان العامة سبقونا اليه فقالوا فيه احسن منّا ، واليك ما سمعته مرة من مغنٍّ يزعق في عرس :

يا نسر يا شايب الراس	مـا لك على الجوع قوّة
ان كنت تأكل لحم ضاني	دونك والعريس ابو المروّة

فما يقول بشارة في هذه البلاغة ؟ وهل يجوز له ولغيره من الشعراء ان يطاولوا النسور ؟..

وإن نسي بشارة جمل « مار انطون » قافية بيت يزيد على قامة قصيدته اصبعاً ، ويربحه تصفيقة حادة فإنه لم ينسه عن ذكر العهد – الانتداب – والوعد فحمد القوم قبل وبعد ... وأقر لهـم بالفضل ايضاً ، وهو ممن عرفوه اكثر منـا ... ثم لم يحرمهم من العتاب الذي هو صابون القلوب ، فاسمع بيتيه الجامعين :

الحمد قبلُ لهم ، والحمد بعدُ لهم لمـــا استفدناه من عـلم وتمدين

لا نجحد الفضل لكن قد يجوز لنا عتب الأحبّة من حينٍ الى حين

كل القصيدة من هذا الشعر الرذل كأكثر شعر بشارة السياسي، وشر البلايا المضحكة . ان « اخطلنا » ينظم محليات الجرائد ويزعم انـه شاعر العرب بلا منازع ... فإياك ، مثنى وثلاث ورباع ، أن تمنعه من هذه الجبّة الفضفاضة ، فإنه يغضب ويحرد ، فاللقب حلي بعينه ، وهو يتمسك به بكلتا يديه تمسك الطفل بلعبته ، ولا يفلتها إلا باكياً .

قصيدة بشارة في فلسطين

٥

فلسطين اختنا، بنت عمنا، حبيبتنا ، جارتنا ، ومصيبتها ، والله، مصيبتنا. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . نحن ننقد شعر بشارة الخوري فقط . ان قصيدته في فلسطين عليلة منهوكة بليتها تقطّع النبض. فالشاعر ينطّ فيها كراقص الشارلستون ، أو هو كعصفور دوريّ يسقط على الحبّ ينقر ويتلفت . فبينا يسائل عنا العلياء والزمانا ، إذا به يرتمي في «زبلين» جديد ليطير بنا الى لندرة لمعاتبة جون بول :

قــل لجون بول إذا عاتبته   سوف تدعونا ولكن لا ترانا

أتقول إنه مشتاق كثيراً الينا ؟ بل من قال لنــا انه يقابلنا إذا لم نمش اليــه مشية بشار ؟.. ان هؤلاء الانكليز لا يعاتبون ولا يعاتَبون ، فهم صمٌ بكمٌ عميٌ الى آخر الآية . القافلة ماشية فقل ما شئت .

ثم قال لجون بول ايضاً :

قد شفينا غلةً من صدره   وعطشنا فانظروا ماذا سقانا

فذكرني بقول القائل :

تأمل من خلال السجف وانظر   بعينك ماشربت ومن سقاني

لم يقل شاعر العرب الاكبر ... شعراً يبيّض وجوهنـــا السمراء في الابيات الخمسة الاولى ، أما البيت السادس :

ضجّت الصحراء تشكو عريها فكسوناهـــا زئيراً ودخـانا

فحسن ، وهو من الشعر الفذ مبنى ومعنى . وإن بشارة على دين بشّار ، يرضى من القصيدة ببيت جيد فقد بلغ مشتهاه . فليكثر من النظم ليكون له مثله اثنا عشر الف قصيدة ... ان هذا ممكن فالموت متلاحق ، والفرح لا ينقطع ، وباب بشارة مقصد . ولكن ما يأتي بعد هذا البيت الجيّد ينسينا حلاوته ، فاسمع ما قال :

ضحك المجد لنـــا لمـا رآنا بدم الاعداء مصبوغـــاً لوانا

أليس هذا تصوراً صبيانياً يضحك اكثر مما « ضحك المجد لنا » في وحي بشارة وخياله ؟ فلا تنس ايها القارىء ما تطالع الآن فلا بد من رد العجز على الصدر عند الاستاذ . أما الآن فاسمع :

عرس الأحرار أن تسقي العدى أكؤساً حمراً وأنغامـاً حزانى

هذا عرس لم ترقص بـــه الشاعرية ، وبشارة حط النقوط – أي النقود – ثم راح يخبرنا نظماً عن « العهد الذي نحرته دون ذنب حلفانا » . والعهد والوعد أصبحا من لوازم شعر بشارة : ولو ضيع العهود الشعرية – كعبلة – وقال لنا : « نزرع النصر ويجنيه سوانا » فيا تراه زاد على مغني الميجانا القائل : نحن زرعنا الزرع واجا الغير حصد ؟.. ان الزاجل قال أبلغ لأن الجني للثمر والحصد للزرع . الزاجل رمز ، وبشارة صرح . ثم لم يكتف بذلك ، بل حاول أن يزيدنا إيضاحاً ، زاده الله صلاح شعر ، فتعلل لخيبتنا السياسية بقوله :

ذنبنـــا والدهر في صرعتـه ان وفينا لأخي الود وخانا

كأنما هؤلاء الانكليز أبنـــاء عمنا لحّاً ! الفرنسيون أحبة ... – في

قصيدة غبطته – والانكليز اخوة ود ... وما عساه ان يقول بعد غد إذا حاكى الطليان ؟..

وانتقل الى وصف جهاد فلسطين الذي « صفق المجد له » كما « ضحك لنا » من قبل ، و « لبس الغار عليه الارجوانا » كما تلبس المرأة فسطانها العنابي فوق تنورتها « درعها » الخضراء . ثم تصور هذه الداهية العظمى فشبهها ، على جسامتها يجرح في جبهتها « لثمته بخشوع شفتانا » كما تلثم المرأة ولدها اذا سقط الى الارض وصرخ .

قد تكون الجبهة أدت المعنى الذي في قلب الشاعر ، أما أنا فأرى جرحها غير ذي شأن ، لأن عظمها سميك ، كشمر هذه الايام ، يتحمل الشج ، بيد اني لا أنكر أن الجبهة عذب مقبلها لذيذ المطعم ، وأكبر الظن ان هذا هو الذي استحلاه شاعرنا ...

ورأى ايضاً في هذه الثورة الصاخبة التي أيقظت الانكليز على ثقل نومهم « أنيناً باحت النجوى به » ثم كان هذا الأنين « عربياً رشفته مقلتانا » والأحرى بها أن تسقيا . وبعد هذه البدائع والطرائف انبأنا قائلاً :

فإذا المهد غسيل بالدما ويسوع يذرف الدمع حنانا

مع آلامك يا يسوع ! لست أقول شيئاً في « غسيل » بشارة فيحكم القارىء على النظافة والاتقان . ولكنني اتعجب لماذا يبكـّون ، كلما شاؤوا ، هذا الإله الشاب ؟ أيظل الى الأبد بكـّاء سخي الدمعة ؟ وكيف يكون ذرف الدموع حناناً ؟ لا أدري . دمعة واحدة محتملة ، اما دموع وذرف فكثير على الحنان .

إن يسوع أشجع الناس وإن لم يقاتل ، وكيف يقاتل من لم يجد مع تلاميذه « الأبطال » غير سيفين ؟.. والشعب الذي هاش أمامه يوم الأحد انقطع صوته صباح الاثنين . وبعد فليس بكاء يسوع عجيباً . قد يقوم شاعر اسباني يبكيه . في الغرب ، لأن البلاشفة نيشنوه ، أي رموه بالرصاص ،

فهل لبشارة ان ينظم درة يخفف بها من آلام يسوع ، ويسد بهـا أفواه هذا الجيل الشرير الذي يطلب آية ولا يُعطى له إلا قصائد بشارة ؟

لا شك انه نسي هذا ، فهو كثير النسيان في هذه الرحلة . قد غفل عن « عرس قـانا » في هذه القصيدة كما سها عن « مار انطون » في تلك ، مع انها تواتي القافية والوزن ، وفيها مـا فيها من التورية . فلو كلف ابو عبد الله صاحبه عيسى بن مريم عمل عجيبة في « عرس الأحرار » فاني اؤكد لك انه لا يقول له : ما لي ولك يا ... لم تأتِ ساعتي بعد .

ثم انفجرت نجوى « اخي الود » على اختنا الحبيبـة فلسطين ، فأعرب عن حبنا وارتباطنا هل « قد رضعناه من المهد كلانا » مع ان الخلاف كان على المهد ، وأكثر مـا تكون الجاحشة حول « المذود » ... ثم قـال : « ان يثرب والقدس منذ احتلما كعبتانا » وهو صحيح إن صح أن يكون الاحتلام في الشيخوخة ، أي في هـذه الايام ، حين لم يبق في الكرم إلا الحطب . ومضى بشارة يفتش عن الاعـلام — قوام شعر المناسبات — فمر بضريح عدنان وغسان فنشرهما باسم صديقه يسوع ولكن ليطوينا نحن :

شرفٌ للموتِ أن نُطعِمَه	أنفساً جبارةً تأبى الهوانا
وردةٌ من دمنـــا في يـده	لو أتى النارَ بها حالتْ جنانا

حسناً قلت ، وقد سمعنا جاهلياً يقول : انا لنرخص يوم الروع انفسنا .. ولكن ألا ترى انه ليس من حسن الذوق أن تجعل طريقنا على النار بعد ما ذكرت الموت ، وجعلتنا في يده ؟ فكلنا يا أخي من المؤمنين بالله واليوم الآخر ، نخشى ساعة نقف فيها على النار ، ارحمنا يرحمك الله ! وكم يكون حظ الناس أبيض اذا حالت النار جناناً ، فدم المسيح الذي افتداك ونجاك من الخطيئة الأصلية ما استحق كل هذا ...

ثم قال فأجاد :

قل لمن يبني على أشلائنـــا وطنـاً هلاّ حذرتَ البركانا

ولكنه لَتَشَلَّتَ بيتين بعده حتى قال بيتاً مقبولاً لم يشنه الجناس بين العنف والعنفوان .

والآن قد بلغنا الحجة ، فاسمع مـــا يقول الشاعر بعدما أشبع الدنيا ابتهاراً :

قرعَ الدوتشي لكمْ ظهْرَ العصا وتحدّاكمْ حساماً ولسانا
انـــه كفؤٌ لكمْ فانتقموا ودعونا نسأل اللهَ الأمـــانا

آه من هذه الـ « الله » التي ملأت أفواهنا حتى انقطع رزقنـــا . ان من يتهدد بالبركان والعنف والعنفوان وغيرهما من وزن فعلان الطنّان الرنّان لا ينتهي الى القول « أمان جانم » . أوليس قولك للانكليز : قرع الدوتشي لكم ظهر العصا الخ . كقول صبي لآخر ضربه : كنت ضربت ابن فلان الذي فرك مناخيرك أمس ! أنـا لست من قدّك ! فتروّ يا أخي ، غير مأمور ، ان قلت شعراً سياسياً فيما بعد ، فالسياسة تتطلب التحفظ. نحن لا ننهاك عن خوض غمارها ولكننا نقول لك : توقّ الدول .

وبعد ان استحم بشارة بمياه جوفانس الحمراء توهم انه رجع شرخاً فقال:

قمْ الى الأبطالِ نلمسْ جرحَهم لمسةً تسبحُ بالطيبِ يدانـا
قم نجُعْ يومـــاً من العمرِ لهم هَبْهُ صومَ الفصحِ ، هَبْهُ رمضانا

ذكرني هذا الأمر بالقيام في رتبة العنصرة التي يقول فيها الكاهن للشعب : قوموا بقوة الرب الصباووت وسبحوا الراكب على المشارق والمغارب .

قمنا يا أخي فماذا تريد ؟ ومـــا الفائدة من لمس الجرح ؟ ألنوجعهم فقط ؟ سايل المتنبي عن أيّ دم يستحيل مسكا . فما لـك وهذا الطيب تكثر منه في منظوماتك القومية ؟ أتصبو ايضاً الى لقب أبي المسك ؟..

إن « لمسة تسبح بالطيب بدانا » مشوشة التركيب فلماذا عنّيت نفسك للاشيء؟ انك لم تزد على ما قلت في رثاء هنانو إلا إغاظتك النحاة المناحيس ، فيا ضياع تعبك !

اني اسألك فاخبرني ، لماذا أمرتنا بالصوم قائمين ؟ ألا تراه أهون على القاعد ؟ بل ما حملك على نظم فكرة سبقك اليها فعلاً اخونا المجاهد سامي سليم ؟ ليتك قلت مثله : فلنجع ، فلنصم يوماً من العمر لهم ، وأرحتنا من القيام في هذا الحرّ ، أما أزعجت نفسك وعرّقتنا ؟

وبعد ، فما لي ولك ، فقد تكون رأيت في « قم » بلاغة لم نرها نحن ، أما أرجح الظنون فانك تطمع لنا بزيادة الأجر ، عظّم الله أجرك وأجر كل شاعر يُطوّل لقريحته في هذه المراعي .

كان الأخطل الذي انتحلت اسمه يرد التسعين ثلاثين ، فما بالك تمطّ الثلاثة لتجعلها ثلاثين وأربعين ؟ هل خبرك أحد ان قصائد هذه الأيام تشرى بالباع كحبال القنّب ، أو بالإقة كبعض بضاعة سوق سرسق ؟

وأخيراً لا بد من ملاحظة على « هبه صوم الفصح » . ان صوم الفصح ، يا سيد العارفين ، لا يوفّر إلا السلفة « الترويقة » ، وإن كان فينا من يصوم حسب الطقس اللاتيني فلا نوفر شيئاً ، فهلا تستدرك هذا في الطبعة الثانية؟ إن كسر الصفراء لا يعبىء الكيس اللائق . اما اذا امرت ان يكتب عليه : ان الهدايا على مقدار مهديها ، فلا بأس .

وما تركنا القلم لنستريح من هذه الفجاجات حتى وقع نظرنا على نفثة جديدة من نفثات شاعرنا ودرة من درره المكنونة . قالها ، لا فضّ فوه ، ولا عاش من يشنوه – ولو كنت انا كما يزعم – في الفقيد العزيز الغالي ، المرحوم رحمة واسعة ، عبد الرزاق الدندشي ، فأمرنا لله .

قصيدة بشارة في الدّندشي

٦

تشتغل الطبيعة من الحول الى الحول لتصنع زهرة رائعة ، أما الشوكة فتخلق شوكة .

حقاً ان هذا العام عام غرائب وعجائب ، فكما ظهر في فلكنا نجم ضخم ، كوجه الفرزدق ، كاد يخرب الارض ، كذلـك لاح في أفق عالم الشعر نجم اعظم من كوكب ابي تمام الغربي ذي الذنب ، وهو مطلع مرثاة الدندشي للاستاذ بشارة الخوزي . وهذا هو بنصه وفصه :

عرفتك عفّ القولِ واللحظاتِ   حيياً كمنديل بصدر فتـــاة

أرأيت في حياتك أغرب وأعجب من ذنب هذا البيت ؟ امـا انا ، والله يشهد علي ، فما رأيت بيتاً يقاربه إلا : « فكأنني أفطرت في رمضان » ، ان صدق الرواة .

لما منحت مدام دي نواي وسام جوقة الشرف – اللجيون دونور – من رتبة كومندور التي يقضي مرسومها بتعليق الوسام في الرقبة ، أخذت جريدة افرنسية تداعب وتمزح ، فقالت مـا يقارب هذا : ترى اين تنيط الوسام مدام دي نواي ؟ أبعنقها مكان العقد ؟ أم في صدرها ولا يعوقها مـا

فيه من قم ؟ بل أين تشكـّه يا ترى ؟ أتستميض بربـاطه الحريري الأحمر عن محزم ضفائرها فتدليه فوق صدغها الأيسر او الأيمن ؟ ام تراها تعلقه على ظهرها من خلف ؟ الخ . وهكذا برزت تلك الجريدة الفكهة مصورة الشاعرة الكبيرة بالوسام الاكبر صوراً شتى من خلف ومن قدام ، في الشعر وفي النحر ، وتحت النحر .

فهل لهذا العاجز – كما عبر الاستاذ خليل تقي الدين مرة – أن يسأل الخلق من ذكور وأناث عن هذا « المنديل الحبي » بصدر فتاة أين يكون ؟ وكيف يكون ، ليجيء أقرب الى الصورة التي استنبطها الشاعر ؟

قال أعداء شاعرنا الأعظم الذين يقول بشارة فيهم :

كلما أطبقَ الغبـــارُ عليهم حشرجوا تحتَـه وماتوا اختناقا

ان بشارة شاعر قديم غير مجدد ولا مبدع ، شاعر غنّى يا ليل ، فقال أحسن مـــا عنده واستراح ، وهو لا يقدم اليوم في مضيفته غير طعام بائت ، وقد حمّض رزّه المسكوب في قصاع من الفخـــار المشقّق ناصل صباغها الخ . فما عسى هؤلاء الحساد الكذابون يقولون إذ يرون هذا المنديل العجيب معلقاً باحدى قرانيه أمام دكان بشارة ؟ لا شك انهم يسطمون افواههم حين يشاهدون هذه الآية التي لم يحلم بها أحد من الأولين والمتأخرين ، لا في الشرق ولا في الغرب ، ولهذا أسميه شاعر كل الاقطار ، وكفى الله المؤمنين القتال . انه أشعرهم بهذا « العجز » ولكن بدون يا ابن أخي ، ولا احاشي من « النظـّام » من أحد ، إلا شاعراً عاميـــاً ضيّع منديلا خطيراً ، في زمان ستـّي ام الياس ، فقال فيه :

منديلي ضـاع يا حوينو بايد الدلال ليك وينو
واللي أخـذ منديلي يرمد وتطلـّس عينـو

وبعد ، فما قول القراء الألبّاء ، أي منديل يعني أخونا بشارة . أمنديل

العرق ؟ فذاك يختفي ولا يبين منه شيء ، فهو بحق كلي الحيـاء والوقار والاحتشام ، أم منديل السعوط وهو أثقل الأعباء على جيبي ؟ أم منديل الزينة الذي يبين منه شيء يشبه الاذنين ، وقد يكون أطول منها أحياناً فيلوي عنقه ويتدلدل فوق الصدر ولا يمسه إلا مساً خفيفاً فيظهر حيياً مهذباً أديباً ؟ أم المنديل الذي يكون في عبهـا احتياطاً لأمر يأتي ، كالتلويح والايماء ومآرب أخرى ... فيقعد عاقلاً ، ولا يتشيطن كجرير لتهواه ، بل يبدو رزيناً ، عفّ الحركات ، أبيّاً نزيهاً وقوراً برغم ما في المحيط من مقبلات ومغريات وتوابل ؟

ثم ما تقولون في اللون ؟ فأنا أظنه بنفسجياً ، بل الأرجح انه أبيض ، من لون زنبق مار يوسف البتول ، شفيع النجارين ، أو من لون عصاه التي أزهرت يوم اليانصيب ، أي الخيرة لستنا مريم التي حُبل بها وحبلت بلا دنس ؟

صدق الله العظيم ، ان الشعراء – وأزيد عليهم المجتهدين في اختراع العجائب – في كل واد يهيمون . أما كيف أضاع بشارة ذاك الذوق السليم ، وخيم في الشاطىء.. فلا أدري . أين هذا يا اخي من قولك الفذ – إذا صح انه لك – :

والنسيم ... يلهو بثوبينا كطفل ذووه ما هذبوه

أما اختراعك الجديد هـذا ، ففات « المنديل السليماني » وسبقه ستين مرحلة ، وأخرس القائلين ما ترك الاول للآخر ...

عندما كنا في مدرسة مار يوحنا مارون نتلقى الدروس السريانية ، حمي الجدال في مجلة المشرق (راجع السنة الثالثة ص ١١٠٣ ، والخامسة ص ١٤٤) حول عبارة سريانية من الشعر الرمزي ، وهي « شوشافو شلامونويتو للخ .. » وردت في الشحيمة – كتاب الصلوات الخمس اليوميـة للخوري الماروني – فاختلفوا في تفسيرها ، وأخيراً تقرر ان الشاعر السرياني عنى بقوله « المنديل

السلياني في ارض داود العطشى » أم الله مريم بنت داود ، مشيراً بهذا الرمز الى قول الشاعر سليان في سفر الامثال : من حصر المياه في منديل . فالمسيح هو الماء الحي الذي حصر في احشاء مريم البتول .

فهل يقوم بعد ألف عام من يفسر منديل فتاة بشارة ، كما فسر الأب يوسف حبيقة وغيره منديل الشاعر السرياني ؟ قد يكون هذا إن ظهر المسيح الدجال الذي ينتظرون ، وحينئذ يصير شاعر العروبة الأكبر أكثر من شاعر ، فابشر يا بشارة !

أهذا شعر ؟ فلماذا نخدع الرجل وهو صاحبنا ، فيبعط في قصائده الوطنية بعطاً .

قد كرهنا يا أخي هذا الشعر المقرف فإن كان عندك شيء من غير هذه البضاعة فهات .

وفي البيت الثاني تأتي لفظة تدل كل الدلالة على ذوق شاعرنا الثنيان، فاسمع ما قال لتحسن الحكم :

ولكن اذا الاوطان نادت أجابها وقاح كناب الليث عضّ بشاة

فهذه الوقاح ، وقحة خشنة مثل كباكب الشوك ، ولولا القافية ، لعنة الله عليها ، لاختار بشارة كفوأ لليث غير الشاة ، ولولا الوزن أيضاً لترك العضة للكلب . ثم علق بشارة يخبرنا ما لم نعلم ، أي أن السيف لا يُلقى بالعصا ، والاعداء لا تدفع بالصلوات ، وان :

صداقُ العلى نفسٌ تسيلُ على الظبى مرصّعةَ الآهـاتِ بالبسمات

أي مكشرة . لم يقل بشارة هذا إلا بعد ما « سأل الله الأمانا » في قصيدة فلسطين ولم يُستجب له فعاد الى زعمنا ، والعود أحمد .

وكاد يكون ما تمناه من أمان ، وكدنا نستطيع لقيان السيف بالعصا لو اعطينا نحن مثل عصا موسى ، واعطي المرحوم الدندشي مثل قضيب ماريوسف

البتول الآنف الوصف ، لان بشارة أفاض في حديثه عن طهره وعفته حتى قال في ذلك ثمانية أبيات ، كأنه كان ينـام وإياه في غرفة واحدة فجزم لنا انه « لم يعط الشبيبة حقها »، و « زجر الهوى إلا اذا كان حلية لمكرمة ». إن هذا لا يكون إلا في « لاهوت » أخينا بشارة ، أما نحن فما رأينا منه في « الفوري » الذي درسناه وحفظناه كالماء الجاري ، حتى ولا في « الانطون والليكوري » من كتب المرحوم جدي اللاهوتيــة . والغريب أن الشاعر يتوسل الى تطهير الدندشي بتنقيته من الحب ، كأنما الحب رجس أو دنس من الادناس ، وكأن بشارة نسي ان الله محبة هو ...

وبعد طحير مزعج قال لنا هذه الحكمة المحجلة الثلاث المطلوقة اليمين :

سواكَ يعدّونَ السنينَ لعمره   وعمرُكَ بالأفعالِ لا السنواتِ
اذا ضمن المرءُ الخلودَ على الصبا   فما عمرُهُ الباقي سوى فضلاتِ

وأراد « حسن التعليل » لموت الفقيد مصطدماً بعمود القطار الكهربائي فجاءنا بقُضُب الماذي لضرورة الوزن . وان تسألني ما معنى قوله :

فمتّ كما ماتت سوى خبث ريحها   وغمرك للأرواح بالنفحـات

احلتك على « حاشية » بشارة لتستنير فتفهـــم ان الدندشي والكهرباء كفؤان ، وانك لا تستطيع بعد هذا التعليل العليل ان تقول: الويل للمغلوب. فالكهرباء كالنحلة التي تشك ابرتها في الجلد وتموت على الأثر .

ثم لذّ للشاعر ان يعظ فقال كلمتين من حواضر البيت ، وقد عجّبتني غفلته عن نهر بردى ، و « دُمَّر » والمهد ، وغيرهـــا من ألفاظ الشعر الوطني الدبلوماسية ، مع انه يحب النهور جداً حتى كاد يُجري في كل قصيدة نهراً عبقرياً . ففي قصيدة شوقي نهر ولكنه نشف كالبحر الاحمر حين انشقّ حتى جاز فيه موسى . وفي قصيدة حافظ نهران حافظ والنيل، وفي قصيدة الفردوسي نهر طوس ، وان لم يذكر نهر قويق في « الحلبية »

فلأن تركيـــا قطعته عن الشهباء ... وإلا فكيف ينساه من لم يحرم الفيدار – نهر شتوي عندنا – من درة كاملة ؟..

ما لنا ولهذا التدقيق كله ! فهو حرام في شعر بشارة السياسي ، فالنهر والعهد ، والوعد ، من لوازمه ، وخصوصاً يسوع الحمل الوديع فهو له أطوع من الخاتم في الخنصر .

صح : دمَّر غير منسية ، وأظن القارىء يوافقني على أنه يعنيهـــا لا غيرها بقوله :

وبالشاطىء المغمور بالظل والهوى على حركات الماء والسكناتِ

ولم يكتف بشارة بذكر الصداق ، كما مر ، بل أحب أن يقطع الشك فقرر في أذهاننا ذلك المعنى ثانية فقال :

احيي جهاد الحاملين الى الردى مهور المعالي فوق كل قنـاة

وأين القناة ؟ رحم الله عهدها ، فلو عادت ايامها وأيام الكبش والمنجنيق والضبر ، وتخّى المستعمرون غازاتهم وطائراتهم ودباباتهم ومدافعهم الرشاشة لسدنا العالم ..

قاتل الله المجترين ، فهم لا يعدلون بقديد اللغة شيئاً ، وحسبك القناة قديداً ... فواحرّ قلباه من هـــذه الصور الباردة ، وواطول شوقي الى الجديد ، إنما ليس كمنديل بصدر فتاة ...

وختم الشاعر قصيدته الفريدة بقوله :

وإن أنا حييّت الشآم تَنَفستْ ربى الأرزِ عن أزهارِهِ بلهاتي

والصواب عن أزهارهـــا ، فالأرز من الفصيلة الصنوبرية ... إلا إذا كان يعني ربى الارز « جبل لبنان » وهذا أغرب من المنديل السليماني وتفسيره ... ثم قال :

جذبت اليه العرب بعد نفارهم وذوّبتُ في كاساتهم نغماتي

وكل يدعي وصلاً بليلى .. ثم هل نحن تتر يا بشارة ؟ كنت حسبتنا من المهتدين « المجذوبين » . ماذا تركت لسيدنا البطرك المبجل ؟

ومهما يكن من الامر فأنت تستأهل « قبل وبعد » كلمة : الله يعطيك العافية . . . ولكن - هذا سر بيني وبينك - ألا ترى مثلي ان هذه « الكاسات » ألبق بالجلاب واللبن الرائب - العيران بلغة حلب - منها بنغماتك الساحرة ؟ . .

يرحم الله شيبان الرومي . قد تأخرت جداً يا ابرام ، فتسميت ابراهيم عتياً ، واختتنت مثله ابن تسع وتسعين . . . وإن لم تفهم نكتتي فانني محيلك على التوراة ، فخـــذ الكتاب بقوة ، وافتح الفصل السابع عشر من سفر التكوين . في ذمتي انك تضحك لها ضحكتك النقية الناصعة البياض .

ليتك تنشر يا أخي قصيدة واحدة ، ولو عتيقـة ، من شعرك المطبوع لأقول فيك كلمة طيبة فقد كدت تسيء ظن الناس بي ، كما ساء ظننا أجمعين بشاعريتك . فهلا تعود الى ايامك ؟

ألا تذكر شيئـاً من شعر الشباب الذي كنت تسمعنيه على السطيحة أمام غرفتي « المعلقة » في بيروت ؟

لست ازعم انك أبدعت هناك ابداعاً مجتمعاً أشده كالحجاج ، ولكني أقول انك كنت مخلصاً ، وأعزز قولي بالإيمان المغلظة . ان من لا يستطيع ان يكون جباراً كما تشتهي فالاخلاص حليته وزينته ، وان ظللت تفتش عن نفس غير نفسك لتصورها لنـا ، فانك تطلب المستحيل ، وتـُصيّر نفسك شيخاً قاحلاً في عيون الشباب المتفتحة علينا .

فابكِ وعنّ ، ونـُحْ وإنّ ، فخير شعرك الولولة ! ألا اعمـــل ، ودم شاعريتك في رقبتي ، بقول سميك بشار - ان تركت التاء - مـا لك ولقول صديقنا الريحاني ، فأمين فيلسوف يقيس الشعر بالانش والقدم ، ويعرضه على الترجمة التي تمسخ حتى : يا جمل يا بوبما . . . ومن يعمل مثله كان كمن

يستغني بنقطة عطر عن جمال الزهرة ، فأمين ، في هذا الزعم ، كأم تتعزى على فقد ابنها بأن روحه خالدة في ملكوت الله .

أقول هذا ولا أغضب صديقي الريحـــاني لأن الفلاسفة كبار العقول واسعو الصدور .

قد تقول لي وما يقول بشار ؟ قلت :

ولا بدّ من شكوى الى ذي مروءةٍ يواسيكَ أو يُسليك أو يَتَوجّعُ

فتشكُ إذن يا اخي ، فشكواك في الشعر حلوة ، وتقهقرك أحـلى ، وأنت لا شك واجد بين القراء احد اصحابك الثلاثة ، ومـا هو شرهم يا أم عمرو ... أمـــا أن تُصيِّر الشعر الوطني أرخص من الفجل بيعة مسا ... فهذا كثير .

٩ – ١٩٣٦

البراعم لعمر يحيى

١

صفحات هذا الديوان ٢١٥ . أما الطبع فبين بين ، موشوم الوجه ، تنبئك تصويرة الناعورة ان الشاعر حمويّ ، أما اللون المحلي فيه فكأطلال خولة...

قال عمر في الصفحة ١١٥ :

ليَ قلبٌ خافقٌ يشكو النوى ولسانٌ نادبٌ مجــدَ نزار

فحدد شعره تحديداً قاطعاً مانعاً ، فديوان عمر كما قال : لسان يندب مجد العرب ، وقلب خافق يشكو النوى ، بل قل الجفاء وسوء البخت... اقول هذا بعد مـــا ركبت البحر كما كان يسأل المبرّد . واؤكد لأخي الاستاذ محمد الكيلاني اني لم اترك زاوية ولا تكيّة من ديوان صاحبه عمر إلا وتغلغلت فيها . سحت فيه سياحة احمد فارس الشدياق في الأقطــار ، فعسى أن تكون لي لاحظة ذلك النسر الخالد .

ان عمر النظّام يتكلم قبل عمر الشاعر . لا أعني بكلمتي هذه أن ليس في الديوان شعر ، بل عنيت أن النظم أغلب . فالشعر مزروع فيه هنا وهناك كالنواعير على ضفتيّ العاصي ، والأنين في كل مكان . قوام الديوان أنّات محروم قلّما رأى يوماً أبيض ، فهو رهن الشكوى والرثاء كما وصف نفسه ، وسبحان من يرزق من يشاء بغير حساب .

تقرأ في الديوان شعراً ولكنه كخمرة أبي نواس التي شبّهها بدم الجوف فتقطب منها وتعبس . ما ظننت ولا أخال غيري يظن أن شاعراً في هذ العصر يتهافت على الغريب تهافت عمر يحيى على قصاعه ، فهو ينصبّ عليه ويأكل أكلاً عنيفاً كشيخ بني الهجيم عند البحتري المَكرُمان ... مع أن بشاراً الأعمى البصير أدرك منذ اثني عشر قرناً أن الاغراب طاعون الشعر والفن كل الفن في الملاءمة ، فقال يصف لنا شعره :

وشعرٌ كنورِ الروضِ لاءمتُ بينه بقولٍ إذا ما أحزنَ الشعرُ أسهلا

فماذا جنينا يا ترى حتى يعود بنا عمر الى الوراء الى نواويس القدماء ويرينا قيام الساعة قبل الموعد ، إذ بعث هذه المخلوقات من الألفاظ ، فوقفت بين أيدينا كالأشباح تحمل في يدها كتابها ... فماذا يقول العم بشار لو نهض ورأى أهل الكهف يبعثون بعد ما دفنهم هو وحطّ على رأسهم حجراً ؟ ألا يقول بنا مقالته لذلك البصير الذي دلّه على البيت ؟

فما قول القارىء بالعدملي ، والاطم ، ولعا ، واشفى ، والنغر (بدلاً من البلبل) والضحيان، والطخياء ، وخمت ومشتقاتها في شعر عمر ؟

أما المدى فالكذب من خيمهم ، لماذا فضل خيمهم على طبعهم ؟ لا أدري . ثم الضيح ، أي الشمس ، والعياب القيسية – ولولا القليل استعمل البماع وأماتنا فزعاً – والخيس الحبيبية ، والعجول الخنساوية ، واغطش الشنفرية ، والأنف العنترية ، والأواذي النابغية ، والمرقال الطرفية واختها الأمون ، والعقرقوف النواسية ، والافتيات العقادية ، وأخيراً مَهيم : أي ما حالك ، وهي أبشع من ملجنّ بشارة ، الموروثة عن شوقي عن عمر بن أبي ربيعة . ثم جبرين اخت بغدان شوقي.

وقد أضاف عمر الى حب الغريب ولعه بالجموع الكريهة كأصحابنا الأيمة المصريين ، فهو يستحلي مثلهم هذه الصيغ المنبوذة : كالرئمان والتربان، جمع

تراب ، وغصنة جمع غصن ، وشجراء أي الشجر ، وزاد في بلوانا أن ليَّن هذه الأخيرة فقال :

أدواحُ عاصينا تمايلُ غبطةً   أطيارُ شجرانا ترِنُّ نسيبا

وخبرنا في الشرح أن « بابا » اللغة المعصوم ، المثلث الرحمات، امرأ القيس استعملها . وعندي انها كريهة ولو استعملها جدّ جدّ امرىء القيس ، بل لو نطق بها أبونا آدم حين رثى عمنا هابيل اول شهداء المرأة .

وعمر يحدثنا كشيخنا امرىء القيس عن القلب المقتَّل ، والمقسّم ، ويحيّينا بالهدون ثم بالركز بدل الجرس ، الى آخر ما هنالك من أحداث جديدة ، ومفاجآت غريبة من الالفاظ مثل « تواليف » العقاد مقيّد الأوابد، ومحرر الدواجن . اننا نعلم ان مصر بلاد المومياءات ، والشام بلاد الدمقس ، فاذا كان في نيّة الاستاذ عمر منافسة الجارة العزيزة في خلق المومياءات اللغوية فلنبن المتحف ...

لا أظنك تستكبر ما أقول متى علمت ان عمر استعمل الجبين بدلاً من الجبان . لا انكر أنه مر على رأسي حدث يكاد يشبه هذا حين نقل المرحوم لويس شيخو قصيدة بشر بن عوانـــه الى كتابه « مجاني الأدب » فاستبدل المصور بالمزبر ، فقال : هصوراً اغلبا لاقى هصوراً ، وضرب مخ الخليل باسطوانات عروضه ، حين رأى المزبر خطراً يتهدد الأخلاق الصالحة، ويوسوس في صدور الناس ... أما لماذا آثر عمر الجبين فذلك لا يعلمه إلا الراسخون في العلم .

قال لنا من مهدوا لديوان الشاعر ، وهم كثر ، كقتلى صاحبة أبي فراس المنحوس الطالع : ان عمر يطالع كثـــيراً . فقلت في نفسي وأين هو من كتاب أبي الذوق اللفظي ، ابن الاثير ؟ أتراه لم يطالعه بعد ؟ ثم هل كل من يطالع كثيراً يعود الى الناس عودة تأبط شراً ؟

وإذا نظرنا الى صور الشاعر رأيناها قديمة كألفاظه ، أو عدملية كما يجب أن تعبر. فربيب عاصي حماة ، يذكر لنا توضح ، ونعمان الاراك ، وسنداد ، ويضع سلمى – اسم جبل لطيء – زاوية لبيته الشعري ، ويجري عليهما الشاقول. قد فعل مثل هذا سميّي الخوري مارون غصن حين قال منذ أسابيع : « رضوى بكركي راسخ الأوتاد » ، فخلته يبني عرزالاً. إنما أعجبني منه انه تيقظ للهواء الغربي القالع فرسخ الاوتاد ...

أنا لم أقرأ لسمي الخورأسقف شعراً منذ أطلق مئة مدفع ومدفعاً لعينطوره ، في عيدها المئوي ... إلا هذه الابيات ، ولسوء حظنا كلينا وقعت على رضوى الذي انتقاه ، وترك ألف جبل قبالة عينيه. انه الاجترار اللاشعوري ، مرض الأدب العربي ، الذي أرانا رضوى الخوري وسلمى عمر وسنداده ، فلا حول ولا قوة.

قد رأيت أن غريب عمر يحيى يجني على صوره وقوافيه ، وقد يكون السبب دورانه في حيز الاقدمين ، فكل أغراض شعره كأغراضهم ، ولا جديد في الديوان إلا « رسالة الورد » التي أداها عمر كما يؤدي الشاعر رسالته. أما « قلب أم » فاذكر انني قرأتها لغيره.

وإذا أردت ان تعلل حب عمر الشديد للتضمين أمكنك أن ترده الى العلة الأصلية التي ذكرتها ، فهي التي سببت كل هذه الأدواء – الاشتراكات – حتى صح فينا قول المثل العربي : ما ينفع الكبد يضر الطحال ! وعمر يشير طوراً الى « العارية » ، وأحياناً ينسى ، لانشغال باله بالأحباب القساة والحساد الذين يضايقون الشعراء في كل بلاد الله ...

ظهر لي ، من المقدمات الاربع التي صُدّر بها ديوان عمر ، ان شاعرنا يحب النقد الصحيح ، ولا يغيظه ، ولهذا صارحه أصحابها بكل ما عندهم ، وتلك لعمري مأثرة جديدة نسجلها لحماة ، مدينة العلماء والائمة ،

وتمنى أن يشايعهم عليها كتاب المقدمات في الاقطار فلا يجعلونها كما عودونا: نشيد الاناشيد .

فالمقدمة الاولى كتبها شاعر هو أحمد الصافي النجفي ، فانتقد قوافي عمر. والثانية للاستاذ قدري العمر الذي قال لنا ان عمر لو أراد لجعل ديوانه غريباً كله ، ولو أراد لجعله سهلاً كله . قلت يا ليته أراد وأراحنا من ألفاظ أعقد من ذنب الضب . والمقدمة الثالثة للاستاذ ابراهيم المعظم ، الذي يقول : ان لعمر سرقات ظاهرة يستحق عليها الجزاء بمقتضى قانون الشعراء .

قلت : أبشر بطول سلامة يا مربع ! فالجزاء عندنا على السرقات الشعرية لقب الإمارة ...

ويقول الاستاذ المعظم أيضاً : ان شعر عمر قليل الحشو ، وهو يكره الضعف في القافية ، ويأبى النفور . مع انني كثيراً ما لمحت في الديوان حشواً ونفوراً ، حتى قام في ذهني أن عمر كالصافي قليل الجلد ، فهو يكثر من « ان » و « ما » الزائدتين وغيرهما من طفيليات الشعر كقد وأخواتها، التي أراها كالحصاة تسند بها الخابية . وشر هذه الالفاظ « سيما » في قوله :

والقوافي خالداتٌ سيّما خدمةُ الاوطانِ في صدقٍ وجد

انها أبشع من الغدة المندلقة على الصدر . ثم هل يقول من يكره الحشو :

ان من يذكرُ « منها » مجدَها يتولّى « وهو » بالقلبِ الحزين
فكأن الريحَ لما « ان » هفَتْ ساعةَ المسي شكاةُ الواجدين

ثم :

وتركتُ نفسي حرةً ما « ان » ترى غيــدَ الغزالِ وفتنــةَ الحسناءِ

ان أمثال هذه التآليل كثيرة في الديوان، وخصوصاً « ان »، أكثر منها الشاعر حتى جعلني أتصورها كالزائدة الدودية تحتاج الى مشراط طبيب لبق . كما أن « المسي » وغيرها – وإن صح استعمالها لغوياً – ليست من بضاعة الشعراء.

وإن تدقق تر عمر يزجّ في شعره من كعابير الكلام ما يبرأ منه الفن الى كل من بعبقر ، مثل قوله : « من جرّا ذنوبي » فوالله ، لئن غفر الله له ذنوبه كبيرة وصغيرة ، أو مميتة وعرضية كما يعبر النصارى ، ولم يستمهله دقيقة واحدة عند الحوض ، فأنا لا أغتفر له استعمال « من جرّا » وأنزه عنها النثر ، بله الشعر .

ويُعرّف عمر الشعر فيقول لنا :

وما الشعرُ إلا أنّةٌ تبعثُ الشجى　　لها الصدقُ جسمٌ والتخيّلُ أجنُحُ

قلت : أما الصدق فحظ الشاعر منه كبير ، أما الخيال فكحظه من الحب الذي يقول فيه :

ما نلتُ في الحبّ إلا　　مِن النحولِ مرادي

ومن أين يأتي الخيال من هام بالقدماء حتى بات يصب في قوالبهم ولا يحسن ذلك ، ويريك في كل قصيدة صورهم حتى النابغية منها ، ومن نوع « وما الفرات » أيضاً ... اقرأ قصيدة ذكرى الهجرة الاولى لا الثانية . فهذه ندعها للاستاذ العظم الذي ادّعى أن مطلعها للمرحوم جدّه أسعد بك العظم ، ودافع عن حقه الموروث وختمه بقوله : ان عمر أخذ ديباجاً وحوّله ساجاً .

وفي قصيدة « فيصل » يحاول الشاعر التلميح الى حادثة يشوع بن نون البطل المغوار الذي وقّف الشمس . وأبى عمر كعادته إلا أن يشرح المعنى. وعندي أنه لو تركه للقارىء اللبيب لكانت العاقبة أسلم ، ولكن عمر أحب الشرح كثيراً فتعب وأتعب ، فهو يشرح لنا حتى الاملود ، وقاطبة ، وأخيراً يفسّر أيار بمايس ...

وفي القصيدة عينها يتعرض لبيت أبي فراس ولا يحسن القبض عليه فيقول :

سيذكرني من كان ينكر سيرتي ❊ كالشمس يشكو فقدها من تسكما

وأبى إلا أن يستصحب حبيبته « ما » الزائدة في هذه الغزوة فأمعن في البلوى ، وترك زين الشباب يبسط يد الشكوى ، ويسبل دمعاً من خلائقه الكبر ... وفعلها أيضاً بالنابغة حيث قال : تعدو الذئاب على من لا كيان له. مع أن « كلاب » النابغة مشهورة ، وهي هنا لا تثمّن .

٢

وفي قصيدة « يا طير » ، وهي رشيقة تمشي الهوينا ، كهريرة الاعشى ، وصف رجال العرب الذين حموا فلسطين فقال :

باعوا دماهم في سبيل العلى ❊ فأصبحت عندهم كالخضاب

فقل لمن يطمع في ظلمهم ❊ . . . .

فأنصتُّ له علّي أرى كلمة كبيرة وإذا به يقول : « أخطأت يا هذا فعد للصواب » . فذكرني فعله شاعر العراق وفيلسوفها المرحوم الزهاوي حين قال :

شعري لقد جاءكم مستنهضاً ❊ من غير تعقيـــدٍ واغلاقِ

إن كان لا ينهض شعري بكم ❊ مزّقتُ من غيظيَ أوراقي

وطاف عمر حول لسان جميل مغتاب فمصّه مصاً حين قال :

أشهى الى قلبي مهــما بدى ❊ منك الأذى مصي ذاك اللسان

قلت : ألا ترى معي أن في العض قصاصاً أوجع ، كما فعل من قال قبله لحبيبته : هذا لساني الذي أخطأ فعضيه ...

ها قد وصلت الى صفحة ١٩٣ فأطللت على « دفنة » ودفنة فتنة الدنيا، فإذا بالشاعر يصف لنا نفسه بدلاً من أن يصف دفنة المسماة اليوم بالحربيات. هذي مصيبتي بعمر في كل سياحتي في ديوانه ، فكأنه الخنساء يذكرهــا طلوع الشمس صخراً ، وتذكره لكل غروب شمس . أمــا ختام الديوان فقصيدة المتنبي لذكرى الألف ، نظمهــا على منوال ، « جللاً كما بي فليكُ التبريحُ » ، فجاءت رائعة تحليلاً وتصويراً ، على ما في الحاء من طحير وزحير في رأيي ، ومن اتساع وانبساط في رأي شيخنا الاعظم الشدياق، ولكنها لم تسلم من الغرابة ، ميزةِ شعر عمر يحيى .

في ديوان عمر وثبات ولكنها قليلة ، وفيه شعر ولكنه يطير من براثن قلمه ملهوفاً مذعوراً كعصفور أفلت من يد الصائد بالدبق . وقد رأيت أنه لا ينتهي حيث يجب أن ينتهي كما في قصيدته « كلنا يبكي على وطنه » ، بل ينتهي حيث تظن أن هناك شيئاً بعد ، كما في : « الغريب في العيد » .

كنت توهمت أن اللون المحلي سيكون كثيراً في الديوان ، فإذا به قليل، كما قلت لك ، وإن لم يخل منه كقوله في وصف قلعة حماة :

ولها إما تراءت في الدجى صور شتى تروع الناظرين

لا تستغرب الوصف في الدجى فحماة في الصيف تتنوّر ، وخير أوقات التفرج منها قرب الغروب وبعده ، وهذا ما أوحى الى الشاعر ما أوحى . لا يلطـّف ليل حماة الحامي إلا العاصي ، أما سحرها فكما يصفه الشاعر:

محمد مزجت باللين شدته كما يلطف ليل الصائف السحر

وتلي وصف القلعة قصيدة « على العاصي » ، وهي حافلة بشعر لا يخلو من برد النهر وسلامه ، وهبّات بليلة من نسيم أشجاره ، في آب اللـّهاب الذي كنت أزور حماة فيه .

وعمر يكثر من المعاني المبتذلة مثل : من جد وجد ، ويقطع الجوهر

في السيف الفرد ، والحق يعلو ولا يعلى عليه ، ولم يضع حتى نحاه طالب الغم. وهو لو ترك نفسه على سجيتها وأرخى لقريحته زمامها ، كما رغب امرؤ القيس الى التي حرمته من جناها المعلل ، لقال كثيراً مثل هذا البيت :

قلت والليث كليم رابض ... يرقب القيد بغيظ وحرد

وكقوله :

اذا ما أصاب الداء عضواً تحركت ... له سائر الاعضاء تشكو وتشرح

لست أزعم أن تعبيره الشعري بلغ الذروة في ما قدمت فقد كان في الامكان اكثر مما كان ، لو تأنى عمر . وقصيدته « يا قلب » تؤيد زعمي بأن الشعر يرسل إرسالاً تحت خفارة اثنين : الفن والقريحة ، وليس على الشاعر أن يركض وراء الغريب ، فلو كان في الغريب خير لما قال المثل: زوان بلدك ولا القمح الصليبي . ولقصيدة « يا قلب » اخت في الديوان اسمها « الكآبة » التي لا تفارق شاعرنا ، ولو كنت ممن يسمّون الشعراء لسميت عمر شاعر الكآبة والحرمان .

وفي قصيدة فلسطين قال بيتاً بديعاً :

تلك الضحايا لم تكن إلا صوى ... فيها لطلاّب الحيـــاة دليل

على ما في « صوى » من صفير ويبوسة ، ولكن متى حلت اللفظة محلهـا برئت ذمة الشاعر من دين النقاد المتنطّسين .

وتمر في ديوان عمر فترى نتفاً عديدة عنوانها « من قصيدة » وهذا يدلك على أن عمر يحب بناته كثيراً فلا يند منهن واحدة ، إلا أن بين هذه النتف بيتاً كاد يبكيني :

شبيبتي قد أوشكت أن تزول ... لا بدع أن تشجي ترانيمي

أما وداع غرناطة فشعر حي لولا هذا النمش الذي يقبح وجوه الحسان على ما فيها من معان ، فشرط الحسْن التام . ويدهشني ان ينتقل بنا من قصيدة « ذكرى الهجرة » التي مطلعها : « ذكرى تحول لنـا في نشرها عبر »،

انتقال سيدنا الجاحظ من حديث نبويّ شريف الى قصة ماجن متهتك .
نعم هكذا فعل عمر ، فقد أخرجني من جنة الهجرة الفواحة العبير الى أقذار سدوم وعمورة ، قال :

وثلٌّ من سكر المدام   وشدو ذي غيد اغنْ
لا تفرقنّ أكان أنثى   أم غلامـــاً كالغصن
ان قيل أخلاق قومٌ   مـــا يقال وغش فن

لا يا استاذ ، هذا من الكلام النازل بالمرة . أيصح بك قول البهاء زهير : « فافتضحنا واسترحنا » . أما أمرنا بالاستتار إذا بلينا بالمعاصي ؟ أعلى رأس السطح يا سيدي ؟!

ليت أخانا الشاعر والاستاذ استغنى عن هذه الأبيات فليست بالأبيات ، ثم انتقل الى قصيدة عنوانهـا « لقد قصّته » — الضمير يعود الى شعرها — فيصف لنا نعيمه هناك حتى يقول :

كأنا في ربى عدنٍ   فلا سكرٌ ولا صحو

قلت : نعيماً يا أخي . فلمثل هذا خلق فردوس عدن ، فاسرح هناك وامرح ما شئت ، وافقأ حصرماً في عين الحساد والعواذل ، ولا بأس عليك فأوراق التين تستر ، ولكن إياك ثم إياك أن تلتفت فيها بعد صوب البحر الميت ... فلا ورق هناك يُستتر به .

أما في مناجاة الورد فقال أبياتاً فيهـــا شيء كثير من قوس الشنفرى المتوف وخيرها حين تجاهل الشاعر فقال :

هل تطربُ الوردةُ في غصنِها   من نسمةِ الصبحِ وتشكو الغمومْ
وهل قطار الطلّ من كأسها   دمع الأسى أم سرور مقيمْ
تهتزّ كالأحلامِ عنـــد الصبا   أو فكرة الشاعرِ عند الوجوم

مسكين عمر ، لا يحس إلا بالأسى . وفي قصيدة « تشرين » قال شعراً ولكنه ركّ في آخرها حتى أرانا أوراق تشرين متناثرة أمامنا ، كقوله :

آليتُ لا أنسى الشهيدَ ومصطفى هذا عليّ مدى الحيــاةِ يمينُ
اما علاء الدين فهو أخو الصفا أبكيه ما « بكي » الخدينَ خدينُ

ولم ينسَ أن يحشر « جبرين » قافية في هذه القصيدة كما بكـّاه كثيراً على المرحوم فوزي الغزي حتى اسمعنا رنينه :

ولصوت جبريلٍ رنينٌ محزنٌ تهليل ثاكلةٍ على ميعــادِ

ما أرق قلب هذا الملاك ، وما أطوعه ، فهو شريكنا في كل أجر ، ولكن ماذا يبكيه هنا ؟ أوليس المرحوم فوزي ذاهباً اليه ؟ ! أما كان الأولى أن يفرح ؟ ولكن شاعرنا لا يعرف إلا الكآبة ، ولو كان كغيره لكلـّفه عملاً آخر ، وجبريل هو أطوع للشعراء من الخاتم بالخنصر ...

وفي قصيدة « بين دمشق وبغداد » مقطع جميل ، وأجمله هذا البيت :

كأني في البيداءِ فكرةُ حائرٍ تزولُ وتبدو بين آلٍ وعثـيَرِ

لولا غرابة اجتماع الآل والعثير في وقت معاً كما أفهم من كلمة بين .

أما رثاء نورس الكيلاني ، وهو موشح ، فثورة عاطفية تجيش فيها نفس الشاعر جيشان الفرات الأخطلي . اتبع الشاعر في موشحه هذا خطى لسان الدين بن الخطيب وختمه أيضاً : بجادك الغيث اذا الغيث همى ، وشبـّه الفقيد بيذبــل ، فاجتمع له الشرق والغرب ، رغم أنف كبلنغ شاعر الامبراطورية البريطانية الذي قال : انهما توأمان ، والتوأمان لا يجتمعان .

أما الهفوات النحوية ، وإن قلّ اهتمام الناس لها ، فمنها : وإن ننس لا ننسى ، وان نسلو لا نسلو ، ولا الليث ليثاً بعدما قعدت بنا ، وقوله :

— رحم الله يا فؤادي « دموعي بددتها » الأحداث يسرى ويمنى
— اذا رمت السرور فهاك « غاو » بجب الخمر يستجلي الأقاحي
— مر « عشرون سنينــا » وهـــو يجـري ويكد

فهذه العشرون سنيناً تعبير غريب ، ولا تقلَ عنها : لاهِ المصائب ، أي لله المصائب ، كأن الاستاذ درس ابن عقيل مثلي فهو لا يزال يذكر

الشاهد : لاء ابن عمك الخ . ولكن هذا من الشذوذ ، وما أغنانا نحن عن مثله ، فيا لنا والعنزة الثانية ...

وبان لي أيضاً أن الشاعر يقطع الجملة العربية أي يستأنفها متى شاء مع أن ربط الجمل حسن عربي ، انتبه ونبّه اليه شيخنا الشدياق حين قابل بين العربية ولغات الغرب ، فليراجع . نحن لا نطالب الشاعر باختلاس ياء العاصي ، فهذا بالقياس لجبرين مقبول ، ولا بد من التصريح بأني أخشى كثيراً أن يؤدي رفع الكلفة بين اخواني الشعراء وبين هذا الملاك الذي يزورنا كثيراً ، أن ينادوه أخيراً : يا جبر ، ويستريحوا .

وشاعرنا يسكّن أواخر الأفعال فيقول مثلاً : قضيْ على ، وهذا خلل لا يتسامح فيه مع شاعر حموي نشأ كبشار بين شيوخ وأيمة ، تتذكر ، متى حدثتهم ، العرب الخلص . فهم جميعاً يتكلمون الفصحى ولا يلوكون ألسنتهم ، وهذا قلما تجده في غير حماة العربية اللسان واليد والبيوت.

أقول البيوت وأعني ما أقول ، وشاهدي اعلان كتبه الزيروني ، صاحب فندق العاصي ، واليك نصه : « على الذوات الذين يأخذون الزبائن الى بيوتهم أن يؤدوا لنا البدل ، أو يشاركونا في دفع اجرة الفندق يوم الاستحقاق .. »

ألا يدلك هذا على أن صاحب الفندق مهدد دائماً بأخذ زبائنه الذين ينتظرهم بفارغ الصبر ؟ أقول هذا لأنني كنت ممن أخذوا ، وكيف لا أنوّه بفضل ذوي الفضل ؟ فليسعد النطق إن لم تسعد الحال !

ان صباح العاصي ومساءه يوحيان الشعر ، فأتمنى لصاحبي الشاعر عمر يحيى ديواناً أنضر من « البراعم » ، وهو فاعل في ديوانه العتيد . فقد رأيت آخر شعره خيراً من أوله . أما في هذا ، وهو براعم كما سماه ، فلولا بعض حوادث تاريخية كذكرى المتنبي مثلاً ، ولولا ومضات كنار الحباحب ، لظننا شاعرنا عمر يحيى ممن عاشوا قبل الهجرة .

٢ — ١٩٣٧

عبقر لشفيق معلوف

١

قصيدة عدد أبياتها مئتان وثلاثة وسبعون بيتاً ، أكثرهـــا مقفى على الطراز العربي ، والبعض الآخر على النمط الفرنجي العتيق . بحرها هادىء غير عجّاج ، رخو قليل الحيل كالكاهن سطيح أحد أبطالها . أما عناوينها فستة وعشرون عنواناً .

أخرجت هذه القصيدة في مئة واثنتي عشرة صفحة ، منها إحدى وعشرون بقلم والد الشاعر الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف ، مطبوعة على ورق صقيل فاخر ، مزينة برسوم رائعة أبدعتها ريشة المصور الطلياني فرنكوشيني . ولولا تقطع بعض الحروف عند ضبطها لسلم إخراجها من كل عيب .

موضوع القصيدة شبه قصة هذا مساقها : ينام الشاعر فيتضحّى ، وتدق ساعة اليقظة فينهض — لم يذكر إذا كان تمطى أو فرك عينيــه — فيرى غمامة يسير تحتها شيطانه . يقبل الشيطان نحو شفيق ويحييه ، فيسأله عن مقدمه السعيد ، فيخبره الشيطان انــه آتٍ من عبقر . ويدعو الشاعر الى زيارتها فيركبه شفيق ويطيران الى « البلد المرصود » فيعجبه الموضع . يطوف بالأبراج فيرى الجن أشكالاً وألواناً ، على نسق ما أنبأنا « السنكسار » عن

ظهورها لآبائنا القديسين . . وكما صورها فلوبير في روايته « تجربة القديس انطونيوس » : أقزام يركبون مطـايا من يرابيع وأنعم وديوك وعظايات وقنافذ وسلاحف ، وإن كنت ملحاً تريد أن تفهم جيداً كيف يكون عالم الجن فعليك بالجاحظ .

ونزل الشاعر عن ظهر شيطانه مرة ثانية أمام « عرافة عبقر » ، ومن صفات عجوز الخير هذه انها تتزنر بثعبان ، ومع هذا الزنار العجيب يرتخي ظهرها ، فترتاع العرافة لرؤية الشاعر ، ويهز الدنيا صريخها ، وتسمع الشاعر كلاماً فجـاً ، تدعس في آخره على ذيله .

يغضب شاعرنا غضب فزع ، أي بهدوء ولين ، فيهدىء شيطانه روعه – وهذه أول مرة يكون فيها الشيطان ابن حلال ، محب السلامة – ويحكي له حـكاية أميرة الجن اللهبانة ، فيسفهها الشاعر وشهوتها التي لا تشبع. وتغني الجنية مشتاقة الينا لتطفىء نارها ، وتتمنى اتعابنا وعذابنا لتحضن وتحتضن.

وينقلنا الشاعر من عند هذه الجنية الجميلة التي أبدعت تصويرها ريشة المصور أكثر من قلم الشاعر الى الكاهن سطيح ، ثم الى المحترم الآخر شق ، فيسألها حكمة فيعلمانه شيئاً كلاشيء ، أي ما يعرفه مفكر بين بين .

وينتقل الشاعر فجأة حتى بدون « دع ذا » النابغة ، الى غابة الحور ، فيريناهن في أعشاش ، ويقول له شيطانـــه انهن اتعبن شياطين جهنم ، فشكوهن الى الله ، فنفين الى عبقر رحمة بالأبالسة ، وحفظاً لسلامة دولة النار ، فقد كن يطفئن الوقيد ...

وهنا يسمعنا الشاعر نشيداً كله عتب على الله الطويل الروح والبـال – والعتب على مقدار المحبة – فهو الذي خلق لهن قلوبـــاً تحب ، فكيف يعاقبهن على فعلتهن ؟

ولا ينتهي حديث هـذه الجنية حتى نقف « على حدود عبقر » فنرى

مقبرة ولكن العظام فيها مكشفة، وما تلك إلا عظام الشعراء ينقلها شياطينهم من أقاصي الارض الى عبقر، المدينة الأزلية .

يسأل الشاعر المعلوف تلك العظام الهزيلة عن ماضيها ولياليها، فيخرج من عندها بأنه لا يبقى إلا أحلام الشعراء، ويرفض أن تقام لهم الأنصاب والتماثيل، ويقول هو أو الشعراء: كل شيء بلا الحب المعلوم خراب، وهنيئاً للأرض.

هذا سياق رؤيا الشاعر، أما كيف دبّر خطته بالتفصيل، وأين قصّر وأجاد، فهذا ما نقوله لك بعد كلمة لا بدّ منها في هذا المقام .

قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحد من علم النحو الى ما يحتاج اليه حتى يتعلم ما لا يحتاج اليه . ونحن نطلب كثيراً لنحصل على كفاف يومنا، أما إذا صح فينا المثل : « من طلب الزيادة وقع في النقصان »، فتلك مسبة، فالرجاء من اخواننا ان يصبروا علينا، ولا يتهمونا بالتمنتُت والتقعّر .

جاء في القرآن الكريم : « الشعراء في كل واد يهيمون ». وما في هذا شك. فهذا واحد منا يذهب اليوم الى اروع الأودية، كما ذهب قبله كثيرون الى جهنم والسماء من يوحنا وأغوسطينوس الى أعمى المعرّة ودانتي شاعر الطليان . فإيمان الشعراء بشياطينهم قويّ، حتى ان العقاد قال شيئاً فيه، فأغوى الدكتور طه حسين .

أنا لا استكثر هذا، فالشعراء شركاء ربنا في تدبير الكون، والمتفلسف منهم يظن أنه هو الله بعينه، وقد يقتنع بأنه ابن عمه، أو على الأقل ابن ضيعته.

ولكي نبرىء ذمة شاعرنا من الاعتقاد بالشياطين نروي للقارىء حكاية الفرزدق حين أفحمه الانصاري فركب ناقته مع الفجر حتى بلغ ذباب « جبل المدينة » فنادى بأعلى صوته : أخاكم ! (يعني شيطانه)، فجاش صدره كالمرجل وقالها مئة وثلاثة عشر بيتاً، وهي التي على الفاء، ومطلعها «عزفت بأعشاش» الخ . والتي يقول الرواة أنه اغتصب بيتها المشهور:

ترى الناس إن سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا الى الناس وقّفوا

ولما سمعها الانصاري قام كئيباً .

إن قصص شعراء العرب مع شياطينهم أطول من قصص الحيات، وأخبار الجن أكثر، وللعرب في عبقر وسكانها حكايات طريفة يرويهـا لك الجاحظ مترصّناً، فتخاله يجدّ وهو يهزأ ويمزح ويسخر، وقد قسم هذه الطوائف إذ روى عن ابن عباس قال : « السود من الكلاب الجنّ ، والبقع منها الحنّ ، ويقال أن الحن ضعفة الجن ، كما أن الجنيّ إذا كفر وظلم وتعدّى وأفسد قيل شيطان، وإن قوي على البنيان والحمل الثقيل وعلى استراق السمع قيل مارد، وإن زاد فهو عفريت ، فإن زاد فهو عبقري» (كتاب الحيوان جزء ١ص ١٤١). أرأيت أن سادتنا العباقرة أرقى رتبة من العفاريت والشياطين ؟ حقاً ان الشعراء عفاريت وشياطين كبار ، أعوذ بالله من مطامعهم !

* * *

لا نحتاج الى كدّ فكر لنعرف ما أوحى الى الشاعر شفيق موضوعه هذا ، فهو اخو فوزي . المرحوم فوزي ركب الطائرة ، فلا بدع أن يركب شفيق شيئاً آخر ، فكان شيطانه ورحل كأخيه في طلب الحكمة والفلسفة . طلبها برزدين دي سان بيار بواسطة صاحبه في الكوخ ، وطلبها المعلوفيان فوق الفوق وتحت التحت ، وإن يحذ أحدهم حذو الآخر فنحن اللبنانيين مشهورون باحتكار المهن في بيت واحد نتوارثها خلفاً عن سلف، وليخلف علينا الله ما شاء .

قد جعلنا في هذه القصيدة كلّ وكدنا فجئنا ، ننقدها مقطعاً مقطعاً لأن أدبنا يسير عـلى درب جديدة . وشعراؤنا الجدد يطرقون أبواب الأدب العالي ، فلا يليق بنا أن نقف قبالتهم مكتّفين . ولذلك سنقول كلمتنا في هذه القصيدة البديعة لنرى ما بلغ شاعرنا شفيق من التوفيق .

لم تلهني فخامة طبعها وطرافة رسومها عن كلماتها ، فقد غمضت عيني عن ذلك ، فالناقد كالأثري لا يستهويه تحريم التحفة ، وشرف معدنها . فقد يرمي قطعة مزوقة ، ويعنى بصحن فخار مشروم اكثر من تمثال مصوغ من ذهب عيار ٢٤ .

عبقر ، ككل القصائد، فيها شعر وفيها نثر، أي شعر كالنثر ، والكمال لله. وكيفما قلبتها يظل اسمها أكبر منها ككل أسطورة . والذي عندي أن الشاعر قدم طبيخه للناس قبلما نضج ، وسيندم بعد حين ويذكر كلامي هذا — بعد عمر طويل — وإن سؤته اليوم فسوف يترحّم عليّ غداً ، ويذكر بالخير إخلاصي له وللفن ، فأنا واحد من الذين يعلنون رأيهم بلا محاباة ، ولو سحبوا من المجلس كاسحق ، ولعنة الله على كل مُخارق .

إني أرى القصيدة تمشي مشياً وئيداً كتلك الجمال ... وهي لا تمشي مشياً هيناً ليناً . فإما أن شيطان شفيق عنيد غير رهوان ، وإما أن شاعرنا غير خيّال .

يأخذ الشاعر حوادثها واحدة واحدة ، كأنه مستنطق يبحث عن الجاني فيخشى التقاء المتهمين ، أو دنوهم من بابه لئلا يفسد التحقيق ، أو كأنه رجل يزور ضيعة فيدخل من باب ويخرج من باب ، والضيافة معلومة فنجان قهوة ، وشيء من النقولات أحياناً . ولهذا جاءت عبقر باردة الحركة جامدة ، فلا حياة فيها ولا في أبطالها ، فكأنهم ليسوا جناً ولا عفاريت...

عالج المعلوف موضوعاً يشبه موضوعَي المعري ودانتي من ناحية . أما قال هكذا من انتقدوا ، والصحيح من قرّظوا ، هذه القصيدة ؟ اننا نجاريهم في هذا الزعم ، ولكن شاعرنا بَلا نفسه وبلانا معه بشخوصه الوهمية ، فلم تتحرك تحت قلمه ، رغم اجتهاده وجهاده ، إلا تحرّك من تهوّر قلبه عند الحقن ونخز الابر .

استعار شاعرنا شيئاً من دانتي ، ولكنه لم يمش في إقليمـــه . فهذه القباب والأبراج مثـل التي في « مدينة الشيطان » لدانتي ، وهذا النور من نارها ، والفرق بين النار والنور بعيد ... وحرس أبواب جهنم دانتي طغمة من الأبالسة كحرس عبقر المعلوف ، وبنات الشر الثلاث يصرخن صراخ « أميرة الجن » المتمردة مثل « مارينانا » ودانتي.

ابتدأ الشاعر قصيدته كما يبدأ الطالب فرضه ، فلا بدّ من أن يذكر ماذا كان يصنع قبل أن عالج موضوعه ، وهكذا فعل شاعرنا فقـال لنا قبل رحلته الى بلاد أحبابنا :

صاح هي اليقظة دبّت على ... جفنيّ فاستلانت الموطئا
وعالجت بالنـــور بابيها ... حتى استخارت فيها ملجأ

جميل جداً دبيب اليقظة ولكنه لي على هذا الافتتاح اعتراضات جمة . انه لم يدل القارىء على شيء من خطورة الموضوع ، بل لم يقربـه منه أبداً ، وهذا شرط من شروط الملاحم ، إن كانت عبقر ملحمة كما زعموا . ثم كان في مكنة الشاعر أن يتخلص من « صاح » التي تذكر بصاح هذي قبورنا الخ . أو بخليلي مرّا بي على أم جندب . والصورة في البيت الثاني جميلة أيضاً ، ولكن الشاعر لم يحسن استعارة البابين ، فركبها لمن ليسا له ، ثم ماذا رأى في « استخارت » ؟ فهي ، بله كراهة لفظها ، غلط لغوي فليست بمعنى تخيرت كما أراد الشاعر .

أما ما قالته اليقظة للشاعر فجميل ، وجميـل مثله الكلام الذي قاله الشاعر لها ، ولكن البيتين الأخيرين أخوا النثر :

ومن تكن حالتـه حالتي ... لم يستمض بالأسوإ السيئـــا
ما الفرق في نومي وفي يقظتي ... وكل مـا في يقظاتي رؤى

فقوله : « ما الفرق في نومي ويقظتي » لا نرضى بـه في قصيدة نتمنى

أن تكون من بنات السلامة . لو كانت من شعر المناسبات الذي يموت بموتها لهان الأمر ، ولكن نظرتنا اليها أكبر وأوسع .

ويستيقظ الشاعر بعدما تضحّى ، فيرى شيئاً جميلاً وصفه لنا بقوله :

على الربى استلقى شعاع الضحى | يبعث فيـــه الارج العاطر
فعانق الزهر وضمتهـــا | غمامة علقهـــا النـــاظر

ويظهر الشيطان لشاعره سائراً تحت تلك الغمامة فوصفـه الشاعر ، فأبدع ، ولا سيا في البيت الثالث :

في فمـه من سقرٍ جذوةٌ | منها يطيرُ الشررُ الثـائرُ
ووجـــهُ جمجمةٌ راعني | أنيابهــــا والمحجرُ الغائر
كأنمـــا محجرُها كوّةٌ | يطلُّ منها الزمنُ الغـابر

ولكن في هذا الشيطان ، كما وصفه الشاعر ، ملامح جهنمية ، فهـل عبقر سقر يا ترى ؟

أما إقبال الشيطان على شاعره فكان بليداً ، ثم شرع يحدّثه حديث سائق سيارة ينتظر خروج الخواجه من البوابة :

أقبـل نحوي قائلاً انني | طوع لمـا يقضي به الآمر
أتيت والليل طوى ذيله | فعم صباحاً أيها الشاعر

أما التحية ، فلولا أنها جاءت متأخرة ، لكانت طبيعيـة . فهذه تحية الجاهلية ، ونحن فيهـا ، كما علمت من ذكر شق وسطيح . ولكن طيّ الليل ذيله غير مستحبة ، إلا إذا اعتبرناها من لغة الشيطان – كما فعل بشّار مرة – فالشيطان ذو ذنب كما صوروه لنا ، ولا حرج عليه ان يخطر الذيل على باله .

٢

أما حديثه مع شيطانه فمادي ً: من أين جئت ، أمن فوق أم من تحت ؟ فيقول الشيطان أنه قادم من عبقر التي :

تسوسُ فيها الجنّ عرافةٌ ترى بزجر الطير ما لا يرى
ساحرةٌ مطلسمٌ مسحها تطوي به الأجيالَ والأعصرا

رائع هو هذا المسح المطلسم ، وسحر البيان يدب في هذا البيت دبيب الخمرة الأخطلية ، ولكنني أعجب كيف تخصص هذه العرّافة الجليلة بزجر الطير ، ثم لا ترى ريشة واحدة في العالم الذي تعيش فيه ، اللهم إلا أن يكون الديك منها ، ولكنه لا يلائم الكهنة إلا على السفرة ...

ويدعو الشيطان الشاعر ، الى مجهل موعر ، الى عبقر حيث :

جن من النور جلابيبها من كل سعلاة ترى نيرا
تضطرب الارض متى أقبلت قاذفة عزيفها المنكرا

لماذا استعار لهؤلاء الجنيات ثياباً من النور ؟ وهل يكون العزيف أشد هولاً في النور فتضطرب له الارض ؟ وهذا الشيطان الذي قال للشاعر منذ هنيهة انه « طوع لما يقضي به الآمر » قد أصبح الآمر الناهي .

قل لا غرابة في هذا ، فمن طبيعة أصحابنا الشياطين أن يغووا الناس ويوسوسوا لهم . فما قال لشفيق :

فقم بنا صاح الى عبقرٍ نؤم ذاك المجهلَ الموعرا

حتى رأينا الشاعر راكباً شيطانه على الجلد ، بلا حزام ولا لجام ، ولا ركاب . عرفنا ذلك من قوله :

وانطلق الشيطان في الجو بي   كأنــه النيزك أو أسرع
مكّنت من فقاره قبضتي   مندفعاً أصنع مـا أصنع

يعلم الله ماذا ، بل ماذا يعنينا مما يصنع ؟

وسافر شفيق مخاطراً بنفسه ، ورأى سحنة شيطانه المفزعة ولم يضطرب له عرق ، لم يقل في أحرج المواقف أكثر من « راعني » فكان أثبت جناناً من عمر في ليلة ذي دوران . غير أنــه أحس برهبة في هوة فزاد على راعني « واهي الجنان » .

وسألت نفسي لماذا لم يغد شفيق لهذه الرحلة قبل أن حميت الشمس؟ فلو وصف شيئاً من غرائب الطريق لقــام له عذر ، ولكنه كان في طيرانه ووقوعه أسرع من النور .

قبل أن رحل دانتي رحلته العظيمة ، وصف لنا رعبه وخوفه ، ثم غشي عليه مرات ، أما شفيقنا فكما رأيته ، انطلق في الجو كالسهم ، ثم تهاوى ككواكب بشار بن برد ، الى موضع أعجبه كثيراً فوصفه لنــا ببلاغة مار بولس الذي قال بعد رجوعه من السماء : « لم تره عين ولم تسمع به اذن ، ولم يخطر على قلب بشر ما أعده الله للذين يحبونه » . لقد قال شفيق اخصر من هذا وأوجز :

ثم تهاوى بي الى موضع   ما راقني من قبله موضع

وكذلك فعل في وصف الأبراج :

فيا لأبراج ضخام البنــا   ملء الثرى ملء السموات

ان « جوامع الكلم » كثيرة في قصيدته هذه ، وما عليك إلا أن تختار أنت ما يحلو لك من الصور . تصوّر أبراجاً ملء الثرى ، ملء السماوات ،

وقل سبحان الخالق ... أما عبقر فخطّطها على :

غمائم زرق على متنها مـنازل جدرانها تسطع

أشهد أنه أصاب جداً ، فالعرب يخافون الجنّ ويتطيرون من العيون الزرقاء ، ولكنّ إنارة الجدران بأشعة رنتجن حتى سطعت جدرانهـــا لا تواتي السكان الذين قال فيهم الشاعر :

أتوا ناري فقلت منون أنــتم فقالوا: الجنّ ، قلت عموا ظلاما

ما لنا وكل هذا . فقد تكون عبقر باردة ، كما زعموا ، وقد يكون سعر النور رخيصاً في تلك البقعة الخافية ، وقد تكون الشركات في عـالم الجن تهاود ولا تطمع ... ووصف الشاعر عبقر بلسان شيطانه وصفاً مفزعاً :

تثور في أبراجهـا ضجة بهـا يضيق الافق الأوسع
عزت على الانس فمن حولها أبالس الأبراج تستطلـع
جهاتها الأربع مرصودة تحرسها الزعازع الأربع
ما أفلت الانسيّ من زعزع إلا تلقّى صدرَه زعزع

ثم دخلها وطاف بأبراجها كعقيد جيش يفتش الخنادق والمكامن ، وما خاف ولا اصفرّ . رأى الجن أشكالاً وألواناً :

فمن يرابيع ومن أنعـم الى ديوك وعظــايات

ثم ركب شيطانه الى عبقر ، لا يلتفت الى « أنعم » ليعلم أنها ليست من انعم الله التي لا تكفر . لم أعرف المسافة التي بين الأبراج وعبقر ، ولكن الركوب خطرة ثانية يدل على البعد ، ولولا ذلك لتمشى الشاعر وشيطانه ووصف لنا ما هنالك وأرانا مـــا لا نرى ، ولم يجعل اكثر هذه القصيدة تحويماً وتدويعاً ...

وحوّم الشيطان على عبقر يشعرها بعوده ، وحطّ أمام المرافة التي قال في وصفها :

كأنما الله لدى بعثهـــا زوّدها بكل ما في سقر

فاستعاذت بالشيطان من شر الشاعر . لقد غاظ قدومه العرافة وروّع الجن . سمعنا ان الناس يخافون الجن ، أمـــا شفيق ففزّعهن وهرّبهن فاختبأن بين الشجر .

أتقول انه صلّب يده على وجهه ؟ أو قال في قلبـــه ، على الأقل : « باسم الصليب المقدس » ، شرط الندامة عند الموت لربح الغفران الكامل ، والذهـــاب توّاً الى الفردوس ؟ وإلا فما سبب خوف الجن الشديد ؟ ولمـاذا تدمم العرافـة سخطاً ، حتى اقشعر أديم الارض تحت الشاعر ؟ ولكنه كان ، والحمد لله ، أشد تماسكاً من بحتري السينية ، فاهتزت الأرض ولم يهتز .

أما العرّافة فانفشّت كربتها في الحال ، فهدأت وصارت وديعة كالحمام وحكيمة كالحيات ، بيد أنها فلتت لسانها ككل عجوز غضبانة ، وعيّرت الشاعر بما تعيّر به العجائز : مكار ، شرير ، حية سوداء ، وبكلمة مختصرة : أزعر ... واليك بعض كلامها منظوماً :

وددت يا غادر لـــو انني أطلقت شيطـــاني لا ينثني
عنـك فيرديك ولكنني أخشى على الشيطان من غدرك

شعر من طراز شعر ابن أبي ربيعة المصرع ، وهذا نموذج منه :

يا ذا الذي في الحب يلحى أما تخشى عقاب الله فينا أمـــا
والله لو حملت منـــه كما حمّلت من حبّ رخيمٍ لمـا
لمت على الحب فدعني ومـا اطلب إني لست أدري بمـا
قتلت إلا أنني بينما الخ ...

أو كما كتب تيوفيل غوتيه شعراً على قافية واحدة الى شارل غارنيه جواباً على دعوة لعشاء ... ترى العرافة الشاعر شراً من الافاعي وأشد

غدراً ومكراً ، وقد اخطأ الشاعر حين قولها :

ليس هذا الصل بالافعوان
بـــل أنت يـــا إنسان !

فالصل كما عرفه القاموسيون أخبث جداً من الافعوان ، وان كان اسم الافعوان أطول ... وما أظن الجاني هنا إلا القافية ، وكم بذمة هذه الجارية من ذنوب !.. ثم ماذا نخسر لو ألصقنا هـــذه الخطيئة بالحية ولعنّاها ؟ فهي التي أدخلتنا اليوم والأمس في التجارب !..

وبلسان العرافة أفهمنا شفيق أيضاً ان الجن أشد إيماناً بالله منا :

جعلتَ نفسك أعلى في الارض من ربـــك

وبعد ان تصمنا العرافة بحب الذات وأكل الأموات – وهـــذا النعت الأخير يليق بالشعراء – تتنبأ للانسان ان ليس خلف ضحاه الا دجى ليله

حاول الشاعر أن يعالج مسألة الجلود الهرمة ، فتوسل الى ذلك بغسالة من المخلوقات كشق وسطيح ، وغيرهما من جن وحن ، فأساء الى الفلاسفة الذين يحلون بحيوات أخرى – لا أدري كيف أجمعها لأرضيهم ، وكيف تجمع واحدة غير كاملة – ويرون الدودة من قرائبهم، ويقولون للغراب لبيك، كما فعل قبلهم بهاليل الصوفية .

ثم تجبر العرافة خاطرنا فتقول أن الشعراء يحكون آلهة في السماء ، ولكنهم يظهرون غير ما يبطنون، وعبّرت عن هذا بكلام ناشف مثل وجهها:

فهات حتى نرى مـــا خبأت من هولـــك
يا ابن السلام اذا ما دسنا عـــلى ذيلك

وقد وضع الشاعر « على » بين هلالين ظاناً أن التعبير عامي غير فصيح، وقد قـــال مثله الشنفرى أخشن الجاهليين في بيته المشهور الذي استعان بمفرداته المجمع اللغوي المصري لخلق ألفاظ جديدة :

دعست على غطش وبغش وصحبتي سعار وارزيز ووجر وافكل

وداس تحمل على دعس فتعدي بعلى مثلها . وبهذا الختـــام خطّت العرّافة الشاعر من مصف الآلهة الى جماعة الى لا اسميها، فاستاء شاعرنا وقال لشيطانه:

شيطانَ شعري قم بنـا نرتحل عن هذه الارض وغيلانهـا

فطمأنه الشيطان ولهاه بأغاني « أميرة الجن » المسوسة . وعندي أن « حسرة الروح » أحد العناوين الستة الكبرى المتضمن أميرة الجن، والشهوة، وأغنية الجنية ، خير مقاطع هذه القصيدة . فهـذا المقطع عاطفي ، وشفيق ككل شاعر عربي يجيد بسط العاطفة اكثر من وصف المحسوسات ، فقـال وقلت ، ورح وتعال ، وما أشبهها من نظم الأخبار تركها العرب وحايدوها . ولهذا قلنا في صدر هذا المقال : أن المصوّر أجاد رسم أميرة الجن أكثر من الشاعر الذي لم يتعدّ حدود الخيال العادي : الشمس كوّرت من حلقات النور أضلاعها ، رمت الى الارض أعجوبة ، شفافة كالنور ، فجاءت هذه المخلوقة في شعره كالمقول عنه في قانون الايمان : نور من نور .

وأرانا الشاعر هذه الجنيّة تحصد الهواء حصداً يثير ويفتن ، وإن بدا لنا كما تروي أساطيرنا من مظالم فرعون :

ثم أراهـــا وهي مأخوذة تطوي على مـا لا أرى باعها

فالشهوة التي لا تروى تقيمها وتقعدهـا فتتلوّى كحية فوق ملة . لا تدرك الجسد لتشبع فهي جائعة ثائرة صاخبة ، وتغني فتقول لنا :

هل أنا إلا ذرة من ضيـاء هل أنا إلا زفرة الله قـــد
صعّدهـــا فوق قباب الجلد فلم تزل لاهبـــة في الفضاء

لا تتمنى هذه المسكينة إلا نقطة من ماء الحياة تطفىء لهيبها ، فهي تريد أن تعمل مثل الناس ولا تقدر ، فقلبها محروق . خبرتنا انهم هناك لا يتلذذون ولا يتنعمون مثلنا ، فالأرواح في دنيا ممالك الارض وما عليها كقطع الغيم

تضمحل متى تعانقت ، ولا تثبت للعراك البشـّاري المغازل الأشِر .

ويفيض الشاعر في وصف تحسر الجنية على ملذاتنا التي يسميها القليلو الذوق منا « بهيمية » وهم ثمرتها المباركة ، ثم يخبرنا بلسانها أيضاً أن النعيم المقيم مضجر . هذا ، والله العظيم ، شعوري . فأنا خائف من الآخرة وخلودها الهادىء الرصين . أنا خائف جداً من رؤية الكاروبيم والساروفيم ، والملائكة وأجدادنا الآباء الأبرار والصديقين الهيـّبين الذين لا يحولون ولا يزولون من وجهنا ، ولكنني سأتكل على الله ، سبحانه وتعالى ، وألبـّي الدعوة .

وأخيراً أرانا الشاعر بلسان جنيته هذه أن كل الصيد في جوف الفرا ، أي كل اللذة في الجسد ، فقال :

ما نفع روح خالد عشت فيه ما زلت لم أحضن ولم أحتضن

لا نجادل شاعرنا في هذا ، لأننا نعلم ماذا ينتظرنا هناك ، فالقول مختلف. نعم لا نجادل لئلا يصيبنا ما أصاب ذلك الفلكي الذي نظر الى النجوم فسقط في الحفرة ...

ولا تنتهي « أغنية الجنية » حتى يسلمنا الشاعر الى « حكمة الكهان » . ان هؤلاء المحترمين هم هم ، كما في السماء كذلك على الارض .

هذا سطيح وصفه شاعرنا وصفاً حسناً كما تخيـّله العرب ، وجعله لحماً بلا عظم ، كما يقول في الباذنجان من يحبونه . وزاد عليهم المحيط الجهنمي حتى حيرتني عبقر هذه . ولم أهتدِ الى حل لها أحسن من تشبيهها بالمطهر ..

وهناك أيضاً الكاهن شق ، وهو في نظر شاعرنا أعظم من سطيح. ومغارته – إن جاز لي الاعتراض على المصور – كأنها صنع يد ماهرة ، فإما أن الكهوف الايطالية غير كهوفنا ، وإما أنه رسمها بديعة هكذا لأن بُناتها من اولئـك الذين بنوا تدمر بالصفاح والعمد ... وشق جالس على باب مغارته كالخيتعور – جني كنيته أبو هدرش – في رسالة الغفران .

٣

وقف الشاعر بباب الكاهنين الجليلين يصيح :

يا كاهني عبقر هل حكمة　　　أعدها للغد بين المدد

فلبّى سطيح وافتتح الحديث كالكهنة بالدعاء ، فقال للشاعر :

أقالك الرحمن من عثرتك

هيهات أن يردعك الزاجر　　　ما لم يك الزاجر من حكمتك

انها لحكمة أقدم من الخبز . والبيت ممسوخ – كما عرف ابن الأثير السرقات الشعرية – وهذه صورته الأصلية :

لا ترجع الأنفس عن غيّها　　　ما لم يكن منها لها زاجر

وقد شوّه شفيق الكلام بنسخه « ما لم يك الزاجر » فترك النون هنا لا يجوّزه النحاة . ويخبر سطيح الشاعر أن الله حين خلق الأنام خصصه هو – أي الكاهن – بمنتهى رحمته ، فسلّ عظامه « وملأ الفراغ من حكمته » كما يفعل الطاهي الاستاذ بالسمكة ليقدمها مع الأدام بلا حسك ، في المآدب العبقرية ... أما الحكمة التي يقول المحترم أن الله حشاه بها فهشّة كالصوفان : الرياح تنام ، ويعقب الليل الصباح ، وتخلف الشمس الشهب ، والخلق حمقى وأغبياء ، يجرون كالعميان خلف القدر ، وفوق رؤوسهم سيف القضاء ، وتحتهم الحفر ، وسطيح قابع في مغارته على عرشه الذي يخلد ، وانه ولّى الدهر ظهره فقابله الدهر بالمثل .

كان سطيح شاعرنا والدهر كجارية المعري التي حملت ابن القـــارح « زقفونه » ليجوز الصراط . أما الحكمة الخالدة التي راح بها الشاعر من عند سطيح ليعدها للغد بين العدد فهذه هي :

الحكمة الحكمة في بسمةٍ   تمخّض الهزءُ بها في الشفاه

لقد أضحكني هذا الكاهن الذي يوصي بالابتسام وهو أمرط كالوطواط لا مبسم له !.. وإن كان هذا سلاحه في حرب الدهر فلماذا صوره الشاعر يشك في وسطه « مدية ثار غمدها من دخان » ؟

وأغرب من هذا استعارة التمخّض للهزء والشفاه ، إذ لا بد للتمخض من طحير وزحير وليس تخرجه من الباب الفوقاني ، ناهيك ان الهزء يرتجل ارتجالاً .

أما شق فيقول أنـه نصف انسان « وقد شُقّ من أعلى الى أسفل » . ولكي تتصوره جيداً ، تأمل القصاب حين يقدّ الذبيحة على الدودة . وشقّ هذا ، كأخوته بالرب ، يحمد الله على كل حال ، فكأنه يقول بلسان داود : «الرب نوري وخلاصي فمن أخاف» ؟

أقفز فوق الارض مثل القطا   والله يهديني سواء السبيـــل
لو شئت أن أعلو أو أهبطا   أعلو بحيـلٍ ثم أهوي بحيل

إنه ينط هذا النط وهو شقفة إنسان ، فكيف لو يكون مثل الناس؟ وشق كما بدا كلامه مسيحي لا غش فيه ، وشعاره : « إن شككتك عينك فاقلعها ، أو يمينك فاقطعها ... » وهو وإن نطق من نصف لسان وفم فقد بلا دهره ولم يصل الى الحكمة لولا السكوت ، ويكفيه قلب نصفه نيّر « لا كان قلب نصفه اسود » .

أما الحكمة التي زود بها شاعرنا فهي :

سبحان ربي وهو رمز الكمال   اني لولا النقص لم اكمـــلِ

لو قال المثل : القرد في عين نفسه غزال ، لقلنا صحّ في شق ، ولكن

الأمثال لا تتغير عن مواردها . أما حكمة شق فتنقض فلسفة الشاعر التي وضعها على لسان العرافة . ولو تأملها لردعته عن تعنيف الانسان وسخطه عليه .

ومن حكمة الكهان المملة ننتقل الى « ثورة البغايا » ، والضد يظهر حسنه الضد ، فنرى في « غابة الحور » أعشاشاً مطينة بفتيت المسك ، والحور فيها عاريات شُعث الشعور ، طبقاً للمثل القائل : شعرها منكوت مثل الجنيّة .

وما رأت الحور الشاعر ، حتى فررن ووقفن منه بعيداً يغمزنه ، فعرف فيهن بنات الفجور – هن هن في الدنيا والآخرة غمّازات متشيطنات – .

ويمن الشاعر في تصوير نهودهن وتشبيهها :

هل النهود البيض الصقنها من نتف الغمام فوق الصدور ؟
والنقط الحمراء في وسطها أهي من الفجر بقيّات نور ؟
أم بقع منذ عناق الهوى تؤجّ فيها جمرات الثغور ؟

فلولا « الصقنها » في البيت الأول التي أرتنا النهود ملزقة تلزيقاً لتمّ له ما اشتهى من فن رفيع .

ويخبره شيطانه : انهن ثرن على الله وأبرمن الجهنميين ولذلك « زجّ بهنّ الله في عبقر » .

وهنا أحتجّ باسم صاحبي جبرائيل ، فشفيق جعله خازناً للنار أو وقاداً لجهنم ، أو لا أدري ماذا ، بقوله :

إن ينفض الرجوم عن سيفه جبرين قهقهن لجبرينا

قلت لا أدري ماذا ، لأن هذه « الرجوم » مضطربة مثل اضطراب الاسطورة . فجبرين بشير سلام ، ورسول خير ، وجهته دائماً صوبنا لا صوب عبقر ، فهو لا يعرف درب جهنم . أما وزير الحربية في ملكوت الله ،

وقامع ثورة الملائكة ، يوم تمرّدوا على الآب الأزلي ، فذاك ميخائيل رئيس الملائكة . هـذا هو ربّ السيف الذي وطد دعائم العرش السماوي ، وبلانا ، نحن البشر ، باخوته الذين طردوا من الفردوس . فأي بأس على الشاعر لو صبّ اسمه في قالب جبرين فصار ميخين ، وسلِمَ التاريخ ؟..

أما ماذا قالت البغـايا في نشيدهن فملخصه : انهن فراشات صرفن أزمنة اللهو كما ينبغي ، وأقبل الليل وأطفأ الأحداق فتركن الجسد مداساً تحت أقدام العاشقين ، وهنّ لا يأسفن على الكأس المحطمة بعد شربها — كما فعل بشارة — ثم احتججن لثورتهن على الله بأنه خلقهن للهوى وجاء يعاقبهن عليه .

المقطع حسن ، يا أخي ، فاقرأه أنت . وما عليّ أنا أن أمضغ لك ، جرب أنت أضراسك ومعدتك . أقول لـك هذا ولا أحرمك شيئاً منه ، فاسمع :

ثرنا عليه حينا سامنـــا	عسفاً فلم نصبرْ على عسفهِ
قد حشد اللذات قدّامنا	وجيّش العذاب من خلفه
افق بأن نقوم في ربقنـا	بجزية العبد الى ربـه
هو الذي أذنب في خلقنا	وراح يجزينا على ذنبه

وإن تقل لي وهل يخرج هذا الكلام عن قول الشاعر القديم :

الهي ليس للعشاق ذنب	لأنك أنت تبلو العاشقينا
اتخلق كلّ ذي وجه جميل	به تسبي عيون الناظرينا
وتأمرنا بغضّ الطرف عنه	كأنك ما خلقت لنا عيونا

قلت لك : ما غادر الشعراء من متردم ... وبعد « ثورة البغايا » يأتي « العبقريون » ، فيجعل الشاعر محلتهم مقبرة على حدود عبقر ، كما جرت العادة بالمقابر في عالمنا هذا . ولأمر ما خطط أبو العلاء للحطيئة كوخاً في أقصى الجنة وقال انه لم يصل اليه إلا بعد هياط ومياط ، فهل من يقول لي لماذا جعل شفيق الشعراء رفاتاً ، ولم يهبهم الحياة في عبقره ؟ ولماذا رآهم

رمماً وجماجم باليات ؟ أليسأل شيطانه عنها ويقول لنا :

فقال لي وقد لوى ضاحكاً　　هذا الذي تلده الأمهات

إنه لجواب شيطان مكّار ، ومن حقه ان يقهقه ويستلقي على قفاه ، لا أن يلوي ويضحك فقط ، ولكنه كان رفيقاً بصاحبه في هذه الرحلة بجملتها.

أما أنا فما ضحكت ، بل أحسست باشمئزاز كثير حين رأيت الجرذ والفأر والجماجم والعظام المبعثرة . أمـــا حديث الشاعر مع هذه العظام النخرة والجماجم المكسّرة فكلام خوري يعظ محدثاً أولاده المباركين عن الموت والدينونة . وكذلك جوابهـا حين صاحت لتقول كأيوب في بلواه الرب أعطى والرب أخذ . ثم ينهى الشاعر عن إقامة التماثيل للعبقريين كما فعل موسى من قبل فقتل الفن ، فقال بلسان الشعراء :

أحلامنا نحن فقـل للألى　　شادوا لنا الأنصاب إكبارا

أحلامنـا كن لطافاً فلا　　تصيّروا الأحلام أحجارا

وهل التماثيل حجارة ؟

لا يا استاذ ، فكم من تمثال صيغ قصيدة ، وكم من قصيدة جعلها الفنان تمثالاً ناطقاً !

الفن شعر حيث كان . أما ما يريده شفيق لزملائه فهذا :

لكنّ من يهزّ منـا الرفات
فهو الذي كلّ أماني الحياة
يفترّ في ثغره
وكل ما في الأرض من ذكريات
يغفو على صدره
لا تستطيب النجـوم
غـــير تهاليلـه
وليس تبكي الغيـــوم
في غير منديله

ترى هل غنم التماثيل هزّ الرفات وبكاء الغيوم في هذا المنديل الذي هو كجزّة جدعون المحكي عنها في التوراة !؟

أما الفلسفة الكبرى التي عاد بها الشاعر من هذه الرحلة السندبادية فهي ان الحب المعلوم هو كل شيء :

فالأرض إن كانت جحيماً له   وكان فيهـا تهنأ الارضُ

هذا رأي الناس حتى عوامّهم ، ولذلك تراهم يقرطون الترمس المنقوع حين تكلُّ أضراسهم عن تكسير اللوز ... فليت الشاعر خلق غير هذا الفكر المبتذل ، فقد أتعب قلبه وأجهد قارئه ليقول له ما يعلم . يا ليته غنّى له – كما يفعل المسافر – لينسى مشقة هذه الرحلة العمشاء . بل ليته لم يجئه بهذا الوزن المخلع الذي لا يستطيع المسيح أن يقول له : أحمل سريرك وامشِ .

كنا نتمنى أن تكون عبقر المعلوف قهوة يلهو فيها العباقرة ، لا مقبرة تبعثر فيها بقاياهم .

كنا نتمنى أن تكون عبقره مثل قمقم ألف ليلة وليلة ، تنشق عن مارد ينطح رأسه السحاب ويسد زوله الفضاء . ولكنها جاءت بالعكس : الاطار أعظم من الصورة ، فكانت كالارض في سفر التكوين ، وما هكذا تنظم الأساطير .

ولشفيق فلسفة أُخرى تسود قصيدته ، وهي أيضاً مما يقوله عامة الناس : الانسان شرير خبيث لأنه يسيء ، فكأنه لا يعلم ان الحياة كذا خلقت ، خلق فيها الشر والخير توأمين معدتهما واحدة .

قال شاعر عربي ، أظنه بشر بن المعتمر ، في الحيوانات الضارة :

وكلها شرٌّ وفي شرّهـا   خيرٌ كثيرٌ عند من يدري

فماذا عسانا نقول في الانسان ؟

ان الحياة لذيذة ، فلنعش هذين اليومين بلا فلسفة . والفلسفة تطحل الناس . الدنيا حلوة ، وزينتها الانسان ، ولو خلت منه لصارت كعبقر المعلوف ... ولو صار الانسان خيراً بلا شر ، أو شراً بلا خير لصار كالخالدين الذين وصفهم الشاعر . « فلو كان الشر صرفاً هلك الناس ، أو كان الخير محضاً سقطت المحنة ، وتقطعت أسباب الفكرة » ، الى آخر ما يقول الجاحظ (الحيوان ص ٩٥ جزء ١) . صدق جاحظنا الجميل ...

الحياة في نظري بحر ، وخير ما في هذا البحر مدّه وجزره ، فما أكره هذه الفلسفة السوداء ، فلسفة الغاضبين على الحياة وسيدها الانسان !

وبعد ، فليقل الشاعر ما شاء فهو حرّ في خلق عالمه ، وليس لنا أن نسأله إلا عن « الحياة » فيه ، وهذا ما فعلناه في مقالنا الأول إذ وصفنا بإيجاز أشخاص عبقر .

أما لغة القصيدة وتعابيرها فلا تحيد عن خطة القدماء ، بيد أنها خالية من الكلام الوعري ، وإن كان فيها كثير من الرواسم ، فقد يكون الحوار أحوجه اليها . ولكنه كثيراً ما أنطق أبطاله بألفاظ لا يعرفها رفاقهم ، فجاء الكاهنان كأنهما من أئمة هذا الزمان وقسّيسيه .

وخلاصة القول ان عبقر قصيدة عادية مبنىً ومعنىً وتصوراً ، تزينها فلتات تدلنا على الشاعر المرتجى خيره ، وهي ، على قلة حظها من الخلق ، ستظل وجيهة الى حين ، يتبدّل بعضها بعضاً ، وحسبها هذا . فقلما رأيت شاعرها يفعل كغيره من الشعراء الذين يرجمون البحور الشعرية بألفاظ مهيأة كأنهم يدكدكون حفرة .

الى الأمام يا شفيق ، ولا تقنع بهذه ، بل هات في الغد قصيدة اكبر من اسمها .

٤ — ١٩٣٧

هريستي وزبوني ...

شاء صديق لنا أن يدافع عن « عبقر وصاحبها » ، فكتب فصلاً ذكّرنا بقول ابن القارح في مخاطبته المعرّي : « فأعجبوا من هريستي وزبوني » .

اني أشير على الأدباء والمتأدبين أن يقرأوا ذلك المقـام الكيّس ، ليتعلموا أساليب الرد المدملك ، والنقد المفذلك ، وخصوصاً « الأدب » بكل ما تتحمل هذه اللفظة من معانٍ .

طرح صاحبنا شبكته في حوضنا فخرج له اخطبوط وتوتيا وسراطين، وغير ذلك ، وفزنا نحن منه « بالأسماء الحسنى » ، سبحان من هي له ! فاسمع بعضها ، جــلّ شأنك : مجنون ، سطحي ، ضيق الصدر ، بليد ، منهوك الأعصاب ، فج غير ناضج ، حجر ، مكشّر الخ ... فأنا كما نعتني هذا الكامل وزيادة ، فمن سمعني قلت انني فرفور ، وكيوسف الحسن في الجمال والبهاء ؟

الخلاصة ما خلّى صاحبنا ولا بقّى – وكأنه استحى أن يخلع عليّ لقب سميي مروان الجعدي ، فقاله بمعناه لا بحروفه ، وهو لو فطن لكان تهجّاه كما كنـا نفعل صغاراً ... رحم الله طريح بن اسمعيل الثقفي الذي قال : « عقول الرجال تحت أسنان أقلامها » ولكن شيئاً من هذا لم يكن ، فجلّ ما فعل صاحبنا ، انه حاربنـا بسلاحنا ، فمسخ صورنا ، ناسياً قول المثل : الحديث المعاد ، والطبيخ المزاد ...

قيل : سأل البحتري ولده أبا الغوث ، عن الفرزدق وجرير أيهما أشعر؟ فقال : جرير . قال : وبمَ ذلك ؟ قال : لأن حوكه شبيه بحوكك . قال : ثكلتك أمك ، أوَ في الحكم عصبية ؟!

وإلا فلماذا يكتب بديع زماننا بالمسّاس ؟ هل ظن جلدي متمسحاً ؟

قيل لي انه مسخر ، فكدت أصدق ، ولكن قوله « انني لا أجد حسنة في الأحياء ، وأجدها كلها في الأموات » ، نمّ عليه وذكّرني ما كنت نسيته . لهذا قصة ستذاع في حينها وفيهـــا خير كثير عند من يدري ، ويعنى بالأدب . فكثيرون منا يرون أنفسهم دنيا المتقدمين والمتأخرين ، قل:

ليس على الله بمستنكرٍ أن يجمعَ العالمَ في واحدِ

ولهذا لا نحمل حقداً على أخينا كما خشي ، ومن يحقد على الدنيا جميعاً . . كان من المجانين .

عاب عليّ أخي نقدي النحو واللغة فلم استغرب هذا . فكلنا يعلم أن من يعجز عن مصّ العظم يستطيب الحريرة . غفرانك اللهم ، أأنا « مغربي » لأعالج الأدب بالبخور القاطع ، والبخور المانع ، والبخور الشافع ، والمرار الهندي ؟ ثم اخضخض الدواء قائلاً للمريض : اشربْ وتوكّل على الله ، وادْعُ للحاج ابراهيم . . .

اننا ندع هذا « للمغاربة » الذين يحملون الأعشاب بالخرج ، وينادون في الضياع : دوا للعين ، دوا للحبّة ، دوا للربّة . أما نحن فلا بد للمريض من أن يزور كل مختبراتنا ، فهناك فحص الدم وتحليله ، وتصوير العليـــل ، ودرس السلالة . فللارث عمله في الأدمغة كما نعلم . ومن لا يصبر على هذا فلا يشرّف عملنا .

لا ننكر اننا نلجأ الى الفصاد إذا رأينا « الضغط » عاليـــاً ، ثم الى الكيّ إن كان آخر الدواء ، فلا صديق ولا خليل في المختبر.

ان « مبذرنا » يفحص إفراديا ، والبذرة المذرة غير الصالحة للتفقيص تنفى خارجاً . فالنقاد « الصخور » لا يحركهم إلا ديناميت الفن ، وإن صدق ظني فعندي منه على الرف ، ويومئذ يرى هذا المحب اننا لا نجنف عن طريق الحق ، نزلزل الأحياء الأموات ، ونمجد الأموات الأحياء .

فهذه الهيصات والهمرجات ، وحُكّ لي أحكّ لك ، تذهب مع الهواء السارح . فمهما دافعنا عن أحبابنا فهيهات أن نرد قضاء الأدب فيهم ، وان وقيناهم فإلى حين كما يعالج الطبيب تهوّر القلب .

لسنا نلعب بالسيف والترس ، وليس النقد تهريجاً وبهلنة وألعاباً كالتي يقوم بها داهش وسالمون ... ان إمامة الأدب لا تؤخذ بالدعاة والأنصار ، وما هي بيعة مساء ... قد يصير الرجل الخامل ملكاً ، أو امبراطوراً او ديكتاتوراً ، أو بابا ، كما حدث ويحدث في التاريخ ، أما ان يصير أديباً معدوداً ، أو شاعراً كبيراً ، فهذا لا يأخذه إلا بحقه . أما حقه فالابتداع . فمن أراد أن يدخل ملكوت الأدب فليبدع . ان الصنوج والمباخر لا تفتح بابه لأحد .

لا يكون النقد والرد مهارشة ، والسب والشتم لا يدحضان حجة . فدانتي أفهمنا في اول سطر ما سوف يعترضه من اهوال ، أما الشاعر شفيق المعلوف فاستعار ابتداء الخيام ، ولكن ابتداء الخيام يدل على مذهبه ، وكلام شفيق أنبأنا أنه سيكون خيامياً ، فاذا بـه يصير كهار بولا أول الحبساء .

هذه الكلمة وحدها استحقت هذا الرد ، ولن نجيب ، فيما بعد ، إلا من يقرع حجتنا بالحجة . فعمرنا قصير والعمل كثير . نريد ان نفتش عن الادباء الحقيقيين لنجلسهم على كراسيهم ، ونقصي من لا يستحقون الوقوف في الدار .

هذا كان في نيتنا ، ولا يزال منذ احترفنا النقد .

واعجبا ، بل الف واعجبا ، كيف يفرقعون والمكاوي بالنار ؟!

يهولون علينا بأسماء أجنبية طويلة ، كأننا نخاف من طول أسماء الاعلام وغرابتها ... ان شيء الغريب حلو ، كما يقولون ، ولكن في عين غيرنا . أما نحن فنحترم هذه المخاخ الكبيرة ونجلها . اننا نزورها كثيرا لنستنير لا لنأخذ ... فقد نسايرها وقد نعارضها ، فلها كلامها ولنا كلمتنا ، والحكم للتاريخ . اننا نشتغل للدهر العتيد ، ولخدمة الجيل الجديد ، نشتد على الكبار لنهذّب الصغار ، فقل ربّ لا تجعلني عبرة لغيري .

إنني أسمع وأنظر وأقرأ ، وأقول كلمتي – كما تفهم بلادتي وبلاهتي – فإن اعوججت فحسبهم أن يقوّموني ، لا أن يصارعوني ويناطحوني ... لهم ان يسخروا بما اكتب ما شاؤوا ، أما شخصي فليعفوا عنه كرماً ولطفاً ، وهب انهم فعلوا ذلك فلا بأس عليهم ، فأنا أحمل خشبتي منذ سنوات فلا أجد من يصلبني عليها ...

وعلى كلٍّ ، فالشكر لنقد عبقر الذي نفّس عن هذا الوعـــاء ، وإلا لكان انشقّ .

٥ – ١٩٣٧

محصول الشهر

لن ننقي محصول الشهر كعادتنا ، نجوله جولاً كما تفعل أم العيال حين تفرغ خليتها ويستعجلها مكاري المطحنة .

كان بعد ظهر السبت الأسبق مشؤوماً ، فما بلغت العاصمة حتى قطع علي الطريق بائع صحف يرغبني في شراء « الحديث »، ثم ماشاني ملحاً ملحفاً كأنه من خريجي مدرسة الحطيئة ، أو كأنما له عندي ثأر . استعفيت فأبى ، خبرته ان محرريها أصحابي وانها تأتيني كل يوم ، فزاده اعتذاري تشدّداً وأراني قصيدة من نظم فحل الساحة حليم دموس ، وشوّقني الى التمتع من شميم عرارها قبل المساء ، وما بعد العشية من عرار . والتفتُ لعلي أرى من أستعديه ، فلاح لي خبيث لاطيء بالجدار يكركر في الضحك ، فعلمت انه غريمي الذي عبث بي هذا العبث ، فتصافحنا وانتهى المشهد الاول .

وأزفت الساعة الخامسة ، فشهدت مجمع أمين تقي الدين في مدرسة الحكمة ، فإذا بالشعراء ارفضوا عنه ، ولم يبق في الميدان إلا سعيد عقل . فسمعت ابياتاً طيبة أنستني بعض بلوتي بقصيدة ابن بلده شاعر البردوني .

وركب المنبر الاستاذ السودا وألقى خطابـــاً عدد في ختامه نوابغ لبنان ، علمانيين واكليريكيين ، ولم ينسَ إلا شيخهم الشدياق ، فأدركتُ انني اغنـّي في الطاحون . اما اذا كان الاستاذ المِدْرَه قد تقنّع بقول

الحريري : والبس لكل حالة لبوسها ، فهذا شأن آخر !

وانصرفت الى حيث واعدت رفيقين صديقين ، فالتففنا حول الطاولة كيوم كنا في المدرسة ، ولكننا لم نتهنأ بذلك المجلس . جاءتنا قصيدة حليم دمّوس ، وأبى ظريف إلا أن يطربنا بمطلعها :

فتاةٌ على جمرِ الغضا تتقلّبُ ... أليس، لها يا قوم، أمٌ ولا أبُ؟

فقلت أعوذ بالله من شر شيطانك يا حليم ، إن فتاتك هذه مثل سفّود النابغة الذي نسوه عند الشوّاء . قد صارت هذه « الفتاة » شاورمة لدى استفهامك عن نكبتها !

ظن الخادم اننا نطلب « شاورمة » ، فجاء بصحن منها ، وهذه أول مرّة يطعمنا النقد ...

تعوّد القوالون أن يحملوا الريح سلامهم ، أما حليم فجعل الشعر مرساله ووجهه صوب الحجاز والعراق ومصر و ... و ... ولا عجب فشعر حليم من حوامل الأثقال التي حلّت بساحة ابن رجاء ..

أما النكبة بهذه القصيدة، فقد كتبت لسماحة المفتي الأكبر ضيف لبنان ، ولا شك انه استقبلها بصبر جميل مردداً قوله تعالى : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

أما أنا فتمثلت عند حلولها بقول الشاعر : « كان الذي خفت أن يكونا » .

قلنا خلت الجبهة الغربية من الأبطال – جبهة شعراء المناسبات – فإذا بهذا القرم المنيد يكشف عن رأسه متمثلاً بقول ابن العبد: « إذا القوم قالوا من فتى .. »

ولم يسقط عنا هذا الحمل حتى قال أحدهم : « وحليم قال قصيدة عصماء في حماة » ، ثم صفعنا بمطلعها :

لاحتْ على ضفّةِ العاصي ربوعُ حما ... فانزلْ بساحتِها تنزلْ بخيرِ حمى

فقلت أهو حمل كوسا وباذنجان ؟

وأردت أن أقول شيئاً آخر فسبقني وقال : اسمع قوله في مدح السيد موسى عزيزة، أحد أركان الجالية الحموية المحتفى بهم .

قلت : قل يا أخي ، قل ! ليلة مشؤومة ! اكتمل النقل بالزعرور ! فقال :

سميُّه موسى كان الصخر فجَّره   ماء وموسى يفجر ماله ديمـا

قلت : هذا الذي يتكلم شيطانه بالهندية لا ذاك الذي خبرنا عنه علم البلاغة ! فحتى متى يقرزم حليم ؟ والله لا أدري . ومتى تتحنَّن عليه ربة النظم ؟.. العلم عند الله .

كنت أسأت الظن بالراوي ، ولكن جريدة الشباب الطرابلسية أثبتت هذا الشعر المطهَّم الذي استولى على أمد الركاكة فصحَّ الصحيح وانقطع الرجاء . . . فإلى القوالين ننعي المواليـــا والدوبيت والدفن في الحازمية (انفاليد لبنان) .

وأشفق عليَّ رفاقي لأنني في حِمية أوجبها عليَّ الدكتور الامير رئيف أبو اللمع ، فنفسّوا عني ، وأنا من لحم ودم .

أسمعوني قصيدة القاضي الشاعر مراد أبي نادر ، فطابت نفسي وشربت عليها كما كان يفعل الرشيد ، ناسياً أمر الطبيب . تذكرت نفس لبيد واطراد ميميته ، فقلت ما أصدق حديث الأمثال : « الله لا يبتلي حتى يعين » .

وتركت الحانة أبغي عاليه ، فصادفت الصديق الشاعر صلاح اللبابيدي، فلذنا برفرف نتذرّى بظله من الطشّ ، ثم انتقلنا الى حيث شربنا القهوة، وأنشدني أبياته في رثاء أمين، فسمعت شاعراً يرثي شاعراً ، ويقول فيـه ما لا يقال إلا به . فحمدت من جعل ليلي خيراً من نهاري . .

حقاً ان أحكامه لا تدرك !

١٢ — ١٩٣٧

موسى نمور ، خليل المطران
المـلاط ، بشارة الخوري
الدكتور جبيب ثابت

١

عدنا وما كانت روحة بلا رجعة ، كما تمناها محبو السلامة ... فكأنما القضاء سخرنا لبقية سهام في جعبته ، فإن أصابت فلهذا بريت ، وإن طاشت ، فلتهنأ المستهدفين العافية . ستقول فيَّ قولة العوام حين يدخل شباط وفي وجهه الشر : جاء بطبل وزمر .

— نعم نعم . وبسيف وترس وتبَّان ، فالحياة نضال وصراع .

من يلومنا إن اشتقنا الى حديث « أدبنا وأدباؤنا » ؟

قد وقف قلمنا خمسة أشهر لمرض غلبنـاه بقوة هيكل – غير هيكل الروح القدس – أقلّ ما يقال فيه : كجلمود صخر حطه السيل من علِ...

أما خطتنا فتلك ، ونصيحتنا الى أحبابنـا قول بولس الرسول للاعزاب والأرامل : « من يدفع بتولتـه للتزويج فحسناً يصنع ، ومن استطاع أن يحتمل فليحتمل ... »

قد تقول ، يا قارئي : « لو عرفنا بدائك لعدناك » ، أمـا جوابي لك فمن جراب الحدقي في سنّته الجاحظية : « العالِم محجوج ، والجاهل معذور »، فلو كان مارون عبود شقفة موظف في جمهورية أفلاطون لجاءتك بأخبار وعكته الصحف . ولو كان أكثر من ذلك ، وانهزّ الماء في مصارينه ، أو عطس مع الصبح لحسبوا لعطسته ألف حساب، ولكن مارون أديب، وفي لبنان.

وبعد فما لنا وللناس ، ما دام الدم نقيـاً ، والعقل في الرأس ، فأنا وأنت بألف خير . قد لبطت بعزرائيل الارض وعدت الى مهنتي التي أرى فيها لذّات الجاحظ ثلاثها .

* * *

قرأت مؤخراً ، والأصح سمعت واحداً يقرأ ، خبر رسالة — في لندرة كا أذكر — نامت في إدارة البريد سنوات ، ثم فتشوا عن صاحبها فإذا به قد مات . فهل ترى بين موضوعي وتلك الرسالة الكهفية بعض النسب؟

المرض عذر مقبول ، ودروس الأدب ليست أخباراً محلية، ولا سندات تجارية يبطلها مرور الزمن . فاعذرني إذن إن حدثتك اليوم عن معركتين .

كان للشعر في هذا العام موسمان : الأول مـع موسم البلح في مصر ، والآخر مع المشمش اللوزي في لبنان . أما الذي وافق موسم البلح فكان يوم عرس جلالة الملك فاروق ، وخير ما قيل فيه قصيدة المهندس طه ، وهي معارضة لقصيدة الشريف الرضي القافيّة التي عارض بهـا رائية البحتري : « أخفي هوى لك في الضلوع وأظهر » .

أما في النثر ، فقد جلّى أمين نخله ، مندوب لبنان الى فرحة صاحب الجـلالة ، فأزرت خطبته بالكلام المنظوم وقامت دليلاً على أن النثر يماشي الشعر في لبنان ، وان لنا في كليهما قدحاً أعلى .

كانت خطبة أمين سلسلة من نور البيان ، فربطت الوادي بالجبل .

طرحها شبكة فوق « بحرنا » فاصطاد كثيراً ولم يقف كئيباً كبطرس القليل الايمان ...

وكما كانت تلك « القنينة » بريد العيد بين البلدين يوم كانوا يعبدون معنا ابن بلدنا المرحوم أدونيس ، هكذا كانت خطبة أمين تذكرة للقاهرة بعهود لا تتناساها :

إن الكرامَ إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهمْ في المنزلِ الخشنِ

وشاء بشارة الخوري – كعادته الحميدة – ألاّ يمر عرس بلا قرص ، فنشر بعد رجعة أمين بضعة أبيات هنأ بها صاحبَ الجلالة من بعيد ، فعدها الخبثاء تحدياً للأمين وإفهاماً للبشر ، وخصوصاً الغلاظ العقول مثلي، ان مبيّض وجه لبنان هو شعر أخيطله العظيم ، وكل ما عداه وساوس وهذيان . ولكن الذين يعرفون يؤكدون أن الاستاذ لا يزاحم في المضيق... أما الراسخون في العلم فيعرفون أن نثر الأمين الفذّ خير من شعر مبتذل كقول بشارة :

أنزلت آية الهدى في جبينك فاذا الكون كله طورسينك

أرأيت هذه العرائس : آية الهدى ، وطورسينا وغيرهما كيف يحنّيها الشاعر ويجلوها بخمار جديد ولسان حاله يقول : « قومي تخطري يازينة ؟.» ولكنها ويا للأسف لا تخطر ولا تتثنى ، بل تقوم لحاجتها متحاملة كأن عظامها من سنديان ... فما أشنع طورسينا متصلة بها الكاف ، ولو هطل الوحي فوقها ميازيب ! وأبشع منها نزول الهدى في الجبين فهو يذكرنا الحفر والتنزيل ، لا الوحي الذي يرفرف ولا يقع !

ثم تغار الشمس ، وغيرة الشمس محرقة آكلة كغيرة إيليا على بيت الرب ، ولكنها تعقّلت إذ رأت أن ليس في اليد حيلة فوقفت عند حدها ، وقعدت ملومة محسورة تتمنى لو تكون من « عين » جلالته ،

ولذلك قال شاعر العرب يصف موقعة أبي قير :

فتن الشمس مفرق زين التاج فودت لو أنها بعض عينك

ما معنى « عينك » يا أخي ؟ أعانك الله على ترويض القوافي في هذه الآخرة.

وكأنه قرأ في الصحف عن تقوى الملك الصالح فنظم ذلك شعراً :

ما رأت مصر قبل يومك هذا مثل دنياك في الملوك ودينك

ثم استحلى توتنخامون زاوية لهذه الصومعة المتواضعة ، فاقتطع منها ما احتاج ليقول :

شرفاً عرش مصر تِه وتنقل بين فـــاروق تارة وأمونك

لا أفهم الداعي الى « شرفاً » التي قالها البحتري منذ ألف سنة وأكثر . قد تكون مثل قولهم « بشرفي !.. »

ان لشاعرنا الأكبر حق كشف الغطاء عن هذه الباذنجانة ... أما المعنى فيذكرني كثيراً قول شوقي حين قرّع أمون الملك الوثني قائلاً له :

فؤاد أجـلّ بالدستور ملكاً وأشرف منك بالاسلام دينـا

وتخيّل بشارة الدهر راكعاً يلثم راحتي جلالة الملك أو العرش – لا أدري الى من يعيد الضمير – ثم مسخه رجلاً كسيد درويش وهو يغني عبقري الألحان تحت غصون صاحب الجلالة .

وإذا كان لا بد من أن يكون في الإمكان اكثر مما كان – اللهم في شعر المناسبات – قال شاعرنا الأعظم في النيل وشاطئيه ثلاثة أبيات من شعره الخالد ختمها بقوله :

حسدتك الأنهار حين أتاهـــا ان فاروق من هواك وطينك

أما هذه « الطين » فتستحق جائزة القرب ... وحكاية جائزة القرب : ان المدارس تعطيها – او كانت – من يقارب الثاني بضع مرات . وبما أن طـين بشارة قاربت بكل فخر قول ذلك الاعرابي للأمير : وأنت

كتيس بقرع الخطوب ... اقترحنا إعطاءها جائزة ، وعلى « المكشوف » ان يخلقها مثلما خلقه الله .

نعلم ولا نجهل ان للنيل طمياً خصباً ، ولكن ذكر الطين والوحل يستوحش في آداب شعراء الملوك . وخصوصاً اذا كان ختاماً . قد تعوّدنا القول : مسك الختام ، لا طينه .

أما إذا كان وحل النيل بلون المسك فانني اعتذر . وإن قال أحد من رجال الجدل ألا تذكر الآية : « خلقتني من نار وخلقته من طين » ، قلت له : « ليس هـذا الكعك من ذاك العجين ، وللكلام مواضع ، والفن كله هناك » .

ليت كلمة أمين نخلة في يدي لأنقل منها للقارىء بضع فقرات فيقابلها بهذا الشعر المحيض الذي هو زبدة الحقب ... كما قال أبو تمام .

* * *

أما ما وافق موسم المشمش ، فمهرجان الأخ الحبيب ميشال زكور . رحم الله أخاً غره سراب السياسة فغلّ في صحرائها ودفن في رمالها الملتهبة شباباً نقياً كفجر عين كفاع ، وبهياً كغروبها .

كان ميشال طيراً يرفرف في آفاق الأدب ، فتدحرج كرة على مائدة السياسة يتلقّفها رجل رجل ...

ليس فينا من ينكر أن يومه كان من أرهب ايام لبنان — فبطريرك يحنز في باريس ، ورئيس جمهورية يمنح وسام الارز ، و... و ... ثم تجيء ذكراه الاولى فيكون لبنان كله فيها . ومن يمثل لبنان غير رؤسائه الثلاثة ، والثلاثة كانوا بأنفسهم . ولكن أيساوي هـذا كله مقالة واحدة يرويها أبناؤنا لميشال حين يؤرّخ الأدب ؟

باع ميشال الآجل بالعاجل ، وما ربحت تجارته ...

بلى ربحت ، فلو لم يكن ميشال وزيراً ما احتفل به هذا الاحتفال، ولكنه احتفال ينساه البشر كما نسوا صولة عبد الحميد وأبهة المير بشير... ولكنه يشهّينا ما تتكالب عليه ، فلو قامت الحكومة ، ولو مرة في رأس الزمان ، بتعظيم أدبائها لارفضّ عنها عشاق الوظائف من شبابنا المتأدب وإن لم تكن غليظة القلب ...

ان « عبدو » و « ديورسكي » — حصانَـي سبق — فازا بألفَـي ليرة ، ولم يصب الشدياق قرشاً مقدوحاً ... ينفق على بوبيله الخمسيني . ولكن المال آخر مطالب الادباء ، فحسب الحبيس صحن مخلوطة ورغيف يابس يتطاير شعاعاً كشعر بشارة ، فسعادته الكبرى في أن يخال العذراء تبسم له في الحنيّة ، ويتململ المصلوب أمامه على الخشبة ...

سامح الله أخانا ميشال الذي تركنا وصار حزبياً لغيرنا . لسنا ننسى ابتسامته الحلوة ولا شيبته الفتية الفاتنة . كان ، رحمه الله ، شاباً يمشي على الارض ، وكان « معرضه » زمناً ، معرض الادب .

تتناثر ايامي كأوراق ازدرختي ، واحدة خلف واحدة . فاخواني الذين يتدهورون في الأعماق هم تلك الحواجز التي تحجب عني رهبة الهوة الأبدية ، ولكنني ، والله ، مغرور ، أكاد لا أصدق انني سأموت . بل أرى الموت بعيداً مني فلا انفكُّ لاهياً عابثاً ، غير متذكر عواقبي الأربع كما علمني جدي الخوري ، اتبع هواي غير عابىء بمن يريدونني على غير ما اردت لنفسي .

ان الحكم للغد ، فلا يمشي بالعكاز إلا كل محلول الظهر ولا يقول : « الدرب الدرب » ، إلا من ليس في وجهه عينان . ففي الانحراف عن السكة لذات لا يعرفها إلا من ذاقها ، هناك ما يرى وما لا يرى . اما الجادة فلا تريك شيئاً جديداً .

ما أشبه قولهم : نقد علمي ، بحث علمي الخ . يقول الكاهن للمعترف : زر كنيسة الرعية يوم عيد السيدة ، وصلِّ الأبانا والسلام خمس مرات تربح غفران مئة يوم ...

ان بونا ونتورا صلى كما شاء وهو اليوم قديس عظيم قاعد في السماء مستريحاً ويريح من يطلبون شفاعته بحرارة ايمان ... فلندع البحث العلمي لأصحابنا العلماء ، ومـــا انا منهم ، والحمد لله . فلنترك النقد العلمي لحملة البركار والزاوية والفادن والذراع ، فالفنان يصوّر بالمكنسة . امـا الناقل عن الصور الشمسية فليس في تأنّيه السلامة ولو استعار ريشة رافايل .

نقد علمي ، نقد فني ، نقد يقطيني ، كل هذه لا افهمها ، افهم طريقتي فقط . فمن اعجبته فليقبلها ، ولست لجنابه من الشاكرين ، ومن لم تعجبه فلينشقّ ..

أما من يكلف الناقد ان ينسج على نول المنقود فكالطالب من الصائغ ان يكون في خزنته الف دينار ، وإلا فكيف ينقد الذهب ويقدر عياره ؟

خذ يا اخي من المخزن ما تودّ ولا تلم تاجراً لأن دكانه ليس كمخازن الف باء تاء ... اقرأ ولا تتحكم .

يعجبني جداً هذا الجمود ، بل هذا التفكير ، فبعدما كنا نغرق للزنار في شعر المناسبات ، وبعدما كانوا يقولونه حتى على اللهجة — المازة — صرت لا تسمعه إلا في موضوع جليل كعرس ملك او موت وزير ...

قرأت منذ حين كلمة لصحافة مصر تساءلت فيهـــا : اين الشعراء لا يمدحون جلالة الملك ؟ فارتحت ايما ارتياح .

حسن جداً هذا الإحجام وأحسن منه عدّ العشرة قبل الإقدام ، وأحسن الأحسنين تنزيه الشعر عن المواضيع التافهة . فملك محبوب كفاروق ، يقال فيه الشعر كما يقال في تصوير اشرف العواطف وأصدقها ، ورجل كميشال زكور يستحق ان يبكيه اصحابه شعراً ، فهو رجل مات والرجال قليل . فبحراسة الله يا ميشال ، وإلى اللقاء ، انمـا بعد إعادة عهد لبيد ، وسؤال الناس: كيف مارون ...

٢

أما الآن فاسمع نقدي لما قيل في رثائك ، فشدما أحببت هذا النقد ، وحثثت على المضي فيه ، وكان الجواب إن تذكرت : لا توصِ حريصاً .

فلنبدأ بقصيدة موسى نمور ، زميلك في وزارة الداخلية والصحافة .

ضرب موسى نمور صخرة الفن بعصاه فأخرجت نمـــيراً غير غزير . تطيَّرتُ – فنياً – من مطلع قصيدته ، فقوله : « احبابنا ، رفقاً بمن خلـّفتم» يعيد الى الذاكرة ، على بعد العهد ، قول المرتل في الكنيسة المارونية بلسان الأنفس المطهرية :

اصحابنا لا تهملوا من يرقد   في مطهر نيرانـــه تتوقد

وإن تسألني مـــا الانفس المطهرية أقل لك ، ثاني مرة : هؤلاء قوم يهلكون ، موقتاً ، كما تقف الحكومة الصحف ، فيطهّرون بالنار كما علمتنا أمنا الكنيسة الكاثوليكية ، ليدخلوا السماء أنقيـــاء ... ولهؤلاء البؤساء سفير « رسمي » على الارض هو الاستاذ الفلبوني . ورثّه المرحوم والده فيما ورث ، الوصاية عليهم ، والعمل البريء لنشلهم من بحيرة النــار بواسطة القداسات والصلوات .

اما ما بقي من القصيدة، فشعر سائغ محتمل، بل هناك شعر رصين ما مسّ قط تابوت عهد الفصاحة لولا قوله حين ذكر الصديقين ميشال وأمين تقي الدين:

فرسا رهان جلـّيا في حلبـة   لم ندرِ ايهما الفتى الصنديدا

اقول ان السياسة أفسدت لغة صاحب المعالي ، ومراسيم الحكومة التي

تفوق النمل عـدداً نسّته مواد دستور الخليل وسيبويه والأخفشين فما ذكر التعليق والالغاء ، مع ان مراسيمنا اكثر تعليقاً والغـاء ، وأظنه لا ينسى واحداً منها ... وكذلك فعل إذ قال : كفاك صدوداً . وكأني بالوزير قد شعر شعوراً خفياً بهذا اللحن فقال فيما بعد :

شرد اليراع فما اطـاع وقلّما ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ كان اليراع براحتيّ شرودا

فربما كان هذا الغلط من شرود اليراع فأمسكه براحتيه كلتيهما ، مع ان القلم من الهنات التي تمسك بيد واحدة ..

في قصيدة نمور شعر ونثر ، والعذر بيّن . فالساسة يكثرون من قراءة الصحف ، ولغة الجرائد بعيدة عن لغــة الشعر بعدي عن الثروة . ولا يغضبن موسى فله أسوة بالمير شكيب عديله في هذا النسب الأدبي . كلاهما ترعرع شاعراً واكتهل ناثراً .

ان قصيدة موسى هذه متماسكة ، فيها الكثير من الكياسة والوداعة ، ونكران الذات . فهو يمدح ، غير مستدرك ، رجلاً جلس على كرسي قعد هو عليه من قبل ، فحياه الله ، وأكثر فينا مثل هذه الأخلاق الفاضلة .

* * *

اما شاعر القطرين ، بل شاعر الأقطار كلها ... ولا إحاشي من الاقطار من أحد ، كما قــال النابغة ، فقد ألقى بعاعه بصحراء الغبيط كطوفان امرىء القيس . لم يتورع شاعرنا الشهير عن الكلام الرائع بعد ذلك الجديد الرائع الذي قال فيه شاعر ما :

انت مطران دين شعر جديد ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ فتن المسلمين قبــل النصارى

فتوكـأ على عصا الجناس التام ، ولكن بلا مآرب أخرى ، فجاء استهلاله بلا براعة كما ترى :

كيف قوّضت يا علم ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ وانطوى ذلك العـلم

قابل هذا بقوله في رثاء علي يوسف :

بنات الدهر ، عوجي لا تهابي | خلا الوادي من الأسد الغضاب

ليتضح لك أن المطران قد أدبر غريره وأقبل هريره .

حدثني الوالد ، يرحم الله موتاكم ويرحمه ، قال : « تشكّى رجل سبعيني من ارتخـــاء في مفاصله ، ووجع في ظهره ، وثقل في رأسه ، وطنين في أذنيه ، وقصر في نظره ، وكثرة سعلة وقلة اكله ، فقـــال له الأفندي — الطبيب — كل هذا من السبعين .

ثم يشبه الخليل فقيدنا بالطود والأسد ... ثم تصطف الرواسم كأنها تلك الخشيبات التي يصفها الصبيان لتقوم عمارة ، وهذا رمز منها :

لهف نفسي على الفقيد | فتى البأس والكرم
أروع وجهـــه أغر | وعرنينـــه أشم

ثم تنضب الدموع وتلين الحجارة ، ولا يبقى إلا أن تتفتح القبور وتقوم الموتى وينشق حجاب البرلمـان ... كما أصاب الهيكل يوم موت مخلص العالم ... أما الظلمة فوقعت حقاً لأن المطران يقول :

ودجا في القلوب | صبح الاماني وادلهم

وهكذا يمضي شاعر القطرين على سننه ، مقتفياً أثر الذين من قبله فيدوّن كل بيت استقام وزنه وصحّ تعبيره ، حتى يسمعنا نصف دزينة من « علمَ الشعب » فيذكرنا بقول المهلهل : قربا مربط النعامة مني ... فهل لقحت حرب شعر المناسبات عن حيال ؟..

ولولا خمسة أبيات بعدها فيها شيء من نفحات شعر الخليـــل القديم لخلَتِ القصيدة من الشعر ، وأنكرت ان يكون خليـلٌ مطرانَ ضيعة لا رئيس أساقفة أقطار ... ثم يعود المطران الى حوكه الاول فيقول :

ايها المنكرون ان | ينقص البدر حين تم

لست أدري لماذا أتعب مولانا قلبه ، أليحل هذه المعضلة شعراً ؟ فأي ذكي ... ينكرها ؟ وكأني بشاعر « سجدوا لكسرى » ، و « هل تذكرين » و « ملحمة نيرون » لم تصعب عليه معرفة نفسه اليوم فما تفرعن ولا تعرّم علينا . ولكن المطران كإسمه يعمل دائمـــاً بقول المرتل : « القلب النقي المتواضع لا يرذله الله » ، فهو يقرظ نافحاً كل مستعطٍ ثناءً ، وكلهم عنده اشعر العرب ، رحم الله النابغة مبدع هذه الحكومة !

* * *

وتلي قصيدة المطران قصيدة الشاعر القائل :

انا جذع لبنـــان القديم فما ذوى ورقي ، ولا لوت المصائب ساقي

فهذا البيت صورة الملاط الناطقة ، فشبلي متنبّئي الاخلاق والنفس ، والحظ ، وشعره نمّ على صاحبه من قبل ، فاسمعه كيف يفتتح رثاءه :

أبا مكرم لولا العلى والمحامد لما كان محسود ولا كان حاسد

إن قصيدة الملاط هذه من الشعر الرصين ذي المستوى الواحد ، فلا تحليق ولا إسفاف . يدوّم فيهـــا الشاعر كبواشق ايلول ، ولا يغيب غيبات النسر . تعبر قصيدته عن عاطفة مكبوتة فتقذف بالحمم ، ويعلن ألمـاً يذيب الشحم ويقرض اللحم :

هنيئاً لقبر أنت فيه ، وحبذا مكانٌ امين ليس فيه مصائد

وكان شبلي كريماً ، كعادته في هذه المناسبات ، فما أكل حق حزب ولا جماعة ، مدحهم جميعاً على السواء ، ولو تخلص شاعرنا المطبوع من زنجير « للضرورة أحكام » لانبثق نهراً عجاجاً لا يخرسه الاندمـــاج بالبحر . لا أدري من يعني بقوله :

نصرنا رجالاً ثم عند اختبارهم ندمنا وكم في التجربات فوائد

انني أخشى يا استاذي ، أن تقضي حياتك كلها « داخلاً في التجارب ولا تنجو من الشرير » ، فوالله أنت مظلوم ...

ويمر على الشيّاح فتتراكم الذكريات حتى تعود به الى مقاعد المدرسة السوداء – كانت سوداء على عهدنا – فتتدفق العاطفـة كماء بركة المتوكل ، فينظمهـا شعراً براقاً كالفضة السائلة ، حتى إذا بلغ آخر الشوط ، وقف وقفة جواد بلغ الغاية ، ورفاقه لا يزالون في المضمار . وكأنه يتذكر طرفة فلا يكسل ولا يتبلد ، بل يقول « الحرب لمن يريد الحرب » :

عواذلَ لبنانَ اذا شئتمُ الوغى فلا تفزعوا فالسيفُ في الغمد راقدُ
ولكننا في غابِ لبنـانَ معشرٌ إذا غاب منا ماجدٌ قام ماجد

في قصيدة شبلي شيء سماه العرب التضمين كقوله : « اذا مات منا ... » وكقوله : « ألا كل شيء ما خلا الذكر بائد » . وفيهـا ايضاً طباق كثير يذكرنا صناعة حبيب ، ولكنه جاء عفو الخاطر .

تدل القصيدة على طول نفس قائلها ، والملاط لا يدانيه في هذا احد . إن رئته واسعة المسامّ ، فهو لا ينخر ولا يشخر ، فكأنما يتنفس من كير . تنزهت قصيدته هـذه المرة عن التشبيب بمحاسن حبيبه بشارة ومكارم أخلاقه ، فأين ذهب ذلك الغرام ؟ وأين تلك الشرّة والعرام ؟

* * *

أما بشارة فأبى عليه طبعه ألا يذكر بالخير أحبابه ومريديه فقال :

وربّ أخٍ رأى فرجاً بذمي فقلتُ رضيتُ ذمك لو شفاكا
أتطمع أن تحلّقَ للثريا فتطفئها... عدمت إذن حجاكا

ماذا تقول يا أخي ؟ اننا نشتغل ليل نهار لنهديك الصراط المستقيم ، وتسمي عملنا قدحاً وذماً ، اننا نسلم امرنا لله ونقول :

ان قصيدة بشارة على الكاف المفتوحة كما ترى ، وبحرهـا الوافر ،

والبحر والقافية كفؤان لهذا الموضوع ، فلنر ما قال .

لا أدري أبهاء الدين يعارض أم أبا الطيب . فبشارة هتاري المطامع ، ولكنه لا يحسن انتهاز الفرص ، ويسعى الى الهيجا بغير سلاح .. ضمّن قصيدته من شعرهما ، فكأنه يقلّد أبا نواس .

أما مطلع قصيدته فجيّد ، غير انه لا يخطو ثلاث خطوات حتى يتعثر بأذيال الغلو والاغراق فيقول :

أجُنّ الموت ، أم هو رام كفؤاً   فهز شباب قومك واصطفاكا

ان هذا « الهزّ » ملائم جداً لموسم المشمش ، وعلى الشاعر ان يطابق مقتضى الحال ، ولكن من يرثي بشارة ؟ أيبكي وزيراً كالحمل الوديع ، أم يندب كبش نطاح ، سفاحاً جلاداً ؟ وإلا فكيف يكون الرجل كفؤاً للموت ؟

ويمضي بشارة راسماً على لوحته صوراً سخيفة خفيفة كخربشة الاولاد على دفاتر الخط فيقول : « حبيب الارز بؤبؤ ناظريه ... » ثم يقول :

اذا احترقتْ حشاه أسىً فقدماً   حرقْتَ على مجامرِهِ صِباكا

إذا سلمنا باحتراق حشا الارز ، مع اننا زرناه ، منذ ايام ، فوجدناه بخير وعافية ، فماذا تقول في « قدما » ؟ أعمر المرحوم ميشال مثل متوشالح ، ومات عن شيخوخة متناهية ، متزوداً الاسرار الالهية ؟..

قاتل الله الوزن ، بل قلة الجلد ! ثم تسعف الشاعر ذاكرته فلا ينسى لف الفقيد بالعلم اللبناني ، فيبدو له اللواء ذائباً حزناً على المرحوم كأنه أمه أو أبوه ... الأفضل لي ولك « ولبراءة » الذمة خصوصاً ، ان تسمع البيت :

ومن شهد اللواء يذوب حزناً   عليك يظن امك أو أباكا

ماذا يعملان يا ترى ؟ المعنى في قلب الشاعر كما يقول العوام ... رحم الله حنا زكور وزوجته فقد نشرا بيرقاً في مأتم ولدهما النبيه .

أرأيت كيف تكون الصور مبتذلة ، وكيف يكون التجسيد مضحكاً؟ ان هذا يكشف لك أسرار مخيلة بشارة الواسعة وإبداعه العظيم ... ويبسط لك « سفر تكوينه » لتعلم ان هناك واحداً آخر يخلق ذكراً وأنثى ... فوحّد ربك ما شئت ، وقل : ان تعدوا نعم الفن لا تحصوهـا . ففي هذه الدرة اليتيمة الفاظ عذبة مثل « صاك وزاك » تذكرك اسطورة البدء ، يوم كان روح الله يرفّ على وجه المياه ... وفيها الجناس الاجلّ الامجد مثل « وشاكا ووشاكا » وأطرف قوافيها ما تسمع الآن :

اذا وطن اهاب بنابغيه   سبقت السابقين وقلت هاكا

أي قال « احِهْ » ، كما كنا نقول حين نلعب القفيزي صغاراً ... ولا شك ان عقل بشارة الباطن أدخرها له لمثل هذه الساعة العصيبة . ان في صفاء الاذهان لآيات لأولي الألباب ، وبهذا تتميز الشعراء . وينتقل بشارة الى التعريض بممدوحيه الذين لم يدرّ على مرعاهم اللبن فيقول :

كرهت الشعر يمدح غير حر   ولو كان المليك او الملاكا

أفي الملائكة عبيد يا ترى ؟ أم في القافية مغنطيس جذب بشارة كما جذب الحليب الخنفشار ؟ انها خنفشارية حقاً . ألا ، قاتل الله النسيان ، أليس جبريل ، مرسال الله ، عبداً في الملائكة ؟ أما رأينا شعراءنا كبشارة وغيره يسخرونه في جميع المآتم والاعراس وغيرهـا من مواكب ، وقد تعجبت كيف لم يمشّوه في مناحة زكور إما مجنّحاً محلّقاً كالطائرات ، أو ماشياً خلفه ساكماً ، منكّساً قوادم جناحيه كما ينكّس الجندي سلاحه.

كيف غفل بشارة عن البطل المغوار، رئيس وزارة الله ؟ انـه سميّ المرحوم، والارواح المجنحة صالحة للمواكب الرسمية ، فمخايل صاحب سيف وله في المعركات غبـار . كان ولا يزال وزير حربية الرب ، وقد أعـاد الامن الى نصابه يوم ثار الملائكة على الاب الأزلي ليقلبـوا حكومته الدائمة ..

وبعد ، فمن قال لبشارة امدحْ ؟ أما نهيناه وما ارعوى ؟ فالحمد لله على رجوعه فائزاً من الغنيمة بالاياب . لقد صحّ به قول المثل : خفة الرأس تتعب السيقان . ولكنني أكذب عيني وأذني ولا أصدق أبداً ، فما وجه بشارة وجه من يتوب . فهو مستعد ان يذرّي كلما طابت الريح .

ويحاول في البيت التالي أن يبرىء شعره من المديح فيقول :

اذا غنى حماةُ الحقّ شعري ... فكم غنى البشامة والأراكا
يطلُّ به الزمانُ على الليالي ... شعاعاً من هناكَ ومن هناكا

إن شعراً يغني البشامة والاراك وحوله مـا حوله من سحر الكون – حتى في البوشرية التي لا تطلب منها العافية – ليس شعر شاعر يحقّ له القول :

ويا وطنـاً كسوناه جمالاً ... على العلاّتِ أنفسنا فداكا

فلندع هذا الآن فما هنا محلّه ، ولنعد الى البشامة . لماذا خصها الشاعر بالذكر وهي بنت عم النقاخ ؟ أليس بمعذور لو تركها في ذقن أهلهـا ؟ انه لم يرها قط ، ولكن التقليد الأعمى أجراها والاراك في شق قلمه ، ولأجلها استحق صاحبنا لقب شاعر العرب .

ويبلغ بشارة تصوير العاطفة فيقول شعراً :

خليلي كيف أنسى عهدَ كنا ... وقد نسجَ الزمانُ لنا وحاكا
تطوفُ بنـا مجنّحةُ الأماني ... فتعبثُ في مفارقهـا يداكا
وكم أفقٍ هناك بفيض سحرا ... كأنك قد طبعتَ عليه فاكا

الثلاثة من جيد الشعر لولا الإكثار من « قد » التي لا تستسيغها اذني في النظم ويكاد يغص بها حسي . ثم لو قال الشاعر « يوم كنا » بدلاً من « عهد كنا » لأمن شرّ هذا النبو . أما « تعبث في مفارقها » فقد أساء بها الشاعر من جهتين : الاولى لغوية ، فعلى شاعر العرب أن يحسن التعدية ،

والثانية فنية ذوقية، فقد شاك مفرق مجنحة الأماني حين جمع. أما البيت الأخير فتصوير جميل لا يضيره النقص في بعض خطوطه وألوانه. وما أجمل صرخة بشارة الصادقة:

فيا ذكرى الأحبةِ مات قلبي فإني لا أحسُّ له حراكا

ففي «مات قلبي» حياة فنية لا حدّ لها، والشاعر يصدق دائماً حين يحدثنا عن قلبه، فهذا الفتور الذي تحسه في شعره اليوم يأتينا بنبإ أكيد عن احتضار هذا القلب الذي أحسن شوقي مخاطبته أيضاً حين قال:

واليومَ تبعث فيَّ حين تهزّني ما يبعثُ الناقوسُ في النسّاك

ويتذكر بشارة امين تقي الدين فيطريه اطراء يستحقه أدب الأمين وذوقه الفني. ثم تسنح الفرصة فيغتنمها شاعر حماة الحق ليقول مثل شوقي القائل:

رواة قصائدي فأعجب لشعر بكل محلّة يرويه خلق

فيسمعنا:

ذكرتُكَ تملأُ الآفاقَ باسمي فتنفحني الزهورُ شذا شذاكا
إذا أنشدتُ قافيةً بقُطر جعلتُ طرازَ بردَتها ثناكا

كان البيت الأول حسناً لولا ركوب الشذا على الشذا. أما الثناء المطرز البردة فزمنه مضى وراح، ذاك كان يا أخي يوم لم يكن نقد ولم يكن تجديد، يوم كان التقريظ يكال بالمدّ للشعراء ويقولون: أحشفاً وسوء كيلة؟ أما اليوم فالفأس ملقاة على أصول الاشجار... أما بلغك أن الدنيا تغيّرت، وأن الحرب العظمى قلبت الارض بالطول والعرض، فماذا تبتغي منا يا حبيب القلب... وأنت اللاهج بالبشامة والأراك بفخر جزيل؟

إذن ليس الحق علينا، تحرّك قليلاً، قم من فرشتك نقم معك، فكل ما في الكون يردّد في مسامعك «ديوغراسياس». أنسيتها؟ تذكر فجر

مدرسة الحكة ، وحنجرة قسيس الليل ...

ولِمَ نلومك ؟ فمناخ البوشرية لا يساعد على القيام الباكر ...

يعلم الله ، يا عزيزي ، اننا لا نرى فرجاً بذمك – فرّج الله كربتك وكربتنا – أما ان هناك ثريا نطمع أن نحلق « لها » فنطفئها ... فما نظن . ليت هناك مسرجة كالتي رثاها الشاعر العربي ... وإن كنت لا تصدقنا فعما قليل سنوجه المجهر صوب ثرياك ونريك ان وراء هذه النجوم السبع عشرات مثلها . قاتل الله خداع النظر ، كم يرينا الأسود أبيض !

ويتذكر بشارة قول زهير : « يعز عليّ حين أدير عيني ». فيضعه في محله. أما شطر المتنبي فجاء كقوله : « ووضع الندى في موضع السيف بالعلى ». فقول بشارة :

وتدعونا البلاد فلا نبالي « أنمشيها اذاةً أو هلاكا »

لا يصح إلا إذا كان محل بشارة من الاعراب « مضافاً » الى ميشال زكور ... وإذا كان قوله هكذا كقولي ، مثلاً : أنا والمستر فورد أغنى خلق الله ، فبشارة لا يجازف في السياسة ولا يغامر ، فهو في أقل حساب نصف إمّعه ... وهناك بيت آخر لا بد من التعليق عليه وهو ختام قصيدته :

ويا وطناً كسوناه جمالاً على العلات أنفسنا فداكا

فمن حيث المعنى ، متى كسا بشارة هذا الوطن جمالاً وهو القاعد كالزبرقان؟ فشعره كما حدده لنا ، إما مديح للذين يسميهم حماة الحق ، وإما غناء للبشامة والاراك . وإذا نظرنا الى المبنى رأينا « على العلات » تعل القلب ، ولو قال : على علاته نفسي فداكا ، لكان الخطب أهون . وأنا اضمن له تسامح ميشال .

قد فداه ميشال واستراح ، فالله نسأل أن يطيل بقاء بشارة ليغني

البشامة والأراك ، وحماة الحق عند اللزوم ، وإياه نعظم لهذا الجمال الذي خلعه ويخلعه كل يوم على هذا الوطن المحتاج الى خلع امير شعراء العرب ..

وإن قلت ، أيها القارىء العزيز : ما هذا التعنُّت ؟ وأي فرق بين قولنا: على العلات ، وعلى علاته ؟ قلت: هذا ينبئك بـــه ابن الأثير فاقرأ المثل السائر ، فليس في مكنتي قول كل شيء .

* * *

والآن قد بلغنا « مسك الختــام » أي قصيدة الدكتور حبيب ثابت . إنهــا من الشعر الطري الناعم كغزل البنات وشباب المرثيّ . فيها من طرافة ملبسه شيء كثير ، ومن اناقته ما لا يحد .

لسنا نغالي اذا عددناها قصيدة الموسم ، بل قصيدة العام ، فلقد سبق الدكتور ثابت شعراء مهرجان زكور . في قصيدته خيــال الشاعر وفن الناظم، وفيها حمّى العاطفة – والابداع حمّى – ولكن بلا انتفاض كحمّى الربـع ، ولا هذيان كالدور الخبيث . والخلاصة ان قصيدة ثابت بريئة من عواء النادبات وهرير النادبين .

بكى حبيب صاحبه ميشال كما بكى داود صديقه يوناثان بن شاول ، بيد انه لم يقل كقاتل أوريا : قد ضاق ذرعي عليك يا أخي يوناثان ، لقد كنت شهياً إليّ جـــداً ، وكان حبك عندي أولى من حب النســاء ، وقد أحببتك حب أم لابنها الوحيد ...

أدرك الدكتور ان الشعر صور وألوان ومعانٍ راقصة ، كالفراشات حول ثغور الأزهار ، فسار على رسله ، لا هادئاً ولا متعسّفاً ، فشبه صاحبه بالأمل ، وذاك الأمل أشبه بالفراش يرف ويلعب حتى :

هبّتْ عليهِ من الرياح سمومُها فاذا الفراشُ مشرّدٌ ومخضّبُ

ويطل هذا الأمل على الوجود هنيهة فيشمشع ويكوكب ، فتغمر المنى

الروابي الخضر ، ويلهب الوهج الرمال الحمر ، ويذوي الربيع المعشب . في القصيدة وحدة ، وفيها ألوان الطراز المعلم ، وهذا الذي سماه العرب تدبيجاً ، وقد أجاد الذي قال :

بيضٌ صنائعنا، خضرٌ مرابعنا   سودٌ وقائعنا ، حمرٌ مواضينا

لقد عرفنا التلوين قبل الذين اتخذهم شبابنا مثلاً أعلى وسموهم رمزيين، ولكن القدماء لم يذهبوا فيه الى أبعد الحدود ، فلونوا ما لا لون له ، حتى أنهم لم يقنعوا بتلوين الماء ... إنهم لم يقولوا كمتطرفة شعراء الفرنج: صراخ السنونو الأزرق ...

وفي القصيدة بحر شباب يعجّ ويصخب ، ومركب ضالّ – غير سكران كمركب ملرمه – يتنكر له الشاطىء . وهنـــاك كف الموت تحمل منجلاً وتضرب حيث ميشال :

فهوى كفرخِ النسرِ من عليائه   لا يشتكي ألماً ولا يتعذّبُ

ان « فرخ النسر » هذه لا تعجبني ، وليت الشاعر نزّه قصيدته عن معنى مبتذل كهذا ، كما انني ارفض « يتعذب » رفضاً باتـــاً ، فالشعر العالي لا يقبل الزغل ...

ويدخـــل شعر حبيب نَقْعَ السياسة فلا تفسده ، ويفبّر في السرايا تصونه لغته الشعرية التي يتعمّدها ، وتتغلب صوره والفاظه على سرد الأخبار المحلية التي تهتك حرمة الشعر ...

اعتزم حبيب بقرعات الفن ، وألقى نفسه في العباب فنجا ولم يغرق ، وبلغ شط الختام غير عاجز عن الخلق والابداع ، واليك هذه الصورة الرائعة :

أرأيت بلورَ النهـارِ محطماً   يبكي عليــه بقلتين المغربُ
أم راعكَ البدرُ الذبيحُ مجندلاً   بين الغيومِ السودِ وهو معصّب
أم راعك الليثُ الهصورُ مصفّداً   لانتْ ملامسهُ ولانَ المخلبُ

أم راعكَ الطفلُ الصغيرُ ميتماً لا الأم تسمعُ مشتكاه ولا الأبُ
خفف عليكَ فكلُ حيٍ في الورى يأتي الى وادي الدموعِ ويذهب

الأبيات مطمئنّة هادئة ، وأكاد أراها باسمة ، رغم مـــا صوّر الشاعر من أهوال . انهـا كصاحبة عمر حين أفرخ روعها . ما خلع عليها هذه الحلّة القيصرية إلا الفاظها التي أحسن الدكتور تزويجها ، وشفاها من « الامراض الجلدية » التي تذهب بالكثير من الحسن ، ولكنها لم تخـلُ من « لو » فقد كنت أفضّل أن يقول : « يبكي عليه بمقلتيه المغرب » . فالتعريف أولى لئلا يظن أن للمغرب اكثر من عينين وما بكى على ميشال إلا بثنتـين ... بينما أصحاب حبيب أقاموا الأرض وأقعدوها ، وبشارة حرق الأرز ...

ثم لو قال : « كَلّ الحلب » ، أو لفظة أخرى مشدودة بدلاً من « لان » لتمت له الموسيقى ، فالفنان لا يتكل على الوزن وحده . أمـــا وادي الدموع فهذا لقب خلعه الآباء اللاهوتيّون على أمنا الدنيا ليستروا عورتها . أما الشعراء المرحون ، حتى في الرثاء ، فلا مبرر لاعتناقهم هذا اللقب . ان الفن وقح لا يستحي ...

مسكينة الدنيا ! مأكولة مذمومة مثل خبز البخيل . أما أنا فلو سئلت التنازل عن سنة واحدة بوادي الدموع لقاء ألف أعطاها في الآخرة لما رضيت . ومن يقل غير هذا فهو موسوس ، معطل المحرّك ، فـلا بد له من الوقوف ... فيا لله من هؤلاء الذين يحببون الينا الموت. إنهم يريدوننا حيوانات مغامرين ...

وشاء حبيب أن يرد العجز على الصدر فتجاوز هذا المقطع ليقول :

ونعيش بالأمـلِ النضيرِ ونرتوي من مدمع الماضي البعيد ونشربُ
ونموت بالألم المريرِ يلفّنـــا أملٌ بألوان الغـــمام مذهّب

وهذه موتة الأبرار والصديقين التي بشرنا بهـا بولس الرسول بقوله :

« ان الذين يموتون بالرب لا ينبغي أن تحزنوا عليهم كسائر الناس الذين لا رجاء لهم » .

ليت حبيباً وقف على شفا وادي الدموع ، فما نفع الجناس والطباق قصيدته شيئاً . كما أنه ليس في رد العجز على الصدر بلاغة سحبان ، فدعه لغيرك يا حبيب ، أنت لا تحسنه . واذا طبعت ديوانك وأثبت فيه هذه القصيدة الجديرة بالبقاء فاحذف هذين البيتين ، كما انني ألفت نظرك الى « وهو معصب » ففيها رائحة الطبّ ومطهراته وأضمدته ، فدع هذا لمرضاك واعفِ منه قراءك .

هذا شعر نحب أن نقرأه ، ونحب أن يحتذى ، فـلا هو بالغامض المقوت ، ولا بالواضح المكشوف العورات . انني اهنئك يا حبيب فقد ربحت المعركة وبيّضت وجه الفن ، كما اهنىء زميلك الدكتور أبا اللمع ، ذلك الأديب الذي يزج نثره في معترك الشعر فلا يقصر عنه ، بل يسبق الكثيرين من ناظميه .

وبعد فلنفِ . فلنقل كلمتنا في شعر بشارة عامة ، فشاعر العرب ينتظر ..

٣

قال امرسون : يجب أن أفعل ما يعني شخصيتي ، لا مـا يفكر الناس أن أفعل . وقال ريمي غورمون رداً على غوته : ان النقد السلبي ضروري ، فكثيراً ما نُضطر الى تحطيم تماثيل غير محكمة الصنع ، وطرحها في البوتقة .

أعجبت العرب خطة شعرائهم فـلم يميلوا عن طريقهم ، وألّهوا أصنامهم الأدبية ستة عشر قرناً . لم يشكوا قط إلا بالصفات الزائدة على هذه الآلهـة فقالوا : هذا شعر منحول ، وهذا مسروق ، وهذا مسبوق

اليه الخ . أما الصفات الاصلية فما عرضوا لها بخير ولا بشر إلا قليلاً ، بل قدسوها تقديساً ، وجعلوا خطأهم قواعد فارتبكنا بها . وهكذا عاش الأبناء على ملة آبائهم يعبدون ما عبدوا ، وإن خالفتَ معتقدهم بكلمة قالوا لك : أدينك يأمرك ؟..

ما شعر بشارة في القرن العشرين إلا هُبَل الجاهلية ، فهو تقليد شعر خلا من العناصر التي تشبع مجاعتنا الروحية . وبشارة ، في نظر المنصفين، آلة ذات وتر واحد ، أما في نظر نفسه فكآلة الفارابي الغريبة الشكل، يبكي ويضحك وينوّم مثلها ... يريد أن ينطق بألسنة عديدة كالرسل الاطهار حين حلّ عليهم البارقليط ... وعدّته أكلها العث ، وديباجته حلّة غسلت وكويت .

يطمع بشارة بخلود هذا الشعر الذي يقوله ، ولا يدري انه كجبن الزكرة لا يسلم طويلاً . . . فليته يتداركه بملح الشخصية الذي يضاد الفساد والتعفن ... ولكن من أين له هذا الملح وهو شاعر تفكير لا شاعر إلهام ؟

ترعرع بشارة وفيه كثير من ملامح البهاء زهير ، فقال في عنفوان شبابه شعراً لا أدري كم يعيش . فبعضه شعر حي إن فاته التجديد لا يفوته حسن التقليد ، فيه شعور حارّ ، والحرارة تضمن الحياة الى أجل ما.

أما اذا استثنينا العاطفة المتقدة ، فبشارة أضعف الشعراء في صوره ، فقير في إبداعه ، وموسيقاه موسيقى دفّ مخشخش ... أما هو فيرى انه أغنى خلق الله ، على مائدته ألف لون ، والخمور المعتقة تتدفق كنبع أفقا .

يصدق بشاره كل هذا ويشكره تعالى ويبوس الارض ، وهو يظن ان نعمة ربه حلت عليه بشكل حمامة ، ولا يبعد أن يكون الله قد صاح

ولم نسمع : « هذا هو ابني الحبيب !.. »

ان بشارة قانع ، والقناعة كنز لا يفنى ، وما للدرويش وللناس ، فهو راض بما قسمه الله ، لا يطمع بالزيادة . يرى في كشكوله دنيا لا حد لها ولا طرف ، يسكن كوخاً يحسبه قصراً من قصور ألف ليلة وليلة .

اذا استعرضنا شعر بشارة كله – مـا خلا المأخوذ عن الفرنجة – رأينا صوره من عاديات العرب ولكنه جدّد فرنيشها . فهمه أن يلتقط من أقبية القدماء بعض الدمى فيجلوها برماد التمحل ، ويجعلها آيته للناس . فبشارة يعدّ ، في عالم الادب ، عالمـاً أثرياً ينبش الآثار الدفينة ويعرضها في متحفه ، ولو كانت تصلح للمتحف اللبناني لأغناه وكساه جمالاً كما كسا الوطن ...

قال بشارة شيئاً يوم كان قلبه ينبض ، أما اليوم فقد مـات – كما قال – ولحق به الشعر . أعاضنا الله بطول بقاء الامير وألهمه الصبر الجزيل.

لا يحمل الشعر إذا كان كله حركات هندسية ، ولا يصلح للبقـاء ان عاقته يد الفنان ، فشعر بشارة يحدثنا عن متاعب يزيدها بؤس التفكير وفقر التعبير ضنى وشقاء . وكيف يثري مُقعد لا يؤمن بفوائد الاسفار الخمس ؟ فلا تعجب إن قال في رثاء زكور : « حبيب الارز بوبؤ ناظريه ..» أي : يا حبيبي يا بصبوص عويناتي . ولو كان بشارة من دير القمر لقال له : « يا غلاتي »، فالحنطة اليوم عزيزة غالية .

ولا تعجب إن سمعته يهنىء فخـامة رئيس الجمهورية – اده – بالعود قائلاً – وهو يهنىء كلّ راكب وقادم – :

هنيء الأرزُ فالرئيسُ أطلا   يا حبيبَ القلوبِ ، أهلاً وسهلا

فاذا كنت جبلياً عتيقاً مثلي تتبادر الى ذهنك تلك الاهازيج اللبنانية – التراويد – وتتذكر :

طل القميّر على العربان رحّلهم يا سعد من لو مع العربان رحّالي

فهذه التزويدة الحافلة بالصور الشعرية يستقبل بها اللبناني القادمين عليه في أفراحه . أما بشارة فبدون هذه الصور يقابل الرئيس ... ولأجلهـا يطلب أن نضفر له اكليلاً من غار لبنان ، بينا نراه كأمّ نوح ينتقل من « طيّونة » الى « علـّيقى » .

كم استغلب عليّ الضحك إذ سمعت هذه التزويدة المنظومـة شعراً ! شاء من قرأهـا عليّ أن يبلوني كما بلا لبيداً قومه قبل أن يهجو لهم النديم الذي يولج فيها اصبعه ... فعرفت دونما تردد انها من بضاعة شاعر العرب . ان أغنية العوامّ التي ذكرتها أغنى منها فناً ، وأخصب أسلوباً. فناظمها يرحب بزائره الكريم مستعيناً بالخيـال ويشبهه بالقمر المطل . وهو لم يصغره اضطراراً ، كما يفعل الشعراء الرسميون ، بل للتحبب أيضاً. ناهيك انه يقول حقاً ويصف عاطفة صادقة . فالقمر الذي يطـل يكون قميراً ، والقمر ينتظر وتنفتح له القلوب حيث الزيت شيخ الانوار ، والسرج زينة الديار .

ويا ليت شعري ، هل في بيت بشارة شيء من روعة قول العامي : « يا سعد من لو ؟ » ففي هذا النداء الرمزي المغري ما لا تجد بعضه في قول بشارة : « يا حبيب القلوب ، أهلاً وسهلا » قال الشاعر العامي ما شاء وتركك تفكر ، أما بشارة فبقّ كلاماً معرباً يذهب جفـــاء لأنه لا ينفع الناس ...

لا ننكر أن شعر بشارة هذا من السهل الممتنع فمن يستطيع غيره ان يقول :

هنيء الارز ، فالرئيس أطلا يا حبيب القلوب ، أهلا وسهلا ؟

فيجمع التهنئة والارز ، والرئيس وطلته ، وحبيب القلوب ، وأهلا وسهلا؟.

إن هذا لمن جوامع الكلم في زمن فسد فيه لسان العرب . « إنا أعطيناك الكوثر فصلّ لربك وانحر » .

لو كان الكلام من بحر الطويل أو البسيط لحدّثت أحداً نفسه أن يأتي بشعر من مثله ، ولكنه بحر الخفيف ، والخفيف ضيق ، لا يلجه إلا الفحول العتاق المذاكي .

فما أسعد عصرنا بشاعرنا القائل للرئيس أيضاً :

أيها الشاعر الذي ينظم المجد قصداً بكل حسن تحلّى
حسبك الشاعر الذي ينظم الخلد وما ضرّ أن يكون مقلاً

أظنها « قصيداً » لا قصداً كما كتبت ، ومهما يكن من شيء فالبلاغة تسكره . ففي « بكل حسن تحلى » ألف جمال تجلى . فكأن المتنبي عنانا وشاعرنا بقوله :

فتى ما سرينا في ظهور جدودنا الى عصره إلا نرجي التلاقيا

فيا لسعادة عرب القرن العشرين بشاعرهم الذي ينظم الخلد في مسلخه ، ويصنع من فرائه جبة لإمارة الشعر ... وقد اجتمعت لبشارة في هذه القصيدة مرافق لم تجتمع لآكل الرؤوس الذي وصفه الجاحظ ، فهي آخر ما استنبطته القريحة العربية ولن تبلغه عبقرية فرنجي مهما طحر وزحر.

راجع قصيدة بشارة في زكور وافحصها فحصاً إفرادياً كما يفحصون بزر القز في كورسكا ، أو في عينطورة كسروان ، فان عثرت بمعنى ليس من مترادف أحاديث العوام فلك مني ما تتمنى ، إن كان في مكنتي . .

ان الأشياء لا تقول شيئاً لشاعر العرب ، فهو شاعر غير نبـاتي . الجمـال البشري وحده يوشوشه فيقول الشعر تارة حبّاً وتارة نبّاً ، وهو في كل حال قال الذي عنده ، فمـن البغي والعدوان أن نسأله تجديداً .

حدّد ادغار بو الشعر بقوله : « يجد الشاعر غذاءه المخلد في الكواكب المتلألئة ، وفي ثنايا الأزهار ، وفي الأشجار الضخمة المنحنية صوب الشرق – كخروّب كفرعبيدا – وفي الأنجم اللاطئة بالأرض ، وفي تموجات الحصاد ، وفي قمم الجبال المزرقّة ، وفي مواكب الغيوم ، وفي لمعان الجداول المظللة ، وبريق الأنهر الفضّية ، وفي هدوء البحر ، وفي أعمـــاق الينابيع المعتزلة حيث تتمرأى النجوم .

انه يراه جليـــاً في أغاني الطير ، وعلى معزف Eole ، وفي تنهدات رياح الليل ، وفي أصوات الغابة المؤثرة ، وتموُّجات الشاطىء ، وفي صفير الاحراج ، وفي عبق السوسن الشهي ، وعبير المساء الساحر ، وفي الجزر البعيدة المجهولة .

انه يجده في كل تفكير سام ، وفي كل الغرائز النقية ، وجميع أفعال البطولة ، وفي نكران الذات . إنه يحسه في جمال المرأة ، في ملاحة مشيتها ، في تألق عينيها ، وموسيقى صوتها ، في ضحكتها العذبة ، في تنهداتها ، في حفيف ثوبها ، ووسوسة حليها » .

أرأيت أين يجد الشاعر غذاء الخلود ؟ فبشارة لا يعنيه شيء من هذا ، فهو جشع ملهوف لا يحيا بالروح ، وحياة الجسد قصيرة العمر ...

فسنّة بشارة في الحب : نقّل فؤادك . ولكنه سرعان ما ينسى الحبيب الأول ! إذا رأى أحبَّ وتحرّق ، وقد شهد هو على نفسه بقوله :

أفحتمٌ عـــليَّ ارسال دمعي كلما لاح بارقٌ في محيـــا ؟

أرأيت كيف يشط رياله كلمـا رأى طلعة ؟ فلو رافق بشارة في حبه شخصاً واحداً ، أو أخلص لمحبوب ، لوصف لنا تطوّر هذا الحب ، وقال شيئاً جديداً ، ولكنه ميال مع الهوى ، يراجع الدرس لكل طالب جديد يدخل مدرسته ...

إن بشارة كالحجل ، لا يخرج من منطقته مهما تكاثر عليه الصيادون . أما اليوم ففي لبنان شعراء تجاوزوا التخوم المحبوس بهـا شاعرنا الذي غنى شعره حماة الحق والبشامة والأراك . ولكنني أشهد ان بيت بشارة السابق لم يقل أحلى منه شاعر غزلي حتى اليوم .

الشاعر هو من يدل على ما عنده كما يدل النبات على النبع الدفين في القاع . لا أعني بذلك هذا الغموض الذي مُني بـه شعراؤنا الجدد حتى انتهوا الى أدغال الأحاجي والألغاز ، وبدت حاجتهم القصوى الى المواد الأولية . فهم يرددون كلمات بعينها ، وتعابير مرت بهـا رياح الصيف . آثروا بعجبتهم ألفاظاً خاصة فأقبلوا عليها كالغوغـاء في سوق النبطية . واللفظة كالمرأة ، متى كثر عشاقها لا تبقى تلك العقيلة المصونة .

فتنهم الأب بريمون والشاعر فاليري فتهافتوا على ألوان وأنغام واحدة فأصبحوا كأنهم واحد . ما سموا حتى انحطوا .

نقرأ قصيدة أحدهم فنجد مفرداتها وتراكيبها عندهم كلهم ، وصورهم هي هي كأنهم يستقون من بئر واحدة وبدلو واحد ... وقد نصحت زعيم هذه المدرسة أن يخرج من هذه الدائرة — دائرة اللفظ والكنى والرموز المعلومة — لئلا يصبح شعره طقطقة ووشوشة ، وأن يفتش عن ذات أخرى يستقل بها ، أما الآن فقد اجتيحت بلاده ، والعوض بالله .

لست أقول إن الكلمة دابّة معلوم حملها ، بل أقول إن على الشاعر أن يحمّلها مـــا تطيق . فعلى شعرائنا أن ينتبهوا للحروف ، فموسيقاها معدومة عندنا ، وكل اتكالنا على الوزن وعلى عبارات مترجمـــة عن فرلـين ومالرمه وبودلير ورمبو وسامـان وفاليري وغيرهم . فلنتقن علم فسيولوجيا اللغة لنحسن تركيب الأجسام ، ولنعدل عن أخذهـا مركبة كالعقاقير الطبية التي تصدّرها الينا أوربا . إنما يداوى المرء بأعشاب بلاده كما قال الحكيم العربي .

إنهم يريدون الشعر موسيقى بلا فكر ، ولهذا قلت منذ ثلاثة أعوام : ان هذا الشعر كثير الفوسفور ، قليل الفيتامين . فالشعر عندي فكرة موسيقية تضاف اليها طراوة النفس التي لا يكون الشاعر بدونها . والعوامّ يقولون : نفسه خضرا ... وهذه النفس الخضراء هي التي تقول شعراً اذا أمدها الخيال . أما خضرة النفس فلبشارة منها حظ غير قليل ، أمـا الخيال فليس له أثر في شعره الذي يطل به الزمن على الليالي .

قال رنان : « ان نفسي ستحوم بشكل طائر البحر حول أبواب كنيسة مار مخائيل، ويقول عنهـا الفلاح إذ يراها إنها نفس كاهن يطلب الدخول الى الكنيسة لتلاوة قدّاسه »، فعلق محرر الديبا على هذه الكلمة بقوله : « ولكنها ويا للأسف ، لا تجد أبداً أولاداً يخدمون هذا القداس » . أما نحن فاننا نتمنى لصديقنا بشارة قدّاساً احتفالياً ، وبالعصا والتاج ، ايضاً ، ولكن نحذّره ، فشمامسة اليوم ستمحوهم الايام ، فهل يجد حينئذ من يحمل له المبخرة ؟

إن هذا الجنون في الأدب العربي وليد عصور ، أنمته المنافرة ، وسرى في عروق الذرية حتى انتهى الى بشارة الذي تخيل شعره يتطاير شعاعاً من هناك ومن هناكا . أما أنا فيظهر لي ، والعلم عند الله ، انه لا يبقى منه الى حين غير بعيد إلا أبيات كثيرات الضرات . واننـا نصارح بشارة وأمثاله أن تاريخ الأدب لا يخلّد إلا الشخصية والتجديد ، فهل عند بشارة شيء من هذا ؟ ليفحص ضميره !

سيعلم التاريخ ياعزيزي اننا لا نرى فرجاً بذمّك. وعلى ماذا نحسدك ؟ اننا لا نطمع أن نحلّق« للثريا »فنطفئها. اننا نبحث الثرى حيث أنت ونحن مقيمون .

انني أعرف نفسي وأثق باخلاصي للأدب والفن . أما هذا العنف الذي تضيق به أنت فهو جبلّة ، فلومك على المرحوم والدي الذي فطرني ، فسبَّ دينه ، أو ترحّم عليه ، فما قدّر كان ...

٩ — ١٩٣٨

عباس محمود العقاد

أحسنتمُ الصبرَ والعقبى لمن صبروا   نادى البشيرُ،فقولوا اليومَ، واتئمروا

هكذا ينفجر العقاد بعد أن أسكت دهراً ، وهكذا يخاطب أمةً محمومةً شاعرٌ أحصى عليه المستبدون أنفاسه ، فلزم بيته خوفاً من عيونهم. ما زاد في صدر براعة استهلاله على الكلمة الحائرة في أفواه الناس : من صبر ظفر . عفواً ، بلى ، انه قالها بلغة حلزونية عودتناها شيوخ أدباء مصر في نثرهم الفني ...

أما العجز فهو أدنى الى اللغة العامية منه الى الفصحى ، فما رأيك يا أخي بـ« قولوا اليوم ؟» أليست أخت احكوا اليوم؟ وما قولك في «ائتمروا» بعد « قولوا اليوم » ؟ أما هما بيضتا دجاجة واحدة ؟ أتقول إن العقـاد عندما جعل « ائتمروا » قافية فكّر في أمرين : في مؤتمر الوفديين ، وفي الآية « ان الملأ يأتمرون بقتلك » ولكنه هـذه المرة اتكل على ذكائنا ولم يحشّ كما فعل في « وحي أربعينه » ص ١٥٨ عندما قال :

وأرى السنّورَ والجروَ الى   نمرٍ فيهـا ، على غير الوصيد

ثم شرح قائلاً : « الوصيد العتبة ، وفي البيت إشارة الى الآية : وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » .

ما كنا لنعنى بقصيدة كهذه هي برمّتها من الشعر المقيت الغث ، لو لم تكن للعقاد . والعقاد مجاهد وطني ، مكين المبدإ ، صلب العقيدة حتى التحجُّر ، لا يتزعزع يقينه ولا تني همته ، قد ضحى براحته وصحته على مذبح وطنيته الصادقة . فلله العقاد مجاهداً صامداً للاضطهاد والمضطهدين! وإن لم يحسن التعبير عن عاطفته شعراً ، فهو لا يعجز عن أدائها نثراً ، ولكنه يحاول أن يقول الشعر ، وما أراه يفلح ولو عمّر كلبيد .

وقبل نبش ما في قصيدته من خبايا ، إن كان هنالك شيء من ذلك ، لا بدّ من الجهر برأي أعتقد صدقه ؛ وهو أن العقاد أسفّ في الشعر « القومي الاجتماعي » اكثر منه في غيره من أغراض الشعر . وآية ذلك مطلع قصيدة قالها في ذكرى الاستقلال السوري ، سنة ١٩٣٠ (وحي الاربعين ص ١٤٦) .

ربع الشآم أعامرٌ أم خالِ   اليوم عيدُك عيدُ الاستقلالِ

وهكذا دواليك ...

ما لنا ولهذا ، أو دع ذا ، كما يقول زهير في استطراده ، وعد بنا الى قصيدة هذا العام . فبعدما يذكر الشاعر كيف انقضت السنون المرة ببيتين مبتذلين لفظاً ومعنى ككل القصيدة ، ثم كيف احلولت أخيراً ، يطلع علينا بهذا البيت الحماسي :

سيهدمُ الطودُ من يبغيه معتدياً   وليس يُهدم من أركانِكم حجرُ

لست محامي الاعشى لاستعدي التاريخ على العقاد الذي مسخ هذا البيت ، ولكني استغرب هذه العجلة التي حملت الناظم على استعمال حرف التنفيس.. فهل هناك من يحاول هدم المقطم في الغد كما حفرت ترعة السويس؟ ثم ما رأي طه بـ « يبغيه »؟ وكيف يرى « معتدياً » ؟ أأعجبتاه يا ترى ؟ ألم يعرض العقاد قصيدته هذه على من دعا الشعراء لبيعته يوم « النشيد » ولم يفلح ؟ أم نهاه طه عن انشادها ونشرها فما انتهى ؟ الله أعلم .

وببيت وسط وطّأ العقاد لهذا البيت الجيّد ، وهو واحد أبيه،فقال:

الدهرُ في غيرِها هدّامُ أبنيةٍ والدهرُ في شاطئيها حارسٌ حَذِرُ

أما قول شاعرنا في البيت الذي يليه : « كنانة الله كم أوفت على خطر الخ.. » فكنانة الله تعبير شائخ بائخ ، وأشهد أنني فتشت القصيدة كلها فلم أقع على تعبير جديد ، ومعنى يصح السكوت عليه – كما قال النحاة في تحديد الكلام ، بلى وقعت على ألفاظ عجراء مصرمة وتوطئات للقوافي كما كان يفعل أبو تمام في صنعته ، ولكن حبيباً يضع اللفظ موضعه ، ويسهّل طريقه ، أما العقاد فيعقدها ...

يمتاز الشاعر بخلق التعابير والمعاني ، وهذا محروم منه العقاد ، سبحان المعطي .. ! ثم يقول :

وكم توالتْ على أبوابها أممٌ ومصرُ باقيةٌ والشمسُ والقمرُ

في هذا البيت اهتزازة شعرية إلا أنها بليدة، فأين تذهب مصر وغير مصر ؟ هل أخذ الفاتحون والغزاة جبال لبنان ونهر العاصي ؟ قد يكونون أخذوا من مصر مسلاتها وآثارها ، رحم الله القائل :

أمَنْ سرقَ الخليفةَ وهو حيٌّ يعفُّ عن الملوكِ مكفّنينا ؟

ثم لا يلبث صاحبنا أن يطلع علينا بأين وأين وأين مقلداً بائية أبي تمام، ولكن بلا روعة ولا قشعريرة ، فذكرني بالندّاب اللبناني العاميّ القائل: « وين نيرك وين صندك ، وين جرابك للبدار ... » .

وأتانا في مطاوي هذه الأبيات بالزبانية الفتاكة الشزر ، الفاظ يابسة كالمومياء لم تصور لنا شيئاً حتى استغربت كيف يكون شاعر بلا مخيلة.

ومضى يسبّ ويشتم فتكردست ألفاظ دارت على لسان قلمه، ووسعها بحر البسيط ، والبسيط بحر يتسع لتتالي الألفاظ ، فأجاد وأبدع في شتمه لا في نظمه حتى اسمعنا :

قالوا انتخابٌ ، فقلنا،أي نعمْ صدقوا   هو انتخابٌ لمن خانوا ومن غدروا

حقاً ان زهيراً لم يوفق في حولياته الى مثل هذه « الاي نعم » ، بل لم يوفق الى مثلها إلا ابو فراس بقوله :

الشعر ديوان العرب   أيضاً وعنوان الادب

فأيضاً أبي فراس ، وإي نعم العقاد يتجاذبان ملاءة الحسن ..

ثم أخذ يعدد أشياء جمة هي بالاخبار المحلية أشبه منها بالشعر الى أن قال :

لا تدخلوها اذا جئتم بساحتِها   إلا إذا غسلتْ ألفاً.. وتعتذر

حقاً انها لتورية لطيفة ... وخصوصاً هذا العطف مبنى ومعنى ... نحن في غنى عن شرح هذه الفكرة السامية ... هذه الصورة الشعرية الرائعة النظيفة ... فالعقاد ، والحمد لله من رواد شعرنا الحديث .

ويمضي الشاعر على سننه ، كما جاء في وحي المتنبي ، ويسير لا زيغ ولا غرر حتى يسمعنا :

يا فتيةَ النيلِ هذا النيل مستمعٌ   ومصر ناظرةٌ والشرق منتظر

اجل ، ونحن يا مولانا ، رعاياك الشرقيين ، انتظرنا ان نسمع شعراً ممن سلم عليه المجاهد مكرم عبيد بالإمارة ، فاذا بك تسمعنا منظومة كلها من عريان الكلام ، كألفية ابن مالك وارجوزة اليازجي ، يقول خيراً منها متمرن موهوب لا فنان مثلك يدين بالفن والجمال .

وإن آسف لا آسف إلا على تصافح صحافيين جليلين — لا أذكرهما احتراماً — من اجل منظومة كهذه لا تستحق الاذاعة والنشر بل الطمر ..

وبينا كنا نقرأ للعقاد وغيره من ادباء مصر نعيهم على الشعراء المحدثين والمعاصرين تعمدهم الجناس والطباق وما اليها من الصناعات اللفظية إذا بهذا الفاضل يطلع علينا بقصيدة كلها من هذه البضاعة .

ما قولكم دام فضلكم وفضله بما يأتي : « رجحتم أنتم العقبى وهم خسروا ... »

وفي التجارب من حقٍّ ومن عبرٍ فما لهم ما رعَوا حقاً ولا اعتبروا
على الصراحة إن ودّت وإن نفرتْ ويستوي بعد من ودوا ومن نفروا
هيهات تحجبُ عينيها براحتها لو اتقوا نظرةً منها لما ستروا

وثروة من ثراها الخ ...

وظل هكذا يقول شعراً حتى أتانا بهذا البيت الذي يتكلم شيطانه بالهندية :

ووفروا من قواها كلَّ ما وفرتْ من الضمائر في الجلّى وما تفر

يظهر أن صاحبنا نسي عند شكسبير وملتون وشلي وغوته فصاحة المركب ، أو أنه شاقه أن يقول كالفرزدق :

هما تفلا في فيّ من فمويهما على النابح العاوي أشد رجام

وأخيراً جرّب العقاد أن يقول حكمة كالمرحوم شوقي ، وكلاهما مؤمر علينا ، كما قالت نعم عمر ، فأسمعنا لا فضّ فوه ، ولا عاش من يشنوه :

وعلّموا علمَها من ينفعونَ به سيّان في العلمِ ذو مالٍ ومقتدرُ

كيف ترى أيها القارىء الكريم هذه الحكمة ؟ أقال مثلها شاعر عربي بعد ؟

وبعد فالعقاد من عشاق الفن ، ولكنه يحسن التحدث عنه نثراً لا شعراً ، فاسمع رعاك الله :

ويسّروا من صناعات الأكف لها ومن فنونٍ بها الأرواح تزدهرُ

ما هذا يا استاذ ؟ هبنا رضينا بازدهار الأرواح ، أيرضى مؤمرك طه بصناعات الأكف ؟ أضاقت بك الألفاظ الى هذا الحد ؟ كنت استغنيت عن ذكر الفن والصناعة الذي أبعدك عن فن النظم هذا البعد ، عفواً نسيت حكمة ثانية ، فاسمعوا :

أمانةٌ تلك في أعناقكم عظمتْ وبالأمانة فليعظمْ من اقتدروا

الشعر يا أميرنا يجب أن ينزه ، في مثل هذه المواقف ، عن مثل هذه

التعابير ... أأنت تحمل سلاماً لغائب حتى تتكلم كعجائز لبنان : أمانة في رقبتك سلم على فلان ؟..

وإليكم بيتاً أبدع فيه من حيث ألفاظه المنتقاة :

وفي اسمه « المصطفى » معنى زعامته   معنى من الخير والتخيير مختصرُ

ألا ترون كيف أن العقاد كرر في عجز البيت حروفاً تنافرت ومرّ بها ، ثم لم يحس شيئاً ... انني أتوسل لليه أن يراجع هـــذا البيت علّه يهتدي الى ما رمزت إليه فيصلح العطار ما أفسد الدهر . هذا إذا شاء أن يضم هذه القصيدة الى ديوانه الجديد .

ويلي هذا البيت قوله :

كفى بذلــك عنواناً على وطنٍ   يدينُ بالثقةِ الكبرى .. ويفتكرُ

فهذه « الكبرى » تعبير ابتدعه أبو تمام فيما أبدع فقال :

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها   تُنال إلا على جسرٍ من التعب

فأخذه شوقي رحمه الله بالحرف الواحد ، وقال بيت أبي تمــام في شطر هو : « أعدت الراحة الكبرى لمن تعبا » . وللقارىء الحكم .

أما العقاد فقد لاءم بين الكبرى والثقة فوفّق ، وقد انطوت قافيته « ويفتكر » على معنى كبير وان نبتْ لفظاً .

وأراد العقاد أن يرد العجز على الصدر مختتماً ، كما كان يفعل البديعيون ، فما خلص له ذلــك ، وكانت الصنعة في قوله : « واستبشروا ومروا بالحق وائتمروا » .

وقصارى الكلام : أعجبني من القصيدة بيت واحد (فقط لا غير) عليه مسحة الشعر ، وفيه رائحة الخيــال الذي هو ملاك الشعر ، وإذا أردت تلخيص رأيي في هذه القصيدة ، قلت :

أراد العقاد أن يحكي شعراً فحكى ، والأعمال بالنيات .

الذرة العقادية

كلما وضعت هذا الرجل على مائدة التشريح أنكمش وأهز رأسي وأحس قلبي يتعصر شفقة ورحمة، ولكن ما حيلة الجراح وقد رأى «غلة فارسية» تتهدد الدم بالتسميم والجسم بالهدّ؟

ان هذه الأدوار الخبيثة تكاد تقضي على أدبنا، فعلينا أن نكافحها بالمبضع والمصل الواقي، وأخيراً بالكيّ آخر الداء والدواء.

عندما شاخ الزهاوي ولم ينقد له الشعر على طول تمرسه بآفاقه، أخذ ينظمه أسماطاً كما فعل العقـاد اليوم، ولا غرو، فهذان الشاعران أصدق دليل على زعم تين وبرونتير في تصنيف الادباء كالنبات.

نظم العقاد قصيدة سعد عناقيد عناقيد، ولكنها حصرم يفت في عين العروض، وما أظن رأس واضع هذا العلم انشق إلا انتقاماً للشعر منه، إذ عبّد طريقه للناس فسلكها الكسيح، والمقعد.

أجل ان العقاد انتحل مذهب شلي في الحق والجمـــال، ولكنه لم يستطع أن يدخلها في شعره. قد يكون أذعن له «الحق» أما «الجمال» فغليظ الرقبة.

لست أحاول هذه المرة درس قصيدته هذه بيتـاً بيتاً كما فعلت فيما مضى، فهي نثر إذا استثنينا الوزن، فاسمع مطلعها، وفي طلعة البدر ما يغنيك عن زحل:

عَرفَ النفيَ حيـــاةً ومماتا وأصاب النصرَ روحاً ورفاتا
كلمـــا أقصوه عن دارٍ له ردَّهُ الشعبُ اليهـا واستماتا

في البيت وصف واقعي، ولكن الواقع وحده لا يعمل الشعر والشاعر، كما أن الحلم وأخاه التذكار لا يكوّنان «عالم» الشاعر الحقيقي، فالويل للشاعر الذي لا يضم ارتعاشاته الخاصة الى ما ورثه عن الاجيال السالفة. فلو كان الشعر سرد أخبار بأسلوب جاف كقصيدة العقاد هذه، لقلنا لك: هذا هو الشعر والعقاد أمير الشعراء، ولا يموت كالفرّاء وفي قلبه شيء... ولكنه، ويا للأسف، غير هذا. الشاعر لا يقول: كلما أقصوه عن دار له. ان الشعر لا يقبل كل الألفاظ، فبلعومه أضيق من بلعوم النثر، ومعدته لا تقبل «فتّة» العقاد القائل:

كيف يجزيه افتياتاً وهو من كان لا يرضى على الشعبِ افتياتا؟

وفي العنقود الثاني يجعل العقاد قبر سعد كعبة في جوار البيت أو سفح الامام، فبنو مصر حجيج وزحام. ولولا زحمة القافية ما كانت زحام ولا اختها تمام، ولولا ذكره الكعبة ما جاء ذكر الحج والنسك والاستلام، عقبى كل هذا الخلد المقيم كما يقول الشاعر لسعد في هذا البيت الرائع...

فالقَ في قبرِكَ خلداً كلمـــا مرَّ عامٌ تبعته ألفُ عـــام

لو كان العقاد من المجددين وكان قبل ١٤٠٠ سنة وأنشد بيته النابغة في عكاظ لجعله ابن أخيه وأشعر العرب.

وتأتي العنقود الثالث فتجده كأخيه لا تبرق فيه حبة. خاطب الناظم فيه سعداً وأمره بعبور القاهرة، ووصف ساعة العبور بأنها من ساعات الفردوس لا تشبه الساعات بدءاً وختاماً، وهنيئاً لك يا فاعل الخير! وختم هذا المقطع بقول الواعظ على قبر الاسكندر:

قل لهمْ أبلغ ما قلتَ لهم أيها الواعظُ صمتاً وكلاما

وينتخي العقاد في الفوج الرابع ، ولكنها نخوة مُقعَد ، ويحمى حمي حالم مصاب بالكابوس (مروبص) فيصيح :

جرّدوا الأسيافَ من أغمادهـا ذاكَ يومُ النصرِ لا يومُ الحداد
ارفعوا الراياتِ في آفاقهـا اينَ يومَ الموتِ من يومِ المعاد

ان الشاعر المفنّ يستغني عن « أغمادهـا » ويشعر بضعف « في آفاقها » فيأتي في مثل هذا الموقف بألفاظ تجعل اليد على القائم ، والقلب خفاقاً كالراية . ان الشاعر من أوتي قريحة كناقة طرفة ، ترقل ولا ترقل ولا تخاف مثلها الملوي . ومع ذلك أشهد أنه مرّ أمامي في هذا الفوج جندي يشبه الجنود لولا شحوب بارد عليه :

لا يلاقي الخـلدُ بالحزنِ ولا يكتسي الفتح بجلبابِ السواد

فلو نظم هذا المعنى غير العقاد لحرّك سامعيه وقارئيه ، فكأنما شاءت آلهة العقاد البليدة أن تريه أرض الميعاد كموسى ثم لا يدخلها فقال :

ذاك يومٌ ما تمنّاه العدى بل تمنّـاه ولاء ووداد

آه من « الولاء والوداد » مـا أبغضها اليّ في هذا الموطن يا استاذ ! ثم قال :

فانفضوا الحزنَ بعيداً واهتفوا فازَ سعدُ وهو في القبرِ رماد

فهذه « البعيد » بعيدة عن الشعر بعد العقاد عن الفنّ . ليته نفضها مع الحزن ، ولكنها ستحلو حين نرى أبشع منها وأشنع كقوله :

المعيقونَ تنحوا جانباً آخرَ الأمرِ وسعدُ في البناء

أتعرفها أم أدلّك عليها ؟ انها آخر الأمر واختها المعيقون ، وسأريك أبشمين وأشنعين ، فبعد ما حدثنا العقاد عن « نقلة الشمس » ، مع اننا فتنا آذار ، ورأى انها ترمز الى نقلة سعد قال :

هو أيضاً قد طوى ليلَ الردى وطوى ليلَ الغواشي والكذاب

أظنك عرفت انني أعني « هو أيضاً » أما « الكذاب » فلا ترعك فهي من تجديد بعض المصريين .

والخلاصة ان العقـــاد قدْ مُنِعَ من الشعر بعلتين قتالتين : الركاكة وضعف الخيال ، فلو صار مثل « آرجو » له مئة عين مبصرة ، وركب نسر حيقار ، ومركبة إيليا ، وعلا صهوة البراق فلن يبلغ سمـــاء الوحي ولا يقارب آفاقها .

وخبرنا العقاد في آخر القصيدة عن كتابه في سعد ، فآمنا وصدّقنا انه يكون كتاباً قيماً ، فالعقاد كاتب مفكر ، ولعله يفطن ولا ينشر فيه ما قاله نظماً في فقيد مصر فينجو الكتاب من النحس .

فاتني أن اخبرك أن العقاد استحلى اللام فحشرها حيث شاء :

وأثبتَ فيمستنقعِ « النظمِ »رجلَـه وقالَ لها من تحتِ أخمصك الحشْر

وإليك بيته لتحسن الحكم عليه :

الفراعـين الألى أجليتَـهم لتمنوا لو أجازوكَ الطريق

ثم قال أبياتاً بعدها جاءت على نسق زجلية رواها لنـــا الدويهي في تاريخه وهذا مطلعها :

يحرز دينـك يا نحاوس حميت الضيعه بالدبوس

وإذا سألتني ماذا في قصيدة العقاد من حسنات قلت لك: انها وثيقة صادقة تفضح الدسائس السياسية حول سعد بعد موته ، وحول قبره هذا . فالعقاد ينبئك – وما ينبئك مثل خبير – ماذا فعل فريق من المصريين وكيف عارضوا نقل رفات البطل . كان هذا أبلغ لو قاله العقاد نثراً ، فالنثر أطوع له ، ولكن العقاد عنيد يظن النظم خصماً سياسياً لا بدّ له من قهره ، فعبثاً ننقده وننصحه فهو كأسَدِ بشْر يظن مقالتي زوراً وهجراً ...

إذا كان النقد كما يريد سنت بيف أن نشعر ونخبر عن شعورنا فانني لم

أشعر بشيء من الشعر في هذه القصيدة أرى مصر في سنيّ القحط السبع فعسى أن يطول عمري الى انتهائها .

قد ذهب الزمان بدنيا شوقي الواسعة . نعم ان تخطيطها قديم ، بيد انه فيها من الفن العربي الخصيص بصاحبه . أمـا العقاد فأشبه بتلبيسة – قرية على طريق حلب – كل بنيانها من الحوّارى عـلى طراز كوم الخلد . إنه يعرف مقاييس الفن كطالب يعرف أسرار الاختراعـات من الكتب ، أما العاطفة الحية التي تدب في النشيدة فما رزق منها شيئاً ، وهو ينظم بعقله وليس لقلبه عمل .

قال الله في كتابـه العزيز : وأرسلنا الرياح لواقح . ونحن عسيّون – التعبير من تجديد العقاد – أن نلقح هؤلاء النائمين في ظـل سنديانة الكنيسـة ولم يدخلوها ليشمروا بقشعريرة المتهجدين ، فعونك اللهم على هؤلاء الذين يطلبون « الحسنة » بالدبوس .

النقد الأدبي وأشهر معاركه

بعد كر وفر يذكر بجواد امرىء القيس قال الاستاذ ... نفعنا الله بعلمه « اذن فالنقد قد عرف بعد الانتاج » .

اذا كان للفلاح الذي تساءل : « هل كانت البيضة قبل أم الدجاجة » بعض العذر ، فأي عذر لاستاذنا الكبير في مناقشة فكرة عقيمة ساذجة وهي : أيهما أسبق ، النقد أم الأثر . حقاً ان النقد مشكلة المشاكل ومثار الجدل في كل ميدان .

ذكرني هذا بقول أحمد فارس الشدياق بعد سماعه محاضرة مستشرق في جامعة كمبردج : انه صرف ساعة كاملة في شرح عبارة غير كاملة .

والنقد في كل مجالاته كان دائماً منبع المناوشات وخصوصاً الأدبية منها، فأهون على المرء أن تهشم شخصيته من أن تنتقد أثراً أدبياً له ، فكأنه يحسب أن عمله الأدبي أطول عمراً وأبقى من جسده، ولذلك كانت الخصومة أشدّ في ميدان النقد الادبي منها في الميادين النقدية الأخرى كلها .

ورداً على صاحبنا الذي شغلت باله قضية الدجاجة ... نقول ان المنشىء الأول والناقد الأول هو الله . انه جل جلاله لم يستطع أن ينتقد قبل أن يوجد الأثر فكان سفر التكوين ، وأعجبه كل ما صنع فاستراح من كل أعماله وترك للنقاد هذا الأثر العجيب فانكبوا عليه وما زالوا .

فهناك ناقد منشىء كما فعل الله جلت قدرته ، أما الناقد بلا انشاء فهو الشيطان حين قال لربه ، إذ كلفه السجود لآدم : « أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين » .

وهكذا تاه الشيطان لا يعنيه من الدنيا غير التخريب ، لأنه عاجز عن الانشاء ، وكل ناقـد بلا انشاء لا يعجبني ، فهو كمن يحارب بالنظارات . وإذا تذكرنا الجاحظ بمناسبة ذكرنا فيها الشيطان فـلا نكون قد غضضنا من قدر أبي عثمان ، فهو قد تندر على نفسه كما روى حكايته مع تلك المرأة التي اقتادته الى الصائغ .

قال قدّس الله سره : طلبت علم الشعر عند الاصمعي فوجدته لا يحسن العربية ، فرجعت الى الأخفش ، فوجدته لا يتقن إلا اعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالايام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب (كالحسن بن وهب ومحمد الزيات) .

أجل ان النقد لا يكون إلا بعد إحسان البناء واتقانه ، ولا يكون الناقد إلا استاذاً في البناء ، ولذلك أدرك الجاحظ أنـه لا يدرك اسرار الفن إلا الفنان ، وأن أبصر الناس في الادب شعراً ونثراً هم الشعراء النقاد .

ان كل شيء من الفنون الجميلة هو بناء من العمارة الى الجملة ، فالقصيدة بناية أدبية وكذلك المقالة . ومن يقول لك : علمني كيف أنتقد ، قل له عن لساني : النقد سليقة وطبع وموهبة فلا يمكن بلوغ الدرجة العليا في سلمه عن طريق التعلم .

الناقد المطبوع كالشاعر المطبوع ، أما النقد المصنوع فصاحبه كحامل المقاييس ، والشاعر الذي يلجأ الى الوزن لا يكون ذا حظ كبير من الفن الرفيع ، والاديب الذي ينسخ عن الطبيعة لا يأتي بالبدع مهما تأنّى وتأنق.

أتوصي المرأة على مولود جميل أم يأتي عفو الطبيعة ؟

الفصاحة في كل عمل أدبي طبع لا يتعلم تعلماً ، والفن يتذوقه كل انسان ويكون استطعامه له بقدر الموهبة ، ثم ينمي التعلم والمران تلك الموهبة . وما الناقد الأدبي إلا كالدليل البصير في متحف أدبي . في المتحف ازميل وريشة ودهانات ، وفي الأثر الأدبي قلم وحبر وكلمات تخلق جواً تصويرياً ، وموسيقى خشنة أو رخيمة .

والشعر في أول عهده كان يرتجل كقول الزجل اليوم ، يقولونه ولا يتعلمونه تعلماً ، أما النقد فهو تطبيق القياسات التي يقع عليها الاديب الموهوب في أثناء رحلته في دنيا الفن الادبي وجميع الفنون .

كان النقد الأدبي في فجر العهد الأدبي جملاً وكلمات ، ثم صار مؤلفات ذوات مجلدات ، وقد فاض الخير اليوم إذ أصبح النقد شروحاً وتعليقات لا يقام فيها وزن لعلوم البلاغة ولا اللغة ... أمسوا يسمون هذه الأشياء هنات هينات ، يقولون ذلك وهم لا يعرفون إلا السطحي من أسرارها ، وهكذا صار نقد الكتب وغيرها أشبه بنزهة أدبية ، يحكمون عليها حسب تأثرهم بها ، فاذا قرأها من يحلو له النقد بعد عشاء اتخمه كان الحكم لمعدته لا لفكره ...

يقولون: ما لنا ولنقد القدماء فهذاك زمان مضى وراح فهل رأيت نقاد العالم اليوم يهتمون بها ؟

الجواب انهم في العالم الراقي لا يقدمون على نشر كتاب ما لم يكونوا متمكنين من لغتهم ولذلك لا يرون شيئاً من الخطإ ولو فتشوا عنه بالمجهر .

والنقد كان يحمى وطيسه عند ظهور كل جديد ، فالتعابير تظهر وتروج ثم تختفي كالأزياء التي تبطل ، وهكذا يظل الادب يدور في حلقة مفرغة ، فالذي يقبل الناس عليه اليوم ينسى غداً حتى ان بعضها تحيا قليلاً ثم تموت ، ومثل هذه الظواهر في جو الادب هي كالتي شحذت همم النقاد ،

فكانوا يركضون عجالى الى مجاهرهم كلما بدت لهم نجمة سديمية .

ألا ترى اليوم كيف تنصبُ الأقلام على الشعر الحر ؟ فريق يهاجم وفريق يدافع ، وهذه سنّة الحياة تجاه كل جديد ولا يبقى إلا الأنسب . قدست العرب الكلمة ، ولذلك كانوا يبحثون عنها في كل قصيدة ، ولولا هذا ما قالوا : امرؤ القيس هو أول من قيد الأوابد ، ثم ان ابن أبي ربيعة أول من حيّر الدمع . وهذا الحب للكلمة قد أغرق فيه النصارى ، وقالوا : « الكلمة صار جسداً وحل فينا » ، وقلنا نحن اليوم عن لبنان أنه بلد الحرف .

وبعد فإن النقد في كل ميدان يرافقنا في حياتنا ، ولولا النقد والتنافس لم نحتل الفضاء ، بل ظلت معدّاتنا كما هي ، نطحن في الجاروش ويصب الزيت في سراج الفخار .

ان الخصومة النقدية هي التي رفعت الانسان الى أعلى عليين . يقول الشاعر :

يهوى الثناءَ مبرّزٌ ومقصّرُ   حبُّ الثناءِ طبيعةُ الانسانِ

ومن هنا جاءت الخصومة الأدبية ، فكانت تلك الأحداث التي سميناها معارك .

أما كره الأدباء للنقاد فقد ولد مع الحرف حتى قال أحد الشعراء القدامى : « اقتلوا الناقد انه كلب » . ترى هل كانت هذه العبارة تدور في ذهن الحجاج حين قال عن شاعره جرير انه جرو هراش ؟

وبعد فلنصفّ حساب أشهر المعارك الأدبية .

كانت أولاها تلك المناوشة الادبية حين أجلسوا أبا امامة النابغة الذبياني تحت قبة من أدَم في سوق عكاظ وجاءته الخنساء ، فقال لها : لو لم يأتني قبلك أبو بصير – الاعشى – لكنت قضيت لك .

فوقعت كلمة النابغة في اذن حسّان بن ثابت فتنطح للنابغة وقال له : « أنا أشعر منها ومنك ومن عليها » ، فقال له النابغة : « لا يا ابن أخي ، انك لا تحسن أن تقول كما قلتُ: وانك كالليل الذي هو مدركي » . ثم انتهت المعركة على خير ، والقارىء المفكر يستغرب ملاحظات الخنساء على شعر حسان فيظنها خريجة الجامع الأزهر .

ان النقد الادبي كان بعد ذلــك كلمات جامعة كقولهم : « زهير إذا رغب ، وامرؤ القيس إذا ركب ، والاعشى إذا شرب ، والنابغة إذاطرب». ثم أخذ النقد يتطور حتى بلغ ما بلغ .

ولكن هذه العبارات أشعلت إحداها ناراً التهمت الأخضر واليابس ، ونحن نعني قول الأخطل : « جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحتمن صخر».

ودارت رحى الحرب بين الشعراء « فكانوا في اللقاء لها طحينا » كما قال عمرو بن كلثوم ، ولم يبقَ في الميدان غير الثالوث الاموي : الاخطل وجرير والفرزدق . ثم فارق ذو العباءة وبقي بعده الفرزدق وجرير الذي نسمعه يقول قبل ذهابه الى الابدية : « ولو متنا لشد عليك قبري » .

لا أدري هل كان شد ، لأن الشاعرين ماتا في عام فلا تختفي معالم قبر الفرزدق على جرير ... والأرجح أنهما تصالحا بعدمــا شغلا الامة العربية أربعين عاماً . والدليل ما قاله جرير في رثاء ابن عمه .

وإذا تقدمنا قليلاً سمعنا ابن الرومي يصيح على جميــع الجبهات منافحاً عن شعره ورزقه فيقول في الاخفش :

قلتُ لمن قال لي عرضتَ على	الأخفشِ مــا قلته فما حَمَدَهْ
قصّرت بالشعر حين تعرضه	على مبين العمى اذا انتقــدهْ
مـــا قال شعراً ولا رواه فلا	ثعلبـــــه كان ولا اسدهْ

* * *

ثم يلوي على البحتري، عدوه التقليدي ، فيقول في لحيته :

أنّى يقول من الأقوال اثقبها — من راح يحمل وجهاً سابغ الذنب
لهفي على ألف موسى في طويلته — اذا ادعى انه من سادة العرب

ثم وثم الخ. حتى لم يسلم أحد من لسانه من الذين ذكروا شعره بسوء وحالوا دون جرايته مثل الحاجب عمرو ، صاحب الأنف الذي يرى من قيد ميل عياناً لا بمقياس . وتجيء عظمى المعارك الادبية ، معركة المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس ، المعركة التي لا تزال دائرة حتى اليوم بعد مضي عشرة قرون على موت صاحبها .

انها أعظم ثورة في تاريخ الادب العربي، قد ظلّ أبو الطيب يدبُّ لها بالحطب في حياته ، وانبرى للوقيد بعده مريدون.

وخمدت نار القريض قروناً ، ولكن نار المتنبي ظلت متقدة تأكل بعضها . ثم أفاق النقد من غفوته حين نظم بطرس كرامه قصيدته الخالية التي قالها في مدح داود باشا والي العراق في أوائل القرن التاسع عشر ، فتصدى لنقدها شاعر العراق في ذلك الزمان الشيخ صالح التميمي فقال في ذلك قصيدة مطلعها :

عهدناك تعفو عن مسيءٍ تعذُّرا — ألا فاعفنا من رد شعر تنصّرا

وبعد أن تكاثر الاحلاف من كل جهة واستطار الشر ، انبرى السيد عبد الجليل البصري ولفظ حكمه في قصيدته التي أولها :

حكمت وحكمي الحق ناءٍ عن المرا — بأن التميميَّ الأديب تعثرا

وفي أواخر القرن التاسع عشر كان لمعركة سنة السبعين جبهات وأبطال وصحف ومجلات فشارك فيها أساطين أدب لسان الضاد وأكثرهم يؤيّدون أحمد فارس الشدياق يعترفون له بالإمامة ويناصرونه .

كان هدف سهامهم الشيخ ناصيف في مصنفاته فانتصر له ابنه ابراهيم

يؤازره المعلم بطرس البستاني والشيخ سعيد الشرتوني وغيرهما .

كان لهذه المعركة جبهتان : شرقية وغربية ، فالشرقية كانت لسان حالها مجلة الجنان التي تصدر في بيروت ، والغربية لسان حالها جريدة الجوائب التي تصدر عن الآستانة . وظلّ الصراع قائماً سنوات ، ثم استمر النقد حتى توارى ابراهيم اليازجي عام ١٩٠٧ .

وبعد مضي سنوات على موته أُنشئت الجامعة المصرية ، ثم كانت الحرب العظمى فتغيرت المفاهيم والمقاييس ، فصار نقدنا افرنجياً في تفكيره ، وكانت الحملة الكبرى على شوقي الذي كان كبش تلك المحرقة .

ولعل ظهور كتاب الشعر الجاهلي لطه حسين كان المعركة التي يصحّ أن يقال فيها « لها ما بعدها » فكتب حول هذا الكتاب عدة كتب .

وهكذا ستظل المعارك الأدبية متتالية لأن الأدب يماشي الحياة ، الجيل الطالع يطارد الجيل النازل وهكذا دواليك .

ثلاثة دواوين للعقاد

١

وحي الأربعين

نمط (موديل) ٣٣

لا أدري لماذا يحلّ بنا الفزع الأكبر ، وينخلع قلبنا كلما ذكر أدباء مصر الفرعونية . أغولٌ هيَ ؟ أتضرّ الادب العربي شيئاً هذه الفرعونية التي يتبجّح بها بعضهم ؟ يا ليت شعري أين هي ؟ ومن يدلني عليها وله مني دنيا أعرض من الجنة ؟

ومن يخلقها ؟ أهؤلاء الذين يفتشون عن دفاتر جدودهم العتيقة؟ أليست أكثر منسوجاتهم أكفانـاً مغسولة مبسّطة ؟ انهم لم ينبشوا بعد ناووساً واحداً مصرياً لانهم عاجزون عن الخلق ، وهذه آثارهم تدلُّ عليهم .

سألني واحد كيف تجـد فرعونية طه حسين ؟ قلت : لا أهتم ولا أنصب مما يقوله الاستاذ ويدعو اليه لأنه هو لا يعرف ماذا يريد . فأقصى أمانيه أن يذكره الناس ، وخير زلفى للشهرة عنده هذه البدع . ليته يرينا نموذجاً من هذا الادب الفرعوني الذي يحلم به ، فنجعله فرعوناً جديداً في

دولة القلم . وهل اذا ذكر المصري رع وأبيس ، العجل الإله ، واللبناني ادونيس وقدموس والزهرة ، نسمي أدبها فرعونياً فينيقياً ؟ إذن ألفرد دافيني عبراني ، فقد نظم موسى ، وبنت يفتاح ، وشمشون وغير ذلك . والاخطل جاهلي وثني ، لأنه حلف برب الراقصات ، وبالهديّ المحمرة مدارعها . وإذا شئنا الرد على كل ما يقوله طه حسين في الزمان وما انتهينا .

ما لنا ولطه ، هذا عارض من حمّى الشهرة يعاوده كل سنة . لقد صدق المتمشرق التركي – اسمعيل أدهم – حين شبهه بولد ورش يخرب آنية البيت ويشوش نظام متاعه ، حتى اذا غضبت امه وهز له أبوه القضيب ، استدار وقبع في الزاوية يضحك كأنه يبكي .

لا أنكر أن الاستاذ طه دكتور بلدي من الجامعة المصرية، ودكتور سربوني من الحي اللاتيني ، وأمس حاز واحدة أخرى ويحوز أيضاً . الله كريم . ولكنه ولو نكح من هؤلاء الجامعيات ما طاب له رباع وخماس يبقى خير ما عنده أنه شيخ أزهري يستطعم كلام العرب . ربما صار طه رئيس الجامعة المصرية لا عميد إحدى كلياتها ، ولكن كل مـا خلق الله وما لم يخلق من ألقاب لا يمنعني من أن أعده مشاغباً في دولة الادب ، يشغلها بما لا طائل تحته . إن قلت أزرق قال أحمر ، وهلمّ جرّاً . فخير البر السكوت عن شنشنته .

لا تعجب إن ذكرنا طه في معرض كلامنا عن العقاد ، فقد كان بينهما – في أيام العز – محالفة هجومية دفاعية . أما اليوم فـلا أدري ماذا فعلت بها الايام .

موضوعي اليوم : العقاد الشاعر .

خبروني أن له ، غير دواوينه الثلاثة التي بيدي ، أربعة أخرى سمّاها الديوان كما سمي نحو سيبويه الكتاب . إذن للعقاد سبعة دواوين . لك أن

تسميها ضربات بني اسرائيل السبع . أو سبع بقرات فرعون العجاف ، أما أنا فهي عندي كرجال الكهف ، تحسبهم أيقاظاً وهم رقود . لو اطلعت عليهم لولّيت منهم فراراً ، ولملئت منهم رعباً . فإياك ان تفعل كمعاوية ...

وبعد ، فلنعد الى الثلاثة وأوّلها « وحي الاربعين » وإخاله سماه كذلك تيمناً بالانبياء الذين يكلفهم الله برسالته في هذا العمر ، لا عملاً بقول الشاعر: « وماذا تبتغي الشعراء مني ... »

فالعقاد ، متّع الله الادب بطول بقاه ، سيلزم باب ربة الشعر ولو فات المئة والاربعين ورده الله الى ارذل العمر . فهو شاعر برغم أنفي وأنفك وأنف كل من نطق بالضاد ، يرِدُ الفراتَ زئيره والنيلا ...

أما الديوان الثاني « هدية الكروان » فالاستاذ يستسفر فيه نفسه عنـا الى عالم الطير . جعله « بعض الهدايا التي يتصل بها السبب بين عالم الطير وعالم الشعراء » (ص ١٠) . فعسى أن تذكر الطيور أن الهدايا على مقدار مهديها فتقبلها منه وتؤوّب معه ...

أما ثالثة الأثافي فآخر مــــا أنزل على قلم مولانا الجليل ، وعنوانه « عابر سبيل » .

إتضع الاستاذ في مقدمة هذا الديوان وأفهمنا انه يؤدي رسالة الحياة الحاضرة . تلك رسالة هذا الديوان الجديد « عابر سبيل » وهو اسم يدل على مرماه . ولست أقول انه أدى هذه الرسالة ولكن أرجو أن يقنع القراء بأنها رسالة قابلة الأداء (ص ٨) .

ولكنها ، يا سيدي المتصابي ، ستظل في شباك البريد بشرط التأدية حتى يقيض الله لها من يؤديها .

العقاد كـكاهن ذرب اللسان يحفظ التوراة والانجيل والكتب البيعيّة كلها، فيحسن الوعظ والارشاد ، ولكن غرائزه تعوقه عن العمل بما يعلم ويعلـّم. انه الاستاذ القدير حين يضع دساتير الفن برسوم أو إرادة سنية، ولكنه

يعجز عن المطابقة ، لأن الشعر سليقة . وان صقله المرن بعض الشيء ، كما توهم العقاد ، لا يجعله شعراً ، وبرهاني ان الاستاذ الجليل بلغ الخمسين من عمره المديد ولا يزال نظمه كما كان .

كان بشار بن برد جالساً أمام بيته وبيده مخصرة ، وأمامه طبق تفاح ، فحاول أحدهم سرقته فضربه على يده ، فقال له الرجل : أنت أعمى ؟ فتكشَّر أبو عبدة ضاحكاً وأجابه : يا أحمق ، وأين الحس ؟

ان في الشعر شيئاً أدركه إدراك بشار ، ولا أدري كيف أعبر عنه ، ولكنني أشهد انني لم أحسّ بشيء منه عند العقاد .

أقرأ مقدمات دواوينه فأصيح : يا بارك الله ! أحسبني أمام شاعر لا يجارى ، حتى إذا تجاوزت الوصيد رأيت شعراً هزيلاً كذئب البحتري ، وظننتني أقرأ دفاتر المتمرنين في الصفوف الوسطى لا نظم أديب كبير . اننا لفي زمن كثرت فيه « الاصول » فأكثر الشعراء يضعون لنا في صدور كتبهم خريطة دنيا وحيهم لئلا نكون من الضالين . والعقاد أول من فعل هذه الفعلة .

يقول في مقدمة « وحي الاربعين » ان « التعبير الجميل عن الشعور الصادق » ، هو حدّ الشعر . فلنجعل هذه التميمة في أعناقنا لعلها تنفع وتقينا شرّ توابع العقاد .

هذا كلام أحلى من العسل ، ولكن هل استطاع العقاد شيئاً من هذا ؟ نعم ، لقد طبّق مفصل الشقّ الثاني ، أي الشعور الصادق ، اما الشق الاعلى – التعبير الجميل – فيعجز عنه ولو عمّر مثل نوح .

لست أشك بشعور العقاد الصادق ، ولكن هذا لا يكفينا . ان هذه الحجة لا تقلي عجة . كثيرون جاؤونا بها فما غفرت لهم وزراً . ليت للعقاد شيئاً من التعبير الجميل فيستر به هذه العورة ! اما الاخلاص وحده فلا يفتح باب

الخلود . لا بد من الفصاحة وحسن التصوير في الفن ، وإلا فهيهات ان يدخل العبد ملكوت العبقريين .

قال العقاد في كتابه « الفصول » : « الكلام العاطل ليس أدباً ، وإنما الذي يستحق ذلك هو الذي يكسو الفكرة ثوباً من الجمال والجلال » .

فأين الجمال والجلال في هذه الكتب التي يسميها دواوين شعر ؟

هذا نسل معوّه يحتاج الى وقف ذرية ليعيش ... فليوص به الاستاذ أميناً من بعد العمر الطويل ...

لست أجحد تجديده في العناوين ، فوحي الاربعين ، وهدية الكروان ، وعابر سبيل ، أسماء لا يستهان بها ، وليست بالشيء القليل . قد فعل العقاد كشعراء العالم اليوم ، ولكن الملبوس لا يصيّر القسوس . لا يغضب العقاد أن نصارحه بما في نفسنا ، فهذا شعر جاف كأنه الحطب اليابس ، ويا ليته الحطب فيخرج ناراً ونوراً ! فما هناك إلا دخان يعمي الأبصار قبل أن تأتي السماء ...

كأني بهذا الفقير حين وضع حدود الشعر والشعراء للناس قد وقف أمام المرآة فوصف لنا ملامح تخيّلها في ذاته الكبرى ، فقال : « ولكن المبتدع من يكون له ينبوع يستقي منه كما استقوا — أي القدماء — ولا قبل بذلك إلا لمن كان له سائق من سليقته يهديه الى مواقع الماء ، وبصر كبصر الهدهد ، يزعمون أنه يرى مجاري الماء تحت أديم الأرض وهو طائر في الهواء » .

يتوق العقاد أن يكون الهدهد أو زرقاء اليمامة ، وهذا هو « الشعور الصادق » ، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة . فتجمّل يا صاحبي ولا تنس أن الله مع الصابرين ! ان نيتك حسنة جـــداً فلعل الآلهة ترقّ لك وتعرف بابك فتزورك ولو مرة ، فلا تروح من هذه الدنيا وفي قلبك شيء من حتى ...

انظم ولا تيأس من رحمة الله ، فلولا تسمع مني وتسهر ليلة القدر لعل الفن يهبك من لدنه وليّاً !.

ويقول العقاد : « لكل ذهن جلوة ، ولكل طبع بارد سورة ، والريشة الميتة قد ترفعها الريح الى حيث تحوم أجنحـة الكواسر » . ثم يقول : « نحن عسيّون أن ننظر الى ذلك الشعر ، فإن كان صادقاً مؤثراً فهو من شعر الطبع ، وإلا فهو من شعر التكلف » .

هذا بعض ما قاله في مقدمة ديوان حليفه المازني ، والعقاد كما قلت من أفهم كتاب مصر للفن . انه لم يغفل شذرة مما قاله الأجانب فيه ، ولكنه ، واحسرتاه ، غير فنـان ، فهو حرٍ بأن يرثى له ، وماذا يصنع إن كان شيطانه حروناً ؟

والعقاد يحـدد الشعر في « خلاصة اليومية » هكذا : « ليس الشاعر من يرصع قصائده بما يبهر ويخلب من الخواطر البرّاقـة والمعاني الخطابية المتلألئة ، وليس من يزن التفاعيل ولا صاحب الكلام الفخم واللفظ الجزل ، ولا من يأتي بروائع المجازات وبعيد التصورات ، فالأول ناظم أو غير ناثر ، والثاني كاتب أو خطيب ، والثالث رجل ثاقب الذهن حديد الخيال . إنما الشاعر من يَشعر ويُشعر » .

ونحن نقول : ان الشاعر غير من يحب الشعر . والعقاد يحب الشعر حتى الاستشهاد ... ولكن ما الحيلة وجنة الشعر مفتاحها البيان ؟..

ما قول الاستاذ بجميلة مزينة نظيفة ، وبأخرى تحاكيها جمالاً ولكنها منخرقة السربال ، علقت بأردانها روائح القتار ، صفراء الوجـه من وقود الادخنات كقوم جرير ؟

يضحكني جداً أن أراهم ينشدون خمرة التجديد من معصرة الأوزان والقوافي والأغراض ، فما هناك الشعر . ان النفس واللسان يخلقان الفن في المدارس والدرس . فما بضاعة العناوين التي ترعب إلا طلاسم ورُقى . وما أشبهها بصرر اليوم المغشاة بورق القصدير البرّاق .

لا يراود آلهة الفن الرفيع عن نفسها إلا العبقري ! ومـا أحلى البله والجنون إذا كانا عبقريين . وان يعجبني في العقاد شيء فهو هـذا الايمان المكين بفنه ، انه كأولئك المتهجّدين في دنيا الفن يقومون الليل إلا قليلاً، على رجاء الساعة التي يحملون فيها كتابهم بيمينهم .

كاد العقاد يكون منقطع النظير . فهو كثير الاطلاع ، ثاقب الفكر ، يناقش أكابر مفكري العالم . ولكن تعبيره الشعري ليس كما يجب ، فانحطت منزلته قليلاً عن شكسبير وغوته ، ولا نقول راسين وهيغو لانه يرى الشعر الفرنسي جلجلة ، وهو لا يحب أن يقعقع له بالشنان .

إذا طالعت دواوينه الثلاثة التي أنفق على تحبيرها برميل حبر ، وقنطاراً من الورق ، وغابة من الأقلام ، تحسبه سمساراً يصدر شعراً في دواوين ، وبضاعته أشكال وألوان ، فكأنه دكان الضيعة فيه جميع حوائج البيت ... وليس الذنب ذنب الاستاذ فهو عـارف بأصول الفن ، ولكن الكلام يتعصّى عليه ، وفنه كقناة عمرو بن كلثوم لا يلين ويشج قفا المثقف والجبين. نفسه تطلب ، ومعدته لا تقطع ، فيقعد ملوماً محسوراً .

خذ هذا العنوان الرائع « عيد ميلاد في الجحيم » . فـماذا ترى في تلك القصيدة وهي من خير وحي أربعينه ؟ بياناً دون الوسط ، وشعراً أجشّ تغلب عليه صنعة النثر وصبغته ، وعلى ضوء قوله : « إنما الشاعر من يشعر ويشعر » ، رحت أفتش في جحيمه ولا فرجيل يهديني ، فما وجدت خيالاً يرضيني ، ولا شعوراً يسلّيني فعدت بخيبة أردد : ما لي لا أرى الهدهد...

القصيدة غرّاء فرعاء مصقول ترائبها ، ولكنها مقعدة ، تخلو من الاهتزازات والنبرات والصدى البعيد ، كأنها الشوحة في إسفافها .

أنكون في جهنم ونبرد ؟ أنحضر عيداً ونحزن ، ثم نقول : ان الشاعر من يشعر ويشعر ؟ .

إذا تصفحنا وحي الأربعين رأيناه مبوباً أحسن تبويب . فيه تساوق أكـّد لي أن العقاد يفتش عن مواضيعه تفتيشاً ، بل هو ينظمها ليسد بها فراغاً ويملأ بياضاً معلوماً من الورق يخرجه كتاباً للناس . وللاستاذ فلسفة ، بل الاستاذ يحب الفلسفة جداً ، وفلسفته "لا مطّ" فيها ولا عطّ" . من شاء فليؤمن .. اقرأ فلسفة حياة « ص ١٧ » . فهي تتناول الكون وما وراء الكون : الإله ، الخلود ، السعادة في الدنيا ، الخير والشر ، الحلال والحرام . كل هذه المعضلات يدرسها الاستاذ الأعظم في خمسة عشر بيتاً فقط ، وهذا كثير ، فخير الكلام ما قلّ ودلّ .. وهأنذا أذكر لك الخاتمة لتذكرني بها :

شرعك الحسن فما لا يحسن	فهو لا يحلو وان حل الحرام
ليس في الحق أثام بيّـــن	غير مسخ الحسن أو نقص التمام
مـــا عدا هذين مما يمكن	فاستبحه وعلى الدنيـا السلام

بخ ، بخ ، إلا اثنتين فلا تقربها أبداً . هذا هو الكلام ، وهذا هو التعبير الجميل عن الشعور الصادق ، حد الشاعر العظيم والشعر الرفيع ...

هذه آية صغرى من الباب المرسوم « تأملات في الحياة » وهناك أشياء غيرها لا تحصى .

في هذا الباب خمسة وثلاثون عنواناً في ست وعشرين صفحة منهـــا هذا العنوان : « انذار الغضب الى الحق المحتجب » ، وقد فهمت معناه فما في اللفظ إغراب . ذكرني هذا السجع بطالب اسمه كنعان . سأل رفيقه أن يكتب له سجعة في أول كتابه كعادتهم في ذلك العهد فكانت : يا رب يا رحمان احفظ عبدك كنعان . فزاد عليهـــا صاحبنا اسم والده الكريم وضيمته فصارت : يا رب يا رحمن ، احفظ عبدك كنعان ديب من دلبتا . أما العقاد فحافظ على روعة السجع وبلـّغ الحق المحتجب هذا الإنذار الخطير :

إن جئت طوعـاً فجيء	أو لا فلا تبرح خفاءك

فأي وليد لا يستحي بشعر كهذا ؟

وفي هذا الباب ثلاثيات ورباعيات كرباعيات فيلسوف العراق المرحوم الزهاوي ، اسمع قول العقاد :

المـوت طرّاق على الأ　　بواب عاف كالعفـاة
المـوت أخّـاذ فخذ　　ما تستطيع من الحياة

وعندي ان الزهاوي قال أحسن من العقاد ألف مرة يوم نظم :

لا تقف قدام لذاتـك مكتوف اليـدين
انت لا تـأتي الى　　دنيـاك هذي مرتين

وتحدث الامام عن النور فوفقه الله الى بيت عليه مسحة شعرية،ولكن بعد زحير كزحير إمام عصبة أبي نواس في محرابه ، فقال :

عجبت لأرض تخطر الشمس فوقها　　وتشرق فيها كيف يطرقها الغم

فكأنها خمرة ابن الفارض فما سكنت والهم يوماً بموضع ...

ها نحن على وصيد الباب الثاني وعنوانه « خواطر في شؤون الناس ». فلنقف قليلاً عند ثلاثة أبيات عنوانها « عدل الموازين » ، ولا تعجب لكثرة العناوين وقلة الشعر فالحياة قصيرة ، والاستاذ يريد أن يقول في كل فنّ ومطلب :

إنا نريدُ اذا ما الظلمُ حاقَ بنا　　عدلَ الاناسيِّ لا عدل الموازين
عدل الموازينِ ظلمٌ حين تنصبها　　على المساواةِ بين الحرِّ والدون
ما فرّقتْ كفةُ الميزانأوعدلتْ　　بين الحليِّ وأحجارِ الطواحين

أما عدم عدل الموازين بين الحليّ وأحجار الطواحين فلا يكون إلا اذا كان ناصبوها بهاليل . ليت الاستاذ وضع هذه السفسطة في ميزان منطقه ووضع قبالتها العيار ليعرف قيمتها . وقد أضحكني بعدها بيتان عنوانهما « شطور » :

دليلٌ على ان الكمال محرّم　　اناثٌ خلقنا بينهـا وذكور
فما المرء في جسمٍ وروحٍ بكاملٍ　　ولكنّ كلٌّ العالمين شطور

أتقول لي لماذا ينظم الاستاذ ؟ وأية فكرة يخرج لنا هذا الهدهد المتوّج ؟..
اللهم أين أنت ؟ أأخرجت أبوينا من الجنة لتنزل بنا هذه الدواهي ؟
وكأنه يعارض أخاه ابن الرومي بهذين البيتين ، فاسمع لعلك توافقني :

من ساء بالناس ظناً دون ما ألم   احقّ عندي بسوء الظن والتهم
أسيءْ ظنونك لكن مكرهاً ابداً   كمن يظن ببعض الآل والحرم

ثم لا يحجم عن نظم الكلمات المأثورة مثل : اعرف ما ترميه تعرف ما تجنيه ، فيقول :

تعـلم كيف تستغني   اذا ما شئت ان تغني
فمن يجهل ما يلقي   فقد يجهل ما يجني

رحم الله أبا العتاهية وساحة الملوك ... وليسمح لي الاستاذ أن اذكره انه وقع هنا بما خطّأ به جبران من ترك الجزم بمن ، ولكن فلينعم بالاً فهذا جائز ، كما قلنا منذ أعوام .

وفي شعر الاستاذ كثير من الرجع المعدّ والرواسم الباليـة ، وإن لم تكن هذه ، جاء بكلام كأنه الحديث كقوله في تكاليف العظمة :

تنصف الأمة الضعيف ولا تنـ   صف يوماً عظيمها المظلوما

قلت ان العظماء لا يحتاجون الى من ينصفهم ، فهم يأخذون حقهم غلاباً لا التماساً . انهم يفرضون أنفسهم فرضاً على الناس كما قال بودلير.
وقال الاستاذ بيتاً في العبوسة ينمّ عن نفسه الكبيرة :

قطوبُ كريمٍ خاب في الناس سَعْيُهُ   أحبّ من البشرى بفوزِ لئـيم

أما حكمته في مصائب النخوة :

وأخفِ ما استطعت منهم يخالوا   أمنهم من أذاك غنماً يعد

فنيتشيّة عربية ، والاستاذ ممن قرأوا الاثنين .

وهذا باب ثالث عنوانه : « قصص وأماثيل » ، افتتحه الاستاذ بأسطورة

إكاروس اليونانية ، فقال في هـذا الموضوع قصيدة هي أطول منظومات وحي الاربعين تدل على طول نفس الناظم ، وإن ذكرتنا بعض قوافيها بيوم عصبصب وهلوف . وما عليها ، فللشعراء العظام مثل المتنبي وغيره هفوات بلاغية كهذه . لا تخلو القصيدة من شعر رصين ينسينا بلادة مـا سبق من الفلسفة الرخيصة الركيكة . وقد لفت نظري منها بيتان لسبب أذكره لك ، البيت الأول :

وسر قدماً ، ان المطار لواحد ولكن سبيل الأوج ليس بمقرب

شرحه العقاد هكذا : أي انك إذا طرت الى الأمـــام أو الى فوق ، فالمطار واحد . ولكن المطار الى فوق لا يقربك الى قصدك ، وإنما يقرّبك اليه أن تطير الى الأمام .

والبيت الثاني :

وللأمس شوق أن يرى الغد طالعاً فان مات يوم قبل ماضيه فأعجب

وهذا شرحه : لا يحب الأب أن يموت ابنه قبله فيكون كالغد الذي غرب قبل أمسه .

قد رأيت العقاد في هذه الشروح والتعليقات يفعل فعل المكاري حين يسعف بغله إذا اسند في الجبل ورك ّ تحت الحمل ... فيا لضيمة التعب !

ثم تأتي قصيدة « هو وضميره » فإذا بها حوار على طريقة الشاعر الانكليزي هاردي . ثم تليهـــا خير قصائد الديوان تفكيراً وتعبيراً وتلويحاً وإيماءً ورمزاً ، عنوانها « كعبة الأصنام بعد الزلزال » . انها خير ما قرأت للعقاد بعد تلك اللعب التي ضيّع وقته في نظمها وقتلنا بقراءتها . فهنـا مسرح خيال وفكرة شاعر . ولكن اذا قسنا الاستاذ على قوله السابق : لكل ذهن خامد جلوة ، ولكل طبع بارد سورة الخ.. وجدناه لا يستحق لقب الشاعر . لننتظر لعل الله يفتح عليه بشيء آخر .

ليته يقلل من إدخال المضارع على المضارع كقوله : لم أشأ أهجرهـا ، فهذا قبيح .

وتليها قصيدة بين الشاعر وعروس شعره فيزجرها بقوله :

كفى يا عروس الشعر خيَّبت آمالي   وكذبت أحلامي وأشمت عذالي

أنعم بالاً يا استاذ فليس في الموت شماتة . ان عروس شعرك عانس ، ولا أدري أعليك الحق أم عليها ، فلا تفلتها متى أقبلت ، ولا تقل لها كأبي تمام : ليس ذا وقت الزيارة . فأعذب الأكل القنص . افعل ولا حرج .

أما الجم فخمة في الشعر ، ومثلها « أبخع نفسي حزناً كمن بخعـا ... ». ألا تراها بنت عم المعجم؟ وإن جاء، فلعلك باخع نفسك ، فالشعر غير النثر .

وأثقل منها هذه الـ « حفزت » وحفزي في قولك :

ان منعت لذة حفزت لهـا   فكيف حفزي من لم يكن منعا

ان هذه الزعارير في الشعر العقادي فوق العدد والحساب ، ولو شئنا استئصالها جميعاً من شعر « أمير الشعراء » لاستعنا بحِلَم الاستاذ كافور ...

* * *

كدت مرة أكف يدي عن قصاع العقاد فنفسي لا تشتهيها . والغريب أن نفسي ما كانت قط عيوفاً ، فلماذا هذا الغنج والدلال ! إنها غير ملومة ، أما قطعت جهينة قول كل خطيب ، واختارت معارف مصر ديواناً لعلي الجارم ، ولم تختر للعقاد غير النثر ؟ يا ليت أمر هذا الاختيار يصير إليّ لأوجب على معاهد العالم العربي جمعاء تدريس دواوين العقـــاد ثلاثتها فيكون لنـــا منها الفيات فلسفية علمية تفوق حقاً ألفية ابن معطي . وهكذا يتكافأ عصرنا وعصر ابن مالك والشيخ ناصيف اليازجي !

أليس عجيباً أن أخرج من هذه الدواوين كما تخرج الشعرة من العجين لا يعلق بذاكرتي بيت واحـد ؟ وإن تحلفني حلفت لك ، غير آثم ربة

شعر العقاد . فيا ضياع تعب سيّد قطب ! لقد خسر قوة تذكر في تمشيط الاستاذ وجلوته ... فتعمقه في درس « غزل العقـــاد » لا يقل عن تنطع مار توما في تحقيق الثالوث الأقدس وإثباته .

لا يستبعد أن يكون في « غزل العقاد » تلك الشخصية التي كشف عنها الغطاء سيد قطب فأرانا ستة وجوه وهو لو يشتد اكثر لسبّعها ، وكان لمصرنا رؤيا جديدة وتنين جديد ... قد يكون لشخصية العقاد هذا المدى البعيد ، ولكنها ، يا ويحها ، شخصية بلا شعر . فبيانه لا يطاوعه ، ويده لا تؤاتيه ، وهو شاعر بعينيه فقط ، والحرب هينة على النظارة .

هذا رأينا في العقاد . أما العقاد فيحلم ، وهو راقد في الظل الخلف البنفسجي ، بأن سيقوم في أعقاب الدهور ، عند ظهور الإمـام الذي يملأ الدنيا عدلاً ، عقاد آخر ينتبه لمحاسن عقّادنا الحاضر ، ويفلّي شعره كما فلّى هو شعر ابن الرومي . فإن صحّ هذا الحلم وأصبح الشعر رصيناً يزدري الموسيقى والرقص لأنهما يخففان الوقار ، صار عباس محمود العقاد أول الشعراء الأربعة وإلا بقي ثالثهم – لا أقول رابعهم – لا يبرح مكانه الذي وضمناه فيه حتى تقوم ناقة صالح ، ويهب كافور للمتنبي ضيمة أو ولاية ...

نحن الآن عند باب « وصف وتصوير » من وحي الأربعين . وفي وصف العقاد غنّة دموسية حلوة ، يطالعك بها الفتح المبين في مشروع حليم الجديد ، أي تحويل شعر القرآن نظماً ، وإليك منه نموذجـاً بلا ثمن . قال حليم ينظم سورة البلد :

أقسمت في هذا « البلد »	وبوالد وبمـــا ولد
أتراه لم يره أحـــد	حتى تمنّع بالعرين ؟

ليت صاحب الملحمة الجديدة تعقل « فلا اقتحم العقبة » فدونها ما جاء في الآية الثالثة عشرة من هذه السورة – أي فك رقبة – بالمعنى الأصلي اللبناني .

أما مولانا العقاد فيصف خليج ستانلي أو حمامات البحر في الاسكندرية على النمط الدموسي فيقول في وصف المستحمات :

تلك الطويلة كالقصيرة   والسماحـــة كالصلف
برق السحاب طوالها   وصغارها برق خطف
والسهم يقصد إن جثا   رامي السهام أو اشترف

ومنهـــا :

ألقى لهـــن بقوسه   قزح وادبر وانصرف
عيد الشباب فلا كلا   م ولا ملام ولا خرف

قد أفاض غيري في تحليل القافية الاخيرة فلا أدنو منهـا ، بل أدبر وأنصرف كقزح ، وإن أهاب بي العقاد :

قف في عبورك « غير مأ   مور » ومن يعـبر وقف

أجبته : تعذرني وأنت كريم ، فقافيتك تستغيث بموت المتنبي وعوده ...

أرأيت الخرابيش التي يسميها هذا الفقير تصويراً ؟

ان الشاعر يجسّد الجماد ويريك الأساطين عذارى مائسات كقول شوقي في « انس الوجود » :

أيها المنتحي بأسوان دارا   كالثريا تريد أن تنقضـــا
قف بتلك القصور في اليم غرقى   ممسكاً بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين في الماء بضاً   سابحات بـــه وأبدين بضّا

لا فرق بينهما سوى أن أحمد شوقي يحيي ، وعباس العقــاد يميت . سيحشرني العقاد مع الذين مدحوا أحمد شوقي لأنه هو نقده ، أمـــا أنا فأتلو عليه آية الاعشى :

وما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم   وبحرك ساج لا يواري الدعامصا

أوترى الحياة ، يا امير نفسك ، مائجة صاخبة في حمامات الاسكندرية

فما تريد على أن تنصب قلبك هدفاً ؟...

الفنّ يا معلم هو أسرك هذه المشاهد الهاربة وحبسها الى الأبد بين دفتي كتاب أو صلبها على لوحة . أما أنت يا صاحبي :

فهتفتُ «فليحي الجمالُ» وقدْ يعاقبُ مَن هتف

فبدلاً من أن تصف لنا الجمال الزاخر الذي تغنّيت به في نثرك وناقشت فيه أكابر المفكرين، رحت تسجل نظماً ماجريات رخيصة تذهب مع الدويّ ، وما تفيد إلا الدلالة على أنك تفهم الشعر كلاماً أبعد غاياته مطابقة الصرف والنحو والعروض . فما عذر زورقك الشعري ، والرياح تجري كما تشتهي ؟ اذا كنت تضحي وتخسر كعمر صاحب نعم ، فهلمّ الى قطرنا ، الى حمامات طبريّا ، فلعلّ قريحتك الجامدة تسيل .

وتحت عنوان « القمراء » يعارض العقاد صاحبه ابن الرومي في: تبرّجت بعد حياء وخفر ، فيقول بيتين جيدين :

كلما أشرق في الليل القمر وسها الناس ولاذوا بالحجر
خلت أرواحاً تداعت للسمر ذمراً تهمس من حول زمر

لقد قلت « في الليل » من وقار البيت وجلاله ، والعقاد يعلم أن القمر سراج الليل المنير ولا يطلع نهاراً ، ولكن الوزن استقام بها وهو لا يرمي الى أبعد من « التعبير الجميل » في الفن .

ان للفن فتنة الشبكة على وجه المليحة ، والعقّاد لا يحسن حبك هذه الشبكة . يطوف حول أسوار أريحا نافخاً في أبواقه ، والأسوار لا تسقط لأن زمن وقوف الشمس قـــد انقضى . فالشاعر الشاعر يتمثل أغراضه ويخرجها من نفسه كما تصنع النحلة شهدها .

لا حياة فنية بدون هذا الهضم ، فالعشب لا تخرجه الدرة لبناً صريحاً إلا بعد أن يمر في ألف مأزق ، وكذلك الفكرة لا تحول شعراً إن لم

تمر بخلايا النفس الشاعرة . والذي يزعم أن العقاد يجهل هــذا يأثم ، ولكنه يحاول الاندغام بالأشياء فتتنكر له وتنفر منه وتقوم العداوة بينهما ، ولا إكراه في الحب . فما يسمونه رقة وحناناً لا أثر له عند العقاد، ولهذا يرسل الشعر معقداً كذنب الضبّ . لا شدّ ولا لزّ في نظامه ، كأنما هو حبالة الخوص .

اقرأ باب « غزل ومناجاة » . ففي هذا الباب تصوُّرٌ لا بأس به لولا حبسة في لسان ناظمه ، بل لولا تلك اليبوسة التي تجفّل المحبوب .

في القصيدة الاولى « مباراة بين الشفاه » يصطنع العقاد الأسطورة ويجعل الرب حكماً في هذه المباراة ، فيحكم ذو الجلال لشفاه الملاح غير مبال بشفاه العباقرة والجبابرة لأنه ، عزّ وجلّ ، جميل – كما خبرونا عنه – ويحب الجمال . ورب العقاد هذا عنده ما عندنا نحن البشر ، فسجّل حكمه ومهره إذ دعا أقرب الملاح اليه :

وقبّــل مبسمه قبلــةً	تضرّم منها مكان الخجل
وقال اجل تلك أعلى الشفاه	فأصغوا جميعاً وقالوا أجل

أما العقاد الذي هو أشد عارضة من الرب ، ففوراً اعترض واستأنف وميّز ونقض وأبرم قائلا :

بذا حكموا بمدطول المطال	فليسمعوا رأيي المرتجل
اذا التمسوا مثلاً للشفــاه	قلت لهم شفتاك المثــل
لثمت الحيــاة بلثميهما	وعاودت بعد السلوّ الغزل

يظهر لي ان صاحبي العقاد يحب شيئين في الدنيا : الضياء وخصوصاً اليوم المشمس ، والقبلة وهي اولى لباناته من الحياة . إنه يؤثر القبلة على كل هنات الحب والله أعلم ... ولكنه لا يحسن التحدث عن مفعولهـــا ، فكان الخجل الذي تضرم حين قبل الرب مبسم المليح غير بارعة .

وتلي هذه المباراة الطريفة قصيدة « المعاني الحية » أي الوجوه .

في هذه القصيدة بعض الشعر فعليك بها في الديوان ولا تنس أن عنوانها أشعر منها .

ها قد بلغنا أشهر قصائد العقاد وعنوانهـــا الكبير « غزل فلسفي » وعنوانها الصغير « فيـك من كل شيء » قد شرحها سيد قطب في الرسالة شرحاً لاهوتياً ، وإليك مطلعها :

فيك من شمس الضحى العين التي ... ترسل اللمح مضيئاً في الظلام
فيك من بدر الدجى أحلامه ... حين يسري نائمـاً بين نيام

لا أناقش نظم العقاد كلمة كلمة ، ولكني أتعجب لتوفق العقاد الى لفظة شعرية هي « أحلامه » ، فقد كادت تقيم البيت لولا عجزه الذي يكوكي كدابة أصابها البيطار .

وماذا أيضاً في حبيب العقاد ؟ فيه من كل مـا خلقه الله التوراة في ستة ايام ، واليكه جدولاً مطمئناً ، فيه : من طلعة الربيع وبرق الشتاء وغمامه ، وغنـاء الطير ، ونوح الحمام ، وخرير الجدول ، ونظر الوحش ، وانفتال الحوت ، وسطوة النسر ، وخوف النعام . إذاً هذا الحبيب برّ وبحر كما يقول العوام . ان الأمانة الفنية تقضي عليّ الآن بإيراد الكلام بحذافيره بل بنصه وفصه كما عبر السلف الصالح :

فيك من نار الحياتين الهوى ... هل حياة الحي إلا من ضرام

إن عجز هذا البيت فلسفة طبيعية فتفهّمه جيداً. أما عجز البيت التالي:

والذي أرهبـــه وأسفا ... هجرك المدعو بالموت الزؤام

فقد قصر فيه العقاد عن بيت البارودي ، فأين قوله : هجرك المدعوّ بالموت الزؤام ، من قول ذاك : « أخو فتكات بالكرام اسمه الدهر ... »

قيل ، ان أحدهم نادى غلاماً باسمه عبد الله . فما ردّ عليه حتى نسبه

الى أبيه ، فقـــال له : أطرش أنت ؟ أدعوك مرات ولا تردّ عليّ ؟ فضحك الفتى وقال : كلنا يا سيدي عبيد الله . فأجازه معجباً بذكائه . وسمعها غلام آخر اسمه حمزة فخزنها يحلم بالجائزة ، ولكن جوابه المدّخر: كلنا حاميز الله لم يطعمه خبزاً ... وكهذه قول المقاد : هجرك المدعو بالموت الزؤام ...

فلنعد الى الجدول لئلا يفوت القارىء شيء من هذا المحبوب، وفيه : من نقص الدنيا وتمام الآخرة ، وطيب الملائكة ، وغيّ الشيطان وآثامه وسكرة الخمرة ، وغذاء القوت ، وريّ الماء ، وهيـام الجوع ، وحظ وافر من الارض ، وحظوظ من سماء لا ترام :

أجديد ؟ إي نعم قـال الصبا أقديم ؟ إي نعم قـال الوسام

ولا تعجب إن رأيت اسلوباً افرنجياً في القول، فشاعرنا يحب التجديد .. وفي هذا الحبيب شيء من هندسة علوية لم اذكرها لك . وفيه من الشاعر ومني ومنك ، ومن جميع الناس ، ومن كل موجود وموعود توأم – هذا شعر – فهو إذن أزلي أبدي وسع كرسيه السموات والأرض... فليت الشاعر لم يسه في هذه القصيدة « النورانية » عن ذكر كل ما في هذا الحبيب اللذيذ . ليته نظم لنا شعراً كل المقادير التي فيه من كربون ، وكلسيوم ، وحديد ، ويود ، ومغنيزا، وفوسفور ، وكبريت ، وسود ، وبروم ، وفليور ، وسليسيوم ، واكسجين ، ونيتروجين ! بل مـــا ضره لو ذكر ايضاً المواد المركبة مثـــل كربونات البوتاس ، وكلورير السوديوم ، ليرى الغناء العظامي، والكرماتين، والنيكلايين ، ليثق من متانة خلاياه ونشاطها ، والألبومين وغيرها ، ليرى كيف دهنه وشحمه ، والغلوكوجين ليرى كيف تكون كبده أرقيقـة أم غليظة ، فيأخذ حذره ويأمن غدره ... ناهيك بما في هذا من فائدة جزيلة للطلبة إذ يتعلمون أم « دروس الأشياء » بسهولة. فالشعر سهل حفظه ...

رجاء – ليت الاستاذ الجليل يشبع هذا الموضوع درساً وتحليلاً فيحدثنا عن نفس ذلك المخلوق العجيب ، أحلّت فيه عند الولادة كما يزعم افلاطون، أم بعد الحبل بأربعين يوماً ، إن كان ذكراً ، وثمانين إن كان انثى. وهذا رأي أرسطو المعلم الإلهي وعليه نسج مار توما ... فالاستاذ يحب الفلسفة وله فيها جولات تذكر فتشكر ...

حقاً ان الشعراء في كل واد يهيمون ، ولكن العقـــاد يهيم وهو غير شاعر ... انه يقول الشعر كالزجل وهاك البرهان : يبدأ الزجال اللبناني كل دور بآخر شطر من الدور السابق ، وكذلك يفعـل العقاد ، وإن كنت تتهمني فاسمع قوله :

هذه الروعة هل تجمعهـا ... في مدى يوم لحوم وعظام
لا وربي بل دهور غبرت ... قبلما تتقنها الأيدي الكرام
قبلما تتقنها الأيدي التي ... نسقت أنواعها وهي حطام

انتبه جيداً فهو يهدي اليك رأي داروين منظوماً ، ثم يقول :

ان نفوني اليوم من دنياهم ... وأباحوا لي من الزاد المرام
ثم قالوا ما تشا منا فخذ ... قلت هذا وعلى الدنيا السلام
قلت هذا وتقدمت الى ... هوة الغيب وفي الثغر ابتسام

أليس هذا كأسلوب الزجل ؟ وما في فصاحته هذه خير ، فهو دون عروضنا البلدي شاعرية وتصوراً وعاطفة ، وزاجلنا لا يقول : قبلما تتقنها الأيدي الكرام ، ولا يذكر حبيبه كالقصّاب فيقول : لحوم وعظام .

ونمر بأربعة أبيات عنوانهـــا : « مائدة » أحسن الشاعر الرمز اليها والتعبير عنها :

مائدة أسرف في طهيهـا ... عشرين عاماً عبقريّ الزمان
مدت لنا طوعاً فما عذرنا ... اذا تركنا لقمة في الخوان

فللاستاذ تهنئاتنا الحارة بهذه المائدة الدهرية التي أوحت بيت شعر. أما « سعادة في قمقم » فأسطورتها تافهة ، ومثلها « عيد ميلاد » التي ألف بها العقاد ثالوثاً من الشمس والمسيح والحبيب صاحب العيد ، وقد وصف الشاعر ثالوثه الجديد بمنظوم دون النثر الوسط . وإليك نموذجاً منه لتحكم عني :

النور والحسن واليقين ‏ ‏ ‏ ‏ تحتفل اليوم في مكان

أما فكّ هذه الرموز الهيروغليفية فهكذا : النور للشمس والحسن لصاحب العيد ، واليقين للمسيح ، والثلاثة ولدوا في يوم واحد . فافهم ولا تنشغل عما بقي من بلاغة ساحرة :

إحدى وعشرين من سنين ‏ ‏ ‏ ‏ قد تم في أوجها القران

أي عمر صاحب العيد ٢١ ربيعاً ...

ثالوثكم تمّ بعد حين ‏ ‏ ‏ ‏ فليمض ما شاء في أمان
وليهتف المنشد الفصيح ‏ ‏ ‏ ‏ بالحمد في العيد والغناء
كلاهما مغنم ربيح ‏ ‏ ‏ ‏ لعاشق الأرض والسماء

ربما لا تصدقني وتقول في قلبك : هذا كلام منحول . لا والله ، أنا شككت مثلك ، وقد فركت عيني مرّات وحملقت جيداً لأنني كدت لا أصدق أن أديباً كبيراً كالعقاد يذيع شيئاً كهذا على الناس ، ولكن وحي الأربعين حي يرزق فافتح (ص ١٣١) .

ونمر « بنبضات جديدة » فنهفو اليها ولا نقع إلا على سراب . وتسير قافلتنا في هذه الصحراء فنبلغ فصلاً جديداً عنوانه : « قوميات واجتماعيات» أوله قصيدة عنوانها : « الى المحسنين » ألقيت في احتفال سنوي لجماعة بطنطا سنة ١٩٣٠ ، فاسمع بعضها :

يا جيرة الاحسان والمحسنين ‏ ‏ ‏ ‏ لبيكم لبيكم أجمعين
من يسمع الملهوف حق له ‏ ‏ ‏ ‏ ــلا ريب ــان يسمعه السامعون

من عين شمس جئتكم ناهلا — من عين شمس لا تراهـــا العيون
حييت في محفلكم اخـــوة — بناتهـا في الخير صنو البنين
مريمكم أخت عيساكم — وكلـكم آمنـــةٌ أو أمين

ومن روائعها :

يا غارسي الاحسان في طندتا — ما خصبكم فيها بمـــاء وطين

وطندتا لغة في طنطا ، وقد تهم علماء اللغات القديمة ، والمولعين بالآثار .. وللشاعر ما لا يجوز لغيره . ويلي هـذا البيت الأخير نظم بعض آيات الكتاب العزيز ببراعة يقصر عنها حليم دموس :

ظل ظليـــل وجنى رحمة — ريّان يؤتى أكله كل حين

ويعقب هذه أبيات وجهها الى غاندي يوم إفطاره ، منها بيت يعلمنا فيه العقاد نظرية التلقيح للجدري وغيره إذ يقول لغاندي :

خذ من قرارة دائهم لدوائهم — بعض السقام من السقام ضمان

ومن يقول بعد هذا لا جديد تحت الشمس ؟!

وتلي الدرة « الطندتاوية » قصيدة « الاستقلال السوري » وقد قضينا لها ما يجب منذ ثلاث سنوات وأكثر . وها أنا ذا أسرد لك ختامها البديع لأذكرك بذلك الجمال الفني :

وخذوا التهاني من مهنّىء نفسه — بغـــد يطالعـكم بالاستقلال

أما رأيت أنوار الجمال الفني تتدفق من : خذوا التهاني ، ومن مهنىء نفسه ، ومن يطالعكم ؟ أما المعنى فليس ظاهره كما تسمع وتقرأ كل يوم : نهنىء أنفسنا ونهنىء بكم الوظيفة الخ.. بل هنالك أسرار دفينة لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم من شرّاح العقاد .

عاب العقاد على شوقي شعره القومي الاجتماعي وانتقده انتقاداً غليظاً ، ولما حاول هو ان يقول مثله وقف حمار الشيخ في العقبة ...

أما باب « فكاهة » فيتألف من عشر صفحات لا فكاهة فيها .

شبهت فكاهة العقاد بفكاهة صاحب لي كان يقول في نهاية نكتته : « انتهت اضحكوا ! » فليت عقادنا يلحق بديوانه ليدلنا على ما يحسبه فكاهة !

أما وقد أعييت ولم أجد تفكهة واحدة فخذها من قصيدة الاستقلال السوري فتكون فاكهة في غير أوانها ، كما يقال :

بوركت من وطن يحل شهيده   في حيثما ألقى عصا الترحال

هل طرق سمعك قبل الآن مثل « في حيثما » ؟

هذا هو السحر الحلال بعينه فتعلمه ولا تعمل به ...

أما « متفرقات » ، وهي عشر صفحات أيضاً ففيها ، والحق يقال ، بيت جيد وهو مطلع رثاء حافظ :

أبكاءٌ وحافظٌ في مكانِ   تلك إحدى طوارق الحدثان

ولو أرجعنا تفاريقه لأصحابه لم يبق للعقاد شيء . وهنا ينتهي وحي الاربعين ، أعاننا الرب وإياك على احتمال هدية الكروان ، وعابر سبيل .

انني لأرحم العقاد رحمتي لقبيحة تحشر نفسها بين الحسان وهي مؤمنة بجمالها ... فما اكثر المغرورين في الدنيا ، وأولهم العقاد الشاعر الذي يردد بينه وبين نفسه : « والله متمّ نوره ولو كره الكافرون » .

هدية الكروان

نمط ٣٣

٢

موضوع بحثنا ، الآن ، « هدية الكروان » . وهذا صنع كوحي الأربعين ، عام ١٩٣٣ . والغريب أن يكون « هدية الكروان » له ما قبله وما بعده. وهو خير نظماً من « الوحي » و « العابر » ، فبعد ما ظهرت مخايل النجابة على عقاد هدية الكروان ، امحقت في « عابر سبيل » الذي تحسن قراءته تحت مصباح السكة الحديدية الأحمر خوفاً من التصادم ...

ما أفلحت سفارة هدية الكروان الى عالم الطير ، بل كانت كرحلة ملائكة الله الى قوم لوط ، رضوا من الغنيمة بسلامة الجلد ... فدواوين العقاد ثلاثتها بيضات دجاجة واحدة ، كلها طرح .

لا أحدثك اليوم إلا عما لا يجوز السكوت عنه . العقاد طماح وفي نفسه آمال وليس في القدر فطانة ... يريد أن يكون أمير شعراء ، بل يريد أن يكون فاتحاً ، وهذا هين عليه ، فهو جد مطلع على الشعر العالمي ، ولكن القريحة حرون لا تسعفه ، وموسيقاه موسيقى صنج مشقوق ... وأغلب ما في شعره أنه كله باج واحد . أروعه تحت الوسط ، ورذله دون كل رذل ، فهو بهذا يبذّ الشعراء طرّاً ... والعقاد يؤيد قولي ويشير اليه من حيث يدري أو لا يدري إذ يقول مخاطباً الكروان :

زعموك غير مجدد الألحـــان ظلموك بل جهلوك يا كرواني

اننا لا نظلم ولا نجهل ، وقد آلينا أن نقول للأعور : أنت أعور !. فليطرطر العقاد ما شاء ، فليس له غد في عالم الشعر .

ويقول في قصيدة أخرى :

وإنك مفرد في الطير لحنـــاً وما استفردت في تلك الخصال
اذا شابهتنا في النقص حيناً فأين « المشبهاتك » في الكمال ؟

هذا رأي العقاد في نفسه ، وهو يحدث الكنة لتسمع الجارة . اما نحن فما نراه يشبه الشعراء إلا في النقص ، ويقصر عنهم في الكمال ، وما اكثر الأدلة على ذلك . خذ مطلع قصيدة عنوانها « على الجناح الصاعد » :

حادي الظلام على جناح صاعد يا أرض اصغي يا كواكب شاهدي

وقابله بشطر بيت لشاعر وسط هو ولي الدين يكن :

وهـــذي بحمد الله مني براءة فيا أفق سجلها ويا أنجم اشهدي

لترى الفرق بين شطرين تكاد تكون الفاظها واحدة . وحسبك هذا دليلاً على ذوق العقاد الفني . اذا كان العقاد يصأى كالفرخ على الجناح الصاعد فيقول :

أنا صائد لصداك لست بصائد لك انت يا كروان فأمن صائدي

فكيف يكون على الجناح النازل . . . وللاستاذ أبيات يشفع فيهـــا للغراب فعسى ان يقوم ، بعدنا ، من يشفع له بين طيور الشعر ، ويرق لفاقته الروحية ومجاعته الفنية ، فهو كما قال عن نفسه :

شاعراً عاشقاً وقارىء كتب قرأ الكتب دارساً فأطالا

ولكنه عاجز عن تحويل تلك القراءة شعراً لأنـــه لا يستمرىء ولا يهضم . والقراءة ، وحدها ، لا تعمل الشعراء ... الشعر يحتاج الى الكيمياء التي تخلق من اتحاد عنصرين عنصراً جديداً وهذا لا يحسنه العقاد .

والاستاذ يحب القبلة على رضا لا قنصاً كما يأكلون « التبولة » عندنا .

يريد على كبر هامته أن يزق كالفرخ ، ولهذا قال :

ويزعمهـــا قبلة من أخٍ ففيم إذن قطفها في حذر

وفي (ص ٥٨) يقوقي كذلك الشاعر في قصيدته :

يا مبرمـــاً أهدى جمل خذ وانصرف ألفي جمل

ومن أين له طرافة تلك ؟ فهل من يقول لي ماذا يعني بقوله :

طلع الصبح حزيناً عاطلاً أتراه كان بالقرب يزان
وسرت أنفاسه يا حسرتا أين أنفاسك يا زين الحسان

إن « يا زين الحسان » رقيقة ناعمة لا تشكو من شيء ولكنها ليست كزين الشباب لأبي فراس . ان للكلام مواطن يدركها الشاعر الملهم ويرشده اليها ذوقه الفني ، وهذه الغريزة ضئيلة جداً عند العقاد .

لم نبلغ بعد ما نعني فاسمع غير مأمور :

وتجلى الباب لي عن زائر من أودّائي كأنّا أخوان

أسمعت قبل اليوم بتجلّي الباب ؟ وهل حلمت بركاكة كالتي تلي هذا التجلي ؟ وان سيقوم في القرن العشرين من يسميها شعراً في ديوان ؟

لم ينته الشوط بعد ، فاسمع :

فتعلمت ولبّي شارد . . . كيف يكسى الود ثوب الشنآن

قال لي: الأفق جميل. قلت : لا بل دميم، قال: زاه، قلت:قان

قال زيد، قلت: حاشا، فانثنى نحو عمرو، قلت: كلا، بل فلان

فمضى يعجب مـــني قائلاً : أسلام ؟ قلت: بل حرب عوان

الاستاذ ينظم نظرية اختلاف النظر باختلاف الأحوال والأخلاط فافهم إن كنت لبيباً !

أما قصيدة « ساعي البريد » فصالحة جداً للترتيل الكنسي وهي على لحن:

إن ساعدت عذرايا فزت بكل منـــايا
يا عـين ذات الطهر اسعي بمحـــو خطايا

وإليك قول العقاد للموازنة :

لو لم يكن خطـابي في ذلك الوطــاب
لم تطو كل بــاب يــا ساعي البريد

ليت شاعرنا « العالمي » يطالع رواية ايفان بونين « ضحية الحب » ، ليعرف كيف يتحدث الأدباء الكبار عن الخطاب (المكتوب في العرف المصري) .

ويحدثنا في صفحة (٦٥) عن قبلة بغير تقبيـل ، أي قبلة لاملكية ، أو لحس الفرن على ريحة الكبة :

تمت القبلة التي تشتهيهـا كلها غير ضمّ ثغر لثغر
تم منها شوق ورف شفاهٍ وهوى نيـة وخفقة صدر

حدثنا ابن خلدون عن أحدهم قال : ذاكرت يوماً صاحبنا أبا العباس ابن شعيب ، وكان المقدم في البصر باللسان لعهده ، فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسبها له ، وهو هذا :

لم أدرِ حين وقفتُ بالأطلال ما الفرق بين جديدها والبالي

فقال لي على البديهة : هذا شعر فقيه . فقلت له : ومن أين لك ذلك ؟ فقال من قوله : ما الفرق ، إذ هي من عبارات الفقهاء الخ.. ونحن نرى في اكثر دواوين الاستاذ نظماً لا ندري بمن نلصقه كقوله مثلاً :

هكذا الحب دواليك فمن لم يكنه لم يكن قط حبيبا

وعلى ذكر ابن خلدون نقول : ان في شعر عقادنا شيئاً كثيراً من نثر ابن خلدون . والعقاد متأثر جداً بأسلوب صاحب المقدمة وعلومها ، وقد تكون هي التي أوحت اليه « عدل الموازين » ، فقد جاء فيها ما يشبه ذلك (ص ٤٦٠ طبعة بيروت) .

وهناك قصيدة « تسلـّم » يبيع فيها العقاد الكون كله من حبيبه بيعاً صحيحاً باتاً تاماً بالتسلم والتسليم ... فأين هتلر وموسوليني يقصداه وريحا المستر تشمبرلن من متاعبه ومظلته التاريخية ؟

لسنا نطالب الاستاذ بلات نظم ، ولات نثر (ص ٥١) فأخوه المتنبي قال حتى لات مصطبر ... وعليه ان يفوقه . ولكننا بكل حشمة ووقار ننبه الى قوله عند تسليم الزهر :

تسلم زهرك المحبوب   في السهل وفي النجد
تراه ضاحك العينين   تراه ناضر الخد

فجزم « تراه » واجب هنا ولا يحتمل التعليل والتأويل ، وإن رأى فعل أمر غير جازم الجواب فيكون من غير هذا الضرب .

والعقاد قصيدة في « المنديل » يفضّل فيها الكتّان على الحرير ، زاعماً أن « الحرير نسج الديدان التي تذكر الانسان بالموت والقبر فيجمد من يذكرها » . هذا الشرح نثراً ، أما النظم فهذا :

فماذا تنسج الديدان   من ذكرى لمن سعدا
وما الديدان والذكرى   ومن ذكر اسمها جمدا

وما ذكر « يجمد » في نثره إلا لقوله « جمدا » في شعره . قلت : اذن ومن يرَ التفاحة يذكر الزبل ، ومن يأكل البيض يذكر ما يذكر ... وأخيراً ، والذي يراني ويرى العقاد مثلاً يذكر أشياء كثيرة ... فما أبشع تقليد العقاد وأثقل فلسفته ، يريد أن يجاري ابن الرومي يهجو الورد ، وابن المعتز يهجو القمر ، وإلا فما يدرينا أنه شاعر كبير ؟.

وتمر نفحة شعرية في صحراء العقاد ، لا أدري من أين هبّت . أحب أن تستنشقها معي لتفرج عنك وتقول : « سبحان محيي العظام وهي رميم ». العنوان « حلم اليقظة » :

أين مضى الحلم الذي   كنتُ أراه ههنا
إذا صحوتُ والتفتّ   عن شمالي موهنا

* * *

وكان عندي حلماً   في يقظةِ الليلِ المديد
أسمعُ من أنفاسِهِ   نسمةَ فردوسٍ بعيد

والعقاد معاشه هيّن تكفيه بوسه . إقرأ قوله في ثرثارة (ص ٨٠) . ألا تراه كقول الزجال المصري الذي حدثنا عنه الاستاذ المازني وروى من قوله في الرسالة (عدد ٢٧٧) :

يا بنت أنا بدّي أبوسك   بس أبوسك
واطرب واحظى بكؤوسك   رقّي شويّة

وفي « النجوم السواغب » يوزع العقاد البوس بلا حساب ، يهب نسيم الليل عشرين ، والروض كذلك ، وهلمّ جرّا :

وخذ يا نسيم الليل عشرين قبلة   وخذ مثلها ياروض ، انك غاضب

أي « لا تزعلش » ، وهكذا يعدل الاستاذ ويجبر الخواطر كلها ، وما على الكريم شرط ...

أما هذه الواو في : « ومسكينة هذه الكواكب » (ص ٨١) فخطأ شنيع من كاتب حريص على اللغة وقواعدها ، ونحن لا نغفر له ما دمنا نعلم أولادنا : « البلاغة معرفة الفصل والوصل » .

أما « كلماتي » فقصيدة حركتها حذروفية ككفوف بديع الزمان . وإذا شرح ابن الرومي بيتاً ببيوت ، فالعقاد يشرح كصاحبه نثراً وشعراً ، مفردات ومعاني حتى مثل : عن كثب ، وشتات ، وكوى ، وكثيراً ما يكتب فصلاً في هذا الديوان وينظمه شعراً ، وهو على حق لأن نظمه ، كما قلنا ، لا يؤدي فكرته كنثره (اقرأ ١٣١) .

لا أحدثك شيئاً عن قصيدته « صنوف حب » بل أحيلك على الرسالة لتسمع الاستاذ سيد قطب ينادي عليها كصاحب صندوق الفرجة — صندوق الدنيا بمصر — « تفرّج يا حبيبي على عنتر ، صاحب السيف البتار ، عنتر ابو

الشوارب ... » والعقاد يغزو صاحبه ابن الرومي أحياناً فيؤوب بالنهاب وبالسبايا ، مثل « صبغة الله » ومثل :

علق الله في عذاريك مخلاة ولكنها بغير شعير

فيقول :

أليس كفى هذا السواد فزدتـه سوادَ غرابٍ في لحاك مملـّق ؟

كم يكون للرجل ، لحية أو لحى يا ترى ؟

العامة لا الشعراء عندنا يقولون : « تضرب في لحاك » ، فهل أخذهـا المعلم من هناك ؟

ويزيد بيت العقاد رونقاً وبهاءً وفناً وجمالاً قوله : « أليس كفى ... » فيا ضيعة التعب في الدرس وقراءة الكتب الطويلة .

أما قصيدة : « البيلا ، البيلا ، البيلا » فقد ذكرناها بما تستحق في غير هذا الموضع ، وليس هنا إلا تصفية الحساب نهائياً بيننا وبين هذا الفاضل . وللعقاد هجاء ولكنه لا يقرأ ، لأن الهجاء يحتاج الى شاعرية فذّة ، والعقاد لم يكن يوم قسمة الحظوظ على الشعراء .

ويختم هدية الكروان ببعض الرثاء . والذي عندي ان قصيدته في رثاء حسن الحكيم تشبه الشعر الرصين .

حاشية طاووسية :

كان الذي خفت أن يكون ! وسألني أحـد أدباء العاصمة ، وهو لا يصدق ، ان الشعر الذي رويته من نظم العقـاد . ظن انني نحلته إياه تهكماً به فنفيت التهمة عني فقال : اذن اخترت لنا اردأ النظم . قلت : من ذا وذا ، ولو تعلم أن « فيك من كل شيء » آية العقاد الكبرى لمـا قلت هذا . لقد نشرتها ارصن المجلات وأخطرها كما نشرت غيرها من آياته ، وكلها بعون الله من هذا الحوك . إن دواوين العقاد فوق الارض لا تحتها فاطلبها ان تشكّ بأمانتي .

وافترقنا على أن أنشر له في أول مقال نماذج من خير ما نظم العقاد. وعدت أقلب الدواوين الثلاثة ، فرأيتهـا كأبناء بنت الحوشب بالمقلوب . وبعد حيرة غير قصيرة خطرت ببالي العودة الى ما نشره مار توما العقاد — سيد قطب — دليلاً على شاعرية صاحبه وأسلوبه ليفقأ حصرماً في عيون « الرافعيين » . ووفاءً بوعدي لصاحبي ذاك انشر هنا شيئاً من ذلك الشعر وادع الحكم للقراء ، ولا حق للعقاد عليّ ، فشاهده من أهله .

ولا بد لي — قبل نشر نماذج سيد قطب من شعر العقاد الرفيـع — من أن أعود الى الوراء ، الى سنة ١٩٣٤ . فبين يديّ عدد من مجلة الاسبوع أهداه إليّ أحباب العقاد في ذلك الزمان . العدد رقم ٣٥ وتاريخه ٢٥ يوليو سنة ١٩٣٤ . وإليك ما كتبه سيد قطب تحت عنوان : معارك النقد في مصر .

« فأما هدية الكروان فقلت عنها انها منتهى النضوج الفني للعقـاد . انها سلمت من بعض أشياء كانت تغض من الجمـال الفني الكامل لبعض شعر العقاد ، وهي ما أسميته « قسوة القالب » ، وعنيت بـه ان يحتجب الشعور الطليق في ثوب أضيق وأقسى مما يلائم هذا الشعور الطليق.

« تلك كانت آرائي التي أبديتها بعد دراسة كاملة والتي لا زلت اعتقدها، رغم ما دار من الأحاديث بشأنها . ولكن فليسمع الناس ما أعقب هذا النقد من أحاديث ومن غضب ومن عتاب . فأما العقاد فهو ساخط حانق ... ساخط لأنني جمعت بينه وبين أبي شادي في مقـال ، وحانق لأنني أقول شيئاً عن قسوة القالب في بعض شعر العقاد . وأقابله فيعلن هذا السخط ، وهذا التبرم ، ويذكر انه لا يفهم معنى للجمع بينه وبين أبي شادي في مقال ... وهو كذلك لا يسلّم بقسوة القالب في بعض شعره ولا يبيح لي ان أوجه هذا النقد لأن منشأه هو قصوري عن فهم شعره . وان على الناقد أن يرتفع لمستوى الشاعر ، وليس على الشاعر ان يهبط لمستواه .

« وكان العقاد مهتاجاً ولكنني كنت هادىء الأعصاب ، فشرحت النقطة الأولى بما اعتقد . وأما النقطة الثانية – قسوة القالب – فكنت فيها عند موقفي الأول كذلك . وذكرت أن الناقد الذي يكتب محاضرته عن ديوان وحي الاربعين للعقاد فيفهم دقائقه فهماً يرضى عنه العقاد لا يقصر عن هدية الكروان ، وهي اسهل من وحي الأربعين . (... كذا) وافترقنا وفي نفس العقاد شيء أحسه ، ولكنني آسف له وإن كنت لا أنوي التأثر به » (الاسبوع عدد ٣٥) .

وتمرّ الأيام فيكتب سيد قطب ، بعد أربع سنوات وثلاثة اشهر وستة ايام بالضبط (الرسالة ٣١ اكتوبر ١٩٣٨) مدافعاً عن أسلوب عقاده فيقول :

« بل انني لأريـــد أن أفهم كيف يكون الاسلوب العربي الرصين المشرق ، إذا لم يكن كالقطعة الأولى من الديوان الأول بعنوان « فرصة البحر » حين يقول :

قطبَ السفينِ وقبلةَ الربانِ	يا ليتَ نورَك نافعٌ وجداني
يُرجى منارُك بالضياء كأنه	أرقٌ يقلّبُ مقلتَيّ ولهان
وعلى الخضمّ مطارحٌ من ومضه	تسري مدلّهةً بغير عنان
تخفى وتظهرُ وهي في ظلمائها	بابُ النجاةِ وموئلُ الحيوان

« بل كيف يكون الأسلوب العربي المشرق اذا لم يكن مثل قصيدة « عزاء » حين يقول :

يا شاكياً وصباً أحاطَ بنفسه	اربعْ عليك لكلّ يومٍ كوكبُ
حمّل فؤادَك ما يؤودك حمله	اني لأجلدُ للهموم وأصلب

« فأمـا حين يطلبون الرصانة وقوة الأسر وجزالة الأسلوب وفخامة التعبير فإن الجزء الأول من ديوان العقاد يجيبهم الى طلبتهم في عدة قصائد أذكر منها« وقفة الصحراء » وفيها يقول :

هضابك أم هذي أواذيّ عيلم ... وهل فيك من ود لغير التوهّم
تخايلت كالدنيا وأقفرت مثلها ... فلا تخدعيني انني لست بالظمي
أيا ربّة الآل الخلوب وإنما ... الى الآل ركب الناس جمعاء فاعلمي

« وأما حين يطلبون السلاسة والعذوبة ، فما اكثر ما يجيب ديوان العقاد الأول وحده الى ما يطلبون :

هنيك يا زهر اطيارٌ وأفنانُ ... الطير ينشد والأفنان عيدان
طوباك لستُ بانسانٍ فتشبهني ... اني ظمئت وأنت اليوم ريّان
هذا الربيع تجلّى في مواكبه ... وهكذا الدهر آنٌ بعده آن

ويعد سرد هذا الشعر الذي نقلت بعضه لك إثباتاً لأماني الفنية يقول: (الرسالة ص ١٧٨٠) .

« تلك نماذج مختلفة من أسلوب العقاد . فإذا استغنينا بالجزء الأول وحده ، فنحن واجدون للعقاد كثيراً من شعر الأساليب الفخمة الجزلة والأساليب الرصينة المتينة والأساليب العذبة السلسة وكل ما يعنيه الأسلوبيون ببدائع الأسلوب . ودع عنك ما وراء أسلوب العقاد من معان وفكر وأحاسيس وعوالم واسعة من الفن الفريد » .

هذا ما كتبه الاستاذ سيد قطب رداً على الرافعيين وقد زالت ، والحمد لله ، « قسوة القالب » العقّادي التي انتقدها ، وصار أسلوب العقاد عربياً ، رصيناً ، مشرقاً ، قويّ الاسر ، جزلاً ، فخم التعبير ، سلساً عذباً متيناً ، في لغة قطب ، وناعماً ليناً ، كفراء القطط والثعالب ، في لغتي .

قد يكون الشعر كالفحم يصبح الماساً اذا طمر زمناً طويلاً ، فليطمر العقاد دواوينه ولينتظر ...

أما صاحبي البيروتي فلينظر في هذا الشعر الذي سردناه له ، فهو خير ما في يدي من نظم العقاد . والعقاد – كما قلت – ممن يرفعهم الله الى أسفل ، في النظم .

عابر سبيل

نمط ٣٧

٣

عابر سبيل أحدث ما أخرجه معمل فورد الشعراء ، يتوخى فيه الاستاذ عباس كعادته مواضيع ينظمها كلاماً موزوناً مقفى لتكون أدباً مصرياً . ومثله كنا ، في أيام الولودية نخطط المدينـة ونبني الشوارع والبيوت . . . رأى العقاد كما قال في نقده أحمد شوقي : « وقد نظرت الى العصور الحديثة بعد الاسلام فلم أعثر على شاعر واحد أنبتته مصر يذكر بين أعاظم الشعراء وتسمع له رسالة من رسالات الحيـاة فكل شعرائها عرب أو مقلدون للعرب ، وكل هؤلاء وهؤلاء عالة على الأدب ونفاية ضئيلة أولى بهـا أن تنبذ وتهمل .

ونظرت الى العصور القريبة فأحصيت من نظم شعراً في مصر منذ خمسين سنة ، فإذا هم كلهم — إلا قليلا — يرجعون الى أنساب غير مصرية ، ويحسبون في المصريين وليسوا منهم في غير النشأة والإقامة . وأغرب من هذا انك لا تجد في هؤلاء واحداً يثابر على النظم بعد الثلاثين أو الأربعين، كأنما هي شاعرية الشباب التي تخفّ بهم الى النظم والغنـاء في إبانها ، وليست هي بشاعرية البيئة وسليقة القومية التي تفتأ فتية في الانسان طول الحياة » (ساعات بين الكتب ص ١٠٣) .

لعلك أدركت مثلي أن العقاد ينظم «عن سابق تصور وتصميم» كما يعبر المحامون، ويظل ينظم حتى يقتل الكثيرين من قرائه فتحل عليه عقوبة المتعمّد..

ليتني اترجم لك نقد جورج دبهامل لشعراء فرنسا الذين يفتشون عن مواضيعهم في قاموسهم لاروس، كما يفتش العقاد عنها في السكة. ارجع الى هذا الفصل الطريف في كتابه «الشعر والشعراء» (ص ٦٤) واذكرني بالخير. فالعقاد يلتقط مثل اولئك، مواضيع «عابر سبيل» ليؤدي رسالة مصر التي لم يؤدها شاعر مصري – فكل شعرائها عرب أو مقلدون للعرب– فهو إذن «عابر سبيل» حقاً في أزقة الأدب، يحوش كروم مصر بعدما نامت النواطير عن ثعالبها..

حاول تمثيل الكنانة المحروسة في مدينة الشعراء، فكان نموذجاً غير مرغوب فيه... وإلا فما هذه المواضيع العجيبة الغريبة التي يعجز عنها الفحول، فكيف بالثنيان ؟.

قال النابغة الذبياني :

واستعجمت دار نعم ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار

هكذا يكتفي الشاعر العربي بإيقاظ شعورك ويتركك في شغل، فشعارهم : خير الكلام ما قلّ ودل. أما العقاد فركب كتفي «البيت» كأنه غريمه، وأنطقه بالكلّي والجزئي حاسباً أنه يخلق أدباً مصرياً، كأنما ليس في بيروت وحيفا ودمشق وبغداد وجدّة، بيوت تؤجر، وفنادق فيها الناس من كل الاجناس، ودكان كوّاء، وواجهات دكاكين، كما سترى إذ نعرض عليك حوائج «عابر سبيل».

أنطق العقاد البيوت بكل رخيص مبتذل كما فعل في قصيدته «فيك من كل شيء» التي أزعم انه استوحاها من زميله شكسبير في قصائده الغزلية Sonnets رقم ٥٣ و ٩١، كما استوحى «ربة شعره» من رقم ٣٠٩،

و « طلع الصبح كئيباً عاطلا » من رقم ٩٧ و « الظن بالأهل والحرم » من رقم ٩٣ . راجع أناشيد شكسبير هذه لتعلم كيف يجني الشاعر العظيم أضاميم الزهر ، وكيف يحشّ من يجمع العلف ؟

خبرنا النابغة ان الدار عندها أخبار كثيرة وما سألها شيئاً ، أما العقاد فكان مستنطقاً بليداً . افتتح « عابر سبيل » بقصيدة عنوانها « بيت يتكلم » فوصف السكان الذين تعاقبوا عليه وأبقوا فيه مخازيهم كالذي ردّ مدح ابن الرومي . وكان العالم أحد المستأجرين فقال فيه العقاد :

حشا بالورق اليابس   والأخضر حيشاني

أظن « حيشاني » خطـأ صوابه حيطاني ، إلا إذا كانت من غريب العقاد ... أو لوناً من ألوان الأدب المصري الذي يخربشه ...

أما نظرية النشوء والارتقاء التي أقام نفسه وصيّاً عليها – بعد الزهاوي – فتجدها في « أمام قفص الجيبون » . قدم لها بصفحتين إلا ربعاً من النثر كانتا أشعر من قصيدته . فتعلّم الجلد مني واقرأهـا . ثم يعطف على الجيبون بقصيدة أخرى لأنه لم يصدق قوله فيه حين زاره أحد أصحاب العقاد فكانت هذه كالخيار عند رخص السعر ينفخ البطن ولا يغذّي.

وينتقل الى «واجهات الدكاكين» و « أصداء الشارع » و « عصر السرعة » و « عسكري المرور » فيقول في هذه كلها شعراً يستحي الوليد ان ينسبه اليه. وشر من هذه كلها قوله في « طيف من حديد » أي السيارة ، فاسمع بعضه :

ذاك بعد وانسياب   وظـلام وانسجـام
أي شيء ثم يجري   هو طيف لا كلام
أي شيء ذاك إلا الـ   طيف يسري في منام
يطرق العـين وهاهـات   بالسمـع يرام

إن تعقد المعنى فاقرأ الشرح ، فنثر العقاد وشعره متكافلان متضامنان ...

أما هيهات فشرحها لنا : بعد جداً ، لئلا يفوتنا معناها . فكأنما زيادة الألف الهاوية احتملت زيادة جداً . لقد اضطرت عبقرية العقاد الى هذه اللغة في هايهات وإلا فكيف يرزأ الأدب المصري بهذا البيت الفريد ولا يغيض النيل ويزلزل الهرم كما قال بشارة الخوري ؟

وأحب لك أن تعلم ان الصغاني روى في هيهات ستاً وثلاثين لغة ، وصاحب القاموس أوصلها الى إحدى وخمسين ، فليت العقاد يستعملها كلها في نظمه العتيد فتكون أدباً عقادياً حقاً ! أليس من التجني ان تموت مثل هيهاه وأيهاه وهايهات؟

ويرى العقاد في مصر فنادق تتجمع فيها الناس من كل جنس فيقول :

ففيها يافث حيناً وشيت　　　　وفيها تارة حام وسام

هكذا يؤدي كبار الاساتيذ رسالة بلادهم ويخلدون أمتهم في كتاب...

أما قصيدة « بعد صلاة الجمعة » فلا بأس بها ، وهي خير ما عمل العقاد من شعر حتى الآن . فيها وصف جيد وتعبير مقبول ودرس وتحليل لأشكال المصلين ، وكلهم في نظره ذوو رياء :

لعلهم صلوا له ارتجالا　　　　فاختلفوا ما بينهم سؤالا
فلو أجاب السائلين حالا　　　　صب على رؤوسهم وبالا
وألحق المخطىء بالمصيب

قوام الشعر شيئان : شخصية عامرة مسيطرة تسوقك بعصاها ولا تسأل الى أين ، وموسيقى وخيال فاتنان . وفي هذه القصيدة تسيطر شخصية العقاد فتحس أنك أمام مشهد حي .

ثم يصف « القطار » و« الحي » و « الدينار » فيرى المال يجر المال كما يقول العوام. ولا يحرم « كواّ الشباب ليلة الأحد » من قصيدة تضحك الجدلية تحت الصليب ، وسأحكك هذه المرة فاسمع بعضها وهو خيرها . بذمتي يا أخي :

لا تنم . لا تنم   انهم ساهرون
سهروا في الظلم   أو غفوا يحلمون
أنت فيهم حكم   وهم ينظرون
في غد يلبسون   في غد يرسمون

قلت : وفي غد يأكلون ويشربون ويتكلمون ويضحكون ويهضمون و . . . الى آخر كل ما انتهى بواو ونون . رحم الله تيوفيل غوته ونونيته الشهيرة .

وفي « بابل الساعة الثامنة » يصف صراخ الباعة ، وهي قصيدة تقرأ ايضاً ، اذا استعنت بالله . ويقبح في « وليمة المأتم » أشنع عاداتنا ، فيجيد إذ يقول :

ثقيل على الحزن أكل الطعا   م ومن يشتهي أكله أثقلُ
فيا أيها الناس لا تولموا   على ميّت واحزنوا واعقلوا
فليست مجاملة الراحلين   إذا انقطع الزاد أن تأكلوا

وينتقل الى « سلع الدكاكين في يوم البطالة » فيقول فيها هذا الشعر الذي أعجز عن نعته :

مقفرات مغلقات محكمات
كل أبواب الدكاكين على كل الجهات
تركوها ، أهملوها

يوم عيد عيدوه   ومضوا في الخلوات
« البدار »   « ما لنا اليوم قرار »
أي صوت ذاك يدعو النا   س من خلف الجدار
ادركوها   اطلقوها
ذاك صوت السلع المحبو   س في الظلمة ثار

ماذا تقول : أما في مصر عاقل ينصح هذا الرجل ؟ المروّة يا ناس ! انقذوا أخاكم وكفوا عنا شروركم !

راجع « عابر سبيل » فالقصيدة هناك بجلدها وعظمها . وفي مكنتك ان تضيف الى هذه أيضاً كل ما انتهى بألف وتاء مثل ثرثرات شعوذات و... فتصير شعراً عقادياً مثلها وتزيد في ثروة الأدب المصري .

ألهم الله اختنا القديمة أجمل الصبر على رسالة يؤديها باسمها هذا البافنوس الجديد ، وطواط أناتول فرانس .

تعذرني إن عدت بك الى الوراء لمحة لأنقل اليك أبيات « عصر السرعة » فهي مصرية عالمية .

قال لافضّ فوه ولا عاش من يشنوه ، وأولهم هذا المارون عبود الغاشم الجائر. اسمع :

طار في الذرى	هام في السهول
مسرع الخطى	حيـــثما يجول
مــــا له عدا	عدوة الوعول
ما لـــــه سطا	سطوة السيول
في صعـــوده	يشبه النزول
تلك سرعة الها	رب العجول
تلك سرعة الحا	نر المــــلول
تلك سرعة الآ	ثم الخجــول
أين سرعة الـ	ـسعي والوصول

وأين مار توما العقاد — سيد قطب — يشرح لنا هذه الدواهي ؟

فوالله ، وحق من نفسي بيده ، لو قدم لي أحد تلاميذي ورقة كتب عليها مثل هذا الحكي لصفعته بها وأعطيته صفراً ... وما أنا في ذا يا لهمدان ظالم . أمثل هذا يتهكم بشعراء العرب ويقول ما قال ؟..

ويصف « المنازل في الشتاء » و « الطريق في الصباح » و « معرض البيت » و « متسوّل » و « بعد الغروب » وكلها من البـــاج العقّادي الفريد ...

والغاية تأدية الرسالة العظمى ، رسالة الأدب القومي ، رسالة البيئة ، رسالة الفرعونية . فياخجلة الذي طغى من هذه المومياءات ...

أما « أناشيد وأغاني » ففيها رائحة الشعر . فالنشيد القومي والنشيد الآخر « على مقتضى الحال » والأناشيد التي نظمت للآنسة نادية تشبه الشعر لأنها تقليد للعرب . ولا غرو إن أجاد الاستاذ في « على مقتضى الحال » الذي طعن فيه على وزارة كانت مولعة « بمكايدته » كما قال ، فهو أبلغ ما يكون حين يكتب بالنبّوت فتغطي عاطفته عورة فنه .

وفي « عابر سبيل » قوميات أيضاً أحسنها « يوم الجهاد » . و « عيد بنك مصر » قصيدة حيّة فيها أبيات تجري مجرى الأمثال ! كقوله :

ومن قال يا أمتي وفـرّي   كمن قال يا أمتي جنـّدي

أما قصيدة « نقل سعد » والرائية التي أولها : أحسنتم الصبر ، فقد أشبعناهما درساً وتحليلا .

وينتقل الى باب « تأملات » فتعاوده النوبة . ثم تقرأ ست عشرة صفحة كل كمكها من المعجين العقـّادي ، فترثي لناظمها لأنـه قاسى أهوالاً في صبها بقوالب شعرية لا هندمة فيهـا ولا ذوق ، ولكنه إن لم يغنم بها إعجابنا ، فقد غنم ثناءها على ثباته في محنته تلك ، فالثبات فضيلة فعسى أن لا يكف عن قول الشعر فيكون شاعر البيئـة ، ويعرب عن سليقة القومية التي « تفتأ » فتية ، كما توهـّم فعبّر .

وفي « عابر سبيل » لون جديد عنوانه : « ربيعيات » فيه قصيدة على الحاء عنوانها « عوة الكروان » . لقد صدق القائل : « من صبر نال ومن لجّ كفر » ، ولولا وقار الأدب لزغردت كالنساء في جلوة العروس ...

قد بلغت قصيدة فيها شعر على غير عادة العقاد الرزين الرصين صاحب البرج الحصين ، كما سماه الدكتور اسمعيل أدهم المتمشرق التركي :

مرحباً أيها البشير ومرحى بعد طول السكوت ليلاً وصبحا
جاءنا رائد الكراوين في جنح من الغيب يفتح العام فتحا
فإذا الليل خافق وظلام الليل طلق وآيــة الليل فصحى

لا فضّ فوك ياسيدي الشاعر الكبير ،فآية الليل الفصحى تسوى ديواناً كاملاً :

فكان الربيـع معنى قديم في طويل الزمان يزداد شرحا

عشت ونعشت يا استاذ :

مرحبـاً بالذي قد ارتجل السا عة أوحى في الدهر ما ليس يوحى
المعيد الزمان جيلاً فجيلا وهي في ضحوة من العمر أضحى
ويرينـا الحيـاة وهلة حلم تنجلي عالمـاً وتعبر لمحـا
امة الطير لا عدمنـا نصيحاً منـكم يبهج الخواطر نصحا
كلّ من بشروا من الناس بالخير عيـال على العصافير طلحى

إن كلمة العصافير لا تملأ البيت الأخير ، فليت للعقـاد ديواناً صغيراً – حتة ديوان – من هذه البضاعة ، ففي قليلهـا غنى عن كل صرره وبقجه . وهنا أيضاً يدرك الاستاذ انه لا يقول شعراً إلا اذا كان عالة على العرب .

وليعذرني العقاد ان استرد ما وهبت، فبناء على دستوره للشعر والشعراء - راجع مقالنـا الأول – لا نستطيع بقصيدة أن نسميه شاعراً كبيراً . ولهذا نستعيد لقب الشاعر الكبير الذي خلعناه عليه ، فقانونه حرمه هذا الميراث الأدبي . وقديماً قالوا : « على نفسها جنت براقش » .

والعقاد نظّام متفائل يرى العيش جميلاً ، وهذه طبيعة مصرية ، فيناديك:

قل ولا تحفل بشيء انمـا العيش جميـل

ويجد متاعه الجديد في الشتاء والخريف :

من جديد المتـاع يوم خريف تحت وهج السماء عاد ربيعا
ومحيـا في الأربعين وديـع تحت بث الغرام شب سريعا

ولكنه وحي من يحبو الى الخمسين ، وهـذا أيضاً خلق مصري يرضى بما قسمه الله له ويضرب الدنيا « صرمه » . أما في باب « رثاء » و « متفرقات » فيعود الى نهج الحلي وغيره من شعراء عصر الانحطـاط فيقول للذي اسمه « موفق » :

عش يا موفق دائم التو فيق مقروناً بسعد

ثم يجانس ويوري في « تحية موسيقية » الى ملك العراق أرسلها ليكون له « شراع وراء دجلة يجري » كشوقي فقال : « غازي قلوب الشعب ... غازي العدى . كعهد أخيـك مأمون . في موطن يهداك مأمون » . وهذا ، كما تراه ، علك صدىء .

ويقول في رثاء صديقه غانم محمد :

اغانم اني في مصابك ذاهـل قليل التعزي سافر الحزن مضمر
عرفت أبا فتح تولاه رمسه أخا في وغى الأيام لا يتقهقر

لقد انقضى زمن البهلوان ، أما أراحتك منه مطالعة نيتشه يا استاذ ؟ مضت أيام كان الشاعر من يقول :

عباس عباس اذا اقتحم الوغى والفضل فضل والربيع ربيع

ويختم العقـاد ديوانه بفكرة دلـّت على عقله الراجح ، وعلى طبيعته المصرية التي سماها الدكتور أدهم فرعونية ، فهو ليس كبعض أدبائنا الذين لا يريدون أن يموتوا . هو عقـاد واحد لا غير ، إذا راح راح ، بعكس صديقنا الاستاذ نعيمه الذي هو في الوجود كالوكيل الدوري : كلما عزلته فهو وكيل . وهبنا الله قدر حبة خردل من هذا الايمان الذي يقول للجبل انتقل فينتقل .

اسمع كلمة العقاد المنطيقي في « على أطلال الدنيا » وبرهانه ذا الحدّين قال: « اذا انطوت الدنيا ولم يبق من أبنائها أحد فليس هناك خسارة

وليس هناك من يشعر بالخسارة » . الى أن قال : « وإذا حسبنا ما للدنيا وما عليها فالنتيجة صفر ، لأن النتيجة هي العدم » . وإليك هذه الفذلكة وهي خاتمة الكتاب :

اليك ومنك من وجدوك حيناً ومن فقدوك بعد ضياع عمر
حسبنا جانبيك على استواء فيا لك خيبة ختمت بصفر

انتهى الديوان .

ليست حسبتنا تختم بصفر ، بل أرى العقاد يستحق ثلاثة من عشرين – المعدل المدرسي اللاتيني – أو ١٥ من مائة في المعدل الانكلوسكسوني . وما أخاله إلا راسباً في امتحان القريض ولو عمّر كلبيد ...

* * *

لقد عدّت مجلة الهلال الغراء في تقويمها سنة ١٩٣٨ ديوان « عابر سبيل » حدثاً أدبياً جديداً ، فهل دفعها الى ذلك بعض مواضيعه مثـل : « كوّا الثياب وواجبات الدكاكين » وغيرهـا ؟

أراد العقاد أن يؤدي رسالة مصر شعراً ، فهل أدّى شيئاً ؟ وهل تكون الرسالة في هذه المواضيع ؟ وهل يكون التجديد بالتعبير عن الأهرام : بالآطام المخلدة ؟

يرى العقاد التعبير لا شيء ويحاول خلقه فلا يقدر . فهل نفعه بنافعة هذا الشعر ، بل هذه المواضيع التي يلمّها ويضعها في كشكوله ؟

يقوم الشعر على الحق والجمال – كما قال شلي – وصاحبنا إن عرف الحق ، فشعره بريء من الجمال كنـوان تغلب في عين جرير . وشلي يقول ايضاً : « للغـة الشعراء لون خاص وصدى موسيقي يوافق الصوت وبدونه لا

يكون الشعر » فهل للعقاد شيء من هذا ؟ فليفحص شعره في غرفته كما فعل الخليل يوم وضع علم العروض .

يعلم العقاد ان المفاجآت من عناصر الشعر الجوهرية ، فيحاول خلقها ، فتأتي صوره رخوة متأثرة بحرارة الاقليم . فليس لخواتيمه زخم المضخّات ، وهو يبقّها بقاً فعل الأطفال حين يتراشقون بالماء ... أما الموسيقى التي يقلد بها الشاعر أصوات الطبيعة وحركاتها كما فعل المتنبي ، والتي يعبّر بها المعنّى عن عاطفته فلا يعني العقاد منها شيء . كل ألفاظه وضيعة حقيقية لا تتسع لأخيلة الشعراء . فالشعر عنده انطباق أضلاع وزوايا ...

قال بول كلودل : « لا يعرف الانسان الطبيعة حين يمتزج بهـا ، بل حين يضيف ذاته إليها » . والعقاد يعرف الدنيا ويريد أن يضيف ذاته إليها ، ولكنهما يظلان كالماء والزيت .

يقول هازلت : « الشعر لغة الخيال والعواطف ، وهو اللغــة العالمية التي تصل القلب بالطبيعة . ليس الشعر فرعاً من فروع التأليف ، وكلّ شيء يسمو في الحياة بمقدار ما فيه من شعر » . فهل في دواوين صاحبنا شيء من هذا؟

لا ، ان شعره حكي لا اكثر ولا أقــل . وأغراضه تخرج من شق قلمه هزيلة كالمسلول . يريد أن يخدع أبصارنا بعناوينه لتقوم الساعة ، بيد أن الساعة لا تقوم لأن العقاد لا يقول شيئاً . « فالوصف المجرد للأشياء الطبيعية ، والافصاح المحدود عن الشعور الطبيعي مهما كان قوياً فعالاً لا يستطيع أن يحدد الشعر وغرضه دون أن يسمو بالخيال » .

قال دبهامل أيضاً ، « غاية الشعر هي التعبير عما هو خالد ، وليس كل من حمل قلماً خليقاً أن يخلد أية مادة كانت . هؤلاء نادرون » .

أما العقاد فالشاعر في نظره مَن يعلن أنه يحب الحق والجمال ، وكفى . كأنما الشعر هو فعل الإيمان — نؤمن — في المسيحية ، أو كلمة الشهادتين في

الاسلام . فمثل ابن عمنـــا العقاد يقوم ألف شاعر في كل دهر ، ولكن العشب ييبس ولا يثبت للقيظ إلا القمح .

لقد اكثرت من كلام هازلت وغيره لأن الاستاذ يؤثر البرد على الحر ، ويرى الشعر الفرنسي جعجعة وجلجلة . فليسمع ايضاً ما يقول هازلت : « وخشونة النثر وهلهلته وركاكته قاضية على فيض الخيـــال الشعري . ولكن الشعر يقضي على هذا ، فهو موسيقى اللغة مجيبة لموسيقى العقل ».

فليت العقاد يأخذ من نفسه ساعة نشاطها ولا يبلّ يده بكل موضوع .

على كل من يؤدي رسالة ، كما يتمنى العقاد ، أن ينتظر الوحي . فهذا الشعر العقادي الذي هو كنضو الطغرائي لا يؤمّر أحداً ، ولا يجعل الشاعر قومياً . والحمد لله أن بشارة وعديله العقاد المتزاحمين على الإمـــارة ، قد انقضى حلمها الذهبي وانقلبا على الجانب الوحشي ...

ان طابع العقـاد منطقي وجدلي لا يعرف الألوان والظلال ، يحب النور والضياء ، ولعل هناك سبباً أجهله أنا . قـد يكون المزاج الفرعوني الذي دلني عليه الدكتور أدهم ، فالجماعة عبدوا الشمس ..

والعقاد يؤمن بالمران ، فليتمرّن لعله يفلح ، ولكن أيهـــان – لغة في هايهات العقاد – أن يخلق التمرين جبـاراً . والغريب أن يحلم واحد كهذا بشاعرية عالمية . فقد قرأت في مجلة الأمام – التي تكرّم بها عليّ محبّوه – انهم ترجموا له قصائد الى اليونانيـة لتقابل بشعر زميله هوميروس . . . (الامام ، أول ديسمبر ١٩٣٤) .

وعلى هذا القحط والمحـــل والقحل يعده سيد قطب ، ولا يستحي ، فوق عشرة من شعراء العربيـة مجتمعين ، وفوق هيغو وموسيه وبيرون وشلي (الرسالة عدد ٢٢٨) . ويرى ايضاً في مكان آخر أن الشعر العربي في كل أطواره ليس فيه ما عند العقاد . وإليك نموذجاً ممـا علقه هذا القطب على إحدى آيات عقاده التي سماها « يوم الظنون » :

« يا للهول ، لكلما قرأت هذه القطعة سرت رعدة في مفاصلي وقشعريرة في كياني ، وأحسست أمامي بانسان يعتصر نفسه قطرة قطرة في ألم مبرح عظيم ».

ولكن أيقول لي قطب ماذا خلف الجبل بعد هذا المخاض ؟

كأن سيد قطب خال نفسه أمام ذنب ألفرد دافيني... فهنيئاً لمن له في الدنيا سيد قطب، وإن كان هذا لا يجدي فهو يسلي ويضحك ، رحم الله المتنبي ...

ماذا يجدي تعدد الأحباب وتلبد الافكار كخضرة الدمن والشعر نظم تذهب بنضرته لفحة حر ؟ وهل يمتاز الأدباء إلا بالأسلوب ؟

ان العقاد ينظم بعقله ، والعقل لا يعمل الشعر الخالد... وعنايته بالوحدة التي اكتشفوها عند صاحبهم جورجيس – ابن الرومي – لا تعمل الفن. فالشاعر الملهم يخلق الوحدة دون أن يفكر بها . العقاد طفل يلعب بالفراشة ويتصيدها كأصحاب المجموعات ليحللها علمياً بينما الشاعر يتأملها ويصفها ويعجب بها.

« العالم – الكلام لمازلت – يحمل الحباحب الى بيته ليراها على ضوء العلم فلا يرى في الغد إلا حشرة رمادية اللون . أمـــا الشاعر فيزورها مساء عندما تشيد لنفسها قصراً من النور الزمردي تحت فروع السوسن العطرة وأشعة الهلال الباردة » .

أما العقاد السياسي الجريء فأثره ضئيل في دواوينه الثلاثة . انها تصور العقاد المحب القاعد الذي يأتيه رزقــه رغداً ولا يخرج من البيت . وقد خفت أشواقه وبردت همته القعساء في « عابر سبيل » . والعاهة الكبرى في هذا الكلام الذي يسميه العقاد شعراً انه كله من طراز واحد ، ولو كانت وجوه الناس هكذا لاشمأز الناس من رؤية الناس . وبالاختصار ان العقاد الفنـــان نائم منذ ثلاثين سنة حول البركة – بركة حسدا – ينتظر الساعة التي يحركها بها الملاك ليلقي بنفسه فيها . فيـا ليتني مسيحٌ لأقول لهذا المقعد المسكين : احمل سريرك وامش .

وإذا صحّ تشبيه شيء بصبيرة طمسون فذاك شعر العقاد . لا أقابله بناجي وأبي شادي وطه والصيرفي والخفيف وبشر فارس وصالح جودت ومبارك وكل من يقول شعراً بمصر . فكل هؤلاء حتى زكي مبارك خير منه – في الشعر – وان عدلت شعراء هذا العصر فهو سكيت الحلبة . ودواوينه كأنابيب اللقاح تصلح لوقت محدد ...

ما لي أقول هذا ؟ فمن يدريني ان العقــاد لم يرشح نفسه لجائزة نوبل الأدبية كما تقدم طنطاوي جوهري لجائزة السلام !!

فالبدار البدار قبل انصرام شباط اللباط ...

٢ – ١٩٣٩

القسم الثاني

مُجَدِّدُونَ وَمُجتَرُّونَ

مقدمة

القديم والجديد نضال الأبد ، بل صراع الحياة . في عشّ العصفور الدوري كما في عرين الأسد ، بين الآباء والأبناء ، والأخوة والأخوات والكنّة وحماتها ، وهنا التنّور المسجور والفرن الحامي ...

تكون الحماة أرجح عقلاً وأوفر علماً وتراها الكنّة اختاً للغوريلا وأنثى الكهوف . أمّا الحماة فتقف بالمرصاد كمدّاد التكسي ... إن مشت الكنّة رأت خطواتها أوسع من المعتاد ، وأشارت بتعديلها لتكون على التمام ، كما رسمها السلف الصالح ... وإذا تبسّمت صفّقت على فخذيها وصاحت بابنها : قُلْ لبنت عمّك لا تفتح بوزها على مصراعيه ثاني مرة ، هـذا عيب ! وإذا حكت فهي ثرثارة ، لسانها أطول من اذنيها ،وإن سكتت فالمسكينة حمارة ، الدجاجة تأكل عشاءها ، وإن رفعت صوتها كانت وحشة مقطوعة من الحرج ، وإن خفَتَ صوتها فهي حيّة رقطاء تحكي في عبّها ، وإن قصّرت ثوبها فهي من سلالة حاتم في الفتنة والاغراء ، وما هكذا تعمل بنت الأوادم . وإن عملت بوصايا الله والكنيسة فكل قماش بيروت لا يكفينا ، والله يساعدك يا ابني ! وإن كبّرت لقمتها فهي غولة ، لعنة الله على من ربّوها ، وان بيّنت سنّها ، فالبنت عينها شاردة ...

وتروز الكنّة حماتها فتراها أقل من خرقة بالية ، أولى لها ان تلقى في المطبخ ، لا ان تتقدّم عليها في المحضر ، وتسوّد وجه البيت . فلتنقبر !

ابن عزرائيل كنّاس البيوت ؟ ألا يرى هذا الوجه المتكرّش كأنه آخر البندورة ؟ ...

والحماة تخاف على ولدها من هذا الطاعون . البيت يخرب إذا تخلّت هي عنه لهذه البنت الطائشة ، وإذا زارتها جارتها تسر النجوى قائلة : غضب من ربّنا ، يا جارة ، حـل علينا . يا قلة الحظّ ! ثم تقرصها في جنبها قرصات لاذعة لها الف معنى ومعنى ، بينا الكنة المسكينة تقرأ أو تطرّز ، او تترنّم كذباب عنترة ... وتختم الحماة رسالتها هذه بصريف الاسنان مقروناً بأحرّ العواطف : يخرب بيتها ، لا يهمّها شيء ، سواء عندها خرب البيت أم عمر ، فتجيب الجارة الحكيمة : السكوت أحسن يا جارة ، ما في اليد حيلة !

أجل ما في اليد حيلة ، وهذه مصيبتنا بعينها في الأدب . الأدب يريد أن يمشي ، والحماة قرم عنيد واقف بالدرب ، لا تفتح الطريق إلا إذا مشينا على جثتها . فلنمش !

كان من الازياء الأدبية ، منذ نصف قرن خلا ، أن يقدّم الكاتب لإسمه بسجعة فيقول : ألّفه الفقير الى عفو ربه الرزّاق فارس بن يوسف الشدياق ، أو صنّفه العبد الفقير الجاني ، سعيد الخوري الشرتوني اللبناني . وقـد ادركتُ ، تلميذاً ، آخر هذه السوق ، فكتبت على دفتر لي مدرسي سيبقى بعدي وقف ذريّة : المحتاج إلى عفو ربه المعبود ، مارون حنا الخوري عبود . وكان هنالك زي آخر اعظم خطراً وهو أن يصدّر المؤلف كتابه ببيتين من الشعر ، كما فعل المعلم بطرس البستاني ، فكتب على قاموسه الشهير :

قل لمن لا يرى الأواخر شيئاً ويرى للاوائـل التقديمـا
ان ذاك القديم كان حديثاً وسيمسي هـذا الحديث قديما

فتعظيم القديم من طبيعة الناس ، ولذلك عبدوا جدودهم ... فكل رجل ،

ولو خاملا ، يستحيل يوم يموت شيئاً عظيماً ، تنهال عليه الرحمات ، ويرون انه كان من المفارد ، لا تعصى عليه مشكلة ، مع ان المرحوم كان لا يهشّ ولا ينشّ ، ولكنه دخل الأبواب الدهرية فصار ملك المجد ...

وقبالة جيل القديم يرتفع توأم آخر يساميه ويطاوله ، هو جيل الجديد ، والتوأمان لا يلتقيان . فزعيم الشعر العربي واحـــد لا غير ، هو الذي ضيّع ملك أبيه ، ولكن عرش ذلك الوالد المحترم لا يساوي بيتـاً من قصائد ابنه . طاح تاج ابن حجر فداء رأس دارة جلجل . ونودي بامرىء القيس ملكاً على الادب العربي ، وثبت عرشه مــدة ستة عشر قرناً ، لا يثور عليه إلا عصابات تذوب جهودها في الخنادق التي تحيط بالقديم .

وقرأ شبابنا آداب الأمم فأغرتهم بالخلق ، فتجهّم لهم المحاربون القـدماء . يريدون أن تظل الجبهة في البيداء فقالوا : ليس هذا من كلام العرب .

إن الشعر معمل تصنع فيه التعابير ، ولهذا يحق لنا أن نقول للشاعر : كن كيف شئت ، إلا اثنتين فلا تقربهما أبداً : النحو واللغة .

فتنت العرب التعابير الراقصة فصرخوا بصاحبها : أنت أشعر العرب . وأدركوا ان الشعر موسيقى أولاً فقدّموا البحتري وأخّروا ابن الرومي . واهتزّ ابن الأثير « لوطن النهى » في شعر أبي تمام ، وأعجب « بقلب يطل على افكاره » عند أبي عبادة ، كما نعجب نحن « بضيوف الله » عند شوقي ، لا بقريع الشهباء وكبش النطاح ...

يصلّح الشباب أوتارهم فنشوّشها لهم ، وبدلاً من أن ننثر الزهر على الموكب العابر نرجمه بالحجارة . ما قتل الادب العربي الا توسّله الى الفن بلغة « رسميّة » لا يحيد عنها . ولو كان في ذلك الاسلوب « الرسمي » خيرٌ ، ما نزل القرآن الكريم بلغة الناس الفاتنة ، الطرية ، الناعمة ، المصقولة .

يحاول الشباب خلق الشعر المصفّى ، فنغضب تلك الغضبة المضريّة ليظل

أكثر شعرنا نثراً . وكما كانوا يحتكون في البصرة والكوفة الى وافد من البادية ، نحتكم نحن اليوم الى الكتب القديمة ، حتى في الفن ... إن باب القياس أوسع من الهاوية ، فدعوا السماع ، واضربوا في مناكب الارض ، ولا تكونوا من ذوات المعدتين .

فلندع المجترّين يتبلغون بما في بطونهم ، ولنخلق طعاماً جديداً . إن في الأدب أزياء تتجدّد . إن البساتين تحتاج ، دائماً ، الى التطعيم ، والآداب بساتين الشعوب ، فلنطعّم أدبنا فقد أصبح برّيّاً . قد حان لهذه الوثنية الأدبية ان تتوارى ، فالفن لا يعرف الا إلهاً واحداً هو الجمال . ان افلح الشباب ففلاحهم مجد لنا ولهم ، وان اخفقوا فالتبعة عليهم . ان اللواء معقود لهم ، وسيظل في يدهم حتى تعقده العبقرية لجيل آخر . ان الذرّية محبوبة إلاّ في الأدب ، ففلان وفلان وغيرهما لا يريدون ان يتواروا . إن الحماة لا تدع ثرثرتها حتى يغلق عزرائيل ذلك الفم الذهبي ...

ملّ العرب القديم في كل عصر ففضّل الاصمعي ابن بُرد على مروان ابن ابي حفصة ، وابن الأثير نادى : إن باب الجديد مفتوح حتى يوم القيامة .

منذ دهور وأعيننا في ظهورنا ، وأكثرنا يعارض الذي عيناه في وجهه . فهذا الشعر الذي يقوله شعراء اليوم هو الشعر حقاً ، ولكنه في حاجة الى خلق مستمر ، فقد كاد ان يصير ادب عصائب طير تهتدي بعصائب .

كان الاعرابي يؤثر – كالأب بريمون اليوم – شعراً موسيقياً خفّ معناه ، على شعر بلا موسيقى ، وان رجحت كفّة معانيه . فلنسر على هذه الطريق نُفلحْ . اما المتوغـّلون في الوثنية الادبية فلهم اقول : اذا كان يستطاع تبديل حياة النبات بتبديل الضوء ، أفلا يستطاع الشعر على ضوء مصباح اديسون بدلاً من ذبال امرىء القيس المفتّل ؟!

نيسان ١٩٤٨

مارون عبود

المجترون

١

لمّا ظهر كتاب « الألفاظ الكتابيّة » لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني ، قال رجل لا أذكر اسمه ولا كلمته بعينها : لو غدا حكمه إليّ لقطعت يده .

يا ليته قطع تلك اليد ، وأحرق ذلك الكتاب ! فكتاب « الفاظ » عبد الرحمن و « صبح » القلقشندي ، و « نجـــدة » الشرتوني ، و « نجعـــة » اليازجي ، مراع لسوائم التقليد ، وزرائب لشويهات النقل ، ومستودعات لعاديات اللغة ، لا مثل لها الا تلك المخازن التي تكترى منها الثياب للسهرات والطقوس المحدّد لها طراز خاص من أزياء تواضع عليها الناس . فما قتل أدبنا وأفقده الحس والشعور غير هذه الرواسم « الكليشيهات » التي نجترّها ونحشرها بين كلمات مرصوفة ونشكّها شكّ الخرز في فساطين التوريات ، ثم نتباهى بها كالقرعاء ...

الادب ، كغيره من الفنون الرفيعة ، صورة من صور مشاهد الحياة التقطتها العين ، ورسمها القلم على الورق صورة حيّة ، فلابست العقول ، ووعتها الآذان . كانت رائعة يوم ابتكرت ، فهي لم تنشأ ليلوكها ضيفن الادب ويتقيأها على القرطاس دهوراً وعصوراً ، ولا لتؤدى لها ضروب العبادة

والتقديس ، وتمسي ترجمان كل من حمل قلماً يستوحيها دون تفكير بما تحتها ، ولا نظر الى ما فوقها ، كأنها فرضت على الانشاء فرضاً ، فلا يجمل ان يتزيّا إلا بها ، ومن لم يحسن التأدية بها فذاك غير فصيح ، فهبَّ بعض المتشرقين يَصِمُون أدبنا بكثرة رواسمه ، ومستحاثاته ومومياءاته ...

إن هذه العناصر من التعبير تفسد البناية الشخصية الادبية . ونحن أفقر أهل الارض في أدبنا إلى كل ما هو شخصي . خــذ قطعة أو قصيدة ، وضعْ ديباجتها تحت المكبّرة ، كما يفعــل الحائكون ، فتبدو لك فيهـــا هذه التعابير كرقعة نابية لوناً وديباجة ، وهكذا يظهر منظومنا ومنثورنا كالمسرح المزيّن بما يدنيه من المكان المقصود ، وان شئت كلمة أوضح ، فقل أنهـــا كالقديد في مأدبة طعامها طازج .

لو رصدنا الكون لرأينا حركة راعبة تدهش المتأمل وقلنا مع القرآن الكريم « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب » . فلا جامد جمدة الموت الاّ عقول البشر ، فالذين يفكرون بعقولهم هم أنــدر من الراديوم . هنـــاك فئة قليلة جداً تفكر اتفاقاً ، والذين يفكرون بعقول جيرانهم لا تحصيهم الارقام ، أمّا أكثر الناس فلا يفكرون . عقول صغار في جثث ضخام . مثلما يأكلون ويشربون وينامون ، هكـذا يقرأون ويتكلمون ويكتبون . ومثلمـا يمشون ولا يعنون أين يضعون أقدامهم ، هكذا تقذف أفواههم تعابير رأوها نائمة في بطون الكتب فأيقظوهـا ليستخدموها في الافصاح عن خلجات نفوسهم وبدواتها ، والتنفيس عن عواطف مكبوتة ، كأنما التعبير علك يُمضغ .

مسكين الانسان ! مـا أشبهه بحصان العربة يتبع الطريق وسوط العرف ينهره ويلذع قفاه ، فلا يتعوّج ، ولا يتعرّج ، الا ليستريح ريثما يستأنف السير ... ما أكثر الذين يقومون بعملهم الانساني ولا يفكرون انهم ناس !.. وما

أبعدنا عن تمحيص ما نقرأ ، ومـــا نكتب ، وما نسمع ، وما نعتقد ، فكأننا أبواق تنفخ العادة فينا ما شاءت من اصوات قد تكون هي أنكر الاصوات لا غيرها ... فنضم ما ألفناه وتعوّدناه إلى مجموعـــة الميراث الاقدس . فكم من ألفاظ طنّانة ، وتعابير غامضة حائرة تطربنا ، ومـا ندري لـماذا ، وتهيمن وتسيطر علينا كأنها نواميس طبيعية لا بد من تفاعلها ، ثم لا نفكـّر لماذا .

قد يعتب عليك أحدهم إذا لم تقـــل : « ان شاء الله » كما فعـــل أبو نصر بالمتنبي ، ليلة غدوته في طلب منيته . وهذا اللائم يتلفظ بهـــا ولا يدري لماذا ، وقد يقولها ويجهل أنه قالها . ومثل هؤلاء إذا ناقشتهم أخفى الامور والقضايا عن الادراك ، وجدت عندهم لكلّ سؤال جواباً ممـا لقنوهم إياه ، وأملوه عليهم ، كأنما نفسيتهم أحد كتب الرسائل القديمة : المكتوب وجوابه قبالته ، او كالذي ألِفْناه في التخاطب فنقول : « مشتاقون » لمن نكره محضره ، و « داعٍ لك » لمن نتمنى قصف عمره ...

كم من كاتب يحدثك عن المـــلأ الاعلى ، وهو ينكت مزابل المادة كالشقبان في ليـــالي كانون المظلمة ، ليزدرد ديدانها ويلتهم حشراتها !

ان المفكرين الحقيقيين قليل في هذا الورى ، والمشككين الحقيقيين أقل منهم . أمـــا المطمئنون إلى كل شيء فملء الارض ، أكثر من الذباب والبرغش حول المستنقعات . وهـــل من مستنقعات أنتن من رواكد العقل البشري ؟ ما أشبه هؤلاء بصبيان يحسبون منتهى الدنيا وراء الجبل القاعدة في حضنه قريتهم ، وكم كانت دهشتنا عظيمة حين تسلـّقنا الجبل ورأينا وراءه أشياء أخرى ...

وأفتك أوبئة الانسانية ، ذلك الاطمئنان الداخلي ، مرض الدهماء الذين يعومون دائماً في زبد أنفسهم ، ولا يغوصون في لجتها ، تلهيهم ثرثرة الساقية عن صمت النهر الهادىء حيث الحيتان الضخمة التي تبتلـــع حوت يونان ...

إن هؤلاء يخافون المعرفة فيتجنّبونها ويؤثرون الجهل عليها ، وهذه الحياة المخدّرة ، التي يلذ بها كل رجل ، مشترك العقل ، تدفعهم إلى تقديس القديم ، فيرون في الثورة عليه خروجاً على المجتمع ، ومروقاً من عرفه وتقاليده ، فيسمّون فاعــله في الدين زنديقاً ، وفي الأدب شعوبياً ، وفي العادات والتقاليد معتوهاً أبــله .

وهذا الذي يسمّونه « الرأي العام » يحفظ لنا انماطاً من الحقائق المائتة ، كالسردين في علبه ، فنحترم ونقدّس كل ما تواطأ السلف على احترامه وتقديسه بلا نظر ولا تأمل ، ويتبع بعضنا بعضاً كقطيع غنم قائلين : قالوا ... فعلوا ... حكموا ... فلنحكم !

الرأي العام غوغاء يتراكضون خلف عدو أفلت منهم يستطيــع ان يحوّلهم معتوه واحد عن وجهتهم – وهم مئات – فيمضون حيث أشار ، ولا يسألون ولا يفكرون . والعرف الذي يقدسه النـــاس اشبه بالكظيمة « الترموس » التي تحفظ لي القهوة فاترة حتى الضحى ، أو كالخزانة المثلوجة تصون الطعام حيناً فلا يفسد ولا يعفّن ، فنأكله ولا نبالي بما بقي فيـــه من غذاء .

لقد عمّمنا ، فلنخصص . فأنا لا يعنيني الآن إلّا الادب ، ولكن ما الحيلة والأدب جذر كل عدد من مسألة الكون العظمى ، او كالمنارة التي يراهـــا المسافر في عرض البحر فيحلُّ على ضوئها شيئاً من لغز ظلمته ؟

التعبير جسد الفكرة ، وقليلاً ما يمثّل هذا الجسد الكلامي محاسن الروح كلها . واحياناً تكون تلـــك الروح – الفكرة – دميمة ، والالفاظ حسنة كبلهاء جميلة الوجه والجسد . تراها فترثي لجمال بـــلا عقل ، يعجبك ولا يستهويك . اما نحن فعرضنا الفكرة الجيدة ، او الصورة الرائعة التي لا يدل الكلام عليها الّا كما تدل الصيغ الرمزية على الاجسام الكيماوية . فهـــذه لا

يفهمها الا من مارس الكيمياء وعرف مصطلحاتها . وتلك لا يدركها إلّا من فهم نفس قائلها ، وأحيا الزمان الذي قيلت فيه ، وأعدّ لها المكان كما يهيّىء المخرج الحاذق ما يقتضي مسرحه من آلة .

أمّا التعابير التي تستعمل بلا كيل ولا ميزان ، ولا تشكيل ولا تغيير ، فما هي الاّ مقاييس تخمينية لافكارنا لا تقوّمها تماماً . انها كتلك القوارير الجاهزة تعالج بها كل الادواء ، ولا تشفي من داء . فهيهات أن تؤدي الجمل كل ما يحسّه الشاعر — لا نعني الوزّانين — وهذا سبب الغموض في بيان عباقرة الشعراء ، عرباً وعجماً ، حتى عدُّوا اللغات عاجزة لأنها لم تلن لأغراضهم . ولولا هذا الضيق لم يكن التشبيه والاستعارة والكناية .

وكثيراً ما يتعدّى كلامنا الطفاف فنقول عن شيء : تافه . غريب . مدهش ! ولو فكرنا لرأينا اننا اكرم من روكفلر حين يهتز للإحسان فيَهِب الملايين . وهذا الاسراف والتبذير في التعابير والالفاظ برهان على اننا نفكر بعقول جيراننا ، ولا نعتقد ما نقول . فكم من مرة نكرر صلاة تعلمناها ، وفكرنا هائم ، فتموج الالفاظ على شفاهنا ولا تلج قرارة انفسنا . فاذا شئنا خلق ادب جديد ، فلنخلعن أنفسنا التي البستنا اياها الاجيال ، ونفكر بعقل جديد وتعبير حديث .

ان في ذاتنا حقائق مخفيّة عنا ولا نحاول كشف غطائها ، ولو فعلنا لكانت هي وحدها الادب المنشود . فمعظم تقاوينا ومقاييسنا الحاضرة ستنزل عن منصبها وتبدو لنا انها من خداع النظر . ولا خوف على الامم من الذين يفكرون تفكيراً شخصياً ، بل الخوف كله من الذين بهم صمم المتعصبين لكل قديم ، يتبعهم جمهور من العميان المجاذيب ، ولا يقولون ولا يفكرون الى اين ...

ان المتمسكين بالقديم على علاّته ، هم كأولئك الشيوخ الذين يتناسون عيوب زمانهم ورذائل جيلهم ، ويتأسفون على اخلاقه الفاضلة ذامين الزمن

الحاضر . ألم تتأملهم – تأمّلهم اذا شئت – كيف ينقرون الارض بعصيّهم متأوهين قائلين : دنيا زائلة ؟..

رويداً رويداً يا عم ، انت الزائل وحدك . لماذا لم تقرر هذا قبلما ابتليت بهذا الرعَشان ؟ !

ان الجحود ، والايمان ، والتمرد على القديم النخر ، من خواص القلب المخلص والروح النقية . والتجديد في كل شيء لا يرتجى الا من هذه الفئة النادرة . ولولا « المنفعة » التي تهاجم الفنون تحت راية الرأي العام لسار الادب وكل فن بخطى واسعـــة الى القمة ، ولكن حب الاشتهار بين « الجماهير » – شهرة تسبق صاحبها الى القبر – يحمل الكاتب ، والشاعر ، والمصوّر ، وكل فنّان على محاباة الناس والتملق لهم ... وهكذا يظل المجدّد مدثّراً بأكفان المتقدمين ، وان غسلها وكواها ليخفي مـــا علق بها من صديد .

الناس بلاء الناس ، يقـــلد بعضهم بعضاً كالقرود وتعجبهم حركاتهم « السعدانية » فـلا يملّون تكرارها . خذ الفكر العربي منذ ترعرع ونشأ حتى اليوم ، وأرني عناصر التجديد فيه ، ثم قل لي ماذا قال « العلماء » في كل جديد عند ظهوره ؟ ألم يسمّوا الشعراء العباسيين مولّدين ومحدّثين ، ولم يحتجوا بكلامهم ؟ وأخيراً أذكّرك بما فعله بشّار بابن عمه سيبويه ... وابن الرومي بالاخفش ...

يا حبّذا هؤلاء المولدون ، يا ليتهم نموا وكثروا وملأوا الارض ، كما قال رب التوراة لمخلوق اليوم السادس ... حقاً انهم مولدون غير مُعقّمين ، ولو فكر كل عربي بعدهم واعمل رأيه مثلهم لابتدع واستنبط تعابير ومعاني ، الا ان اكثرنا لا يعقلون . نرى وكأننا لا نرى ، يسيطر علينا عقلنـــا الباطن ثم لا نتذكر شيئاً لا من احلام اليقظة ولا من احلام الليل ،

فندوّنه للعالمين .

مـاذا يقول أدباؤنا في شعراء الاندلس ؟ ألا يرون فيهم شعراء طراز خاص ؟ بل ماذا يقولون في موشح لسان الدين بن الخطيب ؟ ألم يقيموه نموذجاً للشعر الاندلسي ؟ هلاّ تناقش ، على عجل ، مطلع هذا القصيد الرائع الذي يرويه كل من ألمّ ولو قليلاً بالادب العربي وشعره :

جادك الغيث اذا الغيث همى   يا زمان الوصل بالاندلس

ماذا ترى ؟ أفكـّر لسان الدين بعقل ومحيط اندلسيين ؟ لماذا يتمنى الغيث ؟ انه لو افتكر لم يقل هكذا ، لقد شغل عقله تصوّر شاعر الصحراء المتقدة احشاؤه ، فانساه تواليَ المطر وغزارته في الاندلس ، فنظم كأنه بيثرب او منى وقد التصق لسانه بحنكه ، ولا يقع على نقطة ماء يبل بها طرف لسانه .

اتبعني يا اخي ولا تقف ، فسأعرض عليك شريطاً ادبياً تراه كل يوم في سياحتك العقلية ، واعذرني ، اذا قلت لك ، انك قلما فكرت به تفكيراً عميقاً . انني ادعوك الى التفكير العميق ، فخفـّف سيرك . المفرق خطر ، خطر الموت !.

٢

وبعد فلا بدّ لهذا الانسان العاقل المجنون من أوهام يرتع بها . ان خلص من وهم تعلـّق بآخر ، كالحرباء في الشجرة الغضة الاشبة ، فالانسان يبني دائماً دنيا جديدة يعيش فيها ، وكلما ظن انه أفلت من وهم ارتمى في حضن آخر ، كمن يضل في مفازة يهماء تكذب فيها العين والاذن ،

فكيفما اتجه يستقبل افقاً جديداً ، مدّ العين والبصر .

خذ مثلاً من يسمّون انفسهم أحرار التفكير (Libres penseurs) . أحقاً ما يدّعون ؟ لا ، وحياتك يا اخي ، قد لا يفكرون مرة واحدة ، بحريّة مطلقة ، في حياتهم كلها . انهم يتابعون من استنبط هــذا الاسم بــلا تفكير . وكما في الدين كذلك في الادب ، فالذين يعدون أنفسهم مجددين يقلدون ولا يدرون . وتلك مصيبة ...

من يخلُ بنفسه ساعة ليناقش الادب العربي كيف صرف عشرة أجيال تدهشه دعوى شعرائنا الصارخــة وتبجحهم الأجش في كل حقبة حتى الساعة ، ويستفظع تحتّر العقول وجمودها كالجليد . اذا فتح أذنه جيــداً سمع قعقعة سلاسل التقليد التي يسحبها شعراؤنا وكتّابنا على بلاط الكهوف المظلمة كالحصان المقيّد ، ولا يستحي أن يقول : هل كان هؤلاء بلا عقول ، ما خلا نفراً منهم ؟ وهذا النفر ان حاول التجديد ساعة في شبابه وأبدع بعض صور وخواطر — لا اقول اوحتها اليه ربة الشعر ، فهذا تعبــير مضغه العالم عشرات الاجيال وقد حان أن يلفظه بعد يقظة وجدانه — عاد في شيخوخته الى صيرة المتقدّمين ، كأنما انحطاط قواه أعدّ لبذور التقليد تلك التربة الفاترة فطرّت والتفتّت ، وأخذت الوراثة تعمل عملها .

فالتقليد ، داء أدبنا الوبيل ، هو تصلّب شرايين قلب الادب العربي . والعتيق هيهات أن يلين بعدما يبس . فلنفتّش اذن عن القلوب الفتية . اننا لهؤلاء نكتب هذه الحمية ، نكتبها للشباب قبل ان تدركهم السن ، فالحمية رأس كل دواء .

ألا ترى كيف نُدعى الى حفلات الرثاء فنبكي على الموتى بعد الف عام ؟ ما أرق قلوبنا وأسخى عيوننا ! لقد صار الشعراء في هذه الايام كالنادبين والنادبات ، وكثيراً ما يزجونهم في مأتم واحــد . والغريب

العجيب أن تسمع هؤلاء الشعراء يسألون الشمس الّا تطلع حزناً على الفقيد الغالي ...

اتفق أن كسفت الشمس يوم موت ابن محمد الرسول العظيم ، فأراد أحدهم ان يعدّها اعجوبة ، فقال النبي الكريم : ما كان للشمس ان تنكسف لموت احد !

فهلّا قرأ هذا شعراؤنا وكفّوا عن تشييع الشمس وتكفينها وتحنيطها ... وهي الأم الحبيبة ، وهلا انثنوا عن تشبيه احبابهم بهـا ؟ فمن يستطيع أن ينظر الى محبوبة كالشمس او يقربها ؟ افلا يحتاج الى نظارتين سوداوين ؟ ثم من يحب وجهاً بضخامة القمر لا يضارعه الا وجه جدنا الفرزدق رحمه الله ؟ هذا تشبيه لذّ للناس طريئاً ، اما اليوم فصرنا نقرأه ولا نحس .

قلنا في ما سبق ان اكثر الناس يفكرون بعقول جيرانهم ، والآن نقرّر ان معظم شعراء العرب فكّروا بعقول نفر قليل ممن تقدموهم ، وبأذهان من قلدوهم من العرب والعجم . فمن لم يفكر بعقل عمر والمتنبي والبهاء ، فكّر بعقل موسه وبودلر ومالرمه وبيرون وغوته وغيرهم .

قال الشاعر العربي : وسقى ضريحك صيّبُ القطرِ .

والله ما ادري لماذا هذه السقيا ؟ أليفرخ وينبت ويصير دمنة ترعاها الابل والشاء ؟ ام لترتوي كبده الباردة ؟ امّا نحن فأعدنا كلامهم بـلا تفكير ، ورددنا ما قالوه اجيالاً ، ولم نتساءل لماذا .

وقال الناثر : سقى الله قبره ، وبرّد ضريحه ، وطيّب ثراه .

تلك صورة انتزعهـا الجاهلي من معتقده ومحيطه ، فهو وليد أرض ملتهبة وربيب خرافات ، فأشفق على من يهوى من الحر والعطش حتى قال طرفة ابن العبد :

فدعني اروّي هامتي قبل موتها ستعلم ان متنا غداً أيّنا الصدي

اما نحن فما يجعلنا نقول مثلهم ؟ أدينتنا ، وعندنا الجنة وفيها كل بكر نضير ؟ أيلادنا ، وهي غزيرة المياه لا يزورها الحر الا لماماً ، واذا مرت ريح الخمسين صرنا بحاجة الى الدفء .

ألسنا نقول هذا لأننا نفكر بعقول غيرنا ؟

وقف امرؤ القيس على الاطلال وبكى واستبكى ، فأعجب العرب بهذه الصورة الجديدة ، وفتنهم تعبيره الطريف « قيد الاوابد » ثم اخرج صوراً جديدة لم يسبق اليها ، فخلع عليه الادباء من ثنائهم حللاً ومطارف لم يلبس سليمان يوم عرسه اجمل منها ، فاقتفى اثره الشعراء ووقفوا جميعاً حيث وقف ، حتى أدرك المتنبي ذلك بعد أجيال فقال :

اذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً متيمُ ؟

اما الناس فلم يقفوا مطيهم على هؤلاء الواقفين على الطلول بعد امرىء القيس ، ولا جبروا خاطرهم بكلمة . بيد ان ذلك الازدراء لم يردعهم ، فظلوا يقفون ويبكون ويملأون الليالي نواحاً وعويلاً ، ولا يزالون يلوكون هذه التعابير ويمطّونها كما يفعل الصبي بعلكته .

فيا عجباً لمن يفكر بالوقوف على الطلول ، وعنده فنادق الاصطياف التي يجري فيها ما لم يحلم به امرؤ القيس وعمر ... فأين اصحابنا يقفون امامها ، وهي العامرة اليوم بحسن العرب والعجم ، والخالية بعد شهرين من ذلك الجمال الفاتن العابث بالاحلام التي تزن الجبال رزانة ...

وكان الاسلام ، فانفرد الاخطل بوصف الخمرة وفاق من تقدّموه وعاصروه ، ومدح الملوك مدحاً يهزّهم ، لأنه نجيّهم وجليسهم وحليفهم ، فما بالنا نسمع حتى اليوم من هم كيوحنا لا يشربون خمراً ولا مسكراً ، يحدثوننا بلسان الاخطل وأبي نواس وغيرهما ممن لم يصحوا ساعة في حياتهم حتى قالوا : وما العيش الا سكرة اثر سكرة ... ثم لا يخجلون

ان يمدحوا او يرثوا من لم يروا لهم صورة وجه ...

وفكر عمر بن ابي ربيعة بذاته فوصفها وصفاً واقعياً دقيقاً فأعجب الناس بقوله ، وشاقهم تعبيره : حيِّر الدمع ، وماء الشباب ، فقلّده من أتوا بعده ولا يزالون . ولو درى المقلِد انه دون المقلَّد مهما سما خياله ، واتسع فكره ، وطاوعه الكلام ، لعدل عن التقليد ، ولم يصبه ما اصاب بسمرك داهية الالمان بعد خطاب انكليزي القاه في لندن ، فاستحق ثناء مفكري الانكليز الا واحداً منهم ، فإنه هزّ يد المستشار قائــــلاً له : صُنع في جرمانيا . فعرق بسمرك وضحك السامعون متألمين .

واعجب العجب ان يقول شاعر قصيدة مطلعها : بانت سعاد ، فيلبس اشرف جبة ، ثم يأتي بعده زهاء مائة شاعر يقولون قصائد اولها « بانت سعاد » ولا يلبسون قميصاً مرقعاً ، حتى يقوم في آخر الزمان شاعر طريد — احمـد فارس الشدياق — ويقول قصيدة استهلها ببانت سعاد فيحمل على بارجة ويكرم ايما اكرام ، ولا ادري بل لا اضمن اننا انتهينا من بانت سعاد ...

قال امرؤ القيس : ألا ايها الليل الطويل الا انجـــل ، فرددوا قوله اجيالاً ، حتى ادرك ذلك بشار الاعمى فقال :

لم يطل ليلي ولكن لم انم   ونفى عنـّي الكرى طيف ألمّ

إن في هـــذا البيت حقيقة لا يعلمها إلا المغرمون ، فهم ، وحدهم ، يعرفون ماذا يفعل الطيف اذا طرق ، وعرض بين الاهداب والاحداق ... وكأن هذه الفكرة لم ترق لابن الفارض بعد أجيال ، فأخذ يتأوّه ويتململ على فراشه هاتفاً :

يا ليل مـــا لك أولٌ   يرجى ولا للشوق آخِرْ

وقال الأخطل : ما زال في ماردين الزيت يعتصر ، فتابعه الكتّاب

والشعراء وقالوا : ما غرّد القمريّ ، وما كرّ الجديدان ، وما اختلف الملوان ، وما ذر شارق ولاح بارق حتى وما بلّ بحر صوفة ... وهكذا دواليك ، وان طلبت التتمة وجدتها عند الهمذاني صاحب كتاب الالفاظ .

وانتشر القرصان في بحور الشعر ، وكثر صعاليك الادب كثرة راعبة ، فغزا المتأخرون المتقدمين حتى تناولوا الفكرة الواحدة وصبّوها بألف قالب وقالب ، كأن الغزو سنّة عربيّة لا محيد عنها حتى في الادب . وهذا دليل على ان الاحفـــاد لا يفكرون ، فقالوا الشعر في غرض واحد ، ولم يختلفوا في التعبير الا قليلاً . ان هذه القوالب لا تزال مصفوفة في دواوينهم كالتي يصنعها الفاخوري لجراره وأباريقه واكوازه وصحونه ، فإذا لم يقم من يحطّمها ويبتدع انماطاً جديدة تأخذها العين ، فالادب العربي لا يتجه اتجاهاً مستقيماً الى التجديد .

٣

وصم متمشرق العربَ بضؤولة خيالهم ، فنحا نحوه كل متمشرق ومستعرب ، ولم يفكروا ان العربي البدوي رحـــالة لا يقر له قرار ، فهو لا يثبت في مكان ليطيل التأمل ، أنعامُه سائرة وهو سائر وراءها ، لا يستسلم لعقـله الباطن لتتجلى له الرؤى ، فهو حسّي واقعي . واذا استمرأ المرعى واستقرّ بمكان الى حين ، فهو كأخيه الذئب ينام باحدى مقلتيه ويتقي بأخرى المنايا ...

ويعيبون عليـــه ضحل مباحثه كأنهم يجهلون ان الراعي لا يحلق الارض حلقاً ، ولا يقتلع الأنبتة من جذورها ، فشأن العربي في بيانـــه شأنه مع قطعانه ، وهو كالنحلة تلثم الزهرة ولا تعضها .

ذاك شأن القدماء ، اما الجدد فترسموا خطى الاولين قائلين : انـّا وجدنا

آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مقتدون . لم يخرجوا عن دائرة رسمها لهم الغابرون لاعتدادهم بأنفسهم وتقديسهم السلف . اراحهم الاسلام من تأليه اللات والعزّى ، ولم يرحهم من تقديس شعرائهم وتنزيههم حتى العصمة .

قال بول كلوديل في معرض كلامـــه عن هيغو : لا شيء يميت الامم كالاستنقاع في بؤرة التعفّن والفساد ، وكالاطمئنان الى الراحـــة والارتضاء بالدون ، وكترك الواجب والتردد في التضحية . وهذا مـــا اصاب العرب في الادب فقصروا في مضاميره .

اما هؤلاء المتمشرقون ، فـــلا أراهم يفهمون لباب الأدب العربي فهماً صحيحاً ، بل يفهمون تاريخه . وتفهّم تاريخ الادب غير تمحيص نصوصه ، فترجموا الشعر العربي الى لغتهم كما فهموه ، ونظروا الى ما قال الشاعر لا الى كيف قال ، ففاتهم جمال التعبير ولم يأبهوا للموسيقى ، كأنما الشعر يقوّم بمعناه دون مبناه ، فجاءت تراجمهم متشابهة الصور متماثلة لأنهم فهموهـــا فهماً سطحياً .

لا يذكرني بهـــؤلاء المتمشرقين غير اخوانهم المرسلين الاجانب الذين يعظون في كنائسنا برطانة تضحك الثكلى فوق النعش ، وتفقد الهيكل مهـابته والشعب خشوعه . يظنون ان الوعظ ما يفعلون فتجيء عظتهم ملهاة ومسلاة ...

فما قولك في الذين يزعمون ان الشعر الرفيع يقوّم بالترجمة ، ويجاريهم في زعمهم فريق منا ؟ فالريحاني ادلّ بهـــذا المذهب في كُتيّبه « انتم الشعراء » وتمثل الامثال .

لا أرى الشعر يقاس بالترجمـــة – نعني الشعر لا النظم – وكل قطعة فنيّة في كل ادب تذهب بروعتها ترجمتها . خذ الشعر الجاهلي وترجم منه ما شئت ، ثم قل لي ماذا ابقت منه الترجمة ؟ وهذه التوراة ألم تفقدها الترجمة

شيئاً بل اشياء من روعتها الشعرية ؟..

فلأتولّ عنك الامر . هاك ، مثلاً ، ترجمة كليمان هيار لشعر عنترة ، فهو يقول ان عنترة هو القائل « اننا ندور كما تدور الرحى على قطبها ، بينما سيوفنا تتفتت على رؤوس محاربينا » .

اعرفت اي بيت ترجم من شعر عنترة ؟ وهل بقي شيء يقال له شعر ؟

خذ مثلاً آخر ، ترجمة نجيب الحداد لقطعة هيغو « واترلو » . راجعها في منتخباته ، وقل لي اين الشعر فيها ؟

قال شلي : كل شعر سامٍ لا يحدَّد ، قد تزيح ستاراً إثر ستار ولا تَصِل الى جماله الحقيقي ، فماذا يبقى من الجمال الذي يعنيه الشاعر اذا ترجم هذا الشعر ؟ وقال ايضاً : الشعر في رائحة الوردة ولونها ، لا في نسيج العناصر التي تتألف منها . فلغة الشعراء تظهر دائماً بلون خاص ، وموسيقى لها صداها ، وبدونها لا تكوّن شعراً ، فترجمة الشعر ضرب من العبث ، ومن يحاول ترجمة شاعر الى غير لغته كان كمن يلقي بنفسجة في بوتقة ليكشف اسرار لونها ورائحتها » .

قال فالري : الناثر يمشي مشياً ، والشاعر يرقص رقصاً ، وهل يكون الرقص بلا وزن ؟ واين الايقاع الذي ينفق الشاعر ساعات وشهوراً لإحداثه إذا ترجمتَ شعره إلى غير لغته ؟

يذكرني هذا القول بـ « ولز » عندما كتب كتاباً يعارض فيه سفر أيّوب ، فقال بلسان بطل روايته — وهو أب مات ولده ، فعزّاه الناس بخلود روحه في السماء — فاجابهم : انا احببت جسده لا روحه ...

فاذا كان الشعر يقاس بالترجمة فما هو الذي نسمّيه فناً ؟ الفكرة التي يرمي اليها التمثال هي الفن ، ام ما في التمثال من حياة ؟ ان تكن الفكرة فلنقم نصباً كما كان يفعل العرب ونسميه هُبَل والعزّى ، أو فلنحفر

فكرتنا في حجر وندعو الناس إلى الاعجاب بها كفنّ . واذا كان هـــذا ، فأي فرق بين تمثال يحفره رودين ، وبين ما يركمه الصبيان من الثلج في شباط ليخلقوا منه تمثالاً ؟..

وقياساً على هذا تغني زجاجة من ماء الورد عن جنينة ضاحكة ، وقارورة من ماء الزهر خير من مشهد بستان منوّر في صيداء ، فلا تعود تشتاق ايار نفوس الورى .. ولكن هكذا قال بعض المتمشرقين فلنقل مثلهم ، فلنجترّ ما قالوا . هكذا حكوا فلنحكِ !

قلنا ان المعنى روح والتعبير جسد ، وهذه الكلمة قالها العتابي منذ الف عام وازيد ، ولكن الهمذاني وغيره من مصنّفي كتب الالفاظ يريدون ان تكون الاجساد كلها متماثلة ، ولو كان ذلك لملّ الناس بعضهم وذهب ما نسمّيه « جمالاً » ، فما قولك ، اراحك الله ممن يفكّرون بعقول جيرانهم ، بوجوه متشابهة تروح وتجيء في مكان واحد ؟

إن هذا ما أصاب أدبنا المسكين فكثرت الجزّة فيه وصار كزّاً . تعابير كـكـسَر يابسة في جراب متكرّش ، وانشاء متورّم كلحم نفخه الجزّار ، وتقليد طويل العمر فلم يستنبط بعد المتقدمين ، تعبيراً جديداً سوى شعراء قليلين جداً واقل منهم استنباطهم . وما اشبههم بالنحاة الذين يصنفون كتب النحو ولا يزالون يمثلون بـ « عندي رطل زيتاً » ، والزيت ملء الارض في هذه الديار .

فلو قرأت احمد شوقي ، مثلا ، رأيت عنده تعابير جديدة ولكن اكثرها منبوش من اضرحة القدماء فهو كالذي يعثر عليـــه الأثريون في مدافن جبيل والأقصر ، وما احدث شوقي بضعة تعابير حتى تناقلها عنه شعراء اليوم مثل : رفرف الخلد ، وجارة الوادي الخ .

الشعر موسيقى قبل اي شيء آخر ، ولهذه الموسيقى معنى ، واذا فقـدته

فهي ألحان مشوّشة لا تطرب ولا تهز . وكما تتجدد الموسيقى وتتنوع هكذا يجب ان يتطوّر الشعر ، ولن يدرك هذا الا بخلق تعابير جديدة ، لها رنّة وصدى ووقع طيّب في النفس ، فقد مللنا تعابير الاقدمين كما مللنا وملّ كل لحن يكرر ويعاد كل يوم ، فالالتجاء الى هذه التعابير الهرمة يقتل المعاني في ادبنا ويلهينا عن التفكير .

فالشاعر كيماوي ألفاظه الأجسام ، يؤلف منها مخلوقات جديدة ، وهو كالنباتي الذي يخرج من نباتين نباتاً ثالثاً له خواصهما ولكنه غيرهما .

وكما يطعّم النباتي شجرة بريّة فتصير بستانية ، هكذا يفعل الشاعر في الألفاظ حين يركّبها تركيباً فنياً . أريد ان لا يُفهم من هذا أننا ندعو الى نبذ القديم وتركه بجملته . اننا ندعو الى ترك تعابير عمّت حتى خمّت . ندعو الى ادب جديد ليس كما تخرجه لنا الطباعة من رسوم رافائيل وميكالنج ، وليس كالخطوط التي يرسمها الصبيان على الحيطان ، فمثل هذا الادب يجب ان يموت لأنه لا يكون من مواليد الحياة والسعادة . إننا ندعو الى أدب له جمال الروح والجسد ، فالمعاني هي الخطوط ، امّا التعابير فهي الألوان .

لم ينبذ القدماء ابن الرومي الا لجهومة الفاظه وابتذال تركيبه وتعبيره ، وهذا خير معبّر لنا عن ذوقهم الفني . أما بعض ادباء اليوم فلم يكرموا ابن الرومي هذا التكريم الضخم الا لابتلائهم بدائه .

ولم تكن الجرأة في التعابير فقط ، بل اجترّ العرب المعاني فما زالت الحكمة تتناقل من ابي العتاهية الى الزهاوي ، وما زالت الاغراض هي هي ، والتعبير هو هو ، فلو تصفّحت ما قيل في حفلة الفردوسي وحفلة المتنبي وما قيل في وديع عقل يوم موته ، وقابلته بما قاله هيغو في تيوفيل غوتيه ، ظهر لك أن تصيُّدنا تعابير الاقدمين ومعانيهم يقتل شعرنا الحديث .

وأقوى مشجع على هذا الشعر الخيض كيلُ الصحف الثناء لهؤلاء المجترين .

فكل حفلة عند الصحف شائقة ، وكل قصيدة عصماء رنانة أو قطعة من الخلود ، وكل خطبة حجاجية طارقية . لا اكتم أنني سررت جداً بما قرأت من فصول نقد لحفلة المتنبي ، وأعجبتني مقابلة الصحافة كلاً بما يستاهل ، فليت الكتّاب الذين يعنيهم هذا الأمر يدقّقون أكثر ، ولا يرحمون هؤلاء الذين يركبون المنابر ليسمعوا الناس مبتذل القول .

وما زال الشاعر العربي يفكّر بالتعبير الذي تقضّى شبابُه وذهب وقته ، فهيهات أن يبدع ، وما زال يتخيَّل اننا نقيسه بالمتقدمين لا يخرج من اقبيتهم السوداء .

قال الدكتور غرمانيوس المتمشرق المجري : ان الشعر العربي في أدواره كافةً يتجه اتجاهاً واحداً نحو الافراط في العناية بالألفاظ اذ يتعمد الشاعر الغوص في محيط اللغة حتى ينتقي الالفاظ المختارة ، وفي سبيل هذه الغاية تضيع من بين يديه الغايات العاطفية والفكرية التي من اجلها نظم القصيدة ، فكأن الشاعر يرى ان القصيدة ليست سوى طاقة من الالفاظ البارزة الجميلة . »

لا يا دكتور ، إننا نشكو قلّة الإبداع والتفتيش في محيط اللغة ، إننا نشتكي ادبنا من تعابير بعينها يجترها الشعراء ، فلو قرأت شعرنا قراءة متأنٍ لرأيت ان شعراءنا لا يغوصون في محيط اللغة كما توهمت ، بل يغوص المتأخر في بحر المتقدم حتى جاءت التعابير والألفاظ هي هي ، وهذا الذي جعل الشعر العربي كريهاً مقيتاً ، ما أشبه شعراءنا وكتابنا بولد يأخذ عن أبيه تعابيره ونبراته ومعانيه فلا ترى الانسانية في هذا المخلوق إنساناً جديداً . إن تزمّت نقاد العرب حصر الأدباء في نطاق ضيق من التعبير فصار الادب إلى ما صار اليه .

والجمهور ، أو الرأي العام ، اضخم حجر عثرة في سبيل تقدم الفنون كلها ، فهو الذي يخلق الجمـود في كل شيء وخصوصاً في الادب والدين . فاللغويون يقفلون الباب بوجه اللسان ، واللاهوتيون يسدُونه بوجه العقل ، ويحرمون التفكير ويتهجّمون على أصحابه ، كما فعل احـد الآباء في رده علينا بالبشير . ولا باس عليهم ان لا يفـتروا مدافعين عن الله ، كأن الله من حزبهم ، كما قال غوبلز ، أما الراي العام فهو عبد الفريقين .

قال جورج سورل : قد كان غضب باغي Péguy شديداً عندمـا ظهر كتاب روستان Rostand وتناولته الصحافة بالاطراء وقامت الضجة حوله، وتغاضت عن كتاب باغي « جان درك » الذي ظهر في تلك الفترة عينهـا .

اعتقد باغي انه مُضام مظلوم ، فافهمته أن الفن الحقيقي لا يمكن ان يدركه الناس كما يدركون الانتاج العادي ، وانه يجب ان تنقضي عدّة سنين على الفنّان ليعرف قدره ، فدقة الفن لا تفهم فوراً ، وكل غرابة تدهش وتنبـذ بادىء بدء .

ثم يعقب سورل على هذا الكلام قائلاً : اما باغي فـلم يجب ، والسكوت دليل الامتعاض . ويقول سورل انَّ « جان درك » باغي طرفة فنية الخ .

فاذا كان التجديد يسبب لصاحبه غضباً وسخطاً في أمـة كادت تبلغ الاوج الفني الادبي ، افلا نعذر العربي اذا خشي التجديد ولم يجرؤ عليه ، وارضى الجمهور كروستان ؟

وهل اكثرَ خصومَ المتنبي غير جنوحه الى التجديد ، فشقّه طريقاً جديداً اكثر من المعجبين به — اللهم من الذين لا يقدسون القديم ، ومـا اقلهم — ولا يرون في الشعر الجاهلي ما نراه نحن في قداسة سيدنا البابا من عصمة وتنزيه .

٤

والآن قد حان ان نمر مرة عجلى بما يمضغه الكتّاب والشعراء من تعابير ، وما يجترّونه من جمل ، وما تتلقفه اقلامهم من الفاظ كأنها كرة وضعت لصوالجة ...

يقولون : بُعد الثريا عن الثرى . قالها عربي مولـع بالجناس فحلّت يوم مولدها . ويقولون : مزجر الكلب ، قالوها يوم لم تكن الكلاب تجلس على مقاعد الرجال وفي احضان السيدات وتنام بـين اذرعهن . . . وقالوا : لله دره ، ولفظ كالدر ، وقصيدة عصماء ، ونفثة مصدور ، وكأن على رؤوسهم الطير ، وكمن افواه القرب ، وكلفني عرق القربة ، وشاعر فحـــل ، وافتض ابكار المعاني ، وتقليم الاظافر ، وذر قرن الغزالة ، وارخت حبـالها الذهبية الخ ...

اهكذا يكون البحث في محيط اللغة يا دكتور غرمانيوس ! لا والله ، فلو كانوا يبحثون لمـا حلّت اللفظة الواحدة عندهم محل عشرين ، ولو كان التنقيب الذي زعمت لما كانت هذه الرخاوة في منثورنا ومنظومنا . ان الفاظ العربي اليوم كعباءته ، فهي لا تصلح لواحـد ، وتصلح لكل منا على وجه الأرض ، هي ثوب يشمله وان لم تفصّل لتلبسه .

فلنسأل الدكتور المتمشرق – ان هذه الالقـاب الضخمة ترعب – ما يقول في تقليم الاظافر ، وقـــد صار موضة يَدين بها حتى بعض الكهنة العصريّين ... وعندنا ، بعد ، من يستعمل هذا التعبير كأننا في قلب الصحراء ، زمن تأبط شراً ، والشنفرى ، وكل صعاليك العرب .

وما رأيه بعرق القربة ، والمياه توزّع على البيوت وتكاد تخرُّ في كل غرفة ؟ بل ما رأي جنابه بافتضاض أبكار المعاني ؟ أليست من ملائمات الشاعر الفحل ؟ كم واحداً يفكر بما يكتب عندما يخطها على الورق ؟ ..

بل ما رأي القراء بالزمخشري القائل : فلان فقيه عالم بذوات الضبع وذوات الحمل ؟ انني أعجب كيف لم يهتد اليها الكتّاب ليستعملوها في وصف الشعراء والفحول الذين يفتضون ابكار المعاني .

ولله دره ، اي درّ نعني ساعة نقولها متعجبين ولا نياق عندنا ؟

وما تقول بنفثة مصدور ، وكثيراً ما يستعملونها ! اترتاح النفس كثيراً الى رؤية البصاق مصوراً على الورق ؟ اشهد ان نفسي كادت تجيش عندما قرأت مثل هذه العبارة لوليّ الدين يكن : « عينان كأنهما بصقتان » واسفت ان يستعمل اديب متأنق مثل هذا التعبير .

وافواه القرب ما يذكرنا بها وعندنا الميازيب والشلالات ؟

وطلوع الشمس ، أنظل نعبّر عنه بذرّ قرن الغزالة ، وارخت حبالها الذهبية ؟ فاين الذهب لنذكره بعد ؟ اما غرق مع ذكاء الشاعر فياض ؟

وما رأيك بشاعر كالبارودي يصرخ :

هل من فتى ينشد قلبي معي   بين خدور العين فالاجرع

وعنده مدينة تضيع فيها الجمال المحملة هشيم برسيم وأرز ، ومدنية تستغوي الجبيس . وما تقول بماء وجرة يذكرهما ابن عاصي حماه — الفارض — القاعد على ضفاف النيل ؟

حقاً يا كلوديل ان التعفن آفة الفكر البشري ، وما اكثر المجترين .

٥

اما الصور التي اجترّوهـا في قيلولة الفكر العربي ، وقيلولة الفكر اجيال واعقاب ، فنظرة الى أي ديوان شئت تريكها متكئة على الارائك والصفُف . شبّه بدويّ النظرة بالسهم ، والحاجب بالقوس ، فاجترّ تشبيهه كل من قال شعراً من المتبدّين والمتحضّرين. لقد شبه ذاك البدوي بما لديه من آلة خبَرَ آلام وقعها ونزعها ، فما للحضري يردّدها حتى اليوم ولا قوس عنده ولا سهم ؟

وشبّه آخر القد بالغصن ، والاصابع بالعنّاب ، والعين بالنرجس ، والخد بالورد الخ ، فصارت قدود الحسان جنات تجري من تحتها الانهار . وشبّه أحدهم صدغ الحبيب بالعقرب ، فصرنا لا نرى الا عقارب يصورها المتاخرون والمتقدمون تارة شائلة أذنابها وطوراً مرتخية .

ان زعم المتقدمين « من سرق واسترق فقد استحق » مهّد لهذا الاجترار ووطأ له ، فقلّ التفكير وابتذل التعبير . واذا شئت ان ترى فاستعرض كتب الادب كالمثل السائر ، والصناعتين ، والوساطة ، وغيرها. لسنا ننكر على بشّار اجادته حين قال :

وكنا اذا الجبار صعّر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

فقد بزّ الفرزدق بصورة فيها كل الفن واللباقة والتنوّق ، ولكننا نلوم ابا نواس في تضمينه بيت بشار وافساده إياه . قال بشار :

يا رحمة الله حلي في مساكننا حسبي برائحة الفردوس من فيك

وقال ابو نواس :

يا رحمة الله حلي في مساكننا   وجاورينا ، فدتك النفس من جار

ماذا قال أبو نواس ؟ الا ترى انه لم يفكر ، بل خطر على باله مثل النحاة : يا جارتا ما انت جارة ، وعنت له التفدية ، وما اشيع هذه الكذبة عند العرب ، فقال : فدتك النفس من جار ، وكمّل بيته . وابو نواس شاعر إمام . قال الجاحظ في شعره : هذا شعر لو نقر لطن . ارأيت عمل الرواسم في الأدب العربي ؟

قال النقّاد : ان بشاراً شاعر لا صبر له ولا جلد . ما صدقوا فيما زعموا ، فبشار جليد في الشعر الخالد ، ولكنه كان مهزالا ماجناً فترك كل شيء في شعره على علاته ، اللهم في الشعر الذي نسميه شعر الساعة ، يقوله الشاعر ارضاء لمن يُبرمونه ، اما فيما عدا هذا فلبشار شخصية أبرز من الشمس وانمّ من الريح ولا تجدها في شعر شاعر عربي .

قال طرفة الجاهلي : فدعني أروي هامتي الخ ، فقام شاعر بعد اجيال يقول :

فيا رب ان اهلك ولم ترو هامتي   بليلى امتْ لا قبر اعطش من قبري

كأنما فتنت هذه الصورة شاعرنا فنسي دينه الحنيف مهدّم خرافات الجاهلية وعقائدها .

وقال ديك الجن الحمصي يجتر في احدى قيلولاته :

وعقدتُ بين قضيب بان اهيف   وكثيب رمل عقدة الزنار

فصرنا نرى في قدود الاحباب اغصاناً ، وفي الاكفال كثبانا . شكل غريب مدهش تصوره ديك الجن فمثل لنا حبيبه كالنملة او الزنبور . ان كثيب هذا الشاعر المأفون يغلي ثمنه اليوم الاستعمار الصهيوني ، ولا يحيي مواته الا خبير بزراعة الليمون والموز .

وبعد فما أصرح الاخطل القائل : نحن معاشر الشعراء اسرق من الصاغة

لقد صدق التغلبي ، وان يسرق فقد سرق اخ له من قبل ، هو الاعشى ، كلاهما سرق صورة النابغة ، ولكن الاخطل اخذها بشحمها ولحمها فقال :
وما الفرات اذا جاشت حوالبه الخ

ان هذا التقليد عاق الفكر العربي عن اتجاهه ، فلم يتّجه شعراؤنا في تفكيرهم الى سمت معيّن ، ولم ينشدوا مثلاً أعلى ولا افتتحوا آفاقاً جديدة في تفكيرهم وتعبيرهم . تقرأ شعر متأخريهم فلا يصح لك منه شيء يقال له شعر لم يقل مثله ، وترى التضاد في شعرهم جميعاً . واليك مثلاً اكبرهم شيخ المعرة ، فبينا هو يقررنا على قضية ، اذا هو يضادها حين تراءت له أخرى احبّ ان يتبناها ، فكأنما هو ينظم أرجوزة في النحو والصرف كابن مالك ، ولذلك تظهر شخصية شعرائنا كتنين رؤيا يوحنا بسبعة رؤوس ، ولا يفهم من هذا ان المعري إمّعة بل انه كالراديو تتغلب طفيليات احياناً في ما يذيع على الملأ .

خذ مثلاً بشاراً وعمر وابا نواس والمتنبي وابن الرومي وغيرهم ، فانك تراهم مجددين ومقلدين في وقت واحد . اذكر لك منهم ابن الرومي ، اما انت فتقصّ من شئت ، فابن الرومي مجدد ومقلد في قصيدة واحدة ، وما تلك إلا قصيدة « وحيد » المغنية التي يعجب بها ادباء عصرنا ، ففيها يشبّه ابن الرومي قدّ وحيد بالغصن ، وجيدها ومقلتها بالظبي ، وخدها بالنار ، وريقها بالبرد ، ثم يراها ظبية وقمرية ، وينعت الحاظها بالضعف ولا ينسى عقد السحر التي خبرنا عمر في « داليته » ان هنداً التي لا تنجز ما تعد نفثتها له ، وهلم جرا . اما حين وصفها فأرانا « وحيد » راقصة نكاد نصفّق لها اليوم ، ونعطيها نصف ملكنا كهيرودوس .

واذكر لك شاعراً آخر من منافسي المتنبي وهو الببغاء — والببغاء والسريّ الرفاء لو لم يظهرا مع المتنبي لكاناه — فالببغاء يصف الربيع

ويذكر نرجس العيون ، وشمس العقار ، كما فعل المتقدمون ويفعل المتأخرون والمعاصرون .

ومن كتّابنا الاحياء خذ مثلاً العقاد ، فانه يكتب كتاباً ضخماً في ابن الرومي سبقه الى موضوعه المازني ، ولم يزد العقاد عليه إلا دراسة عصر ابن الرومي ، وهي بالتاريخ اشبه منها بالدراسة الادبية الفنية ، دراسة واسعة غير عميقة ، كأدب طه حسين الذي عرّفه العقاد في هلال يوليو ١٩٣٥ .

ثم حاول العقاد ان يجدد في الشعر ، فنظم ما سماه غزلا فلسفياً – ما أقل عقل الحبيب المتفلسف – وكرّ كرة أخرى فنظم لنا قصيدة خنثى ، لا هي فكاهة ولا هي جد ، بل هي نظم قنفذي ككل شعر عقادنا الجليل ، واليك مطلعها :

البيلا البيلا البيلا   ما أحلى « سلب » البيلا

وان شئتها كلها فارجع الى هدية الكروان « ص ١٣٩ » . نشدتك الله ان تقرأ هذه الرائعة ، فالبيلا هي البيرة ، وسلب هي شُرب .

وتغرّب العقاد فنظم في الشيطان الذي لم يبق شاعر غربي ، قديم او جديد ، الا قلد شاعر عوص – ايوب – وقال فيه شعراً ، – تلقّيت مجموعة شعرية موضوعها لوسيفورس – فجاءت قصيدة العقاد التي سماها طه حسين ملحمة ، من الشعر العقادي البارد الذي يقول خيراً منه طالب موهوب متمرّن . شعر لا يرنّ ولا يطنّ ، اخرس يتوكأ على عصوين ويتهادى بين اثنين : عبد الرحمن صدقي وطه حسين . فأنّى له يرقص رقصاً كما يريد الشعر بول فاليري ؟ وصاحب هذا النظم ، « الفقير » الى ربة الشعر ، كما يوقع المتواضعون من رجال الدين يحدثك دائماً عن الفن ويتغنى بجماله ! رحم الله مجنون ليلى فقد مات ولما يبلغ وطرا .

فلو تكون الاعمال بالنيات في الشعر ايضاً ، لوقع اجر هذا الفاضل علينا

وجعلناه فوق سدرة المنتهى حيث وضع بشاره الخوري احمد شوقي ، ولكن الفن لا رحمة ولا هوادة فيه . الفن غير الدين .

ويدهشني ان من ينظم مثل هذه السخافة التي يسميها طه شعراً يقول بعرض كلامه عن الادب العالمي (صوت الاحرار ٩ ك ١ ، ١٩٣٣) : « ربما كان لنا الآن ادب صالح للذيوع في لغات العالم لو تيسّرت له وسائل الذيوع » . طبعاً لا يعني العقاد غير شعره ، لأن شوقياً في نظر العقاد كالعقاد في نظرنا او اقل .

فأي وسائل ذيوع يرتجي العقاد غير الترجمة ؟ اما قال صالح جودت في مجلة الامام (١ دسمبر ١٩٣٤) : « رجبنا نعرض شعره — اي العقاد — للترجمة الى الافرنسية والانجليزية ، وندفع بعض الادباء لترجمته الى اليونانية » .

حاشية : اخال او أزعم ، كما يقول طه ، ان بغية العقاد من ترجمة شعره الى اليونانية ايضاً ان تتيسر للناس المقابلة بين شعره وشعر هوميروس ... اذكر جيداً انني قرأت للعقاد كلمة في الالياذة حين ترجمت ، فرأى حضرته شعر هوميروس يكاد يكون هراء في هذا العصر . قد يصح هذا الكلام بشعر هوميروس اذا قارناه بشعر العقاد ...

ثم ماذا صار يا صالح ؟ الم يصر شعر العقاد عالمياً ! حقاً ان قصيدة البلا والغزل الفلسفي وقصيدة الشيطان التي زعم لنا طه انه قرأها وقرأها وقرأها .. لمن روائع الادب العالمي ، ومثلها كل ما نظمه العقاد براعته وكتبهُ بنبّوته .

وهذا ايليا ابو ماضي يحاول التجديد ، ومومياءات الاقدمين تغويه بمظاهر لا تعد ، كأنها الشياطين في اسطورة القديس انطونيوس (راجع رواية فلوبير) فيرصفها بين عذاراه الطريئة ، فتبدو كحصيات فسيفساء في جدار جلّ ما فيه حديث . خذ مثلاً قصيدته التي يختم كل مقطع

منها بـ « لم أجد أحداً » ، إبحث لتعلم من اي شاعر قديم استعار هذه « اللازمة » .

ثم خـذ قصيدة أخرى سينية عنونت بهذا الشطر « وبلادنا متروكة للناس » فتراه فيها يشبه كامرىء القيس « بمسابح الرهبان في الاغلاس » ، كأنه نسي ان زماناً كانت فيه للرهبان مصابيح تضاء في الاغلاس قد انقضى عهده .. ثم لا يحجم ايليا ان ينفحنا بالكذبذب ، ويأخذ تعبير الشاعر الاموي عينه « حز مواسي » ليسد به ثلمة قافية في القرن العشرين .

ويستعمل هذا المثل ، محشوراً ، فيقول : وضربت اخماسي الى اسداسي . ومحصول كلامه دق الكف بالكف للتحسر ، وليس هذا مفاد المثل العربي : ضربت اخماساً الى اسداس ، الا اذا كانت يد من يقوله سداسية .

وفي قصيدته « الفراشة » يخاطبها قائلاً :

وكلما نورت في السفح زنبقة حثثت للسفح من شوق مطاياك

ذكّرني تعبير ابي ماضي هذا بقول المنفلوطي لفرح انطون ، حين عـاد من اميركا الى مصر او حين ذهب الى اميركا — لا اذكر جيداً :

ان كنت لا تبغي لنفسك راحة فأرح مطيك والدنى وبنيهـا

فعقّب فرح الجدد على بيت المنفلوطي هذا بقوله : اننا ركبنا الباخرة فلانة فلا خيل ولا نياق .

فنصيحتي الادبية الى الشاعر ابي ماضي ان ينقّي شعره من هذا الزؤان ، من هذه التعابير البائخة ، ويبدع تعـابير جديدة تليق بشعره العصري ، فالشعر موسيقى اولاً ، والنغم المبتذل لا يهز النفوس .

ثم مـا قولك بالزهاوي — اراحه الله في ضريحه من منكر ونكير — القائل في فردوسيته التي يأتي ذكرها مع الفردوسيات والفردوسيين :

ولقـد سرني كما سر غـيري ما بهـا من نزاهـة الاحكام

زرت بالامس الروض امتع عيني   واذا الورد فيـــه ذو أكمام

أي فرق بين هذا الكلام وبين محلّيات الصحف ؟ فهل تقول بعد هذا : من قال السماء فوقنا ، والأرض تحتنا ماذا قـــال ؟... ولكن كل كلام يستقيم وزنه هو الشعر عند الزهاوي والعقاد ، فهما بيضتا دجاجة واحـــدة في النظم ، وان رجح الزهاوي وشال العقـــاد في الميزان . فسبحان مقسّم الارزاق وواهب القرائح !

٦

وهذا اخونا بشاره الخوري يقول قصيدة وطنية ، مطلعها : عش عزيزاً او مت بها مستقلاً . فيذكرنا بالمتنبي القائـل : عش عزيزاً او مت وانت كريم . ثم افتتح قصيدة أخرى بقوله :

جعلت رسولي نسيم الصباح   اليك وطرسي خدود الملاح

مليح وأي مليح هذا الطرس يقدّه صاحبنا من خـدود الملاح ليصحّ فيه قول المثل : من يقصّ من جلد غيره يوسع . امّا رسوله نسيم الصباح فيذكّرنا بقول « الميجانا » : يا ريح ودّي للحبيب سلامنا . وقد يكون شاعر الميجانا أروع وأرق .

وفي هذه القصيدة التي بناها شاعرنا على الحاء ، لا لشيء إلا لأن المنظومة له اسمه صلاح ، يأخذ بشارة قول بشار :

اذا ايقظتك صروف العدى   فنبّـــه لهـــا عمراً ثم نم

فيقول :

اذا شاقك الشعر حر النجار   فنبّه له العربي القحـــاح

قابل ايها القارىء العزيز ، بين القولين ، تجدهما متقاربين كالسميين ، اي بشاره وبشّار ، ثم قس أنت على مـــا قيل ما لم يقل ، ولا تكلّفني ، وحدي ، الإستقراء .

الشاعر الذي لا يجحـد فضله على الشعر العربي ، هو الذي يجري في عروقه دماً جديداً . وهذا الشاعر هو خليل مطران ، قال شعراً ستصغي اليه الاجيال مهما عتق ، ولكنه حين شاء أن يرثي حافظ ابراهيم قال :

عظّم الله فيك أجر الضاد وبنيها من حاضر او باد

وشكر الله سعيك يا خليل ، قف حدّ الحيط حتى نعزّيك بالفقيـد العزيز . اليس هذا من الاجترار يا صاحبي ؟ ان في قصيدتك الطويلة ابياتاً من الشعر ، ولكنك اردت ان تطولها فقعدت تجترّ كالمعز في القيلولة .

والآن أنفض يدي من المجترّين ، ولا اقسو على مطران لانه كريم لا يرد طالباً ، فهو على دين بشار في هذا ، يرضيهم كما ارضى المرعّث ربابة ربة البيت ليأكل البيض طازجاً ... ثم ان عملاً آخر يدعوني ، ولهذا اترك الطريق مفتوحاً لمن يجيء بعدي فينقب عن المجترّين . فهذا الاتكال على القدماء وهذا الغزو الادبي ، وهذا الاجترار ، بل هذا الاستنقاع كالبوشرية قبل ان شُجّرت ، وهذه الضفادع التي تنق فيها هي التي جعلت هذا الجمود في أدبنا العربي . وقد أدرك ذلك بعضهم فقال في أحدهم : لو قيل لكل كلمة إرجعي الى صاحبك لما بقي له واحدة .

وآفة رواسم الاقدمين تنتشر اليوم في شعراء الجيل الطالع – الذين يسمّون رمزيين – قال جبران : أشباح الليل ، لأنه كان يسهر الليل وينام النهار ، فسمعنا كثيرين يقولونها مع أنهم كرسل المسيح لم يسهروا معـه ليلة واحدة ... وخلق الشاعر سعيد عقل صوراً وتعابير ، فاغار عليها الذين استحلوها حتى عجّ بها شعر الناشئين والبالغين فأفسدوا الطريقة وجنوا

عليها وعلى صاحبها . ونبش طه حسين تعابير من خزائن العرب مثل : انا زعيم ، وغيرها ، وألحّ علينا في استعمالها الحاح الذباب على قاضي الجاحظ ، ثم كرر وقال : مليح ومليح ومليح فقاموا ينحون نحوه .

فلندع للرجل تعابيره يا بشر ، فكّروا وانبشوا مثله فالميراث واسع ... رحم الله الأجداد كم أحيوا ، وما أكسل الأحفاد الذين لا يرجعون الى دفاتر جدودهم العتيقة ...

ان قلة التفكير تولّد الاتباع الأعمى . قال طه حسين ، كما قال الشدياق منذ قرن : إن تكلّف السجع صناعة ممقوتة ، فتابعه الكثيرون بلا تبصر حتى أصبحوا يرون كل سجع شنيعاً ، وكل « بديع » رديئاً ، ولم يقم من يفكر تفكيراً معاكساً غير زكي مبارك فكتب كتابه القيم « النثر الفني » يعارض المتمشرقين وطه حسين الذي تابعهم ويتابعهم دائماً .

وغير بدع أن تجد الإجترار في احدى صور الاقدمين ، او في معنى من معانيهم يعالجه العشرات منهم ، ويرددونه في كثير نظمهم ، ولكن الغريب العجيب أن يجتر شاعر معنى واحداً من معانيه فيقوله مراراً كما فعل شوقي في بيته : وانما الامم الاخلاق الخ ، حتى يقول الرافعي في نقد صديقه شوقي بعد موته : ومن عيوبه التكرار ، ان له بيتاً يدور في قصائده دوران الحمار في الساقية ...

وقصارى الكلام ان الطريق التي نسلكها لا تؤدي بنا إلى ما نرجو من أدب رفيع ، فإذا ظللنا نجتر ونملك منبطحين عافطين كالمعز ، فنحن على ما نحن . انه لن يكون لنا أدب عالمي ما لم نفكر مثل العالم . فلندع ما مات من كلام السلف ، ولنفتّش عما يخلفه في ديوان العرب .

بشارة الخوري وامين نخلة
في رثاء احمد شوقي

باسم « البيان والجمال » اللذين لا نهاية لهما نفتتح « معرضنا » هــذا . فالادب بضاعة تعرض ، واسواقها القرّاء ، فمنها المستنبط البديع ومنها المزجى والمزيف . وكذلك الادباء ، فمنهم من يؤتى قوة الاستنباط والاختراع فتدهش السوق سلعه ، ومنهم المقلد الذي يتحامل على نفسه ، ويجر قوائمه جراً ليخوض المعمعة ، فيقصر عن بلوغ المحج .

والادب محصول ، فان سميته قمحاً ففيه حب مكتنز وفيه كعابير ، وان سميته ثمراً ففيه الجميل والدميم ، والزكي والكزّ ، وان سميته زهراً ففيه الفاتنة الضحوك التي تتطاول لتتكىء على صدرك ، وفيه التي تقبّل نعلك فتدوسها غير مذموم ولا مليم .

وان تسمّيه حيواناً ففيه الفاره والتنبل ، والحديد والبليد ، فقل سبحان من خلق عباقرة في كل الكائنات ، في عالم الناس والوحش والطير والنبات والجماد . ولكن عطاياه السنيّة نادرة وسخاءه فلتة ...

اما ان شبهته — أي الادب — بالأوادم فيشتدّ الالتباس عليك ويصعب تميز هذا من ذاك ، فالبشر يتصنعون ويتشبهون ليخفوا دمامتهم ، وهم

كالنمل يسيرون على الدرب المؤدي الى القرية ، ولكن الزمـــان يغربلهم وينخلهم ...

فما اقلَّ حظ المقلدين ، ويا خيبة من لا يزيد على العقد خرزة ، ويا تعس الغزاة الذين لا يعودون بالسبايا البارعات .

يقول الشاعر : مساكين أهل العشق الخ ،امّا أنا فاقول : مساكين دراويش الادب ، فهم لا يبنون غير قُهقور ، ويحسبون انهم يشيّدون اهراماً تتزحلق عليها العوادي وتمضي لسبيلها .

يخلق ملايين كل عام ليس بينهم بارع الجمال ، وتمرّ القرون ولا ترى امةٌ مفرداً يحطم المقاييس الناخرة ويخلق فناً جديداً . إن الأشكال المبتذلة لا تفتن ولا تغري ، وليس من ينقل التصاوير الرائعة عن معجم لاروس كمن يخلقها ، وإن احكم النقل . إن الفن يكره الضرائر ولا يصغي الى ثرثرتهن ، والإبداع ، وحده ، يكتب ، الاسماء في سفر الخلود . فاكثر فينا ايها الفن من أبنائك ، واقصِ عن هيكل جبروتك من لا يفوزون بجزء من لاهوتك .

يقول « المجترّون » ان لغتنا العربية لا تعبّر عن افكارنا ، والتعبير ، مهما سما ، يظل مقصراً عما نريد . هـــذا صدق إن سمعته من مقلدي الأقدمين الذين يعبرّون عن طلوع شمس لبنـــان : بذرّ قرن الغزالة ، ويقولون : أثقل من رضوى ، وصنين قبالة عيونهم . ان من يؤمن بالوحي والالهام ولا ينام ، والكتاب على صدره ، لا يأكل من قلمه خـــبز البقاء . ليس معنى هذا أن نكلف الكتب ما ليس عليها ، فالكتب لا تحيي الموتى ، ولا تحوّل الاحمق عاقلاً ولا البليد ذكياً ، ولكن طبيعة الانسان اذا كان فيهـــا ادنى قبول ، فالكتب تشحذ وتفتق . فليتدبّر العقلاء كلمة قالها عربي منذ الف ومئتي سنة .

اللغة بغلة شموس حرون فلنحتل لركوبها والا لبطتنا، فليتأن المستعجلون، والكلمة لا تحيا ولا تنطق الا إذا قعدت لزق جارتها . فان أقعــدتها فانت ذاك النابغة ، والا فدع الألفاظ في زرائبها ، ولا تجلب الدب الى كرمك.

لم يخلُ قرن من الوف النظامين والمنشئين ، والقناطير المقنطرة من دفاترهم المخربشة تملأ الخزائن والرفوف . اما الكتاب والشعراء الذين مـا برحوا في فم الأجيال ، فتعدّهم على اصابعك العشر . ألا فليتعظ الأحياء بالاموات ، وكم في التاريخ من عبر للناس لو يتفكّرون ...

لم نقل ما قلنا لنقطع رجاء عشاق الأدب ، فهم يعلمون مثلنا ان أداة الادب الخالد قريحة يمدها الذوق والتفكير ، ويجلوها الاطلاع ، وملاكها الابداع ، ومن يتكل على الآلهة مات كموسى في الصحراء ولن يدخـل أرض الميعــاد . كن مبدعاً ، وسواء عندي أكنت شعلة من السماء او شرارة من جهنم . أبهرني بنورك أو أحرقني بنـارك ، فأنا على الحالين صابر . إنني لا أحب الطعام الفاتر فكن إما بارداً واما سخناً يحرق شفتي ولساني وسقف حنكي . فما أبشع وجوه القرود ، وكم نرثي لهم اذ يقفون مسوخاً بين الجبابرة .

يقولون : لا يعجبه العجب . يا ويلي ! كيف لا يعجبني شيء وأنا اطير به فرحاً واصفق له طرباً متى وجدته ؟ أما ان اكذب على نفسي وعلى الناس ، اما ان أقول للخصي : ما أفحلك ! وللقزم : ما أطولك ! وللمكرفح : يا غصن البان يا عمري ! فلساني لا يطاوعني وضحى لمتي يضيء لي سبيل الاخلاص للذرية .

فكما يتمنى الأب أن يكون إبنه بارع الجمال وإن كان هو بشعاً ، وكما يتمناه نابغة وإن كان هو بهلولاً ، وكما يتمنى مع كل هذا ، وقبل كل ذاك ، أن يكون فيه شيء من ملامحه للإطمئنان .. هكذا نتمنى نحن

لأدبنا العربي .

اظنني في غنى عن يمين الاخلاص ، ولكنني أحلفها لقليلي الايمان :

« أنا ، مارون عبود ، أقسمت وأقسم بحياة مارون عبود ، أعز الناس عندي ، الا اكتب في باب النقد الا ما اعتقده حقاً ، وان اخطأت فأنا غير مسؤول ... » .

فمن شاء فليصدقني ، ومن شاء فليتهمني ، وليعذرني اخواني فمن يحمل رطلاً لا يحمّل قنطاراً .

شوقية بشارة

نشرت جريدة المكشوف الغراء في عددهـا الثانين قصيدتي الشاعرين بشارة الخوري وأمين نخلة في رثاء الشاعر أحمد شوقي ، ومن كلامها الذي قدّمت به القصيدتين لقرّائها : « ولسنا نقصد من نشر الإثنتين معاً الا خدمة الادب والتاريخ ، تاركين للقراء ان يخرجوا من هذه المقابلة التي هيأتها لهم جريدتهم بالرأي الذي يوحيه اليهم ذوقهم الفني » .

قيل كان أبو نواس يصـلي مع الجماعة فقال الامام : « قل يا ايهـا الكافرون » . فأجاب شاعرنا المتعتع : اللهم لبيك . فـأي بأس علينا لو لبّينا صديقنا الحبيشي ، ونحن من قراء مكشوفه ، مبتدئين بأخطلنا الصغير ؟

لا بد للشاعر من جوّ او محيط – سمّه ما شئت – يسرح فيه حين يعمل قصيدة . أمّا محيط أخينا بشارة في قصيدته هذه ، فكان في السماوات العلى ، بل في السماء السابعة ، التي زارها مار بولس وعاد يخبر المؤمنين عنها . وقد يكون فاقه بشارة اذ بلغ « سدرة المنتهى » فاسمعه يعيّط وينادي :

قف في ربى الخلد واهتف باسم شاعره ۞ فسدرة المنتهى أدنى منـابره

لقد فصّل بشارة من جلد غيره فوسع ، جعل سدرة المنتهى ، وهي عن يمين العرش ، أدنى منابر الشاعر ، أما منبره الأعلى فهو « كتلك الساعة

التي لا يعلمها أحـــد الا الآب » كما قــال المسيح لتلاميذه عن الموت ، فكونوا متيقـّظين .

لم يحسب بشارة أقل حساب لقوله تعالى : إذ يغشى السدرة ما يغشى . فحشر أحمد شوقي ولم يبال ...

لست أُنكر أنهم يشبّهون الشعراء بالطيور ، وسدرة المنتهى شجرة نبق كما يقول المفسّرون ، فالتشبيه غير غريب . ولكن هذا الجو عال جـداً يخشى فيه على الطيور من الاختناق . فلو جعله ، مثلاً ، مع الرجال الذين يسبحون لله بالغدو والآصال لهان الأمر ، ولكن أنكون كرّمنا الشاعر أو مدحناه إذا لم نطيّره فوق الكاروبيم والساروفيم ؟

وبعد أن قال بشاره بيته الأول في ذلك الأفق انقضّ فجأة كالعقاب على رفّ حمام ، وخرّ الى ذقنه يقول :

وامسح جبينك بالركن الذي انبلجت أشعة الوحي شعراً من منـــائره

ومـع أن « شعراً » ليست من الدخيل على الموضوع فقد جاءت نابية وصدمت موسيقى البيت صدمة غير هيّنة . ويرفع الشاعر رأسه بعد هذه الخرّة فيرى :

آلهة الشعر قامت عن ميامنه وربة النثر قامت عن مياسره

وبكلمة خلق بشارة ربة جديدة للنثر حفظاً للتوازن ، وهكذا رأى أحمد شوقي كما رأى « يوحنا » الحمل المذبوح . واهتزّت الحور لهـذه الرؤيا وقصّت شذوراً من غدائرها لتكون ستائر لعرش شوقي السماوي ... ثم ماذا رأى إبن الانسان ؟ رأى أتراب مريم لاهيات لاعبات « باللاقوط » في خمائله ، ورهط جبريل يحبو في مقاصره ، كالعصافير التي تنتف جناحها وتترك لعبة للاولاد . وتكميلاً للحساب يأتي الملهمون بنو هومير ايضاً ، ولا يتركون سجعاً لطائره . « كذا » .

ويضطرب الملكوت فتتساءل الملائك من هذا ؟ فيقال لهم كما أجاب الفرزدق بالنيابة عن زين العابدين : « هذا الذي » أربع مرات ، فيوفق الشاعر حين لا يحاول عمل المعجزات والعجائب فيقول بيتين من أجود الشعر ، كأنهما صورة ناطقة لشوقي ، واليكهما :

هذا الذي لمس الآلام فابتسمت جراحها ثم ذابت في محاجره
كم في ثغور العذارى من بوارقه وفي جفون اليتامى من مواطره

لم ينزل الشاعر بعد من فوق ، فقد استطيب المناخ ، وقال ايضاً ما يشبه « العجائب السبع الأوَل » ولكن « كم ودت » خفّفت من وهجها الحامي وحرّها الكاوي ، وقد ختمها بقوله :

والزُهْر لو كن ازراراً مفضضة على الذيول الضوافي من مآزره

ان هذه الابيات الاربعة عشر التي قالها شاعر العرب الاكبر ... في السماء السابعة تذكرني كلمة قالها أحمد فارس الشدياق في شعراء الفرح والترح ، منذ تسعين سنة :

« ومن كان قد قرأ بعض الشعر ، وسمع من أهل العلم ، مثلاً ، ان الشعر منقبة سنية تصدى الى اي نظم كان ، فاذا رأى طائراً في الجو نظم فيه قصيدة ، وإذا تزوج احد في بلده نظم فيه تواريخ ، وإذا توفي أحد قال : قد غاض بحر الكرم ، ودكت أركان المعالي ، وذوت رياض الفضائل ، وأفل نجم الهدى ، وخسف بدر المجد ، وكسفت شمس الفضل ، ثم لا يزال يصعد في عاجلة النبي الياس حتى يصل الى الفلك الاثير ، ويعدد جميع ما هنالك من النجوم وينتزع منها كفناً لمرثيه » (كشف المخبا ، ص ١٦٦ .)

قلت : حقاً انها لنبوءة ، ليرحم الله شدياقنا ، فماذا كان يقول لبشاره لو استيقظ على عياطه وصريخه « في ربى الخلد » ، ورآه منتصباً كالناطور فوق شماريخ جبال الجنة ، وقد تعلق كالحرباء باغصان سدرة المنتهى يهزهز

اغصانها ، بل ما تراه كان يفعل به – والشيخ الشدياق ، رحمة الله على ترابه ، احرص ما يكون على النساء – لو رآه يهاجم الحوريات بجزّه ليقصّ شعورهن المجدولة ويعمل منها ستائر لشوقي ، ثم يأخذ النجوم ليزرّر بها الذيول الضوافي من مآزره ؟ فليت شعري كيف يكون شوقي في هذه القطيفة التي صارت سماء ذات أبراج ، بل كيف يختال فيها ؟ ثم ماذا كان يقول الشدياق لبشاره لو رآه رهط جبريل يحلجون في الجنة وقد هيضت أجنحتهم ، وهم يجرونها وراءهم كالمكانس ؟ ! .

لا شك في أنه يرثي له كشاعر عربي لبناني ، ويهدي اليه كشف المخبا والفارياق ، ويقف الى جنبه ، ويوشوشه قائلاً : الآب الأزلي مستريح فلا تزعجه بهياطك ومياطك ... استح يا ابني ، بأي عين تقابل شعراء الجنة ؟! إياك ثم إياك أن تنظم شعراً قبل أن تقرأ كشف المخبا والفارياق ، ثم يجبر خاطره فيهبه شيئاً من أوسمته بعد ان يعاهده على ان يقول شعراً يطيق احتماله الفهماء ...

وكأني بواحد يسألني : ما قولتك ، لماذا فاجأ بشاره مصر العزيزة بهذه الاعاجيب ؟ الجواب : لا شك ان بشاره سمع أن في مصر سحرة نازلوا موسى الكليم بحضرة فرعون فتغلّب عليهم بمعونة الرب ، فتوكل بشاره على الله وجاءهم بالكبيرة فوهرهم ، والضربة لمن سبق ... ويعلم بشاره أيضاً أن الجمهور سيشد هذه المواقف ، والجمهور لا يستفزه إلا الخفة والأسماء الضخمة فأكثر منها وراح يصرخ فيهم :

شوقي ...سلو الافق هل ثارت عجاجته لما ثوى المتنبي في حفائره

أأسب دين القافية ... فالمتنبي المسكين أكلته الذئاب قرب دير العاقول فكيف لا يرضى له بشاره بحفرة واحدة ؟ ! وصاح ايضاً : « شوقي سلوا البحر » ثم « شوقي سلوا الليل » ، ولو سأل أكثر لكان الاستحسان اعظم ، والتصفيق أوفر ، والوسام اكبر .

وتذكر بشاره أن في مصر نهراً جواداً هو النيل فوصفه ووصف نعيمه المقيم ، حتى يكبر المصيبة ويقول :

يا للمصيبة غـــال النهر غائله   وغـــار في لهوات من هواجره

الله اكبر !! فهذا الصباح يعبس ، ولم يعد الماء لعوباً في الجزائر ، وذبل الزهر ، وسكتت الطير حتى الاشجار لركود الريح ، عجائب لم نسمع بمثلها يوم صلب المسيح ... نحن نعلم ان الطمي قد يكون قليلا في مصر بعض السنين ، امّا أن ينشف ماء النهر بالمرّه فهذا لم يحدث حتى على يد موسى البطل ... فوالله لئن كان الشعر سحراً كما يقولون فشاعرنا ساحر بلا شك ، كان الله في عونه ليبيّض وجهنا في كل مناحة كما يبيّض القوّال وجه ضيعته .

ويعظّم الشاعر الخطب بالشاعر فيراه أعظم من الخطب بالنهر « مجري الروح في بلد » فخطب الشاعر يذوي له كون بجملته ... حقق الله احلام الشعراء فهي لا بأس بها ، ولكن يا حبذا ... ولو قوّم الناس الشعراء الندّابين كما يقوّمون انفسهم لكانوا صفوة الخلق وأسعدهم .

أتريد أن اخبرك عن كل المفاجآت في هذه القصيدة ، انها لكثيرة وشاعرنا خفيف نشيط ، فها هو ينتقل الى لبنان بسرعة النور ويقول للناس :

ما للملاعب في لبنان مقفرة   وللمناهل عطلاً من حرائره

نعلم أن أهل لبنان متى « حدّوا » لا يدقون الكبّة فتعطّل الاجران ، أما ان يبطلوا الشرب فبدعة ما سمعنا بها إلا من بشاره ... وينتقل إلى طرابلس فيسأل : ما للمآذن في الفيحاء كاسفة الخ ...

وللأصائل والاسحار أثخنها   عات من الريح ارهاقاً بحافره

وهنا جعل للريح فرد حافر اكراماً لسواد عيني القافية ، ثم من يدري فقد يكون الريح في الحيوان مثـــل وحيد القرن ... وهل لنا ان نطالب

ابن بطوطة الشعراء بهذه الصغائر ، فقد يكون في حالة « اللاوعي » التي تقول بها مدرسة سعيد عقل ...

وبعد أن قال ما قال في لبنان وطرابلس رجع الى مصر فجعل الحسن والإحسان غريبين يضربان في الارض كشريد « لامّته » حتى اعتصما بضفتي النيل . لقد صدق ، فمصر بلد طيب يخرج نباته باذن ربه ، واهلها اجاويد . ولذّ له ان يذكّر احمد شوقي بشيء كما تفعل النّدّابات في المآتم ليعلو الشهيق والتنهّد فذكره ، ولكن بحبر أسود ... فقال :

شوقي ، اتذكر اذ عاليه موعدنا ... غنا وما نام دهر عن مقادره
واذ طلعت علينا اصفراً وجلا ... كالنجم خلف رقيق من ستائره
ونحن حولك عكاف على صنم ... في الجاهلية ماضي البطش قاهره

أرأيت هذه القوافي المكعومة ؟ ألا ترى هذا الضمير يركض كأعرج يريد اللحاق برفاقه ؟ ثم ألا تقول مثلي من أين جاءت أصنام الجاهلية في القرن العشرين ؟ والأغرب ان يتمّ بشاره البيت الاخير بقوله : ماضي البطش قاهره . فكأنه يجدّ ولا يهزل ، أو كأنه ينظم قبل الشاعر الجاهلي القائلْ :

أربّ يبول الثعلبان برأسه ... لقد ذلّ من بالت عليه الثعالب !

وبيت الأصنام هذا ، أليس لسيدنا الفرزدق الذي كان يقطع طريق الادب ويشلح الشعراء ؟ أليس هو القائل في « جفان » المرحوم جده « دارم » الذي الحقه به احد الخلفاء وحرمه الجائزة :

ترى حولهن المعتفين كأنهم ... على صنم في الجاهلية عكف

أمّا بشاره فأخذ البيت ولم يحسن الاخذ بل بشّعه بـ « ماضي البطش قاهره » التي زادها عليه فجاءت كذنب الطيّارة الثقيل ... وتوسع لغة فقال « عكاف » والوجه ما قاله الفرزدق . وما وقع بشاره في هذه الوحلة

الا لأنه يريد أن يقول لشوقي :

سألتنيه رثاء .. خذه من كبدي لا يؤخذ الشيء الا من مصادره

وإذا كان البيت السابق مأخوذاً من الفرزدق فهذا ايضاً مأخوذ من شوقي نفسه ، اذ يقول في رثاء مصطفى كامل باشا :

وجعلت تسألني الرثاء فهاكه من ادمعي وسرائري وجناني
لولا مغالبة الشجون لخاطري لنظمت فيك يتيمة الازمان
وانا الذي ارثي الشموس اذا هوت فتعود سيرتها الى الدوران

أمـا بشاره فاختصر وقال : خذه من كبدي ، وتواضع ولم يزد على قوله : لا يؤخذ الشيء الا من مصادره ...

وبعد كل هذه الروحات والجيئات يتذكر بشاره أخيراً انه لم يذكر فرعون ، رحمه الله ، فقال في قصائد شوقي : لو عاد فرعون كانت من ذخائره ...

لكن ربك لم يؤثر بها احدا سوى فؤاد عماد الملك ناصره
ارث لفاروق صان الله مهجته وطائركم حكى عن سعد طائره

ارأيت ما اغنى هذين البيتين بالتوريات والأعلام ، والألقاب العتيقة ، والأدعية الحامية الوطيس ؟ فهكذا يقول الشعر من يطلب التصفيق ويرضى بالساعة التي هو فيهـــا . فتعلـَّم ، إن كنت تطمع بلقب شاعر العرب ووسام الاستحقاق ...

ونزل بشاره عن المنبر واهتزت الاسلاك البرقية تبشر لبنان بالمعركة الفاصلة ، وحامت الانصار على « الدبّاس » فكانت الجائزة استحقاق بشاره شكر لبنان . ويروي المؤرخون أنه جاء لبنان مليون مصطاف تلك السنة ..

أمّا أمين نخله فقال قصيدته إرضاء لنفسه ، بل : « ليقال فيه غداً وفتى ابن الخيّر » . وسنقابل بين الاثنتين بعد النظر بقصيدة امين ، فلا

تظن اننا وقفنا هنا . فسر معي على خيرة الشيطان – شيطان الشعراء – فلقـد تعبنا من الصعود والهبوط في قصيدة بشاره التي كان فيها مكرّا مفرّا ، مقبلا مدبراً معاً ...

شوقية أمين

نطلُّ على أمين نخله الشاعر فنشرف على مدينة جديدة لها في النحيت اسلوب خاص ، سوف ندرسه مطولاً . أما الآن فنعلق على مدخلها هذا الانذار : المفرق خطر خطر الموت ، ومن لا يتعظ يكن عبرة ...

إن شوقيَّة أمين على الراء ايضاً كقصيدة بشاره ، ولكنها لا تتعثّر بالضمير الذي يتعلق بها تعلق الصبي بأذيال أمه فيمنعها أن تميس وتمشي مشية صاحبة الأعشى ، ولهذا جاءت قصيدة أمين هدّارة كالبحر المعرورف تذكرنا « فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر » ولكنّها لا تسمعنا جعجعة الرحى التي تطحن قروناً ... افتتحها أمين على الأرض لا في السماء فقال :

كنا نميل على الربيع الاخضر وعلى العشية والتفاف السمر

ورأى أمين ما رأى في « التفاف السمر » فشاء فكانت « مواسم عبقر » فتمّ له ما أراد دون أن يستصرخ الله وجنوده ، ومـا عنده من حُور وولدان ... المقعد بسيط رحراح :

للحاضرين بساطه وظلاله وحديث ناديه لمن لم يحضر

تصوّر الشاعر قعدة لبنانية لا اكثر ولا اقلّ ، وحسبها أن تحتوي على خير ما ابدعته يد المهندس الاعظم ، لتكون فردوساً ارضياً ترتع فيه قريحة الشاعر . ومجلس كهذا لا يستغني عن ساقٍ فكان « سرّيا »

يسقي الندامى بابريق النبوغ مسلسلا ، وصفه أمين بلغة لبنان التي يعشقها ويحرص على تعابيرهـا ويلوّن بها شعره ، وأمين عربي هاشمي – كما نبأنا حديثاً الصديق الاستاذ الرياشي في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه « نفسيّة الرسول – » فاسمع إذن ما يقول أمين في ذلك الساقي :

ساقٍ تقبل في الندامى كفـّه ويقال حين يخف يا ساقي اؤمرِ

قد تقول يا أخي ، هـل سكر أمين من قدح ليقبّل كفّ الساقي : ويْلي عليك ويـلي منك إن كنت لا تقرأ ما بين السطور ، ولا تفهم الرموز فالخمرة فارضية ، والساقي ربّاني عارف بالله ... وكيفما توجهت ترَ عند أمين إسناداً جديداً او إضافة طريفة او فكراً عفـّافاً مقرطقاً فيقول لك مثلاً :

عرك الدنان على اسم كل بليلة في الكرم غبّ الموسم المتفجّر

فكأنّ الشاعر ابن المعصرة ، أو « ابن مدينـة » الأخطل يظلّ على مسحاته يتركـّل . ثم لا ينسى أمين أن يعلمك آداب الندمان ، ولكنـّها ليست كشروط أبي نواس الخمسة فيقول :

شرب الهوى شوقيّة اقداحه وإذا سقيت فجدبكأسك او ذر

وبعد هذه الذكرى المؤلمة التي وصفها أمين مبتدئاً بـ « كنا » يشتدّ عليه الأسى فيقول :

ذهب الربيـع ولم يدم من طيبه في الأرض إلا نشقة المتذكر

انشقت معي طيب « نشقة المتذكر » لتعلم خبرة امين بتزويج الكلام ، والتشدّد في إحكام الكتاب حتى لا يـدع باباً او منفذاً للطلاق ؟. وامين يحسن « التجسيد » ايضاً – لا بأس إذا تفرنجنا – فيريك الدروب تمشي في موكب موحش ، ويغص في العطفـات صوت الانهر ، كصوتي ساعة الاختناق من الغيظ في محشر القوافي ... شفى الله الانهر وشفاني من

هذا الداء ...

وهنا يلتقي أمين وبشاره في تعظيم الخَطْب بموت الشاعر فيقول أمين :

موت الربيع وموت شاعر امة صنوان في فقد الهناء الاكبر

يشبّه أمين الشاعر بالربيع ولكلامه صلة بما قبله ، فهو منذ ابتدأ ينظر إلى الربيع ، والعشية ، والشفق الطري ، والغمام ، والساقي ، والإبريق والدنان ، وكل ما يلزم الطرب من آلة . أمّا بشاره فجاء « نهره » لزقة فجرف الأخضر واليابس ... ورب قائل : ما يدرينا أن أمين نحله لم يأخذ عن بشاره هذه الصورة إن كانت قصيدته لم تنشر ، كما اذاع المكشوف الاغر ؟ قلت : بلى نشرت ، وأمامي الآن نسخة منها اذاعتها جريدة الشعب في حينها . وإلا فهل أنا نبي لأنبهك إلى « مواسم عبقر » و « التقاف السمر » ؟ وسأشير الى غيرهما فأعرني انتباهك .

لم يكبّر أمين المصيبة بالشاعر مثل زميله بشاره الذي أذوى له كوناً بجملته .. ولكن جاءنا منه « الهناء الاكبر » أخو الراحة الكبرى عن شوقي عن ابي تمام . ويقول أمين في البيت الثاني عن الأمة وشاعرها :

يا طالما فاءت إلى أحلامه وتقلبت في قلبه المخضوضر

إني أرى « فاءت » يابسة ، وهي من ألفاظ العقاد الشعرية ، كما أكره هذا الجناس في « تقلّبت في قلبه » ، وعسى أن ينظر في هذا عند الطبعة الثالثة فهو كثير العناية بتهذيب بنيه ، لا يخلّفهم ويتركهم . أمّا وزن افعوعل الذي استحلاه إبن الأثير وعشقه أمين وتيّم كثيرين فقد عمَّ حتى خمَّ . ويغشي أمين مشية ليّنة في وصف شاعره ، وكرمه الحاتمي ، ودموعه وأحلامه التي تشفي من جميع الادواء ، ولا أدري إذا كانت تشفي من الكلَب أيضاً كدماء ممدوحي المتنبي ...

ولا ينقطع هذا الفلم الجميل حتى يبتدىء الثاني بقوله :

خفقت عكاظ اربعين عشيـة   وأظنها خفقت مئات الأعصر

لا تظن يا أخي ، فحسب الشعر أن يكون له في كل قطر أخ للعقاد ... لا خوف على الشعر يا أمين ما دامت النساء تحبل وتلد ، فما شوقي إلا شاعر خلت من قبله الشعراء . أئن شوقي مات ، اما النبوغ فحيّ لا يموت . أمّا القباب ورفرف النادي وصدر المنبر التي خصّت بشوقي حياً فألفاظ مرحة لولا « المتبّع » التي جاءت كركبة البعير ، تترحّم على ابن الأثير .

وهنا تأتي نوبة الوصف الصريح لشوقي فيشبّه رقتـه وصبابته بدمع الياقوتة المتقطـّر ، فيذكـّرنا بقصر ابن المعتز . وسرعان ما ينتقل في البيت الثاني إلى مطبخ إبن الرومي فيقول :

يتفقأ الرمانـ من لفظاته   فهي الندية في الغليل الاحمر

كانت « الفاظه » في الطبعة الأولى فبدّلها فتحرّكت . اما « النديّة في الغليل الاحمر » فطريفة رائعة تشفع بيتفقأ التي تفقأ العين . وعندي انـ الفكرة مبتذلة ومـــا هنا محلّها ، وإن وصف أمين حبّ الرمان خير الوصف وأصدقه .

وننتقل من تفقية الرمان إلى « الحبرة » فنعجب بنسج « منواله غزل الشعاع النيّر » ثم ننسى الحبرة ونسير مستعجلين في موكب الأشعّـــة إذ نرى :

ديباجة كالصحو تلمع رقـــة   وبها مشابه من سحاب ممطر
الاذن في تلك القوافي ترتعي   والعين تسبح فوق تلك الابحر

ارأيت كيف يوصف الديباج البراقشي – شانجان ؟!.. ويصف لنـــا أمين حـدة ذهن شوقي فيأتي بصورة تنبض الحياة في كل عرق منها إذ يقول :

شوقي وأية حدة في ذهنــه   ابدأ تلمّ شيمـــة المتحذر

كالعين تأخذها المشاهد بغتة   فترد اخذتها بدورة محجر

إن الشاعر يحتاج أولاً إلى عينين بصيرتين ، سلمت عيناك يا أمين !

وينتقل إلى وصف سرعة الخاطر فيقول بيتين جيدين لولا العجز الأخير في قوله :

خفت بعارضة الضياء قريحة   عن نقلة الخطفات لم تتأخر

إن بيتك هذا متأخر عن إخوانه ، ناهيك بما في الفاظه من جفاء ، متفرقة ومجتمعة ، فابحث عن السبب فهو في الحنجرة .

ويقول بيتاً ثالثاً يصور به تزاحم الخواطر عند الشاعر الملهم :

فكأن لفظته تقول لاختها   في زحمة الخطرات يا أخت اعذري

إنه لتجسيد تام وتصوير نابض لا عيب فيه الا زحمة الخاءات . ولو قال اصبري لكانت لبنانية أكثر ، وأخاله آثر اعذري لأنها ترادف « معليش » المصرية . تذكرني فكرة أمين الجميلة بما كنت اقرأه مكتوباً فوق رأس مار افرام السرياني « كلي موران موهبتخ » ترجمتها : ردّ يا رب عنّي نعمتك . وكذلك الشعراء الملهمون في ساعة الرضا والتوفيق ، ولا يصف الشاعر إلا الشاعر .

ويتمادى أمين في وصف صاحبه فيصف رقة حسه ويرينا ان أكف الوهم تصدع حسه . وهنا نبلغ بيتاً حذفه أمين من طبعة المكشوف ، اذكره لأثبت لك ايضاً ان قصيدة امين طبعت في حينها ، وانه لم ينظم بعده غيره ، وأخيراً ، وهو الأهم ، لأدلّك على أن شاعرنا ينظم للفن ، وهو جزار لا يشفق على نعاجه ، فما حمله على حذف :

شوقي الشعاع فكيفما قلبته   وادرت عينك مبهر في مبهر

الا قافيته الملعونة التي تسود وجه الفن ؟.. ثم ينتقل الى وصف شوقي جسدياً فيعرّفنا به ويقول في جسمه الصغير :

ملأ الفضاء كحبة من عنبر ...

ثم يذكر قلة حديثه ويرسم لنا صورة شوقي المفكر الفهيم ببيت هو اخو البيتين اللذين اطريتها كثيراً ، وهما في العين ايضاً كهذا :

او ليس حسب العين من لحظاته　　في الفهم رأرأة كجهد معبر

فهلا تتأمل المعبر مرة ، وتخبرني عما ترى ؟ لا تبعدك رأرأة عن هذا البيت فلا يسدُّ مسدَّها غيرها . ويمعن أمين في الوصف فيقول في عين شوقي ومشيته :

رقيت الى عينيه زهوة نفسه　　فهما بها في حيرة المتحير
يمشي فيخطف خطوتين كسالك　　في العاج أو متعثر في المرمر
جلّت وداعته وجلَّ وقاره　　عن ان يهمَّ بخطوة المتبختر
لكنما الاعصاب وهي كليلة　　من فرط مس الوحي في متعذر

ولو أراح امين بيته من « رقيت » لسرح وكان صداه أبعد . قد رسم خليل مطران ناحية الزهو في شوقي فقال :

فلكلِّ لفظ رونق متجدد　　ولكل قافية جديد رواء
يجلى الجمال بها كأبدع ما انجلت　　صور حسان في حسان مرائي
ولربما راع الحقيقة رسمها　　فيه فما اعتصمت من الخيلاء

أرأيت كيف يصور الشعراء المفكرون ؟ لا تبال باضطراب عجز البيت الثاني ، فكثيراً ما يعجز الشاعر عن إخضاع الكلام إذا تمرّد . وإذا رأيت المطران يخرفش في هذه الايام فلا تنس انه حصّاد شهير ترك المنجل ، وهذه سنّة شرقية ...

ويختم أمين قصيدته بتجديد العهود والمواثيق فيقول :

تلك الأبوة في البيان أصونها　　ليقال فيك غداً وفي ابن الخير
لي منك فخر الدرب إذ يممتها　　ومشيت ألهث في غبار مغبر

أما أنا فأخاف جداً من الغبار خصوصاً إذا كان مغبراً ... وأتمنى أن يظل أمين سائراً في دربه وكل من سار على الدرب وصل ... ويذكر أمين صلته بشوقي وكيف انقضت ، صبر الله قلبه ، وعمّره كنسر حيقار ...

وبعد ، فقصيدة أمين نخله هي لشوقي بعينه ، ولا تصلح إلا له . أما قصيدة بشاره فلشوقي منها الاسم ، وهي تصلح ايضاً لحافظ واسمعيل صبري والبارودي والحلبي دموس بعد عمر طويل ...

محيط أمين في قصيدته محيط شعري بسيط جداً ، تسمع وصفه ولا يطرّ عقلك ، ومحيط بشاره أشبه بمحيط ألف ليلة وليلة وكأن في يد صاحبه عصا موسى أو خاتم لبيك .

قصيدة بشاره مفككة تمشي على غير هدى ، وقصيدة أمين كالسلسلة المحبوكة ، لا قفز ولا نط ، ولا انتقال ، ولا مفاجآت ، ولا غرائب ولا عجائب ، لا رعـــود ولا بروق ولا عواصف كساعة تجلّي المسيح على طور طابور .

قصيدة أمين ذات لون محلي تدل على شاعر بعينه ، وقصيدة بشاره لا تدل على شيء من هذا ، ولو خلطناها بعشرين قصيدة من شعراء العرب الأولين والآخرين منهم لما عرفنا أن قائلها من أبناء القرن العشرين .

نظم بشاره مفكراً بالنظارة وهمّه التصفيق لا الفن ، ونظم أمين وعينه في الفنّانين ، وما عناه غير ذلك .

قافية بشاره متمتعة كالسيّدات المترهّلات اللابسات الفساتين المذنّبة ، وهذا الضمير الذي علّقه بها يجبر القارىء على الطحير ، وقافية أمين خفيفة رشيقة كالسيّدات المتروّضات ...

كأني بأمين قد قرأ كلمة ابن الأثير القائل : من شاء أن يخلق عالماً من الكلام فليأت به على صور الاناسي والانام ، ففعل . أمّا بشاره ،

فجعل مسرحه الجنّة ، فهزّ العرش وفزّع سكان السماء . نعم إن فيكتور هيغو حرّك آلهة الفن ووصف فرحها باستقبال صديقه تيوفيل غوتيه ، ولكنه قال ما لا يقال الّا في غوتيه صاحب بدعة « الفن للفن » وهو في كل حال لم يجعل الفرحة غير معقولة ، كما فعل بشاره .

قصيدة أمين كباطية النبيذ جيّدها في وسطها وهي « كلّ » ، أمّا قصيدة بشاره فخطرات افكار مبتذلة وتعابير الفناها ، بخلاف قصيدة أمين ذات الصور الجديدة ، والتعابير التي تدل على جهد وعناء ، وتعب كثير في تأليف الكلام وترويجه .

حاشية — لا يظنّن الكتّاب ان كلمة الترويج » في البيان إفرنجية ، فقد فطن إلى ذلك ابن الاثير ، وفي ظنّي أن أمين نخله قرأ إبن الأثير مرّات ، وما أحوجنا الى من يقرأه .

قابل إذا شئت فالقصيدتان أمامك ، انظر ماذا قال امين وكيف يقول بشاره : هذا هوى الشرق هذا ضوء ناظره ، يعني : يا نور عيني . وقس على هذا ان شئت تعلم ان الفن اللفظي عند امين شأناً عظيماً ، حتى يميز بين « الفاظه » و « لفظاته » ويستغني عن « مبهر في مبهر » ، و « شوقي الشماع » ، وهذا ما نطلبه من بشاره الخوري الذي لا ننكر شاعريته ، ولكننا نسأله ان يتغرّب ، ففي الأسفار أكثر من خمس فوائد ...

قلت سابقاً ان قصيدة امين « كلّ » تصعب تجزئته ، اما قصيدة بشاره فاليك لائحة بها :

٠٠٦ ابيات في وصف شوقي بالجنة

٠٠٥ ابيات سؤال الملائكة عنه وتعريفهم به

٠٠٢ للقارىء عن تمنيات جنة الخلد

٠٠٤ ابيات صريخ وعياط

٠١٢ بيتاً عن النهر الذي اكله الغول
٠٠٦ ابيات عن حزن لبنان وطرابلس
٠٠٥ أبيات عن غرام مصر والخواجه لبنان
٠٠٦ أبيات عن اصطدام سيارة شوقي
٠٠٤ أبيات عن فرعون والملك فؤاد وفاروق
٥٠ أليكون خمسون بيتاً فقط لا غير ، عدا السهو والغلط .

أما قصيدة أمين فعدتها ٤٤ بيتاً ، موضوعها شوقي وما يتصل به وبفنه ، فلا أهرام ولا فرعون ولا عشق ولا غرام بين الأقطار .

لا يجرد بشاره إذا فضلنا أمين نخله عليه ، فقد نقابل بينهما في وقعة أخرى — بالفرح ان شاء الله — فتكون له الغلبة ان شدّ حيله وقابلنا بغير هذا الوجه الشعري ، فما هذا وجه من يعيش .

وأخيراً أتمنّى أن أكون مخطئاً ويظل بشاره على كرسي مجده تعطيه الطوبى جميع الاجيال كستنا مريم رزقنا الله شفاعتها ورضى أخينا بشاره العزيز الغالي .

أمين نخلة
في دفتر الغزل

أمين نخله شاعر كبير وكاتب أكبر ، ومع ذلك يعتمد كثيراً على الدعاية في ترويج بضاعته ، فهو وسعيد عقل في هذا اخوان ، كلاهما يفوق الاميركان في الإعلان . فإذا صحّ وجود برج عاجي للشعراء والادباء ، فلا شك ان ذاك البرج في بيت أمين ومكتب أمين ، بل في كل مكان تطأه رجل أمين ، إذ لا بدّ لهذا القمر من هالة حيث يطلع .

وهذا هو أمين يرسل في السوق ديواناً سماه « دفتر الغزل » كما سمّى الجاحظ من قبل دفتر المعلّمين ، والغزل شيخ السفرة في أدبنا العربي ، أو « الهوردفر » بلغة العصر . فأي شاعر ما تغزّل ؟ كلهم قالوا الغزل . ولماذا لا ؟ فهذه التوراة ، وهي كتاب مقدس ، فيها مأدبة غزل أشبعت الذريّة ولا تزال . فسليمان الحكيم يصف حبيبته الشولمية من عينيها الى سرّتها ، ولا ينسى دوائر فخذيها وما بينهما من صبرة حنطة يسيّجها السوسن ... اللهم نجنا من أكل الدجاج والوقوع في السياج ...

الغزل نغة الحب ، وداود أبو سليمان يرثي يوناثان في أول فصل من سفر الملوك الثاني فيقول ، وكأنه ينسب ويتغزل : قد ضاق ذرعي عليك يا أخي

يوناثان . لقد كنت شهياً الي جداً وكان حبّك أولى من حب النساء ، وقد احببتك حب أم لابنها الوحيد ...

أجل لقد بشمت ثعالب البشريّة وما فنيت المناقيد . ولا بدع ، فالحب ملاك الحياة . وجد لحفظ النوع فهو لا يفنى إلا بفناء هذا الكون ، وهو إذا شاخ مع الفرد فإن نواته لا تموت ابداً .

وبعد فلنؤد حساباً عن كلمة سبقت ، أي عن الدعاية عنـــد أمين الشاعر الطيّب المبـــدع . صدّر امين « دفتر الغزل » بدعاوتين ، واحدة عربية والاخرى يونانية ، فكأنه أراد الشهادة فيه شرقية غربية .

قال بولس الرسول : على فم شاهدين أو ثلاثـة تقوم كل كلمة ، كما قلت سابقاً . وهذا بابا دي باناقوس يوناني كار بولس . فلا شك أن شهادته مقبولة ، وكذلك أحمد شوقي ، فهو ، كما يزعم ، عربي تركي يوناني شركسي بجدّه لأبيه وأمير شعراء ، فهو مقبول الشهادة ايضاً . ناهيك أن أمين نحله هو كالمسيح أو أعظم ، وسيأتيك الخبر .

قال المسيح : انا اشهد لنفسي وابي الذي في السماء يشهد لي . إذن ، اجتمع لدينا أربع شهادات ، ولم يبق علينا إلا أن نبدأ المحاكمة .

نودي على الشاهد الأول شوقي ، وبسبب غيابه غيبة لا رجعة بعدها ، نظر فيما كتب :

هذا وليّ لعهدي وقيّم الشعر بعدي

ترى من قال لشوقي أننا نعترف بولايته حتى ينصّب وليّ عهـــد ؟ فكل شيء يورث إلّا العـلم . ومتى كان الشعر وقف ذرية حتى نجعل له قيّماً ؟ فليت الصديق أمينـاً الذي لا أشك في امانته الأدبية خبّأ هذه الوريقة الشوقية وحفظها للعزيز سعيد ، حرسه الله ، مع ما يحفظ من وثائق ... إنها لا تحله في أعيننا محلاً أرفع ممـــا له عندنا ، وهي من

جهة أخرى تدل على قلة كياسة شوقي التي عبر عنها في هذا البيت التالي :

فكل من قال شعراً   في الناس عبد لعبدي

هذا كلام رجل لا اجد له نعتاً ، والأشبه ان العمر هو الذي انطق احمد شوقي ، في غير ساعة رضا ، بهذا الهذيان والهذر .

أصدّق شوقي أنه أمير والشعراء عبيد ، حتى يكونوا جميعاً عبيد عبده ؟ انا لا أشك بأمانة أمين ، كما قلت ، ولذلك كلت اللوم للشاعر المجنون الذي اطراه الشعراء وعظموه وامّروه حتى تمنفص وتفايش ..

وفي ثالث بيت يقول شوقي ايضاً :

كأن شعر امين   من نفح بان ورند

قلت : لا شك ان شعر امين ذكي الرائحة له طعم غير طعم الشعر ... ولكن اختلاف الطعوم ليس حكماً بالأولية والأسبقية وولاية العهد . ان مصر ، بلد الشاعر شوقي ، نفت الملك وولاية عهده ، بينا نرى شاعرنا الامين يريد بسط جناح ملكه على العالم العربي بكلمة شوقي ...

ويقول شوقي ايضاً :

او من عناق التصابي   وقرع خد بخد
او من حديث ابن هاني   يعيد فيه ويبدي

يظهر ان هذا البيت الأخير هو الذي أوحى الى امين بقصيدة « ام موسى » ليعيد فيها ويبدي كأبي نواس ، ويكون عند ظن شوقي فيه . وسننظر في هذه القصيدة حين نصل اليها ، لنريك ان الظرف طبع لا تطبّع .

ويختم شوقي قوله بقوله :

والعصر عصر (امين)   خير ومطلع سعد

وهذه ايضاً تخينة يا امين ! اعرفك رجل دعاية ، ولكن ما كنت

احسب انك تشتط بهذا المقدار .

واذا قلبنا الورقة من هـذا الدفتر – دفتر الغزل – وقعت عيننـا على قصيدة يونانية للاستاذ بابا دي ياناقوس .

جاد امـين على بابا دي ياناقوس بلقب شاعر اليونان ، ولا اعرف اليونانية لأرى مـا خلع شاعر اليونان هذا على امين من القاب . لا بـد وان امينا هزّ بجـذع النخلة حتى تساقط رطباً جنياً والا لما ذاق هذا « القرط » من ثمارها ...

حقاً انها مصيبة ، فأنا لا أعرف اليونانية ، ولا وصول لي الى الدكتور طه حسين ليترجم لي هذه الابيات . أما تلقيب بابا ياناقوس بشاعر اليونان فأظنه مثل تلقيب ذاك التاجر ابا الفتح بصاحب الدولة ، في مضيرية بديع الزمان . ولكني اعتقد في كل حال ان هذا الشاعر اليوناني يحترم نفسه ولا ينزل في « المغطس » الذي تنعم فيه شوقي وانعم ...

يظهر ان أمين يفهم اليونانية ولكنه تواضعاً لم يترجم لنا ابيات ياناقوس ... وإلّا لما قال في المقدمة في وصف غزل الشاعر اليوناني : « ولا رقة في الغزل وراءه » .

أما شوقي فكان حظه ضئيلاً جداً من مقدمة أمين ، مع انه جعله ملكاً على الشعراء بعده . ويختم أمين مقدمته الحلوة الطريفة بهذه العبارة :

« وهكذا فانه اجتمع لهذا الكتاب ، بفضل منك ، وفضل من صاحبك – اي بابا وشوقي – ما لم يجتمع لكتاب : يد يونانية فوق يد عربية » .

قال المسيح : « من منكم إذا اهتم يقدر ان يزيد على قامته ذراعاً ؟ » وانا أقول لصديقي أمين : لو قام هوميروس وفرجيل ، واعاظم شعراء الدنيا ، وكتبوا ما كتبه لك شوقي لما زادوا على قامة شعرك قيراطاً واحداً . انت شاعر مجيد ، ولكن هذه البراءات هي كالتي عندي وعند ابيك ، لا تنفع شيئاً

متى وقفت في محكمة التاريخ حافياً عرياناً مجرّداً من كل مجد باطل .

اما الآن فلنمر مرة عجلى في ديوان الاستاذ ، عفواً ، في دفتر غزله ، وان اشبه افعال المقاربة في التسمية ..

ان شاعرنا الامين لشاعر محكك ، وربما ظل يفتش عن كلمة من الحول الى الحول . هو كاهن فن ، مولع بالكلمات فيعقد بينها برباط مقدس فيكون زواجاً مباركاً لا يعقبه طلاق . وله ميل يشبه الهوس بكلمات دون غيرها ، وكثيراً ما يقعدها غصباً عن رقبتها في المكان الذي يريده لها . لقد انبأنا في آخر دفتره هذا ان ليس من عادته أن يرسل الشعر كما يجيء ، ولهذا نرى معظم قصائده قصيرة النفس محككة النسج . اظن ان ارستقراطية الاستاذ لا ترخص له بترقيق حواشي العبارة ، واللجوء الى الصور التي يتطلبها الغزل ، ليفهم عنه الحبيب . فهو يهبط في غزله من عل ، فلا تظهر الحرقة فيه كما تظهر ، مثلاً ، في شعر بشاره الخوري . انه لا يخاطب من العلّيقى كرب موسى ، بل يؤثر الطور ... يطوف في الاثير ، حتى يموج هواه في آه المغنّي . واذا المسيح مشى على الماء ، فأمين يمشي مع الصوت ، ولكن ببطء السلحفاة ، وهذه معجزة اعظم .

قال البهاء زهير لأحبابه :

فلو صدق الحب الذي تدعونه . واخلصتم فيه مشيتم على الماء

الا تراه لو كان في « عصر امين » الذي بشر به شوقي ، كان قال ، كما قال امين :

ففي النغم العميق اليك امشي واسلك جانب الوتر المرنّ

ان قصيدة « الحبيب الاول » هذه تستحق الجلوس حيث احلها امين على الرحب والسعة ، في صدر الدفتر ، وان كنت ارى قصيدة « العقد الطويل » اقرب منها الى الشعر المطبوع . والغزل ، حتى يبلغ قرارة النفس ، يجب ان

يكون ألين من شعر امين . فأمين، مثلاً، يرى حبه وحب حبيبه نعيماً، بينما يراه بشاره الخوري ناراً آكلة .

فحرقنا نفوسنا في جحيم من القبل

يظهر ان بشاره من اصحاب « ابجد هوز حطي » ... امـــا امين فيحوم ويحوم ، ومن صبر نال ومن لج كفر .

ولعل قصيدة « العقد الطويل » و « القصيدة السوداء »، وان كانت صاحبتها جنة ماشية لا معلقة ، هما في نظري خير من قصيدة الحبيب الأول التي تصلـح اكثر منها للانشاد والغناء .

اما في قصيدة « الاشرفية » ، فلأجل كلمة « اختها » التي ارادها امين قافية رأيته يحط من قدر الجمال حين فضّل نكهة العنب عليه فقال :

ذقت الثمار ونكهـة ان لم تكن هي نكهة العنب الشهي فأختها

وبعد ، فمن يدري ؟ فلعل امين نحـله عنّاب ، او انه يغمز ابن الفارض من بعيد ..

واذا بلغنا « بئر السامرية » وضعنا عصيّ الحاضر المتخيّم كما قـــال زهير . ان الآبار واحات ، ولعل سامرية امين احدى واحات ديوانـــه ، بل واحة الشعر الحديث . ومع ذلك لا بد من قول شيء لتعود حليمة الى عادتها القديمة . استهل امين هذه القصيدة بقوله :

شرب المسيح فما لها لا تشرب والبئر سقسقة ومـــاء طيب

أتتعجب يا اخي كيف لم تشرب ؟ يظهر ان بنت الحلال لم تكن عطشانة .. الماء ليس خمراً ولا عرقاً ليتعاطياه على خرزة تلك البئر . اما قدم لهـــا المسيح ماء لا يعطش من يشرب منه ؟ يقول المثل عندنا : الماء لا يمر على عطشان ، وصاحبتنا السامرية جرتها على كتفها ... فلو كانت عطشانة لشربت .. امـــا البئر فيظهر انك لم ترها . انها عميقة جداً ، لا « سقسقة » فيها . عندمـــا

اراد الكاهن القيّم على ذلك المكان ان يرينا عمق بئر يعقوب ، أضاء شموعاً وأسقطها الى جمام الماء .

وبعد ،فلماذا استحليت ، يا امين ، كلمة سقسقة ؟ العهد بك لغوي من الطراز العالي . كيف لم تشك بفصاحتها حين احللتها المحل الارفع ، اي مطلع قصيدتك ؟ رأيتك تقول في تمحل العذر لكلمة « شلال » : ولا حرج في ان يقال شلّ السير او النهر ماءه فهو شلال ، وان لم يرد في متن اللغة . فان العرب تقول : شلت العين دمعها — ارسلته — والعربية كما لا يخفى يقع فيها النقل لأدنى ملابسة .

طيب . فماذا تقول في سقسقة ؟ فاذا كنت تعني سقسقة نهر الباروك وغيره ، كما تقول العامة ، فبئر ابينا يعقوب ، كما قلت لك ، ليس بنبع خرار ولا جدول ثرثار . واذا كنت تعني غير ذلك فيا ليت شعري ما هو ؟ ... فهذا الحرف سقّ ، وسفسق ، وسقسق لا يعني ، أجلك الله ، إلا ذرق الطير ، ولذلك قالت العرب : هذا كلام يُذرق عليه .

وهنا اسمح لي ان انتقل الى لفظة ثانية من هذه البضاعة ، وهي قولك :

انا في رحاب السامرية واقف ظمآن باسم الناصري أتبتب

فتبّ الرجل معناها شاخ . ولولا قلت : اطبطب كان لنا مخرج منها ومعتصر ، كما قال الاخطل الكبير . فمعنى طبطب اليعقوب صوّت . ولعلك بهذا تكون قد دنوت من العوام اكثر ، وهم فصحاء غالباً .

عفوك اذا ذكرت هاتين الهفوتين فقط فانت قلت في هذه القصيدة :

خلع اخضرارك آيتين على فمي فتصفحي الانجيل هل هو مخصب
استغفر الانجيل ان قصيدتي عربية كالشمس وهو معرب

ان شمسك يا امين فيها كلف كثير ، أبعد الله عنا نهاية العالم ... وهذا الابتهار يدل على ما هو اكبر من الغرور . أتجر سلاحك يا صاحبي على الشاعر

المفرد ؟ على المسيح وانجيـــله ؟ .. لقد ازعجتم الانجيل والتوراة باستمداد كم مواضيعكم منها . وهذه موضة قديمة . ترى هل اجدبت الحياة ؟

ويقول امين في وصف السامرية : النبت يطلع حيث تنقل خطوها .

لعل هذه الفكرة شكسبيرية ، ولكن الزجال البعلبكي قال في هذا مـــا هو اجمل من قول شكسبير وامين ، قال على وزن « ابو الزلف » :

من فوق عالي التلوج من فوق عالي التلوج

واخضر عشب الجبل هالداستو خدوج

وبعد كل ما قلنا ، تظل سامرية امين قصيدة غراء على مـــا فيها من كلف ، لا يضيرها التعريب الذي ضار الانجيل ... انها عقلية عتيقة ، وربمـا كان امين متأثراً هنا بهاشميته ... لا ادري كيف هذا الزعم . واذا كان في البيان غـــير العربي شَين ، فلماذا جعل امين قصيدة ياناقوس اليونانية لديوانه خرزة عين ؟..

فلنمش . وكما نظم ابو امين ، رحمه الله ، قصيدة ام القميص الزهر ، كذلك نظم امين قصيدة لأم القميص الازرق ، ولكنه قصر في شعره جـــداً جداً عن زجل ابيه .

اظن ان ما سبق من غزل امين يكفينا ، فقصيدة « ام موسى » تنتظرنا ، ولكن قبل ان بلغناها لفتت نظرنا قصيدة « تذكار » فذكرني فيها قول امين :

يا من رآني وأبي مـــرة هذا أخي في جانبي بل أخي

يقول شوقي في أبيه أيضاً :

وتمشيت يـــدي في يـده من رآنا قـال عنـــا أخوين

إن من حق ولي العهد أن يتصرّف بالتركة ، ولكن قصيدة أمين — خلا هذا البيت — خير من قصيدة شوقي التي اسفّ فيها حين أراد أن يتصوّف ، فوقع الحافر على الحافر ...

وفي أثناء مرورنا ، قبل بلوغنـــا قصيدة أم موسى ، نقرأ اخوانيـــات

وخصوصيات يبدع فيها أمين ، وخصوصاً حين يصف الغنــاء ومجالسه وذويه . أما في قصيدة أم موسى فما أراه عمــــل شيئاً بالقياس إلى أبي نواس ، فاسمع كيف يقول :

يا رب خمارة في ظاهر البـــلد أيقظتها ، وجواد الصبح لم يفد
قالت: من الطارق الملهوف قلت لها بل فتية المرح المختـــال والصيد

وكل هذه القصيدة منسوجة على ذاك النــــول الذي تكسر بعد النواسي ، ولكن شوقي قال لأمين في ذلك الفرمان :

أو من حديث ابن هاني يعيـد فيــه ويبـــدي

فصدّق أمين ، كما صدّق شوقي من قبل ، انه بزّ أبا نواس. إن هذه القصيدة مطبوعة على غرار مضى وقته ، وفيها يريد أمين ان يكون له ظرف ابن هاني ، ولكن من أين له ولغيره ذلك ؟

وبعد هذا كله يطلع علينا شيء مما قيل في أمين ومــاذا أجاب أمين : لكل خطاب يا بثين جواب . حكّ لي أحك لك ...

وأخيراً نقول ، ونحن في صدد الغزل ، ليس الغزل في معـــانيه الطريفة ، ولا في لغته اليابسة . الغزل ملاكه عاطفة متقدة يسعرها الحرمان ، ويذكيها التحرق ويعبر عنها بكلام بسّام غير جهم . وهنــــا لا بأس علينا من سرد نكتة توافق المقام :

كان في كسروان شاعر مفلق يحفظ الكثير من شوارد اللغـــة وأوابدها . واذا استعرنا له نعت امرىء القيس لحصانه : قيد الأوابد ، لا نكون بعيدين عن حقيقة حاله . كان هذا الشاعر يحمل كل يوم قصيدة غزليـــة ينشدها للشيخ رشيد الخازن . وكان الشيخ يسمعها له ، وكان كلما انتهى من تلاوة قــال للشيخ : كيف رأيت ؟

فيجيبه الشيخ بتلك البساطة التي عرفت عنه : عال . سلّم بوزك .

وأطال الشاعر زياراته حتى صار يصبّح الشيخ بقصيدة ويمسّيه بأخرى ، ثم يسأله كيف ؟..

وأخيراً قال له الشيخ بلهجته المشهورة : بدّك مـــني الصحيح يمّا ابن عمو ؟ هالمرة الجواب منـّوش عالكيف . سماع يا معـــلم بولس . كل شعرك حكي ما منـُّو نتيجة . بتعرف كيف تغزلت أنا مرّة ؟

فقال الشاعر : سعادة الشيخ أعلم . تفضل .

فقال الشيخ : قلت لواحدة مثل التي أخذت عقلك :

عيونك سود وخدك وردي   في شي والا منمشي ؟

وهكذا انتهى كل شيء ، وصار الحب يحكي عنا ...

إن المتنبي الذي تغزل حتى شبع ، وأبدع في معانيه كثيراً ، لم يعـد أحد يذكر شيئاً ممـــا قاله . وكأنه أدرك ان الغزل الذي تصدر به القصائد بعيد عن الصدق ، فقال :

اذا كان مدح فالنسيب المقدم   أكل فصيح قال شعراً متيّم ؟

لا يا أبا الطيب ، ان عصرنا هذا قد استقل فيـــه الغزل ، ولشعرائنا فيه جولات حسان ، وأمين نخله أبدع فيه وأجاد ، ولكن فصاحة بشاره الخوري ضاحكة وفصاحة أمين عابسة .

إن كل عمل فني هو مخـــاطرة . وآخراً نقول : لولا سخف شوقي وطمع أمين في الولاية ، لظل لهذا الديوان ابّهته ووقـــاره، ولكن الطمع ، كما قالوا ، ضرّ وما نفع .

يوسف غصوب

في قفصه وعوسجته وقارورته

غفا الأدب العربي بعد بديع الزمان إغفاءة خرساء لم يتخللها حلم ، ولولا فارياق الشدياق لم يكن لنا أثر عربي في تلك القطعة من الزمان . ثم كان عصر المقالة والرواية فبرز كتاب طوام الدهر مع آثارهم ، فأفاق ادبنا المريض من غيبوبته . ولاح جبران فكان فجراً بهيّاً لنهار جميل في قصصه ومقالاته . وكان للأدب العربي عهد جديد .

كان للنهضة الحديثة روّاد قبل جبران ، أولهم ذلك الاعمى المفتح القلب فرنسيس فتح الله مرّاش . ثم تنفّس في القاهرة أحمد شوقي فقال : خدعوها بقولهم حسناء . فدارت على السنتنا في ذلك الزمان حتى ضجت جدران مدرسة الحكمة من عقيرة الشيخ رشيد تقي الدين الذي كان يردّدها بصوته العريض .

وارتفع في لبنان صوتان : شبلي الملاط في شعره القصصي ، ونقولا فياض في خطبه التي كان يقدّم لها بشيء من شعره الحديث كقوله في القلب البشري : « حيّر الناس فقالوا عصي » . اضف الى هؤلاء خليل مطران الذي تأثر بالفرنجة ، وعمل الشعر على طرازهم . ولكن كل هؤلاء :

شوقي ومطران وفيـاض وشبلي ، أمسكوا بطرفي الحبل فـلم يخرجوا من صيرة القدماء إلا ليقفوا قدام الباب هنيهة ، ثم عادوا الى ما وراء السياج ، إلا الدكتور فياض فكانت له مؤخراً انتفاضة من باب رجوع الشيخ إلى صباه ...

امّا في النثر فكان الريحاني في طليعـة الروّاد بكتبه وفصوله ، يجمع بين الفلسفة والشعر ، يقدم « بذوراً للمزارعين » ويسأل ربة الوادي ان تداويه وتشفيه ... احدث كتابه « الحالفة الثلاثية » صدى بعيداً اكثر من لاعنيـــه ومريديه . ثم جاء جبران يتمرّد على القديم ، والف مجمعه – الرابطة القلمية – فالتف حوله الشاعر والناثر ، فأفلحت مدرسته في النثر اكثر منهـا في الشعر . تفنّنوا في الاغراض وترفّعوا عن المديح الذي كان يتلهى بـه الشعراء عندنا ، واقتفوا اثر الاندلسيين محررين ادبهم من قيود القافية فنيّروا شعرهم واسدوه ، بخلاف غيرهم ، وان حاكوا على النول القديم . فكان لهم اتباع ومقلدون في الشرق ، فعـافوا نقنقتهم وحاولوا ان يقولوا شعراً .

وكتب جبران في النثر صفحات لا قرابة بينها وبـــين القديم ، واذا صنّفنا الشعر العربي قديمـــه وحديثه كان نثر جبران اول بابة ، فهو ابو المدرسة الشعرية الحديثة التي نسمّيها اليوم رمزية .

فالاتجاه الجديد المستقل استقلالاً ناجزاً في أدبنا أبواه الريحاني وجبران .

أمّا الريحاني فاتجه في صوب جديـــد . صار ابن بطوطة جديد يدرس الاقطار والاقاليم العربية ويصورها في اللغتين الانكليزية والعربية .

أمّا جبران فركب رأسه وطمح الى ابعد ما يطمح اليه الناس ، طمح الى الذي امسى لا شيء عند الريحاني فظل يكتب الناس اجمعين لا لفئة خاصة منهم ، فكان اثره ابعد لأنه خاطب النفس .

أمّا فيلسوفنا الريحاني فمل التدروش في زمن المـــادة فالقى الكوز والكشكول وألوى على العقل يسوطـه بقسوة ليخلق من الشرقي رجلاً غير هـلامي . خاطبه بلغة الحساب متنازلاً لجبران عن نبرات اشعيـا واهتزازات ارميا واحلام دانيال .

ونبت مخائيل نعيمـه على جذع جبران فكان سكرتير العميد . قـال شعراً وكتب في النـثر صفحات باقية — « الجندي المجهول » — حتى اذا انطوت صفحة صفيّه نشر مخـائيل تفاسيره وتعاليقه في زاد المعاد على فلسفة صاحبـه وانزوى اليوم في بسكنتا كتولستوي في آخر العمر ، ولكن صاحبنا نعيمه بكـّر ... وسيأتيك الحديث الخاص بهؤلاء فامهلني رويـداً .

والذي يعنينا الآن هو نهج هذه الفصيلة وتجديدها . إن ملامح القديم ضئيلة فيهـا وليس لها من بضاعتهم الا الألفاظ ، وهذا يتفاوت عندهم ثلاثتهم ، ولكن لهذا الثالوث مؤمنين بلاهوته على ما بين الثلاثة من فرق في اللاهوت والناسوت ... نعى عليهم عبّاد القـديم ضعفاً في التركيب وخروجاً على لسان العرب ، وهذا ما يعنينا نحن حين ننظر إلى التطور في أدبنا .

كانت الحرب الكبرى ، فاتجهت الآداب العالية بعدها اتجاهات عديدة بلغنا آخر مدّها فجرفنا التيّار الذي تلاشت قواه عند غيرنا ، واتسعت دائرة ثقافتنا فنهض الشباب متأثرين بالفواعل الخارجية ، فكانت ألوان ادب جديدة . كانت القصة حلماً سعوا الى تحقيقه ، فبانت بواكير طيبة ، فيها اللون المحلي المرغوب فيه وإن لم تنضج كل النضج . وتلوّن الشعر غير الألوان الاندلسيّة ، فصار لكل شاعر لون خاص اتسم به غـير اللون القديم العام الذي نراه في شعر بشاره الخوري وأضرابه . حاول الشباب

ان يخلقوا افقاً شعرياً جديداً فدانت لشاعريتهم الفاظ موسيقية خلاّبة مرحة ، فأخرجوا الشعر العربي من الحصار الذي ضرب حوله قروناً ، ولكنهم وقفوا عند تخوم معلومة في هذا الفتح ، فعسى ان تنفتح لهم آفاق أخرى جديدة تغمر العقل العربي بالظلال والانوار .

وكانت المشادة عنيفة بين اللبنانيين دعاة التجديد ، والمصريين المفطورين على عبادة القديم ، فهبَّ كبار كتّاب هؤلاء يصقلون ما صدىء من لسان العرب واخرجوه فيا كتبوا كأنه الجديد بعينه ، ولما خمدت ثورتنا جنح أصحابنا الى الفرعونية ...

أمّا المدرسة الشعرية اللبنانية فتوغل أثرها في مصر والشام والأقطار كلها فبانت سيماؤها في النشء الجديد ولم يسلم من الايمان بها غير شعراء تجاوزوا عهد الشباب . فكانت هذه الموجة الشعرية التي تفيض بها صحف مصر ومجلاتها ، مشت اليهم من شاطئنا الازرق وطارت من جبالنا الى تلك السهول والغوط فأحيت ما هناك من ارض موات ، ومن احيا ارضاً مواتاً فهي له كما قالت جارية الرشيد لضرتها ... وهذا يبشر بمستقبل باهر للشعر ان اعتصم ذووه بالابداع .

تجاوز الشعراء والنقاد الحد في تحديد الشعر فاتخمت الناس بنظرياتهم. والظاهر ان الشعر ككل ما لا يرى لا يحدد تحديداً يحصره تحت الكم والكيف ، بيد ان الابداع اول شروطه .

والشعر شعران : شعر يولده ويركبه العقل ، وشعر مركب في النفس . والذي يبدو من آراء النقّاد العرب ان العقل يهمهم اولاً فحاموا في شعرهم حول المعاني حتى تداولوها جميعاً فأخلقت تلك الثياب ولم تجدد . يحب العرب في شعرهم الجهود العقلية فكلما اكثر شاعرهم منها كان متفوقاً ... ومن هنا يجيء تقديمهم المعري مع انه لا يبالي بشيء من الفن . اما الشاعر

فهو من اتبع غريزة الجمال اكثر من العقل ليتغلغل في نفس الكون الخفية كما يقول رنان .

ومن جهة ثانية نراهم يضعون الجمال بعد الحقيقة في الفن فقالوا : أعذب الشعر اكذبه . فكان للشعر عندهم كفتان : المعنى والتركيب . ان لغة العرب لغة شعرية تمكن الشاعر المطبوع من اخراج الاصوات التي يريدها اذا ادرك اسرار ابجديتها . ولئن اعار الاجانب حروفهم الصوتية أهمية في نظمهم الشعر فلكل حرف عربي مثل هذه الاهمية لو تنبه اليها شعراؤنا ولم يصبّوا قوامهم على الأبحر ليملأوها بالألفاظ كيفما اتفقت .

إن جوهر الشعر العربي القديم لا يتعدّى المحسوسات ، على حين أن ما يرى هو رمز ، عند الشعراء ، الى ما لا يرى . فالحدود التي تفصل الدنيا المادية عن الدنيا المعنوية ليست عندهم ، فأعينهم تدرك العلاقات البعيدة التي تربط الاشياء ببعضها وتولجنا في اعماق جمالها الجذّاب . فالكلام يتجسد متى نفخت فيه الروح الملهمة الخالقة حياة . والتجسّد الشعري هو الشعر كله . وهذا ما يحاول ان يخلقه شعراء اليوم في أدبنا العربي ، فالشاعر هو من يرى في الأشياء أشياء غيرها .

نحا شعراء اليوم نحو شعراء العالم حتى في تسمية دواوينهم مثل : القفص المهجور ، والعوسجة الملتهبة ، وأرجوحة القمر ، وأفاعي الفردوس ، والروافد . الخ .

نبدأ بيوسف غصوب لأن نوبته جاءت ، فديوانه أهدي الينا منذ اربع سنوات . لقد طال انتظاره عند الحوض كما طالت محاولتي درسه على سراجين : « اللاوعي » عن يميني ، و « البناء » عن شمالي ، ولكنني لم ابصر شيئاً فأطفأتها ورجعت الى قنديلي المعهود ...

ليوسف غصوب ، كما لكل شاعر ، مقاييس لم يسعدني فهمي على

إدراكهـــا ، ولكنّني فهمت ان الرجل يعلم ما يجب ان يتم في المنظوم ليكون شعراً طيباً ، وان لم تسعده قريحته على الذي يريد ، وهذا ما لا يستطيع يوسف غصوب ان يعمله ولو علمه . ان في شخصية يوسف غصوب نفس شاعر مخضلة لم تتألب حولها الظواهر الجوية لتتكون لآلىء بديعة في غصون الشعر ، وقـد رأيت صاحب القفص المهجور ، في كتابه « اخلاق ومشاهد » ، أشعر منه في دوانيه ، على ما فيها من شعر نفيس :

هذي اناشيد موقعـــة انغامها الحرّى على كبدي
لا حكمة فيها ولا عظة بل صورتي صورتها بيدي
حالات نفس في مسرتهـا او في كآبتهـا ولم ازد

بهذه الابيات قدّم غصوب ديوانه الجيّد ، وهي حد جامع مانع للشعر الرومنطيكي ، قال زعيمهم هيغو :

اذا حدّثتك عن نفسي حدّثتك عن نفسك . غير أن يوسف غصوب أمهر في تصوير الناس منه في تصوير نفسه – وما أصعب على الإنسان معرفة نفسه !

اؤيد زعمي بحكاية : دعونا عام ١٩٢٦ الاستاذ يوسف السودا للخطابة في جامعتنا الوطنيـة فاجاد وافاد ، وقوطع بالتصفيق الحاد ... وازدهى الاستاذ قبل ان حلّت به نكبة لم تكن في الانتظار . خطب أحـد صغار التلاميذ – في ذلك الوقت – قطعة من كتاب « أخلاق ومشاهد » عنوانها « المسيو لبنان » ، فجاءت الصورة كأنها الاستاذ بعينه ، فاحمرّ وجه السودا حتى كاد يزرقّ ، ثم هدأت الزوبعة وشاعت في وجهـه ابتسامة عليلة ...

أمّا القفص المهجور فوحدة كاملة ، والناس تعجبهم الوحدة في هـذه الأيّام . وكان هذا الديوان مهيأ « لمرفأ السلام » ، القصيدة التي نعدهـا ترنيمة الفوز والحياة للشاعر الحائر . ومـا استراح شاعر القفص المهجور

حتى حمي من جديد في العوسجة الملتهبة واتجه اتجاهاً جديداً حتى في التعبير ، فواكبته ربة الشعر فجنى من العوسج تيناً .

رأيته يتعرّض لعلم النفس ويجيد التطبيق ، مصوراً الاختلاجات الخفية بلغة قليلة الرواسم ، ولكنها غير غنيّة بالإبداع الفنّي لولا التشبيه الذي هو غايته القصوى ، وقد برع فيه واجاد ، وان استعار للاحلام غارباً في مطلع ديوانه .

امّا الجو الشعري الذي توحيه مجموعة شاعرنا فجو أغبر ، ففي قلبه صوفية تذيبه ، وشعاره كشعار اولئك المساكين : لذّاتنا في الشوق لا في الوصال . ولعلّ الكبت يؤدي بهم الى التسامي .

قالت مدام دي ستال : كل ما فعله الانسان مدين به لعاطفته الأليمة نحو ما قدر له وكتب . واذا كانت « الأنا » هي كل شيء في الشعر ، كما يزعم الكثيرون من نقاد الغرب ، كان غصوب شاعراً كبيراً جداً لان كل ديوانه « انا » وهي تطفو على شعره ولكنها لا تخرج من ذات عميقة بل قريبة الغور ذات وتر واحد .

ان يوسف غصوب واقف على مفرق الطرق يتأبى الشعر المبتذل الرخيص ولا يتأتى له الطريف الّا بكد وعناء ، فهو ليس من شعرائنا الرمزيين الذين يجسدون كائنات هوائية ، ولكنه يحس بروعتها ويدعها وشأنها . فالشعراء الرمزيون يسيحون في جو عجيب الاضطراب ولا يذهبون توّاً الى الاشياء ، فهم لا يعاينونها ولا يلمسونها بحركاتنا ذاتها . عيون حائرة وأيد تتلمس ... فتغرق « الصيغ » التي يعبرون بها في ضباب كثيف ، اما يوسف فواضح جلي يسمّي الاشياء باسمائها . انه واقعي لأن في نفسه مثلاً اعلى كما يقول برغسون . ليس للارض قيمة في نظره فهو متجه صوب السماء ... ولهذا غلبت رائحة المبخرة « ونافذة » الشهر المريمي على شعره .

القفص المهجور

يوسف غصوب أديب موّلتـه المطالعة ، وشاعر أثرى من السفرات البعيدة في آداب الامم ، يكاد يكون أول شاعر ألّف ديواناً في غرض واحد . إن ضربه على وتر واحد لا يخلو من جمال ، ففيه ايقـاع بطل المقامة المكفوفية . أرانا الشعراء ، في أولى قصائد ديوانه ، أرواحاً تعبر بحـار النور ، ومن أعاجيب هذه البحار « ذرى بعدها ذرى » يرقاها الشاعر ترقي الصوفيين في مقاماتهم واحوالهم ، فيمـلأ صدره عبير الخلد و « يسمع تسبيح الملائك في العـلى » و « تلثمه الارواح في خطراتها » تقبيل الاحباب بعـد الغياب ...

إن أحبابنا الشعراء مفتونون بالشيطان والمـلاك ، حفيدَي زرواستر ، وهم يرون ، وحدهم ، هذه الأرواح السوداء والبيضاء ساعـة يحبون ، حتى صارت التوابـع والزوابـع من مكملات حياة الشعراء ، والا فلا يكون الشاعر شاعراً . ثم يمسي الشعراء في نظر الاستاذ غصوب « فاطمين » بل كوناً كاملاً فيه الطـور وفيه سيناء وفيه حراء :

ومـ ات بنـا روح الاله فقلبنا   كمهبط وحي فاض بالنور والهدى

وأخيراً يطهر الشعراء من كل ريبة ، ولا يبقى الا أن تشقّ قلوبهم وتغسل وتزال منها النطفة السوداء ... ولا يعـدو الشاعر شيء من الحسن في

الورى فيحدثنا يوسف في « قصته » الجديدة عن هذه المواهب :

غنى دونه جـاه الملوك وعرشهم وكل نفيس من ثراء ومن ثرى

وفي الثرى والثراء خيرات لا تحصى دونها كنوز فرعون وإن لم تصلح منجماً للشعر .. ويجيء دور رب يوسف الذي ولّاه خزائن مصر فنطق :

وقال كثير ما وهبتم وإنمـا تذوقون من جراء نعمائه الشقا

وهذا مصدّق لقول القائلين : ان الدنيا تعطي وتأخـــذ ، كأم سيبويه ، فهي لا تهب بلا مقابل . ويغدق يوسفنا عطاياه على الشعراء حتى يضع اخـــيراً الجام في عدل بنيامين :

فتجـلى لهم قبل الممات غوامض يحار بها من لا يرى فوق ما يرى

كما أصاب اخاهم اميـــة ابن ابي الصلت الذي آمن شعره وكفر قلبه . اقرأ حـكايته في روايات الاغاني لتعلم كيف شق الطائر قلب أميـــة ، ثم رده في موضعه وكيف انذره الغراب بالموت ومات لساعتـــه . ومتى عرفت هذا ادركت ان يوسف مقتصد في وصف نعم الله التي يسبغها عـــلى اخوته الشعراء .

ويرافق غصوب الشعراء الى ما بعد اللحد فيصيّرهم بهائيين « ينعدمون في ذات الوحدانية » ولكنه يحوّلهم الى نار ، والحمد لله على انها تضيء ولا تحرق فيقول عن نفسهم :

تقرب حتى تستحيـل شرارة تضيء مع الأنوار في منبع السّنا

وهل نسي ان في الشعراء من لا يحلو له ان يستحيل ناراً ، بـــل يود ان يظل آدمياً بلحمه ودمـــه ، ولو عاش في آخر جنـــة المعرّي مع الحطيئة ...

أولئك هم الشعراء في قصيدة غصوب التي يذكرني اصطدامي بهـا بالمقصورة الدريدية ، وتائية ابن الفارض ، فوقع قوافيهـا كقطة القـلم ، وأسوأ القوافي

وقعاً في نفسي المقصورة منها ، وشرّ البحور الرجز .

أمـا الجوّ الشعري الذي حمنا فيه مع الشاعر المحلّق فحسبك تحديداً له ما ذكرناه لك من عوالم ، فيها ما يرى وما لا يرى ... ان بودلير ، معشوق شعراء شبابنـا اليوم ، يرشقنـا بأول زهرة مـن زهور شرّه – بعد المقدمة – عنوانها « بركة » فيرينـا كيف خُلق الشاعر برسوم خاص صدر من ديوان ذي القدرة الجبـار . جدفت امه من حنقها وتطلعت الى فوق بيد متشنّجة كأنها اعتادت ضرب البوكس . أسفت كيف تغذّي هـذا المزأة – اي الشاعر – ولعنت كأيوب ليـل الملذات الزائلة الذي القى في مستودعها هـذه « الكفّارة » . وقالت وقالت غير فاهمة ما يعده لها القدر الدائم .

ويعيش ابنها هذا في رعاية ملاك – وسيان في الايمان بالملائكة الشعراء الملعونون كبودلير ، والشعراء الطوباويون كيوسف غصوب – فيأكل شاعر بودلير طعام آلهـة الاولمب ، كهومير ، ويشرب الكوثر الفضي ، ويلعب مع الرياح ، ويحدث الغمام ، وينتشي مترنماً بألحان درب الصليب .. ويبكي الملاك – حفيد زرواستر – الذي يتبعه اذ يراه مرحاً كعصفور الغاب .

ان شاعر بودلير متزوج ، وشاعر غصوب عزب ، فتقول زوجـه اشياء من وحي دليـلة ... واخيراً يرفع الشاعر يديه نحو السماء ، كالقديس انطونيوس إذ ظهرت له الشياطين في أشكال شتى ، ويهتف :

تباركت يا ربي ، يا من تعطينا الألم دواء إلهيا لرجاستنا ، وكأحسن وأطهر إكسير يهيىء الأقوياء لاقتبـال الملذات المقدسة . أنا أعلم انك تعد مكانـاً للشاعر في مصف الطوباويين وبين الجوقـات المقدسة ، وانـك تدعوهم الى عيد العرش الأزلي الخ . وأعلم ان الألم هو السمو الوحيد الذي لا

تعجم عوده الأرض والجحيم وان ضفر إكليلي الالهي يقتضي استهلاك جميع الأزمنة والكائنات ...

ثم يبحث شاعر بودلير عن جميع اللآلىء الضائعة فيراها كلها لا تكفي التاج الواجب صنعه « لجلالته » من النور الصافي المقتبس من موقد الأشعة الأولى المقدس .

تتساءل عما دعاني الى هذا . انني اتوب توبة داودية فلا اعود الى هـــذا فيما بعد حين اعرض للشعراء الآخرين ، ولكن لكل شاعر حديثـــاً عن الشعر والشعراء فكأنه يضع لنا هـــذه الاقيسة في مطلع ديوانه ليسد علينا الباب ... آفـــة الشعراء في كل ملـّة وزمان انهم يرون انفسهم من طينة عليا ، مزاجها من ماء نهر الكوثر وجابلها غير افدع كما كانت حاله بعد « الجبل» الكبير الذي جبلنا منه .

لم يتفق بودلير وغصوب في وضع سفر تكوين الشاعر ولكنهما تواضعـا على تأليهه وجعله من عالم غير عالمنا . اما انا فالشاعر في نظري « خالق » ولكنـه بشري مثلنا ، وهذه آيته الكبرى التي أؤمن بها . لا وحي هناك ولا ضرائب سخنة ، ولكنـّه محرّك يستطيع التحليق في اجواء بعيـــدة ، والشعر كلام فلا وحي ولا إلهام . ولكن الكلمة في الشعر الغالي تحمل فوق طاقتها ، كما رأينا في قصيدة بودلير .

اما شعار الشعر الرخيص فهو : مـــا كلـّف الله نفساً إلاّ وسعها . في الشعر الغالي لا تدخر الكلمة شيئاً من جهدها لتدخـــل ملكوت الفن ، وهي الآلة الـكاشفة لاسرار المياه والمعادن المحتجبة في بطن الارض ... وساعة يوقفنـــا الشاعر عند فتح نقدره نحن ونقـــدر نتائجه يكون شاعراً فقط لا عبقرياً . فالشعر خلق لا صلاة . ومن يعتقد غير هذا فليصلّ ... ولكنه في لاهوتي من الهالكين ودعوته لا تستجاب ... فلنخلق .

« القفص المهجور » هو النشيد الثاني من ديوان القفص المهجور . اننا نحب حتى الحزن هذا الغناء اليوسفي الذي نجّى صاحبه من الجب ليسير مع القافلة في صحراء التيه . ان قصيدة القفص المهجور موحشة ، وقد يكون عنوانها سبب هذه الوحشة ، ويزيد الطين بلة ورود الموت والقبر في مطلعها . امـا « وحشة القلب » على ما اولت لفظة « حنظلت » مطلعها من مرارة وخشونة ، ففيهـــا شعر طلق :

لا تقـــل باسم فربّ ابتسام كسراج يضيء في كوخ بؤس
طفـح القلب بالهوى وهواه ضائع كالشموع في نور شمس
او كمعين تفجر الماء منهـــا فوق جدباء لم تحـــل بغرس

إن هذه الارض الجلحاء تفقأ حصرماً في عين الهواء القالع فليمر فيها بترتيب او بغير ترتيب .

برأ الله انفس الناس أزواجاً تداعى فكل نفس لنفس

المعنى متداول ، ولكن ما الحيلة والشاعر يريد ان يقول هـذا ويفتش عن شقيقة نفسه ، فليته يصون شعره في قابل عن هذه الاذيال كقوله : « تداعى » ، ثم : « فكل نفس لنفس » . قد بلغنا الغاية عند « ازواجاً » فما ضره لو كفانا القتال ونحن مؤمنون بشاعريته ؟ ! ... واذا تنطسنا قليلاً قلنا ليته قال : برأ الله انفس الخلق ، فالناس أضيق من ان تسع الجنسين ، والشاعر يترجم هنا قول التوراة ذكراً وانثى خلقهما ..

ويدخل الشاعر قصر الحب ، ويتكىء في قاعة « الانتظار » حتى يطول عليه ويؤلمه فيقول شعراً طريفاً :

قربت ساعـــة اللقاء وغاضت في دجى الليـــل كبرياء النهار
ارقب الحب خاشعاً كنـــبيّ يرقب الوحي في ظلال الوقار

ليته استعار لهذا النبي مسوحاً بدلاً من ظلال فتجد كبرياء النهـــار شقيقة

نفسها كما وجد الشاعر بعد هذا الانتظار شقيقة نفسه . وتنبري التشابيه عند الشاعر بروعة شعرية عذبة تتجلى فيها امامي لاول مرة شاعرية يوسف غصوب الخصبة في قفصه المهجور . لا اواخذه الا على « ساري » فمن حقها النصب ، وليس من حقه ان يقف عليها . ولو خلت هذه القصيدة من بعض هنات هينات ، لتمت كنعمى بني امية عند أخطلهم . وهي عندي مع ذلك من خير الشعر العربي . ويوسف الذي لا يصرّع قلما يأبه للمطلع ، ولكن قصيدة « الانتظار » جيدة الاستهلال رائعة الختام ، وليس أجمل من : آية اليأس في جبين النهار ...

وفي « نجوى » صورة طريفة أيضاً حيث يقول للتي ناجاها متهدّداً بالاستشهاد :

هلّا عطفت عليه فإن في مقلتيه
تضرعاً وملامه

إن هذا التضرّع والملامة الهازئة لا يفارقان عيني شاعرنا . ويقبّل يوسف قبلة ، أخالها الأولى من نوعها ، فيحسّ انها تركت في موضعها طيباً يعطّر أيام الشاعر وأحلامه ، ويعدّها زاداً – غير « زاد المعاد » – يشدّد من ضعفه . وبينا هو في هذه الفورة ، في عز حبه إذا به يحدثنا عن الامل ويصفعنا بهذه الحكمة المريضة : وأثبت ما بنى الإنسان قبر ... قبر ... يا يوسف . استعجلت .

ما لهؤلاء الشعراء لا يفكّون ريقهم بما يسند قلبهم حتى يستجيروا بالقبور ، غفر الله ذنوبك يا مدام دي نواي ...

وعلى ذكر القبر أقول ان أروع ما أوحاه القبر للمتقدمين والمتأخرين قول الشاعر أبو شبكة في رثاء صديقه فليكس فارس :

تراب القبر أهنأ من فراش على جنبيه ثعبان وحوت

أرأيت ؟ هنا ضالتنا المنشودة ، هنا حمل الكلام جبالاً وما ناء تحتها ولا اشفق منها ... وفي قصيدة الخريف الجيّدة لا بد من لفت الشاعر الى بيت متداع ، وقع فيه يوسف بفخ الوزن فاستغاث « بتلكما » حيث قال :

يا صاحبيّ إذا قضيت فكفنّنا   جسدي النحيل بتلكما الورقات

فآه من صاحبيّ العفنة ، وألف آه من تلكما ، فهي لا تقع في حوز شاعر يرتضيها مادة لشعره ، ولا خوف من انقراض نسل الكلام لنفعل كبنات لوط ...

أما « ذكرى » يوسف فما نفعتني شيئاً ، وما رأيت فيها إلّا تشابيه مألوفة تدل على ان للشاعر عيناً ثاقبة تحسن النقل ، وقلّما ترينا شيئاً « فوق ما يرى » ، وكذلك « رؤياه » فما وُفّقت إلى تأويلها وقد يكون علمها عند ابن سيرين وفرويد ...

أما « جنّة الأحلام » فهي حديقة شعر وحسبك منها هذا الضياء الذي جمّده يوسف في هياكل الاجسام ، وكأنه وجد حجر الفلسفة المنشود . قال يعنف فؤاده الأعمى :

يا فؤادي ألا ترى غانيات   بارزات من مكمن الآجام ؟

مع ان ولوج الآجام والكون فيها يصعب على سيدات :

عاريات كأنهن ضياء   جامد في هياكل الأجسام
يتثنّين كالظلال خفافاً   ما يضرن الاعشاب بالاقدام

قلنا انها حديقة شعر ، والحدائق لا تخلو من الطفيليات ، فلا بدّ من تنقيتها ، فما الذي اضطرّ الشاعر الى القول : « كلما مرّت النواسم فيه » ؟. في مكنته ان يقول « النسمات » فما دعاه الى هذا التعسّف ؟ اللهم ان لم يكن يحاول التجديد عن طريق الجموع وبعض الصيغ كأصحابنا المصريين ،

حرسهم الله .

ويرى يوسف العذارى يستحممن فيدعو قلبه الى الاقامة عندهنّ ، كما تمنّى بطرس على سيّده في طور طابور. أدهش يوسف المشهد فلم يكن فاتكاً كإمرىء القيس ، ودعا قلبه فما لبّاه ، بل سار به الى مرفإ السلام .

« مرفأ السّلام » خاتمة القفص المهجور . يسأل فيه يوسف الحبيبة التي وجدها ، بعد ان يعترف لله الآب الضابط الكل ، ولها بجميع خطاياه لتحلّه منها ، وتطهّره ... فيصوّر لنا ما قطع من الاودية حتى تحسبه تأبط شرّاً . القصيدة صورة حاله إذ كان كالابن الشاطر . ولو فصّل فيها ما أطعم الاصدقاء وما سقاهم ، لقلت انها اخت قصيدة الواساتي التي وصف فيها ما جرى عليه في الدعوة التي عملها في قرية « حرايا » من اعمال دمشق . قال ذاك في اصحابه الذين خربوا بيته ولعنوا اباه :

رحلوا من بيوتهم ليلة المرفع	من اجـل أكلة مجّان
قصدت هذه الطوائف حرايا	لهتكي وذلّتي وامتحاني
قلت ما شأنكم ، فقالوا اغثنا	مـا طعمنا الطعام منذ ثماني
افقروني وغادروني بلا دار	ولا ضيعة ولا بستان

ومما أكلوا :

اكلوا لي من الجـداء ثلاثين	قريصاً بالخل والزعفران
اكلوا لي كشكية قرّحت قلبي	وهاجت لفقدهـا اشجاني
اكلوا لي سبعين حوتاً من النهر	طرياً من اعظم الحيتان
ومن البيض والمخلل ما تعجز	عن جمعه قرى حوران
فتتوا لي من السفرجل والتفاح	والرازقيّ والرمان
والرياحين مـا رهنت عليه	جبتي عند احمد الفاكهاني
ذبحوا لي يا معشر النـاس	ثمانين من معيز وضان

اكلوا اكلوا ...

ثم قالوا هــــلم شيئاً فناديت غلامي قم ويك فاخبأ حصاني

القصيدة فكهة جداً ، وهي مؤلفة من ١٩٦ بيتاً تجدهـــا في اليتيمة الاولى ص ١٦٦ طبعة دمشق .

ثم لاذ يوسف بظلّ هذه الصديقة فغفرت له جميع ذنوبه وخطاياه، ونضحته بالزوفى فابيضّ أكثر من الثلج — حسب قوله :

وبات قــــلبي انقى من مائه في الصفاء

يريد ماء هذا المرفإ العظيم الذي القى فيه مرساته وربط مركبه :

تضيء عيناك فيـــه كالانجـــم الزهراء
فطهّريـــه بحب صاف وصدق وفـــاء

ويهتف ختاماً :

يا ملجأي يا مــلاذي يا بلسمي ورجائي

قلت : ولعلّ اسمها مريم ، فتتضرّع لأجلـــه ، وتتشفّع فيه ، وتتحنّن على موتاه . آمين !

العوسجة الملتهبة

القى الشاعر غصوب انجره – ياطره – في ذلك الثغر المطمئن الهادىء ، الصافية مياهه كعين الديك . وتطهّر صاحبنا فصار قلبه كأنه البلّوري في الصفاء . وما قلنا استراح المركب في الميناء ... حتى رفع المرساة واقلع « الفلك » العجيب .

التهبت العوسجة ونار العوسج حامية . وقديماً اشتعلت العلّيقى وكلّم موسى ربّه منها واختاره كليماً . أمـــا يوسفنا فمكلوم لا كليم . انفجرت عاطفته من جديـــد ، واستيقظ قلبه بعد غفوة غير كاملة ، وكذلك قلوب الشعراء والنساء لا تخمد فيها ثورة حتى تشبّ أُخرى في احدى زواياهـا فيتّقد البيت . لطا صاحب القفص المهجور في المرفإ عند هبوب العاصفة ، ثم حلّ المراسي ، وسار فلكه ، وباسم الحب مجراه ، وإذا به يقول لنا :

أعددت فلكاً للهوى عجبا بالطيب والانوار منتقبـا
علقت في أمراسه سحبـا حمراء تحسب موجها لهبـا

وصفات هذا الفلك أشكال وألوان ، فهو كسفينة جبران المرقّشة . ولكن قصيدة غصوب غير جوفاء كتلك ، وإن خاب ظننا في توقع نهاية أروع لهـــذا الفلك النوحي الجديـــد الذي « تجاوز الآفاق والقطبا » ولم يستوِ لا على الجودي ، ولا على أراراط ...

إن الشاعر غصوب في عوسجته الملتهبة أغزر خيالاً وأرصن تعبيراً منه في القفص المهجور . فهو فيها يخوض وسط المعمعة ... رأيتــه يتطور تطوراً محسوساً جــداً كتطوّر الفراشة . ففي « شبهــات رؤى » شعر طيّب ، وإن لم يخلُ من الرواسم كقوله :

والزهر المنثور من حولنا رصعه بالدرّ طـل الحياء

ولا من الركاكة كقوله : « وكل شيء اضاء » :

ونظرة باسمة في الضحى تفوق نوراً كل شيء اضاء

وفي « الجنازة الحمراء » تطل علينا أشباح بودليرية راعبة كأننا نرى « جيفته » . ويوسف يحذو حذوه في « اللازمة » فيعيد بيتاً او بيتين أحياناً في هذه ، ثم في قصيدة « المساء » التي تليها .

وفي « عودة الربيع » تراجعنا ذكرى « خمصانـــة » المتنبي ، رحم الله أبا الطيب فقد كان ذلك الرجل من ذوي الذوق السليم . كانوا في زمانه يحبّون كثبان الرمل ، وكلّما سمنت الحبيبة وغزر لحمهـــا وتهدّل ، عظم حسنها كأنما تؤخذ الى المسلخ ... اما المتنبي فتناهى في الرقة حتى قال : كل خمصانة أرق من الخمر ...

أما « النغمة العذراء » فرديئة الموسيقى ، لا آهات فيها ولا رنـّات . كل ما فيها تعاظل وابتذال ، التّهم في الفن الشعري . وفي « نور الفؤاد » يتجلى لنا مـــا يشبه رؤى سيلي بريدوم . رأى يوسف نفسه مسجّى في نعش — سلامة قلبه من هذه النومة — !

تضيء من حوله شموع التقى معقودة اعناقهـا بالحداد

اي لابسة « كرافات سوداء » ، والحجرة يغالب النور عليها السواد . وهناك دمع يبلّ جسده الذي امتدّ فيه الفساد . والخلاصة كان مأتمه حامي الوطيس عندنا ، والعرس في السبع الطباق الشداد كما يقول الشاعر العربي .

ويقول يوسف حكمة بعد الموت فيعير الناس اطماعهم ويتمنى ان لا يوقظ من هذا الحلم :

لا توقظوني ان اكن حالماً   فقد اضاء الموت «نور الفؤاد »

امّا نحن فنهنئه بالرجعة قائلين : « صح النوم » . إن هذه القصائد كلها جيدة الأول ، أمّا ختامها فخال من « الزخم » ، وهذا مـا انماه عليه . فبدلاً من أن تلمّ قصيدته شملها كقصائد هيغو وأبي نواس إذا بها تتفلطح .

لم نذكر سيلي بريدوم عبثاً فمصوب من شعراء اليوم كسيلي بريدوم من شعراء عصره ، فهو لم يطفر طفرتهم اللفظيّة ، وبينـه وبين الشاعر الغربي قرابة دموية في التصوّرات والخيال والرؤى . امّا توارد الخواطر بينه وبين ألفرد دي ميسه فقد سقطت عني مؤونة بحثه ، اقرأ « الباب المرصود » .

ويسمع يوسف في « نداء » صوتاً يسترعي انتباهه فيحدّثنا قائلاً :

كل يوم تصيخ نفسي لصوت   هابط من عوالم خافيات
فهي تهفو الى المنادي وترقى   كبخور اليـه او كصلاة

وتخطر بباله الفلسفة فيتبعها بقوله :

أترى هذه النفوس الحيارى   في اغتراب عن عدنها مبعدات
فالى عدنها تذوب اشتياقاً   وحنينـاً الى قديم الحياة

وكما قـال المسيح لبطرس : أنت رأيتني وآمنت فطوبى لمن لا يراني ويؤمن . طوبى لك يا يوسف فإيمانك اكثر من حبة خردل ...

وأحبّ الاستاذ الفلك والسفن والمرافىء كثيراً فشبّه نفسه بمركب ، حتى أرانا في قصيدة « نداء » دنيا بأسرها . فيها افكار مختلفة ، وفيهـا أوزان شتى ، وفيها أساليب متنوعة فكأن هـذا المركب سفينة نوح التي وسعت الأجناس كلها ... وفيها شعر ايضاً ، فشاعرية يوسف في تقدم مستمر

كما تشهد بذلك قصائده الطيبة التي أذاعها بعد هذا الديوان النفيس .

ويستمر الشاعر في العلو صعداً حتى يبلغ « سدرة المنتهى » فيفتش تلك الآفاق فيجد العلم تيهاً والمجد لفظاً ، وفيما هو يغلي في هذه الرحلة العنيفة :

وإذ بروض ماؤه من مدام ودوحه مسحورة كلما
تمايلت غنت نشيد الغرام

فيدعو نفسه للإستراحة في ظل « سدرة المنتهى » فتقر زماناً ، ثم تستفيق مذعورة وقد راجعها داؤها ، والنكسة ويل وبلاء :

حنت الى عهدالليالي العذاب في صحبة الاحلام تسعى الى
اوطانها العليا وراء السحاب

يا ليت شعري ، أين تكون سدرة منتهى شاعرنا التي رآها ؟ فالمعلوم أنه ليس فوقها فوق ، وما وصل اليها أحد بعد ، غير بشاره الخوري . وأخيراً يلقي حبل نفسه على غاربها في ذلك الربع الخالي :

فقلت عودي واسرحي والخيال في اربع ما خاب روادها
لذاتها في الشوق لا في الوصال

تلك حياة الأبرار والصدّيقين ، متّعنا الله بها مع يوسفنا العفيف ، ووقانا صرامة اللاهوتيين الذين يقاصون الناس بالهلاك الابدي من أجل خطيئة الفكر ...

ها قد بلغنا « صلاة راهب » . ان تكن القصيدة صلاة فهي من أروع الشعر واطيبه ، يجول فيها شاعرنا والبحتري في حلبة واحدة — شعراً وفناً وتصويراً — يصبّ فيها هذا الراهب النقي سخطه على حواسه الخمس واصغريه ، فيصير المجموع سبعة ، بينا الراهب الاصلي — جرمانوس فرحات — تشكى من أربعة فقط :

اني بليت بأربع لم يخلقوا إلا لشدة بلوتي وعنائي
ابليس والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلهم اعدائي

وكأني براهب غصوب هذا هو بولا أول الحبساء ، فآلامــه كثيرة جداً ، والدنيا كلها متألبة عليه فهو القائل :

رب رحماك ما تريد فإني كدت في وحدتي اصاب بمسّ

قد عوّدتك الحكايات ، فحكاية القديس بولا غريبة عجيبة ، دلّ عليه القديس أنطونيوس : وحش كان نصفــه شكل إنسان ونصفه الآخر شبه فرس . وكان الغراب يأتي القديس بولا كل يوم بنصف رغيف ، ولكنــه جاءه برغيف كامل حين زاره القديس أنطونيوس . وعند موت بولا رأى القديس أنطونيوس نفسه صاعدة إلى السماء ما بين الملائكة والانبياء ... وبولا مات وظل واقفاً على قدميــه ، كما خبّر القديس أنطونيوس الذي دفنه يعاونه على حفر قبره أسدان ، وبعد حفر القبر ركع الأسدان أمام مار أنطونيوس فصلّى على رأسيها قائلاً : إلهي ، يا من بدون عناية حكمته لا يسقط عصفور على الأرض ولا ورقة واحدة ، إمنح هذين الاسدين ما يناسبها (مروج الاخبار ص ٤٢) .

وفي « صلاة راهب » يلتقي يوسف مع دي فيني في قصيدته « موسى »، ولكن راهب غصوب غير جسور كموسى دي فيني فلا يمنّ على الله بشيء ...

وينتقل يوسف إلى « العذارى » فكنّ حقاً مسك الختام ، ففي هذه القصيدة الرائعة يلتفت شاعرنا الواقف على « مصلبّة » الطرقات صوب الشعر الجديد ، فيحلم الروض بالربيع ، وينتشي الفجر ، وتنتعش الروابي ، وترقد الوهاد ، وهلمّ جرّاً . ويسجّل يوسف أخيراً إيمانه البريء في هذا البيت من القصيدة وهو ختام ديوانه فيقول :

تخسف الارض بالخطيئة لولا شافع الطهر في العذارى الصغار

فهو يريد أن يقول : لولا طهر العذارى الصغار لخسفت الارض بسبب الخطيئة ، ولكن قوله جاء عكس ما يريد . ولو تم ما قال لاسترحنا من الخطايا كلها ، وغابت عن وجهنا في قلب الارض ، واسترحنا حتى من الخطيئة الأصلية ... التي جعلت النفس تحن إلى عدن الذي خرجت منه ، كما جاء في شعر غصوب .

انتهت جولتنا في هذا الديوان الخصب الذي نعدّ صاحبه همزة وصل تربط القديم المتحجر بالجديد الطافر ، فهو اول شعراء الشباب الذي فكر بالاستقلال الناجز مع المحافظة على ما تجب المحافظة عليه .

يقول تين : إن الأثر الفني تعمله ثلاثة عوامل : الجنس والمحيط والزمان . وقد نسي التربية الأولى التي عملت في شعر غصوب ما نلمسه لمساً . يعجب الناس لكثرة الشعراء المجيدين في هذا الجيل لأنهم لم يتنبهوا إلى هذه العوامل . ولو أمعنوا الفكر قليلاً في الغناء اللبناني العامي الذي تنام عليه أطفالنا ، وتستيقظ عليه فتياتنا ، لأدركوا سر شاعريتنا . فكل ما في لبنان شعر .

قد فكر العرب في الوراثة فقالوا : امّ عمر ابن ابي ربيعة حميرية ومن هناك اتاه الغزل (أغاني جزء ١ ص ٣٠) واللبناني وارث غير سفيه ، أنمى تلك الثروة التي ورثها ، وزاد عليها من مربح الاسفار فأصبح أدبه الذي ترى وتسمع ، وصار الشعر على كل شفة ولسان ، حتى صرنا نرى شعراء الزجل يقيمون سوق عكاظ حيث يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة .

إن يوسف غصوب هو ابن هذه البيئة الموسيقية يمثلها احسن تمثيل في فكرته وتعبيره . وديوانه أول أنشودة تمثل شاعراً بلحمه ودمه . والشعر كما يفهمه يوسف « بناء » وقد بنى صاحبنا مدماكاً في قصر الشعر فعلى الذرية ان تعمل ما عندها ، فأدب الامة لا يبنيه واحد وحده . وإن كان ذلك فتلك

غضاضة من قـــدر الملّة والشعب وشاهد على العقم . تعجبني لغة يوسف النقية ، فهو على تأثره بالعجم عربي اللسان ، وقد جمع في ديباجته السهولة والقوة ، وإن أتت قوافيه احياناً كأنها « غلق » . والقافية في نظري زاوية لا غلق ، ولكنها بخلاف نمط البناء توضع عند نهاية المدماك ... وهي تخلق القوة في البيت كله .

إن وثبات يوسف قليلة ، والوثبات هي التي تعمل الشاعر الكبير ، فـــاذا خلا منها الشعر يحق لنا ان نقول مع بوفون : شعر مثل النثر الجميـــل . والشاعرية العظيمة تظل دائمة الاشعاع حيث ترى ، فكأنهـــا الحباحب في ليل الفكر . لا بدّ للشاعرية من الوميض كل حين ، وهـــذا ما لمحتـــه عند غصوب في العوسجة التي هي خـير من القفص . كما انني قرأت له شعراً ، بعد الديوان ، كان أعظم وقعـــاً في نفسي من شعره الاول .

والجمال الفني عند شاعرنا عام ، ولكنه غـير باهر ولا فاتن . أعني بالعام جمـــال الغرض والعاطفة والشعور والصيغـة . ولكن ليس في شعره كله قصيدة تدور على الالسنة لتخلد صاحبها ، وإنْ طلبنا ذلك فقد نجده في بعض مقطوعات نشرها في المكشوف ، بعد طبع الديوان . وإذا صحّت نظرية جول ليمتر : ان الشعراء كبـــاراً وصغاراً لا يقرأهم الا الشعراء الآخرون ، بطلت نظريتنا هذه ، وكان ديوان الاستاذ غصوب مقروءاً من الادباء جميعاً ، وسيقرأ دائماً لأنه جميل طريف وصاحبه يقدس نظرية الفن للفن ، كما يبدو لي من عمـــله العنيف في شعره . فأكثر شعره معمول « توصية » أو قـــل اراد الشاعر ان تكون له قصيدة فكانت .

أما فضل غصوب الذي لا ينسى فهو هذا العمل الفني الحر الذي كان خير

أمثولة للشباب حفظوها عن ظهر قلب . أطلق الشعر من قيوده ولم يقـــل قصيدة في موضوع غير شعري يوم كان الشعر يعمل غبّ الطلب . فأين الشعر مثلاً في قصيدة بشاره الخوري الاخيرة « عودوا إلى تلـك القرى » فهـو لو حبّرها مقالة لـكانت أروع .

واذا كان فلان شاعر كذا وفلان شاعر كذا ، فيوسف غصوب شاعر الشعر اولاً .

حياه الله كشّافاً مباركاً ، أو رائداً أعجبته خضرة الدمن .

قارورة الطيب

يا فتّاح ! يا عليم !

قبل كل كلمة أكتبها ، وبعد آخر حرف من هذا المقـــال ، أعترف وأقر وأشهد أن في « قارورة الطيب » شعراً معطّـر الأردان كصاحبة إمرىء القيس التي يمسي فتيت المسك فوق فراشها . فمـــا فتحت « القارورة » حتى عبقت رائحة طيّبة أعرفها في شعر غصوب . يضع الشاعر على وجـــه « القارورة » حديثاً منظوماً يرويه بلسان « قرقورة » جديدة :

كبرتَ – تقول مازحة ، وترنو إليّ بطرفهـــا الغنج المدلّ
– أمـــا تعب الفؤاد من القوافي ومن خفقـــانه بالحب ؟ قل لي
فقلت لها : الفؤاد فـــدا لحسن يكاد يكون فاتحـة التجلّي

ورحت أتعمّق في القارورة حتى خضضتهـــا خضّاً عنيفـــاً ، فتذكرت قول شاعر القفص المهجور :

إن قلبي بعد ان مات الهوى قفص أقلت منه البلبـــل

سنة مباركة ورزق جديد... عاد البلبل إلى القفص ، وها ان صاحبه يغنّـي لحمامة جديدة . حمامة في عينيها اخضرار ثوب الشهادة كما فهمت من القارورة التي حبسها الشاعر فيهـــا كما تحبس المردة في القماقم ... وهكذا بدا لي ان

« العوسجة » أيضاً قد تأجّجت من جديد ، وان شاعرنا انتكس فعـــاد قلبه حامي الوطيس .

كنا ننتظر ان نرى في « القارورة » برداً وسلاماً ، وقلباً مستقرّاً ، فإذا بها تقدح شرراً فكأنها قنبـــلة لا قارورة . إن قلوب الشعراء كعلّيقة موسى تشتعل ولا تحترق ، فـلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وكأني بصديقي غصوب يهتف للرب بلسان داود النبي . قلبـــاً « محبّاً » اخلق فيّ يا الله ، وروحاً « عاشقاً » جدّد في أحشاي .

أقول هذا لأن الشاعر بدا لي في قارورة الطبيب أشبّ وأفتى منه في القفص والعوسجة ... قد يكون وقع على كنز ، فمن يدري ؟ الخيّر مرزوق ومن سعى على رجله رعى .

وما جلت في هذا الديوان الأنيق الهندام حتى رأيت وجوهاً أذكر أنني تعرّفت عليها أو اجتمعت بها منذ سنوات . فتمثل لي أحدهم كأنه يقول لي : مارون ، خذ حذرك . عـــدّ العشرة . فعددت المئة . كلّفت من عندي في عين كفـــاع التفتيش عن ديوان غصوب الأول وارساله إليّ ، فلم يهتدوا اليه . فسددت القارورة لئلا يطير الطيب ،وانتظرت فرصة الربيع ثم عدت منها ومعي الديوان . وبعد البحث وجـــدت ان القارورة موجهة بشعر جديد كما يفعل البستاني اللبق عند تصدير أثماره ، وفيها بضع قصائد من الديوان القديم . فعدت إلى قول تلك للشاعر غصوب :

أما تعب الفؤاد من القوافي   ومن خفقانه بالحب ؟ قل لي

إذا كان قد تعب من الحب فلا أدري ، أما من القوافي فحمله خفيف جدّاً ، واليك البرهان ، بل اليك الحساب : ان المسألة حسابية ، أهـــداني الشاعر غصوب ديوان « القفص والعوسجة » في الشهر الذي صدر فيه — حزيران عام ١٩٣٦ — وقد نفح الادب بطيب « قارورته » في ٣٠ تشرين الثاني عام ١٩٤٧

فيكون بين الديوان الأول وهذا مسافة احد عشر عامـاً وخمسة أشهر . فاذا قسمنا هذه التركة الادبية الخالدة على الشهور وعددها ١٣٧ شهراً كان نصيب كل شهر بيتين وحرفاً ... لأن مجموع الشعر الجديد في « القارورة » مئتـان وستة وسبعون بيتاً ونصف البيت . لا يغرك كبر الديوان فهو كأكثر دواوين اليـوم أشبه بعلب الشوكولاتا الأنيقة .

هذا حساب اطنه مضبوطاً ، ومع كل فالغلط جائز ، وأهون شيء عندي أن هو الرجوع عن الغلط .

إذن ليس في القارورة الا شيء قليل ، وهذا لا ينقص من قيمتها ، فالمسك لا يباع بالمد والشنبل بل بالغرامات ، وان رأيتني احاسب شاعرنا هذا الحساب العسير فلأنه قال مع امرىء القيس : اذود القوافي عني ذيادا .

إذن ما تعب الشاعر من القوافي اذا كان هذا انتاجه في احد عشر عامـاً وخمسة أشهر . بل هو كقول الشاعر : وأمُّ الصقر مقالاتٌ نزورُ .

فالثابت لي هو ان يوسف غصوب شاعر مقل ، اجنحته مثقلة ، ولكن شعره رائق ملون ، معطر ، فيه كل خصال الشعر الغنائي . وشعره صوت نفس مضطربة كنفس شاعرنا أبي عبد الله بشاره الخوري ، ولكن غصوب مسيطر عليها بينا هي مسيطرة على الاخطل الصغـير ... ان لنا درساً خاصاً بالغزل عند هذين الشاعرين ، لا أدري متى يكون موعده أما الآن فالكـــلام على غصوب وحده .

ان غزل غصوب غزل كئيب مغموم ، غزل مراقب ، ينظر ولا يقتحم ، يظل أبداً يتحيّن لأنه غير فاتك ، وبرهاننا هذا « التضرع » قديماً وحديثـاً . انه غير جسور ولكنه لا يموت غمّاً ، كما قال الشاعر ... وقد يكون غصوب كما زعم وقال : لذّاتنا في الشوق لا في الوصال .

ان خطيئة «الفكر والقول» كخطيئة « الفعل » خطورةً ، انهما متساويتان

لاهوتياً – كما تعلمنا – اذا استثنينا الرد والتعويض ...

رأيت يوسف غصوب يتطور في قارورته ولكن تطوره بطيء . الرجل مخلص في عمله ، مثابر يشذّب ويهذّب ، فهو والصافي في هذا ضدان ، ولعلّ الصافي يجهل ان لا صدفة في الفنّ بل قريحة وعمل .

ذكرت « الخطيئة » لأن رائحة التديّن تهبّ عليك من قارورة غصوب وهي مطبوعة في المطبعة الكاثوليكية ، فاسمعه كيف يبرر هذا الحب بقوله :

هو الحب من نفحات المسيح وكان على الأرض قدماً غريباً

مع آلامك يا يسوع ! هكذا كانت تقول امي في النكبات . ان المسيح عند النصارى حامل خطايا العالم ، أفلا يحمل تبعة حب يوسف على خفتها ؟

اظنني لا أعدو الحق اذا سميت يوسف شاعر الحب النظري ، ولا أخالني محقاً اذا سألته من أين لك هذا وقد جاوزت حد الاربعين ، ما زال غيره يتغزل وهو في السبعين . ولا سيما ان الحب ليس بالباب الضيّق ، فالله ، سبحان كرمه وجوده ، لا يقطع رزق مخلوق .

ان يوسف يعمل بقول شارل بودلير : للخروج من أزمة الهوى تدفعنا احدى حاجات الحب الى « الصلاة » ، وهذا ما يبدو لي في القارورة تلميحاً ؛ وقد لمسته لمس اليد في ديوانه السابق . ولكن هذا التديّن عند شاعرنا نوع من التوابل كالبهار والقرفة يزيد في نكهة طعم الحب واللذات .

وقد يكون الحب كفّارة عند غصوب كما رأيناه عند بودلير القائل : حتى يؤدي الانسان الجزية لربه ويغتسل من وسخ الخطيئة الأصلية اعطي حقلين يحرثهما : الحب والفن .

وها ان شاعرنا يعلن هذا الجهاد على هاتين الجبهتين في جوابه لتلك :

فإن الشعر حب أو جمال لعلّي مائت بهما ... لعلّي ...

إننا لا نرجو لشاعرنا ان يصيح مع ابن الفارض :

ما بين معترك الأحداق والمهج أنا القتيل بلا إثم ولا حرج

إن ابتسامة يوسف الهازئة ، وتستطيع ان تقول المزّة، تنقذ الموقف، وينفذ صاحبنا في المضيق ، كما عبر ابن الأثير .

وإذا أردنا تلخيصاً للصور التي تحتل ساحة شعور غصوب فنجد أوّلها العري ، فكأنه تلمذ للشيخ فؤاد حبيش يوم كانت الدعوة لتلك الرسالة عارمة. فالعري يواجهنا في أولى قصائد القارورة :

في كل أغنية كعاب روّيها الحب والجمال
تطلّ في عريها فتنتشي بعريها الحسّ والخيال

ثم يوضح هذه الفكرة الثابتة بقصيدة عنوانها « متجردة » يصف فيها الحبيبة كأنه يصف تمثالاً رخامياً . يصفها وصفاً سليمانياً فكأنه تجاه شولمية جديدة حين يصرخ :

يا حارسي جنته انتما على ضفاف الفلّ والغار

ثم يبريء هذا العري الذي وصفه وصفاً كاملاً ، تقريباً ، فيقول :

لا يعتريه العار في عريه في الحسن منجاة من العار

ان هذا البيت عرعار حقاً ، اما ان الحسن ينجي من العار فهذا في نظر يوسف ، أما في نظر معلمينا اللاهوتيين ففتنة .

هذه هي المادة الأولى المركب منها طيب القارورة ، أما المواد الأخر المؤلف منها هذا المركب فهي من عطور وخمور وانغام واضواء ، وازهار وينابيع ، وملذات حمر وخضر وصفر ، ولا بدع فالطيب يركّب من أجزاء مختلفة ..

أما مخيّلة شاعرنا فهي مخيلة تعنيها الكلمة أكثر مما تعنيها الأشياء . ولكنه بدلاً من أن يستعمل لفظات سهلة جدّاً يجعلها بين بين ، وهذا مما يحمد عليه فيقول مثلاً : صحارى حنين ، تغرد ألوان بها وطيوب ، وترقص في الأفياء

سكرى . هذا نموذج من قصيدة جمال ، التي أرخى فيها العنان لخيـاله كما يفعل أبو عبدالله ، فقال : إن هـذه الجميـلة ألهت وحش الصحراء عن صيده ، وتقاطرت اليها الطيور من الأفق البعيد فذكـّرني قـول الانجيل : حيثما تكن الجثة تسقط النسور ، ونعيذ هذا الجمـال من أن يكونـ جثة . لقد غاليت يا يوسف حتى كدت تدرك بشاره ... وتفوق نعيمه في قصته « لقاء » حين جعل الثعالب تطرب لموسيقى بطل قصته طربـاً غريباً عجيباً ، ويصيبها مـا أصاب سامعي الفارابي ..

وبما اننا نتكلم عن الكلمة فلنفرغ من شأنها : ان كلمات يوسف منتقاة وهو يجعل وكده في الملاءمة بينها لتولـّد الموسيقى التي يتمناها الشاعر ، وقد أدرك جلّ هذه الغاية ، وإنْ أغرب فقال : أغنية خضراء ... ولكن كلماتـه مختلفة الاعمار ففيها البدوي الخالص كقوله : « سموت لنا » ومثلها القرقف الأخطلية التي أكثر من استعمالها وكذلك دد الحلـّزية . . و « بعد لأي » النابغيـة . ومثلها قوله :

احسها في دمي ، في عروقي وفي « الـكان » مني وفي المزمع

انا أعلم أن اسلافنا ، يرحمهم الله ، ادخلوا ال على الافعال فقالوا :

ما أنت بالحـكم الترضي حكومته ولا الأصيل ولا ذي الرأي والجدل

وأدخلوها أيضاً على الظرف فقالوا :

من لا يزال شاكراً على المعهْ فهو حرٍ بعيشة ذات سعهْ

وأدخلوها على الجملة فقالوا :

من القوم الرسول الله منهم لهم دانت رقاب بني معد

كان القدماء يعدون ال هذه اسم موصول أما نحن فما لنـــا ولها . اسمع يا أخي يوسف ، ستراني في غد ، أو منذ الآن ، متسامحاً مع سعيد عقل حين يقول في نشيدتـــه قدموس : كنْ بها الصقع كما قال قس بن

ساعدة ، وان يقول :

بارِكتكِ اليد الأهلَّتْ على القفر عطاء ، فعاطل القفر حالِ

وذلك لأن سعيد عقل يقص ، والقصص يتسامح فيه ، ناهيك انه اعدّ ، أو يمد لنا شعراً نادراً في الأدب العربي ، وهو شعر الملاحم ، أما انت فما تريد أن تقول ؟ حنانيك بل حنانيكما . تكفينا اثقالنا القديمة فلا تخلقا لنا جديداً ...

وعلى ذكر الجديد رأيتك تحاول ادخال التضمين في « عروضنا » فانا أقول لك ان هذا لا يلائم شعرنا . لأن لكل وزن عندنا رنة خاصة ، فوصله بغيره لا يلائم . فالأوزان العربية غير الأوزان الفرنجية فمحاولتك إذن خاسرة . تأمل قولك :

ظليل تلألأ من عريها ومن أريج الشَّعَر المرسلِ
تضمخ ثغريك بالناهدين وبالثغر والفاتر المخمل

أما بقية المائتين والستة وسبعين ونصف البيت ، فكلها ذات الفاظ منتقاة تشهد لك بالعناية التي تضاهي عناية مالرب .

أمّا القافية فقد تخلّص الشاعر من قيودها في أكثر المواطن وحذا في ذلك حذو شعراء الفرنجة ، وهذا لا بأس على الشاعر منه .

أما الأوزان فهو يؤثر بعضها على بعض ، وهذا لا يعنينا ، ولكنني أحسست ان هذا التهافت كاد يظهر شعر الديوان كأنه شيء واحد . فالفكرة واحدة ، والالوان أيضاً والأثمار أيضاً وأيضاً ، حتى كدت أرى فيها شبهاً قوياً من دار بطيخ ابن الرومي . والغريب هو أن نرى الى جانب هذه الثمار روحاً تمتد جذورها الى الكون الأبعد ، فحبيبة غصوب كحبيبة سليمان يشبهها بالحديقة فيقول ويحسن القول :

حديقتنا أثمرت والجنى ثقيل على الغصن الأملدِ

بتفاحها حلم بالشفـــاه وأعنابهـا بخمور الغـد
وبالورد،والأمس شوق الى شمم يدغدعه أو « دَدِ »
تميس الزنابق في جانبيها ويضحك فيها الأقاح الندي
وطيب البنفسج ملء الظلام وملء الخميـلة والمورد

انه لشعر عذب تجول فيه المائية جولانها في الغصن الاملود إبان الربيع . وأخـــيراً يدعو الشاعر الحبيب دعوة سليمانيـة أيضاً فيقول بلسانـه :

ألا تدخل الروض نجتاحه بعنف فنتخم منـه وفي
رياحينـه نرتمي من عيـاء ونكرع في خمره القرقف

أرأيت يا شاعري العزيز ، ان التضمين لا يلائم الشعر العربي ، فهـذه القافية « وفي » قـــد حالت دون تصور « الاجتياح بعنف » فكنت كمن بلغ الحجة بارداً فضاعت عليه القفزة المرتجاة .

ويبالغ يوسف في وصف « رحيق الثغر » فيجعله « مثلجاً » فيخطىء في هذه الصفة مبنى ومعنى . أفي ذلك الجسم « برّاد » حتى يكون ريقـه مثلجاً ؟ ومن يحتمل الريق المثلج . أما المبنى فالصواب مثلوج .

ويوسف على دين الجاحظ في استحسان لثغة الحسناء ، فبعد ان يصف لنا حديث هذه اللثغاء المبهم يقول :

يتمتم القول مـا يبالي أيبهم القول أم يبـين
فكلما زاده غموضاً تداركت شرحه العيون

جميل ، جميل جداً ، بل أكثر من ذلك ، ولله در العيون ما افصحها في مواطن كثيرة .

وحبيبة يوسف هي مهرجان الحسن ، وما تبقى من الازهار بعد العاصفة ، وبقية عهـد الله ، أو بقية من الفردوس في عينيها . يقول ذلك ليتخطى

الى تعليل لذة الحب :

هذه اللذة التي نحن منها رجعة من نعيمنا المفقود

وللعينين عملها الأكبر في قلب يوسف وفنه ، حتى يقول فيها :

ترقى لي الشعر عيناها فأرسله ضرباً من السحر لم يخطر على بشر

لقد تجاوزت الحد مرة أخرى ، فهذا القول من حق أبي عبد الله بشاره ، وحده ، أما أنت فلا تخرج عن المعقول . نعم ان في شعرك ما يدفع الى الغرور ولكن ليس الى حد انه لم يخطر على « قلب » بشر .

واني الفت نظرك الكريم الى هذين البيتين ، ص ٤٩ و ٢٣ فهما محتاجان الى اعادة النظر :

الى فهمه . كل ما ينجلي من « التلاميح » نشوق صدي

افاقت على فجر عجيب ونفحة سماوية من « راحتيها » تضوع

ويستهتر شاعرنا أحياناً باعادة الضمير فيوقف ذلك حركة سير الشعر كقوله :

ويطغو من الذعر أو حبه حياءً على وجنتي ندي

فهو من قصيدة جميلة راقصة كاسمها — قلق — يحلل الشاعر نفسية فتاة حين يزورها الحبيب ، والضمير يعود اليه في حين اننا نظنه يعود الى الذعر ... وكذلك لا يتأبى الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، ثم يتعدى على حقوق طه حسين فيقول :

« فعبّت وعبت » لاتي وأوارها يجد ، اذا ما امعنت ، ويزيد

ويسرني أن ألفت نظر شاعرنا المتأنق الى بيت لم يحسن تهذيبه فلعله يعيد النظر فيه عند الطبعة النهائية :

نحن تحناننا الملحّ الى رباك تحناننا لعهد بعيد

ويحن يوسف الى القرية التي نحن منها فيبكّر الى « العين » ويقول

قصيدة صغيرة جميلة كأكثر قصائد القارورة ، ولكن الحبيبة التي رسمها لنا الشاعر ، فجعلها من ورق الورد ومن طيبه ، ومن ضياء ومن ، ومن ... لا يصدق انها تفهم حديث العين والجرة ... الا إذا كان الشاعر يريد ان يقول هذا الشعر لنا لا لها . وبكلمة وجيزة نستطيع أن نقول ، ان قارورة الطيب ديوان نفيس على قلته ، والشعر لا يقاس بالكم ، وسنقابل بين غزله وغزل الشاعر أبي عبد الله بشاره الخوري ، كما وعدنا ، ونعطي كل ذي حق حقه ، فما فاتنا قوله الآن لا يفوتنا قوله بعد حين .

الياس ابو شبكة

١

فرغتُ من قراءة كتاب « الادب المقارن » فانسدّت الدنيا عــليّ . كدت انام على كدر لولا كتاب الف ليلة وليلة . من اجل هذا الكتاب ، وحده ، حشرنا المؤلف في زمرة قــادة الفكر الإنساني والعاملين على تغيير مجاري الخيال البشري . فاحرِ بنا ان نقيم لصاحبه أثر « الأديب المجهول » .

فمــا قول المتحمّسين للطبع على غرار الجاهلية ، في كتاب ازدروه فصار كالحجر الذي رذله البناؤون رأساً للزاوية ؟... لقد أيأسَنا شعرنا من كل خير طلبناه عنده . أطبقت عليه حمى التقليـد دهوراً . والتقليد إذا اجتزىء على كتاب لغــة واحدة وسلالة واحدة ، كما فعل السلف الصالح ، يصبح ضامراً خسيساً . اعتدّ العربي بشعره اعتداده بنفسه حتى قــال ابو الادب العربي : وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى من تكلم بلسان العرب . أمّا مــع « شعراء اليوم » فقد تنازلنا عن تلك العنجهيّة العارمة ، وصاهرنا الأجانب ، عن غير طريق الولاء ، فكانت لنا ذريّة أدبية جديدة ليست كلها على نمط واحد كمصنوعات « الفبارك » .

قد تعدّدت القوالب واختلفت السِحَنْ ، وتغذّى الادب بدم جديد

فانتعش بعـــد توتر اعصابه وتصلب شرايينه . فاستلهام الآداب الاخرى كاستنشاق هواء جديد يكسب النشاط والعافيــة ، على شرط الا نلهمس ما على موائدهم . فجديد الأدب المتشابه لا يعمّر طويلاً ، ولا يخلد منـه الا ما كان فيه غذاء الذريّة ، ولكل ذريّة مجاعة قوت .

بدأ طلاّبنا يحسّون أن حاجات نفوسهم ليست – مثلاً – عند البحتري في وصف القصر الذي « ذعر الحمام وقد ترنم فوقه » ... فاينما مرّوا اليوم ، فهناك بيوت أشمخ وأرفع منه عمـــاداً . وليست ايضاً في ذلك الغزل المكرور الذي لا يدل الا على أنه شعر .

ومن أولى من شعراء اليوم بالنفوذ في هذا المضيق ، فلكل دولة رجـــال . وها هم يخرجون الشعر من دهاليزه ليتشمّس وتعاوده نضارة الشباب فينْتَقي دمه الماصل وتزخر فيه كريات الحياة . إن التطعيم يُرَقّي الاجناس وينوّعها ، فلنطعّم وإلّا فجنينتنا تظل باناً وأراكاً وغضاً وبهاراً وعراراً ، بينما البساتين الأخرى تحفل بمئـــات الأجناس . فلنغرس ! فلنطعّم ! وليتهمنا من شاء بما شاء إن كان في هذه التهمة حياة أدبنا وإخراجه من كهوفه ، أمّا مللنا علك المصطكى ؟..

لا يستحيي الانكليزي والروسي والألماني والفرنسي أن يدلّنا على العناصر الأجنبية في أدبه ، أمّا نحن فنعدّ ذلك عـــاراً ، كأنما الفن يهبط علينا من السماء كالمنّ والسلوى ، أو تخرجه أرضنا كالكمأة . إننا لا نريد من اللغــة إلّا المواد الأوليّة كالألفاظ والأصول ، أمّا الشكول فلكل عصر زي . وهذا ما يفعله شعراء اليوم كلٌّ على قدر خياله ومـا طبع عليه ، وقد درسنا أحدهم – يوسف غصوب – الذي عددناه بحق طليعـة هـذه الكوكبة ، وهنا نتناول الياس أبو شبكة في ديوانه الجديد – الالحان – الذي نشرته دار المكشوف .

٢

جاء في أساطير اليونان ، أن إحدى البنات المدعوّة سيرنكس فرّت من وجه الإله « بان » إلى ضفة نهر وتحوّلت إلى رمـــاح قصب ، فتتبّعها ذلك الإله الغضنفر ، وقطع من ذلـــك القصب وصنع شبّابة ذات سبع قصبات مضمومة ، فعزوا اليه جميع الأصوات الخيفة .

ونحن إذا قرأنا شعر أبو شبكة في « القيثارة » و « أفاعي الفردوس » و « الألحان » وما ينظمه أخيراً للمناسبات التي لا بدّ منها ، نستطيع أن نعزو الى شاعرنا جميع الألحان من مخيف ومفرح ومحزن . قد يكون أقرب شبهاً بقصبة الفارابي التي ذكرتها غير مرّة . ولئن كان الياس في ألحانه ابن الإله « اورفه » فهو في أفاعيه ابن الإله « بان » ، واننا نشكر لسيرنكس – أم طفل – التي فرّت من وجهه فاستفزّت شاعريته ووجهته في الطريق الخالد . إن تلك الأفعى التقيّة الطاهرة قد دبّت لنار قلبه بالحطب فصهرته شعراً عسجدياً مصفّى ، ونعم الكفارة زبورك يا داود ...

نقرأ القيثارة ، باكورة الشاعر ، فنتذكّر ونحن نقرأ « أفاعي الفردوس » كلمة جرير في عمر ابن أبي ربيعة . ففي أفاعيه يبلغ فنّه القمة ، وشاعرنا المبدع قد استحال ثلاث مرات ، وهو اليوم يحبو الى الرابعة ، فهل من « ام طفل » أخرى تلبنّى الشاعر وتنقذه من ولوج الباب المفتوح ؟..

إنــه في الطور الأول – القيثـارة – من الطيور القواطع يطمح الى الآفاق العليا ويقصر طرفه دونها .

وفي الطور الثاني – طور الأفاعي – طائر غريب كاسر يسمو لينقضّ من علٍ وينشب مخالبه ، أما منقاده فمعقوف كالصليب المتلوي .

وفي الطور الثالث – الألحان – طائر بلدي تشجيك أنغامه وتعجب كيف استحال من أكّالة اللحوم الى حسون فصيح يعيش على القنبز .

أمّا الطور الرابع فأعيذك بالله منه . أعيذ شعره من هذه الدعوات فبضاعتها بنت ساعتها ، وفيها يصحّ قولُ النواسي : كلام الليل يمحوه النهار . اللهم لا تمح ذنوب الياس وخطاياه لترتفع أناشيد توبته الى أعاليك ...

في إحدى المناسبات قال الياس عنّي « وحيناً عقرب ». هذه قافية البيت، أما مـــا بقي فغاب عنّي . واني أقول لصاحبي سأحاول أن أكون أنعم من السنجاب ، ولا أقول الهر ففي جلد الهر حاجة الى الحكّ ، ان لم تحكّ له انت تحككْ هو بك ، كما هي حال زكي مبارك أحياناً .

فلندع « القيثارة » جانباً ففي فحيح « أفاعي الفردوس » ، رائعـــة أبي شبكة ، موسيقى غريبة . فغضب الأنبياء وسخطهم النافض كالبرداء يتطاير حمماً من براكين « أفاعي الفردوس » . وكيف لا يكون هـذا وشاعره من قراء التوراة المدمنين ، يراها منبعاً للالهام ، وإنها لكذلك ، لما فيها من القصص الدسمة ... فهي أخصب الدمن وأمرعها للشعراء الشباب وغيرهم . هناك دمن خضراء لا ينقضي ربيعها ، اعتدال طقس ، وحرارة ملائمة ، أخرجت هـــذه الخيرات ، انها كالوطن الذي كتبت فيه تدرّ لبناً وعسلاً ...

أخذ الشاعر منها موضوعين بعثهما من جديد ، وأحياهما بما عنده من عاطفة جشعة ونفس متّقدة ، فلا بدع إن قلنا ان أفاعي فردوسه عريقة الحسب والنسب تستأهل انجيل سلسلة لتتصل بأمنا حواء التي أورثتنا الخطيئة الأصلية ... ولولا عماد السيد في الاردن من يد ابن خالته ، ثم موته على الصليب لما كان لنا العلاج الشافي من دائنا الوبيل ، ولظل أبونا آدم والابرار من نسله في ظلمة اليمبوس الى الآن ...

ألا ترى « أفاعي الفردوس » عنواناً طريفاً ؟ اننا نستهول اسمها ولكننا لا نستطيع الحياة بدونها ، بل نستلذ لدغها ويطيب لنا جحرها . انها مائدة مأكولة مذمومة .

إذا ما أشرفت على دنيا « افاعي الفردوس » جثم عليك جو سادوم وعامورة بكل ما فيه من زفت وكبريت وبحر ميت وأعمدة ملح . يريك شاعره الحاوي الجبّار افاعي بشرية فتصك وجهك وتسدّ منخريك إذا واجهتك .

ورغماً عن هذا الجو الخانق فأنت تحسّ انك تقرأ شاعراً ملهماً ، شاعراً له ذاته ، وله نفسه ، وله شخصيته ، ولشعره طابع اصيل ، فيه الصور الراعبة ، على ما في خلق الصور الجديدة من صعوبة .

لا تجزع ان أقل لك هذا ، فالوردة تعيش جذورها حيث تعلم ، وتعطيك أقماراً ينعم بها انفك ويزدان صدرك . والتفاحة كذلك ، والشعر شيء كهذا ! والياس في « افاعي الفردوس » من الشعراء الملمونين ، واقوى حواسه اللمس والبصر . لست ارى عليه حرجاً في هذا الجوّ السادومي ، فهو شاعر يحيي الماضي ليؤدب الحاضر . وما زال لا يختلف في المغزى عن المفسرين وعلماء اللاهوت فأي ضير عليه ؟ انه في افاعيه شاعر الرذائل ، كما قال فرانس في بودلير . وأفاعيه كالحيّات كلها ، حسن ملمسها وفي انيابها العطب . وبضد الحيّات كلها لأن سمّها ترياق الحياة ، ولا بدّ لها منه ...

والافعى الاولى هي دليلة ، صاحبة شمشون ، وبها يصدّر الشاعر ديوانه . إن قصّة شمشون طريفة كأكثر قصص التوراة . بشّر به أمه العاقر ملاك الرّب ، ثم ظهر لها ، ولم يدعها قبل أن ترك لها وصفة الأكل خوفاً على الجبّار في البطن . حرّم عليها الخمرُ والمسكر وأكل الشيء النجس لان ابنها العتيد مخلّص – عفواً ، مخلص صغير – إنه نذير الله في البطن فلا يعلو موسى رأسه وهو يخلّص إسرائيل من

الفلسطينيين .

أحبّ شمشون امرأة من بنـــات الفلسطينيين ، وفي طريقه اليها لقيه شبل أسد فحلّ عليه روح الرب فشقّه كالجدي ، وبعودته من عنـــد الحبيبة اشتار عسلاً من جوفه فأكل وأطعم اباه وامه ، ثم تركته تلك المرأة فغضب على قومها وأحرق بيادرهم وزروعهم وكروم زيتونهم . أمسك ثلاثمائة ابن آوى وجعلهـا ذنباً إلى ذنب ، ووضع مشعلاً بين كل ذنبين في الوسط ثم أضرم المشاعل ناراً . أرأيت ما اصعب العمل ؟ ولكنه شمشون الجبّار ...

وتهدّد الفلسطينيون قومه فسلّموهم شمشون مربوطاً بحبلــين جديدين فقطعهما كخيط القطن ، وهجم فقتل بفكّ حمار ألف رجـــل منهم . وعطش شمشون ، قاضي إسرائيل ، ففجّر له الرب ينبوعاً . ثم نزل الى غزّة ورأى هناك امرأة زانية فدخل اليها ، فكمن له اعداؤه عند باب المدينة ، فقـــام في منتصف الليل ، واخذ مصراعي باب المدينــــة والعارضة ، وصعد بهما إلى رأس الجبل .

واخيراً احبّ امرأة في وادي سورق اسمها دليلة ، فصعد اليهـــا اقطاب الفلسطينيين بعد ما اعياهم امره ، وقالوا لها : تملّقيه وانظري بماذا تكون قوّته العظيمة فنعطيك كل واحد الفاً ومئة شاقل فضّة .

وعرفت دليلة ان قوّة شمشون في شعر رأسه ، فأنامته على ركبتيها ودعت رجلاً وحلقت سبع خصال من شعره ، ففارقته قوّته ، فأخذه الفلسطينيون وقلعوا عينيه . واخيراً جاؤوا به في يوم عيد ليلعب لهم ، فقبض على عمودَي البيت فسقط عليه وعليهم ، ومن هنا جـــاءت الكلمة المأثورة : عليَّ وعلى اعدائي يا رب ...

مدار قصيدة شمشون على غدر دليلة به ، فشاعرنا ابو شبكة مهتاج للجبـار القديم . ولا شك ان في حياة شاعرنا دليلة غدرت به فأغضبته حتى اسمعنـــا

هذا الشعر الخالد وسمى ديوانه أفاعي الفردوس. وما افاعي الفردوس غيرهن... ان كيدهن لعظيم .

يلتقي الشاعر العربي والشاعر الفرنسي دي فيني في التوراة عند دليلة ، ثم يفترقان . اجتمعا كما تجتمع الأشجار المثمرة في البستان ، فلكل منهما شاعريته وخواصه : وان وحّدهما الغضب على دليلة فقد تكون حالتهما واحدة ومصيبتهما واحدة ...

الفريد دي فيني من الشعراء الذين استوحوا التوراة كأكثر شعراء الفرنج ، ولكن له لوناً خاصاً ، كما ان لشاعرنا أبو شبكة لونه الخاص ، ولكل أديب أصيل ذات قبل كل شيء ، والشاعر الشاعر يخلق عالماً من العواطف والتأثيرات ، والقضايا ، والمفردات ، والانشاء الشخصي ، وهذا ما نراه عند الياس في « أفاعي الفردوس » ، فهو شعره المختص به دون سواه .

وإن سألني فضولي : ولماذا هذا اللون الأحمر القاني ؟ أجبته : هذا لا يعنيني ، ولا يعنيك . للفنان ملء الحرية في اختيار ألوانه وتنسيقها .

الفن التصويري ، وهو ابن عم الشعر ، يهرب اليوم من رسم التاريخ والأساطير . والياس لا يصور دليلة الامس بل دليلة اليوم — دليلته هو — وكأني به قد اخفق في إحدى معارك حبه الفاصلة ، فاشرأبت بعدها عاطفته المكبوتة تهدر وتعج كفارة افقا .

الضغط يحدث الزحم ، وهذا ما تمتاز به قصائد أفاعي الفردوس من شعرنا المعاصر كله . فهذا الغضب الاسود من البقع الحمراء سيكون له شأن في الغد ... وكأن الافعى قد اضلته بمكرها فسلط عليها صواعقه هذه . وان حمدت الله على شيء فعلى ان مطاف صديقنا لم ينته به إلى احد ديورة كسروان حيث يقضي على عبقريته بين صلاة المساء والستار .

إن من قرأ التوراة مثلي ، من الجلد الى الجلد ، يعيش في جو « أفاعي

الفردوس » ولا يشكو بأساً . ليت شاعرنا عرض لقصصها الأخرى ، وأرانا صوراً كثيرة من صور الحياة ، فالتوراة مجموعة قصص رائعة لها كل يوم ممثلون عبقريون ...

ان عنوان « افاعي الفردوس » يذكرنا شارل بودلير في « زهور الشر » ، ولا ينقص شاعرنا إلّا طلبة الشيطان . أما « الجيفة » وهي أشهر قصائد بودلير فتقابلها « قاذورة » أبو شبكة وهي مجموعات جيف . في « القاذورة » يكتمل الفن لشاعرنا ، وهي على غير طراز قصيدة شمشون التي نعود اليها ، فهو يخلق لنا فيها محيطاً مخيفاً من طراز بيئات « لامنه » خيالاً ، وتعبيراً هداراً ، ورهبة يقشعر لها الجلد . واليك مثلاً منها :

فألفيت دنيا من فواجعها الورى	على بابها لوح من الرق اسود
قرأت عليه أحرفاً خطها اللظى	يروعك منها اثنان «سجن مؤبد»
فطوفت في غمر من الليل والخنا	يعربد والارجاس ترغي وتزبد
وللحمإ الغالي نشيش ورغوة	كأن الورى مستنقع يتنهّد
وأغمدت في صلب الدجنة ناظري	وفي كل جفن لي من الهدب مبرد
فأبصرت أطباقاً تعمدها يد	أصابع من عظم وتصبغها يد
صباغ يفور الخزي منه ملاصقاً	اذا علقت فيه النواظر تجمد
وشاهدت في الاطباق مفسدة الورى	تمور بها الديدان سكرى تعربد
مقاذر تمشي في الحياة طروبة	تغني وأصداء القبور تردد
هم الناس في الدنيا تهاويل حنطت	بكيت عليهم في جحيمي وعيّدوا
وما هذه الدنيا يذرّي رمادها	لريح الفنا الا جحيم مرمّد

أسمعت هذه الموسيقى الغريبة ؟ أأدركت هذا القران المبارك بين الالفاظ ؟ وهذه الصور الرهيبة ألا تمثل جهنم على الارض :

وللحمإ الغالي نشيش ورغوة كأن الورى مستنقع يتنهد

فالورى مستنقع يتنهد ، والديدان سكري تعربد ، والدنيا جحيم مرمد ، لولا بقية مشبوبة في شهوة الطين — الانسان . فهذه الصور والتعابير والكنايات التي خلقها الشاعر هي ابعد ما يطمح اليه الفنان . فلا يلائم محيطه المختار الا هذه الالفاظ المنتقاة ، التي تملأ الفم فلا يتملص منها الا بجهد وعناء . فهي في مكانها مع اخوتها على حد قول المثل العربي : وافق شنّ طبقه . وهذا هو العمل الفني .

وفق الشاعر في « اخراج » قصيدته هذه فجاءت كأنها القصة ، لها ما لهاتيك من حدود ومعالم ، فهو في « القاذورة » شاعر وفنان معاً .

وما هذه القاذورة ؟ انها محيط عبقري خلقه الشاعر خصيصاً ليضع فيه ثلاث طبقات من الخلق : النساء ، واشباه النساء في الكيد والمكر ، ثم الشعراء . وفي ختامها يغضب الشاعر لعبقر الممسوخ ويصرخ صرخة المسيح حين هزّ السوط في الهيكل ، ويقول مثله :

وشاهدت اشباح السماء كئيبة عليك باسواط الاراجيف تطرد
ففيم أزغت النفس عن نهج قدسها فصارت مغاراً سافلاً وهي معبد

كنت ارجو لهذه القصيدة الجنيّة ختاماً اروع وازخم ولكن « سافلا » ضعفته .

٣

قال الحريري : عدت الى اصحابي عود الرائد الذي لا يكذب اهله ، ولا يبرقش قوله . إذن فلنصدق ولا نبال ، فالناقد رائد ، اهله الذرية .

انا راجعون إلى ام الديوان قصيدة شمشون ، فهي اكبر افاعي الفردوس

واعظمهن خطراً . افعى طرشاء لا تسمع صوت الحاوي ، ولكننا سنعالجها ببعض ما اوتينا من رقى . اذا قابلنا بين شمشون ابو شبكة وشمشون دي فيني رأينا قصيدة دي فيني تنهج نهج القصة وسمتها ، بينا شاعرنا العربي لا يخرج في شمشونه عن نمطنا . تفيض عاطفته وتطفى فتجتاح سدود الفن .

والشاعر حر في عمله فهو لا يكتب قصة جبار اسرائيل ، بل يتوسل بصرعه الفذ ليصب قدر سخطه على رأس « دليلته » التي تحطمت كبرياؤه امام جحرها :

ملقيـــه بحسنك المأجور	وادفعيه للانتقام الكبير
ان في الحسن يا دليلة افعى	كم سمعنا فحيحها في سرير

المطلع رائع ، والقصيدة كلها بركان متقد يقذف الحمم فلا يجرؤ على الدنو منه الا المغامر . أنّى اتجهت في مقاطعها تترامى امامك قوافيها كأنها الصخور تقـــذف من منجنيق . فعاطفة الشاعر تفح كالافاعي في الرمضاء ، وبالعاطفة يحيا كلام الفنان وتتحرك شخوصه ، انها لحمة الادب الحي .

لست انقل لك منها شيئاً سوى البيتين السابقين ، فالقصيدة محكمة الحبك لا يسوغ تفكيكها . ولو قال الشاعر « راوديه » بدلاً من « ملقيه » امن العثار ولم تصطدم سفينته بصخرة القاموس ، وكذلك « الشهّاء » فهي لا تصلح سداداً لهذا الموضع ...

وفي « الافعى » تتكشف لنا الأجمة عن حنش ، والعياذ بالله . افعى دونها حية ابن عوانة ، وعلى باب جحرها تيس ذو قرنين ، كأنه صاحب امرىء القيس يغط غطيط البكر شد خناقه ...

في هذه القصيدة انفجارات يسمع دويها من بعيد جداً ، ويرى الاشتعال

الذي تحدثه من اميال عديدة ...

في هذه القصيدة التواءات وتثنيـــات كانسلال الافاعي ، وانتقالات فجائية من نوع حمل الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، او الالتفــات . ولا عجب إن طابق الاسم المسمى فهي افعى :

اجل سيراك الليل بعدُ تضمها ويبصرك المصباح تعصرها عصرا
وسوف ترى فيك المآثم نعجة قد التصقت في بطنها حية سمرا

مدهشة هذه الحية السمرا ... وانا ، على تسامحي في الفن تسامحاً لو حلم ببعضه ابو نواس من عفو ربه لفاز بالجنة ، كنت اؤثر الا تكون هذه القصيدة في الديوان ، فما فيها الا تصوير انتقام مرّ مخز . ولكنها في كل حال إحدى صور الحيــاة الصادقة . وشاعرنا يرى في الاعتراف منجاة ، فاستراح حتى من خطيئة الفكر ، وهو يقول في مكان غير هذا :

فرحت أسأل نفـسي الدفــاع عن كفراني
فـلم اجد من يحامي عني سوى بهتـــاني

اما في قصيدة « في هيكل الشهوات » فتهدأ ثورة الشاعر التي لم اشهد مثلها في تاريخ ادبنا ، ويدهشني قوله بعدما أقام الدنيا واقعدها :

لي مهجة كدموع الفجر صافية نقاوتي والتقى امٌ لهــا واب
فكيف اختلس الحق الذي اختلسوا وكيف اذأب عن لؤم كما ذئبوا

سنحاول ان نصدقه ولكنها تخينة لا تبلع . ان الاعتراف يمحو ذنوباً كثيرة وكبيرة . ومـــا احلى قوله فيما بعد لهذه الافعى الراصدة في شق الحائط للفراريج والزغاليل البريئة :

صبّي الخمورَ فهذا العصر عصر طلى اما السكارى فهم ابناؤه النجب
لا تقنطي ان رأيت الكأس فارغة يومـــاً ففي كل عام ينضج العنب

لســت اشك ابــداً ان هذا البيت الاخـير من الابيات الخالدة ،

ولو عاد النابغـة الى قبة عكاظ لقال لصاحبه : انت اشعر العرب يا ابن اخي في هذا البيت ...

ليت الشاعر قطم قصيدته هنا ، بل يا ليته استغنى عن قوله :

قد اشرب الخمر لكن لا أدنسها   وأقرب الاثم لكن لست ارتكب

متى وجد النص بطل التأويل والاجتهـــاد يا الياس ... ولعل الخمر المعنية فارضية ، فالصوفيون أصناف ، وشاعرنا من الصوفيين الحمر ... اما قوله : واقرب الاثم لكن لست أرتكب ، فيشبه قول عمر ابن ابي ربيعة لأخيه حين جزع عليه من النار التي وقودهـــا الناس . عمّر الله شاعرنا ليخرج لنا من افاعيه ما يبزّ حية موسى .

ان ابو شبكة من سلالة امرىء القيس وعمر ، وعلى يد هولاء ثلاثتهم تمت عندنا فصول الرواية الدائمة . وأظن الياس لم يُبق في قرارة الكأس شيئاً ، وان لم يحطمها على شفتيه كصديقه بشاره الخوري ...

ليس لالياس ابتهار أمرىء القيس وعمر ولا قصصها ، فأفاعيه أشبـه بجمل انباء المساء منها بوصف المعـــارك المفصل . ولئن كان يفوح عبير المسك وريّا القرنفل من جو الشاعرين الاولـــين فجوّ الياس تفوح منه رائحـــة البهار والفلفل . وصاحبنا ليس كالشاعرين القديمين في وطره عندهن ، ولكنه مغلوب يستعدي على صاحبته الدهر ليقتص له منها .

وفي سبيل هذا الانتقام يضحي بالكثير من ذاته ليستعجل هرم تلك اللعينة قبل أوانه ، ويرى تلك الافعى عجوزاً درداء أكل الدهر حديقتها السليمانية المسيّجة بالسوسن ... وهذا ما يقوله في الشهوة الحمراء :

هاتي من العهر أشكالاً ملونة   نمهر بهـا بعضنا بعضاً وننهدم

ألا يذكرنا هذا بأخبار النحلة التي تؤدي مهمتها وتموت ؟ ثم يقول :

سترجعين ولكن مثل آمالي   جوفاء مشلولة في جسمك البالي

٤

ذكر التي اختصرت عمري بشهوتها   وخلدت عهرها الدامي لاجيال

وقبل ان نبرح هذا الهيكل الدامي نقول : ليته لم يقوّل « أم طفل » ما قوّلها إياه لذاك البريء ، فتحت « في كل عام ينضج العنب » ما يكفي ذلك الحزين ...

ان عنـد شاعرنا كثيراً من هذه الفجوات التي تحفرها صواعق الفن وتقيمها وادياً عميقاً بين الصورة والفكرة ، بين الكلمة والمعنى ليحلّ فيها الانفعال الشعري . والذي لا يستطيع القفز فوق هذه الاودية السحيقـة لا يخلق شيئاً من الفن .

اللهم شدّد ظهور شعرائنا وركبهم !

اما « سدوم » فهي اخت شمشون قوة ورعباً وفحيحاً :

سكرت بك الدنيا سدوم فكلها   زمر على طرق الحيـاة متعتعه
وأثرت حنجرة الفجور فاطلقت   حممـاً على نغم الجحيم موقعه
أسدومَ هذا العصر لن تتحجبي   فبوجه امك مـا برحت مقنعه
قذفتك صحراء الزنى بحضارة   ثكلى مشوهة الوجوه مفجعـه
بؤر مسترة الفساد بخدعـة   نكراء بالخز الشهي مرقعـه

ثم ينثني الشاعر على نفسه ليشركها في هذا السمر الراقص فيهتف :

أسليـلة الفحشاء نارك في دمي   فتضرّمي ما شئت ان تتضرّمي
انا لست اخشى من جهنم جذوة   ما دام جسمي يا سدوم جهنمي

طوفت بي ميتاً بأروقة اللظى فحملت تابوتي وسرت بمأتمي
وعصبت بالشفق المجمر جبهتي فرفعتها في عصري المتهكم
مهلاً كلانا يا سدوم مسلح فلظاك في جسمي وثأري في فمي

وهذا سلاح الشاعر . واليأس من جسمه ، كأم الجاحظ منه في جهد جهيد . ومن مزايا سدوم هذا الانسجام الرائق والتسلسل المتدفق ، والتقطيع الموسيقي ، فكأنك تسمع سلماً موسيقياً يتصاعد بك رويداً رويداً حتى تبلغ القمة — القافية .

ان ديوان افاعي الفردوس وصف نفس في جميع أطوار الشباب ، ووحدته الشاملة في وصف اضطرابات تلك النفس الجائشة حيناً فحيناً . فكأنه ينفس بهذا الشعر عن تلك النار المحتدمة في صدره فلا ينشق مرجله . ومن الغبن الا ينظر إلى هذا الديوان كفكرة ينثرها الألم لينظمها الشاعر . ان فيها عصارة قلب شاعر مفجوع . وعلى شاعرنا الامين ان يصرخ كابن الرومي :

أأفجع بالشباب ولا أعزّى لقد غفل المعزّي عن مصابي !

وكأنني أرى امامي على كل صفحة من صفحات ديوانه نقطة دم . . . ليست قصائد « افاعي الفردوس » مجموعة قصائد وانما هي قصيدة وا ي قصائد ، تمثل شقاء الشباب في حبه المبكر . وقد اعترف شاعرنا اعترافاً كاملاً عاماً وعلى مسمع من الناس . أرى الناس جميعاً ذنوبه وخطاياه ، واعترف كما كان يعترف المسيحيون الاولون للاخوة جميعاً ، وكما اراد ان يعترف فولتير ولم يسمع اعترافه ... غفر الله ذنوبه — ان كان هناك ذنب غير الفن .

قد يرى غيري في افاعي الفردوس سماً زعافاً ، ولكنه اذا كان من المؤمنين حقاً فانه يشرب السم الناقع ولا يؤذيه . والسموم في احوال

شتى تكون علاجاً مقوياً . وهذا شاعرنا يخالجه شيء من هـــذا فيخاطب « الطـُرح » :

َفلِمَ جئت في سحنة المسوخ حطـَّمت حلماً نما على احداقي ؟
ألأني بذلت حبي ولم اطعمك منه سوى الفتات البـــاقي ؟

رحم الله داود ... اذاً الشاعر مرتاب ، يشك اذا كان مـــا حدث عقاباً لتبذيره ، ومتى كان الشك فهناك الضمير الحي الذي لا يموت :

ان في قلبيَ البغيّ خيالا   من عفاف ما فاجرته البغايا

عمد الشاعر إلى تمثيل شرور الحياة بأقبح أشكالهـــا ، وساعده خياله الجامح فخلق ما خلق . كان شاعر الرؤى والليل ، شاعر الرعب ، المتأثر برؤيا يوحنا ، وأنبيـاء التوراة . صوّر شاعر الافاعي نزواته الظاهرة ولم يتعمق في تصوير الخلجات الباطنية لانه حفل بالنتيجة وترك المقدمات ، وكثيراً ما يستغني عنها الشاعر .

صوّر النفس الانسانية في مباذلها ، وقد وجهته الأقدار في هـذه الى الطريق فـكان ديوانه – كما قلنـــا – اعترافاً عاماً استحق لاجله الغفران الـكامل ، لأنه أتمّ العقوبة التي فرضها على نفسه باخراج « الالحان » ديوانـــه الجديد ، تلك النغمات الشجية كاجراس الغروب ، النقية كندى الصباح .

ان شعر « افاعي الفردوس » يظل حياً بصوره المرقشة الراعبة والوانـــه الغريبة وشدته الجهنمية . ان شيطان صاحبنا كبير ، وكأن الشيخ لوسيفوروس وجه اليه بأنشط رجاله وأنبغهم ... وان نقص هذا الشعر بعض اللمعان احياناً فهو يمتاز من غيره بلون خاص وبصبغة يتفرد بها من أصباغنا كلها ،وحسبه هذا . حسبه ان له فناً قائمـاً برأسه ، لا شريك له فيه ، فيشقى كما شقي في حب « ام طفل » جزاها الله ما تمناه جرير لام عمرو ..

وبعد فليست حكايات الياس في « افاعيه » أشد خطراً من حـــكايات

اوريا ما . وأين توبة النواسي من توبة شاعرنا ؟ ان توبة ابو شبكة أشبه بتوبة ملافنة البيعة :

ربّاه عفـــوك اني كافر جاني   جوعت نفسي وأشبعت الهوى الفاني
تبعت في الناس أهواءً محرمـــة   وقلت للناس قولاً عنــه تنهاني
ولم أفق من جنون القلب في سبلي   الا وقــد محت الاهواء ايماني
ربّاه عفـــوك اني كافر جاني

ما هذا شعراً، هذه صلاة. ماذا قلت؟ اني لاستغفر الشعر، فما الشعر الحقيقي الا صلاة . ثارت نفس الشاعر على امرأة هشمته ولكن جراحـــه استحالت شعراً حياً . فافتدى الفن بدم قلبه الكريم ، واعتقه من عبودية الكـــلام ، وعبودية النفاق وعبودية التقليد .

وكم ولد الايمان من الكفر ، فهوذا الشاعر يهيب بابليس صديق الشعراء :

حـوّل خيالـك عني   ولا تخيّم عليـــا
فليس أهلـــك مني   ولا اللظى من يــديا
لم أغش في النفس مأثم   ولم انادم رجالـــك
ابليس ليست جهنم   داري ، فحوّل خيالك

ألست ترى شاعرنا لاهوتياً جديداً يعتبر النفس غير مسؤولة عن خطـــايا الجسد ؟ فلينعم بالاً فالله غفور وهو القائل : ان كانت خطاياكم كالقرمز فـــأنا ابيضها كالثلج . أبشر يا الياس فما ضحيت من حُمر النعم سيكون قرباناً ومحرقة تصعد في لهيبها إلى السماء كالملاك الذي بشر بصاحبك شمشون ... بربك قل لي : أين انت في احمرارك من الجدلية الارجوانية ؟..

وبعـد ، فهل لصاحب « أفاعي الفردوس » من فلسفة ؟ أيرمي يا ترى إلى تطهير الجسد بالذنوب ليضعف وتقوى النفس ؟

للاستاذ في ديوانه منهج يسير عليه ، ولكن المصابيح المنصوبة في دهاليزه

حمراء كلها ... انــه لاهوتي في الدينونة ، وصوفي احمر في معظم قصائده ، ونواسي في توبته ، وفيلسوف في صلاته الحمراء :

فخّارة جبلت بالدمع والطين ... من عهد قايين او من قبل قايين
ما كان اسكندر فيها سوى شبح ... يحجّب الشمس عن عيني ديوجين

الى ان يقول :

الناس واحسرتاه ... اثنان مختلفان
أعمى له مقلتان ... في العقل مبصرتان
ومبصر اظلمته ... عينان لا تريان

وفي حمارة القنوط يصرخ الشاعر بربه :

ادعوك والظلمة الحمراء تحرقني ... فـلا تجيب وتلوي لا تنجيني

ويلاه كل شيء احمر ، حتى الظلمة ... ترك شاعرنا الرياء ووقف عارياً امام عين الشمس : فما واري ولا وارب .

انه شاعر يريد ان يقول شيئاً غير الالفاظ ، فهو لا يخلق لـك جواً شعرياً ويتركك تتخبط فيه وحدك . انه لا يحجم عن استعمال الملعقة ... اثبت لي ديوانه ان ديواناً صغيراً يستطيع تصوير نفس كاملة فلا حاجة الى آلاف البيوت ومئات القصائد ، اذا صدق الشاعر .

ان صاحب « افاعي الفردوس » أصدق شعراء اليوم على الاطلاق ، وقـد يكون اصدق من اعترف ، من اغوسطينوس حتى جان جاك . واذا كان كل ما نبدي ونعيد مبنياً على الغريزة الجنسية فأبو شبكة في افاعيه شاعرها المنشود . وليت فرويد يحيا ويتعلم العربية ، ففي صرخات شاعرنا مرعى خصيب لعلمه الذي يشغل الناس اليوم .

شغلت العلاقة الجنسية بال شاعرنا فوصف نتائجها ولم يعبأ بغير ذلك فـكان في بحثه النفسي سلوكياً . هو في هذا الديوان مهاجم عنيف لا متغزل مستعطٍ ،

يغلب عنده الذوق الحسي على الذوق المعنوي . وهو في كل حال لم ينس شيئاً ولم يخف شيئاً .

لا اشايع الياس في رأيه بالمرأة ، فهذه المسكينة ذهبت ضحية الاساطير التي خلقها الذكور ، فرافقتها اللعنة طول العمر . ليس من العدل ان تشرب من البئر وترمي فيها حجراً ...

وأخيراً نقول ان شعر « افاعي الفردوس » منخّل محكك وصاحبه مغيظ محنق ككل من ابتلي بحب حاد تواكبه الغيرة كما تواكب المدرعات بواخر الشحن ...

واني لاخرج من هذا الدرس متيقناً ان لنا مدرسة شعرية جديدة ليس لها من اللغة الا المادة الخام تفصلها على ذوقها وهواها . اما تأثرها بآداب الامم والشعوب فلا شك فيه بل هذا ما يجب ان يكون لتدبّ الحياة في ادبنا ، ونخلص من معرض المومياءات التي تتقزز منها النفوس .

وقصارى الكلام ان صاحب « افاعي الفردوس » شاعر رصين ، قوي الخيال ، حاد العواطف ، جامح الارادة ، احدث في الادب العربي اثراً جديداً سيعمّر مثل متوشالح .

واخيراً ما لهذه الكلمة تتقدم وتردها ؟ ما لنا لا نمنحها الحياة ؟ فلنقلها : ان الياس ابو شبكة ليس بالشاعر المتمطي المهروق ...

الياس أبو شبكة
شاعر إلى الأبد

وجه اميل إلى الطول منه إلى الاستدارة ، يزينه أنف ذو شأن نبيه ، وان لم يبلغ شأو أنف ابن حرب. وعينان لا تستقران كأنها محاجر مسك ركبت فوق زئبق . أما أديم ذاك الوجـــه فترابي اللون ، نحاسي او كما قال ابو تمام في وصف عامورية المحروقة .

ضوء من النار والظلماء عاكفة   وظلمة من دخان في ضحى شحب

شحوب وأي شحوب ! . ولماذا لا ، ما دامت الحرب قائمة على قدم وساق في ذلك الجسد النحيل الذي كان ضحية العين والقلب ... معركة دائمـــة بين الكريات البيض والحمر كان محرقتها ذلك الهيكل الذي عرفه الناس باسم الياس ابو شبكة .

يجثم رأسه البين بين ، فوق كتفين كأنها ميزان معلق في الهواء ، فالكفتان دائماً تترجرجان ، وقلمـــا رأينا القب على العاتق ... اما الجبهة فمجعدة ، ولكنها تناطح الجو ، فالشمم في ذاك العرنين ما فـــارق صاحبه حتى على فراش الموت .

اذا رأيته يمشي وشعره كالصوف المنفوش ، يهرول موقعاً خطاه على نقرات

عصاه ، او يسير الهوينا عارضاً عصاه السوداء ، معلقــاً نظره بأذيال السحب كأنه يومي اليها لتنزل اليه ، حسبته عرّافاً يهيم مع الارواح في الأبراج العليـا لا شاعراً يعيش في برجه العاجي .

كان إذا قال لك : حياك الله وبياك ، وتلك كانت تحيته التقليدية ، تخال انك قادم على شرّ . حتى إذا ما قعد واستراح ، اخذت غيمة السويداء تتقشع رويداً رويداً ، ثم يكون الصحو التام .

كان مرهف الحس قد تغضبه كلمة لا تحسب أنت لهـا حساباً . أما إذا انتقدت شعره ، او فاضلت بين نثره وشعره فأنت عدو لدود ، ولا صلح حتى تقوم ناقة صالح ...

خلق شاعرنا العظيم ناريّ الشعور لا يحتـاج إلى أكثر من عود ثقـاب ليشتعل ويطير شعاعـاً . فهو أرق من النسيم متى راق ، وأجن من الأعصار متى ضاق .

التقينا ، قبل ظهـور الداء فيه ، في دار المكشوف فقلت له : استعـد لرثائي ، وامح من قلبك ذنوب النقد، فالموت غفّار . فأجاب : أنا مستعجل . ارثِ أنت وكن منصفاً .

كان يقول لي ، كلما اجتمعنا ، انه أعـد رسالة جواباً على نقدي ديوانـه « افاعي الفردوس » وكنت كلما رأيته اطالبه بها وأسأل أين هي ، فيعبس ولا يضحك كهند عمر حين يقول : بعد غـد ... ثم مضى لسبيله ومـا جاء ذاك الغد ... فـكم أنا مشتاق إلى معرفة ما فيها .

ومرض الصديق العزيز فعدتـه مرتين ، وقد علقت بذهني صورة ذلـك الـكاهن الذي دخل ليصلّي له ، وأنا عنده ، فاذا بشاعرنا ينسى أنه مريض فيقعد في فراشه بخفة عجيبة ، و « يصلّب » برشاقة كأنهـا لمع اليدين الذي تراءى لامرىء القيس ... فخلت انني أزور الشاعر الفرنسي فرلين قبـل

الاحتضار .

عاش الياس للحب والشعر ، ولست أدري من الذي أفضل منهما على الآخر، أحب الياس الذي أحيا شعره ، أم شعر الياس الذي خلّد حبه ؟

كان الياس يعزف على أوتارٍ عديدة ، فهو في « القيثارة » و « الالحان » غيره في « أفاعي الفردوس » و « غلواء » ، وهو غير هذين في « نداء القلب » و « إلى الأبد » . كان شاعراً هائجاً كالنمر في الأفاعي وغلواء ، وحسبك منه هذا البيت :

تراب القبر أنعم من فراش | على جنبيه ثعبان وحوت

ثم صار كالبحر الساجي في « الألحـــان » و « نداء القلب » ، وأخيراً استحال حبّاً خالصاً في « إلى الأبد » . إن شعر أبو شبكة كلّه مستمدّ من شؤون حياته وشجونها . إنه هو نفسه موضوع شعره ، فما خرج قطّ من حيز ذاته . وصف أفراحه ، وما أقلّها ، ووصف آلامه ، وما أكثرها . إن حبّه لحبّ باكٍ . وإذا كان لكلّ شاعر قطب تدور عليه رحاه ، فمحور شعر الياس الحبّ . هو الشاعر الرومنطيقي الصرف . متأثّر بالتوراة مستغلّ لهـــا كالرومنطيقيّين العالميّين ، وكم في التوراة من مرعى سمنت عليه الرومنطيقية . وكما تدلّل بعض الشعراء على ربّهم كذلك فعل الياس في بعض شعره ، وأخيراً مات وملء قلبه رجاء وايمان .

ترك شاعرنا الياس أثراً بعيداً في نفوس الشباب ، فقال الأديب الذي رحل منـــذ أسابيع – الاستاذ فؤاد سليمان – حين ظهر ديوان أفاعي الفردوس : الياس أبو شبكة يسوق الشعراء بسوط من نار !

أحدث موت الشاعر اللبناني فراغاً كبيراً في دنيا الأدب فقام صديقه الوفي الشيخ فؤاد حبيش بطبع كتاب عنوانه : « الياس أبو شبكة » ، فكتبه معظم الأدباء البارزين معبّرين عن آرائهم في الشاعر الراحـل ، فكان الياس في نظرهم

جميعاً شاعراً كبيراً مهر الشعر المعاصر بطابع خاص. ولم يكتف الشيخ الحبيشي بهذا ، بل نشر في آخر الكتاب نتفـــاً من مذكـرات ورسائل تلقي نوراً على زوايا حياة الشاعر فتنير الطريق أمام الداخلين إلى دهاليز شعره .

شعر الياس أبو شبكة وليد حالات نفسانية . كان ذا نفس متـقدة وشعور حادّ ، فعبّر عن آلام لا حدّ لها ولا طرف . ينتقل من ليلة قيسية إلى ليـلة نابغية ، والصبح منه بعيد . متأثـر بشعراء الفرنجة ، ولكنـه ما مدّ يده إلى حوائجهم وان اشبههم في حبّهم الصاخب . يعرف ميسه وبودلير ، ويستلهمها ولكنـه لا يشتهي مقتنى غيره فيقطع منه مـا استطاع . ينحو نحو الفرد ده فيني في استيحاء التوراة ، ولكنـه لم ينظم الموضوع عينـه . لم يذكر سدوم ، ولا دليلة وشمشون إلّا لغرض في نفسه . فهو لم يعرض كغيره لبنت يفتاح ليقول في موضوع ما ، بل لأن له هناك مأرباً .

في خلقه اباء حتى العنجهية ، يريك نفرات هي بنت عم الجنون كلالة ، في أحشائه آلام متـقدة ، آلام من الحب ، آلام من أعباء الحياة ، حبّ مجنون يشمخر كوقيد البلّان ، يتعالى حتى يدرك السقف ثم يهبط رويداً رويداً .

أرأيت إلى القدر الفائرة وقد بلغت الجمام ؟ فنقطة ماء تردّها الى مستقرّهـا قبل الفوران . هيجان ، فوران ، غليان ، هذا هو الياس الشاعر .

شاعر رومنطيقي من الطراز الذي حـــدّده لانسون : غضب في الهوى ، وغرابة وقحة في الألوان المحليّة .

محموم يتذكـر في دور حمّى الحبّ الجديـد جميع مـا مرّ به من نكبات القلب . هوى عاصف يكبّ على الأذقـان دوح الكنهبل ، ولا يترك من تياء جذع نخلة .

لم يكن يعنيه ما يعمله غيره ، يريد أن يبني بيته على هواه ، وهو معجب به ويريد أن يعجب به الناس . يحبّ العراك الأدبي ويشدّ شدّات لا بأس بهـا

ولكنّه لا يثبت ، يكرّ ويفرّ .

قرزم في القيثارة ، واشتدّ في أفاعي الفردوس ، ومشى الهيدبى في غلواء ، ورقّ في الألحان ، وأرسل السراج لهبة الانطفاء في « إلى الأبد » .

الشعر عنده لغة القلب ، وخيره ما كتب بالدّم . سوداوي المزاج ، لا ينظم إلّا مهتاجاً فيؤثّر شعره في قارئه . فموضوع شعره — من أوّله إلى آخره — الياس أبو شبكة . هذا ما ظهر لي إلّا إذا كان الياس نهماً لا يشبع . ولهذا أرى الكآبة سائدة على شعره .

هو شاعر كبير في وصف الآلام الحبّيّة التي يشوبه الشكّ في اخلاصها ، وكأنه اتخذ شمشون موضوعاً ليصف اهتزازات قلبه الجبارة ويتهدد بسقوط البيت على ساكنيه ...

يصوّر أحسن تصوير خيبة الحبيب ولكن بكبرياء فيها كثير من انسحاق القلب . وهو إذ يصور نفسه وبلاياه الايوبية تحسبه يحدثك عن غيره . قلب لم يهدأ ، وآلام ما انقطعت إلا لتتصل ، فكأنها الليل والنهار يتبع أحدهما الآخر ، وهكذا دواليك .

لست أشك أن فرح الياس لا يخلو من الألم ، فكأنه صورة الدنيا التي يسميها غيري وادي الدموع . لا يفكر ولا يتفلسف ، كثير النقّ ، والخلاصة ان الحب الباكي لهو حب الياس ابو شبكة ، حب شاعر « الى الأبد » .

لكل شاعر محور ، ومحور شاعر « إلى الابد » الحب فأبو شبكة لا يدع لغة اللحم والدم حتى في « الألحان » ، فيهيب بالفلاحين :

هيا احصدوا ، وانشدوا   الحب قلب ويد ، والعمر زرع وجنى

وفي « المساء في الجبال » ينشد أيضاً :

اسمع في الوادي رنين الجرس   يذيب روح الله في المتعبين
فتنحني نفسي ويصفي النفس   ويطهر الحب ويبقى الحنين

هذه أبرز خصال الشاعر الرومنطيقي . فهو يرى نفسه في كل شيء من السنديانة حتى العجرمة . وهذا شاعرنا ، في « نداء القلب » يذوب قلبه في إناء من الهوى ويعرضه على الانس والجن . لم ينفق هذا الترياق حتى عند زملائه الشعراء ، فكان صاحبه أحق برزقه ، كما قال :

فأدنيته من مُرشفي وشربته ... وما زال ماء الحب ملء اناثي

وما دام له الحب فهو بألف خير لأنه :

إذا هجر الحب دنيا القلوب ... فما تنفع الحطم الباقية

لا يقول شاعرنا في الحب لأجل الشعر والفن ، بل لأنه شكوى تباريح ، وعرض ملاذ ، فهو في أناشيده كالطير في تغريده ، والجمرة لا تحرق إلا في موضعها ...

أرى بين الياس ابو شبكة وعمر بن ابي ربيعة قرابة فنية دموية ... والفرق بين الشاعرين هو أن هذاك من الطيور القواطع وهذا طائر مقيم . هذاك حبيباته كولائم الأعراس — عبد هارب — منهن طعام يد ، ومنهن طعام يدين. وهذا يريد أن يجعل من واحدة فقط مأدبة سرمدية . ففي « إلى الأبد » سلام واطمئنان كأن الشاعر في ليلة القدر ، أطفأ الفانوس الأحمر وأسرج قنديلاً أنقى نوراً من قلب الألماس في خنصر الحبيبة .

لم يحدد شاعرنا حبيبته جغرافياً لأنه لا يخشى اعتداء على تلك التخوم ، ولم يحول وجهه صوب عرائس التاريخ — اللهم إذا استثنينا الاسم ليلى — لأنه لبناني يؤمن بالملكية الضيقة ، ولا يعرف الاقطاع والمشاع .

ما شبهت شاعرنا الا بوافه — سكرستاني — ورع يعرف كيف يوقر الهيكل على أعين الناس ، فلا يمر أمام قدس الأقداس إلا متهيباً . جلـّل حبه الجديد بطرف من الجبّة الفارضية. حب عميق ، قريب بعيد ، يتراءى كضوء مصباح ضئيل في ليلة سوداء . قد تطوّت تلك « الافاعي » وليس

هنا غير حب جديد ، حب ليس لتلك الانسانية فيه أقلّ وصف للجسد ، فكأنه من العالم الثاني . أفهمنا الشاعر ما يريد لأنه فاهم ما يقصد ، هو واعٍ ونحن واعون ، والحمد لله . لا يغممم كالذين جعلوا من عشرات الألفاظ قبوراً للفكر الانساني ، فانقطع شرر الوحي . ان شاعرنا هنا غيره في « الأفاعي » و « غلواء » ، مع الاحتفاظ بالصلة الفنية والصبغة الشخصية . لا أنكر ضراوة معركة « إلى الأبد » ولكن جبهتها بعيدةعنا جداً ، فاتسمت بالسكون، وهنا سموّ الشاعر الملهم .

قال عمر بن عبد قيس : إذا خرجت الكلمة من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان . فصرخة شاعر « الى الأبد » خارجة من الأعماق لتستقر حتى في أعماق الذين لم يبق عندهم غير فضلات المادية ... ان العاطفة الفائرة كالنهر المنحدر ، هـذا يصقل الحجارة حتى النخاريب منها ، وهذه عبّدت طريق الفن فجاء نشيد « الى الأبد » موسيقى خالصة .

أما الموضوع فوصف أحوال الشاعر في ثلاثة أعوام . شعر من أصفى الشعر وأسماه ، يصوّر الشعور الانساني في هذا النعيم المقيم ، مع تلك المخلوقة : قلب يدق وعين ترى .

فاسهري فالعجوز نامت على المسند سهرانة . . . عليها السلام

ان تلك المرارة وذلك الغضب لا تجدهما في « الى الأبد » . ان بطلة « أفاعي الفردوس » عينها شاردة ، ورأسها خفيف ، وصاحبها ، ككل عاشق ، عينه ضيّقة ، فقام بينهما القرد ... أما هذه ، رضي الله عنها ، فراضية بما قسم الله لها .

ان الشعور الانساني يهتز كاملاً غير منقوص في هذه الملحمة الحبيّة ، إن صحّت التسمية . فكأنها أجزاء كائن حي ، يتمّ بعضها بعضاً . ان

عنوانها شغل بالي ، وليس هنا مكان هذا البحث ، وأرى شعرها قد ارتفع الى ذروة الشعر الغنائي ولم يعرقل القصص سير الفن . هناك وثبات رائعة تدل على خيال مرح مرخى له الزمام . الشاعر طروب جداً في حبه الجديد ، يراه كيوم لذة ، دونه يوم دارة جلجل ، ولا عيب فيه غير خوف شاعرنا على انقضائه . وكأنه وسمه بعنوان « الى الأبد » تفاؤلاً ، كما سمّوا القافلة والسليم .

أحسن الشاعر الى فنه وإلى الناس إذ خبأ العمل ... فلم يقع فيما وقع فيه عمر ... استعان كالمصوّر اللبق بغلالات رائعة ولم يعمل بقول الوقاح من العاشقين « بحنا واسترحنا » ، فالبائح والبائحة يهتكان سبيل الحب .

ان « الى الأبد » واحات ، وبين الواحة والواحة فجوات وأحداث . وفي النص الأخير تذكّرني الحبيبة بسذاجة الطفولة ، فشاعرنا يقص عليها ، وهي تقول : قل بعد ، ثم ماذا ؟ والشاعر يقص ويجيد ، فيسمعك ثرثرة الينابيع في الوحدة الخرساء ، وهكذا يكون شعر العاطفة ، ولمثل هذا شبّهوا شعر عمر بالفستق المقشر ، في عصر الخشونة والضخامة .

يفتح الشاعر طاقة على الشعر الحديث ولكنه لا يطل منها الا عرضاً ، فشأنه في هذا شأن كبار الشعراء العباسيين ، له وثبات رائعة جداً لا يتعمدها ، وقد أحسن إذ دفع الينا نشيده الرائع بلا مقدمة . كان له عذر فيما مضى ، فعلى من يرسل « أفاعيه » أن يحذّر الناس .

أرى الشاعر ، اليوم ، في حرم ، ولعله تخيل ذلك فبدأ نشيده بالصلاة ، كأنه كاهن الحب الأعظم يصلّي قبل تقديم الذبيحة أو المحرقة . إذا قدّم ابراهيم ابنه محرقة ، فالياس – والياس نبي – يضحّي بقلبه اليوم . ولالياس ، بعد المحرقة ، لفتة الى سواه كلفتة سميّه الى كهنة البعل . لم يقتل ولم يذبح مثله ، ولكنه اكتفى بالقول :

نحن عدن وهم مكان مريب   شقيت فيه أعين وقلوب

أما فاتحة هذا النشيد الحيّ ففيها دلال متناهٍ . سقطت فيها بين الشاعر وبين ربّه كل مؤونة وكلفة حتى أدرك مار افرام ، وفعل كما قال داود بعدما أكل الخبزين ... خبز التقدمة ورغيف أوربا ... — : القِ على الرب همّك وهو يعولك . ولكن أخا عمر زاد على داود شاعر التوبة عتاباً حلواً ، وجّهه إلى من على العرش استوى بقوله :

ان تكن تحرم العزاء المحبين   فماذا تركت للشعراء
ربّ صنها وأبقها لي ظلاً   من حنان يمتد في صحرائي
وارفع الألسن الخبيثة عنها   والأذى في اللواحظ السوداء

وهنا يعتورني شك فأقول : لماذا قال سوداء ولم يقل زرقاء ؟ والكلمة المأثورة : العين الزرقاء كالسنان . إذا صدق الظن كانت عين هذه المليحة ، حرسها الله ، زرقاء . والله أعلم .

وبدلاً من أن يثور الشاعر ويتفلسف ليبرهن لنا أن حبه مقدس لا إثم فيه ولا حرج طفق يحدث ربّه غير متكلف وسأله أن يحول عينه عن كل انثى سواها ، وأن يسكّر سمعه عن الأنباء ليظل متمتعاً في نعيم هذا الحب المقيم ، ولكن ما كلُّ ما يتمنى المرء يدركه ، وإلى أين نهرب من وجه هادم اللذات ؟

أبو شبكة الكاتب

لم تطل مدة هذا الاديب ولكنها كانت مملوءة بالروائع التي يزدهي بها تاريخ أدبنا. لقد أحدث شيئاً يذكر في هذا التاريخ . ذرّ نجمه على مقعد المدرسة فكان ذلك التلميذ المزعج الطماح ، وكتب له منذ تلك الساعة شقاء من تدركه حرفة الادب ، وابن اليسر لمن يكتب في مذكراته بلهفة انه قبض يوماً ثلاث ليرات لبنانية ، وان إحدى الصحف شاهرته بخمسين ليرة ، وهلم جراً .

كان شاعرنا ربيب بيت لبناني مستور . تدخل ذلك البيت ، وهو ما زال كما تركه المورّث ، فتراه حارة تدل على يسر صاحبها . فحيطانها مدهونة ، وأرضها مفروشة بالبلاط الرخامي ، وغرفها واسعة وعالية ، و (الدار) فسيحة ، وهذا هو طراز البناء البورجوازي اللبناني . كأنما أعد ذاك البيت الرفيع العماد ليأوي اليه شاعر ثائر شقي ، بائس تأبى عليه أنفته ان يظهر امامك في مباذله ، فاستطاب شقاءه ، والشقاء هو الحياة بل لا لذة للحياة اذا لم يكن الشقاء .

سعى الياس إلى الوظيفة ليعيش مكتفياً ، ولكن الوظيفة لم تستقبله ببشاشة ، فلجأ إلى احد النافذين من رجال الدين . وبعد الف رح وتعال ، كانت خيبة الأمل . فقال له ذاك الوسيط متهكماً : « اعمل خوري يا لياس » ، فجن جنونه وكتب على أثر تلك المزحة السمجة مقالة داوية بهذا العنوان . ولما بلغ الثامنة

والعشرين كان في أوج سخطه على البشر ، فكتب مقالة عنوانها « أنا » مبدياً اسباب سخطه وحنقه على البشرية ، وأشار إلى هذه الحادثة ، قال :

« أقنعني احد المسودّين بقبول وظيفة ، فرضيت بعد ان اشترطت عليه الا يكلفني حفظ الجميل لجيش من الناس ، اذ لا طاقة لي على ذلك . فرضي ورضيت وبدأت المهزلة . جعل هذا المسودّ العظيم يحمّلني رسالات وبطاقات مقفلة الى المراجع حتى عيل صبري . واخيراً دفعني التطفل الحكيم الى فض رسالة فاذا فيها :

تظاهر امامه باللطف وعده خيراً لانه « زاحني » بطلباته وزياراته المتكررة . ماذا جدّ بمسألة فلان ؟.. اني اعلق اهمية كبيرة على نجاحه لأنه يستحق الالتفات ، ولا تنس انه خدمنا ايام الانتخابات ولا نزال بحاجة اليه . »

أجل هذا ما كان في تلك البطاقة ، ومثل هذا الحدث المخزي الدال على رياء البشر ومراوغتهم واستهزائهم بأباة النفوس هو الذي أسخط الشاعر الذي قال فيما بعد : « هذا هو احد الأسباب التي تدفعني اليوم وغداً إلى الثورة على البشر . أمحقٌ انا أم مخطىء ؟ أيجوز ان أصبح ساعي بريد مضحكاً بعد ان كنت بلبلاً وكناراً أغرّد لأطرب الناس ؟ »

واخيراً ينصح كل من تحدّثه نفسه ان يطلب بطاقة توصية ان يفضها قبل ان يكلف جيبه دفع اجرة سيارات .

قلت : ولعل ركض الياس وراء الوظيفة وإخفاقه هو الذي احنقه حتى كتب خير كتبه في النثر ، ذاك الكتاب الذي عنوانه « رسوم » وأظنه خير ما كتب في فترة عصبة العشرة . لقد صوّر فيه الكثيرين من الرجالات اللبنانيين من رؤساء جمهورية وحكومة ، ومن وزراء وأدباء . احدث هذا الكتاب ضجة كبرى في ذلك الزمان ، ولكنه لم يوصل صاحبه

الى وظيفة دخلُها اعطنا خبزنا كفاف يومنا . فظل طول حياته القصيرة يذرع الأرض بين الزوق وبيروت مغنيـــاً على ليلاه .. اما كيف خلق ابو شبكه تلك الصور والرسوم الرائعة فهو يحدثنا عن تلك العمليـــة القيصرية بقوله : « لست من الكتبة الذين يستطيعون ان يخلقوا شخصيـة من غير ان يكون هناك موديل لها . فعندما افكر في موضوعي استعرض في مخيلتي شخصاً خبرته عن قرب ، واجمل شرحه كما اريد انا لا كما يريد هو . قد اضع في فمه كلاماً لم ينطق به في حياته ولا عهد له بمثـــله . وكثيراً ما سخـّرت لأجل ذلك عـــدداً من اصدقائي وصديقاتي وهو لا يشعر . فغضبوا علي وتجنبوني ، ولكني اعلم اني اذا عدلت عن هذه الخطة تجف مخيلتي وينضب قلمي او اصبح مقلداً مهذاراً . »

هذا هو الياس ابو شبكة الناثر الذي كان يكتب محنقاً وكأنه يلعب بالحكم . ضربة على الرأس ، نكزة في الخاصرة ، وطعنة يطير لها القلب ولكنها لا تقتل ، بل لا تؤذي . اما الياس الشاعر الرومنطيقي الثائر في افاعي الفردوس وغلواء ، والشاعر الهادىء الناعم في الى الابد والمريض الصامت ، فما اكثر من عرفوه ويعرفونه من الناطقين بالضاد ، وقد نقدت دواوينه سابقاً :

فاذا ركع فارلين حافياً في غرفته وصرخ : رباه ، هب لي البساطة ، فالياس كان يركع حتى في اشد ازمات مرضه هاتفاً : يا رب لا تُجز عـنّي كأس حبها . بل دعني اشربها حتى الثمالة الى الأبد

بقي عندنا الشاعر اللبناني الراعوي ، صاحب الالحان التي يضارع فيها فرنسيس جيمس . فهذه الالحان تنزل في هوة اذنيك لتستقر في اعماقك . ان هـذا الشعر اوحى به المحيط الذي نشأ فيه ، محيط الزوق وبكركي وحريصا ، وذلك الجبل الذي لا يقلع ثوبه الأخضر ، ومحيط جرود كسروان

حيث الفلاح اللبناني الاسمر يأكل خبزه بعرق جبينه ، فاذا تغنى الياس برنين الاجراس وأثرت به فهو ربيب القباب القائمة حوله وحواليه . وكم تعلق بحبال اجراسها صغيراً ، وكم فرّ كالفراشات في تلك الحقول بين المعاصر وعلى البيادر ، وها هو يردد صدى الحداثة والفتوة ويتغنى بذكرياتها .

كان الياس يحب الحياة ويهيم بها ، ولذلك عبَدَ الجمال في الجسد الانساني الذي هو مستودع الحياة والجمال الأسمى ، ومن تعلق بمحيطه الرائع تعلق الياس لا بد له من ان يقول في وطنه كل ما قاله الياس في ختام «الألحان» :

يا بلادي لك قلبي   لك آمالي وحبي
وجهادي يا بلادي

إلى ان يختم هذا النشيد بهذه الصرخة الدامية :

طهّري اليوم دمي   وغداً كوني فمي
يسترح فيك رمادي
يا بلادي

أجل لقد استراح ذلك الرماد ، ولكن اشعاعه يزداد مع الايام ، فلا سراج يضيء وينير بعدما ينطفىء إلّا الأديب والشاعر .

والذي يكبر بعد الموت هو الأديب الحق ، والشاعر المبدع .

والخسارة التي لا تعوّض على بلد هي ان يبكر ادباؤه في الرحيل ، ويبارحوا الديار قبل الموعد .

مات أبو شبكة ، شاعر الحب والألم ، حين نضج . مات حين رجونا ان يضيف إلى كتاب أدبه الحي صفحات جديدة باقية . فللشباب طعم ، وللكهولة دسامة ، وللشيخوخة حلاوة ان ظل العقل في الرأس .

فيا أخي الياس ، لا أعزي فيك أحداً غير لبنان الذي تغنيت بكل ما فيه من جمال أزلي ، وحسن أبدي .

أما نحن ، يا أخي ، فماذا فعلنا لك ؟ آه واأسفاه ، اننا نرى مجدنا في آثارنا المتهدمة ، وقد أصبحت انت واحداً منها .

نم هانئاً وانعم بهذا الذكر فقبلك تمناه شاعرنا الاعظم فقال :

ذكرُ الفتى عمره الثاني ، وحاجته   ما فاته ، وفضول العيش أشغال

لقد مت" فقير الجيب ، غني النفس ، ولكنك باقٍ . هــذا هو « الترمس » الذي نتسلـّى به عن اللوز ، كان الله في عوننا .

أمين تقي الدين

عذرت الموت لم اوسعه ذاما جلال الموت ان تدع الملاما
رسول الخلد في الدنيا يؤدي رسالته إلى الدنيا لزاما
غشا لبنان يحملها فلما أطل الفجر مرّ بها لماما

هذا ما قاله أمين تقي الدين في الموت ، ونحن على دينه ، وفق الله رحلته وسهّل طريقه وعسى ان « يعود » الينا احسن حالاً ... فقد مرّ ببوتقة الدهر وخلص بغتة إلى عدوة الخلود . راع لبنان موت شاعره الأوفى ، فحامت العيون حول ذلك الفلك الصغير يخفق عليه بيرق الفن ولواء العبقرية ، وما لفه ليل العدم بذيل ردائه ، حتى نفضوا ايديهم من ترابه وانقلبوا عنه يرددون :

فيا لك نجمة لمعت فغارت فصارت في فم الدنيا ابتساما

يا صديقي الجديد !

ليت شعري ، اعلمت انك استحققت شكر لبنان ؟ أشعرت ان الجبل الذي لم تتحوّل عن حبه قط ، ولم تشرك به احداً ، ولم تضرب قيثارتك الذهبية الا لتمجّده ، أشعرت انه وقف امس حيال نعشك يقدر اخلاصك ، ويذكر فتاه الأمين ؟.. ضيعك حيّاً ، ولم يسمع صرختك المرة :

متى انت يا وطني مسعدي لقد افلتت همتي من يدي

ومتّ فجاء ليسعدك ، ولكن بالبكاء . وهذا حظ الاديب من دنياه .

ما كنت يوماً يا أمين ابا قلمون ، تودع الرائح ، وتستقبل الجائي . نشأت لبنانياً ، وعشت ما عشت لبنانياً ، ومت لبنانياً ، وحسبك انك القائل منذ ربع قرن :

كان في لبنان عهد طيب ... رحم الله الزمان الطيبا
يا بني لبنان ، لبنان اذا ... ما تباهينا دعوناه ابا
نسب شرّفنا بين الألى ... قيل عنهم يدعون النسبا
مرّ بالدهر ابونا أمردا ... وتمشى فيه شيخاً اشيبا
نحن للشيخ بنوه والوفا ... ان يرى أنا بنوه الأدبا
انما نحن اختلفنا بيننا ... حين يقضي العقل ان نعتصبا
فركبنا كل يوم مركباً ... وذهبنا كل يوم مذهبا
كلنا يسعى إلى غايته ... ليس فينا من يضحّي مأربا
ليس فينا رجل الشعب الذي ... ان دعا الواجب لبى الطلبا
وجعلنا الدين فينا فارقاً ... فتفرقنا به أيدي سبا
ويح لبنان اذا داع دعا ... فبنوه عن بنيه غُربا

ما أمر خيبتك يا أمين ! لقد متّ في أعصب الازمنة ، في زمن عادت فيه الطائفية جذعة ، وهي تتمخض لتلد أشأم من غلمان زهير .

أرأيت كيف يصوّر أمته شاعر القوم ؟ ألمست الأسى يقرض فؤاده ؟ لم يكن امين إمّعة فيخلو من الهمّ ، بل كان راسخ العقيدة ، ضاحك الجبين كصنين ، ناضر الفكر ، صابراً كالارز يهزأ بالعواصف ولا ينحني تحت الثلوج ، لا تأخذ شمس آب شيئاً من ماويّته فيذبل . ان صباحه وظهره ومساءه سواء .

لا تخف يا امين ، فلا شيء يستطيع ان يذوي طيفك الدائم ، لا شيء

يفقدك هذا الجمال الذي نعجب به ، ولن يفتخر الموت بأنه رآك ذاويـــاً في ظلاله ، فالشعر الخالد يحمل اسمك وينقله من جيل الى جيل . وما دامت القلوب تخفق والعيون ترى فهذا الشعر يحيا ويحييك معه .

لم يبقَ من أمين ، بعد ما أعاده الموت أدراجه ، إلا الشاعر المشرق الديباجة الذي قال كثيراً من فاخر الشعر ونادر الكلام . نعم لقد مات الرجل ، لقد مات المدره ، لقد مات كل شيء إلا الشاعر .

كان أمين شاعراً مقلاً ، لا يسمع الناس شعره إلا اذا ابدع وأوتي شيئـــاً طريفاً . يسري شعره في الاسماع كما يستطير النور هادئاً رزينـــاً باسماً . كان أمين يعمل للتجديد يوم كان الشعر يرسف في قيود التقليد ، فهو لا شك من المجددين ، ولكنه لم يكن ممن يدينون بالطفرة ، فأسمع الناس كلاماً لم ينكروه وجديداً أكبروه . وإذا أرّخنا التجديد في الشعر كان من الذين حلّوه من اصفاده ، فحمله رسالة جديدة الى الوطن والمجتمع ، وارسله رائعاً تحسه ، ولا تستطيع تحديده .

أشرفنا على عالم الادب فإذا اسم أمين تقي الدين مــلء آذاننــا ، وشعره في أفواهنا نردده بين جدران مدرسة الحكمة التي جئناهـــا بعده . نظم استاذنا الجليل شبلي الملاط « الجمال والكبرياء » ، ذلك الموشح الرائع الجديد، في حينه ، فنظم أمين « الجمال والتواضع » الموشح الآخر البديع ، فكانا حديث الناس في مطلع هذا القرن ، وبهما خطا الشعر في لبنان خطوة جديدة أعجب بها الناس ، ومشى الزمان ومشينا ، وها نحن حيث تعلمون .

كان أمين تقي الدين إذا سئل قصيدة يعد خيراً ، فان وفّق وفى ، وإلا فيخلف ولا يبالي ، لأنه يؤثر الفن على العالم أجمع ، ولا ينشر الشعر إلا إذا رضي عنه . وقال أمين الشعر في اغراض مبتذلة ، ولكنه كان في كل مقــام يخلع على مقاله حلـّة من بيانه . تقول في نفسك : ما عساه يقول أمين اليوم ؟

أغير كذا وكذا ؟ وإذا به ينقلك الى عالم غير الذي ظننت ، وإذا بك تكبر ذاك الدماغ الخصيب .

خصت الطبيعة شاعرنا بإذن لا تكذب ، وذوق لا يغش ولا يخدع ، فقلّ في شعره النمش والبثور ، وخلا من الدمامل والقروح . لزم في أكثره حدود الاعتدال فهو لا يبالغ ولا يغلو ولا يقول ما لا يحتمله الناس .

عرفت أمين تقي الدين في الخبر زمناً ، وعرفت شخصه منذ عامين وأشهر ، والشكر لمدرسة الحكمة التي جمعتنا خطرتين ، وكان آخر العهد منذ اسبوعين ، حيث قعدنا جنباً لجنب نتحدث ولا نحسب ان الموت يتلصص ليغتال أحدنا .

مات أمين ولكنه أدّى رسالته ، وإن قلّت كلماتها ففيها الغنى عن الكثير . كانت « زهوره » باكورة موسم التجديد في القاهرة وإن لم تعمر فذاك عمر الزهور . وها هو يلحق بها تاركاً خلفه ما تتركه الحسناء المتطيّبة بعد مرورها ، وإن تمنينا فنتمنى أن نرى هذه الآثار مجموعة لنقول فيها كلمة صارمة غير مطّاطة كهذه .

أما الذي نقوله الآن ، ولا رجوع عنه ، فهو ان أمين تقي الدين شاعر شاركَ في التجديد ، وهو من مؤسسي النهضة الجديدة ، وألمع شعرائها . ولو انصرف الى الشعر انصراف أحمد شوقي له ، وتهيأ له ما تهيأ لذاك لكان مثله قيدوم شعراء جيله . ولكن شاعرنا قال أكثر شعره مدفوعاً اليه ولو تركوه لعدّى عن أكثره .

لا نسأل الأدباء شيئاً لأمين ، فهو غير يتيم ، وامه مدرسة الحكمة اخت الرجال فستقيم له يوماً مشهوداً يذكرنا أيامه فيها ، ولأمين أيام مشهودة ، ولا عجب إذا جلّى الأصيل .

وآخر ما سمعت من شعره العذب بضعة أبيات نظمها نشيداً ، رواها لي صديقي وصديقه الاستاذ رشيد كنعان يوم السبت الماضي فحفظت منها بيتاً لعله كما أرويه :

خبأت يا ليل فيك همي   يا ليل من خبّر الصباحا

أجل هكذا بات أمين شجياً وأصبح خلياً . ترك همّه في فراشه وانسل غدوة كالضيف الخفيف الظل . هنيئاً له فقد استراح !

وإذا كان آخر العمر موتاً   فسواءٌ طويله والقصيرُ

ذكر الفتى عمره الثاني ... هكذا قال المتنبي ، ومن أحق بالذكر من أمين تقي الدين الذي خلف لنا أسرتين أدبيتين : أسرة عامة وهي هذه الذرية الأدبية التي كان لها الأمين أباً بالمثل ، وفي ذلك يخاطبه الشاعر الملاط :

أجبني ، هات . أنشدني جديدا   أتسكت يا أمير الصادحات !!

نعم ، كان أمين أقدر شعراء جيله على إخراج موضوعه المبتذل بشكل يستهويك ويغريك . يسلّم مخروقاً ويعطي مجدداً ، وهكذا ينجو الشعر وتنفرج الأزمة ولا يبرح الشاعر من قمته . فأمين طاهٍ فنان يعدّ لك من إدام ضئيل ، ومؤونة هزيلة ، مأدبة تشبع العين والقلب .

كان شاعرنا نفاثاً في العقد البيانية التي يستعاذ بالله منها ، يزاوج بين الألفاظ ويقرنها قراناً مباركاً داعياً لها بالرفاه ، فتعيش أهنأ الأعمار وأطولها . أدّى رسالته في القطرين مبشراً بعهد الفصحى القديم الجديد ، فجمع في مجلته محصولاً نقياً يوم كان البيدر خليطاً من قمح وزوان وشيلم ... قالوا عن أبي تمام انه في انتقائه شعر ديوان الحماسة أشعر منه في ديوانه ، واني لأظلم الأمين اذا قلت ذلك في مجلته « الزهور » فقد اعتدل ميزان انشائه وانتقائه ، فما انحرف القب ولا مالت الكفة .

أما الاسرة الخاصة فينكشف لك سرها متى عرفت ان امين تقي الدين هو الأرومة التي نبتت عليها فروع اسرة تقي الدين الأدبية المشمخرّة . أما قام الى جانب امين ابن عمه أحمد فكان شاعراً مجيداً من الطراز الأول ، ولا ننسَ أخا الأمين رشيداً فهو لو لم يطلّق الأدب لكان بزّ أبا نواس في الظرف والنكتة . ثم شبَّ في كنف امين ابنا أخيه الأديبان الكبيران الاخوان خليل وسعيد تقي الدين وهما اليوم ملء عين الزمن .. كسيفنا والقلم .

هكذا كان امين باكورة الادب اللبناني في حقليه العام والخاص ، وقد رفعت هذه الباكورة قبل ابانها قرباناً لآلهة الشعر والادب فكانت كقربان هابيل برغم أنف قايين .

كانت نفس امين الأبية حِملا ثقيلا عليه ، فكبرت همومه ولازمته كالتوابع ، فوصفها وأجاد . ذكرنا بالاعشى والمحلق حين قال :

أنا والهمُّ صاحبان كلانا صادق الود حافظ للعهودِ
ما افترقنا حيناً من الدهر حتى جمع الدهر بيننا من جديدِ
نسهر الليلَ صامتين لئلا يكشف الليل سرنا لحسودِ

وكيف لا يهم رجل هو مثال الطموح اللبناني والاباء العربي ، فيقول من قصيدة لصديقه حافظ ابراهيم :

خلع الشقاء عليَّ كل لبوسهِ لما خلعت عباءة الاعرابي

أليس امين ابن بعقلين التي تؤلف مع دير القمر وبتدين مثلثاً يذكرنا ، كلما ذكر ، بالامراء فخر الدين ويوسف وبشير ؟ ان شاعر لبنان يحس مجد لبنان لأن منظر وكري نسريه القشمين يصبّحه ويمسيه : سمع امين من آبائه وجدوده أن اللبناني ، في ذاك الزمان ، كان لبنانياً فقط ، فآلمه تبدل تلك الحال فقال :

وجعلنا الدين فينا فارقاً فتفرقنا به أيـــدي سبا
ويح لبنان اذا داعٍ دعا فبنـــوه عن بنيه غربا

ولما طغى الأدب على مخيلته حدد لبنان ببيت عندما رثى الشاعر اديب مظهر فقال :

ذكرتك في بـــلد يزدهي بالادب الغض على فقره

ولما صدرت فتوى فرساي وعدّ لبنان بالغاً غير رشيد ، لم يذعن شاعر لبنان لهذا الحكم، وكيف يخضع وهو ربيب شماريخه ملاعب الحرية ، وابن بعقلين تلك الجنة المعلقة بل الحورية المتيّمة بفتى احلام حريتها. كيف يعد لبنان قاصراً ويسكت شاعره ومدرهه ؟ ما كان جدود امين بكاذبين ، ولن يكون ذلك ؛ ودينهم ومعبودهم « الصدق » . فاسمعه كيف يحتج بعنف واباء بني معروف ، ويهتف بحضرة اول رئيس جمهورية لبنانية ، الاستاذ الدباس :

هل أرادوا بالرشد أن نملأ البحر سفيناً ، ونمـلأ الأرض جنداً ؟
أم أرادوا أن نقذف السم غازاً ثم أن نحصد الخـــلائق حصدا
إن يكن رشدنا الذي زعموه فمن الرشد كوننـــا اليوم ولدا

وأخيراً انتفض انتفاضة سموألية وقال :

ليس لبنان للامـــانيّ مرمى فتعدّ النفوس كالشاء عـــدا

ولم تطغَ لبنانية امين على عروبته ، بل آلمه ما يؤلمنا اليوم من تفرق كلمة العرب ، فنظم قصيدة عنوانها « إلى امرىء القيس » قال فيها :

سائل التاريخ عامـــاً ثم عامًا أي يوم خفر العرب الذمـــاما
المروءات هـــدى أعمالهم والوفـا الدين الذي فيهم تسامى
عبدوا الاصنـــام لكن عبدوا قبلها العرض فصانوه كرامـــا
حبـــذا العرب ومن أوفى يـــدا حبذا العرب ومن امضى حساما
حيثما كانوا فهم أهل العـــلى لو هم لا يتحدّون الخصامـــا

انا لو كنت امرأ القيس بهـــم لأجدت القــول فيهم والكلامـــا
وقفا نبك حبيباً لم أقـــل بل قفا نبك اتحاداً ووئامـــا

اننا نضع قبالة « ان من البيان لسحرا »، ان من الشعر لنبوءة . ثم نسكت ، ومن السكوت بيان وخطاب ، كما قال المتنبي لـكافوره .

فليكس فارس

احبّ ان يقرأ كلمتي حيّاً فأبى الدهر إلا أن تقال فيه ميتاً . ما أقلّ عقل الاديب ، وما أسخف هذا الذي نسميه أدباً خالداً ... ماذا يظل بعد تلاشي الذات وفناء الهيولى ؟

استرح الآن يا فليكس ، فلا بكاء ولا رثاء ، فمثلك لا يبكى ومثـــلي لا يبكي ، فالبقاء لله ، ولعبديه إيليا وأخنوخ ... حننت إلى هذه الكأس شاباً فشربت بها كهلا ، اما أنا فأرى اليـــد الأزلية تلوّح لي بها وأصدف بوجهي عنها ، لأني غير عطشان ، وسوف لا أشربها إلا غصباً عن رقبتي . فـــلا قرب القضاء نوبتي ، وليتني افلت من يد القدر لأعلم زهـــيراً كيف لا يسأم المرء تـــكاليف الحياة .

كم تـــاءمت يا فليكس ، وكم تشاءمت ، وها أنت تبلغ ما تمنيت فقل لي كيف تجدك الآن ، أأنت أرفه حالاً ؟ هل اخترقت عينـــاك الثاقبتان سجف الابد ؟ وهل للشوق والحب من معالم في دنيا الخواء ؟

هيهات ... لا تقل لي ، ولا أقل لك ، أيها اللاشيء ، لا تحدّثني عن اشياء لا وجود لها إلا في مخيلة البشر . وهنيئاً لمن يموت على رجاء .

غداً يرحّب بجثمانك الثغر ، وتنتصب حول نعشك جبابرة الجبال ، ويضمك

إلى صدره السهل . غداً تستحق شكر لبنان ، ويختم تابوتك بتلـك القطعة التي يسمّونها وساماً ، فأي غد تنتظر ؟

كل هذا لا يساوي ساعة متعة أخلصت فيها للحياة فوهبتك من عطاياها أثمن الكنوز ... إنها لا تهب إلا نفسها ، تهب وتسترد وفي هذا بقاؤها ، فهل تعقم مثلنا في غد ما فتنتقم لنا من نفسها ، ولا نعود نسمع على ظهرها من يعزينـا بقوله : « سبحان الباقي » ؟

١

متى تقدمت السن بالمرء يتغذّى بذكرياته كما يتغذى الجسم بخلاياه . كان فليكس اعسى مني يوم تعارفنا ، فقد كنت جذعاً وكان قارحاً ، وما عساي اذكر من فليكس غير نفخات وآهات ، غير تشاؤم مرّ ، غير تلك الابتسامة الواضحة الغامضة التي كان يستقبلني بهـا ، أو يحملها اليّ في الغداة والعشي ؟

كنا نجتمع غالبـاً في غرفتي المعلّقة الواقعة جنوبي ما يسمّونه اليوم « تباريس » وكانت على صغرها مجمع الخلّان – ادباء ذلك الزمان – وهـذه واسطة عقدهم قد انفرطت اليوم . جاءني يوماً فرآني معلّقاً صورة نيتشه وقـد كتبت تحتها : فليفنَ الضعفاء والمخذولون ! ايتها الأم كلي ابنك . فاعجب بهذه الفلتة ... وكنا كلانا نكبّر فرح انطون الذي عرّف الادب العربي بهذا الفيلسوف الغربي ، وكنا نقرأ معاً ما يترجمـه فرح من زاراتوسترا مسلّمين ومميّزين ومفكّرين ، فراريج تحتكّ بديك .

كان فليكس يحبّ الفلسفة ، وهو ابن اب كان شيئاً في زمانه .

كان والده حبيب محامياً مدرهاً وله كتاب « صراخ المظلوم في بوق الحرية » يحمل فيه على اليهود ، وكان عمـه انطون فارس صاحب جريدة

« المرصاد » الحرة .

أما ام فليكس فراقية مثقفة ، في وجهها سيماء المرأة الفاضلة . عرفتها ببيتها في المريجات حيث نزلت عليهم ضيفاً أياماً ، فوقعت عيني أول مرة على بحر البقاع الأخضر ففتنني . لا أدري كيف اصف ذلك التأثير البالغ الذي استحوذ عليّ ساعة وقفت امام بيت حبيب فارس ورأيت الزرع يتعانق تحت أذيال النسيم .

نشأ فليكس في ذلك البيت الملهم الذي تسوسه ام مثقفة كانت لأبنائها كالأخت الكبرى يشعرون انها تحبهم وتحترمهم . وجاء القسيس في ذلك الزمان ، واعدّت مائدة الفصح ، فجلس القسيس وام فليكس اليها ، وقعدت وفليكس على صفة قبالتها . وتلا القسيس حكاية علية صهيون وكسر الخبز وتناولا صانعين ذلك لذكر يسوع فاعلين كما فعل ، اما انا وفليكس فكنا بين بين ، لا بطرس ولا يوضاس . شهدنا الوليمة التي انتهت ولما نذق كسرة من خبزها لاننا لسنا من المشتركين ...

لا يعنيك ولا يعنيني ان كانت ام فليكس بروتستانتية وابوه مارونياً ، ولكن الذي يهمك ان تعلمه ويهمني أنا خاصة هو ان فليكس « مطعّم » فأمه اجنبية لا اعرف جنسيتها بالضبط ، وخاله كما اذكر رجل دين ذو شأن في ملّته ، وهو من رجال العلم والفكر .

لم يكن فليكس متبسطاً في نكتته ولا منقبضاً ، كان يرسلها موجزة ويترقب تأثيرها فيك . وكثيراً ما كان ، حتى في عز شبابه ، منقبض الصدر تأتي ابتسامته كشق حديث في ثوب من عصب ، كأن صدره ينطوي على ألم ممضّ يكتمه ولا يبديه ، ينظر الى الدنيا كمن يراها على ضوء القمر ، وقد عرفته في موعة الشباب ضئيل الأمل يائساً ، كثير الاحتجاج على النواميس الغاشمة التي تسيّر البشر .

واول كتاب قرأتـــه له – يوم كنت تلميذاً – مطبوع في اميركا ، وقد بحثت عنه في مكتبة عاليه فما وجدته ، فخفت ان اكون بعته مع ما بعت من مكتبتي الاولى والثانية قبل الحرب وفيها . ولكنني لحسن الحظ وجدته في مكتبة عين كفاع ، ولكنه بلا عنوان .

ما يهم العنوان ففليكس يسميه في المقدمة « مجموعة » ، وهو كذلك ، ففيه بضع قصص اظنها مترجمة وفي آخرها قصيدتان قصصيتان . ان فليكس قال الشعر كثيراً في شبابه ، وقد عارض احمد شوقي في التسمي : ذاك كان شاعر عباس خديو مصر ، وفليكس شاعر ناظم باشا والي الشام . ولكن يد فليكس بقيت فارغة وشوقي أثرى ثراءً عظيماً .

فمن مقدمة هذه المجموعة التي اهداها فليكس الى نفس فريد عوض ، وهو لا يعرفه ، نرى كثيراً من فليكس بل نرى فليكس كله . لم تكن هذه المجموعة بنت قريحة فليكس البكر ، والدليل على ذلك قوله لفريد :

« كتبت كثيراً يا فريد ، وها انا على منحدر قمة الصبا أرى الأفق لا يزال بعيداً امامي ، ونجوم آمالي تترجرج في سماء مدلهمة يغطيها سحاب الجهل في أمة مـــا زال فيها الألمعي غريباً . اتخطى الصراط الى شفير الهاوية ، بجسد نحيل يحمل ما كتبت يمناه ويشد به شماله الى حيث يسود السكون .

« انا احد اخوانك ، غصن من ذلك الروض الذي حصدت منه . أنا كاتب للحق ، وشاعر لنصرة الشعائر الطبيعية السامية التي بها سر السعادة ، وقد اصبحت متلاشية امام الألفـــة التي يفسدها التصنع ويقتلها الطمع والاستعباد . وهذا القلم الذي يخط لك ذكراً يدوم قليلاً ويتلاشى ككل شيء على الارض ، هذا القلم المتعب الذي تديره يد أنحلتها الادواء ، ويملي عليه فؤاد برّحتــه المصائب لهو كقلبك من قبل ، جنح مكسور يرفرف

الى العلاء ، ولكنه لم يزل معذباً على الارض .

« يكفي أن أغمض اجفاني وارتقي بالفكر الى عالم « الكل » الذي ألفته لاراك » .

في هذه الكلمات على بساطتها صورة مصغّرة للحبيب فليكس ، فهو تارة من المؤمنين بـ « عالم الكل » ، وحيناً صوفياً كبيراً يقول ولا يهاب :

وطني الدنيا وديني شرفي   واخي كل تعيس في البشر

وما رواية الاستاذ ابو شبكة – وديني خالقي – الا كما سمعها مؤخراً من فليكس بعد ان تطور لأجل الوظيفة وقوت العائلة ... ففليكس تلفلف بألف برد سعياً وراء رزقه ، فمن معلم في عبيه ، إلى فاخوري في المريجات ، الى صحافي ، إلى محام ، إلى وظيفته الاخيرة التي نعم بها زمناً ولأجلها قال : وديني خالقي . والصديق ابو شبكه ، وهو الشاعر الكبير الرهف الحس يعلم جيداً ان « خالقي » هنا لزقة ...

ان حملة الريحاني على فليكس لفي محلها . تعجب امين من أن يتقهقر فليكس هذا التقهقر ، في رسالة منبره وغيرها ، بعد ان كان في طليعتنا جموحاً وحرية تفكير . ولو درى امين ان فليكس صار ربَّ عائلة ولم يعد خفيف الظهر ، وان في هذا التذبذب بقاء الجراية لعذر ...

كان فليكس اول من عرفت وصادقت في فجر حياتي الادبية . كان يحبّر الفصول الطوال فأنشرها له في جريدة النصير ، سنة ١٩٠٨ ، وكان فليكس مندفعاً وراء مواضيع بعينها ، يؤثر البحوث الاجتماعية ويثير قضايا يشتدّ حولها الجدل ، فهو مطبوع على المناقشة يستدرج اليها الناس .

وهذه جريدة النصير المحفوظة عندي تحفظ ما وقع بينه وبين داود النقاش حول موضوع « الخائن والخائنة » وأيهما افظع جريمة . كان النقّاش يدافع عن بلواه وفليكس شاب يرى في الحب كل شيء ، فيصحّح ما يزعم ،

ويبرىء ساحته ...

وما ظهر ثالث عدد من النصير ، بعد ما عهـــد إليّ بتحريره ، حتى كان لفليكس فيه قصيدة عنوانها « ملاك ساقط » ، واليك منها بعض ما يصوّر لك رأي فليكس في الحب :

يا حب ، قالوا لي بانك ترتقي ... بالنفس نحو النعمة السمويـــة
يا حب ، كم طالعت عنك مقالة ... رسمت لنا الدنيا بأجمل صورة
والآن قـد ضيّعت آمال الصبا ... وغدوت شيخاً في ربيع فتوتي
فرأيت فيك شقاوة لو سطّرت ... لمحوتها عفواً بآخر دمعـــة
يا حب أما ان عصرك قد مضى ... ام انت لم تجتز لباب الجنـــة
يا رب عفوك ، كلنا في ذا البقا ... نجني ومن منـا بدون خطيـــة
يا رب ألفتنـا تناست « كلما » ... اعطيته لبني الورى بالفديـــة
يا رب عـــد للأرض ثانية فما ... لسواك في رفـع البلا من قدرة

...

ولقد بكيت على المصائب في الورى ... حتى ذرفت لهـــا بقايا دمعتي
وغدوت لا اخشى الجراح من الاسى ... فالسيف لا يـــدمي فؤاد الميّت

ففي هذه الابيات المنقولة ، بكل امانة ، تهب عليك نفحات ألم وشكوى فتى شاخ في شرخ الشباب ، وروح مسيحية في دم فليكس منها خمسون بالمئة ، ولا شك انه رضعها من ثدي امه البروتستانتية التي ترى في الناصري كل سعادة في الدارين ...

ولا ننتقل إلى العدد (٢٠٠) حتى نقع على العش المهجور ، والعشّ المهجور قد يكون صورة حية لبيت حبيب فارس في المريجات ، الذي نظرت اليـــه مراراً في ذهابي واياني ، فرأيته كما وصفه فليكس في هـــذه القصيدة التي

يختمها بقوله :

وسمعت الشحرور يبكي الطيورا   قرب عش منها غدا مهجورا
ليس شيء في الارض اشقى غرورا   من سرور الآباء بالأبناء

وفي العدد التالي خطاب له موضوعه « الصنائع والفنون » القاه في كلية القديس يوسف بمناسبة قيام الأب ميشال بمدرسة صناعية. هل نسيت كلمة « فاخوري » التي مرّت عليك؟ قد أحدث حبيب فارس معمل قلال واصص كان فليكس فارس يديره، وقد عرّج ناظم باشا مرّة فرأى يد شاعره ملوّثة بالطين فأبى عليه تنظيفها قبل السلام وقال له : ان يداً ملوّثة بهذا الطين لهي أنظف من أيدي الوزراء والأمراء.

وفي العدد الذي يليه قصيدة غزلية عنوانها « عاطفة »، ومما قال فيها يخاطب الحبيبة :

وأنت زهرة حسن لم تمرّ بها   عواصف الدهر حتى تدركي حزني
وأنت اكليل قلبي باقة وضعت   فوق الضريح تغطي رهبة الكفن
وكيف يدرك زهر الواد كم أسف   وكم دموع ثوت في ذلك السكن

. . .

فليس شعريَ إلّا النفس صارخة   كالطير يبكي غريباً خضرة الدمن
فليت نفسي لم تأتِ الحياة ولم   تلق اغتراباً وليت الناس لم ترني
أتيت للأرض روحاً لا تريد سوى   ما قد رأته قبيل الخلق في عدن
فصادفت من خداع الناس ما سئمت   به البقاء ولم ترضخ لدى الإحن

واليك تعليقي عليها لتدرك عقليتنا في ذلك العهد :

« النصير »: ليس من مبادئنا نشر القصائد الغزلية لاعتقادنا خروجها عن الدائرة التي خططناها لنفسنا وهي النفع العام، ولكن قصيدة كهذه يقف

عندها فكر الشيخ ، وتخشع لها الصبية ، وتدمع لها مقـلة الشباب ، لهي مما يتعلق بأهداب الفلسفة ، فكأن هذا الشاعر قد آلى على نفسه ألا يقول شعراً – حتى في الغزل الخاص – لا يدوي فيه صوت الإنسانية ، فكأنه يفكر مع كل دماغ ويشعر مع كل قلب » .

وزاد صاحب النصير عبود بك بو راشد صفحات نصيره أربعاً ، ولم يكن ثمة جريدة بهذا الحجم ، فأعجب ذلك صديقي فليكس ولم يرقني طبعاً لأنه زاد في عملي ، ولم يزد في أجري ، فكتب فليكس لعدد ٢٠٣ مقالاً عنوانه : « كلمة عن النصير » أنقل لك فقرات منها تدلّ على فليكس وعلى زماننا الأسود كما ينبئك التعليق ، قال فليكس :

« النصير وهو الناظر إلى أحوال البلاد بعيون كتابها ، والمفكرين بها ، لا أراه منتشراً بيننا بأعمدته الحافلة إلا لغاية واحدة وهي تنوير الأذهان بأذهان البلاد ، وترقية عواطف الوطن بعواطفه ، فهل يبلغ الأمنية أم لا يزيد اتساعه غير زيادة الخسارة ، خسارة نفثات الاقلام وضياع الارواح السائلة على ثلة هذه القصبة المجاهدة بلا عزاء » .

إلى أن قال :

« هنالك في البلاد الناهضة – أي في أوروبا – كان أبطال السيف يعملون قبل أبطال القلم . أما هنا حيث العرش الحميدي الأبدي القرار ، والعلم العثماني المظفر يرف بكلّ معنى السلام فلا يطلب منا شهداء لسن نظام وترقية حكم ، قانوننا عدل ، وسلطاننا ربّ الرحمة ، فلا ابطال عندنا غير رجال الفكر ، ولا قتلى غير قاتل نفسه في سبيل العمل المقدس » .

« مدنيتنا أسيرة يجب فكّها من قيدين ثقيلين يغلان الأيدي والفكر ، القيد الأول الحاجات العمرانية ، والقيد الثاني النظام الاجتماعي . الأول يجعلنا عبيداً موثقي الاكتاف ، بخشب ، بحديد ، بنسيج ، بإبرة ، بخيط ، بنحاسة صفراء

توضع على أحذية الأولاد ... ذلك استعباد هائل يدمي مقلة شيوخنا ويضيع ثقة نسائنا بنا ، ويحني ظهور شباننا باليأس ويعوّه جبين الشبيبة المملوءة نشاطاً باصفرار القنوط .

« القيد الثاني هو ذلك التقليد الذي نأخذه عن الأجانب ونريد أن نجعله نظاماً لالفتنا ، مع اننا لا نلائم لحمله ولا يلائم طباعنا ولا الاستعداد الغريزي الذي يجول بدمائنا يرتضي به . يجب ان نرتقي يا قوم ، ولكن من يرقّينا ؟ تقدمي أيتها الصفحات الحاملة آخر جهاد لأول انتصار ، انتشري بين شعب فتح عينيه للنور بفضل من تقدم من الادباء ، لقد مضى زمان كان صوتهم يضيع مع الدوي ... اما الآن فقد أصبح القسم الاعظم من البلاد يفهم لغة البلاد ، وقد لاحت بعض شرارات على ذلك الرماد البارد منذ اجيال ، فإلى الأمام ايها النصير ، ناد وانفخ ، فما انت نافخ في رماد ولا مناد ميتاً .

« لج الابواب العالية ... لج الاكواخ الصغيرة ... لج ... ادخل ... قل للكل ان مفتاح السعة مطمور في هذه الأرض المحبوبة فليفتشوا عنه . ادخل . ناد ... قل ... اصل حرباً عواناً ... استنهض همم الرجال ... قوّ تلك النفوس القانطة ، ادخل إلى خباء العذراء ، وإذا مررت امام بابي فلا تنس ان تلجه لأن هنا نفساً تمتزج مع كل نفس تحب الوطن ، وتحن إلى إعلاء شأنه . هنا قلم مكسور يجر نفسه قسراً بيد انحلتها الادواء وبرّحتها النوائب ، ولكنها لا تزال تجد بقية قوة مضمحلة لتعمل هذا الواجب المقدس ، واجب الانتصار لنصير الوطن » .

اما تعليقي على هذا المقال الذي قرأت فقرات منه فهذا نصه : « النصير » يشكر لفليكس افندي ثقته به ويسأل الله ان يأخذ بيده ليخدم الامة والوطن بظل العلم العثماني المظفر .

في هذه الكلمات التي نقلتها ظواهر شتى ، فهي تدلك كيف كنا نحتال على اخراج الكلام من صدورنا ، فلا نستطيع قوله إلا ممزوجـــاً بالدعاء لظل الله على الارض ، سلطان البرين ، وخاقان البحرين ، ولي نعمتنا بـــلا امتنان ... فكلمـــة حرية وعبودية ووطن واضرابها كانت محرمة علينا كتفاحة آدم . كنا في ذلك العهد كالجزار نذكر الله ونذبح ، وهيهات ان نسلم من المؤاخذة . فقد كتبت مرة مقالة عنوانها « اين انت » والضمير راجع إلى الحقيقة فقضت المشيئة بوقف الجريدة ، وكنـــا نعرض كل كلمة على المراقب ولا نطبع حرفاً قبل السماح لنا . وهي تدلك ايضاً على ان الصدور كانت تجيش والنفوس تحلم ، فنحن الآن في شباط سنة ١٩٠٨ ، فما اطلّ تموز حتى كان فليكس امير المنبر ينادي بالويل والثبور ويلعن العهـــد البائد عهد الاستبداد والظلم ، ويدعو بطول بقاء انور ونيازي ... وهي تنبئك ان النهضة لا بدّ ان تتكوّن كالجنين وان تحبل بها ادمغة كثيرة في ازمنة وعهود عديدة حتى تولد جنيناً كاملاً من ابنـــاء السلامة ، وهي تدلك اخيراً على ان فليكس كان أليف آلام وطريد وساوس وانـــه يشكو ألمين : ألم النفس وألم الجسد . وما برح كذلك حتى على رجاء ان يحب في العالم العتيد ، كقوله :

يا ملجأ الانفس الأعلى لديك أرى	مبدا هيامي فمشق الارض يطردني
هلا رجعت إلى حضن الخلود فقد	تاقت بي النفس نحو الحب في وطني

٢

كنت مستأثراً بالمقالة الافتتاحية لا اتنازل عنها لافلاطون لو بعث ، وقلما وضعت كلمة لكاتب أو شاعر في الصفحة الأولى . وشاء فليكس غيرةً منه ان يكثر اعواني وانصاري على تحرير صحيفة ضخمة فحمـــل إليّ « غصن ورد » لأمين الريحاني ، وكان الريحاني في ضحى شهرته ، وقد

نبه ذكره ، وهبّت ريحه ، بعد اصداره كتابه الشهير « المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية » ، وقد ارفق المقال باهدائي نسخة من هـذا الكتاب التي استرجعتها من احد اصدقائي الكهنة « ي . ع » بعد مرور عشرين عاماً على غيبتها عن مكتبتي .

كتب فليكس مقدمة لغصن ورد الريحاني ، فنشرتها بالحرف مع المقال واليك ما قدم به فليكس :

« غصن من الورد هو عنوان لمقـالة أو لشعر منثور كتبها صديقي أمين الريحاني .

« قليل من الادباء من لم يسمع بهذا الاسم الذي تتألق عن جوانبه اشعة الشهرة ، وتحتاطه هالة من الافكار السامية ، فلا ازيده تعريفاً لقراء العربية خصوصاً واني لا اكتب عن الشاعر بل اكتب عن قطعة اهداني اياها وفي يقيني انها اجمل ما خطه يراعه .

« للريحاني كتابات كثيرة على هذا النسق ، وقد قرأت له ما هو اجمل تركيباً واعمق تصوراً من غصن الورد ، ولكنني لم اجـد الشاعر بكل شخصيته وعواطفه ، كما وجدته في هذه الاشعار المنثورة ، فانها وان كانت لا تتضمن كل القوى التي اوجدها التأمل بفكره فهي ، بلا ريب ، جامعـة كل الحب الذي سكبته الطبيعة الشريفة بقلبه .

« حكم الريحاني بأن غصن الورد هو اجمل ما كتب ،هو حكم انتصر به الشاعر على الفيلسوف ، انتصر به القلب الخافق بالحب الأزلي على الدماغ المتشتّت والمفتش عبثاً امام نهر الفلسفة الراكد .

« هذه هي الأشعار المنثورة اقدّمها لقراء النصير ، وسوف اذيّلها بكلمـة واتبعها بقصيدة لي ترمي الى ذات المعنى ، افعل ذلـك اجابة لطلب صديقي الريحاني ولأهدي إلى القراء ما لا يضيعون به وقتهم عبثاً » .

هذه هي المقدمة ، اما الذيل فعلى نسقها ومما جاء فيه :

« اي حب اجمل من هذا الحب الرفيع بعطفه السامي ، بجهاده وبأسه ؟ كل شيء في هذا الكون يعذب الحب لان هذا الشعاع الباهر المتلألىء على القلوب المرتقبة من شمس الازل يترجرج ضعيفاً في ظلمة الجهل وتنازع البقاء على غير هدى الخ » .

المقدمة والذيل نشرا لأنهما في قبضتي ، اما القصيدة التي وعد بها فليكس قراء « النصير » فحرنت في الطريق ولم تصل إليّ لأن اخي فليكس حرد ايضاً وكتب إليّ يلومني بشدة وعنف لانني نشرت مقال الريحاني في الصفحة الثانية ، وعتب عليّ لانه هو يؤلب الادباء المشاهير حولي ، وانا متعجرف انظر اليهم من عل . وكانت جفوة قصيرة جداً ، فضّها ابو فليكس وأصلح ذات البين بين ولديه .

ذهبت يوماً ومعي الاستاذ اميل افندي خوري — لا ادري اين هو اليوم — لزيارة الصديق الريحاني فوجدنا عنده زائرة انكليزية فكان ظلنا طويلاً ثقيلاً عليها في ذاك الضحى. وكذلك يكون الظل فيه ،فاستطولت زيارتنا تلك السيدة فسألت الريحاني : متى يذهب هذان الظريفان ؟ فأجاب امين بما لا يلائمنا ، فغمزني اميل خوري ، فودّعنا وانصرفنا ، وخبرني صاحبي اميل فحوى الحديث الانكليزي ، فما عذرت الريحاني في ذلك الوقت ، لان بقاء عشر دقائق لا يستحق هذا الوسام الرفيع ... ولكن احوالاً عرضت لي تشبه تلك ، افهمتني بعدئذ ان الوقت يطول ويقصر بحسب الاستعداد النفسي ... وان صاحبنا وآنسته معذوران .

وخبّرت فليكس بما وقع ، فهزّ كتفيه كعادته ، تلك الهزّة البلهاء ، وعذر لانه كان أعرف مني ، في ذلك الزمان بقيمة الرزق ...

٣

آخر عهدي بفليكس

وكتب فليكس مقالاً عنوانه « خطرات أفكار » (نصير ٢١٠) جاء فيه :
« شيء افتكرت به ملياً ولم أصل لاقناع نفسي به : « الرجل الخائن زوجته يعد خائناً لها فقط ، فلا تعتبره الالفة محتقراً للالفة ، أما المرأة فأقل شطط ترتكبه يعرضها للهوان ، بعرف الناس . الرجل الخائن يلهو ويلعب ، والمرأة الخائنة ترتكب جريمة هائلة ضد البشرية .

« لا أقصد أن تبرر المرأة كما يبرر الرجل،بل أريد أن يشجب هذا كما تشجب تلك ، أو يقنعني باحث بامتياز الرجل على المرأة حق في الشر ، فهل من كاتب يركب هذا المركب الخشن ؟ » .

فركب المحامي داود بك النقاش هذه السفينة ، سفينة بلا قلاعة كالتي أركبتها المجدلية يوم أبعدت عن أورشليم المقدسة بعد موت حبيبها ونصيرها . وانقضت أسابيع بين خذ وهات ، داود وفليكس يتساوران ، كلاهما يدافع عن قضية شغلت فراغاً عظيماً من عقله ، وقلبه وحياته ، وقد خالطت اللحم والدم وعشّشت وباضت وفرّخت كما قال الحجاج . وطال صراعهما حول الموضوع : قلبان ممتلئان : زوج غير مرغوب فيه ، وشاب يرى ان المرأة خلقت للحب كما قال :

« أما حق المساواة بالعمل فلست منتصراً لها به ، لأنني اعتقد بأن المرأة

خلقت لتعزية الرجل وإراحته بالأدب والجمال من شقاء العمل، فإذا هي أصبحت عاملة ، تحوّلت من الجميل إلى المفيد ، وفقدت السطوة الملائكية التي تجعل الرجل خاشعاً أمامها .

« إن المرأة لا يمكنها أن تقتبس الرجولية دون أن تفقد صفة المرأة أمام الرجل وفوق سرير الطفل . »

أما خصمه داود فيرى ان المرأة أكثر مسؤولية وأشد جرماً ، لأن رجل الخائنة يتعهّد ما لم يزرع ، ويسقي مـا لم يغرس . وكاد يتسع الخرق فأقفلت الباب على دخول العـلّامة الأب الخوري جرجس منش الحلبي ، فكانت كلمته الحكم المبرم ، فقضى على صاحبي فليكس . (نصير ٢١٨) .

وعدت من الحدث في القطار ومررت ، كعادتي ، على مخزن العلّامة الشيخ مصطفى نجا – المفتي بعدئذ – فاستحسن عملي وأثنى عـلى فيلكـوس – كذا كان يلفظ اسمه – واعجبه نفسه وحرارة إنشائه . أما أخي فليكس فغضب لأنه يحب الجدل وطول المجال . فهو واسع الاطلاع مولع بأبواب النساء يحب ان تظل مفتوحة على مصراعيها ... وحرد اسبوعين فقط ، ثم راضيته فوردتني خطرات أفكار أخرى منها :

« منذ أشهر قلائل لم أعرف بارون افندي عبود غير مفتكر مجتهد تنبأت له الوصول إلى الحجة ، ولكنني لم أحسب قط ان سيثب وثبـاً ليقف بغتة بين كبار أدبائنا وأفاضل المفكرين بيننا . هو كاتب « احترموا المعابد » و « المأساة الهائلة » . هو منشىء « بين القبور » تلك المقـالة الرائعة التي تدلّ على قوة الابداع في موضوع مبتذل يكاد ألا يترك مفازاً لجديد » .

ومن الغريب ان يكتب مثلها ايضاً بعد عشرين سنة على كتابه « اعترافات فتى العصر » الذي اهداه إلي مع كتابيه « زاراتوسترا » و « رسالة المنبر » .

وكان لنا صديق كاتب مجيد هو الشيخ شاهين الخازن صاحب « كنوز لبنان المرصودة » ، وكان في تلك الأيام يحث على مناصرة الحياكة الوطنية حتى لبس في ذلك الزمان ثوباً لا يلبس الحبساء من رهبان لبنان أخشن منه ، فقال فيه فليكس أيضاً :

« الشيخ شاهين الخازن حامل تحت ابطه مساطر مصنوعات وطنية يعرضها لكل ناظر . قطع صغيرة من حرير الزوق ، ونسيج دير القمر ، وقد لبس هو نفسه من ذلك النسيج . تلك المنسوجات الصغيرة فيها حياة لبنان ، وطالما حامت حولها اقلام الكتاب ولكن لم يقم بيننا غير المتكلمين فقط » .

وكان فليكس اذا لم يوفق بمقال موافق لمقتضى الحال ينفحني بقصيدة . ان نثر فليكس اطيب من شعره ، وهو محلق في المعاني مسفّ في المباني واتفاق الامرين في شعره فلتة . ولكنه في كل ما يكتب يتبع فكرة يحبل بها قلبه وتلدها قريحته ، فهو لا يحول عنها ولا يزول . وفي قصيدته « الاحياء والاموات » التي نشرتها في نصير ٢٢٣ يقول في ختامها :

يا الهي انزلت حكمك فارفق ... بنفوس تشقى لحفظ الوداد
صيّر القلب كالجسوم جماداً ... او فخفّف وقع السهام الحداد
عفوك الله لست ابدي اعتراضاً ... حكمة الخلق نقطة في سواد
غير اني ارجو العزا لقلوب ... البستها الاقدار ثوب الحداد
اطلب الحقّ لا ارى من عزاء ... غـير سر مضيع للرشاد
لا أرى للعزاء غير صليب ... غارق في دموع أم الفادي

حقق الله رجاءك يا حبيبي ... ليت لي ايمانك فلا احزن عليك كما قال بولس الرسول : ان الذين يموتون بالرب لا ينبغي لكم ان تحزنوا عليهم كسائر الناس الذين لا رجاء لهم .

واذا فسح لي في مجلس الحيـــاة واستطعت الخروج من عين كفاع فلأزورن قـــبرك وأضع عليه حزمة من أغصان أرز لبنان وسنديانه وزيتونه ، فقد كنت صلب العقيدة والمبدأ ، جبـــار الفكر ، مسالماً تفارق بالتي هي احسن . ان لم تترك للعربيـــة الا تجديدك في تفكيرك العذب ورسالة منبرك ، وزاراتوسترا نيتشه ، لكفاك .

كان فليكس وفياً صادقاً ، محباً لاحبابه جداً ، غير مبغض احـداً ، وأشهد اني لم اسمعه يذم مخلوقاً او يسب انساناً ، بل كان يكتم في قلب قامته المنحنية اشجاناً قلما اطلعتُ على واحد منها .

وقد دفع الي قصيدته « ملام » فنشرتها بعد نقاش حولها بيني وبينه وخصوصاً حول هذه الابيات :

رأيتك في روض الحياة فتية | على وجهك الباهي سنا النفس يسطع
وفي لحظك الفتان صورة ما ارى | بروحي وروحي بالجمـــال تولع
وسوف اذا شاهدت زهرك ذاويا | يهف بـــه نحوي شذاء مضيع
وسوف اذا شاهدت ظهرك ينحني | يحنّ له مـــني فؤاد واضلع
وحين يخط العمر آخر لثمـة | على وجهك العاجي كطرس يبرقع
اذا شئت في التجعيد ألقي قبلة | فلا يعترنها في المشيب التصنع
فمن كان مثـلي لا يودع حبه | ولو كان قرب الرمس شيخاً يودع

أما انا فما صدقت ان فليكس يقبلها مجعدة ، أمـــا هو فحلف مؤكداً ما يزعم . ولم أعـد أراه في هـذه الايام الأخيرة لأرى رأيه فيما اختلفنـا عليه ، ولكنني واثق انـه كلام شعراء . قد يفعل ذلـك إذا انقطع الرزق وضاقت به الدنيا ولم ينفتح له باب فرج ...

وآخر مـا نشرته لفليكس في « النصير » قصيدة عنوانهـا : « ضلال » ، وختامها يصح ان يكون شعاراً له :

اما الشريف فلا يطأطىء رأسه الا لمن من عنـــده الانعـام
فالمرء تكفيـه لعيش كسرة والمجـد وهمٌ والحياة منــام

وهبّت عاصفـــة الدستور على البلاد ، فهللت المملكة العثمانية بعدئذ وكبّرت ثم صار كما كتب الاديب الظريف « حداد » صوت الجامعـــة الغرّاء ، بعد ان تصافح الكاهن والشيخ على المنبر المنصوب في ساحة البرج شرقي المنشية ، وخطب النـــاس يحثون على الاخاء والحرية والمساواة ، وصار اسم انور ونيازي حبيبـــاً إلى كل قلب ، بعد ان زحف احرار البلاد الى بتدّين مركز متصرفية لبنان على عهد يوسف باشا ، فاسقطوا رجال الدور البائد من المير قبلان إلى نصيف الريّس الى ... وعـــدنا مبتهجين ولكن فرحتنا لم تطل ، فعاد هؤلاء الى مراكزهم ، وبعد ان كان يوسف باشا يؤمن على كل « اسقاط » طائعـاً ، تنمر واحتلّ انصاره كراسيهم التي انزلناهم عنها .

اما فليكس وصديقي الآخر داود مجـــاعص فاحتلا المنابر من تموز إلى تشرين يقفان على كل خشبة تنصب فيهزّان القلوب ببيانها وشاراتها ، وقد ذكّرني داود إذ كتب إليّ مرة من المانيا بيوم عين المريسة — محلة في بيروت .

وهكذا صار أدب فليكس منبرياً يهلل له العوام ويرضى عنه الخواص . كان فليكس يحـلق كالنسر وتراه العين كبرج فينيسيا المائل إذ يقف في الناس خطيباً . عاف الكتابة في ذلك الصيف ولم تظهر له كلمة واحدة في « النصير » .

ثم صار « اتحادياً » فأنشأ جريدته لسان الاتحاديين ، ولكن الاتحاديين لم يقدّروه فظل حيث هو ، وحـلّ والده المرحوم حبيب محله ، فكتب بعض فصول نشرتها في « النصير » ، اولها تقديس نظام لبنان وآخرهـا

حملات على مجلس إدارة لبنان الذي له صلاحية مجلس النواب اليوم .

وفي نهاية عام ١٩٠٨ تركت النصير لأحرر جريدة الحكمة في جبيل — فاضت روحها يوم شبت الحرب الكبرى — وفي هذه الفترة من العمر وفي ايام الحرب لم أرَ الصديق فليكس ، وقد رأيته بعد الحرب ، فكدت لا أعرفه لانه كان قد أخذ قسماً كبيراً من شاربيه اتباعاً للزي . ثم تلاقينا مرات على غير ميعاد وظللنا على ولاء ووفاء حتى الساعة الاخيرة .

قد تهوّسنا كثيراً عند سقوط السلطان عبد الحميد ، وامتلأت البلاد جرائد ومجلات . اما أحلامنا فلم يصحّ واحد منها ، وأذكر كلمة قلتها لفؤاد باشا — الدالي فؤاد — حين استقبلناه على المرفإ استقبالاً شعبياً : الاستبداد كالعليق يصعب على الفلاح استئصاله ، فضحك لها لانه كان ظريفاً يحب النكتة ، وهو الذي قال له السلطان عبد الحميد : ابو الهدى يبلع السيف . فاستضحك وقال : لا عجب ، وزير الحربية بلع الدارعة . فأغضب السلطان هذا الجواب البديهي ، فضرب فؤاد باشا كفاً على رأسه ثنى طربوشه ، ثم صدرت الإرادة السنية بنفيه إلى دمشق وبقي فيها إلى إعلان الدستور فجاء بيروت يلبس الطربوش المبعوج .

كان فليكس محباً ومحبوباً ، وما شبهته إلا بشفاليه مانون لاسكو . كانت حياته مأساة مؤلمة لولا ختامها الذي اراحه من عذاب القلب . لقد أكل الحصرم فضرس هو .

هذه واحدة من نكات ذلك الزمان :

كنا ثلاثتنا أنا وفليكس وداود مجاعص ، اما الرابع وهو الشيخ شاهين فكان معنا كشاهد زور ، كنا في مسرح التريانو ، كان موقعه شرقي ساحة البرج محل قهوة الجمهورية او تحتها بقليل ، وكانت هناك غانية مغنية

راقصة كوحيد ابن الرومي . البنت غسوية التبعة سحر جمالها بيروت فأقبل على لياليها كبار الموسرين ، فاحترنا نحن الادباء في ذلك العهد — والطفر يعمي البصر — كيف ننعم بجمالها ، والجيب فارغ .

حضرتني حيـلة لا اعدم مثلها في كل ساعة حتى بعد هذا التقهقر الجسماني او الجسداني كما يقول رجال الدين ، فأنكرت اني افهم العربية او الافرنسية ، ثم هبط الوحي وتطوّرت الفكرة فـاذا انا امير سرياني ، فعرّفوها اليّ كذلك فهزّت المحروسة كتفيها ، واشتدّ بها الفضول إلى سماع اللغة السريانية وأوهمها فليكس اني ذو ثروة جبّارة ، وكالمرحوم ابن ابي ربيعة اتتبّع الجمال . صدّقت المسكينة انني ازجي الليرات التي تكرج على حفافيها لا التي تطير في الهواء ... فانجذبت نحوي وألحّت الحاحاً عنيفاً استفدت منه قليلاً ...

ثم تركتنا على ان تعود بعد نهاية الحفلة لتتمتّع بفصاحـة السريانية ... وفي نيّتها ان تعمّق وتغوص في جيبي حيث الكنز الذي لا يفنى ... ذاك الذي اختارت مثله الجدلية دون اختها المهتمّة بامور كثيرة ...

وكان نصف الليل فما اخلفت الآنسة الميعاد ، رأى الناس تلك الجميلة التي تتدلّل وتتغنّج أمام آل بسترس وثابت وسرسق وبيهم قاعـدة حدّ محرر النصير ، فاتجهت الانظار صوبنا . وكان ترجماني داود مجاعص . تهجّى داود الابجد سريانياً ، فتظاهرت انني فهمت ، وأجبت بالأبانا ، ثم تهجّى داود هوّز فأجبته بالسلام عليك يا مريم ، ثم ثم ...

وأرادت الست ان تسمع اللحن السرياني فانشدتها « ميمراً » من مار افرام بصوتي الذي جاء ذكره في الكتاب الكريم ، ثم آخر من مـار يعقوب ، فقامت ترقص . ولم احرمها نشيد الاموات فطفرت الدموع من

عينيها ، فخلت اننا في مأتم ، والدفن قد قرب ، وسيعقبه «شيل البخور». وأخذت تطرح عليّ اسئلة غريبة كأنها احد علماء الاجناس ، فيوهمهـا ترجماني داود انه يكلمني وهو لم يزد على تهجئة حطّي وكلمن وسعفص ، وهكذا قضينا سهرة غير قصيرة لم نسقها في خلالها كأس ماء بارد ...

ولا تسل كم كانت خيبتها مرّة إذ ودعتهـا بالافرنسية وداعاً مقروناً بعبارات اكبار للطفهـا ، واعجاب بجمالها الساحر ، فاصفرّت وتبسّمت قائلة : أنت وحدك غلبتنا ، كنت اخبث وادهى منـّا ، سأنتقم منك في الليالي القادمة .

فأجبتها لا يا سيدتي ، لأنك لا ترينني . قليلاً ما اجد في كيسي بدل الدخول ...

فأنستها هذه الكلمة ألمهـا وامتعاضها ، وقالت : تعال على حسابي ، شرط ان تفعل ما هو ألطف ، فهذه النكتة تزعج ، ولاسيا ان عرفت بها زميلاتي .

فقلت : انك تزعجين بـلاداً بأسرها ، فما عليك لو غلبك واحد منها ، واخذ بثأرهم من دولتك ... انت مـا دفعت حق جمالك . أمسيحية انتِ ؟

فأجـابت بعبـارة التعليم المسيحي بالحرف : نعم بنعمـة الله أنا مسيحية .

قلت والمسيح قـال : مجاناً اخذتم مجاناً اعطوا ، انا لم آخذ من رأسمالك شيئاً .

وان كنت وثنية فمثلك تذهب الى الهيكل وانا ابن بلد ادونيس ...

ورأيتها بعد ذلك مرّات ، فكانت تقابلني بابتسامة وهزّ السّبابة ،

ولكنها لم تعلق على الدبق .

وظلّ فليكس طول حياته يسألني كلما التقينا : كيف السريانية في هذه الايام ؟.. فتنقبض اسرتي واسرتــه ، ونقبع كلانا في الزاوية كالرتيلاء في بيتها تنتظر ذبابة مارقة لتدعوها اليه ...

ديوان الشبيبي

إن كنت ، ممن تستهويهم الالقاب الداوية ، فالحديث الآن عن وزير خطير صاحب معالٍ ، وعين من اعيان الدولة العراقية الجليلة . امـــا الذين لا يذهب بوعيهم افيون المناصب الخطيرة ، فسأحدثهم عن محمد رضا الشبيبي الشاعر فقط .

هب ان كرسي الشبيبي وسع السموات والارض فهو ، لا محالة ، زائل ، اما ديوانه فباق . وهل يعنينا اليوم من ان الطغرائي غيَّر لامية العجم ؟ ان لقب ذي الوزارتين وصاحب المعالي زائلان ، امـــا اللامية والديوان فميراث الذرية .

الشبيبي واحد ثلاثة من شعراء العراق ، وكأن الثالوث — ومهده الشرق — يتجلى عندنا دائماً حتى في الشعر . ففي الجاهلية والاموي والعصور العباسية حتى ايامنا والتقسيم مثلث ، والشعر مدرسي كله ، وهذا ما نواجهه في ديوان الشبيبي . إذا قلنا الزهاوي كأبي العتاهية ، والرصافي كالبحتري ، مثلاً ، فالسيد الشبيبي كالشريف الرضي .

الشبيبي شيخ معمَّم . لست اعرفه معرفة عين ، ولكن البادي من رسمـــه الوقور انـــه في خلقه وسمته اشبه بشاعرنا الكبير امين بك ناصر الدين ، المنزوي في كفرمتى ، وفي الزوايا خبايا . فهذه الديباجة العباسية المتماسكة كالدمقس ،

الماعة كالارجوان تقرب ما بين الرجلين ، وهذه الثورة الملتفة على نفسها التفافاً لولبياً كالإعصار هي هي في ديواني الشاعرين .

رأيت رسم الشبيبي فخلته ينشدني : كليني لهمّ ، يا اميمة ، ناصب . وتخطيت الى الديوان فاذا فاتحته :

لم يبقَ لي إلا الشباب وانه ديباجة ضمن الاسى إخلاقها

وايقنت ان الليل الذي يقاسيه بطيء الكواكب حقاً ، إذ قرأت :

كلاني اكابد في العراق بلية وليلاً بأرجاء العراق بهيما

ولكنه يصرح بعد تهدار فينفّس عن آلامه المقهورة :

ألا مدرك هذي البلاد واهلها فقد لقيت من جور ساستها جهدا
تفرّغ أيدينا لتملأ جيبهـــا . وتنهكنا جوعاً لنشبعها حمـــدا

وتزول الشبهة متى قلنا انها من نظم سنة ١٩١٤ . ويبدو له تخـــاذل قومه فيقول :

وقبل تقاربنا وهـــا نحن جيرة ولما بدا الصبح انثنى قربنا بعدا

وكأنه قد آيس من كل ما رجا فقال :

كيف اتحاد بني الدنيا وهم بشر موزع بين اشـــكال واقسام
العلم عـــلم خرافات وشعوذة والدين دين منامات واحـلام
موحدون ولكن عز انـــكم نتم وقد نهضت عبّاد اصنـــام
وان مـــا بين آرائي وبينـــكم بعداً كما انفسحت ابعاد اجرام

والشاعر كالنبي تشغله شؤون الجماعة كأنه وصي عليها ، وهذه احـــدى طبائـــع الشعراء الكبار ، فهم وكلاء الامة الجبريون ، والمسخرون ايضاً . ولولا ذلك ما عناه من امرها ما عناه :

لولا التفكر في مصير بلادكم تالله مـــا ضاقت عليّ بلاد

والسيد الشبيبي على رأي بطاركتنا القدمـــاء الذين رأوا في شق طرق

المركبات انتهاكاً لحرية الجبل ، كما رأى شاعرنا في خط بغداد فقال :

مدوا الحديد وما اهتززت لمده سككك الحديد بأرضنا اصفاد
طرق الحديد إذا التوت وتشابكت شرك به شرف العراق يصاد

وللشاعر في هذه القصيدة المسماة « الباكية » زفرات حرى ولاسيما حين يرى الزعامة سلمت لزعانف :

انظر الى الاعجاز كيف تصدرت وعمـائم السادات كيف تساد

ثم يهيب بقومه النيام :

غفـوا وعيوني للعراق طوامح وشابوا وودي للعـراق صراح

ويرى سوء فهم الدين علة ما هنالك فيهتف :

ولو انصف الناس الديانة أجمعوا على انها فيهم نتيجة وجدان
ولكنهم حتى ذويها وأهلهـا بعيدون عن عرفانها بعد كيوان
كأن لم يكن انجيل عيسى بن مريم ولا أوحيت توراة موسى بن عمران
انا شافعي ان لم يكن لي شافع إلى الله ، ثم الحق حبي وايماني

وفي البيت الأخير معارضة للذي قال : الحب ديني وايماني . أمـا هذا الانكماش فلون محلي يخلعه الاستيطان على الشعراء كما يخلعه على الطيور ، والشعراء طيور خالدة .

ولا يسكت الشاعر السيد – كالامام علي كرّم الله وجهـه – وفي الحلق شجى وفي العين قذى ، بل يصرخ :

يا قوم ، مـا الدين عادات معطلة وانمـا الدين تحليل وتحريم
لا تجعـلوا آلة التفريق دينـكم فالدين عن وصمة التفريق معصوم

وعملاً بالقاعدة الذهبية : ابدأ بنفسك ، يعنّف النجف الاشرف بقوله :

متى اذا حثّ اقليمي شقاشقه عجت ترد صداهن الاقاليم
اظهرت بعض عناء لست اكتمه لكل جلّ عناء النفس مكتوم

اللهم فرجاً. وكأنه يئس من تقويم الحطب فعاد الى الغصون، فقال يخاطب الشباب في صيداء :

انتمُ جيل جديد خلقوا لعصور مقبلات جـدد
كونوا الوحدة لا تفسخها نزعات الرأي والمعتقد
انا بايعت على ان لا ارى فرقة ها كم على هذا يدي

ثم يصفر مخضوضر الرجاء فيقول في ساعة سوداء، وللشعر ساعات :

شبـاب طـائش نزق وشيب ما بهم رمق
وشعب طالب ثقـــة فـدلوه بمـــن يثـق
ففي آرائنــــا شيـــع وفي أحزابنــــا فرق
قــد استشرى خلافكم الا يا قوم فـاتفقوا

وسئم عنعناتنا وتفاخرنا بالقديم كأننا البطاطس خير مـا عندنا تحت الارض، فقال :

زلت حديثـاً أمـة ابـداً تفاخر بالقـدم

أما المرأة فما منحها الشبيبي طرف عينه الا ليقول لها : إلزمي البيت :

بتدبير المنازل هن أولى وهم أولى بتدبير النزال

وفي قصيدته « روح الرسول » نفحة من اخوة كرامازوف إذ يقول :

واكبر ظني لو أتانا محمـــد للاقى الذي لاقاه من أهل مكة
اذن لقضى: لا منهج القوم منهجي ولا مـلة القوم الأواخر ملتي

ومن عين شمس اليقين ضياء ينتقل الى ظل شك عابر فيقول :

فيا عالم الليل هل رجعة الى عالم منك اوفى سنى
ويا ايها الازلي القـــدير أساراك نحن فرفقاً بنـــا

وتتوالى المحنة فيقول :

يظنون هذا العصر عصر هداية وأجدر لو ندعوه عصر ضلالات

فان خرافات مضت قد تبدلت حقائق . الا انهـا كالخرافات

ثم تظلم الفكرة وتضيء في وقت معاً :

خبرونا عن السماء وقـالوا فلـك دائر وشكل كريّ

ربما صحّ ما رأوه ، ولكن خير رأييك ما يراه النبي

وينزع نزعة صوفية في قصيدة بين العقل والقلب ، ولا يحجم عن لزوم ما لا يلزم ، ثم يصرخ من وجد اللحم والدم :

يا واردي ماء الحياة تذكروا أنّا عطاشى

ويشتدّ به الوجد فيخرج من جلد رصانته ، والحبّ خدّاع يصغّر العظائم فيقول :

لولا انفراد أحبـتي بخصالهم ما سار لي في الدهر بيت مفرد

يتجسد الطـائي بي وقريضه والبحتريّ من الفحول واحـد

وتتراءى له الدنيا كعفطة عنز فيلقي – كالإمام – حبلها على غاربها ويقول قبل ان يختم باب الوجدانيات :

انا من سيّر الكواكب شعراً تتوالى بـكم فيمـلأن كتبي

ربـما جـاء في القريض نبي همـه نسخ آيـة المتنبي

بيد ان تلك الآية لم تنسخ ، ودليلنا على انه كان يمزح ، هو قوله لسيد الشعراء في ذكراه الألفية :

يا شاعراً قـاد القلوب لغاية لم يدنُ منهـا شاعر او قائد

اما رأي السيد الشبيبي في الشعر فكرأي بشار :

متى خيروني في الكلام ونسجه رضيت بسيط القول لم اتأنق

وأحزنه تقصير المتأخرين فقال :

أهيم بسرّ الابتـكار لانني وقد طال عهدي لا أرى غير ناقل

فيا حبسه يا ترى في حصون القدماء حتى لم يحد عن دربهم قيـد

شعرة ؟ لعله رعيه الحقوق كما قال :

ولولا حقوق رعيها لي عادة لـكان لمهري أينما جال ميدان

ورياضة النفس على الاخلاق الفاضلة تحـــل المحل الاول عند السيد حتى قال فيها :

أصحّ عبـاد الله دينـاً ونحلة مجاهد نفس لا المصلي المسبّح

ولا بدّ من القول ان براغيث الحب اكلت الشاعر الشبيبي حتى قال :

تفاهمتا عيني وعينك لحظة وأدركتا ان القلوب شواهد

وكأن الحبيبة اعجبها منه ذلك ، فقالت له : ثنّ ، فـلم يجعلها بيضة الديك فقال :

وأسهرتنا الشهب الحاكيــات عيوناً يشاركننـا في السهر

هذا البيت من قصيدة عنوانها : « حديث القمر » ويا له حديثـــاً طلياً لذيذاً فاقرأوه في الديوان .

وخير ما نختم هذه الكلمة عن الشاعر هو قوله :

فتنة الناس ، وقينـا الفتنا باطل الحمـد ومكذوب الثنا
كلنا يطلب مـــا ليس له كلنـــا يطلب ذا حتى أنا !
ايهـــا المصلح من اخلاقنـــا ايهـا المصلح ، الداء هنـــا

صدق الشاعر ، وعجز الناقد عند هذا الطمع الاشعبي فصيّر خلانـــه اعداءه . أما السيد الشبيبي فحسبنا وحسبه ان حمدنا له حق وثنـــاءنا عليه غير مكذوب فيه .

أحمد الصافي النجفي
في تيّاره

١

في ثاني نيسان لا في اوله حمل اليّ صاحب البريد كتاباً على غلافه اسم احمد الصافي النجفي ، فراعني ان يكون « التيار » لأنني كنت قرأت في السياسة الاسبوعية ان الشاعر قال لواحد — نسيت اسمه — إن تياره سيجرف الشعراء اجمعين ...

وقفت عند هذا الكتاب وقفة النابغة في دار مية بالعلياء فالسند ، فعنوانه مكتوب بالقلم الكوفي المشجّر فكان كقرص مشبّك ، ولولا ان هناك عنواناً في قلب هذا ، لما قرأته وبرد قلبي . شكرت ربي لأنه الامواج ، فالامواج قد نماشيها أما التيار فمن يجاريه !..

ثم حالت شؤون هزل اشغالها جدّ دون مطالعة الديوان حتى ذكرت ان للصافي مقاماً بين المعاصرين لا يبعد أن يظنه هو كمقام المتنبّي بأرض نخلة ... وظللت أروح وأجيء حتى خفت أن يموت العام ولا أقول كلمتي فيه ، ولاسيا ان الكتب تتكاثر على الرف فأخذته . لم أطوِ أول صفحة منه حتى عرض لي عارض وكانت التجربة . قلت لنفسي كأني أحدّث

شخصاً غريباً عني : بأي وجه تقابل عبارة الصافي الكيّسة وثناءه العاطر عليك ؟ قاتل الله النقد ، انه يسوّد الوجه . تذكرت التقائي بالصافي قبالة السراي الصغير في بيروت وتعرفي به ، وما أغدق من عبارات اعجاب ، فما كدت أمسك القلم حتى أفلتّه . لا أفكـّر بما أقول في الديوان حتى يتراءى لي شبح الصافي اللذيـذ فأتمثّل نظراته التائهـة البريئة ، فوقفت كالغريب في مفرق الطرق ، حائراً .

وبقيت هكذا زمناً حتى قالت لي نفسي : ما تراه يكون لو ضحيت باخلاصك للفن والشاعر ؟ ثم ما قيمة هـــذه العاطفة السامية ... وهي سكوت ونوم ؟ أتباع بفلس لو نادوا عليها في اسواق الادب ؟ ولماذا اهدى اليك الشاعر ديوانه ؟ أليس لتقول كلمة فيه ؟

فتنبهت اذ ذاك لعهد قطعته ، يوم كتبت الكلمـة الاولى ، فقهرت عاطفتي والقيت قاربي في « امواجه » ، فعسى الا اغضب الصافي كما أغضبت سواه من رفاق واصدقاء وخلطاء صبا وشباب .

٢

حقاً ان ديوان الصافي امواج فيها من كل شيء . ومـــا اشبهه بليل امرىء القيس ...

الصافي بائس حقاً ، وشعره بله المبالغة ، ينم عن بؤسه . ولكن البؤس ، وحده ، لا يعمل الفنان . اما البائس فيعمل شعراً ان كان ذا قريحـــة كالصافي ، وبين الشعر والفن مسافة لا يجوزها الا من يؤمنون ، ولا يشكـّون كالصافي . ان في الشعر فناً يثقـّف بُنيـّات القرائح ويهذبها .

ومشى القلم رويداً رويداً فأخذت انسى انني عرفت الصافي ، ثم بعدت

الشقة بيني وبينه فنسيت كل شيء ، إلا ان للصافي ديواناً أهداه إليّ ، وقد خرج هذا الأثر من يده وصار ملكاً للأدب العربي ، فعلينا ان نصدق صاحبه القولَ ، كما نصدق النصيحة سواه ، ليعالج شعره العتيد فيستقيم له الفن والشاعرية ، ولا يحيا شاعراً بلا فن .

وسألت نفسي : أتعرفين يا هذه ، بماذا يحرف الصافي الشعراء اجمعين ؟ فعيّت جواباً . فرحت أتساءل : أبالمواضيع ؟ انها وحدها ، لا تعمل شاعراً ، فقد يكتب ناثر أروع منها وارقص . أبالنظم ؟ فهو يعترف انه لا يصنع شعره بــل يرسله كما خلقتني يا رب . فهو في الفن على دين الشاعر القائل :

ان المليحة من كانت محاسنها   من صنعة الله لا من صنعة البشر

هب الصافي « لامرتين » اما عاب عليه نقاد الفرنجة استسلامه لفطرته ؟ وهل يظن الصافي ان الاغراض وحدها تجعل الرجل شاعراً خطيراً ؟ قد تجعله فيلسوفاً اما شاعراً فلا .

فشاعرنا المعرّي نظّام في أكثر لزومياته ، وان أغرق في حبكها وتقييدها بالقيود والاغلال . اما شاعريته الفذة ففي نثر « رسالته » . ما أشبّه منظوم فلسفة « لزومياته » ، من بغض انسان وحب حيوان الا بألفية ابن مالك . ولولا ما فيها من شعور يكاد يتقد لبرئت منها الشاعرية . والشك ! هل يعمل الشك شاعراً ؟ فكم من أناس شكوا حتى قتلوا ، كابن القدوس مثلاً ، ولم يرفعوا إلى سرر الشعراء الكبار لانهم شكوا وقتلوا ليس غير ...

بيد ان هنالك موضعاً آخر لشاعرية المعري هو في شخصيته . والصافي من هذه الناحية ، شاعر أيضاً لو انه تأنى كالشعراء وهذب شعره كما هذبوا شعرهم . فحب الحيوان لا يعمل شاعراً ، اذا لم يتكلم

الشاعر والحيوان معاً بلغة الشعر ، اذا لم يجسّد الشاعر معانيه الطريفة بألفاظ تأتلف حتى تكاد ترنّ وتطن . فالشعر موسيقى قبل كل شيء آخر ، والا فالنثر خير منه وابقى . ولو كان ملاك الشاعرية الكبرى عطفاً على الحيوانات لكانت جمعية الرفق اعظم شاعرة عالمية . ان ما كان بدعة في زمن فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة صار اليوم مبتذلاً ، والشعر لا يحيا الا بالطرافة .

وبعد فليس للناقد ان يعارض الشاعر في اغراضه ، بل ان ينظر فيها . وقد فعلنا فرأينا ان العناصر التي تتألف منها شخصية الصافي في أمواجه ليست جديدة ، فهو لم يكتشف اقليماً جديداً ولكنه توسّع وتبسط في وصف اقاليم عرفناها فأتانا بشعر هلهل النسج ولكنه صادق. الصافي شاعر ولكنه لم يحذق فن الشعر بعد ، فما احوجه الى ديباجة متينة مشرقة كالتي للرصافي — لو قلّت رواسمها « الكليشيهات » — اما اذا كان يطمح الى شاعرية كالتي للزهاوي فليسترح ، لقد وصل . إلا ان هذه الشاعرية العتاهية — لا يعمر منها طويلاً إلا القليل مثل قوله :

يا للشباب المرح التصابي   روائح الجنة في الشباب

وهذا قليل بل ندر في شعره الكثير . أما ما كتبه ابو العتاهية على كسر الجرار للفتيان والغلمان فقد هلك ، كما تهلك الاعشاب اذا اشتد القيظ فلا يبقى الا الزرع يرتقب الحاصدين ليفضّض مناجلهم .

ان اكثر الذين حدثونا عن الصافي ودلونا على شاعريته لم ينظروا إلى فنه بل عبروا لنا عن تأثرهم باغراضه . فخلعوا على الشاعر جبباً فضفاضة لا يشبهها شيء غير أعطيات ملوكنا ، في ذلك الزمان ، اجريت على الشعراء الوفاً وكرّات ، واعطوهم من الجمل اذنه .

قال رينه دوميك الناقد الفرنسي بمعرض كلامه عن جيل لامتر الناقد

الآخر : « كل حكم فني ليس له مقاييس مستقلة عن شخصيتنا تبطل قيمته متى انسلخ عنا وانفصل ، فلا يكون الا وصفاً للذة شخصية قد لا يشاركنا بها احد . وقد نرى نحن رأياً آخر اذا قرأنا ذلك الاثر الادبي مرة أخرى ، وذلك لاننا نحن نتغير . فمقياس الفن يجب ان يكون غير التأثر والعاطفة . أما اذا كان النقد هو ما نتأثر به نحن لا غير ، فتلك هي الفوضى في الادب » .

٣

ينبئنا الصافي انه لا يُعنى بشعره ، فهل هذا يعفيه ؟ فللشعر لغة غير لغة النثر لا بد من امتثال طريقتها لمن يقوله . وان نسأل شعراءنا شيئاً فهو الخلق والابداع ، ليس في الاغراض وفي المعاني فقط بل في التعابير التي تتغذى من حياتنا الحاضرة ، فنحس بها كما فعل شعراء العرب في كل طور . ان التعابير صور اجيال مضت تفرضها عليك كتب الادب ومعاجم اللغة ، فاقتبس منها ما لاءم اذواقنا ودع التعابير الشائخة الهرمة كالاغصان المكرفحة . ان القضب في اعمال البستاني كمخافة الله في حكمة الاقدمين ، ولهذا نطلب من هواة التجديد في ادبنا المعاصر ، تعابير حية لصور ومعانٍ حية .

ولم لا يكون للشعر لغة خاصة ما زال للسهرات أثواب ، وللمراقص لبوس ؟ فهل من يلومنا اذا اوعزنا إلى اخينا الصافي بأن لا يدخل ديوان العرب ببذلته هذه ؟ فأي عذر لحسناء ، ونحن لم نستعجلها حتى تدخل علينا منبوشة الشعر ، دسماء الثياب ، تفوح من اردانها رائحة المطبخ ؟ !

فالادب لا يثبت إلا إذا استقام له اسلوب وتعبير رائعان بعيدان عن التقليد والابتذال ، تستقر بهما العاطفة الانسانية بجانب العقل الرشيد . اذا كان الالماس يثمّن ويسدّس ويخرط ليغوي ويغري ، ثم ينحت ويصقل حتى يكوكب فكيف بالشعر ؟ هب المعنى الماساً ؛ فمن رأى رجـــلا تحلّى بالماسة فصرّها في طرف منديله ؟ انه يجعل لها ظرفاً من الذهب الابريز ويغالي في زركشته . ثم من رأى زهرة بـــلا كمّ ؟ هب المعنى عبيراً فهو لا يطيب لنا محبوساً في قـــارورة كما نشتاقه ابتسامة في فم الزهرة .

فلا يتوهمنّ احد اننا ندعو الى جمال التعبير على حدّ قول الناظم :

ومـــا مثله إلا كفاقع حمّصٍ   خليّ من المعنى ولكن يفرقع

فما هذا غرضنا ، اننا لا نبتغي إلا معنىً طريفـاً في قالب ظريف تتّحد فيه كل الفنون الجميلة ، فالموسيقى والتصوير والمثالة والعمارة كلّـهـا من اعمال الشاعر ، وان ظن انه لا يتكلّف شيئاً منها . يا له حمــــلا ثقيلاً يلقيه الفن على ظهره ، فكم يجب أن يكون قوياً !

أجل يجب أن نحسّ الموسيقى والتصوير والمثالة والعمارة في قصائـد الشعراء ، والا فهي كلمات مرصوفة لم ينفخ فيها الفن من روحه . الأثر الأدبي تصوير قوامه الشعور وتوافـُقُ الألحان وموسيقاها ، والشاعر بنـّاء استاذ يهتم بالتآلف الفني بين بنيانه حجراً حجراً ومدماكاً مدماكاً ، ثم البناء بجملته . ومثـّال حاذق ترقص الحياة تحت ضربات ازميله وتشرئبّ كلما رفع مطرقته .

إن مهمّة الكتّاب وخصوصاً الشعراء شاقة جداً ، ولهذا لم أتعجّب حين قرأت في مجلة « الطليعة » كلمة كاتب افرنسي هذا ملخصها :

« نحن الكتّاب أقل الفنانين عملاً ، فالمصوّر والمثّال يصرفان نهارهما

في معملها ، أما الكاتب فلا يجلس الى مكتبه إلّا هنيهة ، بعد أن يحوم حوله ساعات ولا يقع » .

تلك حقيقة لا تجحد ، فالكتّاب كسالى والشعراء عجالى . نتوهّم ، كلّما سوّدنا ورقة ، اننا نسطّر وحياً بلا جبريل ، ونخضع لمشيئتنا الإلهيـــة والإنسانيـــة ، الف سطنائيل ... ولا يُجرؤنا على هذا إلا قلّة النقد : بالمعنيين .

وعندي ان أدبنا هذا لا يهتدي الصراط المستقيم مـا لم نقم عليه وصاية نقد صارمة ، فنحن اليها في الأدب أحوج . السياسة عَرَض أما الادب فجوهر ، والأديب الحق المخلص لبشريته يخلق أمة ، إن لم يكن الآن فغداً . ومَن يعترف بكفاءة وجدارة أمة ليس لها أدب صحيح ؟ ألم ترَ الأمم تشهر الحروب اليوم بإسم العلم والثقافة بدلاً من الدين ؟

نحن في حاجة الى أقلام لا تراعي في المنام خليلا ، وأول واجباتها تقدير الموهوبين كالصافي مثلا ، ليبدعوا مبنى ومعنى . وهناك واجب آخر أقدس وهو الدفاع عن الأدب ضد الدجالين المغرورين ، فأيّ سوق بلا مراقب ؟ ان سوق الخضرة له شيخ ...

وقبل ان نكون فنّانين وكتّاباً يجب ان نكون رجالاً – كما قـال برونتيير – أما الرجل والشاعر فوجدناهما في صاحب الأمواج ، فعسى أن يقذف تياره الى شط العرب درر الشعر الخالد ، ونرى فيه الشاعر والفنان معاً . الشاعر الفنّان من يقطع المسلك الوعر ويشتقّ طريقه في الغابـة العـــذراء ، أمـا من يسلك السكك ويماشي القافلة فلا رأي لي فيه ، فليسمّ نفسه ما شاء .

« لا يكفي أن نقول شعراً – والكلام لـ « فاغيه » عن لامرتين – يندر الحصول عليه من عمل السجية والقريحة ، بل يجب أن نقول شعراً من

عمـل الفنان لا من وحي الجن كما اعتقد المرحومون اجدادنا وغيرهم من شعراء الشعوب . وبكلمة أوضح ، يجب ان تقترن القريحة بالفن لتـلد للشاعر . ويمكن الصافي أن يكون شيئاً من هذا ولا يكلّفه الا أن يعرج على منسج دمشقي ويقف متأملا ...

لا بأس على الشاعر أن يكون كجواد امرىء القيس حين يقيّد أوابد موضوعه ، أمـا اذا بلغ العمـلُ التهذيب فليستمن بالصبر والاناة ، بل فليكن أبلد ستة الشاعر جميعاً ...

أما جمال الشعر فجمال داخلي ، جمال نفسي ، يشعّ من الألفـاظ كالخمرة في كأس بلورية ، فتتحد الالفـاظ بالمعاني اتحـاداً كلياً فتصير كخمرة الصاحب بن عباد وانائها . ومن هذا الجمال الذي لا تحيط بوصفه الكم والكيف يأتيه السناء الفـائق كالذي يلوح في « الحيا » الساحر « بارقاً » لو رآه الأخطل الصغير لمـا أرسل دمعه فقط ... وليقـل الريحاني ما شاء .

٤

قلنا في الفصل السابق ان الصافي توسّع في اغراض قديمة — ومن شاء فليسمّ هذا تجديداً — فضعُف تعبيره وتشوّش عليه التركيب . وقد أدرك هذا قبلنا أحد النقّاد الافرنسيين — أظنه برونتيير — فقال : « ان التجديد يتعب الفنان ويعجزه » . فكما ان المثّال لا يستطيع ان يصيّر الصخرة من الروائع بضربة واحدة ، كذلك لا يقدر الشاعر ان يبدع في أسلوب مـا لم يتأنّ كثيراً . الى هذا أعزو ضعف التركيب في شعر الصافي . فالأسلوب القصصي الذي يتمدّه تعوزه تعابير جديدة وأنماط حديثة ،

وقوالب طريفة ، يصوغها من معدن الكلمة ، فهو لا يحتاج فقط الى كلمات يبحث عنها الشاعر ويضعها حيث استرخى شعره فيشتدّ ، بل يحتاج أيضاً الى ألفاظ سائرة لا يغني عنها غيرها ، ولا يتمّ المعنى إلا بها . واللفظ السهل لا يشتدّ ولا تأتلف ألحانه إلا إذا كان قائله كالبحتري أو كالأعشى حين قال بلسان السموأل :

فشك غير طويل ، ثم قال له   اقتل أسيرك اني مانع جاري

فهل رأيت لفظة غريبة او شديدة ، فمن أين جاء الشعرَ هذا الاسر ؟ هذا هو سر الأدب الرفيع . ومن هذا المنفذ تتسرّب الركاكة إلى شعر الصافي كما يلج الميكروب جسماً غير منيع . ويفضح هذا العيب فيه تقارب اغراضه وتماثلها ، فيبدو لك من بعيد كالعنزة البلقاء ، ففي تنوع الاغراض سترة الشعراء .

اقرأ قصيدة الصافي « الليل والنجوم » التي مهّد لها الزهاوي فقال لنا : « انه اكتشف نجماً جديداً » ... ففي هذه القصيدة ترى ديباجة رصينة بل عبارات ألفتها وتعوّدتها ، فمن أين هذا ؟ إنه أتى من تقليد الصافي للمتقدمين في المعاني والصور ، فتوفـّر على تعبيرهم ، وأتاك « برواسمهم » التي يجترّها كل شاعر فقال لك : بحر الغسق ، ونبل الحدق ، ورث الحبل وخلق ، ونهر المجرة انبثق ، وفحمة الليل ، وقرن الشمس ، وعمـود الفجر ، وقدح الزند ، والفرقدان صاحبان ، والأفق درع ، وأحمر قان ، وأبيض يقق ... وهلم جرّا من هذه البضاعة التي كبّلت وتكبّل الفكر العربي .

ليس يضير الصافي قولنا إن اغراضه غير جديدة ، فأمثاله كثيرون ، وحسبه هذا التوسع لولا الذي فيه من رخاوة . فالفكرة لا تنمو في الزاوية التي ولدت فيها ، بل تتجاوز حدود القرية وتخوم البلدان وتهاجر كالناس ، ولكن بلا جواز ... فدولة الأدب لا قناصل فيها ولا سفراء

للتأشير ، وكل فكرة « مرغوب فيها » لا تبعـــد ولا تنفى بل تتطور وتتكيف وتثري من هجرتها . وهكذا تتلاقح الادمغة الخصبة وتتوالد ، كما رأينا بين ألفرد دافيني وسعيد عقل في بنت يفتاح ... فلا يخشى الصافي ان يصير جدّاً بلا احفاد ، كما قال ، فالأفــكار تتناسل وتحيـــا وتبقى ، وأخلدها اصلحها .

واذا قلنا : ان هذا تأثر بذاك ، فلا نعني ان هذا الزواج المبارك يعقب دائمـاً ، بنين صالحـــين من ابناء السلامة ... فالمعري ودانتي واغوسطينوس ، ومن لفّ لفهم تأثروا برؤيا يوحنا حين حدثونا عن نعيمهم وجحيمهم . اما اولئـــك النخاسون الذين يسرقون اولاد الناس بشحمهم ولحمهم ويدمون آذانهم — لا عفا الله عن آذانهم الطويلة — فما هم الا قرصان بحر وصعاليك ليل .

اما الصافي فلا يقفو اثر أحد ، وليس في شفقته على الحيوان تقليـد للمعري ، كما ان تبرمه بنا نحن البشر ليس كتبرم ذاك . وإن تمادى فرأى الحيوان خيراً منا ، فقد قال شاعر قبله : .

عوى الذئب فاستأنست بالذئب مذ عوى
وصوّت انسان فكـدت اطـــير

تلك ساعات سوداء ، أوحت إلى الصافي ما قال ، وما أكثر سويداء المريض . اقرأ له من قصيدته « البرغوث العاشق » :

وإن أصِل ربوتهـــا أصلّ في محرابهـــا
ألثمها من فرعهـــا لمنتهى كعابهـــا

لتعرف ان عنده ما عند البشر ، اولئـــك القرود الذين انحطوا فصاروا ناساً ، كما قال فيهم :

فالقرد يعمل ما توحيه فطرته والمرء يعمل ضد العقل والسنن

وهل يعمل الانسان يا أخي بغير فطرته ؟ وهل السن غير لجام لها ؟ فمتى صار الرسن شريعة ؟.. اقرأ قصيدة البرغوث ترَ حباً ساذجاً وغزلاً فطرياً ، لتعلم ان اخانا الصافي غضبان علينا وحدنا نحن الجنس الخشن ، الثقيل الدم ، وتدرك ايضاً ان شاعرنا تاعس الجدّ فيختم « برغوثيته » بقوله :

وان تصِدني كفّها أمتْ فدا شبابها

حلو هذا الوفاء ... سلمت يا اخي ، وعدت بخير من رحلتك المضنية . لقد صدق العرب : السفر قطعة من العذاب .

والصافي ثائر على كل شيء ، وراض عن كل شيء ، واظنه يفتش عما يثور عليه تفتيشاً ، وفق الله سعيه ، ولهذا يصعب علينا الآن تحديد اتجاهه في أمواجه ، أو نقول من يشبه . فهو لا يشبه إلا احمد الصافي النجفي ، بل لا يشبه ذاته في قصيدة وأخرى . إني لعلى يقين أن الصافي يحلل لنا نفسه في مواضيع عديدة ، ولكننا لم نظفر بعد بصورة واضحة الدلالة بألوانها وخطوطها ، فلا أدري اذا كانت نفسه معقدة بهذا المقدار فلم يوفّق الى تحليلها . فبدلاً من أن يرينا الصافي نفسه أرانا مباذله ، وما عنده من آلة فجاءت وجوه بعض صوره مقرفة ... خبّرنا عن عواطفه خبراً ، ولم يتغن بها كالشعراء ، فكالمقرر عندي انه لم يجد نفسه بعد ، فهو في لبكة عوّاد يصلح أوتار عوده المشوّشة ، أو كالسديم الذي يدور على ذاته ليتم نوره ، فعسى أن نرى كوكباً ساطعاً وشهاباً ثاقباً .

والصافي في أمواجه كطفل يبكي ، فما نحن ندري ولا هو يدري ما يريد . فبينا نراه يحنق على فارة وينصب لها مصيدة اذا به يطلقها ، والعفو عند القدرة جميل ... ثم يزعجه ديك فيتمنى له الذبح ويشتهي ان يكون له ابن آوى لولا السياج المحيط به ، اسمعها شعراً :

فلو أسطيع كنت له ابن آوى ولكن قد أحاط بـــه سياج

العهد بالشعراء يحبّون الموسيقى والجمال ، والديك موسيقار جميل ، فاتنة ألوانه ، وشتان ما بين فارة وديك ، ولكن الصافي مولـــع بالتقائض . اما ما يبدو لي ، الآن ، من اتجاهه فهو ميـله إلى الوصف وخصوصاً ما يخالف منه العرف ، فيستخرج حكماً وعبراً كشعراء العرب الذين توهموا ، أمس واليوم ، ان الحكمة خالة الشاعر ، ومن لم يقـــل الحكمة فهو عندهم كمن لم يزر حلب عند اخينـــا بشاره في متنبئيته ... وهذا ما اقصى شعراء كثيرين عن الفن .

وبعد ، فليثر الصافي على كل ما تواضع على احترامه البشر الا ديباجة الشعر وألفاظه والقواعد النحوية ، فان ازدراها ازدرى فنه . لم ارَ له ضريباً في هذا النحو الا فرنسيس مراش الحلبي ، كلاهما حاول التجديد وكلاهما لم يؤدّ اداءً حسناً ، والفرق بينهما ان الصافي لا ينقصه الا الجلد ، اما مراش ففعل ما أطاقه .

اية ضرورة قضت على الصافي ان يقول :

اذا « هِجنَ » الديوكُ « وصِحن » حينا

فـــذا طولَ الظلام له هيـــاجُ

ثم قوله :

وكم « ضعن » مني في خيالي لذائـــذ

فلم تبق لي منهـــا ولا لذة الذكرى

ما لنا وللبحتري ، ولكن أنرضى بها غلطاً ، كأني به يريد أن يتابع عمر بن أبي ربيعة حيث قال :

« رأين » الغواني الشيب لاح بعارضي

فأعرضن عني بالخـــدود النواضر

وكن اذا ابصرنـــني او رأينني
سعين فرقعن الكوى بالمحاجر

فلو قلنا لعمر مغفورة لك خطاياك لاجل هذه الصورة الجميلة ، أنقول ذلك للصافي وهو لم يخبرنا الا ان الديك يلج في صباحه ... فما أحسب الصافي قد ارتكب هذه الاخطاء الا عمداً ، لانه يحب الاخطاء كما سترى ، أو أن غرفته تذكره دائماً بلغة « اكلوني البراغيث ! » كفى لغتنا هـذا التميّع والتمطط في قواعدها وألفاظها . ثم ما أجبره على القول : « فلو بأية حيوان تبدلني ؟ » وعلى القول :

احشاهمـا باليــات كما (بلت) احشائي

ما لنا ولهذه الاخطاء الآن ، أفلا أظفر بتعبير جديد في ديوان قرأته من الدفة إلى الدفة ؟ فبماذا تفوق امرؤ القيس وعمر حتى قالوا بهما : اول من قيّد الأوابد ، واول من حيّر الدمع وماء الشباب ؟ الخ ...

ان في الصافي حسناً ولكنه في شعوره لا في شعره ، حسنُ جميـلة غير مهندمة ، ضاعت معاني جمالها في ثنايا ثوبها الجمعد . قلّما نلمس في ديوان الصافي اثراً للشباب بل للرجولية ، وقد قلّت الوانه حتى الندورة . امـا رجولته فتتجلى حتى في أشد حالات بؤسه ، فما هو ذلك البائس الرخو بل بائس صلد كالرخام تحت مطرقة النحات وازميله . اما العزمة العربية في شعره فهي كالبرق الذي وصفه امرؤ القيس ، كلمع اليدين في حـبي مكلل . والخلاصة ان في الصافي نخوة الفرس العربي الاصيل مهـما هزل ودقّ . اما حنينه إلى الطبيعة وغضبه على المدن فينبع من نشأته الاولى التي طلقها فصار يرى نفسه كمنفيّ ، ولهذا جاء شعره وثيق الاتصال بحياته .

ترى في ديوان الصافي أشباه صور ، فهي لا تستوقفك ولا تستهويك لأن صاحبها لم يحذق ابراز خطوطها ذوات المعاني ولم يجد تلوينها ، وهو

لو فعل لأرانا جمالاً . يحاول الصافي اجادة الختام كأبي نواس وان لم يحسن جمع نفسه في زوره كأسد المتنبي ، ليقفز ختامـــه قفزاً ويجمز جمزاً . اسمع مله يقول عن التاجر الشامي الذي خال الصافيَ أميراً بدوياً ، وهو مارّ بدكانه :

ثم القى شباك بشرٍ ولطفٍ فوق وجهي يرجو بها أن يصيدا
هبّ لما مررتُ بالقرب منـه قائلاً : ما تريد ؟ قلت : «نقودا»

وبوجه عام ينقص شعر الصافي كثير من الدم ، فهو بحاجة إلى كمية وافرة من زيت السمك . اما هو فيرى الشاعرية كلها في مخالفة الناس ، ولهذا يكتفي بوصف الاشياء دون تشخيصها ، فتبقى كما هي ، أي اشياء . واذكر انني قرأت له شعراً قال فيه انه يريد ان يقول شعراً منطق الطير لفظه ، فيا حبـذا ، وعسى أن يكون أعذب الطيور ترتيلاً ، ومن يؤتِ هذا فقد أوتي شيئاً كثيراً ...

نحا الصافي في ذكر قبحه نحوَ عنترة ، ولكن الشاعر الجاهلي كان أبرع جداً فاستغل سواده حتى لم يبق غذاء في ذلك السواد الا امتصه ، فأخرج الصور الرائعة مبنى ومعنى . وابيات عنــترة مشهورة . واذكر شاعراً آخر ، أسود أيضاً ، هو محمد امام العبد المصري ، قد أخرج صورة رائعة لسواده حين قال يعتذر عن عزوبته :

أنا ليل وكل حسناء شمس فاجتماعي بها من المستحيل

وقد حلل أيضاً عنترة نفسية جواده — ولم يتعلم علم فرويد — كسلامه موسى الذي طلع علينا مؤخراً بسادية المتنبي — فأجاد بقوله :

فازورّ من وقع القنا بلبانه وشكا إليّ بعبرة وتحمحم

كما حلل الصافي نفسية بعض القطط والكلاب والفـــار ، ففي قوله : « فضحونا حتى أمام الكلاب ! » ختام رائع وسخر لاذع ذكّراني بقصيدة

لأسعد رستم الشاعر الظريف ختمها بما معناه : إن هزّ أذناب الكلاب أصدق من هزّ أيدي البشر .

وأرى الصافي يبالغ جداً في وصف « غرفة شاعر » وغيرها . يرشدني الى هذا الحكم تغنّيه بقبحه . أنا لم أرَ فيه جمالاً ولكني ما رأيت قبحاً كالذي يصف ، فلا قبح ولا دمامة ولا عاهة — خلقة كاملة ، نعمة زائدة — كما يقول المثل . هذا اذا لم أكن مبتلى بخداع النظر يوم لقيته ، او جعلت وجهي مقياساً للجمال الرائع ...

ذكرتني قصيدته « غرفة شاعر » بقصيدة ابن الاعمى في ذمّ دار سكنها ، والشاعران بالغا جداً . لو كان في غرفة الصافي قيراط مما وصف لأكلته تلك الحشرات ، فالمومياء لا تسلم من تلك الفئران والجرذان . واذا كان الشاعر ينام حقاً في « أوضه » كالتي وصف ، فقد ظلمناه في تلمسنا الفن عنده وتطلبه منه . اليك ما يقوله في مفرشه وغطائه :

صارا ثمينين لما صارا من القدماء
احشاهما باليات كما «بلت»احشائي
حتى كأنيَ شلو أنام في اشلاء

وما زالا من جيل نوح فأعجب كيف اجتاز بهما الحدود ..! وأشك أن في دمشق بلدية ...

٥

ان شعر الصافي يشتدّ في القصائد القصيرة الوزن ، وتقل فيه : قد ، والكلّ ، وكلّ ، والغير ، وذا ، والبعض ، ووجود ، وما اليها ،

من الالفاظ التي يحشو بها شعره ليستقيم الوزن . قابل اذا شئت ، قصيدة « البرغوث » ، و « سراجي » ، و « الوحدة » ، و « البدر في الهالة » و « إلى العميد » ، بغيرها من قصائد الصافي الطويلة الوزن .

ويشتدّ شعر الصافي أكثر في المواضيع المتيقة ، قلباً وقالباً ، كالليل ، والنجوم ، وقد اشرنا اليها ، والهواجس الثائرة ، وبين الفرس والعرب ، ووصف الشاي ، فيكاد يسلم من حوشي الكلام ، وتلك الطفيليات . والصافيْ لا يتحاشى تسكين المتحرك – قاتل الله من جوّزه للشعراء – فيسكّن الحيوان ، والخشن ، والنهم ، فيزحف شعره سلحفاة ، والشعر يحمل أن يكون فراشة . فاذا صحّ ان للمحيط تأثيراً بالشاعر ، وهذا لا شك فيه ، فخطيئة الصافي في رقبة تلك الغرفة . فالذي يأوي إلى مثلها لا يبالي بتكردس الفاظه وتدربكها ...

ورب قائل قال : قد فرغ الصافي مما تستجهد فيه ، اما قال في مقدمة أمواجه :

واسكن كوخاً ما به أي زخرف   ولكنه كوخ اقامته لي يدي

قلنا اذا كانت البلديات تهدم مثل هذه الاكواخ وتحرقها ، وتسهر على هندسة الشوارع وتخطيطها ، فأحرِ بنا ، أن نفعل مثل هذا للمدينة الخالدة .. وكيف نرضى للصافي بكوخ وهو يقدر على تشييد قصر لو تجلد ؟ فلو لم يكن الصافي شاعراً سليقياً لما أعرنا ديوانه هذا الاهتمام . فالنفس نفس شاعر ، اما التعبير فكذنب البحتري ما فيه إلا العظم والروح والجلد . ومن يكفل لنا ان الصافي لم يقل هذا إتضاعاً كدي موسه . فالشعراء كالنساك في السنتهم تواضع عميق .

أما بؤس الصافي فتلمسه في قصيدته « ما اسم هذا اليوم » لا في « غرفة شاعر » ، ولا « في الوحدة » ، ولا في « الحنين إلى الطبيعة »

حيث يقول :

طبيعة الكون في خلقي لقد غلطت   فلو بأيــة « حيوان » تبدّلني
هل جئت دهري هذا في أواخره   أم انني في وجودي سابق زمــني

أما أنا فاظن الامرين : الزمان آخر والصافي سابق . امـا الحقيقة فعند صبي المعري الخبيث ... ثم ما لي ولهذا الجهد فحديث الشاعر من باب تجاهل العارف ، وتلك شكوى الشعراء من « أهَيْل » زمانهم فلا حول ولا قوة ...

ويتيم الصافي يذكرني « بأمّ يتيم » الرصافي ذات الديباجة البحترية . اما كيف انشقّت الارض وبلعت شاعرية الرصافي فهذا ما يحيّرني ...

تملّص الرصافي من قال ، وقالت ، وتقول ، ويقــول ، وتعثّر الصافي بيقول وتقول ، وكأنه شعر بثقلها فأراد ان يتخلص منها فجاءنا بتدعو ودعاه ، فكانت اثقل وأشنع كما ترى :

فيقول ابن ابي « فتدعو » غائب   فيقول غاب اما له من مرجع
ولربمـا وجد الحنان من امرىء   «فدعاه» انت ابي وكنت مضيّعي

اما صرخة الصافي في ختام « يتيمه » فموجعة حقاً ، لانها منبعثة من كبد مقروحة ذاقت مرارة اليتم :

ليت الصغـار جميعهم لم يعرفوا   آباءهم وربوا معـاً في موضع
كيلا يصيب اليتم بعضاً منهم   فيعيش عيشة بائس متسكع

وما اوقع الصافي في تلك الورطـة الا تبسطه في الغث والسمين ، وتفصيله كل حركة كأنه يصف حفلة لجريدة : اقرأ « اليتــيم » و « انا والدجاج » و « الشاعر والفأر » و « الشاعر والقط » ، فترى ان الكلام لم يَنْقَدْ له في القصص الا في « بين شاعر وصاحب فندق » التي اجـاد الريحاني حلها في « قلب العراق » فأخرجها فكهة رشيقة ككل ما يكتبه

الريحاني في هذه الاغراض :

فبينا تراه يقول ويبدع :

ان رمت في الدهر ان تحيا فكن خشناً
فمنخـــل الدهر لا يبقي سوى الخشن
يعدو الزمان فمن لم يعـــد مستبقاً
امامـــه سحقته أرجـــل الزمن

اذا به يسفّ ويركّ شعره حين يقول :

مـــا ارى المجلس الا حاكياً صوتــه عن مجلس منعكسُ
ضم آلات بسلـــك ربطت فـــاذا حرك يومـــاً ينبسُ

ألا ترى كيف اخبرك ان المجلس كالحاكي ، ثم شرع يفصّل لك كأنه يشرح للتلامذة درس فيزياء ؟ ... فهـو لا يوجز ولا يرمز ، ولا يثق بفهم الناس . رآهم لم يقدرّوه قدره فساء ظنـه حتى بفهمهم شعره ، فشرح لهم حتى أملّهم ، والملدوغ يخاف جرة الحبل ...

وفي « خيبة الشعب » يخاطبنا الصافي بلغة « الميجانا والعتابا » فيقول :

تالله ما اعُظمها من خيبـــة نحن زرعنا الزرع والغير حصد

اما الزجّال اللبناني فقد قال ابلغ من هذا الشعر :

يـ شجرة البالدار ناطورك اسد وتكسروا الاغصان من كثر الحسد
نحنازرعناالزرعوإجاالغير حصد يا حسرتي عبّوا القمح بعدالنـــا

أسمعت الشعر الباكي المؤلم ؟ هذا الشاعر يبكي ويبكينا معه لانه صادق ، فاين « تالله ما اعظمها من خيبة » التي عصر الصافي يافوخه حتى اخرجها ، من قول الزاجل : « يا حسرتي عبّوا القمخ بعدالنـــا » ؟ ... أرأيت يا اخي الفصيح ، روعة الشعر العامي ؟ فهذا الهتاف يا حسرتي ، وهـــذه الصورة الباكية : عبّوا القمح بعدالنا ، اي حصدوا زرعه ونقلوا الحنطة

في عدله ، فتأمل .

وما قولك يا سيدي الشاعر الكبير ، بالصورة الاولى : « شجرة في الدار ، وناطور اسد ، واغصان تتكسر من كثرة الحسد ؟ » . لا تنس ان الحسد يشغل بال القروي جداً حتى على عنزته وبقرته و ...

ومتى عرفت ان هذا القوال لا يعني بالشجرة غير حبيبته التي انتزعت منه ، فلا شك ، انك ستشايعني وترعم زعمي ان هذين البيتين من الشعر الحي . فكل لفظة تبوح بمناها وتخبر عن لوعة صاحبها ، حتى تـكاد تشخصها لك .

وكأني بالصافي يدرك ان الالفاظ لا تطيعه فيقول لنا :

أهوى المعاني عن ثياب ‍ ‍ اللفظ تظهر عـاريه
فالشعر تحجب نوره ‍ ‍ ألفاظـه والقافيـه

اذن فليكتب نثراً فيريحنا من النقد ! ان الوزن والقافية للفنان كبؤرة العدسة التي يتجمع فيها النور . أما الصافي فما اكترث لألفاظه ولا بالى بقوافيه ، فجاءت نافرة شاخصة ، طالعة نازلة ، مداميك لا يردعها خيط ولا فادن ... واليك شاهداً من قصيدتـه « الشاعر والقط » التي بلغناها الآن :

وكنت مـكابداً خجلاً لطردي ‍ ‍ قُطيطاً قـط لم يذنب ويجني
حياي من القطيط حياء نبـل ‍ ‍ وليس حياي منهم غـير جبن
ففاق حيـاي منه على حيام ‍ ‍ لذاك ضممته لي ضمّ خدن
فهل هو شاعر القطط التقى بي ‍ ‍ فألف بينه طبع و « بيني »
أيبغي ان ينافسني بشعري ‍ ‍ ونظرتـه عن الاشعار تغني

حقاً انها منافسة غريبة قريبة ... ارأيت مرة أخرى ماذا يفعل «التفصيل» بأخينا الصافي ؟ وهل من بأس علينا اذا تساءلنا هنا عمـا تراه يورث

الصافي شاعر القطط حتى يقول له :

وكنت اود لو تغدو لي ابناً أورثـه اذا صـح التبنـّي

لقد صح هذا يا اخي في اميركا واوربا فورثت القطط خيرات كثيرة ... وما يمنعك من هذا فالوصيـّة معمول بها عندنا فوص ّ لقطك ما شئت ... وإن تستشرني قلت لك : ورّثه غرفة شاعر ، أليس هو شاعر القطط ايضاً ؟

اما « الليل والهم » فأعجبتني مبنى ومعنى ، ففيها أثر الخيـال الذي فتشت عنه ولم اجده في شعر الصافي ، اسمع وصفَ همّه :

والهم مجنون تراه هادئاً صبحاً ،وان جاء الدجى تهيّجا

وبعد ان يصف جنون « همـه » المطبق ، وما كان بينهما من طعن وضرب ، وكرّ وتزال حتى استحال الصلح ، قال لنا الصافي :

لو كان همي عاقـلاً أقنعته لكنني قابلت همـاً أهوجا

ويلي عليك يا اخي ! ما اجمل بيتك ، وما اروع همك الاهوج ، وآه من « قابلت » ! ليتك تأنـّيت وجئتنا بأحسن منها ، فلولاها لقلت لك : انت اشعر العرب يا ابن اخي ، وترّحنا كلانا على النابغة .

وظل الصافي يتصارع وهمّه حتى مطلع الفجر ، واخيراً قال لنا :

فرّ وألقـاني صريعاً بعده وقال ألقاك اذا الليل سجا

قد ذكـّرني صراع الصافي وهمّه بصراع يعقوب مع الرب كما خبرتنـا التوراة ، وحمدت الله على ان الصافي لم يفكّ جنبـه كيعقوب اسرائيل الذي أورث البشرية « عرق النسا » .

وفي « غناء السواقي » ومضة صوفية ، وفي أبيات غيرها يقترح الصافي تسمية الشوارع بالأخلاق بدلاً من الرجـال . هب اننا يا استاذ سمينا شارعاً باسم العفة وكان كشارع المتنبي في بيروت فماذا تعمل ؟

واخيراً يرينا الصافي التناقض الذي يتمشقه في صفحتين متقابلتين (١٣٠

و ١٣١) فيقول :

أهوى الكلام من الشعور مجرداً   إن الشعور قبوره الالفاظ

ثم يقول :

اللفظ قشر وفيه   لبّ المعاني يقرّ
كلاهما مستحق   ان يعتني « فيه » فكر
فاللبّ يفنى سريعاً   إن لم يحط فيه قشر

وأخيراً يصارحنا الصافي بما في نفسه فيقول لنا :

لي في الشعر عالم مستقل   انا فيه فرد بدون خلاف
لم اشارك غيري لأني كربي   واحد لا نظير لي في القوافي

صدق الله العظيم ، الشعراء في كل واد يهيمون . وكأني أرى بشاره الخوري يغضب غضبته المضرية حين يسمع هذين البيتين فينتصب وينشد :

ومعشرٍ حاولوا هدمي ولو ذكروا   لكان اكثر ما يبنون من ادبي

أما نحن فنترك الصافي وبشاره يتناحران على من هو شاعر السماء والارض ، ونمضي في طريقنا عجالى لنرى ما عند الصافي بعد . ها قد وصلنا . فهو يحدثنا عن نفسه بصورة أخرى فيقول :

كأني من الأخطاء طيني مركب   فما أصلح الأخطاء إلا بأخطاء

وقد فعل هذا حقاً في قصيدة « الطفلة السائلة » بقوله (ص ٥٨) :

هل تستطيع العيش من عمل   وسنونها لم تبلغ العشرا

فأصلحها في « التصحيح » وسنينها ، وظلت خطأ ... ولا اعتبار لما ذكره ابن عقيل فذاك سماعي ، وكان على الصافي ايضاً أن يحذف الياء من « كأني » .

وفي آخر ديوان الصافي ثنائيات ورباعيات وخماسيات يجمعها عنوان « أنغام مشوشة » ، وهي كذلك . نظم فيها الصافي كل شاردة وواردة

شعراً ، وهذه مصيبة . وقد لاحظت هذه القطع فرأيت ان ابياتها الاولى تسخّر كلها للبيت الاخير فتبدو سحنتها كالحة كوجه الاجير عند الصباح .

وفي خاتمة الامواج يشعرنا الصافي في نظمه :

وجمال الاشعار في ان تبين الروح والسر في البيان الفصيح
وكجهم يسعى لتكسير مرآة مداوي الاشعـــار بالتصحيح
إنما الشعر مثل قذف البراكين ومثل الشكوى من التبريـــح
أتعيدون قـــذف طاغي البراكين لترتيبها بشكل مليـــح

إذن هو في واد ونحن في واد ، هُدينا وإياه . أما ما قرأت له أخيراً في غير الامواج فيثبت لي أن الايام وممارسة النظم ستعدّل الصافي من حيث لا يدري .

أمدّ الله بعمره وأراحه من غرفته وهمه الاهوج ، وحسبه من التجديد انه لم يمدح ولم يرث .

وليثق الصافي وغير الصافي ، ممن انتقدت وأنتقد ، باخلاصي لهم ، واني أتمنى أن يكون العام الجديد أغزر وأجود محصولاً ، فيفيض التقريظ ويقل الانتقاد .

الصافي
في دواوينه الثلاثة

يقول العرب : كل يغنّي على ليلاه ، أمـــا صديقنا الصافي النجفي فيغنّي على ألف ليلى . فإذا رأيته على الرصيف إما متأملاً وإما شائح النظر فلا يتبادر إلى ذهنك انه من السحرة أو العرّافين الذين يرجمون بالغيب ، بل ثق وتأكد انه شاعر هائم ، شاعر بوهيمي حقاً ، يعمل بقول المثل القائل : من اهتم من غداه لعشاه كان من القوم الكفّار ...

الصافي شاعر ، ولكنه شاعر على طريقته هو . لست أشكّ في انه لا يستطيع اخراج شعره بغير مظهره هذا ، وان رأيناه في « أشعته » و « أغواره » و « تياره » أصح وأبهى ديباجة منـــه في « أمواجه » ، فللأمواج زبدها وعفشها ونفشها . أما الأشعة ففيها ضياء ولمعان بمقدار . ان حظ الشاعر من الألوان قليل لأنه غير بعيد مرامي الخيال .

الصافي شاعر واقع ، وواقع كالماء الزلال ، وان اسمى ديوانه الصغير « أشعة ملوّنة » انه نظم عفواً ، وهو شعر قاله صاحبه في مواضيع شتى ، حتى كاد ان يكون مجموعة خواطر التقطتها مخيـــلة الشاعر حين سنحت . يختلف الصافي ويتفق فيها مع زميـــله الزهاوي في رباعياته ،

وهما عندي طائران تفقصت عنهما بيضة واحدة . يتفقان شكلاً وان اختلفا في بعض الموضوعات . كلاهما شاعر غير محكك . وكأني بالصافي قد أدرك هذا فقال :

قالوا قريضك لفظه صدف حيناً ، وحيناً لفظــه درر
فأجبتهم اصدافــه درر لو كان يدرك كنهها الفكر

ألا يذكّرك هذا قول ابن الرومي :

شعري شعــر إذا تأمــله الانسان ذو العقل والحجى عبده
لكنه ليس منطقــاً بعث الله بــه آيــة لمن جحــده
ولا انا المفهمُ البهــائم والطـير سليمان قــاهر المــرده
ما بلغت بي الخطوب رتبة من تفهم عنــه الكلاب والقرده

فإذا صنّفنا الشعراء ، وهذا ممكن ، لأن الشعراء كالطيور اشكال ، على بعد الشقة والاجيال ، رأينا الصافي في ديباجته كابن الرومي ، وان كان دونه خلقاً وخيالاً . وفي صاحبنا النجفي شيء آخر من ابن الرومي هو قلة ثقته بفهمنا نحن البشر ، فيقول :

حين أنحط بالقريض الى الأرض تزيــد الرفــاق من جانبيــا
واذا ما ارتفعت بالشعر أبقى مفرداً يضحك الانام عليــا

وهو أيضاً كابن الرومي في شنّه الاغارة على الذين يطعنون في شعره فيقول فيهم :

قال خلي وقد تعالى ضجيج حول شعري الراقي ونظمي الرقيق
فيم هذا الضجيج حولك أضحى يتعــالى من حاسد وعقوق
قلت هــذا الأنين من حشرات عارضات سحقتها في طريقي

أما النقّاد ، ويا ويلي عليهم ، فهذا حظهم في كل زمان ، ولكن صاحبنا حمّلهم ما لا يطيقون . التقى بهم في غور من « أغواره » — دونه

غور بيسان ، فهو أحط من البحر كيلومتراً — فقال كلاماً معقولاً . أما في التيار فقد تجاوز الحدود والتخوم ، وهذا ما يفعله التيار الجارف ... فاسمع الآن ما قاله شاعرنا في « الاغوار » :

بنقّـاد القريض برمت لما رأيتهم وقـوفاً في طريقي
فتعثر فكرتي بهم اذا ما اردت السير في نظم دقيق
وكل قـد دعـاني نحو نهج فحرت كأنما انا في مضيق
فلم أرَ حيلة لي غـير اني اسير ولا أبـالي بالنقيق

اني أقرّه على هذا الرأي فليسر . ان الناقد لا يستطيع ان يصيّر الذهب عيـار ٢٤ ، ولكن هذا عمـل الصائغ . فليصوب الصافي انبوبه على شعره ليولد اللهب الآكلة ، فهو مستطيع — إلى حد ما — اذا أراد . هذا ما أصابنا من اهوال « الاغوار » ، اما ما لقيناه من التيار فهو الداهية العمياء والمصيبة الهوجاء ، مصيبة في العنوان ومصيبة في ما تحت العنوان ووراءه ، وخلفه ، وقدامه ، ولولا يهجونا الصافي هجواً غير لئيم لهان علينا الأمر فاسمع سبابه .

سأشكر نقـادي اللئـام لأنني ركبت عليهم في طريقي الى المجد
فان قصروا في السير يوماً وخزتهم فساروا وساروا مسرعين من الحقد
يضجون من حقد واضحك هازئـاً بهم وهم يجرون بي دون ما قصد
ولو عقلوا يوماً رموني الى الثرى ومن اين تأتي للسوائم بالرشد
وهيهات يسطيعون رمي الذي علا عليهم ويعلو الحر دوماً على العبد
ومن يعل شخصاً قـاده كمطية وخير المطايا مازج اللوم بالحقد

ولا يهمل النجفي الفخر بشعره ، وهذا الفخر الطائش داء الشعر العربي الخبيث ، داء باض وفرّخ في صدور كل من قـالوا منا شعراً . والغريب العجيب ان كل واحد منا يظن انه الشاعر المفرد ، وليس من ينتقد شعره

الا حاسد لئيم ... اما صاحبنا هذا ، وليس قولي هذا بضائره ، فقد فاق كل فوق في هذا المعرض حين قال :

سموت بشعري فوق جيلي ولم يزل   يشك بشعري معشر البلهـــاء
فان لم اكن في امة الشعر واحداً   اكن امـــة أعلى من الشعراء

اقول آمنا وصدقنا بهذا العلو ، ولكن ايمان البلهاء لا يدخلهم ملكوت رضا صديقنا النجفي . فالملكوت مختص بذوي العقول ... ان اللاهوتيين لم يحددوا بعد الزاوية المعدة للمجاذيب والبهاليل في دنيانا الثانية ...

اما سخط النجفي فكسخط ابن الرومي ، كلاهما متبرم ضيق الصدر بالناس غاضب عليهم ، والفرق بين الشاعرين ان ابن الرومي يرمي عن قوس سخطه شخصاً بعينه ، اما النجفي فضرّاب قنابل رشاشة لا رامي سهام مراشة ، فالناس كلهم عنده انجاس . ان هذه فكرة شعرية طاغية على الشعر العربي ، ومولدها الثـــأر للشعر من الناقدين ، وهي التي طغت على شعر المتنبي . شك المتنبي بصديقه لعلمه انه بعض الأنام ، وقـــال الصافي يذم المخلوقين على صورة الله ومثاله ، بصورة لم اوفق الى نعت صارم الصقه بها ، فيقول في كلب حكم عليه صاحبه بالاقامة الاجبارية في الشارع مؤبداً ، فانتصر الصافي لذاك الكلب حين رآه حزيناً مكسور الخاطر :

يشحذ الخـبز حول بائع خبز   من يـد المشترين دون طلاب
يسأل المشـــترين في نظرات   قد حوت للطوى معاني كتاب

رق قلب الصافي لهذا الكلب المسكين فقصد بيت صاحبه ، واذا به يرى عنده جرو كلب جميل ، فوبخه « على تركه قديم الصحاب » اي الكلب العتيق المظلوم فكان من الرجل ان :

قال هـــذا جرو جميل وذاك   الكلب شيخ فاعجب لهذا الجواب

وبعد ان عاد الصافي يتعثر بذيل عباءته ، قعد يقرّع البشر ويلوم حتى

ختم قصيدته بهذا البيت الطريف :

صرت آبى من نسبتي لأناس   فضحونا حتى امام الكلاب

هذا نموذج — ذو قيمة — نقدمه للقراء من سخر صديقنا النجفي . ان سخره يبكي ولا يضحك ، فلا هو سخر بشاري ولا سخر نواسي ولا رومي .

اما موضوعات الصافي فلا تحلل ، لانها كنعم الله التي لا تحصى ولا تعدّ ، الا اذا خصصنا شاعرنا بكتاب اضخم من دواوينه جملة ، وهذا مستحيل ، ولذلك لم نتركه بالمرة ، ولم نقف عند كل قصيدة وقوف قدماء شعرائنا على الأطلال . إن للصافي فلسفة ولكنها كلاهوتية الشاعر سعيد عقل ، لا تفهم انها فلسفة ما لم تنبّه . فسعيد يحسب « المحبة » علم لاهوت ، والصافي يرى البغض فلسفة ... ومن يرَ الدنيا وناسها بعيني بؤسه وشقائه فلا يمكن ان تكون موضوعاته غير ما كانت . وها هو إذ يقول قصيدته الرائعة ، في ذكرى المتنبي الالفية ، لا يحرم الناس من الطعن والضرب ، فيقول في نقاد المتنبي بيتاً جميلاً . وللصافي مثله كثير في دواوينه :

قد أقاموا ملوحة البحر عيباً   حين خافوا من ان يخوضوا خضمه

ثم يرى ما قيل في ذكراه شعراً نازلاً عن الشعر فيقول :

وأتى الشعر مهرجانك يشكو   بعد الف إلى قوافيك يتمه

قلت : فما عساه يقول لنا الصافي في ما قيل اخيراً في مهرجان شاعرنا مطران ؟ ان شعر ذاك المهرجان المطراني لا يليق بشماس شيخ في خدمة مذبح الرب ، فكيف يليق بمطران يؤهله شعر شبابه وكهولته ان يكون بطركاً لولا المحاباة ... كأني بهم قد راعوا النظير فقالوا في ابن الثمانين شعراً كأنه ابن تسعين ... ويختم الصافي رائعته في المتنبي بقوله .

مدح هـــذا النبي يبغي وصياً آخـــذ من اباته الجم شمه
انا اولى بمدحـــه وعـلاه ان يفقني شعراً فلي منه همه

وبعـد ، فان اسلوب الصافي هو هو ، وتفكيره في « الاغوار » و « اشعة ملونة » و « التيار » لا يختلف عن تفكيره في الامواج . اما تعبيره فهو في هذه الدواوين الثلاثة خير منه في الامواج . وان كان ما رأيته بعد قراءة هذه الدواوين يحملني على القول مع شوقي :

وترّ في اللهاة مـا للمغني من يـد في صفائه أو ليانه

اما في الابتكار والخلق والابداع فالصافي شاعر يخوض وسط المعمعة ليس اكثر . قد يبخت بصورة او حـكاية ، ولكنه لا يوفق كل التوفيق إلى « الزخم » الذي يترك دوياً في اودية الآذان . ينسيك ختامه غالباً ، روعة تلك الفكرة التي حبل بها دماغه ، ثم تمخض ولم يلد الا جنيناً لا يوعوع حين يبصر النور .

فالى الصافي ثنائي الخالص ، وحسبه انه يقول لنا شعراً ، ان يكن غير برّاق ، فهو فيه غير متعمل ولا سرّاق . وأحسن مـــا في الاحسن من هذا الرجل هو انه يعرف نفسه كما عرفه النقاد ، وان ركب علينا جميعاً في طريقه إلى الجد ، كما قال . يعترف الصافي بذلك ، ولكنه كما يتضح مما ستسمع ، يدرك من امره ما ندرك ، ولهذا ختم « التيار » ، وهو آخر ما صدر من دواوينه ، بقوله :

نظر الناس لي فحاروا بأمري وانا مثلهم بأمري حـــائر
انا اما ان لا اكون كغيري شاعراً او اكون وحدي شاعر

وآخر مؤاخذة لصديقي النجفي هي تضرعي اليه ان لا يرفع الكلفة بينه وبين اللغة — وان كان قد قلل ذلك — فقوله : « نظر الناس لي » لا يليق بشاعر كبير كأحمد الصافي ، وخصوصاً لانه نجفي ، والنجف الاشرف

كهف اللغة ومعقلها المنيع .

فالى الامام يا صديقي ، انك ستجد مرعاك ، كل ساعة ، ما دمت تعبّ من ينبوع الحياة والواقع . اصفع الناس جميعاً ، وخصوصاً النقاد المناحيس ، انهم يستحقون ... اما ركوبك عليهم في طريقك إلى المجد ، كما تقول ، فأرى ان تستغني عنه بحمارة ... ان هموم مجدك المتواضع لا تقتضيك اكثر من جحشة ، فلا تطلب غيرها مركوباً ... ثم من يدرينا انها لا تنطق كحمارة بلعام ... وتخلق لنا موضوعاً جديداً تضمه إلى روائعك ؟..

ان بشاره الخوري كان أرحب منك صدراً ، وأنعم هجاء للطاعنين في شعره . وعلى كل فموعدنا واياكم الأبد .

الصّافي
في ألحان اللهيب

وهذا ديوان جديد عنوانه « الحان اللهيب » للشاعر أحمد الصافي النجفي . ان شاعرنا النجفي الذي تحتملنا ويحتمله ينتقل في عناوينه بين الماء والنار . من « الامواج » الى « التيار » ومن « الأشعة » إلى « الحان اللهيب » . أما ان الصافي ملتهب فما في ذلك شك ، فهو ملتهب الجيب مشتعل القلب . درويش اذا جاءته النعمة رفسها ، ولعلها جاءته بشخص تلك العجوز التي أتته مستميحة فقال لها :

تصافين غيري بعهد الصبا وتنأين عني ولا ترحمين
قصدت سواي أوان الشباب ومذ شخت أقبلت لي تسرعين
وكنت اذا ما شرحت الهوى أمامك من منظري تهربين
أكنت دميماً فلم تستطيعي لذلك رؤية وجهي اللعين
وأني أنا اليوم أبشع وجهاً فهل ان فلسي لوجهي يزين ؟

أعرف الصافي متفرداً في مواضيع دواوينه السابقة ، وكذلك وجدته في الحان لهيبه . يفتتح هذه الالحان المارجة باعلان إيمانه بالله فيقول :

كهولتي بالله قد آمنت ضل شبابي ودعاواه

فان تجد ذا شيبة جاحداً   فقل الى النــار أحلناه

فقلت : حنانيك يا سيدي . امهلهم رويداً . لعلهم يتوبون ... وفي القصيدة الثانية ، وعنوانها « العدم المحيي » يغرب في آرائه حتى يقول :

وحواس الفتى حدود فان زالت   قطعت المدى وجزت الحدودا

أظن ان هذه الفكرة ليست من محصول الصافي ، ما أظنها إلا من مصنوعات بسكتنا والشخروب ... ثم يقول :

وثناء الانام ينقص من نفسي   فأغــدو لذمهم مستزيــدا

وأني لأحمد الله ألف مرّة على وقوفي منه بين بين ...

والصافي نسيج وحده في مواضيعه ، فكره مهيأ لاقتبال جميع الصور بشكلها الواقعي ، يصف ما تقع عليه عينه وتسمعه اذنه ويشعر به قلبه . فاسمعه يصف سكران رآه في إحدى روحاته أو جيئاته :

نام حتى ليس منتبهــاً   لآذانٍ أو لنــاقوس
لو تراه في الفراش ترى   ميتاً في جوف ناووس
وترى في وجهه بشراً   ساكناً في جلد جاموس

والشاعر يرسل الكلام عفو الطبع ، فلا ينمّق ولا يوشّي ، وفي ذلك يقول :

قيل لي فيم لست تعنى بوشيٍ   أو بتنسيق فائض الاشعار
قلت شأني ارسال شعري سيلاً   مــا على التنسيق للانهار

كان للنقــاد في كل ديوان من دواوين الصافي السابقة حصة الأسد ، أما في الحان اللهيب فهو ارأف بنا منه في التيار ، فكأنه يوطّىء للمهادنــة والمفاوضات ولكن بقول آيسنا من كل خير رجوناه عنده ، قال :

شيطان شعري دأبــه العناد   يتعب في تقويمــه النقاد
يقودهم طرّاً ولا يقــاد   وكلما زاد لــه الارشاد

وناقـــدوه في أذاه زادوا ورمت نظماً حسبما أرادوا
فرّ وضاع من يدي القياد وخـــاب من تقادي المراد

تذكر قولي لك ان الصافي نسيج وحده في مواضيعه ، وهاك الآن وصف هذه المعركة بين أوراق شعر الصافي وأوراق المال ، قال :

وضعت في الكيس أوراق النقود اذا بهـــا مضايقـــة أوراق أشعاري
واذ بنار الوغى في الكيس مسعرة تؤجّ ما بين أشعار وديـنـــار
سمعت شعري يدعو وهو ذو غضب يا أجنبي ابتعـــد عن ساحة الدار

ثم انجلت المعركة بعد كر وفر ، واقبال وإدبار ، عن فوز أوراق شعر الصافي ، وهذا ما كنت انتظره . فصاحبنا الصافي في مقاتلة الدينار دون كيشوت ثانٍ ... قال :

لكنما فـــاز شعري بعـد ملحمة كبرى ، وأخرجه ، فالحمد للباري

ان هذا الشاعر الهائم يدوس كبرياء ارسطو بكبرياء أعظم منها ... وليس عدو المال ، في هذا الزمان الكلب ، بالخصم القليل . أطال الله بقاء الشاعر العزيز ليخرج من ذخائره الادبية جدداً وقدماء . وإذا شاء السامع المتعـة كامـــلة غير منقوصة فليقتنِ ديوان « الحان اللهيب » النفيس ، ليقرأ فيه قصيدة « إهداء الكتاب » ، وقصيدة « البليد الثقيل » .

عمر ابو ريشة
ديوانه «شعر»

كان ذلك في حلب ، ومنـــذ بضعة عشر عاماً ، يوم سمعت بشاعر اسمه عمر ابو ريشة . دلني عليه تلميذي ، يومئذ ، وصديقي فيما بعد ، الاستاذ اورخان ميسر ، اثنى على صاحبه وسمـاه في ذلك الوقت شاعر الشباب ، وقدّم لي تمثيلية نظمها الشاعر الشاب عنوانها « وقعة ذي قار » ، فاستبشرت بما فيها من وثبات تدل على الشاعرية العتيدة ، وصرت كلما وقعت على قصيدة له اقرأها وارجو . فماشيت الشاعر في تطوره الى ان ظهر منـــذ اعوام ديوان له عنوانه « شعر » فما مددت اليه يدي لانه لم يقدم الى المشرحة طبقاً للمراسيم ، اما ديوانه الجديد ، الناسخ مـا قبله ، وهو يحمل شيئاً من هذاك ... فها هو الآن بين يدي .

عنوان هذا الديوان « من عمر أبو ريشة شعر » وقد سميته الناسخ لأن جريدة « كل شيء » أذاعت ان الاستاذ أبو ريشة « لا يعترف بالكتب أو الدواوين التي ظهرت قبـل الآن ، والتي تحمل اسمه ... وانـــه يتبرأ منها » .

لا يا أخي عمر ، انها محسوبة عليك ، فما يدخل المطبعة من عبيدنا

ينعتق ويخرج منها مولى لنا . لماذا تتبرأ من بنيك ، فما هم بالسفهاء اخوان الشياطين . مـا رأيتك استعجلت الأمر قبل أوانه لتعاقب بحرمانه ... والبرهان هذا الديوان البديع الذي أخرجته للناس ، جامعاً فيه خير زاد للبلاد مذكراً الأحفاد بأمجاد الأجداد .

جلت « دار الأديب » عرائس ابو ريشة على عشاق الأدب الرفيع ، محلاّة مزينة برسوم رائعة تستميل العين والقلب ... فبينا يكون الفكر سارحاً مارحاً على موسيقى بحترية حقاً ، اذا برائدته العـــين تطل على واحات تلك الرسوم الرمزية فتصيح بالفكر المجدّ : وقّـف ... خفّـف السير واتئد يا حادي .

الحق اقول ان في ديوان ابو ريشة شعراً طالما تمنينا ان نقرأه ونسمعه ، فشاعرنا يحـــدو الكلام ويزجيه على هواه . قلت موسيقى بحترية وهاك التفصيل : في شعر عمر ما في شعر الوليد من سياق مطرد ، ورنة ايقاع وتقسيم عبـــارات ، فتمشي القصيدة متزنة الخطى كأنها قطعة من عسكر . ألفاظ مختارة منتقاة لا تنافر بينها وبين جاراتها ، ولعلّ هذا من عمل الاقليم اذا صدقنا زعم تين وبرينتير ...

والشاعر على طوله المفرط ، وامتـــداد نفسه ، يؤثر الاوزان القصيرة المرقصة حتى لكأن أبا نواس شاعره المختار ، فقلما تمخر في ديوانه بحور الشعر العابّة الصاخبة كبحر الاطلنتيك ، بل تجدها كلها على طراز بحرنا المتوسط ، ضاحكة ، مطمئنة ، صاخبة ، بمقدار ما في هذا البحر من عتوّ وصخب .

يخرج عمر من حصن القصيدة القديم ، ليبني « دارة » ذات « خرجات » وشرفات ، فتخترقها الأشعة والنسيم المطهّر ولكن هذه الاشعة لا تؤذي ألوانها ، ولا تذهب بروعة ظلالها . لا تشم رائحة العفونة ، ولا ترى وجوه

صور تعودت ان تراها كلما قرأت وسمعت شعراً . ان الفرار من قافية الى أخرى في القصيدة الواحدة يطرد الملل . وقديماً قالوا : العز في النقل . فإذا رأيت اسفاف شاعرنا نادراً جداً فاعلم ، حفظك الله ، ان هذا الانطلاق قد نجى الشاعر فظل محلّقاً في جوّه الفني تشدّ قوائمه خوافيه ، فلا تصدق انه ابو ريشة ... واحدة فقط .

في ديوان عمر أنين حب جريح ، وفيه أهازيج حب مظفر ربح معارك شتى ، وخرج من غبارها غير معوّه ولا مهشم ، بجيش كجنح ليل بشار . ان صاحبنا محظوظ غير منكود ، يتأمر كثيراً ويدلّ ، ولكن ليس بمخلب وبحد ناب كأسد ابن عوانة ... بل بشباب له القدح المعلى والاسهم المرتفعة في بورصة الحب ... ولعل له في اسم عمر بعض العون ورأس المال في البندر ، وان كان لم يقتصر في شعره على الحب كسميه ابن ابي ربيعة . فهذا « العمر » الجديد يقسم ذاته المتمردة بين قلبه ووطنه . يضحي بقلبه اذا كان الحب يستأهل هذا الكبش ، ويصيح بالشباب صيحة القائد المغوار في المعركة الفائرة التنور :

أشباب يا زهو الحياة ويا نشيد العنفوان
لا كنت ان ارخيت معطفك النضير على جبان

أجل يا اخي عمر ، الشجاعة أس الفضائل . هكذا علمنا السلف وهي لا تنقص شبابنا العربي ان شاء الله .

في ديوان عمر قصائد قيلت في مناسبات . ولكن عمر يلج موضوعه من غير ابواب شعراء الفرح والترح . فيدلنا هذا على ان هناك ارادة عاملة لا عادة تسوق الشاعر بعصاها . فهو لا يكسف الشمس ولا يشق القمر ، ولا يطفيء النجوم ولا يدك الجبال ، ولا يسألها ان تتماسك لئلا يزعزعها الدهر ... ان قلب الفن ليطمئن حين يسمع مثل هذه الاناشيد . فالفن

يصيح برجاله دائماً وابداً : هاتوا الجديد ، الجديد ، الجديد .

وفي ديوان عمر نخوة ولكنها غير مبتذلة ، نخوة على آثارها بيض حسان ، فهي مضمخة بطيوب عذارى الفن ، وفيه ثورة جياشة ولكنها تلبس مآزر البيان الوضاءة وغلالات فنية فتانة يختفي تحتها صدأ الدروع ، وزنجار السنان ، وأشر السيوف . الشاعر ثائر ولكنه غير هوّاش وغير سباب ، مخلص لأمته يريدها بريئة من كل عيب ، وان رأى قعوداً عن الجلّى استفزه ريعان الشباب وأرن كما يأرن المهر ... يشن الغارة الكلامية ، واول الحرب الكلام . اسمع ما يعاهد عليه خالد ابن الوليد في قصيدة تكاد تكون ملحمة :

يا مسجى في قبة الخلد يا خالد	هل من تلفت لبياني
لا رعاني الصبا اذا عصف البغي	وألفى فمي ضريح لساني

ان عمر يعلم ان للسان معارك ليست اقل خطراً عن معارك السيوف ، وان قال ابو تمام : « السيف اصدق انباء من الكتب » . فمن يوقظ السيف النائم في قرابه نوم الهناء ؟ القلم كما قلت يا عمر ، يا حسان المقام ، فليهنأ لسوريا شاعرها الفخم ، فهي مستعيدة به اليوم مجداً أولانا اياه صاحب يتيمة الدهر . اما استعارة الضريح للفم فما اعجبتني .

في عمر ابو ريشة شاعران : شاعر غنائي يمرح برصانة ، ويتألم بجد ووقار ، يتجمل في حديث حبه ما قدر خوف الشماتة ... وشاعر قصصي ظهرت لي ملامح عبقريته الشعرية في وثبات وطواعية قصّ رأيتها في مسرحيته « وقعة ذي قار » كما قلت سابقاً . وهب اننا وجدنا لعمر نداً في الغناء فاننا لا نجد له ضريباً في القص على حقه . « وفي عذاب » ، وهي مسرحية منشورة في آخر الديوان ، ما يؤيد زعمي ، فاقرأها يا قارئي العزيز ، واكشف لي عن رأيك فيها ، ولعلي اعود اليها

والى عمر القصصي ، اما الآن فعليّ ان انصرف إلى غيرها من الديوان .

لقد عثر عمر في فنه على الحل الوسط لمشكلة التجديد العويصة . فهو لا يسير وراء القدماء كما تسير جياد العربات على الطريق المعبّدة : الدرب الدرب . ولا يكثر من الصور المائعة المبنية على المجاز العقلي ، وهي التي تعرف اليوم بالطريقة الرمزية . لقد أمست هذه العبارات عند بعض أصحابنا كل الشعر ، حتى أشبه بعضهم بعضاً في فترة قصيرة جداً . ان عمر يأخذ من هذه البضاعة ، ولكن بقصد وحذر . يقول مثل أصحابنا : لحن شقي ، رماد المنى ، غفوة خرساء ، تلفت عريان ، مجروح التمني ، وأطياف يتامى ، وصيحات حمر ، وخطاي الحمر . وكلها جميلة في مواضعها ما عدا « الصيحات الحمر » حين يخاطب عمر ابا العلاء (ص ٨١) :

فتعالت صيحاته الحمر تهدي لو أصابت أصداؤها آذانا

إن هذه الصيحات الحمر لا تلائم شاعر الفلاسفة ، من كان أكله العدس ، وحلاوته التين ... فما الذي ذكرك هذا النعت يا اخي ، اتراها الحافظة قد عادت بك الى قول ابي العلاء : ما عرفت من الالوان الا الاحمر ... اما في قولك انت :

حنثت خطاي الحمر عن هيكل القدس وفي حمأة الارجاس كفرت عن رجسي

فهذا النعت يليق بخطاك ، ولكل مقام مقال .

وعمر ينادي كأصحابنا الرمزيين وزن افتعال فيقول :

يا اعتداد الايام باليتم كفكف بعده كل دمعة خرساء

ولكنه لا يغرب مثل أولئك فيزعج ... تأمل كيف يعبّر بلغة الذي أراد أن يشعر فغنّى ، فيقول في قصيدة عنوانها « حنين » :

عرفت شذاك فالتفتت تسائل عنك أشواقي
فلحت على خطى مني فغابت فيك احداقي

تشخيص بديع ، ولعمر في هذا جولات موفقة ، فإذا شئت ان تتفكّه بها فعليك بديوانه .

ولكن شاعرنا المبدع ، على كبر حظه من الحب والفن ، يفتتح ديوانه باليأس ، باليأس منا نحن البشر العاديين ، فيسائل نفسه في فاتحة ديوانه لمن ينظم هذا الشعر :

لمن تعصر الروح يا شاعر   اما لضلال المنى آخر ؟

ثم يعدّد : ألحب ؟ ألهو ؟ ألمجد ؟ أللخلد ؟ إلى ان يهيب بنفسه :

رويدك لا تسفحن الخيال   ببيداء ليس بها سامر

هذا كثير يا صاحبي ، واني لاخشى ان تصاب بداء الشعراء . قد رأيت هذا الميكروب عالقاً بأذيال قصيدتك « عرس المجد » . اما اليأس ، وستشفى منه في الغد القريب ، فهو يقتل الشباب ، وان حلا التغنّي به في الشعر . ألا تذكر قول عبد الشعر : ولا ترى طارداً للحر كاليأس ؟ انشد ، انشد ، فكلّنا آذان . اننا نسمع ونطرب ونهتز ، فما نحن بالحجارة ولا الحديد . اننا نمجّد من يستحق التمجيد ، ولا اجرؤ على القول : ونخلد من يستحق التخليد . ته دلالاً فانت اهل لذاكا ، ولكن لا تتمدح فسوف تسمع مني ومن غيري مدحاً يكفيك ويغنيك .

واذا اثنينا عليك بما انت اهل له ، فلا يعني هذا اننا كمنا افواهنا أو سددنا طاقات النقد عنك مخافة ان تطير مع النسيم ... لا يا عزيزي عمر ، فأعظم أثر ادبي ليس في حرز حريز ، فارجو ان توسع صدرك . ان في ديوانك الرائع هنات هينات كان في الاستطاعة تهذيبها او ابدالها لو لم تتعجل . وهب انك كببت كنانتك ولم تجد عوداً اصلب ، فالاستغناء عنها كان اولى . فهذا « المسمار والتسمير » الذي يرافقني في ديوانك قد يستحلى في النثر ، اما في شعر كشعرك فهو بشع ، ألم تحس مثلي بسماجة

هذا المسمار في قولك :

ولكل كف غضة سكينــة   ولكل عرق نابض مسمار

لقد طعنت هذا البيت بسكينة واجهز عليـــه مسمارك ، فلا حول ولا ... ان « منجوراً » يصنع من الخشب الثمين كطرف ديوانـــك لا تدقّ فيه المسامير ...

والسناد ، وهو من عيوب القافية كما تعلم ، أراك لم تكلف نفسك الابتعاد عنه . فعلت ذلك اكثر من مرة ومرتين « راجع صفحة ٢٣ ، ٥٠ ، ٥٢، ١٠٥ ».

ثم ماذا نعمل لتصلح ما بينك وبين « ان » ، فهـــذه العداوة بينكما ارجو ان تعفـّي عليها معاهدة صلح — ولا تكتمنّ الفن ما في صدوركم — لقد قال القدماء كما قلت انت اليوم ، ولكن شعراً كشعرك مارحاً سارحاً يجب ان ينزه عن مثل قولك : اخشى تموت رؤاي (ص ١٩) وقولك : فما اسطيع اجـلو سراً (ص ٥٠) وقولك : هيهات تروى (ص ٩٩) ، واخيراً قولـــك مرتين في (ص ٢٨٣) : « وأخشى أنوء بعبء الألم » و « اريد اقبل » .

وفي « مصرع الفنان » لم يعجبني قولـــك : تشرب الدمع من مقر انفجاره .

وقولك في الصفحة عينها « بعيد العهود عن قيثاره » . ان هذه « العهود » تدلّ على قلة صبر ، ومثلها قولك : « تمتميه إليّ » .

وكذلك قولك : « النسيم الرخو » . ومن ينعت النسيم بالرخو ؟ أندعْ القدماء أدق منا بانتقاء النعوت .

واكثارك من استعمال ما الزائدة لا يعجبني . نحن في زمن يقصون الزائدة فيه فور شعورهم بها ، فكيف نضعهـا في الهيكل الفني لتعوّهه

وتشوّهه ؟ أفلا تراها شنيعة كما رأيتها أنا ؟

مضت الليالي ... مثلما الاحلام في اجفان نائم
كالنحلة الغضبى لدى وخز خصمها تموت ولكن وهي مرتاحة النفس

إن « كالنحلة » هذه ذكرتني ما حفظته ، منذ نصف قرن ، من شواهد ابن عقيل :

وان الحمر من شرّ المطايا كما الحبطات شرّ بني تميم

والذي ساءني ان تقع عليه عيني في شعر أبو ريشه هو مثل هذا العبث الذي نراه عند البحتري :

أمن المودّة ان تعيث بأضلعي أمن المودّه
جاوزت حد الشوق يا واهي القوى جاوزت حده

أما الذي حرت فيه فهو هذا البيت من قصيدة في رثاء الملك غازي :

أتعدون في بلادكم لأبي الكاس وتروون بالنجيع بلادي

فالزيادة فيه فاضلة عن المعتاد في تخطي موازين الشعر .

ولي ملاحظة ، وهي الاخيرة ، على قولك :

ان من سامك المنون لقوم لم يحيّوا على الحجى والفلاح

فاذا وسعنا لك لتشق فعلاً مضارعاً من « حي » وهي اسم فعل ، فلا نسكت عن خروجك عن سياق الكلام فلا يصحّ القول : إن من سامك المنون لقوم ، وانما الوجه ساموك ، ناهيك انه لا يقال سامه الموت ، فليس موت الشهيد خسفاً يسامه . وفي الصفحة المقابلة عديت صمّ فقلت :

خفروا ذمة العهود وصموا الأذن عن صرخة الهضيم اللاحي

وهي فعل لازم . فأين انت من سدوا ؟ وكيف لم تخطر على بالك ؟.. هذه هي الهنات . أما الجمال فملء هذا الديوان الضخم . وفيه فوق الجمال

الفنّي تحليلٌ نفسانيّ رائع في قصائد عديدة ، وأخص منهـا تلك التي يسوقها عمر مساق القصص ، وهذه خاصة يحالفه التوفيق فيها . خذ مثلاً قصيدة « جان دارك » فالشعر جرى فيها على خطط علماء النفس . حلل عمر نفسية هذه البطلة كما شاء فقال شعراً يبقى . وإذا رجعت القهقرى الى حكاية ديك الجن الحمصي ، وعنوانها « كأس » ، رأيت ان شاعرنا خلاق لا يعدم أسباباً يرتقي بها الى الذرى ، اسمع بعض ما قوّله ديك الجن وقد « شخّص » في هذا أروع التشخيص :

نادى هواها ، فالتفت ومـــا رددت له جوابا
وشبابها الظمآن بين يـدي يستجدي السرابا
فوجمت مجروح الرجولة اخفض الطرف اكتئـابا

وشاعرنا الملهم يتلاقى وشوقي حول المسيح وصليبه ، وكلاهما يلوم الدول التي خرجت بتعاليم السيد عن التخوم التي رسمتها . وقد رأيته يقول مثل شوقي في وحدة الاقطار العربية :

قال شوقي :

كلما أنّ بالعراق جريح لمس الشرق جنبه في عمانه

وقال عمر :

أيّ جرح ضجّ العراق عليه ما تلقى الأساة من لبنانه

لقد نفر شوقي إلى عمان ومعان لان لبنان لم يكن في الحساب في زمن شوقي ... وربما قصر ابو ريشه اذا عارض شوقي ، اما حين ينفلت من قيود المعارضة ، فيخوض مع شوقي وسط المعمعة . إقرأ قصيدته في رثاء سعيد العاص ، ذلك البطل الذي عرفناه بائساً طريداً ، وترحمنا عليه شهيداً مات قبل ساعته :

نام في غيهب الزمان الماحي جبل المجد والندى والسماح

اما نفسية شاعرنا وديباجته معاً فتدلك عليها قصيدته « نسر » :

أصبح السفح ملعباً للنسور   فاغضبي يا ذرى الجبال وثوري
ان للجرح صيحة فابعثيها   في سماع الدنى فحيح سعير
واطرحي الكبرياء شلواً مدمى   تحت اقدام دهرك السكير
لملمي يا ذرى الجبال بقايا   النسر وارمي بها صدور العصور
انه لم يعد يكحل جفن النجم   تيهاً بريشه المنثور
هجر الوكر ذاهلاً وعلى عينيه   شيء من الوداع الاخير
هبط السفح.. طاوياً من جناحيه   على كل مطمح مقبور
فتبارت عصائب الطير ما بين   شرود من الاذى ونفور
لا تطيري جوّابة السفح   فالنسر اذا ما خبرته لم تطيري
نسل الوهن مخلبيه وأدمت   منكبيه عواصف المقدور
والوقار الذي يشيع عليه   فضلة الارث من سحيق الدهور

ثم يصف الشاعر جوعة النسر ووقوعه على شلو دفعته عنه عجاف البغاث فاهتز ، وارتعش وطار ، حتى اذا اجتاز مدى الظن :

جلجلت منه زعقة نشت الآفاق   حرى من وهجها المستطير
وهوى جثة على الذروة الشماء   في جفن وكره المهجور
ايها النسر هل اعود كما عدت   ام السفح قد أمات شعوري

لا تيأس يا عمر ، فأنت من الفن في ذراه ، اما « السفح » الذي تعنيه فهو لا يميت الشعور ولكنه يوقظ العواطف فيحمي الوطيس ... ارجو ان تظل في « سفحك » هذا لتغني النسور والنمور ، وتدفع الجيل بالمناكب والصدور ... فحيهلا ... عشت يا ابا الريش ... فأنت يا ابن اخي ، اشعر جيلك في هذا الديوان الذي جمعت فيه بين طريف الادب وتليده .

نازك الملائكة

عاشقة الليل

هذه خنساء جديدة – ولكنها مثقفة – تطلع علينا في القرن العشرين بديوان شعر يدور حول موضوع واحد ، كديوان خنساء الزمن الغابر . تلك ذوبت شعرها دموعاً على اخويها ، وهذه استحالت عواطفها شعراً حزيناً كئيباً يصحّ فيه ما قاله ألفرد دي موسه – اذا لم تخني الذاكرة – : اضرب القلب فهناك الشعر الذي لا يموت .

ولو يصحّ لي أن اتمثّل بالنابغة لقلت لنازك الملائكة : اذهبي فأنت أشعر من كل ذات ثديين ، ولولا ذاك البصير عمر أبو ريشة – لفضلتك على شعراء الموسم ، وليغضب عليّ الف حسان ، فلا يخلق النقد غير الاعداء ...

نازك الملائكة من بيت يذكرنا بقول الأخطل : أشعر الناس بيتاً بيت زهير ، فأم نازك – أم نزار الملائكة – شاعرة ، وقد قرأت لها قصيدة في مجلة المعهد حققت لي الكلمة المأثورة : البنت لأمها . وأبوها شاعر أيضاً ، ولعلّ أخاها نزاراً ، واختها احسان التي قدمت لديوانها شاعران .

لقد ضربت نازك الرقم القياسي في الشعر الباكي فبزّت ببكائها وآلامها جميع شعرائنا الباكين حتى شيخهم الاكبر ... وما أشبّهها الا بعدام دي نواي

الشاعرة الفرنسية الشهيرة ، فكلتا الشاعرتين العربية والفرنسية تخافان الموت وضغطة القبر ، وان تمنتا كلتاهما التفلت من قيود المادة . قالت نازك :

نعم مات قلبي ، اين احزان حبه   واين امـــانيه ؟ واين أغانيه ؟

أرأيت كيف تفهم الحب هذه الشاعرة ؟ الحب عندها أحزان وآلام ، وتذكر الموت في ريعان الصبا فتقول ، والضمير عائد الى عنوان القصيدة ، « قلب ميت » :

ويرعبـه ذكر الممات وليـــله   فيدفن نيران الاسى في قوافيـه

فكيفما اتجهنا في ديوان عاشقة الليل فلا نقع الا على مأتم ، ولا نسمع الا أنيناً وبكاء ، واحياناً تفجعاً وعويلاً .

تبكي نازك الملائكة جزءاً ضاع منهـــا ، ولكننا عوّضناه شعراً لا يمل على وفرته وتشابهه .

ان نقد النساء صعب كرثائهن ، وخصوصاً اذا كن مسلمات ، وقد كبر في عيني المتنبي حين جربت فأدركت ما قاساه من عنـاء حين كان يرثيهن ، ولكن ابا الطيب ، اجزل الله ثوابه ، كان يفرّ الى الحكمة ، اما انا فإلى اين أفرّ ؟

ان في ديوان « عاشقة الليل » ما يحيّرني ، فعند « شجرة الذكرى » أقف وقفة متأمل مستلهم لعلّ الله يفتح عليّ ، فأقول ما أرضى عنه فأتذكر قصيدة « الاناء المشعوث » لسيلي بريدوم . فهذه شاعرتنا تقول :

مررت بها في المساء الدجيّ   فألقيت رحلي في ظلهـــا

وان كان هذا التعبير « القيت رحلي » لا يليق بعاشقة الليل ، خنسائنا المثقفة ... وهناك في ظل « شجرة الذكرى » تسرنب ذكريات الشاعرة وتطوف شجونها من حولها فتقول :

اقص على ظلّهـــا قصتي   وقصة شاعري ... الغـــادر

وكان في يد الشاعرة شوكة قاطعة تمرّ بها على ساق سدرتها فجرحته بلا شعور . ثم عادت اليها بعد سنين فقصّت علينا ما يلي :

فقلت لقلبي هيـــا نطف بهـــا وليثر حزنك الهامد
سنسألها اليوم عن جرحها ألم يشفه الزمن الآبـــد ؟

* * *

ودرت أسائل عن جرحها امـــا دملته أكف القدر
فلم ارَ الا اخضرار الحياة فليس عليهـــا لجرح اثر
واما جراح فؤادي الحزين فما زلن يشكون طول الصدر
فيا عجبا للزمان المسيء متى عن اساءته يعتـــذر ؟

الله اعلم يا آنسة ، الزمان عنيد رأسه كبير يصعب عليه الاعتذار ، ثم من يدري ؟ فلعله يعتذر إلى النساء . وكما حيرتني « شجرة الذكرى » احترت ايضاً في رموز أخرى كثيرة اهمّها « التمثال » الذي لم تنكشف لي حقيقته بجلاء ، فهي تقول في « قلب ميت » :

وها انا ذي عمري احتقار وادمع وفي نفسي الولهى لظى وتمرد
أحن الى حي الجيل وان يكن أشاح عن التمثال جفني المسهد
وماذا تبقى الآن ؟ شلو حجارة تضيق بها نفسي وصخر ممدد
تعلق قلبي بالنجوم وقلبـــه تمرغ في الاوحال .. والطين يشهد

* * *

هنالك في الامس البعيـد وليله سأدفن تمثالي وحبي وادمعي
اشيّد قـــبراً من تمرّد خافقي واسقيه من بغضي له وترفعي
اغنيه الحان احتقاري وثورتي وتهزأ اضواء النجوم به معي
وازرع فيه الشوك والسم واللظى واتركـــه شلواً كقلبي المروع

لقد قسوت جداً ، ولكنه يستحق ...

وفي قصيدة « بعد عام » تصور لنا حالة نفسانية لم يتوفق شاعر ذكرٌ الى قول احسن منها تحليلاً عاطفياً عميقاً فتقول :

مرّ عام ... ياشاعري ... منذ ابصر تك في ذلك الصباح الكئيب ...
الليالي تمر ... تتبعها الايام في بطئها المملّ الرتيب
وانا لهفة ... وشوقي يزداد وروحي في عاصف من لهيب
ظمأ للحياة يملأ احساسي ... ونار في دمعي المسكوب
وشظايا كآبة رسمت فوق جبيني غلالة من شحوب

ثم تتعجب الشاعرة كيف نهضت باعباء همومها وكيف لم تمت حتى تقول لشاعرها :

الشهيق الحزين في هدأة الليل ألم يلقه اليك النسيم ؟
والشرود الذي امات احاسيسي أما حدثتك عنه النجوم ؟

ثم تصف ببراعة فائقة كيف واين التقت بشاعرها :

منذ عام ... في الشارع الصاخب الممتد ... والشمس في صفاء الاثير
جمعتنا هنالك الصدفة الحلوة ... في غفلة من المقدور ...
والتقينا ... لم نبتسم ... لم احدثك بما في فؤادي المصور ،
لحظة ثم اجهز الزمن القاسي على قلب حلمي المسحور
سرت يمنى ... وسرت يسرى ... ولم يبق سوى ثورتي ونار شعوري .

***

كل يوم اقول يا قلبي الظمآن للصحو ... لا تضق بالغمام
لن يضر الاقدار في ليلها ان تتلقاك ... مرة ... بابتسام

***

مرّ عام ... لم يبق منه سوى لحن حزين ... مغرورق الالحان

ليس الا ابتسامتي المرة الظمأى ودقـــات قلبي الحيران
ليس الا ظل من الصمت واللهفة يبـــدو في جفني الظمآن

وهذه القصيدة ، في نظري ، هي خير قصائد الديوان بل هي من الشعر الغنائي الرفيع . كانت العبارة والصور فيها طيعة سهلة الانقياد للشاعرة لأنها صادرة من الاعماق ... ولعلّ الزمان أخذ بثـــأر قيس من نازك الملائكة ...

وفي القصيدة التي تليها تدعو قلبها الى اليأس المريح وهي تخاطبه بهذه الوداعة الهادئة :

ثم ماذا أي حلم ترتجي يـــا ابن السماء
انت في الارض فـــلا تحـــلم ببقيا الاوفياء

رحم الله المتنبي القائل : لعلمي انــه بعض الانام . ان كلمة الآنسة الشاعرة لا تقلّ روعة عن كلمة شاعر العرب . وقبل هذه القصائد التي مرّ ذكرها تصف لنا الشاعرة موقفـــاً لا يحتمله الجنس الخشن فكيف بالجنس اللطيف ؟ عنوان القصيدة « نغمات مرتعشة » وأولها : عد ... لم يزل قلبي نشيداً حالماً . وقد ختمتها بهذه الصورة الرائعة :

ما زلت .. منذ ذهبت .. حيرى في الدجى ..
شـــهد الأسى اني لزمت مـــكانيا ،
وهمي يصوّر لي خطاك ... ووقعهـــا ...
فـــاذا اصخت . . . صحوت من اوهاميـــا
لا شيء ... غير الريح ... تعصف في الدجى
لا شيء . . . غير تنهدي . . . وبـــكائيا ...

فالذي عنـــدي ان ديوان عاشقة الليل حديث قلب منكوب أثارت نكباته سخط الشاعرة على الناس اجمعين ، وما شكر السوق إلا من ربح .

انها تقول كالمتنبي وبصورة بسيطة جميلة :

لم يعـــد في جسمي الذاوي وروحي   موضع ... يحتمل الجرح الجديدا ...

***

لم يعد في نفسي الولهى ... مـكان   لأسى ... او فرحة او ذكريات

أشهد وضميري مرتاح ، أنني لم أرَ الفرح عندها إلا في ختام قصيدتها « جزيرة الوحي » حين تختمها بقولها :

وانقلب اليأس بشريات   وأمنيات فأي عيـــد

ولكنها لم تعيّد . بل عادت الى غيبوبات يأسها ، وقالت في « الخطوة الاخيرة » وهي خاتمة ديوانها :

آه يا اشجار ... ... لا تذكريني   فـــانا تمـــال يأس بشري

ليس عندي غير ... آثار حنيني ...   وبقايا من شقائي الابدي ...

قد قلنا انها غاضبة على بني آدم ، واليك ما تقول لنا :

لا أريد العيش في وادي العبيد   بين أموات ... وان لم يُدفنوا

آدميون ولكـــن كالقرود   وضباع ... شرسة ... لا تؤمن

فهي في هذا جبرانية نعيمية تذكرنا « حفار القبور » لجـــبران التي استمد منها مخائيل نعيمه الشاعر « اخي ان ضج » . وتذكرنا ايضاً ذاك الذي ارسله « أبسن » في روايته وجعل في زنده سلة يجمع فيها النـاس ليعاد خلقهم من جديد ... ومشكلة السخط على البشرية تحلهـــا نازك الشاعرة الجبرانية بقولها :

نحن الخياليين في أرواحنا   سر الالوهة والخلود الضائع

صدق الفن المظيم .

أظننا أشبعنا افكار الشاعرة اليائسة تحليلاً . عفواً ، ما هذا يأساً ،

إنْ هذه إلا ثورة جامحة ، ومن حق نابغة كنازك الملائكة ان تثور ، واذا لم تثر هي فمن يثور ؟ الملائكة علموا الناس الثورات ...

ولقد قلقت واضطربت وشكت ككل مفكر وحيد فسألت الامطار كما سأل نعيمه نفسه وحلها حلاً يرضي خياله ورجـــاءه . اما الآنسة نازك فجاء حلها منبثقاً من شعورها ، فقالت تخاطب الامطار :

ما أنا ؟ ما أنت ؟ يا أمطار مـــا ذاك الخصم ؟

واخيراً اجابت :

– لست إلا ذرّة في لجـــة الدهر المغير
وغداً يجرفني التيار والصمت مصيري
– مـــا أنا إلا بقـــايا مطر مـــلّ السماء
ترجع الريح الى الارض به ذات مساء

وهي في هذا الحل القاتم جبرانية ايضاً ، ولكنها من نوع آخر .

وتنتهي إلى دفن شكاياتها ، ولكن بتفجع يفتت القلب ، في ختام قصيدة « على الجسر » فتقول :

يا نهر فلتدفن شـكاياتي ومرّ شجونها
الآدميــة ان بكت فلضعفها وجنونها

فآه والف آه ، كم تحت كلمة « الآدمية » من لوعة وشرف واباء .

ولا استغرب ايتها الشاعرة المحترمة حبك الليل ووقفك شعرك عليه ففي كل الامم شعراء مختصون . قالوا في اوروبا : فلان شاعر القمر ، وفلان شاعر البحر ، كما نقول نحن مثلاً الاستاذ المقدسي شاعر النهر ، وشاعر البحر ، وان كان ميتاً ... لقد قلت لـــك شيئاً ايتها الشاعرة المحترمة ، وما زال عنـدي اشياء . اما الآن فلنعد الى فنك لنرى عناصره الاولية .

ان هذه النقط الكثيرة في ديوانـك المطبوع قد لا تدلّ غيري على شيء ، أما انا فقد رأيت فيها تفسيراً لقول الضفدع : في فمي ماء ... ولكني أشهد انك ما قصرت . كنت جريئة فقلت ما يقال اما ما لا يقال فنفهمه نحن ، ولأجله نقدّر عبقريتك .

في ديوان عاشقة الليل شعر وحكي ، وهذا ناشىء عن شدة حساسيتها فهي تريد ان تقول كل شيء ، تريد ان لا تخبىء شيئاً ، ولهذا تجد العبارة الرفيعة الى جانب اخت لها غير نجيبة . ربما قلت لي : وكذلك تكون المواليد وهذه سنّة الطبيعة ، وقد نبّه إلى هذا ابو تمام ، وكذلك زعم ابن الرومي . اما انا فأخالفها وأرى ان شرائع الفن تسوّغ وأد البنات ، بل خنق كل مولود غير نبيه ... واليك نموذجاً واحداً من نوع الحكي :

لم استطع يا نهر كتمان العواطـــف والشعور
من يمنـع السيل القوي من التـــوقف والمسير

اما حين يثور بركانها وتنظر في قرارة نفسها وتقع عينها على الجرح ، فينهض الشعر من مجثمه فتقول :

في عمق اعماقي اعـــا صير يجن جنونهـــا
وعلى جفوني رسم احلا م يضج حنينهـــا

فلو انها وضعت « يضج » موضع « يجن » و « يجن » موضع « يضج » لتغيّرت الصورة . ولكن شاعرة الليل قلما تحمّل عباراتها اكثر مما تطيق ، ككل من يستمـــد الشعر من نفسه لا من مظاهر الوجود . ان اكثر الشعراء يستمدون غذاءهم مما حولهم ، ثم تتمثله ذواتهم فيستحيل دماً نراه في البشرة ، بينما نرى الآنسة نازك تستمد غذاءها الشعري كله من قلبها وروحها ، حتى حين تصف لنا مشهد الحصان الساقط « على ارض الشارع المبللة والسياط ترتفع ، ثم تهوي فلا تسقط الا على جرح » . فهي لم تصور

من هذا المشهد الا ناحية تلامس عاطفتها وتتصل بها هي . مـا رأت في هذا المشهد غير الصورة المنعكسة عن ذاتهـــا . كان في امكانها ان تخلق رائعة بل لوحة فنية ، ثم لا تنسى نفسها ، ولكنها نسيت كل شيء من الصورة الا نفسها وآلامها هي .

أما في « العروض » فقد أحسنت الشاعرة في التفلت من قيود القافية ، فكانت قصائدها ثنائيات ورباعيات الخ . حتى لا تجد في ديوانها كله غير قصيدتين على قافية واحدة . وكذلك فعلت في الاوزان ، فكان اكثرها من العيار الخفيف الملائم للتفجّع ، إلا انك لا تحس ذلك التشابه حين تقرأ ، لأن الشاعرة المرهفة الاحساس تشغلك بمـــا تصوّره لك من محن تقاسي برحاءها ، فتتألم لألمها .

الصور قليلة في شعرها ، ولكنها عوّضت عنها بما سلحت به من شعور أضرم نار ثورتها العاطفية التي لا نظير لها عند الشاعرات العربيات . وهذه الثورة الفكرية القلبية شغلتها عن العالم الخارجي ، فهي من ذاتها كشخص ماثل في قاعة كسيت جدرانها مرايا ، فعينه تقع على ذاته كيفما التفت . وعندي ان كرهها الحياة ناشيء عن حبها لها . وإذا قرأت ديوانها من أوله إلى آخره ، حتى المترجم منه . رأيته يدور حول عاطفة واحدة بل تخال انك أمام « فكرة ثابتة » مكنت صاحبتها من اشباع موضوعها .

لا تبالي الشاعرة باللون المحلي لأنها تدبج ألواناً عاطفية كما قلنا ، فلا النهر ولا النخيل ، ولا الزورق تسترعي انتباهها ، فهي لا تذكر النخيل الا لتكون في ظلها كما تقرأ :

ما الذي ساقك طيفاً حالمـاً تحت النخيل
مسند الرأس الى الكفين في الظل الظليل
مغرقاً في الفكر والاحزان والصمت الطويل

ذاهلاً عن فتنة الظلمة في الحقـــل الجميل

إن الرسام الماهر يستطيع ان يخرج لوحة رائعة من هذه الابيات ، وهي أصدق صورة لشاعرتنا ، صورة فتاة ذاهلة مطرقة في ظل النخيل ، مشغولة بذاتها عن روعة ما حولها . لقد تخيّلت هذه الصورة الرائعة وان لم ترسمها لي الشاعرة كما كنت أتمنى .

والآن قد حان ان نرى ما في هذا الوجه الفني الطريف من غش . تهمل نازك عبارتها احياناً ، لانهاكها بشعورها الجامح . ولكن هناك وثبات رائعة أكاد أراها في كل قصيدة فتدلّني على موهبة الشاعرة وفنّها .

أما صحة التركيب فجيّدة ، وإن كان لي في ذلك ما يقال فهو ان نازك قد اكثرت من استخدام « السنين » قافية . واتبعت فيها أضعف الاقوال — اي اعرابها اعراب « حين » — وهذا ، وان ورد ، فهو مقصور على السماع ، كما علّمنا ابن عقيل . فهذه اللفظة تجري مجرى جمع المذكر السالم ، وعلى هذا جرى القلم في العصور الأدبية .

لقد شغلتني « سنين » نازك حتى حرت أخيراً في تعليلها وهي قافيـة هذا البيت :

علّه سائل غداً ، عن اغانيك وما قد جرت عليك السنينا

فاذا شاءت أن تجريها مجرى « حين » كان الاقواء . وإلا فهي مضطرة ان تقول السنون ، فما هذه العداوة بينها وبين الواو والنون حتى تؤثر اللحن على استعمالها ؟ ثم تجيز لنفسها ما لا يجوز في هذا البيت :

أترى تذكرين مثلي ايام صبانا ، وحلمنا المفقود

فالعطف على صبانا هنـــا لا يجوز ، واذا افترضنا « تكرار العامل » ثار العقل وأبى علينا ذلك .

ثم هذا الاستعمال الضعيف في قولها :

طالما من امواجك الباردات اترعت في الامـــاسي كاسي

فالكلمات المكفوفة – مثل طالما – لا يفصل بينها وبين اللفظـة التي كانت معمولاً لها لو لم تكفها ما عن العمل . وكذلك تظل الحال مهمـا لو جعلنا ما مصدرية كما أرى ، وان خالفت آراء شيوخنا النحاة .

وفي هذا البيت لم ادرِ لأي حكمة قالت :

تتشكى الذين مروا بدنيـــا ها فلم تدر ما عسى سيكون

كان يسهل القول : ما عساه يكون . فاستعمال حرف التنفيس – السين – مع عسى مثل استعمال الهمزة مع هل حين يقول بعضهم أهل ؟ وقـــد استعملت كثيراً كلمة « لوحده » و « لوحدي » و « حد » هذه لا تدخلهـا اللام . وقالت : حـدقت في . وحدق تعدى بإلى وليس بفي . اما قولها في هذا البيت :

وليسدل الستر المقدس حسبنا غمـــاً ويأساً

فالرفع على الابتداء واجب هنا . ثم قولها :

وامـــا جراح فؤادي الحزين فما زلن « يشكون » طول الصدر

اما هذا البيت فقد رأيته غير مستقيم الوزن :

آه وليمح لفظ الامس مـــن سفر الوجود

اظنها : وليمسح ، وقد قستها على اخت لها وردت في ديوان الشاعرة .

اما في هذا البيت :

هـا انا بين فكي الموت قلباً لم يزل راعشاً بحب الحياة

فأشهد انني اتعبت فكيّ حتى استقام الوزن ... فليتها تداركته ، ولم تتعب قارئها بداورته ، فالقراء اليوم مستعجلون .

ثم لا ادري ماذا ينقص هذا البيت :

في دمي لحن من الشوق جديد والمجـــالي حوالي نشيد

فهو في حاجة إلى « شدة » على ياء « المجالي » او إلى « من » ... والله اعلم .
وبعد ، فأنا ممن يعجبهم هذا اللحن الجديد من الشوق ، ولست اكلف الشعراء المنطق الذي أعدّه حجر عثرة في درب الفن .

ثم هذا بيت آخر ينقصه شيء :

وغداً تنضب الدموع وتفنى ضجة الموت في عمق السكون

اظنها : عميق ، وقد رجعت إلى تصحيح الخطإ فوجدت لفظة مصححة في هذه الصفحة في حين انه لم يشر إلى هذه الكلمة ...

اما لون الشاعرة الادبي فجبراني قلّ فيه التلوين الذي تتعمده السلالة الجبرانية في مدرستنا الرمزية .

اما خلاصة الفقرة الحكيـة فهي ان الشاعرة نازك الملائكة ، عاشقة الليل ، في طليعة بنات جنسها الشاعرات – ذوات الدواوين – في هذا الوقت ، ان لم تكن أولاهن .

ديوان شاعر الفيحاء
لسابا زريق

ما سمعت بمناسبة كبرى ، سواء أفي الشمال كانت ام في الجنوب ، وفي العاصمة ام في العواصم ، إلا وكان سابا زريق من فرسان ميدانها . فهذا الشاعر المطبوع اشتهر بمحبته ووفائه ، وكاد ان يكون محباً لجميع البشر ، ويعبّر لهم في كل مقام عن تلك المحبة الصادقة بأجود الشعر . بيان مشرق ، وقريحة موّارة فوّارة كأنها نهر ابي علي ، ونفس سمحة لا تعرف ان تقول لا . ومع كثرة هذه المناسبات ترى شاعرنا المجيد لا يراجع شيئاً مما قال ، ويحاول دائماً ان يخرج من المناسبات وقد أتى بشيء طريف .

ليس لسابا زريق الخيال الذي يستولي على المدى الأبعد ، وهو لا يتمحّل لذلك ، ففي عبارته التي لا غبار عليها ، وفي صوره المقبولة المعقولة ، منجاة له وسلامة من لاذع النقد . وهو اذا لم يحلّق دائماً في الأوج الشعري ، فلا يكون ابداً مسفاً . ديباجة انيقة ، وشعر لا يعرف ما التقديم والتأخير ، ولا الألفاظ الخشنة . ان محبته الواسعة جعلت منه شاعراً لا يجارى في هذا المضمار ، وكل ما يصدر عفواً عن محبة واخلاص

يشق طريقه إلى القلب .

عبارته كلاسيكية ، فهو في شعره كأبي فراس والبحتري ، تعنيه ان تكون كلماته راقصة مرقّصة ، يجيء تركيبها على الهينة فيخلق جواً موسيقياً لا تمحّل فيه ولا عناء . لم يحد عن خطة القدماء لا في تكوين القصيدة ولا في اسلوب بنيانها وزواياها ، فهذا شاعر ألمعيّ قضى ما قضى من عمره المديد لا يعمل غير الشعر ، فصفت ديباجته وقلّ النثر في منظومه . ان الخطر ، كل الخطر ، على الشاعر متى كتب نثراً وقال شعراً .

ان الاستاذ سابا زريق شاعر مناسبات ، ولكنه يخرج دائماً موضوعه اخراجاً شعرياً ، فتستحيل المناسبة تحت قلمه موضوعاً طريفاً مثل قصيدة يوسف الفاخوري . تخيّل شاعر الفيحاء صديقه ونجيّه الملازم له الاستاذ الفاخوري ، فاخرج له صورة من لا صورة ، قلت تخيل ، وصوّره من لا صورة لأن صديقنا العلامة الفاخوري كان قد استحال مومياء — تقريباً — حين نشط اصدقاؤه وطلّابه الكثر للاحتفال بتكريمه . وهـذا ما قال فيه شاعرنا زريق تحت عنوان : « طيف على قدمين » :

جسم يكاد يغور في جلبابه ... وقوى البيان تغور في اعصابه
يمسيه حمل بنائه متثاقلا ... ويكرّ وثّاباً على آرابه
طيف على قدمين يمشي طاوياً ... سرّاً يضلّ نهى النبيه النابه
متلفّف بالمسك من اخلاصه ... ومن الوداعة والتقى بِلابه

أرأيت هذا التلفف بالمسك؟لقد جاء به الشاعر ليعبّر عن اسوداد جلدالاستاذ بعد حياة طويلة قضاها ،منذ فجر شبابه ،لا يذوق من الطعام غير كاس من الحليب وبيضتين وبضع بسكوتات . اما المدح ، وهو قوام شعر المناسبات ، فما قال فيه الشاعر إلا ما يصنع قوله في استاذ كيوسف الفاخوري الذي افنى العمر بين المحابر والمنابر .

ليس في ديوان شاعر الفيحاء ملحمة ، وان كان في مجموعه تاريخ حقبة ،وهل

التاريخ غير تاريخ حياة المفارد ؟ فلو لاءم الشاعر ووفق بين بعض قصائد ديوانه لجاء من هذا البعض ما يشبه الملحمة ، فقصيدة « هي الحرب » فرخ ملحمة . وقصيدة يوسف بك كرم ، وقصيدة عيد الجلاء ، وقصيدة الشيخ محمد الجسر ، وهي من طراز رثاء شوقي للملك حسين بن علي ، ومن وزنها عروضاً وقيمة . انها تتناول بالوصف حياة محمد الجسر في كل مواقفها الجهادية والسياسية .

. فديوان الشاعر سابا الضخم الذي يقع في حوالي ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير حافل بقصائد شتى من هذا الطراز الموشى . من عادتي ان اقرأ الكتب المهيأة للنقد وانا مستلق في فراشي ، ولكن ديوان الاستاذ زريق قد اعياني حمله لضخامته ، وهو لو شاء تقسيمه لكان له منه عدة دواوين وكلها ممتع لذيذ لأنه حافل بالذكريات . والذكريات ، كما قال شوقي : صدى السنين الحاكي .

. خذ مثلاً قصائد البعث التي يتخيل فيه شاعر الفيحاء : العامل ، والتاجر ، وصاحب المال ، والمحامي ، والطبيب ، والقاضي ، والمقاتل ، والكاهن ، والعاهرة ، والشاعر ، وقد وقفوا جميعاً بحضرة الله القيوم وتقدموا ، كل واحد بدوره ، يبرئون ساحتهم ويطلبون المغفرة يوم الدينونة ، فهذه القصائد العشر التي يربطها خيط واحد ، لو اخرجها الشاعر اخراج دواوين اليوم ، لكان لنا منها ديوان شعر قائم برأسه . ولكن الاستاذ سابا زريق زجها في هذا الديوان ، مع انها مستقلة عن المواضيع الاخرى قبلها وبعدها . ان سابا زريق غير خبير بتوضيب البضاعة ولا بطرق الأمبالاج ، فهو على طريقة « من زمان » يصدر الليمون بالكيس لا بالصندوق . وإلّا لكان رش على بضاعته البهارات والفلافل ، وزينها بالرسوم المزلية التي تلذ القارىء ، فالموضوع قابل لكل هذا . وهو لو قسمه ، كما قلنا ، لكان له منه لا اقل من نصف دزينة دواوين .

وبعد كل هذا ، فلا يتوهمنّ قارىء مقدمة ديوان شاعر الفيحاء ان الشاعر لم يقل شعره الا في المناسبات . كلا . فهناك مواضيع مستقلة قال فيها سابا شعراً وأجاد ، وما أحلى قوله في وصف دينار المقتصب الشحيح .

الفنيّ القـذر البخـل اذا ما مضى ولـّى كإحدى الحشرات
يخرج الناس به يقتـادهم بارع المزء ومـأثور النكات
كلهم من نفسه حـين مشى خجل ، يخشى سهام النظرات
الأسى المر عليه ، نقـده ، وانطلاق القهقهات ، العـبرات
مأتم ، لكنـه عرس الألى طالمـا في ظله ودّوا المات
كم تمنت زوجـه الموت له وتمنـاه بنوه والبنـات
عاش والذلـة تحدوه ، ومـذ ألحـدوه شيّعته اللعنـات

ولأجل هذا أقول اننا اذا قلنا انه شاعر مناسبات ليس غير ، كنا له من الظالمين. ففي هذا الديوان قصائد مختلفة المواضيع حتى ان التي قيلت في مناسبة ما تكاد تكون موضوعاً حافلاً بالعاطفة الانسانية والفكر الاجتماعية ، فالاستاذ مخلص دائماً لموضوعه ، نزّاع إلى الاصلاح العام ، ولا ينسى المطالبة بحقوق منطقتـه ، وقديماً كان الشاعر هو المدره المدافع عن حقوق القبيلة . والمنطقة والقرية اليوم حلتا محل القبيلة .

حياة سابا كلها شعر ، وقد يقوله في الطير الطائر اذا لم يوفـّق إلى موضوع يرضيه ... وديوانه قطعة من زمان ، وثمنه الغالي تكريم لصاحبه .

عفواً نسينا المرأة . فللشاعر قصيدة عنوانها حواء ، يطري فيها المرأة نعتاً حتى يقول في ختامها :

مهما عصى الأمر حلـّتـه على يدها من الدهـاء وحسن الصبر آراءُ
والمعضلات التي ناء الرجال بهـا يكفي لها خاطر منها وايماءُ
هم يشهدون وايام لهم معـها ان الحيـاة وما تحويه حواءُ

وكأنّ الشاعر اراد ان يحاسب ذمته فقال في الحاشية ، ان ما قاله لا يتـّفق وعقيدته في حقوق المرأة ، ولكن قاله محاباة نجلّ الاستاذ عنها ، ولذلك نظم قصيدة فيما بعد تحمل عقيدته الصريحة في المرأة ومطالبها .

انه يريد المرأة في هذه القصيدة الناسخة ما قبلها قعيدةَ دارها وسيّدة مملكتها البيتية ، وفي ذلك يقول لها :

عرشك من حسنك شيّدته ومن جلال الخفر المسبل
لا تهدميه ضلّة في الوغى تحت عجاج العنف والقسطل
مزالق عوفيتِ منها فما اغناك عن أحدورها الموحل
واضيعتا ان انت لم تنكري طموحك الأعمى وتسترسلي
قدرك لا حدّ له فاحذري تحديده طامحــةً تفشلي

نسيت ان الفت النظر الى خاصة من خواص هذا الديوان وهي ان قصائده الطويلة لا يضيق نفس قائلها عندما تشرف على النهاية ، وهذه الخاصة قلما تجدها عند الشعراء المكثرين الطويلي النفس . وقد قرأت هذه الالوف المؤلفــة من ديوان شاعر الفيحاء ولم يعيني الا هذا البيت :

وطوت تلك الليالي في غــلا ثل الاستقــلال اعقاب السنين !

وليس من الحق ، ولا بد من العدل ، ان نطلب من الشاعر غير ما تعوّد ولا ضد طباعه ، فهو من الرعيل الاول ، متأثر كل التأثر بشعراء العصور العباسية ، وحسبه انه جرى شوطاً بعيداً في ميدانهم .ومع ذلك نقرأ له صرخات اصلاحية اوحى بها اليه حبه لبلاده فما اروع قوله مبكّتاً لوطنه :

« الثورة البيضاء » منّتهُ فنام على المنى في غمـرة الافراح
واذا بــه يدعو المنى متوسلاً فتصد طائرة بغير جنـــاح
من منبىء بعد النوى بإيابها والليل جان ، والصباح اباحي

ان اعجابنا بالقديم واحاطتنا اياه بهالة نورانية من المجد الادبي يجعلنا لا نجد في المحدثين والمعاصرين من يملأ العين ولعل الجاحظ كان اول من تنبه لهذا وأشار اليه حين آثر ابا نواس وابن برد على المتقدمين . وقبل وبعد فليس في الشعر والنثر مواضيع بل هناك اجادة ، فاكتب في أي غرض شئت وليس لاحد ان يسألك الا عن الاجادة .

واخيراً اقول : هنيئاً لشاعر الفيحاء هذا الحصاد المكتنز ، وهــذا البيدر الضخم ، وليس لنا ان نسأله غير ما اعطى ، فهــذا ميدانه . ومن لا يصدق فليجرّب ، فهو لا محالة مقصر عنه .

مَا وَرَاءَ البحار

مدرسة رومنطيقية

إن للهجرة يداً بيضاء على لسان العرب ديناً وأدباً ، ولا يعنينا الآن إلّا الهجرة الأدبية . كانت الهجرة الأندلسية الاولى فأبدعت الموشّحات ، فمرّت في جوّ الشعر العربي مجاري هواء جديدة أنعشت من كانوا قد ملّوا الشعر المقال على نمط واحد ، فأقبلوا على ذلك الشعر الطريف يروونه وينشدونه ، ويخرجونه انغاماً والحاناً ، ثم انطوى بساط الحياة الاندلسية فسكتت قيثارة الشعر السارح ، وقبعت القرائح في كسر بيتها المربع الزوايا بعد تلك الدارات ذات الخرجات والشرفات ، المتنوعة الهندسة ، المختلفة التصاميم .

أما أدب المهجر الحديث فليس ابن الهجرة الحاضرة وحدها ، فقد كان قبل هذه الهجرة هجرات . هاجر الكثيرون قبل هؤلاء وعملوا المستطاع . وان ننسَ الذين هاجروا في القرون الوسطى وما بعدها فلا ننسَ مهاجري القرن التاسع عشر ، الذين انشأوا المطابع العربية في العواصم العالمية ، ونشروا الكثير من آثارنا القديمة التي كنا نسمع بها ولا نراها ، ثم احدثوا الصحف والمجلات العربية في تلك الغربة فكانت مدارس متنقلة في جميع الاقطار . ليس هنا مجال التدليل على جذور تلك المدارس الاولى المتأصلة في أدب المهجر ، ولكن كلمة جاءت في دستور « الرابطة القلمية » وهي

ان غاية هذه الرابطة : « بث روح جديدة نشيطة في جسم الأدب وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد » .

اننا نقف عند هذه الكلمة لنعطي الحق صاحبه ، فاذا قال ذلك مؤسسو الرابطة – جبران ونعيمه وغيرهما – فلا يعني هذا ان « رابطتهم » هي خمرة ابن الفارض التي سكر بها من قبل ان يخلق الكرم : فلا قبلها قبل ولا بعد بعدها ... فمنذ مئة سنة تقريباً سمعنا احمد فارس يقول في فارياقه : « السجع للمؤلف كالرجل من خشب للماشي ، فينبغي لي ان لا أتوكأ عليه في جميع طرق التعبير لئلا تضيق بي مذاهبه » .

ومن احب ان يسمع الكلام موشحاً بالاستعارات ، محسناً بالكنايات فعليه بمقامات الحريري او بالنوابغ للزمخشري . ثم شق طريق الجديد ومشى خلفه الناس . ومن قرأ نقده في « الفارياق » ، و « كشف المخبأ » أدرك شأن هذا المفكر العظيم ، فهو ابو « المقالة » وعلى آثاره مشى اديب اسحق ونجيب الحداد إلى آخر السلسلة .

وقد سمعنا الامام محمد عبده ، في فجر القرن العشرين ، يردّ على بديع الزمان الهمذاني في شرحه مقامته الجاحظية . قال الهمذاني : وهل للجاحظ غير عريان الكلام ؟ فصاح به الامام محمد عبده : حنانيك يا ابا الفضل ، إننا نؤثر هذا الكلام ونفضله .

ويجيء بعد هؤلاء كتّاب وشعراء ، أخص منهم بالذكر فرح انطون وخليل مطران فكتبوا بأسلوب حيّ ، وتعبير لا خمول فيه ولا تقليد .
لم يكن الشدياق واسحق والحداد وانطون والمطران والريحاني جماعة منظمة ، ولكنهم كانوا افراداً عملوا ما استطاعوا لإنعاش ادبنا العربي . وفي عهد الشدياق انفتحت جبهتان أدبيتان يأتيك خبرهما المفصل في كتابي « صقر لبنان » . ولم نتطرق إلى هذا الآن إلا لننصف من سبقونا إلى ما

نسمي اليه ، فبدون الاشارة إلى هذه الحلقة المحترمة من العاملين لا تستقيم سلسلتنا الادبية ، ولذلك نوّهنا بهم اعترافاً بفضلهم وتنشيطاً للقافلة السائرة في الطريق بعدهم .

اما ان « الرابطة القلمية » هي أول مدرسة ادبيـــة منظمة تنزع إلى تكوين جماعة ذات طابع خاص في التفكير والتعبير ، فهذا حق لا جدال فيه . كان قطب هذه الدائرة جبران ، وهو الطائر المحكي فيها . وقـــد مثّل فيها ميخائيل نعيمه دور الناقد ، أولاً ، فكان لها كما كان سنت بيف Sainte - Beuve من المدرسة الرومنطيقية . الا ان بين الاثنين فرقاً كبيراً فسنت بيف ، على تعصبه للرومنطيقيين ، أراد الحاق نسبهم بقدماء شعراء وكتّاب الفرنسيين . اما الاستاذ نعيمه فحاول قطع الصرّة ...

وكان في المدرسة الرومنطيقية الفرنسية عدة مصورين ، امـــا الرابطة القلمية فلم يكن فيها غير مصوّر واحد هو جبران ، زعيم تلك المدرسة . واذا عدنا إلى التاريخ رأينا ان الاسباب التي خلقت الرومنطيقية الفرنسية هي التي خلقت الرابطة القلمية . فهناك الثورة الفرنسية ، وهنا الحرب العظمى الأولى ، أما قبل هذا فـــا كنا نسمع غير صوت رومنطيقيّين اثنين : الريحاني وجبران .

واتجه الأدب الأوروبي ، بعد الحرب الكبرى الاولى ، اتجاهاً جديداً . أما أدب المهجر الممثّل في الرابطة فظل ينحو نحو ذلك الادب الاوروبي الذي هجره أصحابه .

وكما ظهر جفاف الكلاسيكيين تجاه الرومنطيقيين كذلك حصل عندنا ، فصادفت طريقة الريحاني وجبران مريدين ومشايعين ، ولا يزال لهما في كل قطر عربي من يقلّدهما وينحو نحوهما ...

وكما فرّقت الثورة الفرنسية وحروب نابليون الشعب الفرنسي في اقطار

الدنيا فتأثر بآدابها ، كذلك عملت الهجرة عندنا فاختلط ابناء الضاد بجميع شعوب الأرض ، وتأثر ادبنا بآداب الامم كلها . وقد ترجمنا واخذنا من هنا وهناك كما ترجم الفرنسيون واخذوا من آداب الأمم الاخرى .

وكان التطور عندنا في المعاني أكثر منه في التعبير والطريقة لأن شعراء الاندلس سبقوا الجيل الحاضر إلى فك قيود الشعر ، وعلموا اوربا ذلك منذ نيف وألف سنة ، ولهذا كان أثر الرابطة القلمية بيّناً في الاغراض والمعاني ، أكثر منه في الخطة والأسلوب اذا استثنينا الريحاني وجبران .

أما الذين حاولوا نظم الشعر كل بيت على قافيــة ، فأخفقوا كما اخفق أحمد فارس من قبلهم ، ولم ينظم الا أربعة ابيــات على ذاك الطراز — اقرأ الفارياق — بيد انهم أفلحوا فلاحاً كبيراً في الشعر المنثور الذي بدأ به الريحاني ، ثم بلغ به جبران أعلى ذراه .

يعدّ الفرنسيون بيرون الشاعر الانكليزي مؤثراً في شعرهم الرومنطيقي بحياته وآثاره ، اما العربية ففيها كثيرون من هذا الطراز . وان وجــد الغربيون في روسو مبغضاً للهيئة الاجتماعية فعندنا المعري الحاقد عليها ...

لقد أنسى بيرون أدباء الفرنسيين كل شيء ، حتى قال ميشليه Michelet لقد التهمت بيرون فكنت كمن شرب شراباً قوياً . وقال لامرتين : انه سكر بهذا الشعر . وقال ألفرد دي موسه : كأنه بعد مطالعة « Manfred » قد انكر كل شيء في السماء والارض . اما شاعرنا العربي الجديد فيرى هذه البضاعة مكدّسة في مستودعات القدماء ، وان لم تكن كبضاعة بيرون تماماً فهي تشبهها . ويعد الرومنطيقيون الغربيون شاعر الطليان دانتي مؤثراً بمدرستهم ، أما نحن فنعد دانتي متأثراً بالمعري .

والفرنسيون يعدون الاسبان مؤثرين بأدبهم بينما نرى المحققين الغربيين يعدون أدبنا مؤثراً بالادب الاسباني . والفرنسيون انفسهم يقرون بأن

ادبنا الشرقي أثـّر في أدبهم الرومنطيقي ، ليس من حيث بنيانه فقط ، بل انه قدّم له أزهى صور الوصف . وضربوا مثلاً على هذا كاتبهم الاشهر شاتوبريان في رحلتــه من باريس الى القدس ، وشاعرهم العظيم هيغو في مشرقياته ، وكاتبهم وشاعرهم لامرتين برحلته الى الشرق .

وكما كان هدف الرومنطيقيين في الغرب ان يعارضوا الكلاسيكيين وخصوصاً فولتير ، كذلك كانت الثورة عندنا على اغراض الجاهليين وغيرهم من القدماء ، وعلى تعابيرهم واساليبهم البيانيّة وصورهم . وكما جعــل الرومنطيقيون الخيال والشعور دعامة نثرهم وشعرهم ، كذلك عمل ادباء المهجر فأحبّوا الطبيعة كما أحبّها اولئك ، وحنوا مثلهم الى الاوطان ذاك الحنين الذي سمّاه الناقد « تــين » مرض العصر ، الا ان اصحابنا — ادباء المهجر — مالوا ككل شرقي إلى الاستنتاج او استخراج الحكمة — كالاستاذ نعيمه في قصيدة « النهر المتجمد » وابو ماضي في « طلاسم » وكثير من قصائده ، والريحاني في وصفه وادي الفريكة ، وشعره المنثور ، وجبران في معظم مقالاته .

ان طلائع نهضتنا وخصوصاً جبران والريحاني ميالون الى التصوّف والتأله . وقد سار خلفهم نعيمه وأبو ماضي ونسيب عريضة . فبدلاً من ان يحببوا الناس بالحياة فإنهم يزدرونها ، يصفونها بتعابير تختفي تحت حلاوتها وطلاوتها مرارة وخيبة .

وكما أحب لامرتـــين وشاتوبريان الانشاء الزاهي الانيق كذلك فعلت مدرسة المهجر ، واكثرهم يعتمد على قول موسه : اضرب القلب فهنا النبوغ ، واشدّ الاغاني يأساً هي الاجمــل . وكان اول من أسمعنا هذه الاناشيد الصوفية شعراً منثوراً ، الريحاني فجبران .

أما الاغراض الرئيسية عند مدرسة المهجر فاكثرها يتصل بالمشاكل

الدينية ، ويجنح الى إحياء مذاهب هرمة شائخة ، قوامها وحدة الوجود ، فقعدوا يجترّون ما عند القائلين بها من آراء ، وينظفون الاكفان الصوفية ويكوونها . فالدودة أخت لنا ، والغراب ابن عمنا ، والطيور والحيوانات شريكة لنا في الرزق . أما عملياً فنصلي الوروار ناراً حامية اذا حام على خليّة نحلنا ... ونقتل البقرة والعنزة والحمارة اذا اغتالت ورقة من اغصان جنينتنا ! ان الفلسفة التي لا يعمل بها صاحبها ، قبل غـيره ، لا تعيش . وهكذا شدّوا اواصر القربى بينهم وبين مخلوقات كثيرة .

وقد كان للحيـاة والموت ، وما وراء القبر والزواج الحظ الوافر من اقلامهم . أمـا الحصة الكبرى فكانت لرجال الدين . كانت الثورة عليهم في كل مكان ، وعلى اسلوب واحد ، يكيلون لهم القدح بالمدّ حتى جعلوهم مصدر شقاء البشر . ثم ثاروا على كل سلطـــة تقريباً ، كما فعل قبلهم الرومنطيقيون الفرنسيون . وتكونت عندهم كأولئك آراء غريبة في الكاتب والشاعر فعدّوا الكتابة وحياً يوحى ، وخال بعضهم انه لا يفنى .

ثم قامت في مخيّلاتهم اوهام الصوفية العتيقة حتى سمعنا احدهم — نسيب عريضه — يقول : قد بدأنا نشاهد ... ماذا بدأ يشاهد ؟ لست أدري !. إذا قال أبو ماضي : « لست أدري » فهذا كلام مقبول . أما ان نسيب عريضه قد بدأ يشاهد ، فهذا لا يخرط عقلي ... كان أمر الشؤون الدينية مفروغاً منه في اوروبا فتحوّل الاصلاح الذي ينشده كتّابهم إلى بعض الأنظمة المدنية التي لم تكن مستقرة ، أما عندنا فكان الشأن غير ذلك ، ولهذا اتجه كتّابنا إلى الاصلاح الديني ومحاربة التقاليد الشائخة ، كما نرى عند فرح انطون والريحاني وجبران ونعيمه وابو ماضي ومطران في قصيدة الزواج .

وقد شارك في هذا الكتّاب المسلمون بعض المشاركة لان الحال عندهم

غيرها في المسيحية ، فكل ما ناهضه هؤلاء كان لا شأن له كطلب المنفلوطي ان يتأنى الناس في الطلاق . أما ولي الدين فثار ثورة الكتّاب المسيحيين الشاملة حتى على الصلاة والصوم .

إن في اقاصيص وقصص جبران ثورة على كل شيء حتى على الحيـاة نفسها ، ولولا القليل بنى العـالم من جديد ... واعتقد جبران كما أعتقد هيغو شاعر الرومنطيقية الفرنسية : ان الكتّاب قادة الانسانية ، فالكاتب اكبر من المرزبان ، وعليه ان يحمل مشعله في يده حتى الموت ، واخيراً تضخّمت هذه الفكرة في رأس جبران ، فخال انه فرخ نبي ... اما اقاصيص نعيمه – في المهجر – وخيرها « العاقر » فليس فيها ما في قصص جبران من ثورة اجتماعية جامحة .

وكانت نهضة الرواية والقصة مسرح نهضة الثورة الاجتماعية الاوروبية ، أما عندنا فظللنا نعتمد على المقالة والقصيدة حتى كتب فرح انطون وجبران القصة ، وتطـاول نعيمه على المسرح فاقتبس رواية « الآباء والبنون » عن احد كتّاب الروسية . وفي هذه الاقاصيص الجبرانية ، وما نسج فيما بعد على منوالها لا تمثل اللفظة القصد كله ، فادباؤنا اليوم فريقان : فريق قليل الحظ من الآداب الاجنبية ، متمكن من الآداب العربيـــة ولغة الضاد ، والعكس بالعكس .

وكما انفرط عقد الرومنطيقيين في فرنسا ، فراحوا في سبل مختلفة ، كذلك أصاب مدرسة جبران – الرابطة القلمية – فانها أعطت فرصة ...

فنعيمه اشتغل للمومسات – اي الدولارات – كما سمّاها هو .

والريحاني ، وهو لم ينخرط في سلك الرهبانية ، تحوّل إلى كاتب نضال ، يدعو العرب إلى الاتحاد ، ويحثّ الشرق على النهوض والإقبال على الوسائل الحديثة في ميدان الفلاح والكفاح .

كما انصرف جبران إلى اللسان الانكليزي يكتب به دون غيره . ولم يعد يتصاعد في ذلك الافق الجميل غير بعض أغانٍ لأفراد تلك المدرسة . أما الرفّ الذي كان يغنّي مجتمعاً فتبعثر . ولكن سرباً آخر تجمّع في اميركا الأخرى ...

جبران

جبران خليل جبران زعيم أدب المهجر بلا منازع ، وقد نحـــا نحوه مخائيل نعيمه ، ولكنه لم يبلغ الامد الذي استولى عليه جبران . تخيّل نعيمه ولكنه لم يشتطّ ولم يغرب وظل قريباً من الواقع .

مرّ جبران في أطوار ثلاثة . كان في طوره الأول ، في « دمعـــة وابتسامة » ، أديب مقالات ، ومن يمعن النظر يرَ في اسلوبها عناصر خفية مكتسبة من الشدياق واسحق وحداد ، ولكنها انيقة ناعمة غير مشددة كأساليب أولئك . فيها نسمة بليلة ، وروح شرقية صوفية كأنها من شعراء التوراة ، بيد انها تختلف عن أولئك جميعاً بخيال صاحبهـــا العجيب . فجبران مصوّر في تعبيره أكثر منه كاتباً : فكأنما يكتب بريشة المصور لا بقلم الـكاتب .

زركشة ، وتدبيج وتنسيق تذكرك قوس قزح . يبدع تعبيره صورة لا ينقصها الا الالوان ، وصوره كلها مستمدة من الفجر والظـلام والنور . فيها الاشعة والظلال كمحيط شمالي لبنان الذي ربي جبران بين اوديته وجباله وتلاله . اما التعبير الجبراني ففيه شيء كثير من ثرثرة ينابيع تلك المنطقة المتلئة جمالاً ورهبة . فلا ترتاح إلى صورة من صوره الانشائية وتـكاد تهم بها ، حتى تقشعرّ اذ تتمثل لك صورة تليها .

تلك هي طبيعة المكان التي عملت عملها في جبران صبياً وفتى ، انه عمل المحيط والمربى . اقرأ جبران في كل مـــا كتب ، من دمعة وابتسامة إلى الاجنحة المتكسرة ، الى النبي فيسوع ابن الانسان ، وآلهة الارض ترَ ان الشاعر او الـكاتب جبران – سمّه مـــا شئت – لا يستعير صورة ولا موضوعاً من مهجره ، فكأنه يكتب في محيط شرقي ، وكأن أذنيه مسدودتان لا تسمعان ضجيج الدواليب وزئير صواريخ المعامل والبواخر .

وهو في أروع ما كتب باللغة الانـكليزية لا يتعدى هذه الحدود ، فالليل والناي ، والوادي والنهر ، والبحر والثلج والضباب مواد منتوجاته الأولى . يذكر البيدر والكروم ونواح المعصرة ، فكأن جرن المعصرة كان سريره ، والضباب اقمطته والبيدر ملعب صبوّته . وهنا يعمل فيـه شيئان : لبنان والتوراة .

إنشاء لدن مرن ناعم ، تعابير مملوءة الواناً وموسيقى ، تنعشها نفس صوفية كانت المثال الاعلى لإخوان الرابطة القلمية . فعوّلوا جميعاً على هذا الأسلوب الناعم الطري الممزوج بالروح الصوفيـــة وتفلسفوا كلهم في شعرهم ونثرهم .

ان جبران كاتب مقـلّ مجوّد متعمّل ، ولكن صقله الدائم لعبارته أخفى تعمّله ، فكاد ان يكون انشاؤه طبيعياً لا تحس أثر الصنعة فيه .

اما الطور الجبراني الثاني ، وهو طور الاقصوصة والقصة ، فلا ينحرف فيه جبران عن أسلوب « دمعة وابتسامة » الا قليلاً . يتجه اتجاهاً ملموساً صوب الواقع لان القص والحوار يحولان دون التحليق الكـــلي في سماء الخيال . وقصص جبران جميعها بل أدب جبران كله قوامه الحب . فحب اللحم والعظم هو القطب الجبراني وعليه تدور رحاه الطاحنة ... ومـا اغراقه في الصوفية الا رجاء الخلود في حضن المادة ، والتنقل من حال

إلى حال ليظل يتمتع بمباهج الحياة وملذاتها . الحب الانساني المادي هو أنشودة جبران وهو غرضه في جميع اقاصيصه . ففي قصته الاجنحة المتكسرة غنّى الحب المقهور أعذب الحان سمعها الادب العربي .

كان حب جبران حباً خاصاً ضيقاً في « سلمى كرامه » ، و « وردة الهاني » ، و « مرتا البانية » ، و « صراخ القبور » ، ثم صار حباً عاماً مطلقاً في « النبي » و « يسوع ابن الانسان » ، ولكنه ظلّ حباً لحيـــاً عظيماً ، فالشوق عند جبران غذاء روحي تحيا به الحياة نفسها ، ولولاه لم يكن شيء مما كان . فكأنه قد استمدّ هذا الشوق من اساطير الفينيقيين الاولين . فهو يتصوّر الضباب كما تصوّروه ، ويعتقـــد بتكتله المتبد وصيرورته في الغد القريب كياناً سوياً ... كما يعتقد الفلكيون بتطوّر النجوم السديمية .

وهذا المعتقد الفينيقي الاصل جرّ جبران إلى الاعتقاد بالتقمّص ، فبدأه في فجر حياته الادبية حين ظهرت اولى مجموعات اقاصيصه «عرائس المروج» . ففي إحدى قصص هذه المجموعة وعنوانها – رماد الاجيال – يختار لها بعلبك محيطاً يظهر بطلها « علي » قرب القلعة المشهورة ويلتقي بحبيبته التي عرفها وعشقها منذ آلاف السنين . ان هذه الفكرة التي هام بها جبران طول حياته لم تفارقه قط ، وبها ختم كتابه « النبي » إذ قال : « وقريباً ترونني لأن امرأة أخرى ستلدني » .

أمـا الطور الجبراني الثالث فهو طور الفلسفة ، عبّر فيه عن افكاره باللسان الانكليزي ، واراد ان ينقل إلى اميركا العملية صوفية الشرق ، فكتب لهم بلسانهم « المجنون » و « السابق » و « النـــبي » و « يسوع ابن الانسان » ، و « آلهة الارض » ، وفي هذا الكتاب الاخير غرق جبران في الرمزية إلى ما فوق اذنيه .

وكأني به ، إذ عنون كتابه « السابق » ، ذو غرض بعيد ، اظنه يعني

به أحد الانبياء وهو الذي يسمونه في النصرانية يوحنا السابق ، لانه سبق السيد المسيح مبشّراً به ، وهكذا يحمل جبران كتابه هـــذا « سابقاً » لكتابه « النبي » .

أمـا كتابه « النبي » الذي زعموا انه يشبه كتاب نيتشه فهو بخلاف ذاك . ففيلسوف المانيا أنشأ النازية ، أما جبران فلم ينشىء شيئاً ، بنى كتابه على المحبة ، والمحبة أساس اديانتا . ان لولب كتاب فيلسوف الالمان يدور حول البغض فكان من نتائجه ما كان ...

أما نزعة جبران إلى « التأميم » فغلبت عليه في طوره الاخير ، فهو مثل نيتشه يريد أن يتّشح في برد النبي مهما كلفه الامر . ولكن فكرته هذه لم تؤدِ به الى مستشفى المجاذيب كما أدت بنيتشه . كان جبران يتحدّث عن الروح وتعاليمها وهو غارق في جسده ، يتحدّث عن الحب الاسمى ، ولا يعني إلا الحب الانساني ، وهذا ما يحملني على التأكيد ان الرجل وثني المعتقد ، وان كتب عن يسوع ما كتب ؛ فينيقي عتيق يرى في مسيحه شخصية ادونيس ، بعد اجيال ، كما نقرأ في « يسوع ابن الانسان » . ومع هذا الخالي متأكـداً ان « الحب » لم يسمع صوتاً ألذّ واعمق من صوت جبران ، ليس في الادب العربي فقط بل في الادب العالمي ، والغريب العجيب هو ان ما يكتبه جبران في هذا الموضوع آية في النعومة على ما فيه من ثورة هدامة .

أما اثر جبران في الرابطة القلمية وما بعدها فلا يزال ملموساً ، فكل اعضائها اقتربوا من طريقته في التفكير والتعبير . فمقالة جبران «حفـّار القبور» ، وقصيدة الاستاذ نعيمه « اخي إن ضج ... » كأنهما من مقلع واحد ، وان اختلفتا شكلا . أما معتقد الخلود فواحد عندهم جميعاً .

هذا ابو ماضي الذي أعدّه صلة بين القديم والجديد يفلسف كأصحابنا

جميعاً . يحدّثنا عن جهله كيف جاء إلى هـــذا الكون ، فذكرني بقول الريحاني ، حين شبه وجوده في هذه الدنيا وجهله له بجرذ وجد في قبر عتيق ... فهو يعيش فيه ولا يعرف من بنـــاه ، ولا متى شيّد ، ولا يوم تهدّمه !!

تخيّل جبران في كتابه « النبي » مدينة أبجر اليها ، وقد جعل اسمها : « اورفليس » على وزن اورشليم ، فالتقاه ناسها واخذوا يطرحون عليـــه اسئلتهم طالبين منه حلّ مشاكلهم الاجتماعية . فحلها لهم حلاً شرقيـاً ، مفتاحه المحبة والسلام .

ومثل جبران فعل الاستاذ نعيمه ، حين عاد الينا ، فكرز هنـــا ، وعلّم هناك متصلاً بالناس مباشرة يراهم ويرونه ، ويكلمهم ويسمعونه ...

ثم جمعت تلك الخطب في كتاب « زاد المعاد » . الخبز والادام واحد في « النبي » و « زاد المعاد » . اما اختلافها ، في بعد مدى التأثير والسيرورة ، فذلك ناشىء عن ان الاستاذ ميخائيل يحدث اناساً غير غرباء عن اورشليم فما نفقت بضاعته عندهم كما نفقت بضاعة جبران عند الاميركيين ، الذين ينفق عندهم كل شيء .

اما الاسلوب الذي اعتمدته هذه المدرسة فيلخصه جبران بقوله : « يكتب بعضنا لمن ماتوا ، ولا يدري ان قرّاءه في المقابر . ويكتب بعضنا لإرضاء معاصريه حاسباً ان في ذلك العظمة والخلود فيخطىء المرمى . ويكتب بعضنا لانه ان لم يكتب يمت وهذا من الخالدين » .

أما رأيه في شعراء المهجر فقد قال : « لو تنبأ المتنبي وافترض الفارض ، ان ما كتباه سيصبح مورداً لافـكار عقيمـــة ، ومقوداً لرؤوس مشاعير يومنا لأهرقا المحابر في محاجر النسيان وحطما الاقلام بأيدي الاهمال .

ان عصرنا هذا قد كثرت فيه قلقلة الحديد وضجيج المعامل : فجاء

شعرنا ثقيلاً ضخماً كالقطارات ، ومزعجاً كصفير البخار » .

وهنا يخطر ببالنا جبران الشاعر « نظماً » فهل وفق يا ترى إلى الشعر الذي يريد ؟

لا . ان جبران شاعر في منثوره لا في منظومه . أراد ان يفلسف نظماً فقال أشياء هي أفكار أكثر منها موسيقى .

كانوا في الأندلس يتخطون من الطب إلى الفلسفة ، وفي « اندلسنا الجديدة » كما سماها بعضهم ، يتخطون من الادب إلى الفلسفة ؟ وهذا ما وقع لجبران ونعيمه .

وبعد ، فقد يمسي أسلوب جبران كأسلوب ابن العميد ، ولكنه كيفما دارت به الحال يظل أسلوباً متبعاً ، ويظل صاحبه زعيم مدرسة يبقى الكثير من عناصرها في الذرية ، تتمشى فيها تمشي الوراثة في الناس . وما هذه الالوان والمجازات والاسنادات والاغراق في تعبئة الجملة إلا مظهر من مظاهر الادب الجبراني تحوّل وتطوّر كما تراه في شعر الشباب الحديث ونثرهم .

واذا ماتت « دمعة وابتسامة » واخواتها فلا تموت كلمات جبران . وانني لأراها تنبعث يوماً بعد يوم من مراقدها لاننا نجد في تآليفه ما يعزّينا في محنتنا ، وما يدفعنا إلى العمل بنصائحه لنصيب الاهداف التي تنصبها الاحوال الراهنة أمام أعيننا .

فزعيم أدب المهجر شخصية لها ميزاتها القوية ، وعناصرها المتمردة . فهو شرقي عربي ، لم يكتب ليمغرب الشرق بل كتب ليمشرق الغرب ويكون له رسولاً ... والشخص الفذّ هو الذي يحتفظ بلونه لانه في غنى عن الالوان التي يكتسبها من محيط غريب .

ان النوابغ يفرضون أنفسهم على الناس . والمجنون هو من يحاول طمسهم ... إنه كمن يبصق في وجه الهواء القالع .

المدرسة الجنوبية

اقفلت مدرسة اميركا الشمالية ابوابها ، وتفرق السرب ، فهذا الريحاني يغني على ليلى جديدة ، ينفخ في بوق القومية العربية داعياً احفاد يعرب إلى الاتحاد ، بعد ان اضطجع على صفة ربة الوادي في الفريكة صارخاً مستطباً : داويني ربة الوادي ، داويني .

وهذا جبران قد امسى يكتب بلسان الدولار والشلين .

وهذا ميخائيل نعيمه يعود إلى لبنان ، بعد موت جبران ، ويختلي في بسكنتا والشخروب ليكتب « المراحل » ثم كتاب « جبران خليل جبران » النفيس ، كتبه ليبدد غيوماً تكاثفت حول جبران ... خاف ان يختنق صديقه الحميم وراء غيوم النبوءة الكثيفة ، فشقّ ثوبه عن صدره ليمكنه من تنشق الهواء النقي ... ثم خال ان ذلك غير واف بالمرام ، فبدأ منذ حبل به في البطن ، وأخيراً ، كشف عن عورته ... فتمّ الكتاب ... وفي كتابه هذا « جبران » يؤرخ لنا ميخائيل انشاء « الرابطة القلمية » واضعاً النقاط على الحروف .

أما ايليا أبو ماضي ، شاعر المهجر الكبير ، فاحترف الصحافة واقلّ من قول الشعر . أما الآخرون وهم « العمال » كما يسميهم قانون الرابطة فكادوا ان يصمتوا .

عاد الينا الاستاذ نعيمه خارجاً من معترك عملية نيويورك مثل الشعرة من العجين ، فاسمع كيف يخاطب ابناء بلدته :

يا ابناء بسكنتا ، يا لحمي ودمي . ما أنا بالنبي يصنع العجائب ، غير اني مذ عدت اليكم والعجائب تكتنفني ، فكأني في عالم مسحور . انظر إلى الجبال التي كنت اتسلقها ، فاذا بها تتسلقني !!. اكاد لا اسمع زقزقة عصفور إلا سمعت فيها اجواقاً من الملائكة ، ترنم بصوت واحد : قدوس ، قدوس ، قدوس .

ما أبعد السلام المخيم في جبالكم عن الجلبة المعسكرة في مدينة كمدينة نيويورك ، وتلك الجلبة هي تطاحن المطامع والاهواء البشرية في سبيل الريال . وليس أضلّ ممن يعتقد ان بامكانه التوفيق بين ريال نيويورك وسلام صنين . فريال نيويورك نقاب كثيف يحجب وجه الله ، وصنين عرش من طهارة يبدو عليه وجه الله سافراً . من اختار منكم ريال المهجر وكل ما في قلبه من جلبة لا تسكتن ، فليطلق سلام صنين !

تقولون لي : وهل نأكل سلام صنين اذا عضنا الجوع ، او نلتحف به اذا قرصنا البرد ؟

وأنا أقول لكم : بلى والف بلى . فالجمال الذي تنثره يد الله حواليكم بسخاء هو الطعام والكساء والمأوى لكل ما هو ازلي وابدي فيكم » . ولكن أأكل نعيمه من التفاح والدراقن والخوخ ، أم أكل من سلام صنين؟

ثم يعلن في مقام آخر : انه حطم جميع أبواق الناس التي تعلم النفخ ليستعيض عنها ببوق واحد ، هو البوق الذي يمجد به الحياة الكاملة ، والحياة الكاملة التي يعنيها نجد عناصرها في خطبه « زاد المعاد » ، وهي تصلح دستوراً للحياة المثلى ، ولكن هل استطاع صاحبها ان يحب ويجود ويضحي كما قال ؟ هل يعمل بما علّم ويعلّم ؟ قال فيه صاحبه امين

الريحاني ، في كتابه « قلب لبنان » :

« وفي هذه الصرود كوخ في صخر اسمه الشخروب ، بقي طوال الدهر نكرة مثل المزارعين والرعاة الذين كانوا يأوون اليه . بقي نكرة الى ان شعّ فيه نور الفكر والادب ، اتخذه ميخائيل نعيمه « مقاماً » يطبخ فيه طبخات صوفية ، ويعمل التوابل والحوامض الادبية ، ويوزعها في الكتب والمقالات على الناس لوجه الله تعالى ...

هنيئاً للنساك الاقدمين اجدادنا المتعبّدين ، المتصوّفين : هنيئاً لميخائيل ، فقد عاد اليهم في القرن العشرين عن طريق اميركا إلى صنين : واندمج في سلكهم الطاهر » .

وهكذا تقلّص ظل « الرابطة القلمية » تلك المدرسة الادبية التي ارتقى على يدها النثر العربي إلى ذروة فنية مرموقة . كانت كما تدلنا اقوال زعمائها وعمالها ، مدرسة عامة لا نزعة خاصة لهـا ، تكاد تكون أممية ، بل قل شرقية شاملة . كان فيها شعراء ولكنهم ليسوا من الشعراء الكبار — اذا استثنينا أبا ماضي — كلهم قالوا شعراً منظوماً : من جبران إلى نعيمه ، إلى كل عضو من اعضاء الرابطة ولكن منثورهم فاق منظومهم .

أما المدرسة التي فتحت ابوابها في البرازيل — العصبة الاندلسية — فقد لا تكون كالرابطة القلمية تنظيماً وجهاداً ، وقد لا يكون لهـا دستور كتلك ، وان كان لها مجلتان راقيتان لم يكن للرابطة القلمية مثلها . وهاتان المجلتان ظلتا تصدران حتى الأمس ، وهما « العصبة الاندلسية » و « الاندلس الجديدة » . من عنوان هاتين المجلتين تعلم ان الشعر غالب على هذه المدرسة . فالمهجر البرازيلي لم يتحفنا بغير دواوين شعر مختلفة الالوان والنزعات ، ينحو أكثر شعرائها نحو شعراء « الرابطة القلمية » في الاغراض الوجدانية وينفردون دونهم بالشعر الوطني القومي . وهذا الضرب لم يعالجه شعراء

اميركا الشمالية .

كان المهاجرون البرازيليون قليلي العناية بالادب . لا يعني صحفهم الاولى إلاّ السياسة والاخبار ، وظلوا على ذلك حتى وصلت هذه القافلة المتأدبة إلى البرازيل ، فوجدت فيها مرتعاً خصباً لعبقريتها ، وجالية متعصبة لجنسها وقوميتها ، وشعباً برازيلياً يحترم العروبة ويجلها ، ويذكر ما لها على أمته في سالف الزمن من يد . فاتقدت جذوة الادب في صدورهم ، والادب كالتجارة ينمو بالاخذ والعطاء .

ان شعراء اميركا الجنوبية او اللاتينية كثيرون ، من مشاهيرهم رشيد سليم الخوري – الشاعر القروي – والياس فرحات ، وشكرالله الجر وأخوه عقل ، ونعمه قازان ، وفوزي المعلوف ، واخوه شفيق .

قال فوزي في بساط الريح شعراً اندلسياً حقاً لولا ما فيه من غلو واغراق ، تتجاوب الاصداء النفسية في منعرجاته ومنحنياته ، ولكنها تلهث تعباً . وهذه النشيدة الانيقة – بساط الريح – أحلّت شاعرها فوزي المعلوف منزلة عالية . أما قصائده التي قالها في مواضيع متشعبة فليست من وزنها وبابتها . جرّب فوزي اولاً في قصيدة عنوانها « الفردوس المستعاد » فلم يقل غير الدون من الشعر ، واليك منه هذا النموذج الصغير :

فانحنى آدم لربّ الانـــام	ثم خرّا
ساجداً قائـلاً بكل احترام	ربّ شكرا
قال ايضـــاً لزوجه حواء	بابتســـام
كفكفي الدمع أبشري بالصفاء	والبـــلام
لم يعد موجب الماضي البكاء	والمـــلام
استمدنا الفردوس بالابنـاء	بالهيـــام

أرأيت « خرّا » و « بكل احترام » و « قال ايضاً » و « لم يعد موجب »

ما ابعدها عن الشعر ؟ فهذا شعر لا شعر فيه ، ولا يحسن صاحبه غير التفعيل ، ويخفى عليك حتى تظن انه ليس لصاحب « بساط الريح » . حقاً ان الشاعرية قريحة وطبع ، اما اجادة السبك فمران .

واذا قابلنا بين فردوس فوزي المستعاد وبين « أوتار » اخيه رياض المتقطعة نكاد نجزم ان رياضاً سيكون بدراً كاملاً ، لأن الفرق بين « الفردوس المستعاد » و « الاوتار المتقطعة » بعيد جداً .

اما شفيق ، وهو من شعراء هذه العصبة ، فقد ركب متن طائرة ، مثل شقيقه فوزي فحملته إلى عبقر : فخاف وخوّف ، وعاد من ذلك الوادي المسحور لا يحمل شيئاً لان الحال في عبقر كما هي في ممالك ودول اليوم : ممنوع التصدير الا عن طريق المقايضة . وشفيق لم يكن معه شيء ليقايض ويعود غانماً ...

وهؤلاء الاخوة ثلاثتهم : فوزي وشفيق ورياض ، يحشو شعرهم تشاؤماً ، ونصيحتي لرياض ان يعدّي عن تشاؤمه او فليكن صاحب الكوخ الاسود لا الاخضر ، فالاخضرار والتشاؤم كالصيف والشتاء على سطح واحد .

أما شعراء اميركا اللاتينية الباقون ففي شعرهم طلاوة الشعر الاندلسي بل يفوقه جرساً وشدة أسر . فاذا قرأت روائع شكرالله الجر وفرحات والشاعر القروي رأيت ان هؤلاء أخذوا من شعر الاندلس طلاوته دون ميوعته فقالوا شعراً طيباً .

اما نعمة قازان صاحب معلقة الارز ، فقد جمع فيها خواص الشعر الاندلسي ، بل قل اطواره كلها ، من الموشحات الرصينة حتى القوما والدوبيت ، يبتدئها بالميجانا والعتابا ، ويختتمها بالزجل ، وهذا البدء والختام من الشعر الرائع . اما شعر المعلقة فمغامرة جريئة لا ادري ما يكون شأنها في الادب . ولست أدرسها الآن ، فموعدها مع شعراء المهجر جميعاً ،

في الكتاب الذي يلي هذا .

ان في هذه القصيدة مرامي بعيدة تستدعي التفكير ، والآن لا نقول فيها الا كلمة عارضة جرّنا اليها موضوعنا . فالظاهرة الغريبة ، في هذه القصيدة ، منبثقة مما قلنا سابقاً ، اي ان اندلسيينا الجـــدد يتخطون من الشعر الى الفلسفة : فنعمة قازان خلق لنا ثالوثاً جديداً وكاد ان يوجب علينا تقديسه ، وهذا الثالوث يتألف من ثلاثة : جبران وهو فجر ، وميخائيل نعيمه فجر في فجر ، والشماع نعمة قازان ، رحم الله عظام مــــار توما ، فـــكم تعب حتى يحل عقدة المسيحية التي لم تفكّ ، وها هو الشاعر نعمة قازان يفكها على الهينة ! فجـــبران الآب ، ونعيمه الابن ، ونعمة الروح القدس ، ومن لا يؤمن يُدان ، وطوبى للنقيّة قلوبهم فإنهم يعاينون الله ... اما من هم مثلنا فما ابعدهم عن مشاهدة « صندوق الفرجة » ...

ففي نظر قازان ان جبران لم يقل كلمته ، ونعيمه الذي سماه قازان « فجر في فجر » — على طراز ما جاء في « قانون الايمان » : نور من نور ، اله حق من اله حق — قد قال بعضها . عثر نعمة قازان على هذا الفجر في فجر ، او النور من نور ، في الهيكل العجيب حين دخـــله هو . ويؤكد لنا انه لم يجد فيه أحداً غيره ... ولذلك يخاطب نعمة قازان الناس جميعاً في بدء كل مقطع من معلقة الارز بهذا البيت :

وقفتم ببابي ولم تدخلوا فماذا تريدون يا اخوتي

سلامتك يا اخي ... الا انه ، على نبله وكرمه ، اشاح بنظره عنـــا وطار كإيليا ، وبرفة عين بلغ السدرة ...

لم يقاس شيئاً مما قاساه شفيق معلوف في رحلته تلك ، بل قفز قفزة عريضة فاذا به حد الله جلّ جلاله :

وحلقت حتى دنوت اليه فقلت « السلام على العزّة »

وقطع الكلام خاتماً معلقته بهذا البيت ، ثم لم يقل لنا شيئاً عن الرد على هذه التحية ، أمثلها كان أم أحسن منها. وهذا الشاعر الذي بلغ ما لم يبلغه احد من بني آدم حتى الرسل والانبياء ، يتواضع ويقول :

وليس كبير سوى نعيمة   وليس صغير سوى نعمة

فيكم الخير والبركة ، كلاكما كبيران يا اخي نعمة ... نجانا الله وإياكم من هذه الوساوس !

***

وها نحن نبحر او نطير من الاميركتين عائدين إلى لبنان ، ونستريح قليلاً للاستجمام ، مرجئين نقد المدرسة الشعرية الحديثة وتحليلها مبتدئين بزعيمها سعيد عقل والجائلين معه في المعمعة ، ولن نهمل احداً حتى المقلدين الخاسرين.

ثم نمرّ عجالى على المدرسة النثرية الجديدة لأنها مشتقة من تلك . ان هذه الطريقة في النثر قد شغلت عقول الناشئين وأذهانهم حتى كادوا ان يفسدوا صورها وتعابيرها . والأغرب من هذا ان ينزع اليها بعض المشايخ ويوغلوا في غاباتها غير خائفين على عمائمهم وأردانهم وأذيالهم .

القسم الثالث

في المختبر

تحليل ونقد لآثار الكتاب المعاصرين

المعركة الأدبية في مصر

النزاع الذي قام بين أدباء مصر ، – والنزاع عنوان الحياة – قام ويقوم مثله في كل عصر وزمان ، فمن يستعرض تاريخ الأدب يعلم أنه لم تشن غارة أدبيـــة كالتي شنت على المتنبي ، فقد تألب على أبي الطيّب فحول شعراء زمانه ، وناصبه العداوة حذّاق النقاد من ابنـــاء جيله ، فكانت حملات تلتها حملات على الشاعر العظيم ، فارس حلبة الأدب في ذلك الدهر ، والدليل قوله :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر   ضعيف يقاويني ، قصـــير يطاول

ومنذ أعـــوام حرّضت فئة لا يستهان بها عـــلى « مناوشات » أشبهت ، على ضؤولتها ، تلك الاغارة ، فحملت على الشاعر احمد شوقي عصابة عقد لواؤها للمازني والعقاد ، وكان الشاعر حافظ ابراهيم ، ندّ شوقي ، من ابطال خنادق الوقعة ، فتترّس « بليالي سطيح » .

وانضم الى «الأحلاف» فارس مغوار تعمّد شاعر تلك الساعة ، بدهائه وارانا أنه غير مفترض ، فما سلم من طعناته أحد ، بيد انّ منها ما آلم واثخن ، ومنها ما أشبه الملاكمة بقفازات هشّة ، لا خوف منها حتى على حدقة العين. عقدوا مقالات وفصولاً جمعوهـــا كتباً مليئة بالنعي عـــلى الشاعر . نعوا على شوقي تقليده ، وسرقاته وسيره على سكة القدماء المعبدة ، فما أشبه الليلة بالبارحة .

ثم علا صوت من وراء البحار فاشتدّ به ازر «الاحلاف» – واميركا اعتزلت الحرب الكبرى ثم غاصت فيها حتى الآذان – . فنصبت الموازين والغرابيل على «بيدر» شاعر زمانه ، واستحال النقد هدماً وتدميراً ، والتشذيب تشويهاً وتمثيلاً ، حين رأوا شوقياً يراع من النقد ، فطارت للنقّاد شهرة مـــا عتّمت أن أشبهت السيطرة على اسواق الادب العربية فاخذوا يقوّمون بضاعتها بالاثمان التي تتراءى

لهم وتواتيهم ، فمن كان على هواهم نادوا على محصوله فراج ونفق ، ومن كان لهم فيه مآرب اخرى شال في ميزانهم ، كما قال شاعر بني أميـة . ولم يكن وكدهم غير شوقي .

واعتد الناس بكل كلمة تذيل بتواقيعهم ، وعوّلوا على آرائهم ، حتى اوشكوا ان يطبعوا الادب الحديث بطابع خاص ، ففرضوا على الادباء والمتأدبين اراءهم ومذاهبهم فرضاً ، فكادوا يسنّون النواميس والشرائع للكتّاب والشعراء ، فمن خرج عليهم ، او تجاوز تخوم جمهوريتهم السعيدة ، كان العتيق المنبوذ ، ولو صام لتحريره الف غاندي .

فمثّل شبح الارهاب واتّقى حملة الأقلام شر هذه الحملة المنظّمة ، التي جلبت أعتدتها من مصانع الغرب ، وما تلك غير اتجاه جديد في مناحي التفكير ، وتغيير لمقاييس المثل العليا ، فجعلوا الذراع متراً ، والفرسخ كيلومتراً ، حتى عابوا على امرىء القيس والمتنبي ، مثلاً ، تزييها — في ذلك الزمان — بالكوفية والعقال ، واستغربوا كيف انهما لم يلبسا القبعة ، والطوق القائم ، وربطة العنق ، والسراويل المزمّكة ، كبودلير ، ومالرمي ، ورمبو ، وبريدون ، وفرلـين ، وفالري . كأن الظواهر الجوية لاتختلف في صحراء العرب عنها في جبـال الألب ، وكأن الجاهلية لا حساب لها ، وكأن التفكير يجب ان يكون واحداً في كل امة وقطر .

وتقمّصوا لباس «انصار الجديد» فليق بهم لأنهم مجددون حقاً ، وخلعوا على من ناوأهم جبّة القديم ، فكانوا متطرفين ، ولم يكونوا لو لم يعيّروه بها . واشتد النضال وحمي الوطيس وكان يوم له ما بعده ، صراع بين القديم والجديد تطوع فيه « سنت بيف » لتحرير الادب العربي ، تطوع لافاييت لتحرير اميركا . . .

وما ابصر الناس «سنت بيف» بين الصفوف حتى استصرخوا سواه ، فصارت الجبهة الادبية المصرية عربية اعجمية ، وقف فيها القديم من الجديد — في هـذا الحين — موقف السنّة من المعتزلة — في ذلك الزمان . تدرّعت المعتزلة بالفلسفة ، وجرّدت سيف المنطق ذا الحدّين ، فدارت الدائرة على السنّة ، في جبهة الجدل ، حتى كان الغزالي ورهطه وسبطه .

وسكنت الارض بين أيدي دعاة الجديد ، وآمن الناس بكل ما انزل على اقلامهم ، وشد إزرهم الشباب ، والشباب نزاع لكل جديد ، فقوي ظهرهم .

ثم مات شوقي وصار في ذمة تاريخ الادب ، فلم نسمع بعد موته نقداً وهذا أوان النقد النزيه . واشتد ساعد الشباب فحاولوا ان يشاركوا «الآباء» في آرائهم ويروهم كفاءتهم لصيانة التراث وانمائه ، لعلهم يستعمرونهم في بقاع مملكتهم الواسعة ، فلم يعترف « الآباء » لهم بشيء من ذلك ، سجية الأب المستأثر ، فظنّ الأبناء بالاباء شراً ، وقالوا ان هنالك كيداً ، بعد ما رأوا كل ثناء الآباء عليهم « بارك الله عليك » . . وان استحسنوا شيئاً من طرفهم عبّروا عن استحسانهم بتلك الابتسامة الأبوية الغامضة الفاترة التي رأيناها صغاراً على ثغور آبائنا .

فعلت الصيحة حول « الملاح التائه » و « وراء الغمام » ، فانفجرت القنبرة بين الشيوخ والشباب وكان الذي خِفتُ ان يكون .

ما نفخ في الصور ولم تقم القيامة فجأة ، بل هنالك مقدمات حسر عنها اللثام « سيد قطب » في مجلة الاسبوع ، اما انا فكنت ارقب قيام الساعة في مصر الأدبية ، وقد بدت لي اشراطها حين غادر الدكتور طه حسين « الرسالة » وحل بطن « الوادي » وتربّع الرافعي على عرشه في الرسالة .

علمت ذاك الحين ان في صدور الشباب براكين تتقد حنقاً على الشيوخ المستأثرين فأخذت اتوقّع الساعة فإذا بها قد أزفت ، وكال الشباب لشيوخهم بالكيل الذي كالوا به هم للرافعي وأنصاره .

ألم يطلق دعاة الجديد امس ، وشيوخ الادب اليوم ، على الرافعي ولفه لقب انصار القديم ؟ وهذا ما فعله ادباء الشباب . لقد شيّخوا طه ، والعقاد ، والمازني ، قبل الأوان .

الله الله ما هذا المصير ، كيف استعجلوا الشيء قبل أوانه ، مسألة فيها نظر ، فالأب شيخ في نظر بنيه ولو فتياً .

ما قلت ابتهاراً انني ترقبت قيام الساعة بل سمعت بأذني ورأيت بعيني ان حملة تجهّز ، فهناك فؤوس تشحذ ، ومعاول تحدّد ، ومناجل تسنّ ، وشيوخ الأدب على

عروشهم يصدرون المراسيم. الامويون في غفلة والخراساني يبث الدعوة العباسية.

تربعوا على عرش النقد، والنقد «اعسر امره ميسور» ما دام تهكماً واستهجاناً وتطلب كمال لم يخلق بعد، ودعوة الى « موضة » بطلت من اسواق بلادها.

ينقّبون عن السيئات بالمجهر، ويرون الحسنات فجّة، ويطلبون من البلبل تغريد الحسون، ومن العربي شعور الفرنجي، ولكل منها ظروف واحوال.

وبعد، فما لنا ولهذا الآن، فان ساعته لم تأت بعد، وستأتي ان شاءت آلهة الأدب. يقول الناس «الكنة وحماتها» خصمان أزليّان، ولا يبحثون عن السبب حتى عدّوا مخاصمتها غريزة، واذا اعترضهم شذوذ عن القاعدة وقفوا حائرين، ولو تبصّروا لأدركوا ان ذلك الخلاف الأزلي في كل مكان وزمان لم يكن لولا التنازع على السيادة والاختلاف في الرأي.

إنه لصورة جلية من صور تنازع القديم والجديد، فالكنّة التي تنقاد لحماتها ملك كريم، اما التي تعارضها او تخشى الحماة منها كيداً لسلطتها فهي شيطان رجيم.

الكنة وحماتها، والشباب والشيوخ شيئان متشابهان كأنهما حبتا عدس، فمن ساير الكهول واعترف لهم بالسيادة المطلقة، وأثنى عليهم ثناء ابي نواس على خمرته وقدسهم تقديسه لها كان من نوابغ الادب وكانت تآليفه «خطرة» — تعبير جديد اقرأه للناقد ادمون جالو، دار على ألسنة اقلام نقادنا حديثاً — ومن انتبذ منهم مكاناً شرقياً وركب رأسه هاجوه بالنبال وأعدّوا له القيود الدهم في الليالي القمراء، وفيما حدث بين طه حسين وتوفيق الحكيم، منذ عهد غير بعيد، دليل صدق، وعند «الأسبوع» و «الوادي» و «الرسالة» الخبر اليقين.

ودرج فرسان النقد المغاوير، او شيوخ الادب في لغة الشباب، على «تقارض» التقريظ والثناء والاشادة بالذكر حتى اصبح شعارهم: اثن عليّ اثنِ عليك، حكّ لي أحكّ لك، فعجّت بفصولهم صدور كتبهم، وفاضت بها انهار الصحف، وجاشت غوارب المجلات.

رأى ذلك منهم زكي مبارك فغاظه. مرّوا بتآليفه القيّمة مرور الكرام، فتولى بنفسه تقديم كتابه « النثر الفني » وقال عن نفسه في مقدمته ما قاله بولس

الرسول في بولس الرسول في رسالته الثانية الى اهــل كورنتس : « ان كانوا عبرانيين فأنا ايضاً عبراني، وإن كانوا من نسل ابراهيم فأنا ايضاً كذلك،بالضرب افضل منهم، بالجلد افضل منهم، بالحبس افضل منهم، وبالوثوقات افضل منهم. جلدني اليهود كذا، وضربت كذا الخ... » وكأن لسان حال الدكتور زكي يقول: ما حكّ جلدك مثل ظفرك .

شطّ القلم ولم اقل لك كيف عرفت بهذه الثورة قبل نشوبها،واجهت في حلب اتفاقاً سفيراً من سفراء الشباب او رائداً من روادهم ، يبشر كراهب الحرب الصليبية ، ويعلن ان الشباب من أدباء مصر سيصدرون مجلة يذيعون بها ادبهم على الناس، وان الشباب يريدون ادباً غير منقول ولا منحول . ينشدون ادباً مبتدعاً، شرقي الأصبغة والالوان، يريدون ان يطهوا للجيل ادباً غير ملتقط عن موائد الغرب، يريدونه ادباً ملتوتاً بالادام العربي ليزدرده العرب، ثم صرح بعد هذا التعريض بذكر نفر لم يكونوا شيّخوهم بعد، فاتهمهم بانتحال شيء كثير .

وشاء القدر حين بارحنا حلب أن يجمعنا القطار، فسِرْنا على بركة الله،وبعد أن انتهينا من التلويح بالمناديل ، قعدنا للحديث ، فتذاكرنا أدباء مصر المالكين سعيداً في القاهرة، وطال حديثنا حتى مللناه ونمنا .

واستيقظت قبــل صاحبي فانكببت على مطالعة كتاب « خطر غريزة المرأة » للمازني ، تفضّل به علي تلميذي الصديق اورخان ميسّر من ادباء حلب الشباب ، ليخفّف بــه عني سأم الانفراد وضجر السفر في القطار النعسان ، فلما جئت على نصف الكتاب حتى أفاق صاحبي من نومه ، واللوث بادٍ عليــه ، ففرك عينيه قليلاً ثم التفت فوقع نظره على عنوان الكتاب فنشط وقال : تطالع « غريزة المرأة » للمازني ؟

قلت : نعم .

فهز رأسه ثم قال : أقرأت ابراهيم الكاتب ؟

قلت : لا ، ولكنني سمعت به .

فهز رأسه وكاد يتبسم ، ثم رسم على شفتيه الفاظاً يجسّدها المنطق فافهمها .

. ودار حديث المسخ والسلخ والنسخ ، فتذكرت ابن الاثـير ، ولئن صح مـا اتهم به صاحبي ادباء الساعة ، لكان أولى بالاجانب ان يكتبوا «السرقة ممنوعة» بدلاً من جميع « الحقوق محفوظة » .

وكان موعدنا بعلبك فنزلنا ، وفي الغد تلاقينا على رأس العين ، وكان آخر العهد بـه . وانطوت الايام واذا بي اذكره في الشتاء ، حين قرأت في مجـلة « الاسبوع » وصف حفـلة اقامها شباب الادباء في القـاهرة للمستر جب المستشرق الكبير ، اكراماً له واعترافاً بجميله لعنايته بالقصة المصرية ، ودرسه لها في كبرى جامعات انكلتره .

وكان حديث بين المستر جب والمحتفين به من الشباب ، لم يخـل من عتاب سوف يأتيك خبره . فصبراً يا قارئي العزيز ، فالليل طويل وانت مقمر .

أدب القصة بين العقاد والرافعي

كاد يبطل التمويه بالقصدير ، وقــل عدد « المبيّضين » ، وصار الادب « الشكولاهي » ، غـــير مرغوب فيه ، فهو يتماع اذا أحرّ النقد ، ولا تستر عورته تلك الأكسية اللمّاعة البراقـة التي لا تفتن الا الصغار . وسوف تطرح الصحف الخطيرة الغثّ والهراء ليذهب به الكناسون ، فلا نقرأ في قابـــل الا رصيناً ، ولا نجسّ الا سميناً . ومن يهـــد الينا مثـل شاة « فتى منقر » تعلق في جيدها جلجلا ولا تستحي . « كبشّار » الذي ما استحيا قط الا تلك المرة ... امـــا الذين يكبسون بيوت « ادباء الغرب » ليسبوا بناتها وينهبوا خرثيّها فنشهرهم تشهيراً ، وهذا هو الحد الذي يقام على لصوص الادب .

ان لطه حسين يداً في هـــذا التطور الادبي ، وان اقتبس كثيراً واحتذى اكثر . فلا ضير عليه ما دام قد ابدع شيئاً مذكوراً . لا يضره شيئاً مشيه على ضوء « تين » ولا يشينه تمكنّزه على « سنت بيف » ، ففي كل آداب الشعوب عناصر شتى تفاعلت فكوّنتها . لقد وجّه طه طريق الادب العربي الحديث ، وعلّم من لم يعلموا ادب الغرب كيف يفكرون . إلا ان طه واخوانه من ادباء الساعة في مصر اصبحوا كالدجاج العجوز تبيض قليلاً ، وتقوق كثيراً ، فتشين عطاءها بالمن والسأم ... ويبرم الناس قوقها .

فمن يتفيّش ويفتخر كالمتنبي اضبح ممقوتاً ، ومن يقل للناس كالبحتري : لماذا لا تقولون أحسنت ، صار مبغوضاً ومنبوذاً ، وان كان لا يزال بعض ادبائنـــا يفعلون كالمهرّجـــين والمفنّين اصحاب التخوت من ناقري الدفّ المخشخش ، والبربط ، فيسترفقرن جوقـــات للتصفيــق و « التطييب » والهيشة ، كأن منتديات الأدب عرس رعاع .

ثم لا ادري ما اقـــول « بنفر » توقـّحوا حتى خطوا بأيديهم « التوطئات والتمهيدات والتقاريظ » لما ينشرون ويذيعون ، وكلفوا الصحف والمجـــلات نشرها . وان استنكرت واستسمجت فعلتهم هــــذه خبّروك وما استحوا ان « شوقي » كان يفعل هذا . فمن أنبأ هؤلاء العقلاء ان كل ما كان يفعله المرحوم شوقي حسن ؟ ؟

فما أرى هذه التقاريظ الا صياح باعـة في السوق ، فلا يبطل زعمهم الا نار المطبخ ، فالطهي يبدي الدسم ، والكير يبدي عن خبث الحديد .

وهناك معشر يحردون على النقـاد ، كما فعل العقّاد . حرد وسخط لأن سيّد قطب قال ان قالبه الشعري قاس ، وجمع بينه وبين ابي شادي في مقال حين نقد او قرظ ديوانيهما : الينبوع ، وهدية الكروان .

فالعقـّاد ، كما صرّح سيّد قطب ،«يكره ان تنعقد في أذهان الناس صلة بين فنه وفن ابي شادي ولو في الاسماء . بل هو يستنكف ويأنف من مثل هذه الصلة» (الاسبوع عدد ٣٥ ص ٢٢) .

أرأيت الآن ايها القارىء ، ارستقراطية زعماء الأدب في مصر ؟ أصدّقت ان فيهم المنبوذين والانجاس ، كما في الهند ؟ فإلى الصوم ايها الغانديون .

غفر الله لطه حسين ، فمن جهتين لا جهة اساء ، فقد جمّم ويجمّم مكاييل الثناء للعقاد ، ونصره على شوقي ، كأن شعار طه أنصر اخـــاك ظالماً كان او مظلوماً . وهـــو لو عدل لاتأد في نقد شوقي ، ووقف منه موقف النصيح لا المندّد ، ولكن كما قال طه « حب الشهرة عدو الفن » والمرء مؤاخذ بإقراره .

وما عتم طه والعقاد ولفهما ان صاروا كشوقي ، يمدّون النقد ، ان مسها ، تهجماً وحمقاً ، كأنهم بابا رومـــة ، فمن يناقشه يكفر كلامنيه . فهل لطه ان يتبصّر ، فلا يكون « المروان » سيّقة يقوده حيث يشاء بعد جلال السن . ان في الذين حاول طه وجماعته ان يقتلوهم ، ساعة طرّوا ، من هو أصلح للغد ... أليس الادب دولة كما يقولون ؟ فماذا يحل بدولتنا اذا لم يكن فيها «جنود فجيش احتياطي » متى أقعدت السن هؤلاء المارشالات العظام ؟ .

لست اخال طه ، وهـــو قد نصح الشباب ان يطالعوا ، الا قـد طالع في « النوفـــل ليترر » مقال هنري دي رنيه الشاعر الفرنسي ، واحـد الاربعين الخالدين . خبّرنا هذا الشاعر كيف عرف برونتيير الناقد الافرنسي الشهير ، واحد الأربعين ايضاً ، ومدير مجلة العالمين ، وقدم له قصيدة من نظمه فأذاعها له في المجلة وعقّب عليها بما أغمّ دي رنيه ، في البداءة .

وذكر دي رنيـه كيف قابلت المجـلة عينها الشاعر بودلير يوم اتى ببدع في الشعر ، فهان عليه الامر وأسلس قياده بعد شماس ، فاطردت رسالته الأدبية ، وخطر لدي رنيـــه ان يقفز من النظم الى النقد – وفي راسين ايضاً – فقابـله برونتيير بكل فجاجـة وقال له : اما النقد يا سيد ، فحقاً لا . اني اؤجلك في هذا عشر سنوات .

هكذا يا شيخنا الجليل ، يفعل الناقد النزيه بالشباب . ولكن الولد معجب مزهو ، وفي الأب صلف وعرام ، وماذا يفعل طه؟ فالعقاد جن بالامارة ، وطه يمهد لها ولا تأتيه منقادة تجرر اذيالها ، ولهذا تراه يحاول تهشيم كل اديب ، ولا فرق بـــين الاقطار ، ليسلم راس « الامـــير » ، والعقاد مخيّم في الشاطىء كأبي منذر . .

إن النظم ، تقليداً ومحاكاة لا يخلق شاعراً ، ، فالتبرّج غير الحسن والجمال ، والانشاء سجيّة . وهل من جنـــاح علي اذا سألت شعراءنا المتنطّسين وادباءنا المترمّتين ونقـّادنا المتحذلقين :

احاكى حزقيال واشعيا وارميا وايوّب وسليمان وداود وهومير ، غيرهم من الشعراء ، ام قالوا هم الشعر فصار شعرهم فنـّاً .

وهذه الأجرام أتحـــلم بالانظمة ام تسير ، فجعلنا سيرها نظاماً ، فليفترض انشتين ما شاء ، اما انا فلا يعنيني من الكون الا ما فيه من فتنة تحيّرني .

واكاد اقسم بالله ان شكسبير الجماعة لم يفكـّر قط بما يقوله النقـّاد كل يوم ، وان فرجيلهم لم يحلم ابداً بما يقولون لنا عنه بعد عصر اليوافيخ ، وان المعري لم

يفت عله علم قروم جيله ، وان قال : واني وان كنت الاخير ... ولكنه تمرد وصاح ، فاخلد وقـُدِّم .

وهذا الأدب القصصي الروسي الذي فتن العالم أطبع على غرار ؟ اكانت له مقاييس خاصة ؟ ام كان فصار فنـّاً يقاس عليه ؟

الا فاتركوا النوابغ يخلقون فنهم ، فلا نبوغ حيث لا خـــلق . ارفعوا من سبلهم عليقكم وقندولكم فهو يدمي ارجـــلهم ، ويمزق اذيالهم ، فالنوابـــغ فقراء « بالمنبين » .

واعجبا ! أتندّدون بالتقليد والمقلـّدين ، والتقليد تفعلون ؟ لقد قلتم شعراءنا القدامى في اعيننا ولم تبدعوا كما ابدعوا بل رحتم تقلدون الافرنجي والانكليزي والالماني ، ماسخين سالخين ناسخين .

قد تكون السيطرة في كل شيء ، امـّا الادب فهو شخصي ، ومن لا شخصية له في أدبه فهو البوّ .

ان الحسون لا يحفل بسلالم فاجـــنر ، والبلبل لا يبالي بمعازف الموصلي ، اتشوّشت اوتارها او اصلحها. والكروان الذي فتن العقاد لا يصغي الىالفارابي، فهو لا يضحك ولا يبكي ولا ينام ، مهما لعب ابو نصر بعيدانه وافتنّ في تركيبها. الطير تستقبل النور وتغني على الغصون ولا تصغي الى من في الظلال ، ولو كانوا يستمعون الى « اسطوانات بتهوفن » التي ردها طه حسين الى توفيق الحكيم حين كانت بينهما مغايظة . الطيـــور الموهوبة تغنـّي ولا تكون حدبًا احـد ، ومتى امتلأت نفسها غبطة ولم يعد عندها مـا تقوله طارت . انها ليست ككثير من الشعراء ... انها لا تهب الا عن فيض .

والأدباء المطبوعون كالطيور ، فدعوهم وشأنهم ، واحلوا براجركم وفوادنكم فيا تهبه الطبيعة لابنها « البار » لا يقاس ، ولا يكال ، ولا يزان ، فكل شيء يزان الاّ العبقرية .

وقصارى الكلام ان الادب البارع شهي ، أأدب قصة كان.أم ادب مقالة أم

ادب قصيدة أم ما يخلق النوابغ . الادب كالاثمار التي تخلقها جنينتي . لكل ثمرة طعم ولذة .

●

سئل العقاد عن رأيه في القصة فقال :

« ليس خلو ادب امة من القصة دليلاً على نقص في ادب الامة ، او في ادب الفرد ايضاً » .

لا بدّ لي من كلمة قبـــل المناقشة ، ان في العقاد لباقة الخائط ، ذاك يرفو الثياب وهذا يرفو المقاييس الادبية ، لتطابقَ هيكله طولاً وعرضاً ... فما اشبهه بصاحب المثل السائر ، الذي كأنه لم يؤلف هذا الكتاب الا ليدلنّا على نفسه ، تارة بقلتُ ، وطوراً بأما انا فقلت ...

ادرك العقاد ان شعره كالدينار الأخرس، لا نغمة له ولا ايقاع ، فأخذ يتمدّح « بساطة » الشعر الانكليزي والالماني ، وعدّ فكتور هيغو مجلجلاً بلا رحمة ولا هوادة ، ونسي نكتة الجاحظ في سينيّة ابي نواس : هـذا شعر لو نقر لطنّ .

ولما سئل عن رأيه في القصة ، ورأى ان ادبه خلو منها اخـــذ يتمطّط في الحديث وينافح بالسيف والترس عن ادب الامم والشعوب والجماعات والافراد.

امّا الامم يا استاذ ، فاول أدبها القصص ، والمشترع ، ولو وثنياً ، يفكرّ بقصة الخلق قبل عرض دينه على البشر . فكم عندنا وعندكم من قصص !! الحياة كلها قصة ، ووجودي ووجودك اليومَ قصة — أحسن الله الخاتمة — فلا تخف ان يخلو الادب العربي منها اذا خلا ادبك ، « لا سمح الله ، امـا عندك مذكرات ابليس » .

ثم قـــال : ان كثيراً من اكبر الشعراء والكتـاب نظموا ونثروا دون ان يخطر لهم في بال أن يساهموا في كتـابة القصص » .

إذا أردت القصص كما نعرفها اليـــوم ، فالجواب نعم . امّا خلوّ ادبهم من القصص فهذا شيء ندر ، فلم يخلد عمر ابن ربيعة لانه كان «يحفل بتجويد اللغة» كما ستقول ، ففي المتأخرين والمتقدمين من جوّدها اكثر منه .

ان قصيدته « أمن آل نعم ... » هي اقصوصة اليـــوم الفنيـة لو أحسن خاتمتها ووقف عند :

وآخر عهد لي بها حين اعرضت ولاح لها خـــدٌ نقيٌ ومحجر

ولكن مرض العصر الجاهلي راوده عن فنه فأغواه ، كما اغوت الحية حواء بمكرها ، وما اراه وصف ناقته الا ليفتننا بهذا البيت :

فقمت الى مقلاة أرض كأنها اذا نظرت مجنونة حين تنظر

ياليتك لم تقم اليها يا عمر! ابعد ذاك الفن الممتع تسمعنا هـــذا اللغو — لغو الصيف — بل ليتك سمّرت في ارضك كإمرأة لوط ، تراقب الخد النقي والمحجر ولم تخربش قصيدة كأنها العافية في البدن .

فمن علّم عمر القصص يا استاذ ؟ ان النابغة يخلق الفن ، ولن تخلق الجرومية فناناً . انقلد شعراء الغرب ونقول بالتجديد ؟ لا وآلهة الفن، ان التجديد إلهام، ولا يتأمم الناس الا من يأتي بدعاً .

وقال : « ولولا سهولة القصص، ولاسيما عند الذين لا يحفلون بتجويد اللغة ، لما كثرت الدعوة اليها بين الكسالى الناشئين » .

قلت : جاء يوحنا لا يأكل خبزاً ولا يشرب خمراً فقلتم ان به شيطاناً، وجاء ابن البشر يأكل ويشرب فقلتم هوذا انسان أكول شرّيب للخمر محبّ للعشارين والخطأة» . جوّد البعض اللغة وامامهم الرافعي والزيات والمازني، فقلتم الرافعي عتيــق يعيش في الجاهليــة ، وعيّر طه صديقه الزيّات بسجعه ، وعـــدّ سلامه موسى المـــازني قديماً . وكتب الناشئون فقلتم كسالى لا يحفلون بتجويد اللغة .

أأمست النصيحة تعييراً ، وصرتم ، يا رجـــال الادب كأمراء الاساطيل تحيّون بعضكم بقنابر المدافع .

قال المحدّث : وهنا سألت العقاد لماذا لا يعالج القصة ليرينا شيئاً « مثالياً » في هذا الفن ينسج على منواله الناشئون الذين يصفهم بالكسالى ، ولماذا يخلو ادبه من القصة ؟

فاجاب : « ان كتابي لم تخل من القصة لانني كتبت فصولاً مختلفة بعنوان مذكرات إبليس قبل نيف وعشرين سنة ، ولم ينشر من هـــذه المذكرات غير مذكرة واحدة عن اغواء فتاة ... الخ » .

قلت : لقــد قرأت كثيراً عــن شيطان العقاد الذي فتن أخـــيراً صاحبه طه حسين حتى عدّ قصيدة العقاد ملحمة . ليرحم الله صاحب فاوست ، وشتّان ما بين اليزيدين ...

وقال : « على انني لا اهتم كثيراً بكتابة القصة – قلت: ولا قليلا ، ولا هذا عيب ، ولماذا كل هذا التنصّل – لأنني اعتبرها نوعاً من انواع الادب التي يكثر فيها الاسفاف ويقل السمو ، وهي غير مطلوبة لذاتها ، بل مطلوبة في الأكثر لأنها أيسر منالاً عند الجماهير التي لم تألف دراسة الادب الرفيعة ، ولن ترى في كل ألف قصة وقصة تظهر ، واحدة جديرة بالقراءة والبقاء » .

امّا كثرة الاسفاف وقـــلة السمو فهذا صحيـــح بالقياس الى طغيان ادب القصّة ، ولكن أليس الامر كذلـــك في كل فن ؟ امـــا في الشعر اسفاف ... هلا ذكر الاستاذ كثرة المواليد وقـــلة النوابغ ؟.. فهـــل ينصح النساء ألاّ تحبل وتلد ؟ ! فليكتب هـــو شيئاً سامياً ، فمثل العقاد لا يسعى لنـــا في اطفال الشؤون .

ان المتمشرقين ينظرون الى القصة كأنها الادب كـــله ، وما ظفروا حتى الساعة بقصّة مصرية بل عربية تستأهل الجلوس على الرف بين طرائف البيت . فيا يصد العقّاد عن هـــذا وهو ذو فن يطمح الى اخلاده بكل قواه ؟ وامّا ان الرواية ايسر منالاً عنـــد الجماهير التي لم تألف الآداب الرفيعـــة ، فلمن كتب تولستوي ، ودوستفسكي ، وتورغنيف ، وغوته ، وملتون ، وفلوبير ، ودانت ، وبو ، وفرانس ، وماريه ، وكبلنغ ، وشو ؟ وأخيراً جـــول رومان الذي احتفيتم به في هذا الشتاء ، وشغل المثقفين من سكان مصر اسبوعاً كاملاً كأنه عيد من اعياد الثقافة العليا ، وكأنكم بتحدثكم اليه قد تحدثتم الى العقل الافرنسي كله » ، الى ما هنالك من كلام صاحبك طه .

مسكين طاغور يكلف نفسه كتابة القصة وهي ليست من الآداب الرفيعة يكثر فيها الاسفاف ويقل السمو ، بل مـا أغبى جماعة جائزة نوبـل ، كيف يمنحون القصصيين ذلك المبلغ الضخم !

والآن كما بدأنا هـذا الامر نعيده : وان مقاييس العقاد في الكم والكيف مفصلة عليـه ، فما خلا منـه أدبه فذاك شيء لا يعتد به ، وليس من الآداب الرفيعة فهب يا استاذ ان ما تكتبه منزل ، فما شرط هـذا على الرسل ليؤدوا رسالتهم ، ولا يتدللوا على الله مثـل هذا التدلل . نوّرنا يا استاذ ، نوّر الله وجهك ، حقاً انك متمنّت .

وبعد ان وعـد الاستاذ ، لو توافر له الوقت ، بتدوين كثير من تجاريبه وملاحظاته بقالب قصة – نتمنى الا يكون قاسياً – قال : « اما الآن فحسبي ان أؤدي في امانة الادب ما انظم من شعر وما اكتب من فصول او مؤلفات » .

قلت : يا ليته قدم النثر على الشعر فنثر العقاد أشعر من نظمه .

اقول هـذا ، ولا ابالي ، اغضب العقاد ام رضي ، فقد واثقت نفسي يوم اقدمت على تدوين هذه الفصول ان اكتب للدهر العتيد ، وبدأت بمن لا اعرف حتى اذا جاءت نوبة من اعرفهم عذروني وتأسّوا .

●

وسأل المخبر عينه مصطفى صادق الرافعي لماذا لا يكتب في القصة ، فأدلى اليه بمقال عنوانه « فلسفة القصة ، ولماذا لا اكتب فيها » (الرسالة عدد ٤٠) .

افتتح الاستاذ مقاله بأنه وضع كل كتبه ومقالاته في قصة بعينها هي قصة العقل الذي في راسه ، والقلب الذي بين جنبيه ، ثم شارك زميله العقاد في تقريع كتّاب القصة بمصر فقال :

« فقام عندنا المتابعون في الرأي والمقلّدون في الهـوى والضعفاء بطبيعة التقليد والمتابعة » . ثم قال : « انا لا أعبأ بالمظاهر والاعراض التي يأتي بها يوم آخر » . الى ان قال : « ولذا لا أمسّ من الآداب إلّا نواحيها العليا » .

وأدب الرواية ماذا يا استاذ ؟ حقاً ان عنب هذه الدالية مزّ ...

وقال ايضاً : « ثم يخيل اليّ انني رسول لغوي بعث للدفاع عن القرآن وفنه وبيانه » .

الحمد لله لم يؤمر العقاد ، فلو أمرناه لكنت رأيت يا رافعي . . . لكان والله فعل في وادي النيل ما فعله لؤلؤ نائب الاخشيد في بادية السماوة ...

فلا تتمنّ الدفاع عن القرآن، فالذي حفظ الأمة واللغة ، حتى سمعناك ناطق بها ، يغلب وحده كل جيش من لحم ودم . ألم يأتك نبـــأ فتحة اليابان ، فقد آمنوا به ، وما اطلعوا على كتابك « اعجاز القرآن » ! !

ثم قال : « أنا من أجل ذلك أراني الى الآن مع الأدب العربي في فنه وبيانه اكثر مما انا مع الحكاية ولغيها وعواطفهـا . فاكبر عملي اضافة الصور الفكرية الجميلة الى أدبنا وبياننا ، متحاشياً جهد الطاقة ان انقل الى كتابتي دواب الارض ودواب الناس الخ » .

حاشاك يا استاذ ، ولكن كيف غابت عنك وانت الرسول اللغوي ؟ ان الله لا يستحي ان يضرب مثلاً ما بعوضة ! الا فاسلم لادبنا وبياننا والصور الفكرية الجميلة. يحسبنا منك دواب الارض ودواب الناس. حقاً انها لصورة فكرية جميلة.

اما ما سقته في مقالك عن القصص الرديئة فرأيك كرأي كل ذي لبّ، وكل إنسان يعرفه بالبديهة ، فالأدب كالطبيعة فيها الترياق وفيها السم . وفي الاديان ـ وكلها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ـ ما هو إلهي ومـــا هو غير إلهي ، فكيف بالأدب !

ثم قال ،ويا ليته قال هذا واراحنا : «ان في القصة ادباً عالياً ...ولا ينبغي ان يتناولها الا الافذاذ من فلاسفة الفكر ، والاعلام من فلاسفة البيان » .

ألست انت منهم ؟ فقد كتبت والعقاد مقالات فلسفية حملت المازني ان يقول في صددها: والآن فلنتفلسف،وفلسفتنا هذه جديدة،الا انها مستمدة من سوانا. . . (قبض الريح ص ٦٢) .

ثم تلوّى الرافعي ولدغ كتّاب القصة بقوله : « امـا من عداهم ممن يحترفون كتابة القصص فهم في الادب رعاع وهمج ، كان من اثر قصصهم ما يتخبط به

العالم من فوضى الغرائز » .

الغرائز غرائز يا استاذ ، بقصة وبلا قصة ، والغرائز هي التي خلقت القصة ، ألا فاكتب لنا انت ما يكبت هذه الغرائز ويتسامى بها ويخمد فوضاها ، فانت من سراة الادباء ، ولا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ...

وبعد ، فما تقول بقصة يوسف ، وقصة بوعز ، وقصة داود « ابو التسع والتسعين » وقصة سوسنة ، وقصة راحاب ، وقصة يهوديت ، وقصة دليلة ، وقصة قوم لوط ، وقصة تامار ... اما كل هذه في التوراة ، والتوراة كتاب مقدس ؟

ولكن الرافعي كزميله العقاد يريد ان يطعن في كتّاب القصة المصريين ، فكلهم شباب ما خلا بضعة نفر ، ولهذا ختم فلسفته الطريفة بقوله الرائع :

« اذا قرأت الرواية الزائفة أحسست في نفسك بأشياء بدأت تسفل ، واذا قرأت الرواية الصحيحة أدركت من نفسك اشياء بدأت تعلو » .

اللهم غفرانك ! أيخطر في بال غـــير المهلوس العقل ان يلتمس منك ومن العقاد بابة تسفل ؟ فحانيكما بعض شيء من بابة تعلو ، وانسفا هذه الآداب ، آداب تسفل ، حتى لا نرى فيها عوجاً ولا أمتاً .

ألأن ادبك خلا من القصة ، اللهم الا قصة عقلك وقلبك ، يصبح كتّاب القصة — الا من استثنيت — رعاعاً وهمجاً ، ويتنزه قلمك عن وصف دواب الناس ؟ فما هكذا ينظر كبار الكتّاب مثلك الى الناس . لقد كان اجمل بالصحف ان تتنزه عن عرض هذه الحضارة الرديئة لتبيعها من الناس كأنها طازج . ولكن ما الحيلة في اسواق لا تراقبها بلدية ولا « صحيّة » ؟ بل ما العمل بكم ؟ ففي عنقكم رقبة الشهرة فاستعصيتم على النقد . دامت لكم خرزة العين .

●

هذان رأيان لكاتبين كبيرين من ادبائنا ، وشاعرين ايضاً ، بل نموذجان من ادبنا العصري ، واحد عتيق وآخر جديد ، ثكلتني أمي — رحمها الله — ان كنت اعرف الجديد منهما .

حاشية : هوّنها الله علينا فحاول الرافعي — ولعل العقاد حاول ايضاً ولم أدر —

كتابة قصة (الرسالة عدد ٥٦) إلا انها لم تخرج بعد عن قصة عقله وقلبه . . . فهي ليست من الفن القصصي .

ان هذا الفن يحتاج الى اداتين : الطبع اولاً والمزاولة ثانياً . اما المزاولة فلا اضمنها، فقد فات الوقت، إلا اذا كتب قصة حياته فقد يجيدها كما اجاد طه حسين «الايام» . واما الطبع فما تحسسته ، وقد تكون الاولى منه فخدعتني عن نفسه ، اقول هذا ولا أقطع ، وأترحم على القائل : ما اهون الحرب على النظارة .

القصة المصرية بين الشبان والشيوخ

ان القصة المصرية تنشب جذورها في تربة الادب المصري في ثبات، مهما صادفت من صعاب ونكران جيل جب

كيف تستأصل شجرة غارسها ضعيف ومقتلعها عنيف! أنّى يكون لنا هذا وعلى بصائر متزعمي الادب غشاوة صفيقة، وفي ابصارهم قصر لا تصلحه الف زجاجة مقعرة من مصنع «زيس»... ان في نفوسهم لصبوة بجنونه الى «الكلبّة»، فهم، كما يتوهمون، شعراء وكتاب ونقاد، ومؤرخون وفلاسفة وعلماء في كل فن حتى اللاهوت. وصحافيون وسياسيون ودكاترة وشيوخ في آن واحد، بله التبريز والاستاذية. فكيف نحتال لهم لنقنعهم ان العصر عصر اختصاصيين او اخصائيين على لغتي الشيخين: البستاني والمغربي.

فاذا قلت امامهم ان ادب القصة نافقة سوقه حاولوا ان يقطعوك بالحجة، وجبهك الرافعي «بشيء يعلو وآخر يسفل». ويا ليت هذه الكلمة التي راح يمضغها كانت من عنده، ولكنها للعم «لابروبير». نقلهـــا الرافعي الى لغته فتبنّاها كما يتبنى هو وغيره من اعلام ادبنا «بنات الموالي»... ولولا يعترفون بالتسري ويقفون عند حد لهان علينا الامر، ولكنهم يحركون من يناضل عنهم كلما هبّت زوبعة، ويحاولون افهام الناس ان الريح راكدة، بينما العاصفة تكاد تقتلعهم لولا تماسكهم.

فما يضرّ العقاد لو انصرف الى النثر، وفي ابحاث لا يتعداها، واذا كان يجهلها او يتجاهلها دللناه بالاصبع عليها. أيغصب نفسه على الشعر؟ «فيارب» قضى العمر ناحتاً وما أخرج تمثالاً تتردد فيه روح الفن والعبقرية... والعقـــاد رغم اخلاصه لفنه وتضرعه لربة الشعر لم يوحَ اليه بعد ببيت يدور على ألسنة الناس.

ربما لا تكون الرواية دليلاً قاطعاً على الادب الرفيع في نظر العقاد ، وهو ينتظر الخلود المخبأ – بعد اطول العمر – بين ثنايا الاجيال العتيدة ، اما نحن فرأينا : ان العيون تنم عن الحيوية المتقدة، وعيون شعر العقاد ينقصها البريق والفتون، فلا بريقها يغري ولا فتونها يغوي ، فحرام ان ينصرف عمره في هذه الرياضة، فهو لن يصير من الجبابرة .

وما ضرّ طه حسين لو انصرف الى الترجمة «جهرة» ، والنقد العام لا التطبيقي ، والدراسات الفردية – كما اشار عليه المازني منذ اعوام – واختص بتاريخ الادب العربي وتمحيص الرواية ، ولو غوى مع الكثيرين من المتشرقين وهام في أودية مرغليوث ...

وما ضرّ المازني لو لزم اسلوبه الفكاهي وقفّى على آثار مارك توين وأضرابه؟ فلا خوف على شهرته ولا هو يحزن اذا أدّى رسالته بامانة .

وما ضرّ حسين هيكل لو جاور انقاض هياكل ايزيس وأبيس وسميراميس واختصّ بأدبه الفرعوني وقصصه ، ولو طلست الوانه المصرية وشاهت لهذا التعمّد وتتالي الاصباغ .

وما ضرّ سلامه موسى لو اختص بأبحاثه الحديثة فأتم رسالة الشميّل وصرّوف ونمر ؟

وما على الرافعي لو ظل « تحت السلاح » للدفاع عن التقاليد والعادات يردي من يتخطى التخوم رشاش مدافعه وبندقياته ... ثم لا يتزحزح من مكانه؟ فمقاله « لحوم البحر » ممتع حقاً .

فلو حصر كل واحد من هؤلاء الادباء نفسه في نطاق لا يتعداه لترك في الادب العربي أثراً . هذا اذا اقلعوا عن خطتهم المعهودة وفكروا كثيراً . فأدبهم « الانشائي » بل انتاجهم الشخصي ضئيل جداً ، وكلما تقدمت بهم السن شاخت فكرتهم وقلّت بضاعتهم وتبخرت بحيراتهم ونصل صباغهم وأنسلوا ذرية ضعافاً – بينما هتلر وعلماء الاجناس يقولون بالتعقيم – فماذا يكون لو بلغوا أرذل العمر ؟

لقد مللنا حديثهم ، فما كتبوه – إلا أقله – لا يخرج عمّا يقول لنا الدليل حول

الاهرام ، وبين انقاض قلعة بعلبك ، وأنس الوجود ، وليس هذا بالادب الخالد. ان ما ينقلونه الى لغة العرب يعثر عليه كل طالب ألمَّ بلغة أجنبية. فكرت طويلاً فلم أجد لهذا الجمود سبباً الا عصمتهم البابوية ، وتوهمهم ان قراءهم مغفلون يلهونهم بزجاجة حمراء او قطعة ارجوانية ، كما كان يفعل الفينيقيون بالاوربيين، رحم الله ذاك العهد . لقــد توكأوا على الشهـرة ، والشهرة كالسياسة تفسد الفن ، فقلَّ اخلاصهم لفنهم وتفه محصول كهولتهم ، رزقهم الله شيخوخة خصبة .

فبينما يقول المتشرق « جب » مستنبطاً ومتابعاً : ان الشعر الافرنسي والايطالي متأثر بالشعر العربي الاندلسي، وان غوته متأثر بالادب الشرقي، يقوم فينا مقلّدو غوته وغيره، فيقولون: ماذا قال شعراء العرب؟ ان أدبنا سطحي.

أليس عندنا يا اخوان مؤونة شياطينية؟ فمن عندنا هاجر شياطين غوته وغيره من الذين تتمطقون بذكرهم . التوراة والانجيل بين ايديكم وفي متنــاول كل منكم . أليس شيطان ايوب وشيطان المسيح افضل من شيطان فوست؟ أليست رؤيا يوحنا أمرع من ملهاة دانتي ؟ ان في كتبكم التي تؤمنون بها موحى دونه جبال برناس ، ومرعى خصيب للنفوس الجائعة فأين روادكم ؟

ليس ما ترك الاولون سطحياً ، انما نحن كمن يسكن قصراً دهرياً كان حديث عصره وآية زمانه ، فتركناه على قدامته ، ولم نفتح به باباً او شباكاً او نافذة ، نطلّ منها على الدنيا ، ثم اخذنا نشكو ثقل الهواء ، وعفونة المسكن ، وتداعي الجدران واحداً بعد واحد . هجرناه وتركناه للناس يقلّدون طرازه وينقّحون فيه منقّبين في صحونه وجدرانه عن نقوشه وفسيفسائه ، وقــد حيّرتهم هندسته وبراعة بنائه ، فأدهشهم الفن الحي .

هجرناه لنسكن بيتاً جديداً مبنياً بالآجرّ ، هجرناه وقد اغلق علينا سرّ فنه. هجرناه لاننا لا صبر لنا ولا جلد على الترميم . يعوزنا العزم لنصلح ما افسده الدهر . فما اشبهنا براعٍ وجد في خرائب جبيل ديناراً اثرياً قال له الاخصائيون هذا فلس ، فصدقهم وباعه بما باع به عيسو بكوريته . ويضرب الله الامثــال للناس لعلهم يتذكرون .

يقرر جيمس بريستد المتشرق العظيم ، « ان انخذال المسلمين في اسبانيا كان بمثابة انهزام المدنية امام الهمجية » . ويقول السر تشارلس بارتيس في آخر تاريخ اسبانيا : «ان عصر الآداب الاسلامية فيها كان من ازهى عصور امتزاج العناصر في تاريخ الحضارة ، ويقوم اصحابنا ينددون ويهدمون القصور الشامخة ليبنوا بحجارتها « مواقدهم » . يرحم الله ابن خلدون » .

ويقرر المستر جب : «ان النثر العربي اخرج نثر اوروبا في القرون الوسطى من جموده وصرامته التقليديين ، بما منحه من خياله الذي يشبع الحواس » . ونقرر نحن ان الخيال العربي ضعيف متابعين اوليري ، ناقلين عنه ، متمسكين باهدابه كالاعمى بقائده ، ناسين ان جاحظنا كان يخطىء ارسطو كما كان يكذب الاعرابي متى لاحت له في شبهات البحث بارقة يقين .

ويقول الاستاذ جب : « اسمع العرب اوروبا حكايات السندباد البحري وما اليها ، فكانت خميرة للادب الخيالي الاوروبي الجديد الذي زحزح الادب التقليدي وحل محله فنشأت في اوروبا الروايات الرومنتية» . ويقول العقاد : « لا ضير على ادب الامة او الفرد اذا خلا من القصص » . والقصة بكل انواعها عندنا ، حتى الشعر المطلق الذي يحاول أدباء اوروبا اليوم ان يوجدوه ، عمله ابن العميد ومتابعوه ، وان اخرجه المقلدون عما وضع له ، فكتبوا كل شيء بالسجع حتى التاريخ ، فساءت صنعته . الا ان آفة الفن التقليد .

ويقول جب : « ان قصة الف ليلة وليلة التي ترجمت سنة ١٧٠٤ كانت اقوى عضد للادب الخيالي ، ففتنت اوروبا وقلدها كتابهم في قصصهم فاشبعوا نفوس الامة وميول العالم ، واتلدت منها قصة روبنصن وجيلفر الخ .. . اما نحن فخبصنا صحيح الآراء بفاسدها ، والخبيصة اكلة عربية تشتهى .

أيشبع الناس من الفتات المتساقط عن موائدنا ونحن اجوع من اليعازار ؟
أيقوم كبار كتابنا ويقولون لا ضير على أدبنا اذا خلا من القصص وادبنا كله قصص؟

اذا قلنا لا قصة عندنا اليوم صدقنا ، اما قديماً فلا والف كلا . أكلكم توما يا أدباء العرب ؟ هاتوا اصابعكم وكونوا مؤمنين .

لقد اخزانا هؤلاء المتمشرقون، فبينا هم ينقبون عن آثار آبائنا وتراث اجدادنا ويدرسون مخلفاتهم، ترانا في غفلتنا ورحى التنابذ تطحن، يشوقنا ان ننصّر امرىء القيس او نوثّنه، والاخطل النصراني قال منذ ثلاثة عشر قرناً: الادب لا دين له. ونحن اليوم لا يعنينا من الادب الا الاشادة بذكر فلان وطمس ذكر فلان، وكلنا يبهر ابصارنا بهرج الشهرة القائمة على مثل قول النابغة: انت اشعر العرب يا ابن اخي. وكم قالها وهو ماشٍ، فأرضى الناس امس، واضحك ابناءنا اليوم على مقاعد المدرسة. ما اشبهنا بتلك القارورة التائهة في عرض البحر المتوسط بين فينيقيا ومصر يوم كانت جبيل اورشليم العالم الوثني.

ألم ينبعث توفيق الحكيم بغتة كرجال كهفه، فرأى عالماً جديداً لاعهد له به ولم يتصوره في احلام يقظته. ثم شبّ واجتمع أشدّه بطرفة عين كابطال صاحبته شهرزاد، بينا غيره يصرف العمر ولا يتمتع بما تمتع به هذا، ولماذا ؟ لا يجيب على هذا الا طه حسين، ونحن بالاستقراء.

وحدثت توفيق نفسه ان يشق عصا الطاعة ويخلع عن عنقه غل طه، فانتصب «ارميا» وحاول ان يكسر الجرة على عيون الرجال، ويجعل المدينة خراباً وصفيراً، (ارميا ١٩/١٠) فكتب طه روايته توفيق الحكيم (الرسالة عدد ٥١ ص١٠٦٣) « الاديب الحائر ». ولكن لباقة توفيق الحكيم في رده على ولي نعمته طه، وختام رده البارع اذهبا حفيظة الدكتور لتوفيق، فصب جام سخطه على رأس صديقه الزيات، (الرسالة عدد ٥٣ ص ١٢) « بين اسلوبين »، فدار على لسان الامامين ذكر سجع الزيات وثرثرة حسين، والسجع المطبوع خير من الثرثرة المملة، ورب كلمة جاءت عفواً خلقت حولها اثيراً بديعاً غرقت فيه المعاني القاتمة.

يقول المسيحيون في صلاتهم « الابانا »: كما في السماء كذلك على الارض، ونحن نقول عن انفسنا: نحن نحن في كل دهر، كما في السياسة كذلك في الادب، أما تعصبنا امس للاسرة، فالقبيلة ثم للبلد ثم للاقطار؟ ان هذا دأبنا اليوم، فقبالة البصري والكوفي المصري والسوري، فكأنما كتب لهذه الامة ان تتفرق ابداً شيعاً حتى في الادب الذي لم تختلف فيه امة الا بما يختلف به الجنود من سمات

وشبات للطغمات والفيالق ، وكلها للوطن .

الامة في آدابها كالجسم ، يتألف من اعضاء شتى تختلف اسماء وتلتئم لتؤلف شخصية مستقلة هي «هو» اما نحن فلا نعرف حتى «نحن» بل كلنا يقول «انا» . وأنا لا تؤلف مجموعاً ، ولن يصير الفرد أمة مها ضخم نبوغه وتسامت عبقريته .

والا فكيف نؤول هذا النزاع القائم في مصر حول القصة؟ فماذا يضر الاستاذ عزمي الدويري ومشايخه اذا روّج ادباء الشباب للقصة والفن القصصي ، وقالوا ان القصة اسمى ضروب الادب ، واشيعها ، واخلدها ، حتى يقول عنهم: اولئك الجهال الذين يسمون انفسهم « كتّاب الشباب » .

أأميون هم يا ترى ، أهم شيوخ ؟ عرفت احدهم بحلب فما هو شيخ ولا هو امي ، انه لشاب ظريف لطيف . ان الشباب سيصيرون شيوخــاً فما ضركم لو تمتعوا بكلمة «شباب» في حينها كما تمتعتم بها من قبل ايها الاجلاء ؟ فالمازني تباهى بها يوم قال كلمته في شاعرية زكي مبارك .

أما قول الدويري ، ولا أدري من قال له هذا : « ومن هنــا كانت القصة بين الصيغ الادبية الصيغة الوحيدة التي لا يتطلب التبريز فيها مزية خاصة » .

نعم نعم ، اذا كانت كحكاية ستك يرحمها الله ...

أما القصة التي نحن في صددها وننشدها فلا يحسنها الا العبقري الذي خلق لها . والا لكانت كل القصص خالدة ، وضاقت جنة آلهة الفن على عبادهــا الصالحين والأولياء الصديقين .

أريد ان اقول لك ولأدبائنا «الغزاة» من هو الروائي؟ اسمعوا غير مأمورين:

الروائي خالق مبدع ، ومصور مثال ، وشاعر كلي الخيال .

الروائي الفنان النابه يخلق عالماً يتحرك وينطق ويحيا ويخلد ، وبخلوده يخلد الفنان ، فالحياة والخلود متبادلان بين الروائي وشخوصه ، تبادل الثناء والتقريظ بين متزعمي الأدب عندكم .

ان ما يخلقه الفنان ويهب له جزءاً من حياته يحيا الى الابد ، ولا يعطش الى الابد من يشرب من ماء بئر الفن ، كما قال يسوع للسامرية .

ان ما يخلقه الفنان يتحرك كلما حركته يد مفكرة او تداوله لسان، ان بين دفتي كتب القصص الخالدة عالماً يتحرك كالبحيرة النائمة اذا داعبها النسيم .

الروائي الفنان يجعل روايته ساحة لعالمه، فتتمثل لك شخوصه بشراً سوياً، وتنتصب حولك كالجبابرة حول سرير الشاعر العبراني، الملك الحكيم، فلا تعود تعلم اين انت . فقد يحملك الرخ، وقد تركب بساط الريح، وتلبس « القبع الاخفى » . قد تدخل حتى اعماق النفس البشرية فتتغلغل في احشائها، فترى كوائنها أدقّ مما يريكه المجهر، وابعد جداً مما تراه في التلسكوب .

الروائي الفنان الشاعر ينقلك الى الساحة التي خلقها فترى البيوت والاسواق والجبال والاودية والانهار، والسماء والنار، والارض والفضاء، والكواكب والنجوم في رابعة النهار .

الروائي الموهوب يخلق اشخاصاً تنقصها الروح ولا تنقصها،فهي تتقمص روح قارئها فتحيا حيناً، كما عاشت زمناً مع من انشأها وابدعها، هذا اذا كان مثله، ولا يتوهم مثلك ان الرواية لا يتطلب التبريز فيها مزية خاصة .

هكذا تتجدد حياة العالم الذي يخلقه الروائي المبدع المصور الشاعر، واذا ترك نام حتى يوقظه مفكر فيحيا بروحه آونة ثم ينام ثم تظل شخوصه تنتقل من روح الى روح الى يوم يبعثون .

تقول : «ان القصة في انكلترا على الأقل اخذت تحتضر، فهذا ولز القصصي العظيم قد رأى اخيراً الخ ... والخلاصة عدل عن الرواية الى تأليف الكتب» .

ان احترامي الفائق لولز وشبنهور كم وغوتكم ومن اليهم من اساطين ادباء العالم لا يمنعني ان اقرر واقول : ما هؤلاء الا متقدمون في الاخوة من خدمة الهيكل وسدنته، فما ولزكم إلهاً أن هو إلا بشر، بل فرد من أفراد نوابغ الأدب، والفرد لا يؤلف أمة، والأمة، ولو كانت الشمس لا تغيب عن ملكها كانكلترة، او كان ملكها كالرشيد يوم خاطب السحابة، لا تؤلف العالم. فلا تخف ان تقوم القيامة اذا سمعت بزلزال في اليابان. قل لمشايخك اكتبوا فما اخرجت الارض اثقالها... ان مشفر البعير لا يقع مهما تدلى، فلا تكن كإعرابي تلك الحكاية ... خبّر

جماعتك ـ الكلام في سرك كما روى لنا العقاد عن زغلول ، رحمه الله ـ ان خلوّ ادبهم من القصة ليس بعيب . انما العيب الا يكون عندنا قصصيون ، ونحن من علّم اوروبا هذا الفن . لقد طعّمنا الأدب الاوربي يوم كان بريّاً فصيّرناه بستانياً ، فلان ملمسه ، ولذّ وطاب طعمه ، فاشبعنا النفوس الجائعة .

العيب يا صاحبي ان يقال عن سوريا « أهراء رومية » وهي عاجزة عن تموين أهلها ...

إنما العيب ان يتناول المستر جب تاريخ نشوء القصة المصرية ويتتبع تطورها فتخرج من يديه كصُبيرة طومسن ... ولا يرى غير قصة «زينب» قصة مصرية بالمعنى الحقيقي . ثم يعيب خطتها التي لا تكفي ٤٠٠ صفحة ، ويعيب اشخاصها التي لم تركّب بدقة كافية ، ويعيب تصويرهم بطريقة درامية ، لانه جاء ضعيفاً في الجملة . ويعيب طول الوصف ، والقصص الاستطرادية التافهة التي لا تمت الى الرواية بصلة ، ويسوؤه ضعف الخيال ، والحوار باللغة العامية .

لنا احتجاج على الاستاذ جب مع متابعتنا له وشجبنا معه لغة الحوار بالعامية . ان لغة الحوار ايها الاستاذ الجليل مشكلة لم تحل حتى في اوروبا عندكم حيث تتكلمون ـ تقريباً كما تكتبون ـ . فكن رحيماً . اما جماعتنا فنقول لهم : ان جي دي موبسّان استعمل لغة الاقاليم احياناً ، بيد ان هذا لا يبرر استعمالنا لغتنا العامية ، فبين الاثنين فرق عظيم ، وانتم كما نعهد لا تكتبون للمصريين «فحسب» بل للعالم العربي أجمع ، وهذا العالم لا تربطه الا اللغة الفصحى . أما اذا كنتم لا تزالون تدعون لاستقلال الادب الفرعوني الناجز ، فاقطعوا هذا الخبط ...

والى الدويري أعود فأقول : القصة عمل فني جبار ، لا كما توهمت فقلت سابقاً . ألم يرَ البروفسور جب في روايات نقولا حداد حركة سريعة ومواقف رائعة ، ثم عاب خطة قصته لانها مفككة ، وتعوز اشخاصها قوة التصوير . اما رأى ان زيدان والمنفلوطي لم يمثلا الهيئة الاجتماعية تمثيلاً صحيحاً في الألفاظ ، وطريقة التعبير عمّا في النفس وخصوصاً في الحوار ؟

أما قال عن قصة « ابرهيم الكاتب » للمازني ، والمازني وهيكل في نظري

ادنى الكتّاب المكتهلين الى ادب القصة : انها لم تحقق ما كان ينتظره المرء منها بعد تلك المقدمة ، وانها ليست قصة مصرية كما افترض المازني ، فبطلها شخصية غربية تنطبق على النزر من المصريين ، والقصة بكاملها غربية في المشاعر والمثل العليا، والمسحة الأدبية والموضوع . ودراسة عاطفة الحب فيها غربية لا شرقية، ومظاهرها الخارجية ايضاً من حيث الشكل والأسلوب . ومن امثلة ذلك : كثرة استعمال المجاز والجمل الغربية . واغرب من ذلك كله جرى المؤلف على طريقة اقتباس فقرات من الانجيل في راس كل فصل .

حاشية : ليست الفقرات من الانجيل كما قال جب او المعرب ، بل هي من التوراة . ويظهر لي ان المازني اخذها من الترجمتين العربيتين ، بل المرجح عندي انه نقلها من لغة اجنبية واظنها الانكليزية .

واخيراً قال جب «تأدباً»: ان رواية ابرهيم الكاتب متأثرة بالأدب الروسي. أما الحقيقة فهي ان في رواية المازني فصلاً يعدّ ترجمة حرفية لخاتمة القصة الروسية — رواية سانين — .

أليس من المخجل ان يروي جب ان احد المجددين عندكم قال، منذ سنوات: ما هذه المناقشة الطويلة حول القصة ، لقد سار الأدب العربي بدونها في الماضي ولم ينقص ذلك من قدره. فما هي الا مثل جديد من أمثلة تقليد الاوروبيين الخ...

يا للفضيحة ! ألم تكن القصة عندنا بكل انواعها ، فمَثَلُ من ينكر علينا القصة اليوم كمثل من ينكر على الملكة فكتوريا الرقي والتمدن لانها كانت تلبس من القماش ما يكسو عشراً من ملكات اليوم . او كمن يقول ان لويس الرابع عشر وفولتير امرأتان لأنهما استعارا الشعر الطويل ! !

الخلاصة على الشباب ان يحاولوا ، فالغد لهم لا لنا. ذروهم في غيّهم يعمهون، فلعل مغامرتهم في هذا الفن تنجلي عن روائي عبقري . انهم يحاولون ملكاً او يموتوا فيعذروا ... الا فاحسبوهم عمالاً في مصنع فاذا انقرض المتمرنون انقرض الأساتذة الكبار . فهل من يزعم ان الطفل يمشي فور انتصابه على قدميه ؟ ألا يقع مئة مرة قبل ان يدرج ! !

اركوهم يكتبون فلعلهم يوفقون ، فلا يقول الأستاذ جب فيا بعد : « القصة المصرية ،وخصوصاً الأقصوصة ،تقف اليوم في منتصف الطريق... فلا هي حافظت على الصبغة العربية ، والخيال الشرقي الذي يمتاز بكثرة الحركة وتنوع الخيال ، ولا هي وقفت في صفوف القصص الأوروبية . فاكثر القصص المصرية يشع من جوانبها إسهاب في الوصف بما يضجّر القارىء ويدفعه الى الملل والتبرم . وقد حاول بعضهم ان يركز في قصته اكثر من حادثة ، فأخفق . ولهذا أرى — أي جب — ان التقليد في القصة المصرية اكثر من الخلق والابتكار ، وان البعض جاء بدون لغة الحوار التي هي روح القصة » .

هذا ما خطه القلم منذ اعوام بعيدة ، وقد حقق الشباب ، بعده ، شيئاً مما رجوناه ، وان لم يستولوا على الأمد .

قال الاستاذ ابرهيم المصري ، في ذلك الزمان ، رداً على جب : ان القصصي المصري لم يخلق بعد . فقلت له : لا تيأس يا ابرهيم ، وقل معي : ويخلق الله ما لا تعلمون .

واظنه قد خلق ... وما على هذه المخلوقة ان لم تكن ملكة جمال ؟ !

أشياخ الأدب في مصر

اغضبنا عبّاد «الاصنام» من أجل «التوحيد» الادبي فانهالت علينا الرسائل سوداء وحمراء ممن يفكرون بعقول جيرانهم مستهجنين نقدنا ، تارة يسمونه تحاملاً وطوراً يعدونه تهجماً ، ونصحوا لنا ان نتناول غير مشيخة ادباء مصر الوقر ، فيدنا اقصر من ان تنال الثريا . . . فصبرنا على هذه المطمطة ولا نزال ، وكتبنا وسنظل نكتب ، يعزينا اخلاص المنصفين ـ ومنهم كبار المتمشرقين ـ وان ضميرنا مستريح .

يتساءل بعضهم : لموضوع المجترين بقية فأين هي؟ نعم يا اخي للحديث بقية ، ولكن ألا ينقطع مساق حديثك اذا بدا لك ما يهمك اعلانه . فحديث المجترين كان قد تم لو لم يستوقفني مقال في « المجلة الجديدة » لسلامه موسى ـ المهداة الى ابني نديم من رفيق له ـ عنوانه « خصائص الأدب والادباء » نقلته المجلة عن « الفجر » أما كاتبه فالاستاذ محمود سيف الدين الايراني .

أما منو الايراني هذا ؟ فالجواب انني قرأت لهــــذا الاسم في « السياسة الاسبوعية » ، وفي مقاله الذي انقل لك نتفاً منه يرى حضرته رأينا في «متزعمي» الادب الذي يريدون تسميته مصرياً ، وما هو الا أدب عربي بلحمه وعظمه ، ولا أشبهه الا بالماء المتلون بلون الاناء .

تناول الايراني الكتّاب عينهم : طه وهيكل والمازني والعقــاد وسلامه موسى ، وفصّل ما أجملناه . أما كلامنا فإليك بعضه :

«فما يضر العقاد لو انصرف الى النثر وفي ابحاث لايتعداها ، وان كان يتجاهلها او يجهلها دللناه بالاصبع عليها . أيغصب نفسه على الشعر ؟ الخ . . .

«وما ضرّ طه حسين لو انصرف الى الترجمة «جهرة» والنقد العام لا التطبيقي ، والدراسات الفردية ـ كما اشار عليه المازني منذ اعوام ـ واختص بدرس تاريخ

الادب العربي وتمحيص الرواية ، ولو غوى مع كثير من المتشرقين ، وهام في أودية مرغليوث ...

«وما ضرّ المازني لو لزم اسلوبه الفكاهي وقفّى على آثار مارك توين وأضرابه فلا خوف على شهرته ولا هو يحزن اذا ادى رسالته بأمانة ...

«وما ضرّ حسين هيكل لو جاور أنقاض ايزيس وأبيس وسميراميس واختص بأدبه الفرعوني وقصصه ، ولو طلست ألوانه المصرية وشاهت لهذا التعمّد وتتالت الأصباغ .

«وما ضرّ سلامه موسى لو اختص بأبحاثه الحديثة فأتم رسالة صروف ونمر .

وفلو حصر كل واحد من هؤلاء نفسه في نطاق لا يتمداه ترك في الأدب العربي أثراً ، هذا اذا أقلعوا عن خطتهم المعهودة وفكروا كثيراً ، فأدبهم الانشائي بل انتاجهم الشخصي ضئيل جداً ، وكلما تقدمت بهم السن شاخت فكرتهم ونصل صباغهم ، وأنسلوا ذرية ضعافاً - بينا هتلر وعلماء الأجناس يقولون بالتعقيم - فماذا يكون لو بلغوا أرذل العمر » .

لقد مللنا حديثهم ، فما كتبوه ، إلا أقله ، لا يخرج عما يقول الدليل حول الاهرام وبين انقاض بعلبك وأنس الوجود وليس هذا بالأدب الخالد . ان مـــا ينقلونه الى لغة العرب يعثر عليه كل طالب ملمّ بلغة أجنبية ... لقد توكأوا على الشهرة ، والشهرة كالسياسة تفسد الفن ، فقلّ اخلاصهم لفنهم وتفه محصول كهولتهم ، رزقهم « ربنا » شيخوخة صالحة .

أما كلام الاستاذ الايراني فإليكه محوطاً بهلالين :

« انما يعنينا ان نتقصى جهود طه حسين والعقاد وهيكل والمازني وسلامه موسى ومن اليهم ، فهل نلمس في اعمالهم صور الحياة المصرية ؟ »

نعم نلمس هذا : أدب مصري ، أدب فرعوني ، قصة مصرية ، صورة مصرية ، مصرولوجي الخ. وان تتقصّ ، كما تزعم لنا ، تجد أدباً عربياً عتيقاً كأنه هارب من الصحراء بشطفه العرق ، وقد فصّل سرواله بنطلوناً وعباءته بردوسيتاً ، وحوّل عقاله عصابة للعنق ...

« الواقع انهم يتفاوتون في ذلك ، ونظراتهم وميولهم لا تكاد تلتقي وتتفق ، وهم يختلفون في بعدهم أو قربهم من روح العصر ، وهم يخطئون جداً في تتبع الحركة الثقافية في الغرب ويخلطون بين الصحيح والفاسد... فان طه حسين حين يبحث الأدب العربي يعتمد على نظريات وآراء المستشرقين ، ويشايعهم ويتعصب لهم في كثير من هذه الآراء » .

ليتك كنت اجرأ وقلت وما حابيت : ويأخذ عنهم ...

« وحين يتناول الأدب الغربي يحدثنا عن طائفة من المسرحيات المقيمة لمؤلفين ينكرهم روح العصر . لماذا لا يحدثنا طه حسين — وهو ربيب الثقافة اللاتينية — عن جيد ، ودي هامل ، وبندا ، ودي لاكروتيل ، ومنترلان ، وهنري بربوس. ان هؤلاء يجدّدون في الأدب الافرنسي ويخلقون اعمالاً أدبية... من وحي العصر في مشكلاته وأزماته . واتجاهاته المختلفة تمثل كلها الروح الأدبي في فرنسا خير تمثيل . أكاد اجزم ان طه لم يقرأ هؤلاء ، ولم يحاول ان يقرأ ، ولو قرأ لحدّثنا عن أثرهم في نفسه ... » .

سبحان الله ، كيف يقول الايراني اليوم في طه ما قاله طه منذ اعوام في شوقي ، أي انه لم يقرأ غير هيغو ولامرتين ومدرستهما ، ولم يعرف شيئاً عن مدرسة فرلين وبودلير .

« ولكنه — أي طه — آثر هذه الألوان اليسيرة السهلة وفضّل العرض على الجوهر ، وبقي أسير الأدب البرجوازي المخنث ، واطمأن الى القصر المترف والسيارة الفخمة والحياة الرغدة لأنه هو نفسه لا يستطيع ان يتحرر من قصره ، وسيارته وترف عيشه » .

معذور يا استاذ ، واطمئنانه كاطمئنان شوقي الى القصر وحنينه اليه. وبعد فالكاتب حر فيما يعتنق من مذاهب ، ولا حرج عليه ان هو ابدع .

« ولكن هل نلمس في انتاج طه حسين « الخالص » وحي المجتمع وأصداء الحياة المصرية بما فيها من آلام وأرزاء ومحن وجهاد متصل » ؟

ليس له شيء من هذا ، فلغو الصيف لغو ، و « اديب » كاللغو ، وهامش

السيرة إحياء أدب قديم .

« يعتز الدكتور بكتابه « الأيام » ولكنني اطمئنه فان أقل الناشئين شأناً في اوروبا يكتب أعمالاً أدبية « اوتوبيوغرافية » أروع وأجل من الأيام » .

وهذا ما قاله المستر جب عن كتاب الأيام ننقله عن الأسبوع وهو : يوجد رأي أدبي انكليزي يقول : ان كل انسان في الحيـــاة ، ولو لم تكن له ملكة الكتابة ، في استطاعته ان يكتب قصة باتقان ... ونحن لا نرى هذا الرأي الخ.

« مرة أخرى أقرر ان الدكتور طه حسين يعيش على هامش الحياة المصرية لا تؤثر فيه ولا يؤثر فيها » .

وانتقل الايراني الى هيكل فقال عنه « والدكتور هيكل بك حين اراد ان يكتب في الأدب الغربي راح يحدثنا عن روسو وتين وشكسبير وشلي وبيرون ، ولا ريب ان هؤلاء من عبـاقرة الزمن ، ولكن الدكتور هيكل جمع بينهم على اختلاف منازعهم وجنسياتهم ، وعلى تباين رسالاتهم في الحياة . لم يحاول ان يعطينا عملاً موحـداً عن عصر من العصور ، وعن طور من الأطوار الثقافية ، ومرحلة تامة من مراحل الفكر . مجرد دراسات متفرقة لا يضمها لون واحد ولا يجمع بينها غرض ثقافي معين، ولكن الدكتور رجل مستقل التفكير فهو لا يقلد احداً ولا يسطو على آراء أحد » .

بمن تعرّض يا استاذ محمود؟ ليتك صرحت وعددت القراء...ولكنني أعذرك وما اخالك الا تعمل بقول احد ظرفائنـــا لواحد كان يعد السكيرين في ضيعة سوادها يسكر . قال له : عدّ الذين لا يسكرون وخلصنا ... اذا كان هيكل كما تقول فلماذا يحلل الأدباء العالميين ادق تحليل ، حتى اذا كتب مقدمة ديوان شوقي اضمحلت براعة تحليله ، واعمى ذاك الادراك السامي للجمال الفني .

« وهو الى هذا يشعر بوحي مجتمعه وتؤثر فيه الحياة المصرية — في حدود معينة -فينعكس هذا التأثر في اعماله على صور مختلفة تشعرنا بشخصيته ،ولكننا نريد التفاتاً اوضح من الدكتور هيكل الى استلهام الحيـاة في البلاد العربية » .

أنسيت يا استاذ، ان الدكتور فرعوني ، أم رأيته كتب «حياة محمد»فدعوته

الى الفتح والاستعمار ! أولى بهيكل ألا يبرح محيطه فهو كاتب محلي ، وإن نتوسع فإقليمي . اراد ان يكون « رنان » المسلمين فقصّر جداً . وان كان كتاب حياة محمد سفراً نفيساً .

« أما العقاد والمازني فإنهما يتفاوتان ايضاً في الشعور بمجتمعهما وفي نقل صور الثقافة العربية الى أدبنا الحديث » .

قلتها يا استاذ ، اما يستاهل العقاد إلا هذه الكلمة وهو يعتز بفنه اعتزاز الخوري ابراهيم بلحيته الطويلة حتى قيل فيها : اشتر لحيته كما تثمنها انت ،وبعها كما يثمنها هو تصر اغنى الناس .

« وفي رأيي – رأي الايراني – ان المازني اوثق صلة بالحياة المصرية واقرب الى موحيات بيئته » .

قلت نعم ، فالعقاد مشغول بالغزل الفلسفي ... ولكن اذا لم يكن العقاد وثيق الصلة بالحياة المصرية ، فكيف نظم « هدية الكروان » وقال في مقدمته ، وهو فيها اشعر منه في نظمه : ومن العجيب انك لا تقرأ صدى للكروان فيما ينظم الشعراء المصريون ، على كثرة ما يسمع الكروان في اجوائنا المصرية من شمال وجنوب الخ ... » .

لماذا لم يعتدّ الايراني بهذا الديوان الغالي ويحسبه صلة وثيقة بالحياة المصرية ، أتراه اطلع على يتيمة الثعالبي وقرأ شعراً عربياً في الكروان ، ام انه رأى بشاره الخوري يذكره ايضاً تودداً الى المغنين والمغنيات المصريين ، وما اكثر تودد اخينا بشاره في سبيل نفاق شعره ، حتى غرد الفجر وماجت « الدفقات » ولم يعد ينقصه غير المخضوضر والمعشوشب ...

هب اننا رضينا بهذا العليل، فهل للاستاذ الايراني ان ينبئنا من اين استوحى العقاد قصيدته الفريدة الخالدة ودرته العصماء .. التي مطلعها :

البيلا البيلا البيلا   ما احلى سلب البيلا

والله ما ادري كيف يكون ناظم هذه الرائعة قليل الشعور بالحياة المصرية .. وقد فاق فرويد في تحليله نفسية الاطفال، وتكلم بلغتهم في شعره المضحك المبكي

المنوّم كآلة الفارابي ...

« ولكنه ـ المازني ـ بعيد من ان يحدث بأدبه ثورة ثقافية واجتماعية، ذلك لانه يميل بطبعه الى الأدب الفكه » .

« أما الاستاذ سلامه موسى فانه طبقة وحده ليس بالأديب ولا بالعالم ولكنه مزيج من هذا وذا ، وتغلب عليه نزعة « البروباغندا » الاجتماعية ولكنه يتابع التطور الثقافي والعلمي في اوروبا ينقل عنها صوراً وآراء لا يفتر عن بثها والدعاية لها ، وكادت تكون ثقافتنا ناقصة لولا سلامه موسى » .

هذا صحيح ، فسلامه موسى مزيج من فرح انطون وصروف ونمر ، لو كان يحسن التعبير مثلهم . فلو قرأت رأيه (اليوم والغد ص ٢٣٧) في اللغة وعلومها لقلت له معي : الذنب ذنب معلمك يا استاذ .

« فانه في تطرفه وحماسته للآراء والمذاهب الجديدة يحفظ التوازن تجاه الجامدين والمتحجّرين ولم ألمس الشعور بآلام الحياة المصرية ... مثلما لمسته في كتابات هذا الرجل، وهو لهذا اقدر المفكرين جميعاً على اثارة التمرد وفتح العيون على ما في المجتمع المصري من الوان الذل والفقر والجهل ... ».

وختم الايراني مقاله بهذا الحكم القاسي :

« وهناك فريق آخر من الكتاب ، فريق مريض منحل يرى الأدب حليـة وزينة أو قطعة لذيذة من الحلوى يمثل هـــذه الطائفة الشاذة : مصطفى صادق الرافعي ، واحمد حسن الزيات ، والشيخ عبد العزيز البشري » .

يا ضياع تعب محمود العريان تلميذ الرافعي وصديقه ونجيه ، فقد ملأ الرسالة بخوراً وندآ ... أحرقه امام صنمه الأدبي . أما شيخنا البشري فمفخرة العرب عند امام الصناعتين، وشاعر الأقطار العربية، الجواد المسماح بالالقاب والمقدمات، فكل الناس عند «خليل» نوابغ وكل الكتب درر غوال، فعلى «الفقير» الراجي خير التعرف الى الجمهور ان يأخذ « منشوراً » من « المطران » المكرمان ...

« قوام أدبهم ـ الرافعي والزيات والبشري ـ التحســين اللفظي ، والمظهر البراق ، والالوان الخيالية « الرومنتيكية » المريضة ، وهؤلاء شرهم كثير ،

فانهم يصدون الناشئة ببهارجهم وحليهم وزينتهم عن الاصول القويمـــة للادب والثقافة ويحولون بينه وبين عصره الخ ... » اهـ .

نحيل هذا المقال على من يفكرون بعقول جيرانهم ،ويحسبون نقدنا تحككاً وتحاملاً وتهجماً على « قدس اقداس » الادب العربي – وليس افرغ من قدس الاقداس إلا عقولهم – ويرون في « توابيتَ العهد » ما لم يحلم به بنو اسرائيل حتى جرّته البقر وأعادته اليهم بلا رهبة ولا اجلال ...

مجمع اللغة العربية الملكي

دعست على غطش وبغش وصحبتي سعـــار وارزيز ووجر وافكل

كم كنا نقلب شفتنا السفلى ، وكم كنا نمطها كلتيهما عندما نقرأ هذا البيت ، وكم كان يتمطق به استاذنا الجليل ، رحمه الله ، عند شرحه له اجمالاً وتفصيلاً ، بعد تغنيه واعجابه بأخٍ له من قبل ، وهو :

ولي دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

فيقف عندها وقوف امرىء القيس بسقط اللوى بـين الدخول وحومل ، فيرى في الشنفرى بطلاً صنديداً وشاعراً فحلاً خنذيذاً .

كان استاذنا ـ دفأ الله ضريحه ، فهو مقبور في صرود لبنـــان ـ مفتوناً بالغريب متيماً بالالفاظ الضخمة القعقاعة ، لا يرضى الكلمة اذا كانت اقل من رطل وزناً ، وكان يعجب حتى الجنون بقول الشاعر :

وادكن عاتك جحل ربحل السخ ... ...

حتى كنا نرى كل شعرة من لحيته ترقص ، وتقطر لذاذة . ويـكاد يريل كمن ينظر الى أكلة يشتهيها . ولا ازال كلما اذكرته اخال كأنني في حضرته اسمعه يقول لنا : انظروا معي يا اولادي وتأملوا ما ادق هذا البيت ...

سبحان محيي العظام وهي رميم ، جاء من يعرفك يا خرّوب ، فهذا المجمع العلمي المصري قد انسل اليوم الى سراديب المعاجم واقبية اللغة وفتش بين الخرثي وسقط المتاع حتى اذا وقعت عينه على « الارزيز » اخذها بيدها قائلاً لها بلهفة : قومي يا حبيبتي ، حمداً لمن أراني محيـــاك الوسيم . انت « التلفون » . وهكذا انتقى لأحدث اختراع اعتق لفظة .

هكذا تحيا الألفاظ ، وهكذا تكون « الرجعة » يا من يدينون بها ، من

جبران الى نعيمه فصاعداً ، ومن فلامريون الى هيغو ولبنز وفرجيل وافلاطون فنازلاً ، وهكذا يبعث من مدافنه الكلام ، متى نفخ في صور التجديد ، ولماذا لا ؟ أما معنى الارزيز الطويل الصوت ؟ وهل اطول من صوت تسمعه من لندن ونيويورك ؟ ثم أليس شريط التلفون طويلاً وطويلاً وطويلاً ... وان توفّ الطول حقه من التعبير الطهحسيني الطريف ، يجب ان تردد كلمة طويل مليون مرة . عفواً سادتي اعضاء المجمع قلت «مليون» وقد تكونون قررتم «ملائكة وربوات» فأنا لم اطلع بعد على المجلة التي اخرجتموها للناس، اما الارزيز واخواتها الجميلات فقد بشّرني بهن سلامه موسى في مجلته الجديدة .

وعلى قياس الارزيز يجب ان نسمي الكهرباء « الأفكل » فكلتاهما في بيت واحد ، ومعنى الافكل الرعدة ، والكهرباء ترعد ، وبهذا يقر الشاعر الصعلوك عيناً ومحصبه مع المعري ، ويكون قد تنبأ على التلفون والكهرباء ، كما تنبأ المعري على مذهب النشوء والارتقاء ، قبل ان قال به داروين ، أما قال المعري :

والذي حارت البرية فيـه حيوان مستحدث من جمـاد ؟

فعلى خطة « الشميّل » في تفسيره وتأويله يكون المعري عرف الطيارات والغواصات ايضاً قبل اختراعها ، او لم يقل :

اقلقتم السابح في لجـة ورعتم في الجو ذات الجناح ؟

لله نحن ، تهزّأ المعري منافقاً بقصة الخلق فقلنا ادرك سر التطور . واغرب من هذا قول احدهم ، ان شكسبير عربي اصله ، وتعريب اسمه « الشيخ زبير » وفي « الرسالة » من يحاولون ان يجعلوا لامرتين عربياً . فكيف رأيت ؟

أظن ان المجمع العربي المصري يسير على ضوء هذا المصباح فيتعريبه الاسماء، حتى يرى في اللغة العربية اسماء « ما يرى وما لا يرى » . فإن كانت كل اعماله كهذه الخريشة فبشّر لغة الكتاب الكريم بنصر من الله وفتح قريب .

كنا نعلم ان فينا عقولاً متحجرة ، وان فينا من لا يقلعون ثيابهم العتيقة لئلا يبردوا ، اما ما رأيناه فما ظننا قط انه سيكون .

اذا كان التلفون ارزيزاً والراديو واحياً والديركسيون دوطيرة، والمتر ذراعاً

افرنسية ، والموتوسيكل زفزافة « وهذه الزفزافة خير اخواتهـــا البشعات » فواخجلنا من العباسيين اذا بُعثوا ورأوا أحفادهم يعرّبون هكذا .

ماذا يقول اولئك الذين عربوا: الاستاذ والساذج والبرهان والبرواز والدينار والسراج والمنجنيق والحرباء والدست والدستور والدرفس والبيرق والبند والدف والدكان والدولاب والدفتر والدلو والدهليز والرطل والخز والطيلسان والوفا غيرها ، وهي تكاد تكون بلفظها الاعجمي ، لقد عربوها ولم يستنكفوا عن عجمتها بل صبّوها في قالب عربي ولم يبالوا .

ما هذا يا سادتي العلماء ؟

أيرضى بالارزيز من لم يعجبه الهاتف ؟ رحماكم بهذا اللسان ، فالذي لا يتطور لا يكون من الأحياء . أما أخذ الفرنجة : البرنس والمسكين والدرويش والديوان والصفة ومئات غيرها بلفظها ، وأدخلوها في معجمهم ، فأي عار لحق لغتهم ؟! أما ان نظن ان لغتنا كما وصفها حافظ ابرهيم تماماً ، فهذا لا أدري ما أسميه .

فعلى قياس تعريبكم المتر بالذراع الافرنسية والبرد بالذراع الانكليزية ماذا كان يجب ان يعرّب العرب كلمة رطل ؟ بل ماذا كان يجب أن يقول الفرنجة بدلاً من درويش وديوان وصفة الخ ؟ . هذا سؤال نطرحه عليكم حتى اذا أفتيتم — مأجورين — تدارك المجمع العلمي الافرنسي خطأه وأصلح معجمه .

فحنانيكم سادتي، وعربوا الالفاظ تعريباً لا يقطع الصلة بينها وبين المسميات، اتركوا فيها رمقاً من الحيـاة . أيكون العباسيون احذق منكم وانتم من خير رجال العلم ؟

أما عرّب العرب الدولاب وعندهم المنجنون ، والدكان وعنـدهم الحانوت ، والطيلسان وعندهم أسماء كثيرة عربية ؟ أما عربوا المهر وعندهم ما يضاهيها ، واشتقوا منها فعلاً « مهر » ، أما عربوا السراج وعندهم المصباح ، أمـــا عربوا الدرفس والبيرق والبند وعندهم العلم والراية والغاية «الغاية بمعنى العلم» للالثغ» ، أما عربوا الخلخال وغيرها حرفياً ، أما عربوا الرطل من (رتل) الفارسية ؟ فلماذا تأنفون انتم من المتر والتلفون والبرد والراديو ؟

هذه بليّة والله ما توقعناها ، فيسّروا سادتي ولا تعسّروا ، قرأنا في الاهرام وصف جلستكم الاولى ، وطالعنا خطبكم وقصائدكم ومقاييسكم فسررنا وتفاءلنا ، ولكن أرزيزكم ودوطيرتكم وذراعكم الافرنسية والانكليزية وما اليها خنقت في الصدر كل أمل .

أتكأكأتم يا قداميس اللغى ، لتأتوا بالحديدبى ! ؟

أليس بهذه الألفاظ الرشيقة يجب أن نخاطب من يسمون التلفون ارزيزاً ؟..

الأدب والنقد في مصر

بين احمد امين وطه حسين

وهناك نوع من أرقى انواع الادب وهو النقد ، واقول بكل اخلاص ان النقد عندنا ضعيف . ثم قال في مقال اذاعته الرسالة في عدد ١٥٥ : من هو هذا القائل ؟ لان النقد اول شروطه الحرية ، الحرية العقلية ، والحرية العلمية ، والحرية الادبية ، فهو لا يعرف الصداقة ، ولا يعرف الاكبار والاجلال ، ولا يعرف المجاملة والمداجاة .

حسين هيكل

اني أوازن بين النقد من نحو عشرين عاما والنقد الآن، فأجده ليس خاضعاً لسنة النشوء والارتقاء ، بل لسنة التدهور والانحطاط حتى وصل الى حالة من العجز يرثى لها .

احمد امين

حياتنا الأدبية في هذه الأعوام الأخيرة فاترة راكدة لا يظهر فيها نشاط ولا انتاج ، قد تمضي الأعوام دون ان يظهر في أفقنا الأدبي رأي جديد ، او فكرة طريفة ، او دعوة الى مذهب لم نعرفه من قبل ... غرّنا الثناء فتهنا وأعجبنا بأنفسنا وشغلنا بها عن المضي في طريقنا . خدعنا بما كان يكتب عنا فأخذنا ننقله ونترجمه ونتناوله بالتفسير والتعليق، وأخذ كل واحد يستزيد من هذا الثناء ومن اذاعته ، ويلتمس لنفسه الانصار والشيعة . وعللت النفس بأن وقت هذه الفتنة لن يطول،وبأننا لن نتجاوز عاماً او عامين نستريح فيها من الجهد العنيف الذي بذلناه ، ثم نستأنف النشاط والانتاج ، ولكننا مع الأسف لم نصنع من هذا شيئاً انما مضينا في الراحة وما زلنا الى الآن نستريح ...

وقد لقيت من منذ أعوام بعض المستشرقين في اوروبا وكان يعنى بآدابنا الحديثة

فسألته عن رأيه في حياتنا الأدبية فانبأني بانه ينتظر شيئاً جديداً ، ثم سألته منذ وقت قريب السؤال نفسه فأجابني بانه ينتظر شيئاً جديداً . الخ . طه حسين

يا استاذ سلامه « موسى » كيف تلومنا على التعمق في دراسة الأدب العربي وليس في مصر من يفهمه فهم العلماء اكثر من عشرين رجلاً ، مع ان مصر سكانها نحو خمسة عشر مليوناً . كان لك ان تقول ذلك لو كنا نصدر في كل عام نحو مئة كتاب في الأدب العربي، ولكنك ترى الدراسات الأدبية في تخلف فاضح ، وترى من يسيطرون على دراسة الأدب في الجامعة المصرية يحملهم الجهل على سرقة آراء المستشرقين كما يفعل صديقنا العزيز طه حسين . زكي مبارك

ان الأديب لا يهدمه النقد فهو كائن ممتاز لا يهدم إلا باذنه ، ولا يقضى عليه إلا بارادته . ان الأديب لا يموت مقتولاً بل يموت منتحراً ... ومع ذلك فاني لا أحب للمؤلفين ان يغضبوا على أي حال فان الغضب علامة الضعف الآدمي .

توفيق الحكيم

أما السبب في ان كل انتاجنا الأدبي هو للفناء فراجع الى انه أدب مسروق، أو على الأقل أدب مسلوب من آداب الأمم الأخرى، وليس فيه من آثار المصرية إلا أنه مكتوب بلغة عربية ولكن باساليب أصبحت بدورها أضعف من أن تحسن أداء رسالة الأدب . اسميل مظهر

فاذا أردنا جيلاً جديداً ينشأ على مزاج ديمقراطي فاننا يجب ان نهيئه بالعدة الذهنية التي يستخرج فيها هذا المزاج ، وهذه هي مهمة الكاتب المجدد في مصر ، هذا الكاتب الذي يأسف الاستاذ احمد امين على وفاته ، وزواله من عالم الأدب في مصر . سلامه موسى

وبعد فقد كتب الزيات أحد بهاليل مملكة الأدب العربي مقالاً عنوانه «النقد المزيف » كر فيه كرة عنترة المعلومة في قصته الشهيرة ، على « رجل يقعد بـه العجز عن اللحاق بالقادرين فيقف نفسه موقف القائد الحصيف يلمز هذا ويتنادر على ذاك ، ويزعم أنه وحده المسيطر على ثمرات الذهن ، فيحكم بذوقه الخاص على هذه بالقبح وعلى تلك بالفجاجة ، وأمره كله لا يخرج عن مألوف الطباع الساخرة

الفكهة الخ » (الرساله عدد ١٥٠) .

أرأيتك ماذا فهمت ، أرأيتك هل عرفت من يعني الزيات ؟ أمـــا أنا ، وحياتك ، فما فهمت ولا دريت ...

لا شك ابداً أنك قائل ماذا يقول مارون عبود ، اننا لم نفهم مـــاذا يقول فنجيب : حقك عليّ يا قارئي فما كلفتك قط فك الطلاسم ، ان « أرأيتك »هذه من منبوشات المصرولوجي احمد حسن الزيات ، وهي اسم فعل بمعنى أخبرني (الرسالة عدد ١٥٠ ص ٨٠٢) فقولي لك :أرأيتك ماذا فهمت ؟ كأنني أقول لك: أخبرني ماذا فهمت.أرأيتك هل فهمت ؟ إذن قل : حيًّا الله الفصاحة والفصحاء والبلاغة والبلغاء ، وعاش كارنافون لغة العرب الشيخ احمد حسن الزيات . فعسى «أرأيتك»هذه ان تجبر خاطر احمد امين المفتش بفانوس ديوجين عن المجدد المصري.

وما مر اسبوعان على ظهور مقال الزيات «النقد المزيف» حتى قرأنا لاحمد امين صاحب «فجر الإسلام وضحى الإسلام» مقالاً ملخصه : ان النقد قبل عشرين عاماً كان أخصب وأقوى وأعمق ، وذكر بالخير البازجي ونقده لـ « مجاني الأدب » ، و « أقرب الموارد » ثم قال : لست انسى ما نقد به كتاب « التمدن الاسلامي » والأخذ والرد اللذين قاما حوله. وكان شوقي أو حافظ يقول القصيدة فيقوم ناقد معترض يبيّن معايبها ، ومادح مقرظ يبيّن محاسنها ، ومن هذا وذاك يستفيد الأديب ويرقى الأدب ، وتتجلى حقائق كانت خافية ، وتتهذب أذواق كانت نابية . وكان يؤلف الكتاب الديني مثل كتاب « الإسلام وأصول الحكم » فتنشب معارك حامية ... وكان في نقدهم أحياناً هجر وقذع وهجو وسباب ... وكان كل من السباب والنقد العنيف علامة حياة أدبية وثورة فكرية وعقل باحث وقلم نشيط .

ورأى الأستاذ أن الانتاج الأدبي تضاعف وتعددت نواحيه ، وكثر الكلام في الأدب العربي وارتقى في جملته ، أما النقد فانكمش ، وانكمش حتى ضمر وذبل واشفى على الهلاك ، فصارت الكتب تنقد نقداً لا يعتد به . يكتفى باسم الكتاب وعرض موضوعه مستعينين على ذلك بفهرسه ومقدمته ، ثم صيغة محفوظة متداولة من المدح والتقريظ فيلقي الناقد عن عاتقه العبء بكتابة كلمة خاملة ، ووصف

فاتر ، ونقد سطحي .

وقال : ان النقد في الغرب يرقى رقي الأدب ويؤثر كلاهما في الآخر تأثيراً محموداً ، وبعدما فتش عن علة ضعف النقد العربي تراءى له انها علة محلية لا علة طبيعية فشخّصها بما معناه :

النقد الصريح الصحيح يحتاج الى شجاعة أدبية قوية من الناقد ورحابة صدر من المنقود ، وان مثل هذا حدث في تاريخ مصر الحديث ، فكان صراع بين القديم والحديث ، وبين التفكير الحر والتقاليد ، وبين الأدب الناشىء والأدب الموروث ، انتهى بهزيمة المفكرين وتعرضهم للخطر في مناصبهم وأرزاقهم، ونالوا من العسف والعنت ما ليس في طاقتهم فتخلى عنهم اتباعهم في وقت الضيق، ومن عطف عليهم فعطف افلاطوني عطف يتبخر... فانهزم فريق المفكرين الصرحاء هزيمة منكرة أمام الرأي العام المسلح فرجعوا عن رأيهم وداروا الرأي العام وجاروه ، فلم يعد هناك معسكران ، ولم يعد صراع بل معسكر واحد ولا قتال ... وتعلم الجيل اللاحق من الجيل السابق وأخذ الدروس عن أخيه الأكبر ففضل السلامة... وبذلك اختنق النقد الأدبي في مهده، وأصبح الأدب مدرسة واحدة لا مدارس متعددة تتناحر وتتعاون ، وتتعادى وتتصادق، وفي عداوتها وصداقتها الخير .

ثم يقول : الأدباء عندنا صنفان ، صنف نضج وتكوّن واستوى على عرش الأدب وهؤلاء هم القادة ، وهم أفراد معدودون تسالموا وتهادنوا وأصبح كل منهم كالعشراء لا يميلون الى النطاح ولا يرجون إلا السلامة. وصنف ناشىء هو في طور التكون يخشى أن يتعرض لمن استوى على العرش ، فيبطش به بطشة جبارة ترده الى أسفل . فلما جامل الكبراء بعضهم بعضاً ، وخاف الناشئون من الكبراء ضاع النقد بين هؤلاء وهؤلاء .

وعزا الى السياسة بعض أسباب ضعف النقد، فانها نصرت الجماهير على القادة، وعاونت الرأي العام على المفكرين. ثم انها قومت الأديب بلونه السياسي فأفسد ذلك الأدب والنقد معـــاً . وقال ايضاً ان السياسة تلعب هذا اللعب في الأمم

المتمدنة ولا يكون لها هذا الأثر، لأن الخصومة السياسية عندهم لا تفقد الصداقة في أغلب الأحيان ، وكذلك الشأن في الخصومة الأدبية ، أما الأمم الناشئة فلا تفهم من الخصومة السياسية والأدبيـــة والعلمية إلا العداء العنيف ، وفي العداء العنيف قتل للحرية .

وختم مقاله بهذه العبارة : وهناك أسباب أخرى غير مـــا ذكرت لعل الكتّاب يعرضون لها فيكشفون عن أسباب هذا الداء الخطير ويصفون له مـــا يتطلب من دواء ناجع ...

انتهى ملخصاً تارة بالحرف وطوراً بالمعنى وقد تركت ما لا يخل حذفه بالمعنى، وإن أطلت عليك الكلام في تلخيص مقال احمد امين فسألخص لك رد طه حسين تلخيصاً لا تملّه .

بدأ طه حسين كتنّين يونان يشخر وينخر ، وأخذ يدور ملتفاً على نفسه دوران أعصار فوق كثيب رمل ، أو كعفريت الف ليلة وليلة وقد أفلت من القمقم... ثم ختم المقال كما بولس في رسالته الى أهل غلاطية : انظروا ما أكبر الحروف التي كتبتها اليكم بخط يدي ... واليك ملخص ما قال :

قال في الفقرة الأولى أنه لا يجادل أخاه العزيز احمد امين في مقاله «في النقد» لأن الفصل فصل صيف ، وهو لو أرسل نفسه على سجيتها لما جادل ولكنـــه مدفوع هذه المرة لأن احمد امين كان غير منصف حين عرض لقضية النقد وقضيّتهم هم في النقد عرضاً سريعاً (كذا) .

أي أن احمد امين مرّ بالهيكل فلثم خد البـــاب ولم يدخله ليؤدي السجود « لأبي الهول »... فكل ذنب احمد امين أنه لم يسم طه حسين المالك سعيداً على عرش الأدب في مصر ، بل مر به مر الكرام ، ولم يذكر مـــا قام حول آثاره الأدبية من ضجيج في العشرين سنة ، كما قال في كتاب الإسلام وأصول الحكم، وهذا ما آذى طه وأحفظه ، وطه كما قال ابن شمّاس الحطيئة : اذا غضبوا جاء الحفيظة والجد .

ثم أعاد ما قاله احمد امين في النقاد وكيف شايعوا الجمهور بعد تمردهم وكيف كانوا خائفين على عافيتهم ومناصبهم ، ثم تبعهم اخوتهم الصغار فصار الأدب تقليداً

وقلقاً ، والنقد مصانعة ومتابعة . وبعد مـا صرح طه ان هذا التصريـح يؤذيه أكثر مما اذاه كل ما لقي من مشقة واعنات ، راح يصف لنا ما عرفناه عن جهاد الوفديين والكتـّاب الذين منهم ، وطه أحدهم ، وهنا صار حديث الأستاذ أشبه باحاديث النساء اللواتي يتعايرن قائلات : كنتم وكنا ، صنعنا وفعلتم ، وعملنـا وسوّيتم ... وإليك نموذجاً واحداً مما قاله لاحمد امين : كنـا نغالب الأمواج وكنتم تقومون على الشاطىء ... ثم قال ان السياسة العنيفة المنكرة لم تشغلهم عن الأدب ولا عن النقد ، وانهم كلهم أنتجوا أثناء المحنة ...

قلنا : ان احمد ينظر الى الكيف ، وطه ينظر الى الكـمّ ، ونحن واحمـد امين ، وهيكل ومظهر ، وطه ايضاً متفقون على أن هذا الانتـــاج من الصنف الرذل ، فهو لا يدل لا على تفكير ولا على ابداع ، وما هو إلا كلام مرصوف ، وحديث مكرور ، بشهادة طه نفسه ، راجع كلمته في صدر المقال .

ثم يعرض طه بوجه خاص للنقد فيقول : انهم كانوا برغم السياسة وأثقالهـا وأهوالها يقرأون الكتب والدواوين ويقولون رأيهم فيها ، ويفرضون على أنفسهم صفحة أدبية في الأسبوع يفرغون لها اليوم أو أكثر من اليوم ، ثم ذكر ما ثار بينه وبين هيكل حول ثورة الأدب ـ كتـــاب لهيكل عنوانه ثورة ، ولكنه سلام وطمأنينة ـ وبينه وبين العقاد حول اللاتينية والسكسونية ، وبينه وبين العقاد ايضاً حول ديوان من دواوينه . ثم ذكـّرنا أنه كان يحدث الناس في الراديو وينتقد .

لا شك أن طه حسين كان أكثر الأدباء المصريين كلاماً في الراديو ، ولكن كلام طه أعجبنا منه ما كان في فجر أدبه وضحاه ، أما ما يكتبه ويحدثنا به في عصاري نهاره فيدل على أنّ طه لا يحترم نفسه وقراءه ، أو أن جعبته فرغت ، وما كلف الله نفساً فوق طاقتها .

وهنا ذكر طه احمد امين أنه أتيح له الهدوء واستمتع بالبال الرخي والحياة المستقيمة المطمئنة ، وما نقد لأنه لا يقرأ ، أو لا ينتقد لأنه يقرأ ويشفق من أن يعلن آراءه ، فيلتنكر له الناس ويسلقه أصحاب الكتب بألسنة حداد .

قلنا نحن لم نقرأ نقداً لاحمد امين لأنه غير ناقد ، ولكننا قرأنا له كتاباً نفيساً

هو «فجر الاسلام وضحى الإسلام» وعرفنا أنه رجل بمقام ثلاثة... أما قام وحده بعمل أعلن طه أنه هو والعبادي شريكاه فيه، ثم ارفضا عنه فبقي وحده، وأخرج هذا الكتاب القيم الذي لا أعدل به أي أثر أدبي مصري آخر؟

نعم انه ككل أدب اخواننا المصريين يعول على المتمشرقين، ويصاب أمامهم بشلل الفكر، ولكنه، كيفما دارت به الحال، كتاب ظريف صريح بمقدار. فاحمد امين تاجر سليم الذوق يعرف كيف ينتقي السلع من البندر ويحسن عرضها في مخزنه ...

وعرض طه ايضاً للادباء الناشئين فقال انهم ضعاف اثرون عجلون، ذوو كبرياء لا تخلو من سخف، ومن سخف يذكر باخلاق الاطفال. يستعجلون الشهرة ويريدون أن تتم لهم ما بين طرفة عين وانتباهتها، يرون لأنفسهم العصمة ولا ينتظرون من النقاد إلا ثناءً وحمداً. جيل رخو. الخ.

ثم أعلن طه أنه مستعد الى أن يستأنف ما فعل منذ عشر سنين. والى أن يستأنف أيضاً ما فعل منذ أربع سنين.

فلننتظر نحن واحمد امين، وعسى أن يكون أدباً سميناً رصيناً ليس من نوع خالف تعرف، فهذا يكون في الانقلابات السياسية، أما في الأدب فيمر مر العاصفة ويكون الهدوء. ليعمل طه اثراً خالداً يذكر له إن كان يستطيع.

وشاء طه، وهو لا يحب الشهرة كالجيل الناشيء الرخو، أن يخبرنا أن الاستاذ كراتشكوفسكي ترجم كتابه «الايام» وقدم له، فقال لاحمد امين: «واني لشديد الأسف ان كانت ثقة الاستاذ كراتشكوفسكي بي أشد وأقوى من ثقتك أنت، فانه لم يتردد في مقدمة ترجمته للايام أن يتنبأ (كذا) بان ما عرض لي من الخطوب ليس كل شيء وانه ينتظر أن يعرض لي مثله» اه.

- ٢ -

بين امين وطه وهيكل

أسمعت بأذنك أن طه حسين يرى الأدب كله في ضوضى يهيجها، فيقوم لها

الر ي العام ويقعد،فما مثله في الناس إلا شاعر يرى كل «فنه»في تصفيق النظّارة.

لقد أثار كتاب طه « الشعر الجاهلي » نقعاً كالذي وصفه أعمى البصرة وهو منبطح في دهليزه كالجاموس ، ولكن هذا الرهج ما لبث أن همد وسيمحي أثره يوم تتسع ثقافة الشباب وتعمق إذ يعرفون مصادره كما عرف ذو الصليب منبع الفرات المسحنفر من بلاد الروم .

ان أنبياء الله قد ختموا،ومع ذلك فاني اتنبأ لطه كما تنبأ له كراتشكوفسكي، وما يمنع أن يكون بين الأنبياء شاوولان جديدان؟ان كتاب طه «الشعر الجاهلي» يظل قيدوم آثاره ولن يقدر طه على خير منه . أما حاول أن يثير في«على هامش السيرة » ما أثاره في الشعر الجاهلي فقعد ملوماً محسوراً ؟ ما طن كتابه الجديد كما توقع ، ولم يؤاخذه أحد بكلمة الا العقاد . قلت كلمة ، نعم كلمـــة واحدة فقط لا غير ، وأظنها « الوجدان » ان لم تخني الذاكرة . فقد قال العقاد : ان الوجدان لم تكن مفهومة في جيل أصحاب السيرة بمعناها المجازي اليوم . ولامه ايضاً حسين هيكل على ابتداعه أساطير جديدة أضافها الى السيرة النبوية . قلت «ابتداعه» فعفوك أيها القارىء فليس طه من المبدعين ولكنه يستعير . قد استعار بعض أساطير قديمة زاد فيها قارىء السيرة عمى ، في حين أن حسين هيكل قام يحاول الاقلال منها في كتابه : حياة محمد .

فلندع ذا ، كما يقول الجاهليون في تخلصهم ، لنعود الى رد احمد امين على طه ، قال احمد :

تظهر كل عام كتب لهيكل وطه والعقاد والزيات ومبارك وغيرهم ، وتنظم قصائد وتنشر روايات ولا تنقد ، ثم يخص بالذكر كتـاب محمد لتوفيق الحكيم ويذكر كيف مر بسلام .

قلت : أين الروايات يا استاذ لمن سميتهم ؟ أهي « اديب » طه حسين ! وأي شأن لرواية كهذه ؟ شاء الدكتور طه أن يكون فيهـــا قصصياً فكان محدثاً كالحارث بن همام وغيره من فصحاء المقامات ، وشاء أن يكون من علماء النفس فكان من رصّافي الكلام ، فتمطط في الحديث حتى كتب في مئتـــين وإحدى وخمسين صفحة ما كان في مكنته ان يلزه ويحشره في صفحات تؤلف أقصوصة

لا قصة. ولكن طه مولع بالتبسط والتمدد كخباز ابن الرومي ، أو في التشابك كقالي الزلابيه فيرميك بصفائح براقة كلفائف الشكولاتا ، تحسبها ذهباً أو فضة وما هي غير قصدير .

أما كتاب محمد لتوفيق الحكيم فلم اقرأه بعد ولكنه صار عندي ،وأنا زعيم لك، كما يقول طه حسين، أنه لو صدر قبل أن شق توفيق عصا الطاعةووقف في صف الخوارج لسمعت طه يقول في مقدمته : ومن الخير لي ولك أن تقرأ هذا الكتاب ففيه الأدب الممتع كله ، والمتاع الفني كله ، والبلاغة كلها ، وأنا زعيم لك بأنك سترى فيه ما رأيت وتقول ما قلت الخ . ولكن هذا التوفيق الحكيم صار للعبودية كارهاً وأبغض المسيطرين ، فدفع كتابه الى المطبعة توّاً فكسب احترامنا لاعتماده على نفسه ،وأراحنا من مقدمات طه اللولبية التي يرفع عقيرته فيها مردداً عشرات المرات كلمة أو فكرة يعثر عليها في كتاب يقدم له،فيذكرنا بالدلالين الذين يؤجرون على نفاق خرثيّ البيوت، وما يطرح في السوق من سقط المتاع .

ثم قال احمد امين ان الأفكار في مصر مكبلة مقيدة فالمواضيع التي بحثت منذ ألف سنة ولم يمس أصحابها بأذى يعرض لها اليوم بعض الكتّاب في مصر فيقرر مجلس الوزارة مصادرة كتبهم ولا أحد يحرك لذلك ساكناً. ويرى احمد امين أنه لو وقع هذا الحادث من عشر سنين لقام له الكتّاب الأحرار وقعدوا ودافعوا وانتقدوا .

ورأى ايضاً أن لجنة التأليف والنشر ـ جزاها الله صالحة ووفق السيد منير الحسامي الى انشاء مثلها في قطرنا الشامي ـ تصدر كتباً ومـــا من ينقدها ، فاستدل بهذا وبغيره على ضعف النقد ، وبيّن كيف ينظرون الى الناقد في الشرق وكيف ينظرون اليه في الغرب ، وشبه الناقد بالقاضي الذي لا يجب أن يعول على وجدانه فقط .

قلت : ان طه صار من هذا الضرب ولم ينقد نقداً فنياً موضوعياً إلا ثلاث مرات ، الأولى والثانية في شوقي، والثالثة في حافظ ، أما فيما بقي من الفصول التي حبرها في النقد فقد حكم « تأثره » في الآثار الأدبية فكان كالنقــاد الذين

يسميهم الفرنج « impressionnistes انطباعيين » ، وبعبارة أفصح اني أشبّه طه في نقده اليوم بالقصّاب الذي يخترق القطيع فيمس ظهر هذا الكبش ، ويروز الية ذاك ويجس عصعص ذلك التيس ، ثم يخمن ما مسّ وراز وجسّ كما يخال . هذا ما يريد أن يقوله احمد امين ولكنه لا يجرؤ على التصريح به لجبّار الجامعة المصرية لأسباب ستعلمها من رد حسين هيكل الذي يأتيك خبره الآن .

ثم عرض احمد امين لقول طه حسين عنه أنه لم ينقد فرد عليه بقوله : وهل من العيب أن يشرح المريض مرضاً عاماً أصيب به هو وغيره ؟ وهل يحجر على الانسان أن يقول أن هذا ليس بجميل إلا اذا كان هو جميلا ، وليس أبيض ولا أسود الا اذا كان هو أسود او أبيض ! .

قلت : وما يمنعك يا سيد احمد أن تنتقد كطه «اليوم» ؟ أليس هذا ميسوراً لك ولغيرك ؟ فلا تحرم نفسك منه . اعمل بقول المثل الشامي العامي الفصيح : « كبر البيدر ولا شماتة العدى » . واخيراً ختم الأستاذ احمد رده بهذه الكلمة الرصينة : ان أراد أخي طه أن ينقل المسألة من النقد الأدبي الى النقد السياسي ، ويجعل الأمر يدور حول أنا وأنت ، ونقدت ولم تنقد ، وكتبت ولم تكتب ، وبئست ونعمت ، وشقيت وسعدت ، لم أجاره في ذلك .

أحسنت يا استاذ ، فلولا داهنته وتملقته وهرقت على قدميه طيوب الثناء كالجدلية لضمن لك الخلود في ملكوته ولم يعيّرك قلة النقد . ولولا سلمت عليه بالزعامة كما عودتموه لأدناك من السرير وقال فيك اليوم ما قاله أمس في مقدمة ضحى الإسلام . ولكنك نسيت أو تناسيت ذكره وأهملت التحية فجاءتك البلية ، نسأل الله أن يخلصك منه يا شيخ ، فالسلامة غنيمة ...

ولم نفرغ من درس ما كتبه احمد وطه حتى طلع علينا (العدد ١٥٥ من الرسالة) يحمل كلمة لتوفيق الحكيم وفيها ثناء طيب لذيذ على احمد امين ، ولوم المؤلفين لان صدورهم تضيق بالنقد والنقاد . قال : « وان أعجب ظاهرة في أدبنا العربي أنه لا توجد فيه صداقات عظيمة جديرة أن يتحدث عنها تاريخ الأدب ـ كالتي كانت بينه وبين طه مثلا ـ تلك الصداقات التي تراها في آداب الحضارات الكبرى قد

أنتجت من الرسائل والأخبار ما لا يقوّم بمال». ثم تجاهل ما ينقصنا فقال: «أهو شيء من الخلق ، أم هو ضعف في النفس أم هو نقص في الثقافة ؟ لست أعلم» .

قلت: أنا أعلم يا استاذ، تنقصنا كل هذه مجتمعة ولكننا في الطريق سائرون، وسنصل، ستتمسح جلود أدبائنا الرقيقة فلا تعود تؤثر بها ابر النقاد ومسلاّتهم ، فيسلس قيادهم ولا يتمنفصون .

وعرض ايضاً حسين هيكل لموضوع النقد فكتب في هذا الموضوع مقـــالاً طويلاً برأ فيه نفسه واتهم غيره فقال: لم يكن انصرافي عن النقد عن ايثار للسلامة أو مداراة للجمهور، أو اندفاع في تيـــار الجمهور بعد أن كنت أريد جذبه الى تياري . . . كلا . وانما كان انصرافي عن النقد وعن ألوان غيره من الكتابة أنني أيقنت أن فيما أنا بسبيله اليوم من مباحث في سيرة النبي العربي وفي عصره ، ما هو أجدى على القراء وعلى الغرض الذي أرجو للجماعة الانسانية ان تبلغه ممـا كنت بسبيله من قبل .

قلت : أرأيت ما في تعابير حسين هيكل من تعاريج وتلافيف فكأنها بوق بزّاقة ، فاسمع لألخص لك ما بقي . ورأى هيكل بعد كلام بيّن فيه أهمية عمله المنصرف اليه ــ وهو مهم حقاً ــ ان هذا الانصراف طبيعي لأن أكثر الكتّاب يبدأون حياتهم في الكتابة بالنقد ثم ينصرفون عنه ، وكذلك شأنهم في اوروبا وغير اوروبا . وبعد أن طاف حول الموضوع يؤيد كلامه عاد فاستدرك على نفسه فقال : صحيح أن من الكتّاب من يجعل النقد رسالته الأدبية طوال حياته ، ولقد كان من هؤلاء في فرنسا عدد غير قليل أمثال سنت بيف وجيل لامتر . جعلوا النقد رسالتهم على أنه لون من الوان التصوير لتاريخ الحياة الأدبيــة في عصرهم وفيما سبقهم من العصور ، ولكنهم كانوا في عصر النضج أدنى الى المؤرخين منهم الى النقاد .

قلنا : ان سنت بيف وتين وبرينتيير كانوا يؤلفون في عصر عمرهم تاريخاً علمياً للأدب ، أي تاريخاً طبيعياً كتاريخ النبات مثلاً ، لا تاريخاً بالمعنى الذي يفهم من كلام حسين هيكل . أما اناتول فرانس وجيل لامتر فنقدهما معروف ، وقد قدره

الناقد الحازم برينتيير بما يستحق ، ومن أعياه الاطلاع على مقال برينتيير في هذا الصدد يسهل عليه مطالعة رد اناتول وقد صدر به الجزء الثالث من كتابه «الحياة الأدبية»، فيدرك مآخذ برينتيير على فرانس ولامتر وزميل لهما آخر لا يحضرني اسمه.

ثم قال هيكل : ان تين وضع كتابـــاً فريداً جعل عنوانه « مذكرات من باريس » وكم تمنى لو سلك تين هـــذا المسلك ووضع على هذا النحو كثيراً من الكتب ، لكن احداً لم يوجه اليه اللوم لأنه آثر الفلسفة أو التاريخ .

قلت : ونحن ايضاً لا نؤاخذك يا استاذ على تركك النقد وانصرافك الى غيره من الوان الأدب فحسناً صنعت . فليس النقد شرحاً وتحليلاً كما كنت تفعل . ان النقد شيء غير هذا، ولا يحسنه إلا من خلقوا له، فامض في سبيلك على خيرة الله فليس فينا من يلومك ، إننا نكبر عملك الذي مضيت فيه ، سدد الله خطواتك، وأوصلك بالسلامة الى حيث تبغي ، فعلى خيرة الرحمن وبركته ، فلا تأسف على تركك نقداً قليل الخير والبركة .

وبعد هذه المقدمة جعل هيكل جريرة اهمال النقد في عنق الشباب ثم قال : أما والشباب لا ينقد فمعنى هذا أنه لا يقرأ ، وانه اذا قرأ لا يمحّص ، وانه اذا محّص لا يثور فينقد .

قلت : وهذا هيكل يجاري أخاه طه في لوم الناس على قلة القراءة. ليس فينا من يشك أن القراءة دعامة الثقافة ، ولكنها وحدها لا تكوّن الناقد ولا تخلقه، عرفت أكثر من واحد يقرأون الليل والنهار وسيان في نظرهم ، « أديب » طه حسين، وسفر ايوب ... فلماذا لا يكون هؤلاء من النقاد؟ ان النقد ملكة كغيرها من الملكات تنميها القراءة ولكنها لا توجدها يا دكتور، ولو عقب القراءة ورافقها الف تمحيص . انك تتصور لي منكبّاً على الأسفار تطالعها ولا أرى لك نقداً مذكوراً ، فخير ما كتبت في النقد ما كانت له مصادر أجنبية، أما حين تتناول موضوعاً بكراً فما أراك تقول فيه شيئاً خطيراً ، فلماذا هذا وأنت تقرأ كثيراً ؟

ثم وجه هيكل اللوم الى الذين يهذبون الشباب ويثقفونه فقال : « لقد أصبح هم الشباب المال الذي يجر الجاه والاحترام والتقدير فبعدوا عن النقد الذي يريده

احمد امين قوياً ناهضاً،ورأى ايضاً ان النقد يقتضي الحرية العقلية والعلمية والأدبية كما ذكرنا في صدر المقال السابق ، وكيف يأتي والحالة هذه للشباب الناشىء ان ينقد كتاباً لطه ، أو لهيكل، او لاحمد امين ، او للعقاد ، او للمازني او لغيرهم، وهؤلاء قد يكونون وسيلته الى الوظيفة ، او الى مال الوظيفة وجاهها وما لها في أعين الناس من احترام وتقدير...لذلك تعلّم الشباب المداجاة والرياء حتى في العلم والأدب ... وهذا سبب العلة وموضع الداء . فليلتمس احمد امين شباباً حراً يؤمن بالثورة وانا ضمين له بعودة النقد وفتوته . أما هؤلاء الشيوخ الذين يتوجه اليهم بالنقد فقد رغبوا الى لون من الأدب عن النقد . لم يبق منهم إلا صديقي وصديقه الدكتور طه الحريص على أن يبقى مع الشباب حرصه على أن يكون في طليعة الشيوخ » .

قلت : وهذا طبيعي ، فمن استطاع أن يماشي الشباب كما يزعم الدكتور هيكل ، كان لا شك في طليعة الشيوخ ، ولكنني أنصح للشباب ألا يقتدوا بطه حسين في هذه الأيام ، فدكتورنا أمسى « مخمّناً » لا ناقداً ، وان قلده الشباب وترسموا خطاه في النقد والاسلوب صار النقد نقراً ، والكلام نخـالة يكال بالغرارة ولا يوضع في ميزان ...

- ٣ -

تجديد طه تفكير في الافرنسية

قلنا في الفصل السابق أن طه حسين أمسى «مخمّناً» لا ناقداً،وانه نقد بضع نقدات حين كان يتسلق الجبل ، ليدرك نسر القمة . أما اليوم فألقى طه منجله واستراح واغنته السمعة عن المشقة ، وان شئت نبذة من طرف «تخمينه» فاليك رأيه في الحركة الأدبية في سورية كما أذاعه مندوب جريدة الايام الدمشقية :

« ان الاكثرية عندكم من المحافظين المتعصبين في العقيدة الادبية ، واذا كان ظن الأكثرية المحافظة أن اللغة كالقرآن لا يمس ، وان المحافظـة دين فلا سبيل

لاقناعها وعبثاً السعي ، ويكون نصيب الأدب التقهقر والانحطاط ، وان الحقبة التي نقضيها محافظين غير مجددين تبعث على الندم ... لذلك عندمـــا أفكر في موضوع ما فاني أفكر في الافرنسية الخ ... » والبقية تأتي .

قلنا صح فينا ما قاله القدماء : ان لم تعلم ابنك فالدهر يعلمه،فشكراً للزمان على هدايته المصريين الذين حاربوا المجددين السوريين ربع قرن ، فكم جاهدوا في قتال مدرسة جبران الثائرة على القديم البالي حتى وصموا زعيمها بالمروق من دين أدب العرب ، وما استراح لهم بال حتى ضرب الراعي وتبددت الخراف ...

ان أنفة اخواننا فراعنة الأدب المصري الحديث تأبى الاعتراف لمن سخّروا نفوسهم لبناء أهرام الادب الجديد،وهم ينتحلون كل شيء حتى التجديد في الادب، وتاريخه يشهد عليهم انهم كانوا ألد أعداء زعيمه جبران،واليك كلمة أخرى للاستاذ جب تجلو هـــذا الغموض : شرع الكتّاب المصريون ينكرون على الكتّاب السوريين سيطرتهم وتقدمهم ، وعمدوا الى ما اقتبسه السوريون عن الغربيين من تجديد فمصّروه وأدخلوه ادخالاً جديداً عن طريقهم هم . قلنا ليس في الأمر بدع فالمصريون مولعون «بالتبنّي» من عهد فرعون موسى حتى الساعة . فأي غرابة إذن في قول طه عن السوريين انهم محافظون في الادب ، وأي عجب في ادعائه التجديد وهو غارق في العتيق حتى الأذنين ؟

أما التجديد في عرف طه فسندلك عليه بعد مناقشة الدكتور « المجدد » في كلمة قالها لاحمد امين،وهي أنه ـ أي طه ـ كان برغم السياسة وأثقالها وأهوالها يفرض على نفسه صفحة أدبية كل اسبوع يفرغ لها اليـوم أو أكثر من اليوم . فعمدت الى حزم قصاصات الصحف ، أو الجزازات كما يسميها المجمع العربي ، فاذا بي أستعرض ساعات صرفها طه مع المثقب العبدي ، وابن المعتز ، وسويد ابن ابي كاهل ، وعنترة ، وزهير وابنه كعب ، وطرفة ولبيد ، ثم أعود منها وقد فزرني الملل ، ولو لم يكن لي معدة تقطع الصوان لمـــا كبست على نفسي وتصفحتها . يحاور طه في هذه الساعات شخصاً جرده من نفسه،والحوار لذيذ إن لم يكن مضجراً،ولكن طه كما عودنا،يدور مع صاحبه ويدور ويدور ويدور

ـ وهذا التعبير من تجديده ـ حتى يصاب القارىء بدوار إن لم يكن راضه طه على الدوران معه ...

أما الذي قاله عميد الجامعة المصرية في هذه الساعات فشرح لقصائد اولئك الشعراء على نمط المتقدمين ، ليفهمها الشباب الذين غرهم الأدب الغربيفعجزوا عن فهم الأدب العربي القديم ، فجفوه لأنهم لم يستسيغوه .

وأعادني تفكير طه في الافرنسية كما ادعى الى مقال له عنوانه « أثناء قراءة الشعر القديم » كتبه قبل هذه «الساعات» وختمه بقوله : ثم تم ّ الاتفاق بيننا ـ أي بين طه وبين الشخص الذي جرده من نفسه ـ على أن يكون يوم الأربعاء من كل اسبوع موعداً للنزهة في صحراء الأدب الجاهلي التي يراهـا الناس صحراء ، وأراها أنا حديقة من أجمل الحدائق وأروعها .

هذا ما قاله الأستاذ الجليل ، أولاً ، أما ما قاله بعد ذلك فهو : «انني أفكر في الافرنسية لأن الادب العربي لم يتطور ، والافكار لا تزال قديمة تفقد الرونق الذي يتمثل في الادب الغربي الحديث في أبهى صورة وأجملها وأحبها للنفس ، وفيه من جزالة اللفظ ونعومة العبارة وسهولة تفهمه وقوته وبراعته ما يحملني على الاعجاب به والارتياح اليه » .

قلت ان سماحة الاستاذ مشهورةوتواضعهعميق ولذلك لا يأنف من الثناء على الادب الغربي . ثم عدت الى قصاصات الصحف ألتمس الدليل على تفكير طه في الافرنسية فوجدتهبعد بحث عنيففيمقال كتبهعن بارتو وبوانكارهعلىأثر وفاتهما. وهاك منهالفقرة الاولى وفيها الدليلالقاطع ، قال: «كان من المؤثر في النفوس التي احتفظت ببقية من حس وفضل من شعور أن يعرف الانسان أن بارتو قتل يوم الثلاثاء فحزن عليه بوانكاره حتى قتله الحزن يوم الاثنين ، وأن بارتو دفن يوم السبت فلم يستطع بوانكاره إلا أن يموت ليدفن يوم السبت الذي يليه » .

ألا يضحك هذا التفكير الفرنجي البرّي ؟ أهكـذا يفكر الافرنسيون ، وهكذا يكتبون فيستعملون القصر في ما لا يسلم به صبي ؟ أيقولون : فلميستطع بوانكاره إلا أن يموت يوم الاثنين ليدفن يوم السبت ... كأن بارتو وبوانكاره

على ميعـاد ؟ هبها محالفة أو معاهدة يا دكتور فهم ينقضونها ... ليت بوانكاره عجل ليدفن مع بارتو في يوم واحد ، وقبر واحد كعشاق الحكايات لنرى من طه تفكيراً فرنسياً أغرب وأعمق ...

كنا اذا كتبنا مقالاً فرنسياً قال لنا معلمنا : انكم تفكرون في العربية ، فهل صار العكس بالعكس كما يقول النحاة ، لننصح لتلاميذنا أن يفكروا في الافرنسية ويكتبوا العربية كطه حسين ؟ وهل من الخير، كما يعبر طه ،أن نعلمهم ليقولوا في عشرة أسطر ما يقال في سطر عملاً بأسلوب طه الفرنجي العربي؟ وهل من الخير مرة أخرى أن ننبذ ظهرياً شعارنا العربي: خير الكلام ما قلّ ودل ، لنفكر ونكتب في أسلوب طه الحلزوني المطاط ؟ ان كان هكذا يفكر الفرنسيون فالجماعة ، قسماً بالله ، بلا فكر .

قال طه ان المتشرق كراتشوفسكي عرفه أكثر من احمد امين ، وان لديه أشياء ... فهل هذه البدعة الجديدة ـ التفكير في الافرنسية ـ من طلائع اشياء طه ؟.. لا أشك أبداً في أن طه عبد الغربيين ، وأدبه عيال عليهم ، ولكنني ما حسبت قط أن ستأتي ساعة نسمع فيها مثل هذه السفسطة من الدكتور. اني أرى تفكير طه في الافرنسية أخا البرنيطة التي يزعم سلامه موسى أنها تقربنا من الغرب وتبعدنا عن الشرق «القذر» فنفتكر كغربيين لا كشرقيين. فعلى من يروم الجديد أن يعمل برأي الأستاذين موسى وحسين، فيلبس البرنيطة ليفكر في الافرنسية ، وهكذا يدرك الأدب العربي التجديد من أقرب الطرق، وكفى الله المؤمنين القتال.

روى الماضون أساطير شتى عن «القبع الاخفى» فهل تمثله البرنيطة الموسوّية أصدق تمثيل؟ لقد عملت عصا موسى العتيق عجائب ،فهل تحيي لنا عهدها برنيطة موسى مصر الجديدة ؟ أما أنا فأشهد أنني عرفت أكثر من ألف معّاز لبنـــاني سوري عادوا الينا من المهجر وقد لبسوا البرنيطة ربع قرن ولم يتغير تفكيرهم... فهل عند سلامه موسى طريقة يعلمها هؤلاء المتبرنطين ليفكروا تفكيراً غربياً كما يريد هو والشيخ طه ؟ رحم الله من قال : وكم بمصر من المضحكات ... لم يبق إلا بدعة الحروف اللاتينية فليقرها هذان الاخوان فيتيسر لنـــا التفكير

والتعبير الغربيان ويقضي الأمر .

ان الملبوس لا يعمل القسوس، فالتجديد غير ما يفكر به طه ، ولا ما يرشد اليه سلامه ، فلا الطربوش يعتّق ولا البرنيطة تجدّد . ان منبع التجديد تحت البرنيطة والطربوش ، وآلته عقل ثاقب ، وخيـــال رائـع ، وفطرة مبدعة ، والعبقري لا يعوزه التقليد .

ان الفرنجة لا يكتبون ككتابة طه الناشفة كلسان الحموم، ولكل أمة أسلوب في التفكير والتعبير ، واختلاف الأدب ظاهر حتى بين الانكليزي والاميركي . قد علمنا كثير من القدماء والجدد كيف يكون التجديد فلنقتدِ بهم .

يقول طه ان الأكثرية في سورية من المحافظـــين . نحن نسلّم بذلك ونزيد عليه : اننا نعد هؤلاء المحافظين اشياعاً لطه واضرابه ، واذا كان في مصر من هو ذو أسلوب عربي خاص بصاحبه فذاك هو العقاد في نثره — دع شعره البارد — فهو عربي التفكير والتعبير بضد طه الذي لا يستطيع التعمق وهو معذور . تقرأ مقالاً للعقاد فتعلم انك أمام رجل مفكر ، وتقرأ مقالاً لطه فتعلم أنك أمـــام رجل يحب الحكي ...

ولم يكتف المصريون بادعاء التجديد في اللغة الفصحى حتى قال سلامه موسى: «ان لغة ام كلثوم وعبدالوهاب ترطب لغتنا العامية وتعلمنا درساً جديداً» . أما نحن فنقول انه لا يلذ لنا من غنائهما إلا الفصيح لأننا نفهمه ، وكثيراً ما أفسدت علينا لغتهم العامية رواياتهم المسرحية والسينمائية ، كما بسطنا ذلك للزعيم الاقتصادي الجليل طلعت حرب باشا ، فأجاب جواب من يتلافى الخطأ متى اهتدى اليه .

وبعد فلننظر ما أنتج أدباء مصر في هذه السنين القاحلة . أما طه فما عمل شيئاً غير مقالات جمعها تحت عنوان جديد كما فعل من قبل في كتـــاب حافظ وشوقي ، وأكثر كتّابهم يفرّون من معركة الابداع الى ميدان إحياء القديم . ومهما يكن من شيء فقد عرف كل كاتب من اشياخ كتّاب مصر اتجاهه إلا طه فانه لا يزال كحاطب ليل ، وهو الى هـــذا يدعي التجديد ، والتجديد عنده تفكير في الافرنسية كما رأيت .

هذا كثير يا دكتور ، أتقلد الفرنجة حتى في تفكيرهم ؟ لقد أغليت يا مولانا حتى صرت كرأس براهمة الكوخ الهندي ترى كل شيء فيك .

قال حسين هيكل : لم يثبت في ميدان النقد إلا طه ، أما انا فأقول : ان نقد طه تضخم حتى فاق نقد هذه الأيام فهو يجتر ويجتر ويجتر ، ويدعي ويدعي ويدعي حتى كاد يقول كالمربدين : نحن العالم .

انذوق استاذكم الفني ضئيل جداً ،وهو يتفرعن بلا شيء،وما أشبهه بالبزّاقة ، فهي اذا أنحت عن خرطومها المدر كخابية الاخطل ، ومدّت قرونها وانتفشت حسبتها شيئاً ، أما اذا أعدتها الى بوقها فتراها محتشمة متواضعة وديعة .

ان طه يطلب أما معدته فلا تقطع ، وهذا ما بلاه بعسر الهضم ، وان بقي معتزماً الاصطياف في لبنان ، فانصحه أن يصيّف في فالوغا،فمياهها تغني المعدة عن علم ابي جعفر صاحب ابي نواس ... أما حاول طه أن يقلد المعري في « على هامش السيرة » فلم يفلح ؟ وما أدرك الظالع شأو الضليع ، كقول شيخ ربيعة الفرس . أما كتب ايضاً قصة أديب فكانت لا شيء ؟ والاستاذ الى كل هــذا نسّاء ينفي اليوم ما أثبته أمس فكأنه لم يهتد بعد الى شخصيته . انه يحـاول ولكنه غير موفق ، هدانا الله واياه الصراط المستقيم .

طه حسين في آثار ثلاثة

جنة الشوك

حقاً ، ما هذا الكتاب جنّة شوك ، إن هو الا جحر قنافذ .

اشتقت إلى صاحبي الدكتور طه حسين واشتقت اكثر الى النقد . أما وضعنا أوزار النقد حين قامت الحرب على ساقها؟ إن المحيط لا يحتمل حربين...والآن وقد نامت تلك فها نحن أولاء نعلنها حرباً ادبية لا تراعي في المنام خليلاً ، ولا يخمد نارها الا هادم اللذات .

قلت اشتقت الى صاحبي الدكتور ، فبينا أذكره ــ كما قال ابن ابي ربيعة ــ اذا بصديق عوّدني هذا الفصل يدخل عليّ حاملاً «جنة الشوك» كتاب الدكتور الجليل ، فقرأته بلا انقطاع من الجلد الى الجلد ، وكنت أرى طه رائحاً جائياً بين السطور ، كما أتخيّله انا ، فحتى الساعة لم أسعد برؤيته . يجيء ، حفظه الله ، لبنان يوم اكون منزوياً في بيتي ، في ضيعتي البعيدة القريبة ، البعيدة بطريقها الشاقة ، والقريبة لأنها في نقطة البيكار من لبنان .

قرأت أدباً طريفاً في « جنة الشوك » ، والدكتور ابو الطريف ، بل كاد في هذا الكتاب أن يكون ظريفاً . في « جنة الشوك » كلام نقي خالص كالذهب المصفّى ، فلم يجد النقد فيه مرعى يسمن عليه . فقعدت حسيراً اشكر للسياسة يدها البيضاء من غير سوء ... اقصت الدكتور عن منصبه فأخرج هذا الكتاب الفذ ، كما صدت الولاية في الأمس عن ابي الطيب فترك للذرية تراثاً لا يموت .

أجل ، لقد أبعد «المستشار الفني» عن كرسيه فنفح الفن بهذا اللون الطريف ، وما كل « مستشار فني » يخرج من رأسه ما خرج من رأس طه اذا عزل . اخرج

الدكتور ، كما قال : « مرايا يمكن ان يرى الناس فيها أنفسهم » ، اما أنا فاشهد انني رأيت وجه الدكتور في المئـــة ونصف المئة ـ كما عبّر هو ـ من هذه المرايا التي اخرجها معمله الفني للناس .

لا أقول في « رسالته » لان الدكتور غضبـــان على خفافيش الادب الذين يتخيّلون انفسهم اصحاب رسالات ويحدثون الناس عنهـا ، بمنجهية وتبجّح يفلقان صدر احلم الناس ، وقد خصّ هؤلاء بمرآة فاقرأها اذا شئت .

أرأيت الى السم ،ان هذه المرايا مثله. ارادها مواعظ بالغة ، فبعد عن النكتة المصرية العابثة المرحة التي تضحك ولا تؤلم . فكأنه أراد ان يخاطب بها العقول الحصيفة لا الأذهان الخفيفة الرأس التي تفهم النكتة بيديها ورجليها.. لقد مشى الدكتور وابن المقفع جنباً الى جنب في الرمز ، وفاقه في التعبير العربي اللسان والجنان.

انني لأعجب منّا نحن ، معشر الكتاب ، فقد أدّبنا عبد الحميد الكاتب غير هذا الأدب. أما قال لنا ، رحمه الله ، في رسالته الى الكتّاب : «وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليـه وواسوه حتى يرجع اليه حاله ويثوب اليه امره . وليكن الرجل منكم ، على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه ، احوط منه على ولده وأخيه » . فما هذا العقوق الذي يصوره الدكتور ! ؟ ومن ينكر فضل الاستاذ على الجيل الذي ثقّفه وهذّبه ؟

الحمد لله ، ان الدكتور الجليل بغنى عن عطف الناس ، فهو هو في الحالين ، ويستطيع ان يقول بكل فخر لا ادعاء كالطغرائي :

مجدي أخيراً ومجدي أولاً شرع والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفل

وقد يقول واحد ، ولِمَ هذا ؟ فالجواب الواضح عند احدى مرايا الدكتور في جنة الشوك ، هــــذا الاسم البودليري اللذيذ ، والدكتور في هذا كصديقه ابي العلاء يسمي كتبه احسن الاسماء ، جلّ من له هذه .

قال الدكتور ، وعنوان هذه المرآة : تجنٍّ .

«تلقّاهم من المدارس الثانوية لا يحسنون شيئاً ، فتعهّدهم حتى احسنوا أشياء كثيرة وحتى ظفروا بما يظفر به الشباب الممتازون في الحياة الجامعية من درجات وألقاب.

ثم تعهدهم حتى اطمأنوا في الحياة الى ما يحبون .

وكانوا لهذا كله ذاكرين شاكرين ، وكانوا من هذا كله متزيدين ، حتى لم يجدوا سبيلاً للمزيد . ثم ازورّ عنه السلطان ، فازورّوا عنه ، وقالوا : جفوتنا حين كان يحسن ان تصلنا .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ما اعرف انهم لقوا منك جفاء وازوراراً.

قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ليس المهم ان تعرف أو لا تعرف ، وانما المهمّ ان تعلم ان كلمات التجنّي والتعلّل والتكلف لم توضع في اللغة عبثاً، وانما وضعت لتدل على معان . والمعاني لا تقوم بأنفسها وانما تقوم بأنفس الناس .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أليس قد علّمنا المعلمون في الكتاتيب ان الامام الشافعي كان يقول : من علمني حرفاً صرت له عبداً ؟

قال الاستاذ لتلميذه : بلى ، ولكن الحياة قد علمتنا ان الضرورات تبيح المحظورات . ومن المحظورات ان تجفو من جفاه السلطان . فقد تصدّك صلته عن بعض ما تحب ، وتصرف عنك بعض ما تتمنى » .

ان الكتاب يا عزيزي القارىء ، محاورات بين شيخ وطـــالب فتى ، وما احسن جواب الشيخ ، وهو الاستاذ الجليل ، في المرآة التي سمّاها هجاء .

« قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ:أي فنون الادب أحق ان يزدهر وينفق في هذا العصر الذي نحن فيه ؟

قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لا أدري . ولكننا في عصر انتقال اشد فنون الأدب له ملاءمة فنّ الهجاء » .

لقد اصاب الدكتور من جهتين ، فقد يؤدي الهجاء الى المناصب ، فأكرم بهذه المرآة ، فهي انقى من مرآة الغريبة .

ويتكلم الفتى سائلاً استاذه الشيخ بعد ان تحدثا عن وعود النساء : « وأي وعود الرجال اشبه في ذلك بوعود النساء ؟ »

اجاب الاستاذ الشيخ : وعود الساسة حين يطلبون النيابة من الشعب ، او النهوض بأعباء الحكم . وكم اعجبتني هذه التي عنوانها : « نحو » .

قال الطالب الفتى لاستاذه الشيخ : أأصدق النحويين واصحاب اللغة ام اصدّق فلاناً مع انه لا يقول في النحو الا خطأً ؟

قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : صدّق فلاناً لانه نحوي لغوي بحكم القانون.

صدق الدكتور ، ان القوانين تخلق ما لا تعلمون .

اظنني اكثرت من الاستشهاد ولكن هذا اللون الطريف لا يمل ّ ولا يشبع منه ، فإليك هذه الشوكة الاخيرة ، واسمها : زيارة .

« قال الطالب الفتى لاستاذه الشيخ : قد كان فلان يكثر من زيارة فلان قبل ان يتنكر له السلطان ، فلما أعرضت عنه الدنيا اعرض معها .

قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لا . ولكنه يزوره ويطيل الاقامة عنده اذا جن ّ عليه الليل ، لان آية النهار مبصرة ، فاذا انصرف انشد قول المتنبي في بعض مدائحه لكافور :

ازورهم وسواد الليل يشفع بي   وانثني وبياض الصبح يغري بي »

آه ، كم احس بما يعانيه الدكتور من هؤلاء المتذبذبين .

ولكي يتمتع القارىء بهذا الظرف الوقور فأنصحه ان يقرأ هـذا السفر الصغير ، ففيه متعة كبرى لقوم يعقلون ويريدون ان يتأدبوا بكل ما في كلمة « تأدّب َ » من معان ...

لست اكتم القارىء انه سيجد مرارة حادة كما قلت ، ولكنها مرارة الدواء الذي ينجّي ويشفي من الداء . وسيقبلها القارىء ويتأثر بها لانها صادرة من اعمق اعماق نفس طه حسين الاديب العظيم . فهذا الرجل ، كما يظهر لي من انشائه ، قوي الحساسية ، بل أرى حساسيته اشد تأثراً من زجاجة التصوير الشمسي .

اننا نشكر الفرصة التي اخرجت هذا الكتاب الطريف الجديد ، ويا ليت الحوادث تتكرر ، بشرط الا تنال الدكتور العزيز بأذى ، ليخرج لنا مثل هذه الذخيرة النفيسة الطريفة فيثري ادبنا العربي ، فنفس الاديب الحق كالارض ، ولا يستغلها كل الاستغلال الا الظواهر الجوية ، فأبرقي يا سماء وارعدي . اللهم حوالينا لا علينا ...

نقول طه حسين كما يقولون جورج ديهامل وغيره من أعاظم الكتّاب ، فقد أصبح في غنى عن جميع الألقاب، وان منح أخيراً لقب باشا . أما هذا الكتاب فمجموعة مقالات اخرجها الاديب العظيم في صورة رسائل ، وجميعها تنضح بالألم المر . يشبه هذا الكتاب أخاً له من قبل اسمه «جنة الشوك» ، وفي هذا وهذاك أشواك حادة يستحقها كل تمساح عاق ، ناكر للجميل . صُدّرت هذه المجموعة بأربع رسائل كتب الدكتور تعريفاً بها هو هذا : «رسائل تنسب الى الجاحظ، وأراها محمولة عليه، لأن تكلف التقليد فيها ظاهر.» واني أشايعه في هذا الرأي، فقد رمى فأصمى لأن التقليد مستحيل. فكما لا يستطيع احد ان يقلد طه حسين وغيره ، كذلك لا يستطيع طه حسين ان يقلد الجاحظ وغيره من سادة القلم . وهب اننا قلدنا الجاحظ في تعبيره وتفكيره فمن اين نجيء بشخصيته التي هي ملاك اسلوبه وبها تحيا كتابته .

رحم الله الطغرائي، فقد سبق الى ما يحيينا به اليوم الدكتور طه، أما قال ذاك:

غاض الوفاء، وفاض الغدر وانفرجت مسافة الخلف بين القول والعمل

ودكتورنا الجليل يقول في اصحابه الذين عقوا، وكفروا وما شكروا : «قد اقاموا حياتهم على الكذب ، وأجروا سيرتهم على الرياء ، فهم لا يستطيعون ان يعيشوا بأنفسهم ، وانما يستمدون حياتهم من المنعمين عليهم ، ومن المفترّين بهم ، يرقون على اعناق سادتهم الذين احسنوا اليهم وبرّوا بهم وغمروهم بالمعروف » .

وما اجمل ما يصف لنا نموذجاً من الناس نتعثر بوجهه في اغلب الاوقات فيقول له : «انما أنت رجل محصنٌ ، لا يبلغه العدو ، ولا يصل اليه الصديق، وأكاد اعتقد ان ليس لك عدو ولا صديق . شغلت بنفسك حتى يئس الناس منك فلم يطمع فيك طامع ، ولو قد فعل لما نال منك شيئاً». وهذا هو اليأس المريح الذي رأيناه عند الحطيئة . ثم يقول لهذا : « أنت شريكهم في العيش الرخيّ والحياة المقبلة ، وأنت أبعد الناس عنهم حين يغلظ العيش ويعظم اليأس وتدبر الحياة» .

ثم ينتقل إلى وصف قلب هذا الصديق الصخري فيصفه وصفاً وافياً شافياً كشأنه حين يريد ان يصف شيئاً فيطمره حتى يكاد يفطسه بتلك التعابير المتشاكلة المتشابهة. واخيراً يتحول إلى نصحه ووعظه فيقول له : « صدقني ان من الخير الكثير لك ولغيرك أن تصدع قلبك قبل ان تصدعه الأحداث، وان تفتح قلبك قبل ان تفتحه الخطوب ، وان تشعر من حولك من الناس بأنك تجد بعض ما يجدون ، وتعتقد مثل ما يعتقدون . انك مثلهم خلقت من تراب وستعود الى التراب » .

ويستولي الأديب على أمد الألم واليأس فيقول : «حية و كلب وديك ، هؤلاء هم أصدقاؤنا القدماء . فابك إن كنت خيّراً واضحك إن كنت شرّيراً ، وثق على كل حال بأن اصدقاءنا هؤلاء لم ينفردوا بما كتب عليهم من المسخ ، وإنما هي محنة عامة يمتحن بها هذا الوطن البائس في كثير من بنيه » .

إن في مرآة الضمير الحديث صوراً بشعة ، وكاتبه الفذ ما شاء ان يرينا غير هذه البشاعة التي نراها في كل مكان وزمان ، فنغمض عيوننا ، ولكن أين يهرب قايين من عين الله؟ فهذه العين كما صوّرها هيغو تخترق الجبال النحاسية لا الأسوار. أصلح الله الحال ، وعلى أديبنا المفجوع بأمانيه، أن يصبر متمثلاً بقول الطغرائي:
والشمس رأد الضحى كالشمس في الطَّفَلِ ...

المعذّبون في الأرض

وهذا كتاب آخر عنوانه «المعذّبون في الأرض» كتبه مؤلفه في فترات مختلفة . في صدره فصول كتبت على غرار القصص. يريد الدكتور أن تكون هذه الفصول قصصاً، وهو يعلم انه ما هكذا تكتب القصص فيقطع الدرب على قارئه وناقده، يتفداه قبل ان يتعشّاه كما يقول المثل . قال في المقال الأول وعنوانه «صالح» : «لا أضع قصة فاخضعها لأصول الفن، ولو كنت أضع قصة لما التزمت اخضاعها لهذه الأصول، لأني لا أؤمن بها ولا أذعن لها ، ولا اعترف بأن للنقاد ، مهما يكونوا ، أن يرسموا لي القواعد والقوانين مهما تكن. ولا أقبل من القارىء مهما ترتفع منزلته ان يدخل بيني وبين ما أحب أن أسوق من الحديث ، وإنما هو كلام يخطر لي

فأمليه ثم أذيعه. فمن شاء أن يقرأه فليقرأه ، ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه».

ليس المعذبون في الأرض إلا مآسي بؤساء تنضح بالويل والعذاب، فهي كعبرات المنفلوطي شقاء ، ولكن بينهما بوناً شاسعاً في الفن . فطه يعرف من أين تؤكل الكتف ، ولولا تمرّده الجميل الذي بسطته لك ، وحبه دغدغة قارئه ومداعبته والثرثرة معه ـ كما يعبّر الفرنج ـ لكانت «المعذبون في الأرض» قصصاً فنيه طريفة. ولكنه يسوّد مثلاً سبع صفحات ليخبرنا بها عما يريد ان يحدثنا به عن المعتزلة ، وامّ تمام. فطه وقارئه في نضال مستمر وجهد جهيد، فلا يترك ذاك القارىء حتى يعود إليه . لقد أجاد في « المعذّبون في الأرض » لأنه اتخذ حوادثه وابطاله من شؤون يحسّها ويعرفها مثل : وصف الكتاتيب والتعليم فيها ، وطه أدرى البشر بسيّدنا والعريف ، وهو يعلم كيف كانوا يختمون الاولاد ليحولوا دون خطر السباحة الذي كان يتهدّد حياتهم ... وقد أجاد كل الإجـــادة في وصف الأم الضاربة بنتها الشاردة ...

وفي هذه القصص شيء كثير من العنصر الشعري الذي هو جوهر القصـة . وهي تمتاز باللون المحلّي الصارخ وهذا ايضاً من عناصرها ومميزاتها ، وهنالك تعابير طريفة يوفّق إليها الدكتور فتغطي عيباً لا يستطيع التخلص منه قوله مثلاً : وكان دنو امرأته من الشيخوخة أو دنو الشيخوخة من إمرأته .

ويعجبني من أديبنا العظيم في « المعذّبون في الأرض » تركه التنطّس القديم، ولجوءه إلى ألفاظ تؤدي معناه وإن كانت ليست من كلام العرب كقوله : خبز حاف ، بدلاً من قولهم قفار ، وصينية وغيرها .

إن شخوص هذه الأقاصيص تحمل أوراق هويتها علاماتها الفارقة ، وهذا ما لا بد منه في كتابة القصص .

في «المعذّبون في الأرض» ستّة فصول في ثوب قصصي، وخمسة من نوع المقالة، وفي هذه كلها يسود عنصر القص ، لأن طه ، أينما كتب، لا يفارق عمود القص، فهو دائماً يحدث ، وإننا نسأل له طول العمر ليظل يحدّث .

حياتي

لاحمد امين

يحذو احمد امين الكاتب المصري الشهير حذو القونس دوده، واناتول فرانس فيما كتباه عن نفسيهما ، وحسبه ان يكتب سيرة حياته مخلصاً صادقاً متواضعاً في قصه واسلوبه وبيانه، بسيطاً غير متكلف في اخراج صورها. لم يسم كتاب حياته كما سماه الكاتبان الفرنسيان العظيمان وغيرهما ، بل قال لنا بكل سذاجة هذه سيرة حياتي أدوّنها في هذه الأوراق بلا خجل وبدون تزويق .

ينحو احمد امين في كتابه نحو العلماء والمفكرين في تحليل الاشياء ودرسها وتمحيصها ليخرج منها بالنتائج والغايات. يهمه ان يفيدك قبل ان يطربك ببلاغته وطرفه ، ويعنيه ان تخرج من كتابه مقتدياً بنضاله وكفاحه .

تطالعنا الكآبة والحزن في مطلع كتاب «حياتي» لأن صاحبه مكتئب حزين كما يحدثنا عن نفسه . يعتذر الاستاذ بتواضع عن عدم معرفته نفسه بقوله : «ان الشيء اذا زاد قربه صعبت رؤيته » ولذلك صعب عليه ان يرى نفسه كما هي . ثم يؤكد لنا ان شخصيته بما فيها من خواص لهي عمل سنين بل صنع اجيال ، ولو ورث انسان غيره ما قد ورثه هو من خواص وعاش في بيئة كالتي عاش هو فيها لكان اياه ، او ما يقرب منه جداً .

قرأت هذا فذكرني بما حدثنا به مار اغوسطينوس حين زعم لنا انه لو ولد في الغرفة التي ولد فيها جاره وصديقه اليهودي لكان يهودياً لا مسيحياً . . ثم يتوسع الدكتور في الايضاح فيقول: «ظلم صراف البلدة اخرج ابي من سخراط واسكنه القاهرة، حيث ولدت وتعلمت، ولولا ذلك لنشأت فلاحاً مع الفلاحين ازرع واقلع».

انا لنحمد الله على هذا المكروه ، أي ظلم ذلك الصراف الذي أدى الى منح العربية كاتباً عاملاً ألـّف فجر الاسلام وضحاه وعصاراه . خشي الاستاذ الا تفيد سيرة حياته احداً من الناس فاذا بي أراها حافلة بأعظم درس يعلمنا كيف يخلق الرجل المريد نفسه ، وان النبوغ جهاد متصل لا ينقطع حتى يبتدىء. فخير درس مفيد للشباب الطامح الطامع نجده في «حياتي» لاحمد امين . أما اتفق ثلاثة من جهابذة مصر على اخراج «فجر الاسلام» واقتسموا العمل ، ثم حالت شؤون وشجون دون نهوض اثنين منهما بحصتيهما من هذا العمل المضنك ، فاذا بهذا الرجل ينهض بذلك العبء وحده ، وكان ان قدرت مصر جهوده وعناءه فكوفىء على عمله الجليل القدر بلقب دكتور فخري وجائزة فؤاد الاول — الف جنيه .

لا ينفسح المجال لتلخيص كتاب ضخم كهذا فأنصح لك ان تقرأ هذا الكتاب قراءة متأمل متعظ ، فتعلم كيف نشأ احمد امين وكيف تعلم وعاش . انك ، إذ ذاك ، لتستغرب كيف ان حياة قاسية خشنة كحياة احمد امين التي هي صورة مطابقة لصورة حياة المخضرمين منا ، تنتج هذا الانتاج السمين . انك لتتعجب كيف تخرج ما اخرجت حياة الامس الخشنة المتواضعة ، حياة الغبراء والحصير لا حياة السجاد والسرير والصوف والحرير . إذا قابلت حياة الامس القاسية بحياة اليوم الهانئة الناعمة ، مأكلاً ومشرباً ، وملبساً ورخاء وتسلية ، ورأيت ما أخرجت هاتيك للناس ، وما تخرج هذه تكفر بالحضارة والمدنية وتقول : عودوا بنا الى الوراء .

وواحدة اخرى توحي بها الينا حياة احمد امين وهي اننا نعرف منها تطور العلم في مصر ، وتبدي لنا صورة تطور الطلاب ، وانطباعات نفسية الشباب . فحياة هذا الرجل تاريخ حقبة زمن عصيب إن لم تقرأه مفصلاً ، تدركه مجملاً .

واشهد اني رأيت الاستاذ احمد امين يرينا نفسه كما خلقها الله ، لا يدثرها بثوب الرياء الذي يلجأ اليه قبل كل شيء اكثر من يترجمون لأنفسهم . لست ازعم انه باح فاستراح ، ولكنه قال كل ما يحكى ويقال ، وهذا ما يحمد له ، ويشكر عليه ، وحسبنا انه اعترف لقرائه بحبه معلمته الانكليزية ذلك الحب العذري ...

وما أسفت لشيء في هذا الكتاب إلا لأن الاستاذ الجليل لم يشرح لنا بعض ألفاظ محلية ، مثل البوظه والجرن واشباهها لأننا لا نستطيع فهمها لاختلاف مدلولها بين الاقطار ، ولعل الاستاذ يفعل ذلك عندما يعيد طبع كتابه النفيس .

ان لاحمد امين مقاماً سامياً في نفسي ، وقد قدرت جهــــاده قبل ان اقرأ كتابه في سيرة حياته ، فكيف بي الآن وقد رافقته في جميع مراحل السن ، اطال الله مدته وبارك في عمره . وحسبي تقديراً لكتـابه النفيس اني دفعته الى اولادي ليقرأوه ويتعلموا منه جهاد كبار رجال العلم والأدب ، واني لأسأل الله ان يرزقهم معلمة رصينة كتلك الانكليزية الساحرة العينين فيرغبوا في تعلم لغة جديدة فوق ما يعرفون من لغات ... ان رفيق الطريق الحسَن يمهد العقبات ، ويقصر لطفه المسافات ويدني الأبعاد ...

جزى الله الاستاذ الامين صالحة ، ووقاني واياه غدرات السكـّري .

اليوم خمر

لمحمود تيمـــور

كان العهد بالاستاذ تيمور كاتب اقصوصة مصرية من الطراز الأول ، تحفل أقاصيصه باللون المحلي،وتبرز ممتعة بطرافة وصفها وتحليلها لأنفس تلك الطبقة التي لم تزل كما كانت زمن المسيح ومحمد . ثم كتب القصصي الكبير الرواية فسار في طريقها عنقاً فسيحاً ... والتفت اخيراً صوب المسرح فكتب مسرحيات لا أدري كيف تكون حين تعرض على الخشبة . وعلت الصيحة وراء احدى مسرحياته لأنه كتبها باللغة العامية فنقلها للساخطين باللغة الفصحى .

والتفت تيمور الى الماضي البعيد فعنّ له ان يعمل ،كشوقي،مسرحية من صميم الأدب العربي ، فألّف «اليوم خمر» وهو عنوان يتمته كل متأدب : وغداً أمر ، متذكراً امرأ القيس او خاله المهلهل قبله ، لأن هذه الكلمة تنسب الى كليهما .

لم يخرج تيمور في مسرحيته «اليوم خمر» عن نطاق مغامرات امرىء القيس، وليس يوم دارة جلجل بسر . ثم أجرى الفصل السادس في القسطنطينية ، غير مبال بإغضاب من أنكروا وجود امرىء القيس ،ولا بالاب شيخو الذي عدّه ليزيد في عدد النصارى شاعراً . أما تسديس فصول المسرحية فطريف يذكرني بابن زيدون مسدس ولادة ...

أحيت مسرحية تيمور ذكرى حامل لواء الشعر في النار على الورق ، ولعلها تنجح على الالواح كما تبدو لي موفقة بين دفتي الكتاب . اضطر المؤلف حين ركب هذا المركب الخشن الى ان ينطق ابطاله كما كانوا يتكلمون في محاورتهم فافلح في هذا وكان طريفاً في حواره ، طريفاً في اظهار اخلاق أسلافنا في جاهليتهم ،

ومرحهم ، وبطرهم ، وأرانا انهم ، على يبوسة محيطهم وجفافه ، لم يحرموا نضارة الحياة.

ان ابطال «اليوم خمر» اشكال وألوان. فحنظلة وغضنفر شخصان يهزلان في كل مقام ، فيخلقان جواً مرحاً في المسرحية . كما نرى اكثر الأشخاص الآخرين يستخيرون الصنم وبينهم المؤمن والهازىء . فأشخاص «اليوم خمر» يعرفون من ميولهم لا من سماتهم وسحنهم ، وما فيها من علامات فارقة ، كما هي العادة عند مؤلفي القصص والمسرحيات . فاذا سمعت ابطال تيمور يتحاورون بلغة الجزيرة تنكر ان يكون مؤلفها الاستاذ تيمور صاحب الحاج شلبي وغيرها ، وان كانت لم تخل من ألفاظ وتعابير معاصرة . ولقد أحسن المؤلف تقمّص ابطاله فاختفت شخصيته كل الاختفاء ، وهذه أولى حسنات المسرحية .

اما المآخذ فقليلة ، واكثرها في التعبير كقول احد الابطال لامرىء القيس: يخطب ودك . أما الفصل الخامس فيبدو لي كأنه كتب توطئة لغيره ، فلو تصرف الاستاذ تيمور في حوادث المسرحية لجعل النظارة يتوقعون حدثاً جديداً ، ولكنه رأى الدرب دونه ... فسار عليها آمناً ضاحكاً ولم يبك كصاحب امرىء القيس.

وبعد ، فلست ارى حضور بنت قيصر الى القهوة امراً سهلاً وطبيعياً ، ناهيك ان اجتماع ثلاث نساء في قهوة لا يحتمل ولا يطاق ... وكأن المؤلف قد استكثرهن فجعل احد ابطال المسرحية حنظلة يقول : ثلاث نساء ورجل واحد !

وكان المؤلف شاء ان يظهر اخلاق امرىء القيس فختم المسرحية بقوله يخاطب بنت قيصر وبنت صاحب الحانة : «لقد أنست معكما بأعذب متعة وأطيب وقت. لا انساكما ما دمت حياً» . ولكن هذا كثير جداً .

وتختم المسرحية بانصراف الملك الضليل ليلحق بقومه منتصراً على حبه انتصار تيمور في القصة ، لا المسرحية ...

حول القصة والقصصيين

توفيق عواد — من الصبي الاعرج الى الرغيف

سفر تكوين الرواية

نخشى ان لم نهش ّ ونبش ّ لرغيف توفيق عوّاد أن يصح فينا قول المثل اللبناني. فلان لا يضحك للرغيف السخن . ليس رغيف توفيق سخناً فقط ولكن مقرّص من عجين طالع ، فجاء رافخاً تشتهيه العين والقلب . كأنه الخد المدلوك دلكاً عنيفاً في غرفة الزينة .

قد بدأت درس توفيق بالمقلوب، ولا عجب فرغيفه المشقّر معروض في واجهات المكاتب يقبل عليه جياع الأدب يلتهمونه كما سبوا صبيّه ونهبوا قميصه من قبل . وإننا لراجعون إلى الصبي والقميص بعد أن نشبّع الرغيف وزناً وتحليلاً .

إن عيني توفيق عوّاد قويّتان « يدوّرهما » ساعة يشاء ، فظهارة بطله أشد بدواً من بطانته ، وهذا دليل على أنه قويّ الملاحظة شديدها . وقد كتب تحت «الرغيف» رواية لأنه يفهم ان قصة طويلة ليست رواية ، كما أن الرواية القصيرة ليست قصة . فهذان النوعان لا يقاسان بالأسطر ولا بالساعات، ولكنهما يختلفان في البنيان، لا في الاتساع والطول والعرض ، فليست الرواية ملعب فوتبول، ولا القصة طاولة « بنك بانك » ، فالقصة تقتصر على حادث عرضي من الرواية التي تكون متشابكة الحوادث غزيرتها . والقصة تجتزيء عادة على نوع من العرض كالخبر والمحاورة والمناجاة ، أمّا الروائي فهو كالموسيقي الماهر يبدّل ويغيّر ألحانه وسلالمه ما شاء ، ويستعمل للذة فنّية دقيقة أساليب لا تعدّ ولا تحصى لأن النبوغ يعرف بالابداع الفني .

والمجال في الرواية فسيح الرحبات للأديب الموهوب، ففيه يستطيع أن يعقّد ويوسّع الحقل لنفسه فيسرح ويمرح ، ويلحق به مساحات جديدة بلا عناء ، كما تفعل دول الطغاة اليوم ... ففي الوصف ، والقص ، والتحليل ، والحوار ميدان للاقلام القارهة .

ليس هناك قواعد تعلمنا بالحصر كيف نخلق الاثر الفني ، ولكن هناك شروطاً لا يحيا بدون مراعاتها هذا الأثر . كما أن مراعاة هذه الشروط لا تبلغ القصد ان لم يحُزْ المؤلف صفات داخلية تعجز عن إيجادها النواميس والقوانين الموضوعة . وهذه الهبات التي نسبها الناس قديماً الى شياطين الشعراء وعفاريت الأدباء هي التي تمنح الأثر جماله الرائع .

وشرط التأليف ، كشرط الجمال ، التناسق ثم التناسب والتلاحم . وفي الكتاب ، وخصوصاً الرواية ، يطلب كل ما يطلب من قطعة فنية سواء أكانت صورة ، او قطعة موسيقية . وأول مطالب الكتب الانشاء الرفيع الذي لا يخلد بدونه أثر . ونعني الانشاء الشخصي لا التقليدي الذي يفلقنا به من يكررون على مسامعنا في كل ساعة كلمة قالها ابن خلدون في المتنبي والمعري . ألا فلنضرب بعمود الشعر كل رأس فارغ ...

للغة قواعد وللغة علم يسمّى علم البلاغة ، فعلينا أن نخلق ، كما خلق القدماء ، لا أن نعلك تعابيرهم كما تعلك الخيل اللجم ، ويشط ريالنا مثلها ، ولا أن نجترّ ما تساقط عن موائد السلف الصالح لنسمى كتّاباً . فهذه آفة أدبنا العربي الذي جعله أصحاب العقول الضيقة رواسم ومومياءات تأنف من سماعها الكثرة ما لاكتها ألسنة الغزاة . حتى قال أحد المتمشرقين ، وأظنه ماسينيون : الأدب العربي رواسم . كليشيهات .

أجل لا يخلد أثر فني إلا اذا كانت مادته انشاءً شخصياً ، وهذا الشرط يعني كل تأليف وخصوصاً الرواية التي طفت اليوم على الاسواق الادبية . والى انشاء الرواية العالي تضاف أشخاصها ، فرواية بلا اشخاص أفذاذ كأمة بلا نوابغ . فالوصف مثلاً ليس بقصة ، ولا يستحق هذا الاسم ، لأن الرواية هي خبر صحيح او كاذب كالصحيح ، كما أن الخــــبر الحقيقي ليس رواية . فالمذكرات والسير ،

والاعترافات وقصص التاريخ لا تدنو من الرواية إلا بمقدار، أي في الاسلوب والقص، ولكنها ليست رواية في كل حال . فالرواية هي ما تقص خبراً مخترعاً تلذك قراءته لطرافته وأسلوبه ، ولم يبث فيه الكاتب من روح حية تأسرك ، بل تنقلك الى الساحة التي يجعلها معترك أبطاله ، فتشعر أنك حيال المشهد، وكأنك أمام ناس بلحمهم ، ودمهم ، وسحنهم فتكرههم وتحبهم وتكاد تهاجم بعضهم وتدعو عليهم بقصف العمر إن كانوا جبابرة وكنت ممن يحولون الخد الايسر .

ففي كل رواية رجل يحدثنا بانشائه الخبري وطريقته القصصية ، ولكن هذا الرجل لا يكون روائياً صالحاً ان لم تتألف شخصيته من عشرات الاشخاص، وهذا ما يخلق الاثر الفني، أو فنية الرواية ـ إن صح التعبير ـ فعل الروائي هو ان يثير فينا تأثرات عديدة. ومن هذه الناحية تتسع الرواية لجميع ضروب البيان الشعرية ـ والشرط أن لا يطغي الانشاء الشعري ـ وجميع ضروب الانشاء في جميع الاغراض التي تضحك وتبكي وتغيظ وترضي. وبكلمة وجيزة، الرواية دنيا واسعة يستطيع الكاتب القدير أن يستغلها ، فهي غنية بالمواد الاولية ـ كرومانيا مثلا ...

أما القصة فلا تتسع لكل هذا لأنها لا تدوم طويلا. والشعر المنثور، اذا طغى، أبعد المؤلف عن القصة وقرّبه من الشعر ، فأجنحة جبران المتكسرة وأخواتها الروائع العربية الخالدة هي كسفر ايوب ، أقرب الى الشعر منها الى القصة .

ان الرواية تبعث فينا لذات ذهنية مختلفة حين يهزنا كاتبها بوصفه الذي تولده قريحة متقدة ، فهو يصور لنا بعض نواحي الحياة تصويراً فنّاناً تؤخذ به العين فيبتهج القلب ، ولذلك يبتعد الروائي الموهوب عن الروايات التاريخية والعلمية والفلسفية وأشباهها ، وهو يعلم أين يسهب ويوجز كأنه الكناري الذي تلهمه غريزته براعته الموسيقية . ان الفن يفوق العلم وإن لم يكن له صدقه ، ونحن لا نطمع أبداً في أن تعلمنا الرواية دروس الأشياء ولا تاريخ الأمم ... وهذه الروايات المبنية على علم النفس ، وحده ، لا تحيا ان لم يكن لها حظ وافر من النظرة الغربية الى الكون ، ومن قوة الوصف وبراعة الانشاء .

والرواية أشد ضروب الادب تعرضاً لعلاقة الفن بالواقع . والرواية الحقيقية

الجذرية بأن تنسب الى الفكر الانساني السامي هي ما يظهرها الفنـــان بشكل موضوعي، والموضوعية لا تنفي الذاتية ، ولكن المؤلف الروائي يجب أن يكون شاهداً عيانيّاً ، وعلى مقدرته الفنية في الخلق والتعبير يتوقف نجاحه ، وليس على الروائي أن يجمع في نفسه كل خواص الروائيين ، فحسبه خاصة يكون فيهـا نسيج وحده ليكون شيئاً مذكوراً .

ليس على الرواية أن تكتشف نواميس طبيعية كما يحاول علماء النفس منهم في روايتهم التي تقلق الناس بطها ، ولكن مهمتها أن تحيي أشخاصاً وتخلقهم خلقاً عجيباً يجعلهم في عداد رجال التاريخ الحقيقيين كما فعل نوابغ روائيي العالم . لا أعدد ، فهذا أمر لا يجهله أقل الطلاب إلماماً بتاريخ آداب الأمم . وما أحلى كلمة قالها مونتينيه : يجب أن « نفنّن » الطبيعة و « نطبّع » الفن .

وملاك الرواية عنصران هامّان : التأليف والتحليل . أما التحليل فهو غالباً عمل يأخذ قطعاً من الواقع المفكك ولكن هذه العناصر تبنى بنـــاء جديداً ، فعمل الروائي وكل فنان، كما قلنا في فصل سابق، هو أن يتمثل الأشياء ويخرجها اخراجاً جديداً . ولا يعني التحليل ان يكون لائحة منظمة كلائحات المختبرات لفحص الدم وغيره ... ولا تشريحاً علميّاً ، بل يجب أن يكون خلقاً مفاجئاً .

أما التأليف فلا يأتي ايضاً بالطريقة الجدولية بل هو تركيب يمتد وينتشر ، إذ لا يكون خطة تنفّذ جزءاً جزءاً فهو ينمو نمواً طبيعيـــاً كما ينمو الجسم بخلاياه ، أما الروائي الرديء فيخلق جثثاً وتماثيل .

أما كيف يتخطى القصصي من التحليل الى التأليف فهنا سر النبوغ ، وبهذا الفنان من المحترف ، او كما يقول المثل اللبناني : هنا تعرف القرعا من أم رون .

وفي كل حـال تقوم الرواية وتعلو بقدر انشاء تلك المخيلة ، وميزة التعبير والعرض الموجز . فللسياق والتتابع والتنافر المقصود والانحراف، والحذف والالغاء والاهمال عمل ذو شأن كبير في القصة . أما الاستطراد فلا يكون مقبولاً إلا اذا كان في لحمة الرواية . وللاستطراد أناس طبعوا عليه يحسنونه بالسليقة فلا يتصدّ له

من ليس من رجاله . وبالاختصار ان الاستطراد اذا كان وجيزاً يهب الموضوع جمالاً وظرفاً ، وما أشبهه في تلك الحـــال ببرق يشق الظلمات . ولاختلاف الاسلوب عمل كبير في الرواية فلكل مقام مقال كما علمنا السلف ، فاللهجات تتعدد وتختلف باختلاف الاشخاص ، وأحوال الرواية وظروفها وأمكنتهـا . ففي استطاعة الروائي أن يحمل الرواية الواحدة مجموعة أساليب ولهجات ناطقة حية .

ولغة الرواية تختلف ايضاً باختلاف الاحوال ، ولكل ضرب من الروايات أسلوب خاص لا تصلح إلا به ولا يصلح إلا لها . والرواية محتاجة ابداً الى انشاء صحيح رفيع وخصوصاً ما ينسب منها الى المؤلف ، وان تساهل الفن في ما يقوله المؤلف بلسان أبطاله ليكون مطابقاً لواقع الحال وهو شرط البلاغة الاساسي ، فهو لا يغتفر الركاكة في مـــا يعزى الى المؤلف . هذا في الرواية الفنية التي تطمح الى الخلود ، أما في غيرها فقل ما شئت ، ومن يطالبك ؟ أليس في الدنيا هذر لا يحصى ؟

قبيح جداً ان يكون الانشاء القصصي بضاعة رواسم ، أو عرض قوالب سكافين بطلت في السوق . يجب ان يكون انشاء المؤلف متفرداً متشبعاً من شخصية لها لونها وطابعها .

أما الحوار ، وهو عنصر خطير من عناصر الرواية ، فيجب أن يكون لغـة الناس او ما يشبهها ويقرب منها كل القرب ، ومجاله في لغتنا العامية واسع ان كلف الكاتب نفسه عناء التأليف والتنقيب على الالفاظ والتعابير . ان المحافظة على أصول اللغة شرط أساسي ، ومن تعدى هذه القوانين فسدت طبخته مهما سما في الخيال والقص والاختراع . أما اهمية الحوار فهي انه يصور لنا شخوص الرواية بلباقة خلقاً وخلقاً ، وكثيراً ما يغنينا عن الوصف المستقل الذي يعرفنا بالابطال ولكنه يأتي غالباً كأنه مقحم اقحاماً .

والرواية بعد كل هذا تحتـــاج الى قوى عديدة مجتمعة : مخيلة خصبة تحبل وتلد ، تخلق الابطال وتمنحهم فصاحة لسان وصحة رأي وقوة ايمان ، وتخلق تجاههم أبطالاً آخرين لا يقلون عنهم شأناً ليقفوا ازاء بعضهم وقوف الند أمام الند في الساعات العظيمة التي لا ينساها القارىء ويحدثك عنها كأنه ادركها بعينيه الثنتين .

والاشخاص التي تخلقها هذه المخيلة قد تكون جسوماً مترهلة ان لم يهبها خالقها اعصاباً شديدة تحركها دائماً، فحيوية الرواية في حركتها، وبدونها يسأمها القارىء ويطرحها الى جانب سريره ، وقد تنام هناك نومة هانئة ... والحركة يخلقها المؤلف بمحاورة هؤلاء الاشخاص وتحدثهم دائماً عن أنفسهم وعن سواهم ، وعن الحوادث التي تعرف القارىء بهذا وذاك وهذه وتلك، وتدل على خلقهم وخلقهم من غير قصد وتعمد ، وهذا هو الفن .

وأكثر ما تشكوه الروايات العالمية هو ضعف هاتين الناحيتين : الخلق البديع والحركة .

وللرواية سياق لا يندّ الروائي القدير عن سبيله ، فهو مهما توغل في الغابة لا يفلت الخيط . وتنوع الموضوع واجب إذ بدونه لا يتبعنا القارىء ، بل يعتريه الملل وضيق الخلق فيدعنا وشأننا .

والروائي أشد الناس احتياجاً الى اكثر العلوم، وخصوصاً الاجتماعية منها، كعلم النفس والتاريخ والجغرافيا والأدب الخ . وأهم هذه العلوم، علم النفس، فمن يجهله لا يصور اشخاصه تصويراً صادقاً . ولا نعني ان نتعلم هذه العلوم في الكتب ، فهناك غير الكتب تعلم الفنان كيف يخلق ابطاله خلقاً سوياً، أهمها مراقبة حركات البشر مراقبة شديدة ، وسماع احاديثهم والاستنتاج . والدرس والمراقبة والسماع لا تفيد شيئاً ان فاتته القريحة ، فأعظم نوابغ البشر اتقنوا التشخيص ولم يتعلموا هذا الفن ، كما ان غير الموهوبين وان تعلموا هذه العلوم في اعظم الجامعات لا يستطيعون تطبيقها بل يصورون شخوصهم صوراً تنفيها او تناقضها اعمالهم فيما بعد .

وللمرحوم فرح انطون فصل في جامعته عنوانه : انشاء الروايات العربية ، تفيد مطالعته من يعنيهم الامر .

وفي كل حال لا يهمنا إلا عناصر الحياة والحقيقة في الأثر الفني ، وهذا لا يتحقق إلا عندما نمزج اختبارنا النظري بأحلامنا وخيالنا، أي ان نمزج الحقيقة التي نراها بإدراكنا الشعري الذي يعبرون عنه بالوحي والالهام. فعندئذ نستطيع ان نردد كلمة رابليه : أدخل فهنا يصهرون الايمان العميق . وإلا فإننا نردد عبارته

الأخرى : أرخ الستار فالهرج قد انتهى .

حكاية الرغيف

ان طعم ايام الحرب لا يزال تحت اضراس توفيق يوسف عواد، والعلم في الصغر كالنقش في الحجر، فهو يقدم رغيفه الى أحق الناس بها، الى ابيه المجاهد في حرب المعاش . ولكن أي رغيف ؟ رغيفاً (فيه نفس الحرية والكرامة) . هذا رغيف توفيق عواد وقد أدى فكرته في مواقف اذكر منها حديث سامي لزينة (ص٦٤ ثم صفحة ٢٦٥ وما يليها رقم ٧ و ٨) .

الرغيف رواية كأنها مسرحية ذات مدخل وخمسة عناوين : التربة، والبذار والغيث، والسنابل، والحصاد. صفحاتها ٣١٥ اخرجتها دار المكشوف بحلة رصينة، ولولا الذي بيننا وبين الحبيشي صاحب الدار من خبز وملح لأطنبنا في اطراء مضيفته الادبية، فالرغيف الذي يقدمه للناس لا يقل عزة عن مجد ذاك في ايام الحرب .

تم عناوين الرواية على انها عظـــات وحكمة، ولكن توفيق عواد، وهو من ابناء الفن، يعلم ان الروائي غير الواعظ . فهو يقص وعليك انت ان تستنتج . يروي لك اخباراً صحيحة او كالصحيحة، يصدقها كل من شهد مصائب الحرب وبلاياها، فأبطاله الذين علقوا بذاكرته الطرية ثم خلقتهم اليوم مخيلته خلقاً جديداً لا ينكرهم من شهد الناس مثلنا قعوداً على قارعة الطريق، حول روث الخيل كأنهم في السلاطين . لا يعفّون عن الفئران والجرذان والهررة، ولا انسى ابداً تلك الكهلة التي ذبحت حفيدهـــا وادخرت لحمه وشحمه في برنية ليكون غذاءها الاحتياطي ... وحسبي ما ذكرت من مشاهد المجاعة لئلا تتقزز نفوس القراء .

يصف الاستاذ عواد في « المدخل » فتح الجند التركي لبنان ووصوله الى قرية بحرصاف، وقد أهمل تصوير بحرصاف الجميلة كما يهمل وصف أكثر الساحات التي يجعلها معتركاً لابطاله، ــ في الرغيف والصبي والقميص ــ وهو ان فعل احياناً فبخطوط أولية لا ترينا الصورة واضحة كاملة، مع أن هذا الوصف من عناصر الرواية الخطيرة وهو الذي يقربها من الواقع، ولا يعوق الحركة ان اقتصد فيه،

وسندرس هذا في محله .

جميل تصويره دخول الجند لبنان ، واجمل منه حركات توفيق الصبي : « وانا أرفع انفي ـ وأنفه ذو شأن ـ حيناً بسؤال الى والدي ، وأشير بأصبعي حيناً وأصفق مسروراً حيناً آخر» . ولغرض ما كرر المؤلف حيناً مع ان«الظروف» كثيرة في لغتنا واكثرها بمعنى حين .

وفي هذا المدخل الذي لا تبلغ صفحاته عدد أصابع اليد الواحدة يحشر المؤلف نفسه مع لوّام لبنان على رخاوته وتواكله، وقصر همته ، والتفاته صوب الغرب. غفر الله للسياسة والنعرات الدينية ، وأعاضنا بطول بقاء شبابنا وأبقى لنا هذا القليل من لابسي اللبادة والسروال ، والصدرة المزورة ، رمز رجولة ذابت في ثيابنا المزمكة . وبعد فلنتقدم الى الرواية .

في الرواية أبطال عديدون سنحللهم واحداً واحداً وان كان اكثرهم من مقلع واحد ، ومكسرهم واحداً. والخطوط التي تميزهم متفرقة تحصلها من هنا وهناك، فتوفيق لا يسردها سرداً ، لولا ضحكة خليل الملّا الاولى (ص ٢٤) ما علمت ان دكان ورده كسار في ساقية المسك . ولكن الحركة العنيفة التي يبتسم بها توفيق عواد الروائي لا تدعك تتأملهم جيداً،ففي يد الاستاذ سوط يفرقع ويؤلم معاً ، انه لا يعرف الرحمة في سبيل الفن ، وقلما يسقط عن الدرجة الثالثة في سوق أبطاله . ولو في الأكواع الخطرة ـ خطر الموت .

حكاية الرغيف بسيطة ككل موضوع يعالجه الفنان فيطرّقه كما يطرق الصائغ كتلة من الذهب ليخلق منها معنى طريفاً. أما مسرحها ففي لبنان. في بحرصاف، منبت توفيق عواد . حيث استشهد الهر المسكين ـ الصبي الاعرج (ص ١٨٣) ـ وساقية المسك حدّها. البيت الجبلي اللبناني هو العش الذي طارت منه هذه الطيور البلدية مثل: ورده وزينه وبوسعيد وطام ،والقواطع مثل سامي عاصم وكامل افندي.

فزينة بنت لبنانية يتيمة الأم ثم الأب تحب شاباً بيروتياً اسمه سامي عاصم ابن تاجر بيروتي يستهلك ما يصدره مشغل الديما الذي أحدثه ابوها سعيد بعد عوده من اميركا مع خالتها ورده،وابنها طام أخي زينه من أبيها . كان سامي عاصم يصيف

في ساقية المسك في بيت سعيد كسار بل في كرمه ـ النقبة ـ وكانت زينة تقوم على خدمته فتحابا . وكانت الحرب العظمى فخاف سامي ان يساق الى ساحة الحرب ، ففر الى لبنان واختفى في بيت سعيد كسار ، ثم في «مغارة الخورية» مستتراً بثوب راهب ، وسمي الاخ حنانيا . وأرشدت الحكومة الى مخبئه فسيق الى الديوان العرفي في عاليه ولكنه فرّ مع رئيس الحراس شفيق أفندي العلايلي من سجن عاليه الى معسكر العرب فقتلا على ابواب الشام .

وجاهدت زينه في منطقتها فقتلت راسم بك قائد العسكر التركي في ساقية المسك وفتكت بالجاسوس خليل المعلا وحرقت بيت ابرهيم فاخر الذي ارتهن بيت جدها ، وأنقذت أخاها طام من الموت .

العرض الفني

التوبة ـ وردة كسار مزعجة غضبى لأن الجند بعثروا متاع حانوتها مفتشين عن سامي عاصم ، وبينا هي مرتبكة يسألها بوزيد خادم حانوتها كاس عرق أخرى فتأباها عليه ، ويدخل خليل المعلّا فترحب به وردة ، ويغتنم الفرصة فينقدها ريالاً مجيدياً تسقي به بوزيد ليسرق منه سر سامي عاصم ، فيشرب بوزيد حتى يمتلىء ويلمح الى السر ولكنه لا يفشيه . ويدخل الصغير طام ـ ابن وردة ـ فيعطيه بشلكاً ويخرج ، فيطير طام ليبشر جده بوسعيد بالغنيمة ، وتلحق به أمه وردة فتنتزعه منه فيبكي ، ثم ينام معللاً النفس ببشلك أبيض سيعطيه إياه جده .

ويسعف وردة جنديان على طرد بوزيد من الحانوت وتعمر الحلقة . وكلهم ينتظرون زينة ، وزينة لا تجيء لانها في مغارة الخورية عند حبيبها سامي ، فتبربر وردة وتجدف وتلعن ، وتعود زينة ولكن الى المراح حيث «الصيحا» فتخبر جدها انها حملت رسالة الى سامي فعزم بعد قراءتها على النزوح الى أحد ديورة كسروان ليتخفى عن الابصار ، فالحكومة استاقت بعض رفاقه الى الديوان العرفي ، وانه مهدد لن يبارح ساقية المسك قبل أن يجتمع بالجاويش كامل افندي .

وفي الصباح يلتقي خليل المعلّا ببوزيد فيتنحيان دكاناً يتقامران فيه ، وفي

نهاية اللعب يشعر المعلا صاحبه بوزيد انه قادم على رحلة الى الديوان العرفي بعاليه ... ،واسم الديوان العرفي كان يرعب ، وانه يمكنه ان يتقي شرها اذا باح له بسره ، وان وردة أيضاً ستشنق . فانهد بوزيد وهم بالهرب فتشاجرا وفر ، وغرم الجاسوس ثمن ما تحطم من متاع الدكان .

واتجه خليل المعلا صوب حانوت وردة فصادف ابنها طام في الطريق فاعطاه ريالاً مجيدياً واسترق منه خبراً مقتضباً عن سامي . وادرك طام أنه وقع في الفخ فرد المجيدي آسفاً على كلمة افلتت منه ، ولكنها لا تغني شيئاً . وفي تلك الساعة كانت زينة عند سامي تتعجب من دم عليه فيخبرها انه قتل جندياً تركياً واخذ بندقيته وثوبه العسكري ، ويبكت سامي نفسه على انزوائه في تلك المغارة بينما رفقاؤه في الميدان ، ويصر على الاجتماع بكامل افندي لعله يمكنه من عشرات البنادق فتكون غذاء للثورة المتيدة . فتذهب زينة من عنده الى الحانوت فترى خالتها وردة وخليل المعلا يتساران ، فلا تدعوها خالتها للجلوس كالعادة ، ولا يكترث لها خليل المعلا . فتسرع لتسأل جدها عما فعل لدى كامل افندي فيخبرها ان راسم بك استدعاه ، وامام طام جلده وبصق في وجهه بصقة عامرة ، فاشمأز طام ونسي الزبيب والجوز الذي يطعمه راسم بك ، ولحق بكامل افندي يعاونه على قدميه الناضجتين على لهب الكرباج . وفي تلك الساعة يجيء الأخ حنانيا – سامي – ويحدث كامل افندي تحت جنح الدجى في بيت بوسعيد ، فاذا هما كلاهما من الجمعية القحطانية ، فتصافحا وتعاهدا الى غد .

البذار – وفي صباح اليوم التالي يدهم الجند مغارة الخورية ويقبضون على سامي ، وبعد ان يشبعه راسم بك ضرباً ولكماً ودعساً ، يقتاده ثلاثة فرسان الى بيروت ، ومنها الى عاليه فيرحب الديوان العرفي بالاخ حنانيا (خوري نجس أيضاً ...) ويزج في الرقم ٦ . فيرى الناس اشكالاً والواناً ، وابو زيد يصرخ كل هنيهة : « يافندي ، باد شام جوق ياشا » ، فيُضرَب ويسكت .

انتصر له سامي وهو لا يعرفه فهدد بالضرب مثله ، وعرض عليه طعام « القروانة » فأبى .

وجاءت زينة الى عاليه بعد أن سرقت مالاً يكفيها من درج خالتها ، وبعد عناء شديد ، ومرارة حيرة الغريب المصورة احسن تصوير ، تلتقي بالملا فيعدها بتوصية صديقه رئيس الديوان رشدي بك ، ويمد يده الى صرتها فيأخذ ليرة ذهبية واربعة بشالك - تحرير الحساب - ثم يدلها على بيت رشدي بك ويوصيها باللطف والضحك لان رشدي بك يحب الابتسام... ولجأت زينة الى نزل صاحبته عوراء فذهب بنومها تلك الليلة تعليلها كل كلمة سمعتها من هذا وهذاك وهاتيك . وفي الصباح ، بعد ألف جهد ، قابلت صاحبها سامي وبلغته وصية جدها : الانكار .

وعادت هي الى ساقية المسك ونقل سامي الى زندان ، فارسل اليه عمر حمد احراماً .

وتعيد زينة سيرتها الاولى ، نقل الخضر والفواكه من انطلياس الى ساقية المسك هي واخوها طام - تلك مشيئة خالتها وردة التي احسنت معاملتها بعد القبض على سامي لسبب يكتمه الاستاذ معها كتم حتى النهاية . وفي صباح يوم ما تستعين زينة برأسمال اليوم على الذهاب الى عاليه ، فتواجه سامي عاصم مواجهة قصيرة ضاق لها صدر شفيق افندي رئيس الحراس ، فقبلت حبيبها قبل أن يخرجها قبلة بلهاء أي « مالت اليه تتشممه ثم مسحت شفتيها بكتفه » (١٢٢) .

وسيق سامي الى الديوان فاجاب بجرأة غريبة قبض ثمنها سياطاً عديدة ولكمات شديدة وبصقات عنيفة ، فحم ورأى حلماً غريباً أشبه بحلم زينة الذي قصته عليه (١٣٨) ، وافاق على عمر حمد قرب سريره .

وفي الخامس من أيار سنة ١٩١٦ مشت القافلة الاولى الى المشنقة وبينهم عمر حمد الذي ترك ساعته تذكاراً لسامي . وبلغ المسجونون حكم الموت فقرأه سامي ومزقه وداسه ، وجاء رئيس الحراس يأمره بالنوم ولكن بلهجة لا عهد له بها من قبل ، فنام .

الغيث - الجاويش كامل افندي صديق بيت كسار يحوقل في ساقية المسك ويترحم على رفيق ساوم ، فيضطرب بيت كسار من وردة الى زينة ، وتسأل وردة عن تهمة سامي فيستفظعها كامل افندي ويلعن الخسيس الدنيء الذي دل عليه ، وينفي ذلك عن طام وبوزيد لانهما لايعرفان اين هو ، فتقطع وردة الحديث .

وتغدو زينة الى عاليه وتنام عند العوراء وفي نيتها ان تقابل رشدي بك ، فتراه في الصباح يشق الشارع على حصان كأنه البرق، واقتفت اثره فاقبلت على جماعة يتحدثون عن فرار شفيق افندي رئيس الحراس والسجين سامي عاصم بحيلة غريبة: ادعى شفيق ان عنده سجيناً مريضاً فرخص له بنقله فقتل الحارس وفر مع السجين.

وتطاردهما الحكومة فتقتلها وتعرضهما على الناس مغطية رأسيهما – كما هو مألوف – فتعود زينة الى البيت حزينة فيخبرها جدها انها لن تكون فيما بعد عبدة لخالتها المستبدة لانه رهن البيت بمئة ليرة . فوعت كلامه ، ولما غاب قامت تتبع آثاره واحداً فواحداً حتى مغارة الخورية ، وهناك كانت وقفتها فيها كوقفة امرىء القيس ...

وفي ذلك النهار اقبل طام على امه وردة يخبرها ان راسم بك – صاحبه – يريد اخته زينة ،فاستبشرت وردة بهذه الزلفى ورأت فيها باب رزق جديد. وذهبت زينة لمقابلة راسم بك فتوسل باستنطاقها لمراودتها عن نفسها ، فاجفلت. فامهلها الى غد واعادها الى البيت ، ولكنها لم تعد فأخذ «الصبحا» رهينة وزينة لم تعد أيضاً . وبينا بوسعيد مرتبك صابر على الاهانة والضرب تعود «الصبحا» الى البيت وتخبر طانيوس عمه بوسعيد ان زينة عند راسم بك . وتقضي زينة ليلة يهوديت عند اليفانا فينجلي «الصبح عن راسم بك جثة باردة صريع السم فالمسدس» وتفر زينة وجدها بوسعيد . اما طام فتتركه لأمه لانه صغير لايؤخذ بجريرة غيره ، فاستاق الجند وردة وطام الى الثكنة العسكرية حيث اشبعوهما ضرباً فجنت واخذت تزغرد كلما عن لها ذلك ، وزجت في السجن فاطبق عليها الجنون لعبث المسجونين بها .

وبعد اربعين يوماً افرج عنهما فعادا الى ساقية المسك فتنكر لهما البيت وما يملكان من عقار ، فخبر طام ان ابراهيم بك فاخر المرتهن ارسل من اخذ المنجور والبلاط ، فقصده طام تتبعه امه كظله ، تزغرد وتشمر كلما جاءتها النوبة .ففاز من ابراهيم بك برغيفين اسودين ، وعاد طام الى وكره فالتقى بكامل افندي فلم يعرفه الا بعد تأمل ، فأمده بالشعير وغيره من جرايات العسكر ، وقبل ذهابه الى ساحة الحرب ودعه بكيسين من الشعير وبشلك واحد ، واوصاه بالاتكال عليه تعالى ،

وعلله بانتهاء الحرب وسيجتمعان بالشام ان شاء الله .

وفي الغـــد تذهب الكتيبة فيودع طام كامل افندي وداعاً لطيفاً ، ويعود ليحافظ على الشمير ويخفيه عن بوزيد فيأتيه عمه طانيوس بكيس خبز ليلاً ويسأله اذا كان ابراهيم فاخر ارسل اليه مئة ليرة، وأنه سيرسلها والا فالعصابة البيضاء تنتقم منه . فانتظر طام ولم يأت شيء فكرّ كرة اخرى الى البيك فلم يفز بغير الخيبة ، بيد انه اختلس دجاجة ، ثم طمع باخرى فاشبع ضرباً .

وترد على ابراهيم بك رسالة من العصابة البيضاء لينيل الراهنين حقوقهم فلا يأبه لها، فتحذره زوجته فلا يبالي معتمداً على ضابط المنطقة وخليل المعلا . وفي تلك الاثناء تتورم وردة وتنحط قواها فتنقطع الزغردة وتنثني عن اللحاق بابنها . ونام طام في احد الاقبية فجاء اصحاب النعش ليدفنوا امرأة ميتة في ذاك القبو، فاخذوا طفلها حيامها وهموا بطام أيضاً فهرب وهو يصرخ : انا ما مت . فتأتي زينة فترى وردة وبوزيد ميتين ميتة كريهة .

المنابل – وتنطلق زينة بأخيها طام الى مغارة الخورية حيث عمه طانيوس، وهناك يأكل أكلاً عنيفاً، ويسائل عن العصابة البيضاء مسائل صبيانية فتجيب زينة بمثلها . وفي مساء اليوم التالي يكمنون ثلاثتهم في ضاحية بكفيا. ثم ترسل زينة أخاها طام ليتقصى ابراهيم بك فاخر فلا يذهب الصبي حتى يدوي الرصاص، فتتقدم زينة فترى جندياً تركياً صريعاً وطانيوس يفتش جيوبه ، ثم ترى خليل المعلّا مشدوداً الى شجرة، ويقول لها طانيوس تركته لك . فتستبد به وتهم بقتله فيخبرها أن حبيبها سامي عاصم لا يزال حياً وهو يحارب في الصحراء والنصر قريب ، وان مصرعه كان حيلة حكومية، وانه هو مثّل دور سامي المقتول، فكان حلوان هذه البشارة قبض روح هذا الخائن الخسيس . وينتقل المؤلف الى وصف الحرب في الصحراء حيث سامي عاصم وصاحبه شفيق يتوقعان نسف قطار العسكر التركي، ويغير سامي بعد ذلك الهول فيسقط فرسه مدقوق العنق ويسلم هو، ثم يرى جندياً جريحاً يزحف فيحاول سامي أن يقضي عليه فيصيح ذاك : أنا عربي مثلك لا تقتلني. واذا بهذا العربي كامل أفندي فيتعانقان ويعرفه برئيس الحراس شفيق أفندي العلايلي.

وفي تلك الساعة من الرواية تكون زينة على صخرة عند بكفيا وابن عمها طانيوس يكاشفها بحبه وتأبى فيحرد حيناً. وننتقل الى البادية فنرى كامل أفندي رسولاً الى الأتراك يخاطبهم بأمر التسليم حتى اذا عاد أطلقوا خلفه الرصاص فلا يصيبون منه مقتلاً. وفي فصل تالٍ يجلس الثلاثة يمزحون مزحاً لا بأس به ويدرسون القضية العربية على ضوء جديد، ثم يذكرون زينة وطام، وتمر طائرة فيتندّرون.

ونعود الى لبنان فنسمع طام منادياً في بكفيا : « ابراهيم بك فاخر يوزع الطحين على الفقراء » ، فيتألبون حول بيته وبينهم طام وطانيوس وزينة ثم ينقلب الزحام ثورة تنتهي بحرق بيت الرجل وهلاكه فيه ، واختفاء طانيوس .

ويصل سامي الى الطفيلة في شرق الاردن فيشيع بين أهلها أن الأتراك يزحفون من عمان لاستردادها ، فيستعد الأهالي للدفاع عن قريتهم ويهب سامي وشفيق معهم فيسقط شفيق جريحاً لا يرجى فيجهز عليه سامي عملاً بما تعاهدا عليه لئلا يقع في يد الأتراك ، ويجلس بعدئـــذ سامي وكامل فيعلل كامل نفسه بدخول دمشق بعد اسبوع ، والذهاب الى ساقية المسك فيرى طام وزينة .

واعتدى الأسرى الأتراك على الأهلين فأصدر القواد أمرهم بإفناء الأسرى ، ويتوجه سامي الى المزيريب وهناك يثأر لنفسه من رشدي بك رئيس الديوان العرفي فيقتله شرّ قتلة ، ثم سوّى الأتراك صفـــاً واحداً وعرضهم على البنادق فحصدتهم . وركب فرسه متجهاً صوب العسكر فرأى العراك حامياً والأهالي يهجمون غير منتظرين أمراً حربياً فهجم وراءهم القواد بالسلاح الأبيض وكان سامي في طليعة الهاجمين وظل يهجم حتى قتل .

الحصاد — فاز العرب ودخلوا دمشق ظافرين، وانهزم الترك وجاءت زينة الى بيت الوراق عند كامل أفندي فقص عليهـــا امجاد سامي وكيف مات وهو يذكرها . وقد سلمه تلك الأمانة — الذخيرة التي علقتها في صدره — فتأخذها زينة وهي كأنها لا تسمع ولا تعي ولا تحس ، وتستفيق على أخيها طام يعالــج يدها ويسألها : أختي ، أختي ، ما هذه ؟ فتقول : لا شيء .

فما أروع هذه اللاشيء ، وسيأتي درسها .

اشخاص رواية الرغيف

لا بد من كلمة نعلقها على هامش « عرض الرغيف » قبل أن نتخطى الى درس أشخاصها .

ظلت الرواية متماسكة متصلة في مراحلها الثلاث الاولى – التربة ، البذار ، الغيث – حتى اذا ما أسبل الزرع وأحبّ – السنابل – بعدت الشقة ما بينه . فكأنما تنقّل زينة بين عاليه وساقية المسك قد بقي خيطاً سرياً يربط الحوادث فما انفصمت . وإذ انشق المسرح شطرين واحداً في الصحراء ، وآخر في لبنان ، انتقص الاتصال الطبيعي الذي نعمت به الرواية طويلاً ، فكاد ينقطع السياق أحياناً انقطاعاً مفاجئاً يشبه « دع ذا » النابغة .

ليس ينبغي لنا أن نؤاخذ المؤلف على هذا التقطع مؤاخذة عنيفة ، فكم له من ضريب في روايات ذوات مقام رفيع في عالم الأدب ، غير اننا كنا نتمنى ان تظل الرواية تعدو الجزى ولا تطير هذا الطيران المتقطع . فالرغيف غنية بالحركة المنظمة ، وجري الحوادث لا اصطدام فيه ولا زحام ، منظم كخطط السير في العواصم . ولكن هذا البون الشاسع بين الميمنة والميسرة كما في رقم (١١ص٢٨٧) ذهب بشيء من الاتزان الفني . وقد نبتت على جذع الرواية بعض اغصان كان الأولى ان تتلخ مثل (رقم ٢ ص ١٥٥) . أبدعها المؤلف إكراماً لعيون زينة « التي تذبح ذبحاً » لتعلم على الهينة فرار سامي . المشهد جميل ، وحواره واقعي ، ولكنني رأيته ألبق بالمسرحيات منه بالقصة .

وكأني بالاستاذ عواد طمّاع أراد ايضاً أن يزيد على روايته الممتلئة كالرمانة ، مشهداً آخر ، فصور لنا الاحتفال بدفن المسيح والتنافس على قطف الازهار ولكن ذلك كان بعد فوات الوقت . فالمسيح لا يتضحّى بل يشبع نوماً ويقوم قبل هذا الموعد ، عند الكنيستين الغربية والشرقية ، ناهيك انه في العام الذي يؤرخه صاحب الرغيف ، قد قام باكراً (٢٣ نيسان) . هذه مسألة «طقسية» ولا بأس على توفيق ان فاتته ، ولكن زميله اناتول فرانس عندما كتب «تاييس» لم يسلم من

مطالعته كتاب ديني حتى خلق بفنوس الشهير . احتاج الى شيء فني فاستعاره له من قصة بمعان العمودي ، والقصصيون كالجيران يستعيرون من هـــذا لذاك معجزات وحوادث لا حوائج ومتاعاً .

ويلحق بهذا الباب جعل صاحبة النزل في عاليه عوراء . كل ذلك لتتشكى من الترك الذين يقولون للمرأة السوقية « عورات » ، ظانة انهم يعيرونها عورها . تلك رغبة ملحة عند اكثر الروائيين لم يسلم منها توفيق ، على ما عنده من حذر فني ، فظهرت في رغيفه بعض بثور سببها الاكثار من الخمير .

الاشخاص ـ بالاشخاص تحيا الرواية وبهم تتحرك ، وأصعب أعمـال الفن الروائي خلق شخص حيّ ، أمـــا كيف يخلق الروائي هذا الشخص ـ الحي الباقي ـ فمن يعلم ؟

قل لي ماذا نفعل لنخلق ولداً نابغاً أقل لك ذلك . قد تحيي الشخص بضع كلمات وقد تقضي عليه جمل فصيحة بحسب المؤلف حين مسح القلم منها انه استراح كالله في اليوم السابع . وقد يخلق الصمت بطلاً يعجـــز عن تصويره الكلام ، والشخص الذي نعنيه هو الذي يخرج من بين سطور القصة ليسايرنا ويعاشرنا حتى نتوهم اننا سنلتقي به في طريقنا ، او في احدى الساحات العمومية ، أو في الحقل بغتة ، كأبي سعيد مثلاً ، فهو أقل أبطال الرغيف كلاماً وليس دون غيرهم حياة . لا يفطر هذا الخلق البديع إلا مخيلة قوية وذاكرة لاقطة تتجمع لديهـا العناصر فتكوّن منها شيئاً واحداً يصير لها ، كما يستمد الابن خواصه المـــادية والمعنوية من أبيه وأمه وجدوده وجميع رهطه . فليس لنا ان نقول بطل هذه الرواية مثل ذاك ، فالناس تتشابه . وأبطـــال القصص ناس عالمهم الكتب ومسبحهم أخيلة البشر ، والاستعارة لا بد منهـا ، فالمرء يعجز عن الخلق من العدم . لا بد من أن تتلاقى بعض عناصر أولية . وتلك الدنيا الآخرة ألا ترينـاها الكتب المقدسة كأنها صورة عن دنيانا ؟

ان العناصر المتكدسة في مخيلتنا كالبضاعة في مخازن الجمرك تعمل جميعها في تكوين أبطالنا ، كما تتشارك عناصر السلالة جمعاء في تكوين مولود جديد . فان

نبغ فهو ابن اولئك كلهم ولكنه غيرهم في كل حال .

واذا نظرنا الى أعظم الروائيين رأينا في أبطالهم بعض ملامح من تقدموهم . فمنهم من أحسن الخلق فرزق نابغة ، ومنهم من رأينا بين ولدهم بلهاً ، وكتماً ، وعوراً ، وحولاً ، وحدباً ، ومقعدين ، وسحناً مقلوبة . لا نعني بهذا ان يكون الشخص - الروائي - جميلاً محبوباً ليكون خالداً ، فقد يكون الجميل المهذب النبيل شخصاً يتحرك كاللعب تحركاً آلياً ؛ وقد يكون القبيح المكروه شخصاً عبقرياً - في فصيلته - تتحدث عنه كأحد الناس ، وهو ابن مخيلة مبدعة .

قال أحد مشاهير كتّاب فرنسا القصصيين ، الفونس دوده : «فرح الروائي الحقيقي أن يخلق أشخاصاً انسانيين يتجولون بين الناس بأسمائهم وحركاتهم وسحنهم التي طبعت فيهم ، فيتحدث الناس عنهم - ببغض أو حب - بقطع النظر عن خالقهم وبدون أن يذكروا اسمه . فما أشد فرحي حين أسمع الناس يتحدثون عن واحد من ألوف اللعب الآلية في مهزلة الحياة السياسية أو الفنية أو العالميـــة فيقولون : هذا تارتارين ، هذا مونبافون ، هذا ديليبيل . ان هزة تعتريني حين أسمع ذلك ، هزة كبرياء أب غير معروف من جماعة يصفقون لابنه إعجاباً ، فهو يتأهب في كل هنيهة ليهتف : هذا ابني » .

أولئك هم الاشخاص الذين يتمنى الروائيون ان يرزقوهم ، وما أرى توفيق عواد إلا أبا واحد منهم إن شاءت آلهة الفن . فعنايته بشخوصه أكاد ألمسها بيدي ، فهو يدور حولهم كالمثّال وفي يديه الثنتين ازميله ومطرقته . غير اني أرى الناس يرغبون اليوم في تحديد النسل هرباً من مؤونة التربية الثقيلة ، بينا توفيق عواد أكثر تفقيصاً من الجرادة ، حتى أنه لم يحرم نفسه ولا أهل البيت الظهور في روايته ، ومن كان الدفتر في يده لا يكتب نفسه من الأشقياء . لقد خلق في رغيفه دنيا من الناس وأدى أفكارهم جميعاً .

تعود الروائيون أن يتقمّصوا أحد أبطالهم ، أما توفيق - في رغيفه - فهو في كل واحد وليس واحداً منهم ، وهذه أولى مزايا القصصي .

فأبو سعيد لبناني محض - فلاح مكفي سلطان مخفي - كأنه مقدود من جلاميد

لبنان، يستقبل الضربات بجبهة لا تنخفض كأنها السندان، ـ العلاء بلغة جدّنا طرفة ـ جلد صبور ينحت الصخور ويفتتها كأسلافه اللبنانيين ويصيّرها جناناً تطعم تيناً وعنباً، وتكسو دمقسا مفتلاً كالذي شبه به امرؤ القيس بعد حمّام دارة جلجل... ملتصق بعقاره كأنه أحد صخوره، مغروز في بيته كأنه عموده. ان ترك عادة من عاداته كقلع ضرس من أضراسه. لا يحلو له اسم حفيده ـ طام ـ لأنه ليس سمي قديس ـ مع أن كنيته احتجاج صارخ على توفيق ـ مولع ببقراته كأنها من العيال، برغم ابنه المتأمرك على بيعها فيبقي «الصبحا» يتسلى بها عن اخواتها، وتصير إحدى بطلات الرغيف. ان عالم الروائي ككرسي الله الذي وسع السماوات والأرض، فيه الفصحاء وفيه العجماوات. تأبى يد أبي سعيد الخشنة ان تلطخ بعار، فيضحي بكل ما يملك ولا يدنس عرضه. يرى كرمه يقطع ويخرب فلا يبالي. يساق تحت الكرباج ليتنف ما غرس بيديه فيفعل ذلك صابراً على كل هذا لتسلم النعجة من براثن الذئب... وأخيراً يموت كنابوت الازراعيلي الذي لحست الكلاب دمه ولم ينزل عن كرمه. أما ابو سعيد ففدى عرضه بكرمه وآلامه وحياته، بيد أن صاحب الرغيف أخفى أثره عنا فيما أخفى، ولتوفيق مطامير فنية سنتحدث عنها.

وأبو سعيد ككل جد، بر بحفيديه زينة وطام يعوضهما مما فقداه من حنو الأب والأم.

أما وردة فمرأة رأسها يابس وعينها شاردة، مقطعة وموصلة، وقحة مستبدة، ربت في حجر أب سكير أكول كسلان، حازت دكتوراه أدب المعاش من اميركا ـ بمدة وجيزة ـ فعادت متفلقحة ذات عينين ساخرتين بالحياء والخفر اللبنانيين، تغوص على القرش في اقذار البواليع وتذل لأجله ابناً طاهراً وبنتاً نقية، تضحي بسامي عاصم لتصرف زينة الى زبائنها وتتصيد عليها ـ وهذا من مطامير توفيق ـ ولهذا انتقم المؤلف منها فجننها جنوناً مزرياً وجعلها تزغرد وتشمر بكرم فضاح كيمنية الريحاني، كلما جاءتها النوبة. ثم اماتها ميتة الكلاب.

زينة ـ بنت يتيمة الام ربت في ظل جدها، ثم عاد ابوها من اميركا يحمل اليها هدية نفيسة ـ خالتها وردة ـ. ما عرفنا زينة الا فتاة تشتهي، وتحب

سامي عاصم، وهي في كل اطوارها صبية لبنانية حصان، انوف، اجفل من النعامة، شعارها الكلمة اللبنانية : زينة البنت عفتها . شبت مقهورة تكاري عليها خالتها، بين انطلياس وساقية المسك . فتعمل مطيعة متغذية بحب سامي . محبة أكثر منها محبوبة، كما يظهر . نراها مؤمنة ساذجة تعلق ذخيرة عود الصليب في عنق سامي بإيمان وحب صامتين ، ثم لا ترفع بصرها الى « فوق » إلا مرة كما أذكر . تقبّل حبيبها قبلة رهبانية ، وتتمسح به كمن يستلم الركن استلاماً. ثم تنقلب سفّاحاً، رئيسة عصابة ، تقتل الناس بلا رحمة وتحرق البيوت بقسوة بربرية .

ليس توفيق مسؤولاً عن زينة لأنه لم يذكر لنا شيئاً واضحاً عن نشأتها، وما زال الأمر كذلك فكل ما تفعله لا ينفيه خلق سابق خصها به. لها أن تمثل دور يهوديت قاتلة اليفانا فتقتل راسم بك، ولها ان تقطع الطريق فتقتل الجاسوس، ولها ايضاً أن تحرق بيتاً بما فيه في بكفيا، كل هذا لا اعتراض عليه فنياً ، أما إقليمياً وطائفياً فمسألة فيها نظر. فزينة ، كما رأينا، جان درك ثانية تصلح ان تكون سر عسكراً ومارشالاً. وما زالت البنت كذلك في لبنان فكيف ننعى للملأ شجاعة رجاله؟ ليته جعلها من الصرود فتدنو من هذه القسوة العبقرية والجرائم الصارخة. ومع هذا فقد تكون اكتسبت هذا من سامي عاصم كما تعلمت أمّ غوركي من ابنها وصارت مثله . ان هذا مستحيل ممكن نترحم بمناسبته على الشيخ يوسف الاسير صاحب البرهان المشهور ...

طام ــ أخو زينة لأبيها ــ نشأ طفلاً مدللاً لعوباً في كنف جده ابي سعيد ، والمثل اللبناني يقول: ما أعز من الابن إلا إبن الابن. الولد غرّ حذر في وقت معاً، حمّلوه سرّاً ونسوا المثل : خذ أسرارهم من صغارهم . وفيّ ودود يعاف على صغره وجوعه ، جوز راسم بك وزبيبه انتصاراً لكامل افندي . يعيد البشلك الابيض ــ الذي هيأه توفيق لاستقباله ــ انفة واستكباراً ، يبكي بكاءً مرّاً لكلمة أفلتت منه وهي لا تضر ولا تنفع . أحط الجوع خلقه فسرق ليأكل ، ولكنه كان يوسفاً ثانياً حين راوده السجان ، واستقتل على ضعفه وخوره في صد كركور عن عرض أمه .

ابو زيد ــ صديق وردة ــ بغتة ــ يعاونها على اشغال حانوتها ، بدين ، قذر ، سكير مزعج ، ولكنه بطل رواية حقاً، صوره توفيق صورة أخالها قبالة عيني، يتمايل بغنبازه المشقوق . وما أكثر امثاله الذين يعترضوننا في السكة . لا يعرف ما في تصوير ابو زيد من صدق إلا من له عينان ، كأن المؤلف اقام ليالي وجُمَعاً حيث يكون امثاله ليخرج هذه الصورة النادرة التي أتيها في عاليه حين كان يصرخ في السجن : « يا افندي ! باد شاهم جوق ياشا » .

خليل المعلا ــ شنيع الصورة أحفى الجدري شاربيه ، ابتسامته خبيثة كريهة ، وضحكته نسناسية ، جعل المؤلف في وجهه سيماءه الدالة عليه ، جاسوس وقوّاد للاتراك في وقت معاً ، استأثر بالانحطاط كله ولم يترك لأحد شيئاً ، وما اجدره ، ساعة صرعته زينة ، بالكلمة التي قالها ابليس دانتي ليفينيديكو : اذهب ايها القواد ، فليس هنا من تبيع عرضها .

سامي عاصم ــ ابن تاجر بيروتي ، لا يعرف كيف يحب ، والعهد بهؤلاء خريجو مدارس عالية ... إلا اذا كان الفزع يطيّر الوجع كما يقولون . تجاوز مقدار الشجاعة والنهى بقتله الجندي التركي ، وخصوصاً في الدفاع الأهوج بالديوان العرفي . ينظم الشعر ليحرض الناس على الثورة ، ولكنه لا يرضى عن شعره الجميل فيكتب ويمحو . تعوز شعره القوة ــ كشعر بشاره الخوري القومي ــ ولكنه اعاضنا ببطولته وموته في الصحراء من ذلك الشعر الرخو .

كامل افندي ــ شاب شامي ، يدل تركيبه على انه أهبل ، ثم يحل في الصحراء مشكلة حربية ، مسلم مؤمن ، مواظب الخمس لأوقاتها ، يطفح صدره يقيناً ، متكل على ربه ــ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ــ يهلل في الصحراء ويكبّر ويصلي ويسلم كأنه في الجامع الأموي ، ويجاهد كأنه مع النبي في وقعة بدر . كبير الأمل بفلاح العرب ، طيب القلب متردد في غشيان كل ما يسيء إلى اسلامه ، وهو الى كل هذا يرى الخلق كلهم عيال الله . يترحم على صديقه رفيق سلوم المسيحي من كل قلبه .

راسم بك ــ قائد الجيش ، رجل خمسيني مديد القامة صليب العود فاسق أدعر ،

متعجرف مهاب ، قاس يأخذ الناس بالشبهات ، منتقم لا يعرف الرحمة ، شديد الوطأة على الجيش كأنه زياد أو الحجّاج .

رشدي بك ـ رئيس الديوان . صورته الاخلاقية والخلقية وخصوصاً « فكه السفلي » تعيد الى ذاكرتي وجه رضا بك رئيس الديوان العرفي الذي أرعب لبنان ما خلا الجميلات ـ فهو الذي يعنيه توفيق لا غيره ، وصفته معروفة منا وتشهد بها الكتب .

شفيق أفندي ـ رئيس الحراس رجل يظهر ما لا يبطن ، مسيّر لا مخيّر ، تركي لباسه ، عربي قلبه ، يمضه الاستبداد ببني أمه وعمه ، ويسكت على مضض ، جريء مغامر يدبر الأمور ويحكم الخطط .

طانيوس كسار ـ لم يعطه المؤلف شيئاً مما وهب لزينة بنت عمه ، فهو في واد وهي في واد ، أمانيه ضيقة لا تتجاوز الكيس ، مكاري جلف لا يقاتل للمثل العليا ، كسول غير شجاع « يعتاض عن سلاح الأسود بسلاح الثعالب » .

ابراهيم فاخر ـ بيك عتيق ، وآدمي طازه ، ضيق العينين كأنه من خزر تغلب ، متكالب على حطام الدنيا ، غني صخري القلب ، جبان يثق بالحكومة وبحمايتها للعباد ، امرأته عقيم ، والمثل اللبناني ينفي عن مثله الكرم . خروج القرش من جيبه وطلوع روحه سيان ، وهكذا كان .

هؤلاء أشخاص توفيق العاملون في جمعية الرغيف ، أما أعضاء الشرف وغيرهم فما يتسع البحث لدرسهم كلهم ، وقد يكون عددهم كثيراً ولكن الأبطال لا يكثرون على توفيق فدواهيه تبددهم وتطهر الأرض منهم فهو :

يمشي وعزرائيل من خلفه مشمّر الاردان للقبض

لم يسلم من كل من حشد في روايته إلا ثلاثة : زينة وطام وكامل أفندي . فالاستاذ روائي سفاح ، زملاؤه كثر في عالم القصة . كانت وطأته على أبطاله ثقيلة ، فما أبقت عليه المجاعة والديوان العرفي أفناه هو . ليس يعنينا هذا فالفاخوري مسلط على طينه .

اذا كان الانسان ابن نشأته ووليد بيئته الاولى ، كما قال الدكتور أدهم وعلماؤه ،

فتوفيق لبناني مهما تبيرت . فهؤلاء أبطاله في روايته «الرغيف» وقصصه «الصبي» «والقميص» ـ إلا أقلهم ـ من أبناء الجبل. صوّرهم تصويراً رائعاً صب فيه كل ما أوتي من قوة فنية فجاؤوا واضحين مميزين متساوين في العظمة والكرامة . كان التصوير ناتئاً حتى النفور، والتظهير متقناً حتى التقوية، وللعين العمل الأكبر في ذلك. معظمهم قرويون أو يشبهون القرويين ، وجلهم أو كلهم من السوقة ، وتوفيق اختصاصي بدرس هذه الطبقة وتصويرها. وأوسع أشخاصه ثقافة وعلماً هو سامي عاصم. يزجهم توفيق في مآزق حرجة ويجعلهم شهداء ليستفز الضعفاء فينهضوا ، وهذا هو هدفه في روايته وقصصه ، يجري في هذا وراء غوركي الذي قلما سلم له بطل.

يعجبني من توفيق أنه لا يرسم لك أبطاله دفعة واحدة بل عليك ان تلتقط صورهم من هنا وهنالك ، انه لا يعطيكها جرعة واحدة بل متقطعة كالدواء ، وبعض الأحيان يهمل كل هذا فتدلك عليه القرائن ، وهذه طريقة لا بأس بها . كثيرون من الروائيين الكبار ـ ديماس مثلاً ـ يصورون أبطالهم بلسان الآخرين منهم ، وهكذا تظل حركة الرواية مستمرة ، فلا يحس القارىء جموداً أو وقوفاً.

ان أشخاص توفيق مكتنزو الأجسام ، أقوياء البنية ـ فنياً ـ لا يحتاجون الى الفوسفات وزيت السمك ، ففي مطبخ أبيهم الفني خيرات كثيرة .

حوار الرغيف وأشياء أخرى

اللهم ، اسقنا سقياً نافعاً ، اللهم ، حوالينا لا علينا لأن الفاضل ضار .

لا أدري أهي حديث شريف ، أم كلمة مأثورة ، وقد تكون آية . ولكنها ، كيفما دارت بها الحال ، تصلح دستوراً عاماً لكل شأن ولا تستثني الآثار الأدبية . فكما يستبشع القزم كذلك يستشنع الذي هو فوق الطويل كالشمروخ الغرانق .

أجاد الاستاذ عواد في الحوار ـ لولا التمغيط احياناً ـ فكسا روايته لوناً خاصاً هو ألزم حاجات الصانع الفني ليموه به ويطلي آثاره. والفن هدف صاحب

«الرغيف» فيا ألّف وصنف. فالخيال والواقع صنوان في حواره. ان الحوار معضلة الفن القصصي، وهي تشغل حتى الأوروبيين الذين يكتبون، تقريباً، كما يتكلمون. فغير الباريسي مثلاً، لا يحسن اداء حديث الباريسيين بالضبط ومن طالع قصص موبسان الاقليمية يدرك كم سعى هو وأتباعه ليجعلوا العلاقات بين أبطالهم كالتي بين الناس قولاً وفعلاً .

قد شعر شيخنا الجاحظ بهذه الحاجة الفنية فقال في كتابه الحيوان (ج ١ ص ١٦١) : « وأنا أقول ان الاعراب يفسد نوادر المولّدين كما أن اللحن يفسد كلام الاعراب » .

لا بدع ان أدرك أديب كامل كالجاحظ سلحته الطبيعة بذوق كامل، ان هذا الشر لا بد من وقوعه . إنّا نقدر له هذا الرأي الأصيل وان كنا نقبح حواراً عامياً كالسيل الجارف مثل حوار الأستاذ توفيق الحكيم في «عودة الروح». هذا الحوار الذي أطراه السيد صلاح ذهني في كتابه الظريف « مصر بين عهدين » فحوار كهذا لا يعجبني. انه جناية على اللغة الفصحى التي هي رابطة العرب، ناهيك ان غير المصري لا يتذوقه، بل لا يفهمه، ونحن نريد أدباً عاماً. قد سألت طلعت باشا حرب قمع هذه الفوضى ، فكتب واعداً ان يتدبر ذلك في ما يخرجه ستيديو بنك مصر من مسرحيات لتتذوقها الأقطار كلها .

وبعد هذا زعم كاتب نقد أقاصيص توفيق عواد في المقتطف : ان البائع الجوال في شوارع القاهرة ينادي على سلعته «عندنا نفتالين ينـع العث من الملابس» ولذلك يخالف هو « من يدعو الأدباء الى مخاطبة الدهماء بلهجتهم ومصطلحاتهم وتعابيرهم » انه يريد أدباً رفيعاً ، حتى في الحوار ، ولو جاء كالضبط بالشكل الكامل في الجمع والضرب والقسمة .

قلنا: اذا كان هذا الكلام على لسان البائع فأسلوبه أولى مع مراعاة الأصول، لأن الرواية صورة الحياة ، ولكن سر الفن ليس في هذا بل في وضع الشيء في محله . فانشاء المؤلف وطريقته القصصية وتخطيط روايته تؤلف كلها ، مجتمعة، أثراً فنياً . واذا اجتمعت للمؤلف الموسيقى الكاملة والخلق المتناسب الملتحم ،

تألفت وحدة صادقة الدلالة والتعبير وهذا هو الأول. فكم يأتي أفصح الكلام نابياً وأرذله فصيحاً مليحاً ! فالحكَم هنا هو الذوق الفني ليس غير .

اننا ننكر على ناقد أقاصيص توفيق عواد قوله ان في لهجة مصر طواعيـــة لهجة الأقطار وخصوصاً اللبنانية ، وقد أحسن توفيق عواد وأجاد استعمالها في أقاصيصه وروايته،ولولا يمعن توفيق في تهذيبها لطابق حواره الواقع كل المطابقة ولم تخسر الفصحى ولا أسلوب العرب مثقال ذرة .

جاء في الرغيف (ص ١٨) : «وحاول القيـــام بكأسه ـ الضمير عائد الى بوزيد ـ فوقعت على الأرض وذهبت شظايا ، فانحنى يلمها ويبوسها متباكياً : يا حرام . يا حرام » .

فتجيبه وردة : « ’كلنْها ’كلنْها . عسى أن تموت » .

ان « يبوسها » لا تلائم «ذهبت شظايا» فـ «يقبلها» هنا أفضل ، و «التقطها» خير من «لمّها» . أما «يا حرام ، يا حرام» فطبيعية وجميلة جداً في هذا المقام ، وكذلك قول وردة : «’كلنْها ، كلها . أما عسى أن تموت» فجافية وفي المكنة الهرب منها الى : « ليتك تموت » ، فيقضى الأمر الذي يرومه المؤلف ويوفق بين الفصيح والعامي من الكلام .

وفي (ص ١٩) يقول بوزيد ايضاً : «قدح واحد بعد . يدفعه عني الخواجه». فلو قوّله : «أعطيني قدحاً آخر . الخواجة يدفع لك ثمنه» ، بل لو قال : « هات فرد قدح » لجاء التعبير عامياً فصيحاً، ومن قرأ الأدب القديم رأى أن مثل «فرد قدح » ورد كثيراً في كلامهم .

أما قول وردة : « من أين لي العرق ؟ » فأكثر من جميل ، أما : « هل أنت مجنون » ، فخير منها : آنت مجنون ؟

ومثل هذا ورد عن الفصحاء . قال النبي (صلعم) لأعرابي كان عنده : أعطني السكين . فأجابه ذاك الذي لا يعرف ما السكين : آلمدية تريد؟والعبارة التي تليها : « رح أكمل سكرتك حيث بدأتها » لا تحتاج لتصير كالواقع إلا الى حذف همزة أكمل فتصير : رح كمل سكرتك حيث كنت .

وفي الصفحة (٢٠) يقول بوزيد ايضـــاً : « أهذا عرق أم لا ، شمّ شمّ يا خواجه » هذا جميل ، والأجمـــل حذف الهمزة . ثم قوله : «عرق وردة كسار رائحته كالمسك ، سترى انها تصب لي قدحاً آخر » .

هنا يجب حذف كسار فليس بوزيد متى الانجيلي يكتب انجيل السلسلة . وابدال الكاف بمثل أولى بمشاق الواقع ، وهو لا يضر اسلوب العرب شيئاً . ثم لو قال: «ريحة عرق وردة مثل المسك» لكان كالواقع بعينه ، فهذه السين واختها سوف ، وهمزة الاستفهام ، وبنت عمها هل ، وغيرها كالكاف واترابها قد عافها اللسان العامي الذي يهذب الخشن ويثقف المعوج .

ويصف توفيق عواد عيني زينة وفمها فيقول: «لها فم كالفستقة ، وعينان تذبحان ذبحاً » . الوصف جميل وهو من كلام العوام الطيب ، ولكنه يحتـاج الى تحرير أيضاً يخلصنا من الف التثنية ، ناهيك ان محله على لسان وردة أو أحد الابطال يكون أبلغ وأوقع .

هذا رأيي في الحوار ، وقد قلت أكثر من مرة ان لهجتنا اللبنانيـــة أطوع اللهجات وأقربها الى الفصحى. نحن في هذا البلد نكاد نتكلم لغة الكتاب الكريم ، وفي كلامنا وعلى ألسنتنا الكثير من كلماته وتعابيره . لا يتسع المجال لتحوير غير هذا من حوار الرغيف ، وقد أحسن الأستاذ عواد إذ تعمد التوفيق بين الأصول والواقع فأرضى الفن ولم يسخط الأخفشيين .

واذكر أخيراً عبارة جميلة قالها طام لأخته زينة : « تجننين أنت يا أختي » . ما أبشع هذه النون المعلقة بالفعل كهن بذنب هر . قد قضى الاعراب على توفيق أن يتعلق بها ، وماذا تريد أن يقول ؟ فلو قال : « جننتينا يا أختي » ، كما نقول بالحرف ، لعلت صيحة الغرّ الميامين حماة أسلوب العرب وأخرجت صدورهم أثقالها . أما الحلّ فعند الجاحظ وعندي . قال مولانا الجليل في كتاب الحيوان (ج ٤ ص ٣٣) : وقد يقول العاشق لمشوقته : يا معذبتي ، وقد عذبتيني الخ» . أما الذي عندي فكما قالوا عذبتموهم وأعربوا الواو ضمة مشبعة ، فلنقل عذبتيني ، ونعرب الياء كسرة مشبعة . وسوف أستعملها حيث اضطر اليها وليشق المتعنتون

رؤوسهم، فداود أكل خبز التقدمة لما جاع . ما لنا نضع في رقابنا هذه الأغلال ونصرخ شاكين الجور؟ فلنحطّم ما لا يضر تحطيمه ، فلنلجأ الى القياس كما فعل الصحابة بعد موت النبي ، ولا بأس بالاجتهاد اللغوي فليست اللغة أقدس من الشرائع المنزلة ، دليل الحياة الأبدية .

ان أقاصيص عواد وروايته الرغيف تكاد تكون اصدق الروايات العربية حواراً ، ولا نؤاخذ مؤلفها إلا باسفاف حين يتكلم هو، او أخطاء لغوية ونحوية كثيرة يجب على كاتب كتوفيق عواد أن يتجنبها . ان أسلوب الرغيف كالرغيف له وجه وقفا، يلتقي فيه توفيق عواد الصحفي بتوفيق الشاعر،وقد استغربت إذ رأيته يقف على قمة الابداع في وصف الطفلة التي لا أظنه رآها،بينا هو لا يعرض علينا بضاعة من تلك البابة إذ يصف المواضع اللبنانية . واذا كانت القصة ضرباً من «الرابورتاج» كما يحددها بعض كتّاب أوروبا فتوفيق قاص من الطراز الاول. في رغيفه غذاء لاوساط الناس ولا يعجز السوقة عن تذوقها ، أمـا المفكر فله منها النتائج التي طمرها المؤلف ، له الغاية التي كتبت لأجلها .

لا أزعم ان الرغيف دليل على الطبيعة الانسانية كاملة النقل يقرأها الأديب كل عام ولا تفرغ ، ولكنها في كل حال تصور حقبة نادرة الوقوع خرجت فيها الطباع عن مألوفها ، وسيبقى لها قراء في الغد يعلمون منها أن الجوع فضّاح. وان المثل اللبناني القائل: «ما أحد يموت من الجوع» ، غير صادق. قد يلاحظ قارىء الرغيف انها كخبز نهر ابراهيم مرققة حتى الهلهلة ، وعلة ذلك انه قرأ أقاصيص توفيق، والاقصوصة ملخص او خلاصة، ولذلك يؤاخذ كاتبها اكثر من مؤلف الرواية إذ عليه ان يجمع النور في بؤرة العدسة ليكوي ويحرق . أما الرواية ففيها ألف بؤرة وفجوة على القصصي ان يملأها ، ولماذا نهرب من قول كلمة حق؟ ان توفيق عواد القصصي أبرع من توفيق الروائي .

يعجبني من توفيق هذا الرسم والجز والرمز ـ لا أعني بالرمز تلك الفقاقيع ـ فالأشخاص ترد الى ثلاث أربع ضربات أصلية يعبر عنها ببضعة أفعال ، أما ما بقي فيترك. فالقراء الأذكياء يميزون الشخوص ونحن لا نكتب لهؤلاء. «فلنأخذ

الجوهر وتخرجه للقارىء بأفعال مقنعة متضامة مختصرة تلخص الحياة وهذه هي غاية الفن » هكذا علم النقّادة « تين » .

قد أهمل توفيق عواد تصوير بضعة أشخاص ولكنه جعل اعمالهم تدل عليهم ، أما الاغراب في كل الاعمال الادبية فمرجعه طبعه ، فعلى وجهه سيماء المغامر المعارض. فكيف نصدق نحن الذين رأينا لبنان يموت من الجوع ان تقوم فيه عصابة بيضاء او خضراء تفعل ما فعلته على رمية حجر من ساقية المسك ، مركز قيادة الجيش الجابوني المظفر ، وهل يصدق ذلك كاتب مدخـــل الرغيف ؟ وهو لو فكر لم يحملها تحت ذقن الوالي . . .

ليس هذا الاغراب ببعيد التصديق لو لم يختر توفيق ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء ، كما يقول مار بولس عن ربه . بل لو استطاع ان يطلسم المستحيل ، فالطلسم الفني عدّة القاصّ ، وآلته ان نتكلم مؤمنين بما نقول وان روينا مستحيلاً كفعل دانتي في جحيمه (ف ٢٣ شعر ٣٧) والمعري في رسالته . قد يكون الذنب ذنبنا لأننا رأينا بأعيننا ما وقع في ذلك الزمان ، ولكن غيرنا لا يصدق مثلنا لأن التاريخ لا يموت . ان الكذب ضروري للفن ، إذ لا فن في الخلق الصحيح ، وتوفيق لم يقصر في هذا ولكنه تجاوز فيه الحد (حوادث زينة) .

أجل ان الرواية غير التاريخ الصحيح ، والروائي متافيزيكي ، والعلم لا يكون فناً ، أما المتافيزيك فدائمـــاً فن . والفن يفوق العلم وإن لم يكن له تحقيقه ، والشرط الاول ان نحسب حساباً للقارىء فهو يرفض المستحيل مهما خف عقله .

أما الجمز فخاصة فنية طريفة لم يعدمها توفيق ، فهو ينتقل ولا يبالي ، يترك كثيراً من العرض ، وهو لو فصل كل شيء لكان حكاء لا روائياً بالمعنى المعروف . انه يعتمد كثيراً على ذكاء القارىء فيدع له الاستنتاج ، ولكنه غالى في هذا فترك مطامير كثيرة ، وحفراً غير مطمورة ، فهو كالحاصد يقطع ويرمي وعليك ان تجمع. فمن مطاميره الدلالة على سامي وموت ابي سعيد ، وموت سامي ، وكيف احتفى طانيوس ، وماذا حل بالبيك الجليل واهله ، ولكنها خفايا غير عويصة ، وهي عندي أفضل من التصريح الوقح واللت القبيح .

أما الرمز فهو في التهيئة التي يلوح لك بها توفيق من بعيد ، ففي رغيفه معالم خفية يظهر شأنها فيما بعد ، وبها يعد أبطاله للعمل كما هيأ رشدي افندي للعطف على سامي . ان أكثر أبطال توفيق مهيأون بلباقة دقيقة فكأن القضاءوالقدر في شق قلمه . أما دلنا ، على ان سامي عاصم لم يقتل،حين قول خليل المعلا : «هيبة الدولة كم مرة انا أنقذتها ! » (١٧١) . ومثل هذا تهيئة طانيوس (١٨٠) الخ . وكذلك ترحم كامل افندي المسلم على رفيقه سلوم المسيحي دون سواه .

أما التحليل عنده فممزوج بالتصوير . خذ مثلاً مشهد سامي عاصم في مغارة الخورية ،فهناك تحليل وتصوير وخذ مثلاً آخر زينة في عاليه (ص١٦٤)وما قبلها، ففي هذه تحليل ظريف وتصوير بارع لحيرة الغريب ونفسيته .فهذا المشهد في نظري أبرع مشاهد الرغيف، بل خير ما فيها على ما فيها من خير .أما اللون المحلي فعام في الرواية كلها، فرقم ٦ (١٧٥) فيه شعر ووصف نفيسان، ولتوفيق نبرات انشائية تكاد تكون شخصية ولكنه يعلو فيهـا ويسفل كالسنونو . ويعجبني فيه انه لا يفكر بالرواسم ، فعسى أن تتفق هذه النبرات في قابل مع اخواتها .

أما التناقض فكثير عند ابطاله، فزينة التي دل تعليقها الذخيرة في عنق سامي على ايمان متين ، لم نر فيها فتاة مسيحية متدينة ، فهي في احرج الساعات لم ترفع بصرها الى فوق ــ اللهم إلا مرة واحدة ــ مع أن النساء من طبعهن التدين والصلاة كما نرى في بطلة البعث لتولستوي . كانت تترك صلاتها لتقضي حاجاتها ثم تعود تصلي ساجدة للايقونة ، إتماماً للفرض ... واحد أبطالنا المحليين كان يستوقف ابناء السبيل ليتم صلاة المسبحة ثم يعود ليسلبهم أموالهم. ان المؤلف حر بمخلوقاته ولولا غرابة أعمال زينة لم نقل شيئاً. ومن الأغرب ايضاً ان تقص زينة على سامي، في أحرج الأوقات ، حلماً كرؤيا يوحنا ودانيال ، وان رأينا أثر علم فرويد في حلم زينة وسامي ، فحلم كامل افندي وليد ابن سيرين .

اني أرى توفيق عواد موضوعياً في عينيه اللاقطتين كعدسة المصور ، وذاتياً في نفسه التي تتأثر جداً وتحمى لأقل لهبة، فعينه تلتقط المشاهد الخارجية بالضبط، أما نفسه فقلما تهضم كل الهضم ــ لا بد من الكربونات ــ. تحس السينما صارخة في

مشاهده، اقرأ وصف مغارة الخورية ومصباح سامي الضئيل. والمصباح أحوج توفيق الى استعمال مشحات للسراج وهي سريانية لا عربية . ان هذه النظرات اللاقطة أفاضت اللون المحلي على المؤلف. والى اللون المحلي أضف اللون الخاص، فلبعض الأدباء لون خاص كخليل تقي الدين في كثير من تعابيره ـ اقصوصة الديك ـ ومثله عواد ، فان له لوناً خاصاً أحياناً لكنه ضيق الانطلاق والاتساع . ولولا قلة المؤونة اللغوية لجاء هذ اللون صارخاً ، ولكن قلة توفيق اللغوية غامضة فكأنه من العيال المستورة. انه يتاجر بالوزنتين ويريك ان مخزنه ملآن وتجارته واسعة، وهو على قلة بضاعته مدقق في التصرف بها .

ينقص الرغيف زخم العرض ، وتصوير المسارح ، وتوفيق في أقاصيصه أيضاً لا يصور المسرح ، وقد رأيته يتممد حل قضايا اجتماعية في اقاصيصه ـ الصبي والقميص ـ حاول هنالك الدروس النفسية على مصباح فرويد وتلاميذه فخسر في هذه المحاولة شيئاً من سليقته ـ والغرامة لا بد منها دائماً ـ اقرأ قميص الصوف تر ان حب تلك الأرملة لابنها قد استحال حباً جنسياً. كل ذلك لأن فرويد يقول هذا . ففي أم " قميص الصوف" وديك خادمة خليل تقي الدين تحليل فرويدي عنيف لا مبرر له في نظري. كان عمي انطون كأبي عروة السباع «يصيح بالسبع وقد حمل الشاة فيخليها ويذهب هارباً على وجهه » (بيان وتبيين ٧١ ج١) وكانت زوجته رجا ضقة المين تدخر البيض الطري لبوفارس فلا تطيق ديكاً يأكل مع الدجاج مع ان عمي كان فحل شول .

أما شخوص الاستاذ عواد فمنتقاة من عالم الآثار ، نقول عتيقة بالية . ينظر اليها نظرة عصفورية ، أي يدور عينيه حين اللزوم ، فهو سائق مغامر تلذ له الاصطدامات العنيفة ، والتزمير وما يليه من شتائم ومسبات . وهو تارة يصور ابطاله بريشة الرسام، وطوراً برش النشادر ويكوي بحجر جهنم ونترات الفضة. ولهذا اسباب طبيعية اجهل عللها .

ان هذه النظرات الحادة تجعل فنه كالسلاح المشحوذ حديثاً ، يقطع جيداً ولا يرضيك بريقه ولمعانه ، وهو قبل كل شيء عابر سبيل يلم كل ما يقع في دربه

ويضعه في عبه لحين الحاجة ، فعينه مفتوحة دائماً حتى في الظلمات ، وهو على أخذ ما يرى أقدر منه على الخلق . ولو لم ترجح كفة الواقع جداً على خيـــال الرغيف لكانت خير ما خرج من نوعها .

- يصور توفيق العاهات ببراعة تشوبها القسوة والكراهة ، فكأن له ثأراً عند صاحبها . فالعنف هو فن توفيق عواد وهو الذي يبث الحياة في قصصه ، فيخيل اليك انك امام خلية نحل في يوم قيظ . فليكن توفيق عنيفاً ما شاء فهذه حسنة فنية يزينها تنكبه عن التعابير المهيأة .

يحسب قارىء الرغيف وغيرها من قصصه ان درس الطباع فيها غير عميق لان مؤلفها لا يسير توّاً الى هذا الغرض، انه لا يشتغل وحده بل يسخرك للعمل معه ، فبدلاً من ان يصف اخلاق الابطال يريك اعمالهم التي تحددها ، ولكنه يتطرف فيطلب من جدته الاولى ان تلبس مثل اخته الصغرى ، او مثل عروسه ، وإلا فيعدها غير لابسة .

اقرأ لتعلم كيف يقسو على ام قميص الصوف ، حتى لم يبق إلا ان يضع على بابها مصباحاً احمر ... اني لأزعم ان اكثر دنيا قصص توفيق عواد صادرة عنه في اكثر الاحيان ، وأراه يرى الاشخاص ولا يرى التفاصيـل ، او يراقب من ناحية واحدة .

وكأني به قد قرأ القصص الشعبية كثيراً فصار يصدق كل شيء ، وكأني به ايضاً قد قرأ لقصصيين عديدين فآمن ايضاً بالعنف حتى في الحب فصور لنـــا كأناتاول فرانس تلذذ المعشوقة باللكم والضرب . فصور لنا وردة التي لم تحصن فرجها من صراع ليلي مع جندي تركي وتلاوص زينة لتأخذ درساً ... ولكن هذه المشاهد العديدة التي تعج بها الرغيف يبدو بعضها غير متماسك والسبب طمع توفيق بالاكثار منها . قد يبدو المشهد جميلاً بحد ذاته ولكنه لا يمتزج بما حوله . يجعل من سامي عاصم بطلاً لا يهاب المنية ثم يعمله عمل الاطفال إذ يلحس أصبعه حين يلسها كرباج السجان .

لقد أكثر من استعمال حكايات الاصوات فعبر عنها مكرراً فجاءت كقول

الراوي العامي : ومشينا : دي دي دي حتى وصلنا الى البيت وهناك : دق دق دق وفتح الباب الخ . ان كثيرين من الروائيين يستعملون ألفاظاً كهذه ولكن هذا الاكثار غير مستحسن .

قد نكون نظرنا الى رواية الاستاذ عواد القيمة بالاكبار والاعجاب لو كانت لمؤلف عالمي فلا نتناولها بما زعمنا ، فتوفيق إن لم يصب في كل شيء، وهذا المحال، فقد أصاب في أشياء كثيرة . ولكن توسيع البيكار ، حتى في البيوت ، مضر ، فيعجز المرء عن تأثيثها وربما عن تكنيسها . فهو لو حصر روايته في مدى اضيق وعمل على تنقية اجوائها من كل ميكروب لجاءت اوفر عافية وصحة . انها في كل حال خطوة واسعة في طريق الفن ، وقد خلقت اجواء غير اجوائنـــا المألوفة وعللتنا بسمو القصة عندنا .

بقي ان نقول كلمة في «نهايات» رواية توفيق وقصصه ، فهي بارعة حقاً . انها أشبه بقطعة القلم او انطباق الفخ ، كما قال سنت بف . فنهاية الرغيف في منتهى الروعة الفنية . فقول زينة وهي تشد يدها على الذخيرة : «لا شيء» رائع جداً ، بل تحته معنى لا توضحه الصفحات العديدة .

أما ابتداءاته فدون نهاياته روعة . ان أكثر اقاصيصه في الصبي الأعرج ، وقميص الصوف مبدوءة بـ «كان» حتى تكاد تحسب كل القصص واحدة لولا العناوين .

ليته ينتبه الى هذا ففيه ما فيه من الدوافع وخصوصاً الأقصوصة ، فان الزخم يجب أن يرافق أولى خطواتها . أما في الرغيف فقد دخل من الشباك لا من الباب كالعادة .

وبعد ففي الرغيف نقيضان : أولها خير من آخرها فنياً ، وآخرها خير من اولها بيانياً ، وفي عمومها ، اذا درست كل مشهد وكل شخص على حدة ، فزت بالفن الجميل ، وأعجبت بهذا الكاتب الذي يحذق التصوير ويجمل كل همه في تعزيز الخطوط المميزة . اما العلاقات بين مخلوقاته ودنياهم ففاترة لا ترتاح اليها ارتياحك الى كل منهم على حدة .

وقصارى القول ان رغيفاً واحداً لا يشبع أمة . فليخرج توفيق من فرنه الذهبي ما استطاع من أرغفة ، ولا ينس ابداً ذلك الكمك الذي قامت عليـه شهرته . بارك الله في عمره وزاد نشاطه الأدبي . عاشت الشباب .

قصص تقي الدين العشر

١

تعبت، والله، من عرض عقلي على الناس ، واريد أن استريح فلا أقدر. كلما بردت همتي ينكزني شيء لا أدري ما هو ، وهكذا لا أقف ولا الطريق تنتهي . ان لذّات الفتى عندي غير التي لطرفة، واشهاهن الى قلبي مذاكرة ابناء الضاد، ومذاكرة الرجال تلقيح لألبابها. كانت النصيحة بجمل أما الآن فنؤديها كالأمانة ولا طماعية لنا بشيء، ما نبتغي إلا وجه الفن الكريم، وتناسي ما يمر على رأسنا من هموم تهدّ الجبال .

أما أولئك الذين يتشفّون منا بكلام مثل وجوههم فلسنا نبالي بهم ، انهم كالحبارى ليس لها شيء إلا سلاحها المعهود ... ففي جوفها خزانة لها فيهاوجع معدّ كما لهؤلاء في رسائلهم العنبرية ! قال جدنا الجاحظ : ربما رأى الحرباء انساناً فتوعّده ونفخ وتطاول له حتى ربما فزع منه من لم يعرفه وليس عنده خير ولا شر.

إذن فلتزرق الحبارى البلهاء ، ولينفخ الحرباء حتى ينشق ، فنحن في طريقنا ماضون وموعدنا الساعة . كان أحرى بهؤلاء أن يفاتشونا ، او يتحفونا بنتفة من آيات صاحبهم هذاك ، لنذوق الكوثر ونصلّي لربه وننحر .

لماذا يحـ ـرن لغير سبب ؟ لا أدري .

وما ضرّهم لو جاؤوا الى كلمة سواء ؟ لا أعلم .

ان تكوين الأدب كمشروع القرش ، ومثلما يربو المال بجمع دينار الى دينار هكذا تتكون ثروتنا الادبية . فالنقد إذن واجب مقدس لأننا نربأ بخزانتنا الأدبية ان تحشى بالزيوف ، ولكن من تحدث ؟ انهم صم بكم عمي ان مدحت غيرهم حسبوك تسبهم ، وكلما صدقتهم النصح تفتحت حناجرهم كالقبور وراحوا يغرّضونك .

خبرنا مار بطرس – والعهدة على التوراة – ان الله حلف لنبيه داود بقسم ، فهل يصدقنا هؤلاء ان حلفنا لهم يمين النابغة لرب القبة ؟

أيصدقون ان قلنا لهم ليس في الدنيا بشري يكون كلامه برمتـه كلمات مأثورة ، واننا ان مدحنا واحداً غير مسمّى فلا يعني اننا نذم من يمشون فينا مشية الفحل ؟

وأخيراً ماذا يتوهم هؤلاء ؟ أخلقهم الله و كسر القالب ؟

اذا كان المسيحي يترجى قيامة الموتى في الدهر الآتي ، أفنكفر نحن ان ترجينا جيلاً جديداً يكون خيراً منا ومنهم ؟

وهب ان الله قطع النسل ، فما تكون العاقبة ؟ ! ألا نبكي كالنبي الكريم ونقول : « اننا عليك يا ابراهيم لمحزونون ؟ »

فنصيحتي لهؤلاء أن يضعوا ألسنتهم في موضع دافىء ويسكتوا ، فذاك خير وأبقى . ولو درى صاحب البريد بما يشحن الينا من مسك وعنبر ، لتقزز وصام شهراً بلا أجر .

خبرنا أحد النقاد ان الشاعر بودلير خاف على صيته الداوي من قصيدة سمعها لمالرمه ، ولكنه كان ضالاً فما عوّق هذا ذاك . فمن مبلغ عنـا بعض الرؤوس العصفورية ، ان تاريخ الأدب ارحب صدراً من معاوية ؟

●

كان اول مقال كتبته في النقد سنة ١٩٣٤ (١٧ ك ١) درست فيه بعض قصص الاستاذ كرم ملحم كرم . وبعد صيام ثمانية أشهر شرعت أفقص كالجراد ، وارسل هذا النسل المبارك طياراً وزحافاً فقال نفر : أكثرت يا صاح ، من عيث وافساد ، وقالت فئة : انه على سفر لا بد من زاد ... وقال فريق ... سلمت يده ، أتلف هشيماً ما فيه خير .

لست اؤرخ ولكنني اريد الوصول بك الى كتاب بعث به إلي الاستاذ خليل تقي الدين عند ظهور هذا النوء ، واليك منه ما يعنيك :

« فتقبل مني ايها الصديق الفاضل هذه التهنئة ، واذا كان لي ان أتمنى عليك

شيئاً فهو ان لا تحجم بعد ان اقدمت، وان تقول ما في نفسك وكل ما في نفسك لقوم يعقلون ، والسلام عليك من أخيك» .

١٢ آب سنة ١٩٣٤ . خليل تقي الدين

وفي غرة عام ١٩٣٧ اخرجت جريدة المكشوف كتاب عشر قصص للشيخ خليل فوجهه إلي « للغربلة » ولكنني لم أقل كلمتي فيه بل قعدت له ، وحدي ، قعدة امرىء القيس وصحبته بين المذيب وضارج ... اتأمل .

حقاً انهـــا موجة كطوفان امرىء القيس الشهير ، ستحوم بعده مكاكي الجواء ... وتظهر انابيش العنصل ...

والآن ماذا يحتاج الفرس الاصيل، وحجته في رقبته ، كما يقولون ؟فالكتاب نفد كما نقرأ في كشف دار المكشوف ، ومتى نفقت البضاعة قـــام الدليل على جودتها ، فالنفاد حجة كدامغة جرير .

ولكن يضل ضلالاً كبيراً من يستنتج اننا رمينا سلاحنا . فالفرس ، وان كان البراق جده،لا يسلم من هنات ولو هيّنات، او شيات سعد ونحس على الاقل. واننا نكاشف الاستاذ تقي الدين بنيتنا . قد نوينا ان نكون نخّالين لا مغربلين، فالغرابيل للزؤان والشيلم ، أما الدقيق فما يأخذ منه الغربال لا حقاً ولا باطلاً . وليثق الاستاذ اننا سنقول له : « ما في نفسنا وكل ما في نفسنا » . فليس الغش من شأننا ، واننا متماسكون وفوق المتماسكين ، ولن نتهافت ابداً .

اما شعارنا مع هذا الرف الجديد ، الذي لا يطلب الحسنة بالدبوس كقرومنا العتاق ، فكما قال زياد : « لين في غير ضعف وشدة في غير عنف » .

للشجرةالشائخةالفأس،ففي حدها رجوع الشيخ الى صباه،أما الفروخفتقوّم برفق ولباقة لتعتدل،ولا يلين اذا قومته الحطب . والأواني الطريفةتساسبفطنة ونباهة وتوقّىحتىمنمروحة سيلي بريدوم...وجهاز العرائس يصان فيالخزائن ذوات المرايا ، اما صرر ام الحليس الشهرية فتقبر في صندوقها الدهري ...

أمسيت لا أميل الى الالفاظ الداوية كألعـاب قيصر عامر ، فتلك أتركها

لكل مرقعان فرقاع ، ولن تسمع مني هذه الألفاظ المفلطحة مثل بسيكولوجيا وشقيقاتها ، وكل بنيات هذه العائلة الشريفة التي يحدثنا عنها كثير من الناس وربما لا يعرف اكثرهم عنها إلا ما عرفنا من عـاد وثمود ... لست اعتقد ان الاديب يتعلم هذا كالنحو والصرف ، وانا أجحد اكثر من ثلاث مرات اخضـاع الأديب للعلم ، ففي ايام المغفور لهم راسين وشكسبير وعمر والجاحظ والمتنبي لم تكن هذه المسميات ، وفي أدبهم منها شيء كثير . فالاديب الموهوب يعرفها ولا يدري انه عرفها . اما اذا كان غير مؤزر بطبيعة خصبة فهو لن يفلح ابداً ، ولو تعلم ذلك العمر كله .

واحدة فقط أظنها تكفيني شرك ايها القارىء العزيز ! بحياتك قل لي من علّم الاستاذ الجليل عنـــترة بن شداد علم النفس ؟ أدركايم ام فرويد ؟ أعن شيوخ السربون أخذه أم عن جهابذة اكسفورد ؟ أما حلل لنا نفس بهيم كان يركبه ليخلب لب عبلة فلا تغدف دون القناع ؟ وهذاك النابغة الذبياني أما حلل لنا في تلك العسجدية التي حبا بها غسان ؟ نفس «عصائب طير تهتدي بعصائب» ؟ فمن علمه ذلك يا ترى ؟ واخيراً ماذا تقول بوصفه نفس المتجردة :

نظرت اليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم الى وجوه العوّد

تباركت ايها الفن ، وجل جلالك . فلندع هذه الفقاقيع التي يتمطقون بها ففي أدبنا منها كثير ،ولكنها ومضات . فالعرب لا يحبون هذا «الأدب المفشّط» الذي يصطنعه جمهرة كتاب اوروبا لانفسهم .فهم يمرون عجالى، وادبهم كحياتهم تلك ، مختصر وجيز كملبسهم ومأكلهم ، انهم كالنحلة تأخذ كثيراً وتترك اكثر. شعارهم : اللبيب من الاشارة يفهم .

قال احد الكتّاب الفرنسيين : يريد بعض الكتّاب الثوريين ان يجعـــلوا الأدب خادماً لبعض القضايا ، ويحاولون جعله بوّاباً على بعض القلاع الحكومية مع ان مهنة الادب استقلال الروح .

فالأديب مستقل يستنير بالعلم وكل المعارف ، بيد انه لا يتمكز عليها . هو حر ان يبدي نفسه من خلال مرايا بلورية كالتي في قاعة فرسايل،او من سجنجل

امرىء القيس ، او ماويّة طرفة ، او من خلال قرارة كالدرهم ، كما فعل سيدنا الحطيئة اذ حبانا بوصف وجهه البهي ...

قال فولتير : كل اصناف الادب جيدة إلا المملّ المضجر ، امـا تولستوي فعدّلها هكذا : كل الاصناف جيدة ما عدا التي لا تفهم ،او التي لا تؤدي الغرض.

اظهر لنا العرب انفسهم من خلال إطار القصيدة الضيق- ليتني اقول البرواز فهي تؤدي المعنى اكثر - وظل الشعر كبير أناس في بجاد مزّمل حتى أتى الدهر باعجوبته الجاحظ العظيم فعناه من مشاكل الحياة ما يعنينا نحن اليوم ، واحل النثر في مرتبة الشعر ، ثم سرت روحه في ظهور الكتب فخلف لنا نسلاً مباركاً كالاصفهاني والهمذاني والمعري والشدياق .

وما أغنانا عن رأي العلامة مسينيون الذي نفحنا به الشيخ خليل تقي الدين لنعلم ان مظهر القصة ابتدأ عندنا في المقالات ،فنحن نحس وندرك ان بعض مقامات البديع قصص بالمعنى الفني اليوم ، لا مظهراً من مظاهرها كما قال ذاك الفاضل : فالمقامة المضيرية والاصفهانية والبغدادية والمكفوفية والموصلية والنهيدية والخمرية والبشرية يقصر عنها كثير من كتّاب اوروبا . صدقني ان قلت لك ان زعيم القصة غي دي موبسان لم يكتب مثل المضيرية . وان صح زعمي ، ولا ريب فيه ، كنا السابقين الى خلق القصة Nouvelle كما خلقنا الرواية .

عرفنا هذه الألوان الأدبية يوم كان غيرنا يغط في نوم ثقيل . ثم جاءت نوبتهم فنشأت القصة عندهم ، كما نشأت عندنا : حكايات ، فأساطير ، فقصص خرافية ، فروايات فروسية الخ . ثم هذه القصة التي في المقامات. لم نقف حتى كانت الدولة علينا فانحلت عرى الملك وعفا أدب الطلول ، ولم يبق فيها لسائل رد . وظلت آثار السلف ملهى للخلف حتى كانت القرون الاخـــيرة فسبقنا الذين تقدموا الطغرائي قبلنا ...

كتبنا شيئاً عن القصة سابقاً فليراجع ان كان فيه خير . أمـا الذي يعوزنا اليوم فهو القصص المتنوعة ،أما تاريخ القصة فالمتشرقون انفسهم لا ينكرون ان في أساطير لافونتين عرقاً من كليلة ودمنة، وان في مغامرات روبنصن كروزي

ملامح قوية من سندبادنا . فليست القصة في الادب بنت أمس ، ولكنها مطاقة طريدة فقر فضيعت وضيعنا اللبن ... والحمد لله على تلاقيها بأدبائنا في فجر هذا القرن ، وان قلنا جبران ابوها فما نقول إلا الحق .

وأنتج الأدباء قصصاً فكان بعضها دبلة على القلب ، وخرجت من تحت اقلام آخرين كالدينار المصروف بالقرش وانصاف القروش. وأصدرها جماعة كالصخرة الملساء ، او كذب لافونتين ... ومن غرائب عصرنا الادبي ان كلا يخطط الأدب دارات ومنازل على هواه ، ولو منّ الله عليه ببعض مـــا منّ على الحجاج لحمل الكتاب على الأدم ... فهذا يؤثر شاعراً فيقدمه على كل من قال شعراً ، لأن جيد شعره كركيك ذاك ـ كما فعل العقاد مثلاً ـ وهذا يدافع عن نول لأنه يحوك على مثله وهلم جرّا . وكأني بهذا المرض يعدي وإلا فكيف سرى الينـا من القاهرة ، فقال خليل تقي الدين في محاضراته : كيف أفهم القصة ؟ « والحادثة في القصة الحديثة ليست إلا عرضاً ، أما الجوهر فهو ما يقصد اليه الكاتب من وصف وتصوير » .

ويقول ايضاً في مقدمة عشر قصص : « ولكنني اذا عدت الى نفسي رأيت الحقيقة تنكر هذه الحوادث والعقد والحلول لأنها أمور متكلفة يجيء بها الكاتب ليتلهّى بها السذج من القراء » .

فإن صح ما يقول الاستاذ تكون القصيدة والمقالة قصة لأنها تحتوي وصفاً وتصويراً ، ولماذا يرى خليل الحقيقة تنكر هذه الحوادث والعقد والحلول ؟ أليس في الدنيا حيوات متعددة ، منها المعقدة كذنب الجرذون ، ومنها الملساء الناعمة كذنب القط ؟ انما الذي ينكر هو التكلف ، والابن ، وهو أعز الخلق ، يمقت ابوه محضره إن كان متكلفاً ... فإن شاء خليل هذا شايعته عليه ، بل كنت من غلاة شيعته ، وإلا فانني أكفـّر كما كفـّر علياً أصحابُه ، ولا تحكيم بيننا .

ان رواية ذات عقدة كالانشوطة يبسط فيها كاتبها مـــا يبسطه الكتـّاب المصورون ، ويحلل ويدرس ويصور كما يريد الاستاذ تقي الدين لهي أحب الى القارىء من كاتب يطمط ويمطمط ، ويعطينا درهم دبس على قنطار حطب .

في ذلك الزمان، زمان الحمير والبغال ، دعي حكيم لمداواة أب مريض، وفي ذلك الزمان السعيد كان الحكيم يتنازل عن المجيدي اجرته ولا يترك غداه او عشاه . فسأل الابن الحكيم : تريد دجاجة محشوة أم مقلية ؟ فجاوبه الحكيم : المرحوم جدك كان يعمل الثنتين ...

فرأيي انا كذلك الحكيم الذكي، أي ان نعمل الثنتين ، وان نكون بين بين، فلا نسمي الصورة قصة ، ولا نلبس « القبع الاخفى » او نحول الناس سمكاً يفز من المقلى ويجيب : نعم نعم ، وينشد شعراً .

ليس في الادب الفرنسي كتاب يعلم الروائي كيف يعمل قصته ، وان كان هناك شيء فآراء مبثوثة هنا وهناك وخطرات لهذا وذاك، فكما لا يعلم الانسان كيف يصف الحديث كذلك لا يعلمونه كيف يكتب قصة يسوق فيها ابطاله ويخلق اشخاصه . وقد خبرت ان في الأدب الانكليزي شيئاً من هذا فلم استغرب ، فعند الانكليز قوانين وتقاليد لكل شيء .

وجملة القول انني لا أسلم ان القصة بلا قصة تكون قصة – عفواً يا سيدي السكاكي عن هذا التكرار – ولو اثبت ذلك خليل تقي الدين وأيده ألف جهبذ فرنجي وكان بعضهم لبعض ظهيراً . ولا يهمني ان كان الفن اليوم لا يتشدد في ذلك ، فأنا اعلم علم اليقين ان اللحم المسلوق طعام أمرأ من اللحم المقلي بالسمن الصريح والمتبّل بالبهار والفلفل ، ولكن هذا القياس البطني لا يثنيني عن رأيي بل يحملني على التعصب له ، فأنا لا استطيب الطعام بلا قليّة ...

لست ادري لماذا قال خليل هذا ، فالعقاد معذور ان آثر ابن الرومي ، لان جيده كارداٍ ما عند شاعره كيوركيس ، اما خليل فمحجوج لأن في كل قصة من قصصه قصة ، – عندنا يا سكاكي – ونحن لا نطلب اكثر . وكما قال بول بورجيه سيد الأدب المغط، بمناسبة كلامه عن بلزاك: «لا يقدر العالم من تجربة واحدة ان يقر ناموساً عاماً»، وكذلك نقول نحن لخليل : انه لا يستطيع، وهو لم يكتب إلا تسع قصص ، ان يضع قانوناً صارماً للقصة والقصصين . فتحديد القصة عندي كالاسم الواقع بعد ولا سيا، حركه كما تشاء. ولا حرج عليك ان احسنت الاستعمال.

ولو كانت الحقيقة تنكر الحوادث والعقد والحلول لما امتنّ الله على عبده ورسوله بسورة يوسف دون غيرها إذ اوحى اليه : «نحن نقص عليك احسن القصص» .

دع الناس يقصوا ما شاؤوا شرط ان يقصوا ، فرب حاكٍ فتنك بقصته وهو لا يقص شيئاً، ورب آخر شوه سرده أطلى الأخبار، وأغرب الحوادث، فلا يفكهك حديثه فتكون حكايته كالدملة في ذلك الموضع ...

لا يعنيني كيف تكتب القصة ولا في أي موضوع كتبت، ولا يهمني أبضمير المتكلم أم المخاطب، لا يعنيني إلا الشخوص فإن كان فيها ما لا أنساه فهناك القصة الرائعة ولو خلت من العقد والحلول، كصاحب مضيرة الهمذاني، ولست أنسى قط ابن سوار قاضي الجاحظ ، ولا نعم ابن ابي ربيعة ، ولا فارياقية الشدياق ، ولا اعرابي الاصفهاني، حتى ولا ذاك الذي صرخ : يا حجاج ، الكلام الذي بيني وبينك اريد ان يبقى مكتوماً . كل هذه ليست قصصاً مقصوصة على هندازة اليوم ، ولكنها قصص كيفما دارت بها الحال . وثمة قصص ليس هناك اعقد منها تخلب لبك حتى تخال انك تواجه ابطالها ، إذ ينقلك كاتبها الى معترك ابطاله .

نحن الآن في صدد القصة الصغيرة التي انما خلقت لتماشي حياة هذا العصر المستعجلة، فهي القهرمان الذي يموّن من لا وقت لهم ولا جلد ، وكما اظهر القدماء انفسهم بالقصيدة ففصلوها على قدهم ثم بالمقالة ، كذلك سيظهر اديب اليوم نفسه من خلال القصة ، والقصة رسالة مستعجلة يؤديها الاديب المتين الى قرائه ، فهي اليوم نقل القراء الذي لا يعوق مستعجلاً ، كالسندويش للماشي لحاجته . والأدب على اختلاف اشكاله كالفواكه تختلف شكلاً وطعمـــاً وتتفق عنصراً . والفن وحده يحيي الأثر مهما كان نوعه ، وحيث لا فن لا حياة ولا بقاء . فرب مقـال اخرجه اديب كامل ذوقه كان قصة بعينها ، وربَّت قصة جاءت كالمقالة النيئة ، اشخاصها موتى ، وبروازها ابرش لا يبرز شيئاً منها ، ومشاهدها ممحوة كصورة ابن بلدنا ادونيس في الفينة .

قال خليل : «عشر قصص من صميم الحياة» . يا ويلي على الحياة وويلي منها ، أما كلُّ شيء من صميمها ، فكما يخلق الخـــلاق كل شيء هكذا يخلق الروائي

مخلوقاته المختلفة و كلها عجيبة اذا احسن تكوينها . ان حكاية خلقنا معروفة ، ثابتة لا يشك فيها عقل . أخذ الله تراباً ونفخ فيه فكنا نحن . ومنـــا اليوم ملكات الجمال ، وكواكب هوليوود ، ومنهم بنت شقيق سيدنا البابا كما قرأت ان لم تخن الذاكرة هذه المرة . فأي شيء أحط وأخس من التراب ، ومع ذلك استطاع ربنا القادر على كل شيء ان يخلق من الطين خالقاً آخر .

فبقدر ما في صدورنا من حرارة ايمان وما في رئتنـا من هواء سخن يجمد الطين وتشيع الحياة ... نحن لا نريد القصة كالتنور المسجور ، ولا نرضاها فرناً هامداً لا يصلح إلا للغاتو . فالقصة هي الخلق بعينه والكاتب خلاق عجيب يخلد ابطاله كالذين دوخوا الارض وقد يكونون امكن منهم . ان للكاتب في خلقه شؤوناً .

قال مالرمه : هذه مشاهد لا رؤى . فالقصة مشاهـد رؤى ، وهي قبل كل شيء وبعد كل شيء حكي كما قلنـــا . فمن الناس من يحلو حديثه ومنهم من يفلقك . ففن القصة لا يعلم ولكنه يجود على الممارسة والاطلاع أما صاحبهـا فمخلوق كالشاعر . وما هؤلاء القصصيون الفرنج غير شعراء ، قالوا الشعر اولاً ثم انصرفوا عنه كما فعل المنفلوطي فخسر الاثنين .

ادرك العرب حتى الاعراب منهم : ان القصصي مخلوق كما نستدل من كلام الجاحظ قال : وتكلم يزيد بن أبان الرقاشي ، ثم تكلم الحسن ، واعرابيان حاضران فقال احدهما لصاحبه : كيف رأيت الرجلين ، قال : اما الاول فقاصٌّ مجيد ، وأما الآخر فعربي محكّك .

واذا قلبت الصفحة ١١٥ من البيان والتبيين سمعت الجاحظ يقول : وقد يكون الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكلام ... ويكون له طبيعة في الحداء او التعبير ، او في القراءة بالالحان ، وليس له طبيعة في الغناء ، وإن كانت هذه الانواع كلها ترجع الى تأليف اللحون ... ويكون له طبيعة في قصبة الراعي ولا يكون له طبيعة في القصبتين المضمومتين ... ومثل هذا كثير جداً » .

أظنك أدركت القصد وهذا كاف . إن عصراً صار حريره وسمنه نباتيين لحري بالساهرين فيه الا يناموا لئلا يأتيهم السارق بغتة ... عليهم ان يبحثوا

ولا علوا ، فالناقد كالاثري ينبش القناطير المقنطرة من التراب ليعثر على تمثال أكله الصدأ .

قال جيليان بندا : اريد ان يبحثوا كتاباتي كأنهم وجدوها في قنينة ملقاة في البحر . وكذلك نفعل ان شاء الله .

٢

وما عليّ ان خلقني الله مارون عبود ولم يخلقني انطونيوس البادواني المالك سعيداً في بيعة الله ؟ اما المعجزة التي حسدته عليها واشتهيت ان يتفضل الله علي باختها فاصير عديله، فهي ان هذا الطوباوي كان يظهر بساعة واحدة في مدينتين مختلفتين كبيروت وحلب ، مثلا .

ان الله يعطي اللحم للأدرد ، فما احوجني انا الى هذه المعجزة لاكون بعاليه وعين كفاع في وقت معاً ، فاتناول الكتاب الذي اريده من هنا ومن هناك . لذيذة هذه الحالة وألذ منها ان يخطفني ملاك الرب كما خطف فيلبوس بعد تعميده الخصي وزير ملكة الحبشة ، عند غزّة . فالملاك أسرع من طائرات اليوم ، وظهره ناعم لين ... بطرفة عين نروح ونجيء والحبر لما ينشف ...

ولكن ما لنا وللتمني فليس لنا الخيرة من أمرنا ، ما بيدنا ملكوت كل شيء .. فلينبر القلم لموضوعه كقينة طرفة الشهيرة ... يدلني تاريخ الادب العالمي وخصوصاً تاريخ القصة على ان عقلية البشر هي هي . يتغير العرض اما الجوهر فلا يمس ، وما نراه اليوم كاملا ستأتي أجيال تهزأ به ، ولكننا نعمل ولا نبالي ، قد وجدنا وما يليق بنا أن نتوارى ولا نترك أثراً .

إن الذرية لهي جنس غريب عنا لا يعترف بجميلنا ، ولا يهمه ان يرضينا ، بل كثيراً ما يزعجنا . فكما فعلت ببيت أبي وجدي سيفعل اولادي ببيتي . يخططونه على هواهم وعلى نماذجهم الحديثة ، وهذه سنة الكون .

ورأيت ايضاً ان الادباء ، منذ البدء الى اليوم ، سلاسل مختلفة ، يتعارفون ولا يدرون . ورأيت أيضاً ان الجديد يحاول أن يعفّي على القديم ، وتلك غريزة دفنتها الطبيعة في تلافيف ادمغتنا لتدفعنا الى المثل الاعلى . والذي عندي أن كتّاب ذلك

الزمان غير ملومين لانهم فصلوا ثيابهم على هنداز‌ة عصرهم، بل هم حريّون بالعذر ان لم يستحقوا التعظيم كالذين غيروها بأحسن منها .

لا تتعجب اذا قلت لك ان تاريخ القصة هو تاريخ الآداب العالمية، واننا اليوم نسلك مسلك كتابها ، اما المفكرون فيتوقعون ، دائماً، لوناً جديداً . فمتى يخلق هذا ... وأين ؟ إن علم الساعة عند الله .

اننا ننتظر، أما الان فلنبدأ بقصص خليل العشر . فيهن واحدة وهي الأخيرة لمكسيم غوركي وأرى المؤلف حشرها في آخر كتابه كالمحصور بالا" ، لتقوم برهاناً على قلة اكتراث قصصي العصر «للحوادث، والعقد، والحلول» . فإذا طرحنا هذه الواحدة بقي لخليل تسع ، منهن خمس مسرحهن الشوف ، وان سمينا البعض باسم الكل كما فعل مشايخ النحـــو قلنا : بعقلين . واليك اسماءهن : نداء الارض ، فارس الشامي، ذكرى الهوى الاول، طريق الوجيه، بعد العرس . وهناك ثلاث مسرحهن بيروت : في مهب الغرام، جحيم امرأة، سارة العانس . وواحدة فقط مسرحها خليل تقي الدين، وهي صاحبي الذي مات .

مدار هذه القصص – عدا طريق الوجيه – على ذلك القطب الذي لا يبريه الدهر ... فالحب هو العقدة الابدية الازلية التي لا يحلها ملك الموت الذي وُكّل بنا.

في قصص خليل شعر كثير – لا أعني المنظوم – والشعر عنصر خطير في هذا النوع من القصص شرط ان لا يطغى فيكون الفـــن من المغرقين ... وفي قصص خليل حياة ، والحياة عنصر اوليّ في كل قصة كما قال احد شعراء الفرنسيس :

« Là ou la vie est le plus la vie, sur les lèvres des hommes ».

(تكتمل ماهيّة الحياة بكل معانيها على شفاه الرجال)

فالحقيقة والخيال يجتمعان في هذه القصص . نقرأ وصفه لغروب بعقلين – بيت العقّال عند علماء السريانية والجنة المعلقة في نظري – فيتخيل لنا اننا نراه ونسمعه .

عند خليل كلمات غير هرمة ، وبين ألفاظه تناسق وتآلف، كانما الشيخ يزوجهن عن حب صحيح ليس كزواج ياسمين في « بعد العرس » ولا كفارس الشامي . اما الانشاء المصنّع فقليل في هذا الاثر ، فعذارى خليل لا يتبرجن تبرج الجاهلية الاولى.

اساس هذه القصص وضعي، اما تفصيلاتها فتمثل شخوصاً حقيقية، ولكنه قد يؤلف الشخصية من عدة اشخاص، واكثر الشخوص ظاهر ناتيء كياسمين البريئة، وزوجها الهريء وسارة المقهورة. وبعضها يظهر بغتة ثم تختفي علاماته المميزة، وبعضها تظهر رويداً رويداً حتى تكتمل اشد كمال مثل فؤاد «في مهب الغرام» اما العنصر المسيطر على هذه الكائنات كلها فهو هزء خالقها بها. انه ساخر كالقدر.

عرفنا خليل باشخاصه في مقدمة كتابه بقوله: «وفي وسعي ان اضع على جبين كل منهم اسماً يعرفه الناس» فهو اذن شاهد عياني كما قال تين عن ماريه. وما هذا بعيب فعلينا ان نلاحظ بدقة عظيمة لنكتشف ما لم ير، كما قال فلوبير.

ورحت اقلب قصص خليل تقي الدين رأساً على عقب فرأيت التبدل في المطلع مرعياً في اكثرها، اما خطته فواحدة تقريباً. يدخل موضوعه، دائماً، من أوله، فكأنه يحفظ جيداً: وأتوا البيوت من أبوابها. بيد ان هذا التغيير هو الطعم الذي يتصيد به الكاتب قراءه. أما التنوع في نهاية قصصه — أعني الحوادث لا الخاتمات الفنية — فحسنة. لكل قصة نهاية تختلف عن اختها، وهذا شرط لاقبال القراء على الكاتب.

اشخاص تقي الدين مختلفون، وان لم يكونوا اربعين بالضبط كما قال موبسان لبورجه. انهم يروحون ويجيئون على قدر حظهم من القوة والنشاط. والذي لا يشك عاقل فيه فهو ان شخوصنا كأبنائنا منهم المتحرك الوَرِش، ومنهم الجامد الهادىء ومنهم البين بين.

نداء الارض

عنوانها اكبر منها، بطلها سعيد وهو شاب يتوحش في البرية، ولولا بنت عمه خيزبان عروسه العتيدة لا يدخل الضيعة. ونعم الأسم خيزبان ففيه لون محلي صارخ، وهو خير ما ينتقى لقصة ابطالها جذعان.

تلسع سعيد حية فيقتلها بمداسه وينجو من سمها بمصه، ولا غرابة فيما فعل فهذا معروف عندنا، وسم الأفاعي لا يؤذي الفم والمعدة السليمين. قال الانجيل

المقدس : يشربون سماً ناقعاً ولا يؤذيهم . فلدغت بولس رسوله حية في مليطة فرماها بالنار ولم يصب بأذى فآمن البرابرة بسيده يسوع المسيح . الحمد لله كان سعيد سليماً كما سمّى العرب الملدوغ تفاؤلاً .

وشاءت خيزبان فهجر سعيد عرزاله واستقر في الضيعة ، ثم أتت ساعة الزواج فوصف لنا المؤلف عادة المحيط في الدعوة الى العرس وصفاً متحركاً . ثم دنت ساعة «قيم الجرن» فيحامل معروف سعيداً ، ولهؤلاء رواسم في مثل هذه المواقف كالطقوس والمناهج الحكومية لا يخرمون منها حرفاً .

وبعد اللتيا والتي يفـوز معروف ويقصر سعيد فينكد هذا بعد الكسرة ، فيعيش عيشة غير راضية الى حين ، ثم يطلق الضيعة ويعود سيرته الاولى .

ان تلخيص القصة تشويه لها . فالفنّ في التفاريق لا في الجملة . اما العيب الذي بدا لي من هذه القصة فهو أن تصوير بعض عاداتنا الاجتماعية يأتي متكلفاً كقوله : «ثم جاءته بابريـق الفخار فبرد بمائه عطشه : ومسح فمه بطرف كمه» ثم قوله . «وهو زعيم شباب القرية» ، فهل حقوق كلمة «شيخ» محفوظة ؟ ثم هذا الذي يصفه خليل انه «ليس للتفكير كبير شأن في حياته بل هو مجموعة اعصاب تعمل بالفطرة وهو اقرب الى ان يكون آلة منـه ان يكون رجلاً يعقل ويفكر» كيف يجيب بنت عمه : «لقد زلت بي القـدم وانا منحدر عن صخرة عالية فتلقيت الارض بيسراي وأصبت بخدش بسيط .

فمثل هذا القدم لا يقول أكثر من وقعت . وهي لائقـة جداً به وبنا ناهيك ان قد وحدها لا تأتي في كلامهم فكيف بها مع اللام ! ولماذا نقوّله : يسراي ، والقرآن الكريم قال : عن يمين وشمال . وهذا هين عند قوله لمعروف : أنت له يامعروف (ص ١٩) .

ويقول المؤلف عن سعيد : «ثم بصق بيده اليمنى وفركها باليسرى» . انهم لا يبصقون ولكنهم ينفخون فيها فتخايطر ّي الراحة . ان الاستاذ تقي الدين وان يكن ابن بعقلين فهو لا يعرف حركات العوام بدقة ، لانه ليس منهم ، فهو لا يخالطهم ولا يعايشهم ، ولا اظنه يحضر عرس الذي يمسح فمه بكمه بعد الشرب . اما اذا

كان من المحسوبين عليه فيزوره بعد حين. فهو ابن محمود بك وبيته برأس الضيعة .

يريد خليل ان يتغلغل في القرية فتعوزه أشياء يدركها ان عمل بنصيحة فلوبير ، ولكنها وظائفنا تحـــول دون اعمالنا الفنية . فلكي نبلغ من درس كل ما يمكن الحصول عليه يجب ان نستسلم اليه بكليتنا ، وان نتزوجه لا ان نخالـه ، ففي نداء الارض شيء كثير من المخا"لة ، اما الزواج المبارك المقرون بالرفاء والبنين « ففي مهب الغرام » وفي « بعد العرس » وفي ... كما سنرى .

وبعد فليس كل حوار نداء الأرض غير موفق ، فهناك كلمات تذوب رقة وتمثل الواقع ، وكلها فصاحة وان كانت من الكلام المبتذل ... ونصيحتي لخليل صاحب الانشاء الانيق ان يستشير القاموس طبيب الادباء الخاص ، فيسلم من بعض الاملاح التي تصلب الشرايين فلا يقول: التحديق في ابن عمها ، وعصا النوطرة. ولو خرجت العبارة الأخيرة من فم سعيد او احد ابطال الرواية لقلنا معذور ، ولكنها من كلام المؤلف والمؤلف بليغ والحمد لله . فلا يلائم انشاء خليل الناصع ان تقع فيه تمنطق ، ولا « او لم يرسل اليهم نعي من ماتوا من اهله » وفي نعى غنى عن يرسل اليهم .

اما تصوير المشاهد والأشخاص فجميل جداً وهذا مجال واسع لخليل وحده ، الآن ، لا يزاحمه فيه قصصي . انه يمثل شعباً ، او قطعة من حياة شعب وعاداته التي يعرفها حق المعرفة ، وهذا مُهِم" جداً في الادب يخلد من يكتبه ويحله محله في تاريخه .

ولو لم يعز خليل تقصير سعيد عن رفع الجرن لتركه البرية كان افضل ، فللقارىء مجال واسع ليفكر ويعلل ، فهو لم ينس تلك الحية الملعونة ... وان شاء خليل ان يعيده الى مراحه فلا يصعب عليه ان يخلق سبباً كما خلق هذا البطل الباسل. ناهيك ان مناخ بعقلين وعرزال سعيد واحد فكيف تم هذا التفاعل الخطير ؟

واذا انتقلنا الى « في مهب الغرام » رأيناها تعـوم في بحر يعج بالفن كفرات الاخطل ، فخليل يصف فيها من يعرف ومن يرى . فهذا الفؤاد صورة صادقة لكثيرين وقد اراناه خليل على مهل فكان يظهر في القصة كما تظهر الصورة البالغة على الزجاجة تحت يد المصور في الغرفة السوداء . فخليل في هذه القصة روائي من

الطراز الاول . هو لو يشبه باقـــة فؤاد الضخمة بركبة البعير لا خفه لجاء التشبيه ابرع، ولكنه أراد ذلك الأمر لا يجهله الفنان ... فليكن . لا أخص هذه القصة، ونصيحتي لمن يهمه الأدب والفن أن يقرأها ، انها تجري كالنهر الهادىء ، وفيها اطوار خسيسة قد تحاماها الشباب المفترّون . يذكرني تأليف مكتوب فؤاد بخطبة رئيس بلدية الفونس دوده في حكايات الاثنين . ويذكرني أيضاً اعتناء فؤاد بالورق بكلمة ماريه : ويحبر أحسن .

ويظلّ خليل يقلب هذه الشخصية الفذة في طيجنه حتى تنضج نضجاً صالحاً تشتهيه العين قبل القلب . ثم يجمعه بجرمين التي عُشقت وهي غير دارية ، فيسائلها عن رسالته تلك فتجيبه : حسبتك تكتب مقالة لجريدة . وكذلك سمت مي كتاب جبران « النشيد الغنائي » كما ادركنا في رسائلها اليه .

اما انصراف الفتاة وغضبها « سرّاً » في قاعـــة سهرة فيها من كل فاكهـــة زوجان ... فلا أدري ماذا أقول فيه ، ولكن تلك « السيدة المتصابية التي تعرف معنى الحياة أكثر من جرمين واترابها الجاهلات الغبيات » أنستني ذلك

وهكذا عام فؤاد في ذلك الغبيط ... وسبحان مقسم الارزاق . وانعدمت السيدة المغبوطة في ذات ناسوت فؤاد انعداماً كلياً لا يشبه الا انعدام « البهائي » في ذات وحدانية ربه ...

وفق الله خليل تقي الدين الى أمثال هذه .

« اما ذكرى الهوى الاول » فهي أقرب الى الصورة منها الى القصة ، ولكنها في ميزانهم قصة راجحة ، فعند أشهر القصصيين مثلها وأقل حادثة منها . تذكرنا بتصوراتنا القديمة فهو يرى البحر من بعقلين كما كنا نراه من عين كفاع ، ويتوهمه كما توهمناه ، فقد كان يعيش في ذلك الزمـــان السعيد كما نعيش نحن اليوم ... في خيمة ... ولكنها من غار ... غار الحطب لا الاكاليل .

القطعة شعر منثور رائع تصف تأثيرات خليل الصبي بكل شيء : بالبحر ، بالغاب ، بالغروب ، برنين الأجراس ، بموسيقى الغابة ، بالظلام ، بالأنوار ، بالرعاة ، بالأغاني العامية ، بكل ما يبشرنا بان صاحبنا سيكون شيئاً في عالم الوحي والالهام.

ثم يعشق المسكين ثوباً وقامة ومنديلاً ، كما كنا نعشق كل ذات خمار ، او فستاناً منشوراً على السياج . ويتراءى له انه يحدثها فيقول لها كلاماً أعلى منه ومنها — طبعاً في ذلك العهد — فمن كان في ذلك العمر لا تأتيه هـذه الفصاحة الغراء ولا يعرف هذه الفلسفة الغرامية ، فهي بضاعة عتاق قارحين .

فقوله «اتكئي على صدري ودعيني انظر الى عينيك الساحرتين ، ولا تتكلمي» مشهد لا يحسن وضعه الا عباقرة الفن ... ولا سيما انه يليه : « وانسي في هـذه الدقيقة العابقة بطيب الهوى كل ما في الوجود ما خلا حبنا . ودعي أناملك تعبث بشعري حتى اذا تعبت استراحت على شفتي » .

وهذه أيضاً حكة سليمانية يعز نظيرها على غير نشيد الانشاد ... ولهذا اشك في ان خليل الامس يحسنها ، ولكن نيابة خليل عن صاحبه الذي مات جائزة ...

ولا حرج علينا ان وسعنا الدائرة ، وكل ما كتبه خليل أصبح يعنينا . رأيت الاستاذ ذا ولع خاص بالعبث بالشعر ، فاعلاً ومفعولاً . لحت هذه الخصلة بشعره اذ خاطب واحدة اسمها « مها » ودعاها لتأتيه قائلاً لها :

وألقي برأسك فوق ضلوعي   تداعب شعر حبيبي يدي

اما ذات المنديل فتأتي على عادتها الى العين عند الغروب فتعاود خليل النوبة فيحتر ، ثم يبرد ، ويوحوح ، وينام ملقياً التبعة على أيلول ، وأيلول طرفه بالشتاء مبلول ...

لقد كانت هذه المرأة كذلك العصفور الغريب الذي رآه ماريـــه في « Arène de Nimes » (الملعب الروماني المستدير في مدينة نيم الفرنسية) وكلا الكاتبين لم يظفر بغير الخيبة : قريب بعيد ...

أرى ماء وبي عطش شديد   ولكن لا سبيل الى الورود

وسواء أكانت ذكرى الهوى الاول صورة او قصة فهي خـير ما يكتب في هذا الغرض . ولو وقف خليل عند «اكبر ظني انها دمعة» لـكانت الخاتمة اروع وابرع .

٣

فارس الشامي

ملاك القصة شيئان : المحيط ، والعالم الذي يعيش فيه . اما المحيط فلا يخلقه المؤلف خلقاً، بل يصفه ويصوره بالوانه وأشكاله ومميزاته . لايعني قولنا هذا ان يصف كل ما هب ودب، فالفنان ينتقي و يكب" الاقذار في الساقية...ومتى تم له هذا ظهرت القصة كأنها حقيقة . اما الاشخاص فالمؤلف يخلقها . وكذلك اشخاص خليل وان قال : « وفي وسعي أن أضع على جبين كل واحد منهم اسماً يعرفه الناس » . ان النواة حقيقية كما قال ، أما هذه الجذوع المفتولة والفروع المتطاولة فمن عمل الأرض التي اقتبلت النواة فانبثقت شجرة أصلها ثابت وفرعها...

ففارس الشامي وان يك شخصاً معروفاً ، كغيره من أبطال خليل، فبوتقة الفن صهرته وأخرجت لنا منه شخصاً قلما خلت منه ضيعة لبنانية . وهب أنه شخص خيالي فالفنان قادر على جعل شخصه تاريخياً ، وقد صار .

جميل دخول ساعي البريد الى بعقلين في موكبه الساذج الذي يشبه اثنين الراهب ... فهذه الصورة لاتمحي من مخيلة اللبنانيين بعد ما أكلوا مما عز وهان. كان اللبناني إذا مست كرامته تمرد وأبى وتمثل بقول أبيه وجده : ما أحد يموت من الجوع، حتى كانت الحرب العظمى فألبسهم الله لباس الجوع والخوف، وصار الموت أرخص من الفجل . فكم دفنا بأيدينا من شبان لم يزودهم اباؤهم بدمعة لأنهم شغلوا بأنفسهم . وفي فارس الشامي يصف المؤلف حالنا بعد تلك الزوبعة فيريك بأي" أبهة كان يدخل «البوسطجي» الضيعة . لقد صور المشهد كله ولم ينس الولد الراكب على بغلة ساعي البريد« الغبراء » . وما انتهى شريط الموكب حتى عرض أمامنا معلم الأولاد يقرأ ذلك المكتوب البليغ الذي عقبته فرحة ام فارس بالخمسين انكليزية وجيئة ابنها . ثم يظهر المستر فارس الشامي على الميناء بين

المسلمين عليه بهيئة تميزه منهم وترينا مـــا علق باذياله من عادات لم يهضمها حتى الهضم فاتخمته ، وأصبح كالغراب يمشي مشيـــة الحجل ... ولا يبلغ البيت حتى تفاجئه الوالدة بحديث أدما مرعي التي اصطفتها له عروساً ،فاستغرب فارس الأمر جداً كما لا نستغرب نحن هذا العنف اللبق الذي صدم به أمه، فالرجل قد تأمرك وعاشر القوم أكثر من أربعين يوماً ... ولكنه تروّى بعـــد أيام وِلان ،وها كه مرتمياً على يدي امه معلناً نزوله عند ارادتها «فتبتسم وتهز رأسها علامة الشك فيما يقول» . ان في هذا البيان الصامت لاكثر من السحر واني اهنيء به الاستاذ .

ويتزوج الابن وتموت الأم، بعد أيام، وما هذا بغريب الوقوع، ثم يهاجر فارس وتصير زوجته أرملة لم يمت بعلها . وما أكثر هؤلاء الارامل عندنا، وما اصبرهن على أحكام الله ...

لم تعجب بعضهم شخصيات هـــذه القصة ولكن ليس في اليد حيلة، فكم في الحياة من مخلوقات لاتعجبنا، ولكنها موجودة وما لنا حيلة في اراحة الدنيا منها. اما انا فما على ضرسي مر، كل الاشخاص تعجبني، وقد ارثي للقبح فأهواه كما قال ابن المعتز . ما لي على المؤلف شرط غير تقديس الفن . وهذا ما يعمله خليل .

قصة فارس الشامي طبيعيـــة ومقدمتها الطويلة غير غريبة عنها ، ومن الطير الهدهد والطاووس والفرانق ... اما هذا الدبّوس الذي يشكه فارس في ياقته فما اظنه يمثل حـــذاء ، بل نعلة الفرس التي تتشرف اليوم بيوتات كريمة في بلادنا برفعها فوق أعتابها لتحل عليها البركة ... ومع كل هذا فلست أستغرب فعجائب اميركا اكثر من عجائب القديسة تريز .

ولو قال خليل حين تحـــدث عن موت الأم : « وانطفأت بين يدي ابنها كما تنطفيء الشمعة » ووقف ولم يزد « وقـــد نفد منه الزيت » لاسترحنا من مشكلة خطيرة وهي الخلاف على الزيت في دولة الأدب ...

أما الحوار فيتعقد أحياناً مع أن لغتنا العامية طيعة لينة لا تحتاج الا الى عناء قليل لتصير فصيحة ،فبدلاً من قول ام فارس: «قم بنا ياولدي فقد اجتمع الناس وعليك أن تخرج الى اصحابك فتسليهم» (ص٦٠) تقول: قم ياولدي،بل قم ياابني

مل" اصحابك – لان ياولدي تستعمل غالباً للتحسر ! – ثم لا ادري لماذا يقول الاستاذ حلوينة وعنده حلوان، ولماذا يضع المصطبة والغيّاب بين هلالين وكلتاهما فصيحتان . اما اذا كان قد فعل لفتاً للنظر فهو حر . وكلمة الجيب مذكرة فلتبق كذلك، وان قال بعض المتنطسين ما هذا معناه في كلامهم ، قلنا له : وما علينا ان حملنا الكلمة معنى تطيقه ونحن في حاجة اليه ؟

وأخيراً لو صار امرهذه القصة إليّ لختمتها وقطعت قلفتهاهذه : «امرأة كانت كل آثامها ان القــــدر اختارها ليلهو بها ، والويل من القدر المكتوب» . انا لا اطالب الاستاذ باداء رأيه، ان القارىء اللبيب أدرك هذا، ونحن لا نكتب لغير الالباء . ليست القصة اطروحة لتكون ميداناً لآراء مؤلفها ونظراته كما أراد احدهم . ومن شاء ذلك فما عليه الا ان يكتب رواية فتلك ارحب صدراً ، أما هنا فعلى القارىء أن يستنتج وما علينا نحن أن نعبر له .

سارة العانس

كتب خليل تقي الدين قصة بطلتها «سارة العانس» المقهورة فطلع علينا العقّاد من مصر السعيدة بـ« سارة » اخرى ولكنها فالتة خالعة النير فهل من حرج عليّ ان تذكرت بهذه المناسبة قصة أول « سارة » وسردتها لقارئي خطفاً ؟

لعل قصة سارة زوجة سيدنا ابراهيم الخليل أبي الآباء اقدم قصة عالمية . والذي يظهر لي انها كانت طيبة كزوجة الفرزدق التي وصفها لابن ليلى . وان عظمة دارم من عظمة بيت أبينا ابراهيم ، فالله جل جلاله تمشى عنــده واستراح تحت الشجرة وغسل رجليه . وخاطبه بعد حين في سدوم ، وكان بينهما اشياء كثيرة لا علاقة لها بموضوعي .

ان سارتي هذه كانت «حسنة جداً» كما تقول التوراة ، ولما هاجر ابراهيم الى مصر اصطحبها واتفقا على ان يقول وتقول «انها اخته فيكون له خير كثير بسببها وتحيا نفسه من أجلها» (ت، ف١٢ ع١٣) فاستحلاها فرعون ، جد طه حسين ، فأخذها وعاش سيدنا ابراهيم مطمئناً حتى اعيدت اليه . ولا تظن ان اعادتها كانت

هينة، فالله الذي وعد خليله ابراهيم مواعيد شتى قامت قيامته وضرب فرعون لاجلها ضربات كثيرة فانتبه ودعا ابراهيم وقال له: «لماذا لم تخبرني انها امرأتك، لماذا قلت هي اختي ؟ خذها واذهب» (ت، ف١٢ ع١٨و١٩) وهكذا صرفها فرعون من الخدمة بلا تعويض ... ولا تقاعد .

وعاد ابراهيم الى فلسطين ثم انتقل بعدحادثة انتقام الله من سدوم، الى ارض الجنوب، وهناك أيضاً قال عن سارة انها اخته فأخذها ابيمالك ملك جرار، وتدخل الله في القضية حالاً، فأعاد ابيمالك سارة الى زوجها، واعطاه معها — دوطة — غنماً وبقراً وعبيداً واماء .

اما سارة الاستاذ تقي الدين ، يا حزني عليها ، فغير نافقة كسارة ابراهيم . مسكينة هذه البنت، انها لا تحتمل ولا تطاق ، حملها خالقها — أي الاستاذ — وجهاً متكرشاً كالجراب العتيق، فضاقت به وها هي منفردة في أحد بيوت المروج، تحرّق الناب على الناب وتصرف في مريرها كناقة النابغة .

لخليل تقي الدين عناية خاصة بمدخل قصته، ففي مطلع كل واحدة منها انشاء كالعسل المصفى الذي وصف به الشعر الزهيري . وصف بيت سارة وصفاً جميلاً طويلاً مع أنه لم يدخله أحد من الناس غيرها، واراك سارة المبتلاة بوجه جاحظي غارقة على شرفته في أحلام اليقظة ... حتى اذا أقبل الليل المتمطي بصلبه تذوب ذوباناً وتموت من الكـد ولا يعلم بها أحد ... يهيئها المؤلف كما هيأ « فؤاد مهب الغرام » لفاجعة غريبة الشكل، والامور بمقدماتها .

وبقيت الشقية تلزم بيتها حتى فرج الله عليها واتصلت بعائلة مصرية ، غير اتصال سارتي بفرعون، ثم تصير معلمة لبنت تلك العائلة، ومرغريت جميلة مخطوبة تنتظر صاحبها ... واتى أميل فتعرف بسارة وكان يحدثها أحياناً فقام في نفسها ان كل نظرة من نظراته دعوة الى السرير ... واتت ساعة زفاف مرغريت الى اميل فسبقتها سارة الى الكنيسة واحتلت كرسي العروس احتلالاً انكليزياً، وهي تظنها اياها، وأخيراً جنت المسكينة كما جنت خوريّة توفيق عواد يوم أحد الشعانين.

كل هـذا حسن ولا اغراب فيه ، وما زلنا نرى مجانين الحب أكثر من الهم

على القلب . اشخاص القصة وحادثتها عادية وما أحياها الا فن خليل فجعل منها هذه القصة الرائعة . اجاد خليل الدرس والتحليل كل الاجادة، وقد رأى غيري ان التحليل ميدان الاستاذ اما انا فأراه يصلح لكل ميدان ، وسيعنى في قابل بالحور وغيره فنرى ابطاله عمالقة ، فحياة الأبطال في كلامهم ، وهو الذي ينم عن كل شيء .

جحيم امرأة

اذكر انني قرأت منذ سنوات قصة بهذا الاسم ، وما زلت اتذكر موضوعها جيداً فهي لا تتفق وهذه بشيء غير العنوان. ان هذه القصة جحيم حقاً لاتنقصه الا شجرة الزقوم ، وقد كانت المرأة فيها كما تعودت ان تكون كل مرأة غير حصان،جحيماً لنفسها. فدارت عليها الدائرة. القصة عامرة،فيها حب شبق حتى الكلَب واقتتال حول حـــوض سائب لا يذود عنه أحد بسلاحه ... احسن الأستاذ المساق فلم تلتف فيها الساق بالساق ولكن السطر الأخير قد جاء علاوة عما يطلب الفن، اذ ليس على المؤلف ان يزكّيها، كما انه حمل نفسه فوق طاقتها حين كلفها شرح : خائنة زانية (ص٩٢) .

وهنا لا بد من ذكر بعض مآخذ لغوية طفيفة كقوله : حتى هوم من النعاس، فكلمة من النعاس فضول،وهوم وحدها تؤدي الغرض . ثم قوله: أشار اميل على الخادمة، والوجه تعديته بالى، فليس هناك ارشاد بل امر بالعمل. وشراب التوت المثلّج، والمسموع عنهم: المثلوج . ثم في الصلمة وحدها غنى عن القول صلمة رأسه، وقوله : ملأ حفنته، فالحفنة هي ما يؤخذ لا ما يملأ . وقوله : استروحت رائحة الفريسة، فرائحة زائدة . وأخيراً تهربت، فهي غير فصيحة .

سيقول بعضهم ما اثقلك واكثر تعنتك، اما نحن فنجيب : وهو كذلك . ثم نسأل هل فينا من يشير الى غبار على ثوب كلاس او طحانٍ ؟ ومن منّا لم يتفق له ان نفضه بظفره اذا رآه على ثوب نظيف أنيق ؟ وهذا شأننا مع خليل .

قال أناتول فرانس في ختام فصل عقده لنقد موبسان: «انني مغبوط لقولي ان موبسان يكتب بلغة افرنسية حقيقية ، ولا أعرف تقريظاً اجمل من هذا». ونحن

نقول لصاحبنا الذي افترضناه: أن خليل تقي الدين يكتب بلغة العرب، ولذلك نريد أن ننزهه عن هفوات قد يكون عندنا مثلها وأكبر منها .

طريق الوجيه

لماذا أحس أن هذه الرواية واقعية وانني اعرف بطلها؟ لا أدري. تمثل القصه صراع الزعماء مع الاوادم الطازج – الطازه – وهذا كثير في لبنان بعد افتقار زعمائه واغتناء عوامّه والناس حيث المال مالوا .

ان حركات سعادة البيك ومن حوله من رجاله لعلي أعظم جانب من الفن، ولو كنت مخرجاً سينمائياً لاخترتها مشهداً. وقد لايتذوقها مثلي كل قارىء، فماذا افعل لأحـل فيه خمس دقائق كما حل الروح القدس في التلاميذ؟ لا أراني اغالي اذا شبهتها بروائع القصص الاجنبية. اقول، ولا يوبخني ضميري، انني لم أقرأ احسن منها عندهم، فاذا قارناها بما يشبهها عند موبسان رأينا الاستاذ يجري معه في هذا الشوط كأنهما فرسا رهان . وان كنت لا تصدقني فعليك بقراءة قصة Décoré (حائز الوسام) ثم خبرني بعد هذا كيف تجد خليل تقي الدين .

اسمع تهكمه ببيكنا الجليل : « أيعقل أن يضطر البيك غـداً الى السير على قدميه من آخر الضيعة حتى بيته لان الفن يقضي بذلك، ولأن المهندس لا يستطيع مخالفة ما يقضي به الفن ؟ ترى أين كان الفن عندما كان أسعد بك يركب حصانه الادهم في الأيام الصائفة تحت أشعـة الشمس، ويقصد الى مركز المطران ويظل الساعات الطويلة يدافع عن حق «جبلين» في الطريق؟ ام قضي عليه أن يتعب ويشقى وقدر لرجل غر أحمق كميلان الياس أن ينعم بالطريق تأتيه صاغرة اليه اكراماً لعيني الفن ؟ » .

ويجاهد الاستاذ في وصف البيك وهركلته حتى الجهاد، ثم يطوفه على الابواب الدينية والمدنية حتى يقفه اخيراً امام الخريطة كالبهلول ويقول له المهندس: «أرني أين يجب ان اضع الطريق لتكون حضرتك راضياً» ! الخلاصة خاب سيدنا البيك والعوض بالله، ووفق خليل فأجهز على هذا البطل وختم قصته احسن ختام .

ان قصة طريـق الوجيه وجيهة في عالم الفن كما كان المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين .

بعد العرس

كأننا بخليل تقي الدين يفعل بنا كقوله تعالى : وما نريهم من آية الا هي اكبر من اختها . أو كما قال رئيس المتكئين في عرس قانا الجليل : انـــكم ابقيتم الخمر الجيدة للآخر. فقصة بعد العرس طرفة فنية تتراءى لنا شخوصها ناتئة كأنها تماثيل لا صور بيانية . كل ما فيها طبيعي ينكر عليّ ما انكرت من خليل في نـــداء الارض، فهو هنا خبير جـداً بشؤون القرية ، وان كان ينظر دائماً « من فوق » الى أبطاله .

ثلاث نسوان يأتين مع الصبح الى عنبال ليخطبن بنتاً سمعن بحسنها، لعريس محطم فانٍ ولكن غني، والمال ستّار العيوب ، فتفلح سفارتهن بشروط وتكون ياسمين البريئة كبش المحرقة .

في القصة أشياء كثيرة من درس ، وحـوار، وتصوير ، ولون محلي، وكل ما يفرضه الفن على الأديب الموهوب ، ما ترك الاستاذ شيئاً حتى العصفور الذي فر عندما سمع وقع الخطى... ولم ينس الحروف المعلوف ولا بعض خرافاتنا كاختلاج العين اليمنى، والشؤون التقليدية التي يفعلها الشباب بالعريس، ثم عادات ليلة العرس البيضاء وصباحها الاحمر... واخيراً ختام هذه المأساة الذي تتفطر له الصخور.

كل ما في القصة جميل ، واني اسأل من يعنيهم الفـن أن يطالعوها فهذه قصة قلما يقعون على مثلها .

صاحبي الذي مات

قصة مسرحها خليل تقي الدين، كما قلنا وهي غريبة عن اخواتها، ولا يقاربها الا ذكرى الهوى الأول. ذكرتني قصة صاحب خليل الذي مات — أعاضنا الله ببقاء الحي مع المرأة التي راودته، يوم لم يكن يعرف قيمة الرزق — بحكاية لموبسان يأتي

فيها رجل الى مرأة ليسألها بعد عشرين سنة ماذا كانت تريد منه في احدى ساعات بعض النزهات فضحكت وعادت الى المطبخ ... ويختم خليل قصته هـذه بقوله لتلك المرأة وقد عتب عليها لانها سكتت اذ رأته غير شيطان كجرير : « انا يامرأة رجل مادة و كفاح، أما الفتى الذي تعرفين فقد مات... ولقد ولد صاحبي معي ومات ، ثم بعث ثانية ويدي اليوم على قلبي وقلبه معاً نخشى عليه أن يموت فلا يبعث من جديد » .

قلت : لا تخف يا صديقي، عليك بخائيل نعيمة، ألم يقل في رثائه أمين مشرق: « ليس في الحياة انفصال على الاطلاق ، فأمين معي من بعـد أن جاءني نبأ موته مثلما كان معي من قبل ذلك النبأ » .

لاشك ان هذه العبارة كفكفت دموع شقيقته المفجوعة ، وعزت كل اصدقاء أمين . اما عرفوا انه لا يزال مع الاستاذ نعيمه مثلما كان ؟ . . . فثق انت اذن ان صاحبك سيظل يبعث من جديد، آمن بأخي تغلب الموت. ثم ما لنا وللأستاذ نعيمه فهو من الطارئين عليكم ، وما غلب الموت احد غيركم انتم الدروز .

ان تذكاراتنا هي بقايانا الميتة ، فكما تتغذى الشجرة باوراقها التي تسقط منها هكذا نعيش نحن بها ، فتصورها عذب والتحدث عنها شهي ... فصاحبي الذي مات لون أدبي طريف يبشرنا ان كاتبنا المجيد سيحلق في الدرس والتحليل – بضاعة اليوم الرائجة – وسيكون بدراً كاملاً ان شاء الله «ففي الواحة والديك» تباشير نهار جميل، أبعد الله غروبه .

أما قصة السجين لغوركي فلا تعنيني ، وما ارتكب خليل كبيرة بحشرها في كتابه ، فقد رأينا ماريه يفعل ذلك قبله، واظنني أصبت الهدف حين زعمت انه اتى بها حجة وبرهاناً .

وبعد، فهل اسيء الى أحد ان قلت أن عند خليل تقي الدين قصصاً سيكتب لها العمر الطويل في لوح القـدر ؟ ان ابطاله عاديون قلما خرجوا على المثل الأعلى المعروف . ليس للحكاية عنـده المحل الاول، ككثيرين من قصصي اليوم . فاين هو الفن اذن ؟ ان مواضيع كهـذه لا تشيع فيها الحياة الا اذا انتدب لها قلم

فنان ، فبيان خليل هو الذي يحييها ويهون عليه اقتحام هـذه الثغور والفجاج ، فيلجها غير هياب كانما يدخل ندوة المجلس النيابي ...

ان الفن في نظري تعبير بليغ عن حبنا للحياة ، وعلى قـدر الحب والالهام يكون تقييدنا لأوابد المشاهد فتحيا الى الأبد .

وأخيراً ثق ياصاحبي الذي لم يمت اننا كنا عندظنك،فما حابيناك ولا داجيناك بل قلنا لك ما في نفسنا ، وكل ما في نفسنا . وانتقادنا بعض هفوات لا يحـــول دون اعجابنا فالى الامام يا شيخ : اننا نبشرك بغـــلام اسمـه يحيى . . . أنجز « العائد » . . .

الباب المرصود

لعمر فاخوري

١

لا ادري ، ولست ادري لماذا لاأدري، علة ابطائي في درس الكتب ، فبعد عامين لاينقصان ولايزيدان وجدتني مسيراً لامخيراً للكتابة عن «الباب المرصود».

طالعته والصف المنتهي باباً باباً لم نخرم منه حرفاً ، فكان لهؤلاء الفتيان فيه متعة لم احسها عندهم من قبل . كثيراً مـــا كنت الجأ الى غطرسة الاستاذية في اثناء قراءة الكتب الاخرى، فاحض هذا واحث ذاك،اما في هذا المرج الخصيب ففي وسع الراعي ان ينام عن القطيع ولا يتولى رعيه أســـد ... كانت تخالط الاستفادة لـذّة ترقص على قسمات الوجه وهـــذا ابعد مدى يبغيه الكاتب او القارىء من مطالعة كتاب .

اسلوب عمر فاخوري طريف قوي، وقلما تجتمع الطرافة والقوة . فالكتاب لـذّة للقارئين، ولكنها لذة غير مرمية على قارعة الطريق. جمال غير وقح، ملثم ببرقع خفيف يزيد الفتنة نعرة.فعمر كموسى يغطّي وجهه حين يكلمه الرب...

لم يسم كتابه الباب المرصود عبثاً . يخيـــل اليك – ان كنت نحوياً – ان ذلك من باب تسمية الكل باسم البعض، كما سمى أشياخنا افعال المقاربة . ولكن لا، فعلى كل شباك ونافذة رصد . يحبس عمر في كل قمقم عفاريت ومردة تعجز عن احضارهم عرّافة عين دور ، مصمدة صموئيل لشاول . يطمر في الطريق الغاماً ، ويزرع القنابل ، ويمـــد الأسلاك ، وهو يعدو عدو الشنفرى، فيحار فيه قراؤه ويجلسون فريقين في الغميصاء يسألون :

فان يك من جن لأبرح طارقـاً وان يك انساً ما كها الانس تفعل

هذه مصيبة بعض الادباء بالكتاب فكيف بالمتأدبين ومنهم الذي قـــال في المقتطف : « ما هذا كتاب نقد » . كأن كتاب النقد كبطل مكفوفية البديـع لا بد له من أجراس وجلاجـــل وشملة صوف ... اذا كنت من ذوي الالباب والراسخين في العلم ففي وسعك أن تدخل هـذا الباب الضيق ، وتعود من عند «الرصد» بالكنوز الثمينة ، والا فابقَ في عرصات الدار وحسبك رؤية الداخلين والخارجين . ليست كل العيون تصدق في ادراك الألوان .

قلما تخلو كتابة أديب اصيل من « رَصد » كما لا تخلو قريـــة من أخباره العجيبة ، فان كنت ممن يخشون الارصاد ولاتطيق الحياة في دنيا السحر والعرافة فما عليك الا ان تبسمل وتعوذ بالآلهة من شياطين الفن .

في باب عمر المرصود حكايات فيها الغريب وفيها الواقعي ، وفي قرارتها جميعاً لبّ يسيل له لعابك ، فكدّ ذهنك تصل ، او استعن بمن يقرئك بالمدلّ ... والا فاعلم انك لست من قراء هذا الكتاب العبقري . فلنبدأ :

في «الشاعر وأبناؤه» حكاية الفتى عمر الفاخوري . ظن عمر الغلام انه سوف يجدد الشعر العربي يوم نظم أبياتاً معدودة من قصيدته الاولى. اعجب بها اعجاب الأم «بطرفتها» يوم المولد وبعده ، ولكن الأيام نكـّرت تلك الملامح وبدلت السيماء ، فراح عمر يردد سقياً لك يا عهد الصبا ورعيا ، لقد كنت تسكر بزبيبة .

بطل «الشاعر وأبناؤه» عمر في الظاهر ، اما البطل الحقيقي فكل شاعر يشفق على العرج والخلـّعين والخرس والطرش والعمي والبله من بنيه وبناته... فيبلو بهم دنيا الفن ، ويصبح عالم الشعر مأوى عجّز وعوه ، أو مستشفى مجاذيب . وان لم يستخفك الطرب بهم مثله أحصاك في زمرة الحساد ، اذ كيف تنتقده وهو يحسب ان لن يقدر عليه احد ، وان شعره أُنزل في ليلة القدر ؟

هذا اول قسط من المبلغ المرقوم أدّاه عمر ، مع الشكر ، باسلوب تحت زئبره المخملي إبر تلذع كتيار كهربائي خفيف يدغدغ ويؤلم . وفي الكهرباء شفاء الشلل ...

وفي المقال الثاني وعنوانه «الباب المرصود» يخبرك عمر أنه شهد السيناء فوقع بين فتى عربي وعجوز فرنجية بكيا تأثراً . لم يزعم عمر انه كان كالجزيرة بين دجلة

والفرات حتى خشي الطوفان، ولكنه يشهد أن صاحبيه بكيا، وهمّ بأن يتمشيخ في زمانه ويتولى عقد قرانها فمنعته كراهية الدخول فيا لا يعنيه . وحسناً فعل

تظن وأنت تقرأ هذا المقال ان عمر يكتب فصلاً لا قرابة بينه وبين السابق واللاحق، والحقيقة انه ابن عم لحاً لهذه الأسرة الكريمة . فالمعالم التي ينصبها عمر في مفاوز مقالاته ترشدك فلا تضل «فهذا الفتى الباكي يمسح عينيه خائفاً من سخر الناس الذين سيعلمون أنه صدّق ووقع في حبائل الفن» ثم «وهكذا الفن ، سواء الموسيقى والشعر وغيرهما يخرج المرء من طوره الى طور ثان» (ص١٩ و ٢٠) .

ورجل عمر خفيفة ينقلك من عند كاتب انكليزي الى آخر فرنسي ، ثم يطير بك الى دنيا «النرفانا» لتام كروية الأرض. ويسيّرك ولا يخبرك مع قوافل البشرية المنتقلة من ازل الآزال الى ابد الآباد، فتستريح على مصاطب الصوفيين حيث السعادة خلف الباب المرصود ... وهنا يتطاول عمر الى معرفة ما وراء هـــذا الحائط فيقول : ولكن من تراه يفك الرصد ؟ ويكون عمر في عداد الضائعين فبدلاً من ان يجد السعادة في أفيون بودلير يغني نفسه بالنعيم لانه يمسك الى صدره كتاباً... وكان لسان حاله يقول : الكل باطل وقبض الريح .

وفي كنوز « الفقـــراء » يسرد عمر حكايات كثيراً ما علل بها اللبنانيون غنى فلان وفلان، ويخبرك بسخر المعري المؤلم كيف أن المرحومة جدة أبيه – السيدة صفية – لم تأخـــذ نصيبها من البقرة المذهبة ، وان عمر كاد يكون غنياً في ظهر الغيب في النصف الأخير من القرن الثاني عشر للهجرة ، وان لم يكنه فلأن جدته المرحومة ما أرادت . وهناك قصص مواقد غير هذه ترافق نقل الشتاء والشاي الذي يشرب على ذكر الحبيب الربيع .

وهذه الاقاصيص التي تخلق على هامش الواقـــع عوالم غنية بالاحلام والأماني ليست وقفاً على وحي الانبياء ووحي الشعراء بل لها ينبوع يفيض ولا يفيض هو الآداب العامية التي لا يتجلى فيها الروح القومي فحسب بل تترجم من جهة ثانية عن النفس الانسانية على اطلاقها، فهي كالبقرة المسرجة بالذهب تحمل كنوز الفقراء (ص ٣٠) .

ففي الباب المرصود، كما ترى، سلك ينظم فيه هذا العقد الفريد، وما عناوينه الا مسميات تدل على اعيانها . لم يشر عمر الى الآداب العامية عبثاً ، انه يهيئك تهيئة دبلوماسية بقوة عارضة المدره البليغ لقبول ما يعرضه عليك. انت مقبل على باب حنين « شاعر الشعب » فاسمع ما يقول فيه ، أي في عمر الزعني :

« وهذه قصائدك بمبانيها ومعانيها وأغراضها لن تضيرها تلك اللهجة الوسط بين الفصحى والعامية ، بل انها في هذا الثوب المنوع الألوان البهيج الزي لاحسن استيفاء لشروط البلاغة في المعنى، والفصاحة في التركيب ، من بدائع ادباء العصر الذين يحيون في منظومهم ومنثورهم على هامش الحياة . فقصاراهم اذن ان ينطرح أديبهم جثة على هامش الأدب الحق الذي لا يصدر ، سواء كان فصيحاً ام عامياً ، الا عن مورد واحد .

« أما الجثة فيبالغون في تنميقها وتزويقها وتأنيقها ولكنها« تواليت » الميت الذي لن يخدع طويلاً . لن يخدع في صفوفنا هذه الفئة الفتية التي تطمع فيما هو خير من نسخ الأقدمين واعسر من تقليدهم ، وتطمح الى ما وراء صب الالفاظ في القوالب الجاهزة (ص ٣٥ — ٣٦) .

وفي فصل ثانٍ وعنوانه «حنين والشعر القومي» يتمادى عمر في اطراء عمر . وفي الثالث وعنوانه «العمود الهادي» — والعمود الهادي، او الصوى بلغة البوادي، هو الذي يرشد أبناء السبيل الى الجهة التي يجب أن يمشوا فيها — ويرى عمر أن الاعمدة الهوادي كثيرة في مجتمعنا «فان مجتمعنا غابة من الاعمدة البكنسيفية الترتوفية .

لا يدعك بكنسيف واحد الا ليسلمك الى ترتوف آخر ، اما في أدبنا فغير موجودة البتة ، فان أدبنا مشغول بما لا أدري عن تمثيل نواحي الحياة وتصوير اخلاق الأحياء . أدب لفظي لا أدب حي (ص ٤٤) .

«لا تجد في غير أغاني حنين العامية تمثيلاً صحيحاً لنواحي حياتنا حتى لو أن مؤرخاً بعد خمسين سنة حدثته نفسه باستشهاد أدبنا على زماننا، او بالتماس صورة لعصرنا في أدبنا لكان أكثر تعويله على ديوان شاعر الشعب حنين . لولا حنين لكان هذا العصر أبكم ليس فيه من يشهد له او عليه ، هو اذاً شاعر العصر» (ص ٤٥) .

وفي الفصل الرابع وعنوانه «حنين والهجو الاجتماعي» يقول: «وليس الذنب ذنبه اذا كشفت له بصيرته عن عورات الاجتماع فمثلها لنا بصورة لطيفة بل «ملطفة». ومن قال أن الفن رداء يجب أن يطرح على سوأة نوح في غفلته ؟ » (ص ٤٦) .

«فلا بد لنا في كلتا الحالتين من أن نحمد الى حنين هـــذه النزعة المباركة في أغانيه العامية . هو أولاً الشاعر الجيد فناً ، وهو أخيراً المصلح المحسن اخلاقياً واجتماعياً» (ص ٤٧) .

ويرفع عمر فاخوري حول رأيه هذا دعائم من الباطون المسلّح تسنده من الجهات الاربع وكأنه خائف عليه من غابات الاعمدة الهوادي فأرانا ان في صراحة حنين «الملطفة» كل الحق، وأخيراً فذلك رأيه «هكذا تريدون أدباً صحيحاً فلندع الحياء الكاذب، وتريدون اصلاحاً اخلاقياً فلندع الرياء الاجتماعي» (ص ٤٨) .

فلنعد الى هذه الأقوال كلها، مبتدئين بكلمة بنى عليها الاستاذ رأيه في حنين، وهي حجته القاطعة لجعل حنين شاعر العصر . الكلمة للفيلسوف رنان : «الأدب الحق في زمن ما هو الذي يصور ذلك الزمان ويعرب عنه» (ص ٣٥) .

اقول : اذا قصرنا الشاعرية والفن على تصوير العصر والاعراب عنه فحنين شاعر العصر بلا منازع كما سمــاه عمر ، ولكن السلف الصالح يفهمنا في علم البلاغة ان التشبيه مثلاً ، اذا كانت أداته مثل أو شبه لايعدّ تشبيهاً طبقاً «للمرسوم» الذي صدر في ذلك الزمان... فما لا شك فيه ان أغاني حنين شعر رفيـع، وان اغاني حنين تشريح وبضع للدمامل والبثور الخبيثة المقيحة في جسمنا الاجتماعي. وان أغاني حنين تدخل الآذان بلا استئذان، وان اغاني حنين تضحك وتبكي في وقت معاً :

هرج ومرج ، وسوق فرنج — وتكسيات بتكرج كرج
غرقانين بـــين النهرين — نهر ابراهيم ونهر الكلب

اشهد ان اغاني حنين احب الى قلبي ونفسي وعقلي من شعر فلان وفلان ... واني لاجاري الاستاذ عمر الى ابعـــد مدى وهو «ان لحنين كرامات في حياته وما هو من الأولياء» ، وانه «ما كاد يصرخ — كما قال ذلـــك البعض لعمر —

في اغنيته من قلب مجروح قائـــلا : « حاسب يافرنك » حتى وقف بثل كن فيكون » (ص٤٠) .

كل ما كتبه عمر في تمجيد شاعرية حنين لا مبالغة فيه ، ولا غلو ولا ايغال ، فهو من ناحية «المطابقة لمقتضى الحال» شاعر فذ . ولكن هناك شيئاً غير مطابقة مقتضى الحال والواقع . هناك مادة يجب أن تظل أولى في عناصر الفن ، وهي اللغة . لا أقول الفصحى كما يريدها المتزمتون ، ففي كلامنا الفاظ وتعابير فصحى ولا تعد منها . فما ينقص الزعني غير هذا ليكون في أعلى عليين ...

ان شعر الزعني كيفما قلبته لخير من قصائد كثيرة تنمت بالعصماء، وهي منتهكة ، وغراء وبوزها أسود ... لا قرابة بين أبياتها، ولا «قران» بين ألفاظها ، فكأنها بعر الكبش كما قال أبو الادب العربي في شبيهاتها ان شعر حنين لخير من هذا الشعر الخرّوبي الذي لافائدة فيه الا انه يلتّن المعدة، ويغني عن حبوب الدكتور روس. ان قصائده هذه لأفضل من شعر أصحابنا الذي يطرحونه في غيابة الجب فلا يراوده ذئب عن نفسه ، ولا تسومه قوافل الحياة لتشتريه لانه لا يجاريها: ادب ضفدعي قوته في حنكه ولا يعيش الا في المستنقعات .

وقبل ان نودع على أمل العود لا كمال سياحتنا في دنيا عمر الباقية فاننا نحتكم الى «الباب المرصود» فهو الخصم والحـــكم في قضية شاعر الشعب المحبوب ، وما احلى تلك الآية القائلة : من فمك ادينك .

قال عمر في فصل كنوز الفقراء (ص ٣٠) : « وان في الآداب العاميـــة او «الفلكلور» ، كما يسميها الافرنج ، لطرائف شائقـــة ممتعة غزيرة المعاني ، سواء الاقاصيص والأمثال ام الأساطير والعقائد، توفر على العناية بها جمعاً وترتيباً وتأويلاً كثير من اختصاصي الغرب، اعتقاد انها فنون غير الفنانين، وآداب غير المتأدبين، ودواوين غير الشعراء، لا يتجلى فيها الروح القومي فحسب بل تترجم من جهـة ثانية عن النفس الانسانية على اطلاقها » .

اذن يا صديقي عمر ، فليكن شعر صاحبنا الزعني : فن غير الفنانين ، وادب غير المتأدبين، وديوان غير الشعراء — يزاد عليها الرسميون — وهـــذا لا يسخط

التقاليد العالمية ويرضي « العمرين » ان شاء الله .

يكبر في عيني عمر فاخوري كلما انفتح لي بابه المرصود، فكأن الذين بنوا تدمر بالصفّاح والعمد كانوا في عون الاستاذ يوم شيد هـذا القصر المسحور . أسمعت بكؤوس ابي نواس التي في قرارتها كسرى وفي جنباتها المها ؟ انك لواجدها في هذه المأدبة الفنية التي أعدّها عمر للجياع والعطاش الى ملكوت الفن . اما عن الخمرة فلا تسل فهي كما قال ذلك : تؤخذ بالعين فتغفي اغفاءة حالمة .

ان قارىء الباب المرصود اللبيب – لا أعني لبيب المعري الذي ليس يغتر بكون مصيره للفساد ، بل الذي يعشق الكون ويجن بجمال الحياة – كالسائح في لبنان تطل عليه المشاهد الغريبة كلما توغل فيه، لايطوي قمة حتى ترتفع له ذروة، ولا يعلق نظره بشماريخ الجبال فيخاف على طربوشه من التدحرج حتى تنفتح تحته اشداق الاودية فيخشى أن يذهب بحملته . وهكـذا يتقلب بين ذراعي الجمال والجلال ما استطاعت ركبتاه حمله . اما اذا كان عقلـه من صنف الطنك المصفح فحيلتي فيه قليلة. ففي هذا السفر الصغير لذاذات . هو ينبوع حي يتدفق من فكر فياض فينعش ويحيي، يوجه الادب المريض في طريق النقاهة، يصف الداء والدواء ويرشد الى الاجواء الطيبة والماء والغذاء ويفتح الأبواب والنوافذ للهواء والنور ، ومن لا تعاوده الصحة والعافية على يد هـذا النطاسي فانفض يدك منه وبشّره بالموت . خير ما في هـذا الطبيب لسانه فهو لا يبئسك اذا انذر ، ولا يطمعك بسواعد شمشون اذا بشرك بالسلامة. يترك شيئاً للقضاء والقدر ولابد عنده من اذا .

نحن الآن أمام باب « الاحلام » وهو ذو ثلاثـة اقسام . اولها البحث فيه غزّالياً وديكارتياً وفرويدياً، ثم الاستطراد في ختام الباب الى ان الشعراء هم اهل الحلم . ومنهم السيد شفيق معلوف الذي نشر منـذ أيام (سنة ١٩٢٦) قصيدة عنوانها الاحلام – مجموعة شعرية صغيرة .

شفيق المعلوف هو صاحب عبقر بعد عشر سنين من ذلك التاريخ ، وحديثنا مع شاعر عبقر ليس بسر . لا اعرض لهذا الفصل المثلث خوفاً من ان يحمى عليّ غضب أبيه . اني اتجاوز هـذا الفصل لئلا تعاودني ذكرى الماضي ، ويزلق القلم

زلقة اخرى فاغضب امام اللغويين عضو المجمع الملكي المصري ، وحجة المؤرخين صاحب دواني القطوف ، والاسر الشرقية ، فلا يلحق نسبي بجـــدي عبود الذي كان له عرش في الاندلس فخسرناه كما خسر صاحب الباب المرصود تلك الثروة الضخمة في منتصف القرن الثاني عشر للهجرة ... او بذلك المسّود الآخر النقي النقي الذي قال فيه الفيروزابادي انه اول الناس دخـولاً الجنة ، وانه نام سبع سنوات فقط ، وهب لايرى الا انه نام ساعة من نهار ... او على الاقل بابن عبود وهو محدث ...

هذه نعمة مسرولة من نعم الحسب ليس بالهـين خسارتها ... ألست كغيري من الذين الحقهم الاستاذ عيسى المؤرخ المدقـــق بقريش وغسان ، فاكثر المسلمين وبعض النصارى ، ومنهم صديقي الشاعـــر أمين نخله ، اصبحوا بفضل المعارف قرشيين ، وكل نصراني امسى منسوب الجدّين من غسّان . ان لعيسى عجائب في التاريخ لا تقصر عن معجزات بنيه في الشعر ! غفر الله لنا ولهم .

اما الان فلنستيقظ من الاحلام فقد أطل علينا موكب « المرأة المجلوّة » ، وللمرأة عند عمر اليوم ما كان لها عند عمر الامس ... « للمرأة المجلوة والمرآة الصدئة » عنوان عدة فصول يعرض فيها عمر للصوص الادب ، اصحاب الغارات السردابية الذين يسرقون عن سابق تصـور وتصميم ، والذين لا يسرقون متعمدين « ولكن لا ذاتية لهم واضحة ، فشعرهم ونثرهم كالأمواج التي لا تفور حتى تغور زبداً وتذهب جفاء (٦٧) وشر هؤلاء جميعاً « حادث الجيل الأدبي الذي يقتل التقليد والصنعة والبيانات روح الصدق والبراعة والطبع فيه » (٦٨) . ويلخص عمر ما قرأ عن الادب الروسي بما نلخصه : تأثر بعض آداب الامم ببعض كما هي الحال في اوروبا ، ولكن التأثر هناك كان حافزاً الى الخلق ولم يكن تقليداً محضاً كما هي الحال عندنا . تأثرت آداب اوروبا بأدبي اليونان والرومان ثم تأثرت روسيا باوروبا فكان أثر التقليد أبين في الادبين الفرنسي والانكليزي ، لان عراقتهما في المدنية التالدة ابعدتهما عن الفطرة الخالصة فكانوا خاضعين للعرف والتقاليد اكثر من خضوعهم للطبع ، فبانت في ادبهم تلك الكلفة التي تدعو اليها النظم الاجتماعية المتواضع عليها . اما الادب

الروسي فابتعد عن هذا فلم نر مسحة التقليد على ثمار قرائح كتّابه .

يريد عمر ان يكون الادب صورة كاملة للحياة ، كما كان الادب العربي الاول قبل أن يكافحه شرطي الأخلاق ، فلم يبق منه الا اثر ضئيل لم تكشطه تلك الأيدي الطاهرة العفيفة . وهو يرى ان اول ادبنا خير من آخره لان ذاك صادق وهذا كاذب . الجرأة مفقودة في ادب اليوم لانه تقليد ادب الامس ، وسير على «الطريق الموطأة الرود التي يتخبط فيها العميان من غير ادلة وعكاكيز» (٧٣) فافضل ما في أدبنا العربي نتاج طفولته فهو «كالهرم قاعدته ضخمة ، دق ودق حتى صار رأسه كالمسلة ، ويضؤل ويضؤل حتى يضمحل (٧٢) وسبب اصدار هذه البضاعة المتماثلة هو أن «المواضعات الاجتماعية والأخلاقية» تصد الادباء عن تصوير الحياة صورة صادقة . فأدبنا لا يصور حياتنا الا كما تصور المرآة الصدئة المرآة المجلوّة . اظنك أدركت الآن سرّ العنوان . فأدبنا الحاضر — المرآة الصدئة — لا يصور المرأة الا مشوهة كالمرآة التي تمسخ الوجـوه وتشوهها . فأدباء اليوم لا يخرجون الا صور القدماء الملومة «قد كالغصن ، وجه كالبدر ، ردف كالكثيب» وهلم جرّاً . وقصارى الكلام ان المرأة كما هي غير موجودة في شعرنا لان الجمال والحب لم يوصفا وصفاً خليقاً بهما ، فما هناك الا عواري ينظمها الشعراء تحت كابوس الحلال والحرام ، ولذلك لم يجرؤ شاعر او كاتب على وضع قصة « دلالة الهوى » واذاعتها بين الناس .

ويخص عمر امرأ القيس بفصل ممتع فيترحم بقلب مقروح على قائد الشعراء الى النار ، ويرى فيه شاعراً صادقاً كانت حياته شعراً ، وشعره حياة ، ويزعم ان القدماء ظلموا الادب الجاهلي « فطمست المبالغة في الاشادة بمحاسن الدين الجديـد على كثير من محاسن الوثنية ، اذ صور ذلك العهد البائد باشد الالوان سواداً ليطلع منها العهد المحدث باشرق وجه واصبحه » (ص ٧٩) .

أجل ، كذا كان نصيب الوثنية في كل دورة من دورات الزمان ، فالناس على الرائح ، فبعـد اندحارها في اوروبا انحى الكثيرون على قفاها بالسياط وشوهوا محاسنها الفنيـة التي كانت اروع مواد الفن . . . ان لعمر شركاء في دم يوسف .

فهذا اناتول فرانس وغوتيه وغيرهما من كتّاب فرنسا قد قدسوا الوثنية في معتقدهم — الفن للفن — اما في غير الفن للفن فعمر مسلم ، والحمد لله، كما انا مسيحي بنعمة الله . انه لايرى في الوثنية خيراً او اقل خير مما يراه في الدين القويم،وحسبك ان تقرأ آراء شرقية في مسائل غربية لتعرف أيّ شيء هو عمر . ليس هذا عذراً انتحله له فهو يقول دفاعاً عن قوله بفضائل الجاهلية ومحاسن الوثنية : «لايذهب الفكر الى القيم الدينية والاخلاقية ، وليس هنا موضع معارضة ذلك القديم الماثل من الحجارة بهذا الجديد الحي في القلوب ، فاني قصرت الكلام على القيم الادبية والفنية الصرف» (ص ٧٩) .

ما اجمل انتصار عمر للشعر الجاهلي في زمان يزمّ قراؤه الجهال بانوفهم اذ يقابلونه بشعر غوته وهيغو وبيرون وبودلير وغيرهم.انهم يقيسون البداوة البكر بالحضارة الارملة،فهل من يفهم هؤلاء ان الشاعر الجاهلي قد صور حياته؟فليصوروا هم حياتهم مثله بلا كذب ولا نفاق فينتجوا أدباً يقرأ . اما يترك لهم كل صيف آلاف الاطلال ومئات الدارات ؟ فحتام يضيمون اللبن ؟

ويخشى عمر أن يكون قد أدى بالمسافرين الى حيث لايريد أن ينتهي بهم فيعود الى شرح كلمة «لا اخلاقية» في الادب فيقول «لست اعني ما كان منافياً للاخلاق المصطلح على انها فاضلة ، او ما كان داعياً الى نقيضها حاثاً عليه .كلا . فأنا اعني ما كان خلواً من الهموم الاخلاقية مجرداً من نية الوعظ وقصد العبرة ، واعني هذا ليس غير . قد تأتي العبرة الواعظة عفواً وقد تكون أبلغ كذلك ، ولكنها اذا لم تأت فيا للقرد !! ليس هذا بضار الادب من جهة أنه ادب صرف» (ص ٨٣) .

ما اكبر مصيبتك يا عمر ! يريد ان يسوق ويغامر ويشق الطريق ، ولكنه يتذكر الاعمدة الهوادي المنتصبة كمردة ألف ليلة وليلة ... ويخشى أن يصطدم بها في منعطفات بحثه فيزمّر ويدور بمهارة، ولكنه في كل حال يدور ... ليس موقفه أقل ارتباكاً من موقف سكست فيلسوف بورجه . يريد أن يدافع عن «تلميذه» جرسلو فتعترضه عقبات لا يدري كيف يقطعها .

وينفذ عمر أخيراً في هذا المضيق بعدما دوّخه الطي والنشر فيقول : « كثيراً ما سمعت اخواناً لي يتساءلون منكرين: ما المغزى من هذا كله، وماذا يريد المؤلف؟ واين العظة والعبرة ؟ » .

قلت ان هؤلاء الذين يستعيرون الأضراس ليطحنوا أكلهم سألوني كذلك حين قرأوا الباب المرصود فاجبتهم بكلمة عمر: في الفنون شيء غير القيم وغير الاحكام. واني لعالم ان احكام عمر صريحة ولكن امثال هؤلاء لا تهضم معدهم الضعيفة الا الاعشاب والالبان ...

لاانكر على عمر أن جلّ ادبنا « مرآة صدئة » كالمرآة التي جليت لبشار بقضاء وقدر ، ولو لم يسبق السيف العذل لما كان شيء من ذلك . اما هؤلاء فمن يجلوهم ، لقد ذهبت ماويّتهم ولم تبق إلا زجاجة لا تنعكس عليها الاشباح.

وينقلنا عمر من دنيا الواقع في الفن وتصوير الحياة بشحمها ولحمها الى منزل آخر من نظامه الشمسي حتى يبلغ بنا برج الحمل أي دارة الوحي والالهام. هذا البرج الجديد هو فصل من كتاب الشيطان، في الالهام الشعري . لا تعجب اذا سمعت بكتاب الشيطان، فللشيطان مهمة لا بأس بها في الوجود، فالتوازن ضروري ليس في السياسة فقط بل في كل شيء . الخالق، عزّ وجل ، خلق له خصماً لان الحياة بلا خصوم ناقصة مملة ...

قال عمر : الشاعر ليس له شيطان كالرجل لا ظل له . ثم يحدثك عن الوجود وعدم الوجود، حتى يخيل اليك انه غير موجود. ثم يأسف بتلك الروح الساخرة المسيطرة على كتابه كله كيف صرنا لا نرى الجن والشياطين بعد ان كانوا على اتصال دائم بآبائنا واجدادنا ... ويرينا بظرف يشبه الجد كيف كان لشعراء العرب شياطين تطرقهم حاملة اليهم بدائع الفن وطرائفه، فهم ليسوا مثل صديقنا السيد حليم دموس ، مثلاً ، الذي لم يطرقه الجن مرّة واحدة ولن يطرقوه ، لا اذا اوقد ناراً لطعامه، ولا اذا اشعل مصباحاً لنظم قصائده ، فان المسألة مسألة مزاج (٩٣) .

وبمناسبة ذكرى أبي النجم القائل :

اني وكل شاعر من البشر شيطانه انثى وشيطاني ذكر

يستطرد ايضاً ويعـرج على الشاعر بشارة الخوري فيلكمه لكمة عابرة، ولكن بقفاز تمرين محشو قطناً «لا ننس من شعرائنا من يؤثر ان يكون شيطانه انثى ، بشارة الخوري مثلاً» . ثم يقول: «ما اكثر الذين يسمون بالشعراء وهم في الحقيقة طواحين الفاظ. ألك أيها الشاعر شيطان ؟ اذن قل ثم قل، والا فانقلب طاحوناً على ضفاف العاصي» (٩٤) .

ويروي طائفة من أخبار شياطين شعراء العرب والمغنين وغيرهم ، وينتقل الى الغرب فيرى اولئك القوم كالعرب في هذا الوهم ويستخلص اخيراً : «ان كل فاعلية فنية او شعرية عظيمة – في الفنانين والشعراء العبقريين على الاخص – لها جذور تستشري فيما وراء الادراك، أي في المنطقة اللاوجدانية من النفس الانسانية، ومن هذا اللاوجداني مادة الابداع والاختراع» (١١٠) .

اذن الاستاذ عمر الفاخوري بشّر بنظرية اللاوعي منذ سنة ١٩٢٦ ولكنه لم يمنح العلامة المسجلة ... (اقرأ كلام بول بورجه ص ١٠٩) .

بارك الله في عمر وأهاب بشياطينه ليأتوا الى نجدته من كل فج عميق، وسترى ان لهذا الجني الف شيطان مريد، أن أنجز « حنا الميت » .

«الشاعر الشهيد» ، «والشاعر السوق» فصلان يطري فيهما صاحبه عمر حمد. قال في هذا الصدد : كنت ادعوه «شاعري» ويدعوني «راويته» . ولكن عمر اصمعي اليوم لم يرو لنا بيتاً واحداً من شعر شاعره . حدثنا فقط أن هذا الشعر كان يثير في نفوس السامعين حماسة لا توصف واعجاباً ليس له حد، ولو مدّ الله في عمر الشاعر لاصبح في فحول شعرائنا (١١٦) . اننا لنؤمن على السماع برأي عمر في شاعره ليكون أجرنا أعظم ، وتتم فينا كلمة السيد : طوبى لمن لا يراني ويؤمن ...

ولم يسلم العاملي من مداعبة الفاخوري فخصه بفصل عنوانه «ساعة مع العاملي» وفي ساعة فقط رأينا عمر ادهى من معاوية، ورأينا العاملي فاذا هو «رجل تعبت فيه الطبيعة كثيراً» حتى اخرجته « ولم ترتجله ارتجالاً كما يرتجل هو الشعر » .

ان صاحبنا العاملي كغيره من الشعراء المدرسيين يهجس بالأولية في الشعر

العربي. واذا كان هنالك شيخ كار وشيخ شباب وشيخ خضرجية فكيف نبخل على الشعراء بأمير ؟ العاملي في نظري انا شاعر مظلوم . فيه غفلة اذا جئته من صوب الحكومة والشعر، فبيته عورة ومدينته مفتوحة ، وكل ما ترغب فيه يجوز عليه ويصدقه . وقد يكون مشدوهاً عن نفسه كما قال اناتول فرانس ، ومن هنا أتته العبقرية الشعرية . ففي الرجل مزايا عديدة منها ذاكرته العجيبة وقريحته السيالة حتى يكاد يكون قفّلة . وله شعر ، وان متفرقاً في قصائده الطويلة ، يضمه حيث يضع هو نفسه . وقد يكون أصح الشعراء المدرسيين المعاصرين لغة، اذا استثنينا الشاعر امين بك ناصر الدين الذي يضاهي العباسيين ديباجة . فالعاملي يطبع على غرار العرب، كما يريد أصحابنا الذين يرون خير الشعر ما كان كذلك.

أما الحديث عن الزهاوي تحت عنوان « الشعر والداما » فقل في طرافته ما شئت وليس من يؤاخذك، فهو خير فصول الكتاب في النقد الخاص . بلغ فيه عمر القمة في التهكم . نرى النقد في فصول الكتاب السابقة واللاحقة يكاد يكون عاماً او شبيهاً بالعام، أما في هذا الفصل الرائع فالنقد خاص يتجلى فيه كل اسلوب عمر الطريف وسخريته التي يمشي فيها الماء تحتك ولا تحس... اطنب عمر ساخراً مكبراً اختراع الزهاوي لمئات من اشراك لعبة الداما . ثم استطرد الى رباعياته فقال : « واذا كان كثير الاختراع في الداما فهو قليل التوليد في الرباعيات. واذا كان للداما ان تخلد اسماً فهي التي ستخلد اسمه : صاحب المئة اختراع بعد الخمسمئة، وسيقال في ترجمته في ذلك الموضع : كان ايضاً ينظم الشعر » .

تذكرني « في ذلك الموضع » كلمة احمد فارس الفارياق ، وهي في محلها مثلها وان اختلف الغرض ... واذا كان رسول الله (صلعم) نظر الى زهير بن ابي سلمى كما جاء في الباب المرصود وقال : اللهم اعذني من شيطانه ... فمندي ان يركض الزهاوي الى من على العرش استوى ويضرع الى ذي الجلال ، فلعل عنده سفيراً داهية يوفده الى عمر فتحل المشكلة ويمحى هذا الفصل من الباب المرصود ... فهو وحده أشد من عذاب القبر على هذا الشاعر المسكين . ان مقال عمر اجتاح كل دنيا الزهاوي ولم يترك بها شيئاً حتى الأطم المشيّد بالجندل. فمنجنيق

عمر يقذف بالكبيرة والصغـــيرة ، واشهد انني عدلت عن الكتابة في موضوع الزهاوي بعد ما قرأت هذا الفصل الخطير .

ثم يعرض بفصلين لقصيدة اقتبسها المرحوم الشاعر الياس فياض ولم يذكر اسم شاعرها الأصلي سيلي بريدوم . وهذه خطة كثير من شعرائنا . فالشعر بحر ، وما اكثر القرصان ...

لعمر في كتابه هذا خطتا دفاع : أحدهما سلبي والآخر ايجابي . في أحدهما دفع عمر شاعراً معدوداً ــ الزهاوي ــ فأقصاه الى أبعد حــــدود منطقـة الشعر ، وحسبه هذه البطولة في زمن ــ ١٩٢٤ ــ عدّوا فيه الزهاوي شاعراً خطيراً وكانت تحتفي بعبقريته العواصم وتطبع بيروت رباعياته . وفي الثاني يكتشف ــ ومهمة الناقد الاصيل الاكتشاف ــ شاعراً جديداً هو يوسف غصوب في ديوانه القفص المهجور . يقدم عمر لهذا الديوان فيتحدث عن التجدد مبتدئاً بكلمة لريمي غورمون : « كل تبديل يطرأ على أدب أمة من الأمم فلا بد ان يكون ناشئاً عن علة خارجية او أجنبية » . ثم يستعرض النزاع القائم بين القديم والجديد لافظاً هذا الحكم النزيه : «واذا كان التبديل طارئاً على حياتنا في كل مظاهرها فأين نجعل أدبنا كي لا يناله تبديل ؟ هو هذا الطوفان « ولا عاصم اليوم » (١٦٣) .

وتعجبه الوحدة الكاملة عند يوسف غصوب المتأثر بالأدب الغربي ، «حتى يصح القول ان مجموع القفص المهجور قصيدة واحدة » ثم « ولهذا نقول ان لشعر يوسف غصوب دلالة انسانية بليغة عامة ، وهي أولى مزايا الشعر وسائر الفنون» (١٦١) ولكن تأثر غصوب بالآداب والثقافة الغربية « ليس بضائر أسلوبه في شيء فهو أسلوب عربي مبين ، لا سمة للعجمة عليه (١٦٦) فالقفص المهجور حادث أدبي ذو شأن : زهرة نضرة في هذه الايام الجديبة ، في بيداء حياتنا الأدبية . وزهرة واحدة ــ في عالم الشعر ــ تكفي لأن تملأ البادية أرجاً وطيباً ، وحسناً فاتناً ، وحياة بهيجة . ان في هــذا الديوان الفريد لعزاء لنا عن كثير من رزايانا لا سيا تلك القصائد والدواوين التي نطمن بها في كل حين (١٦٧) .

وأخرج الشاعر يوسف غصوب «العوسجة الملتهبة» فضمها الى القفص المهجور

فكان منها ديوان طريف شعراً واخراجاً. فأعدله عارفو قدره مأدبة سنية أكلوا وشربوا فيها على شرف عبقريته وفنه، فكتب عمر فصلاً سماه «المأدبة» مجّد فيها الشاعر تمجيداً يستحقه جهاده : أليس من فضل الله علينا أن يأتينـــا بيوسف غصوب داعياً، كرة بعد كرة، الى احدى المآدب الملكية التي يأدبها الشعر لأبنائه ـ صفوة الخلق ـ . أنا أعني بعد القفص المهجور هذه العوسجة الملتهبة التي طلت علينا كعروس شقراء كما جلتها يد الماشطة ، بل الطابعة (١٦٨) .

وما فرغ الاستاذ من كلمته للشاعر المختار حتى عاد فحلل نفسه هو فعثر فيها على ثالوث ـ طبعاً غير أقدس فالحقوق محفوظة ـ وهذه النفوس الثلاث فطست واحدة تلو الواحدة، وكان مدفنها جميعاً في شخصية صاحبها، فاذا هو كالام المتئم تحمل في أحشائها أجنة موتى واليك قوله : « ويلوح لي ان في نفس كل امرىء ثلاث جثث على الأقل : عنترة عبس، فسندباد الف ليلة وليلة ، فمجنون ليلى، في ثلاثة أضرحة مكتوب على قبرياتها « هو الحي الباقي » دون تاريخ »(١٧٠) .

أمد الله في حياة عمر ليدرك نفسه الاخرى ، نفس زهير بن ابي سلمى ...

فكتابه هذا خير أثر في بابه، انه احدى أيادي «دار المكشوف البيضاء» على نهضتنا الفتاة ، وهو خير بائنة لهذه العروس . فليت المدارس تجعله في منهـــاج دراسة الصفوف العليا فيكون للنشء خير دليل لهم في متيهة الأدب .

والخلاصة ان في هذا الكتاب مؤونة ، وذخيرة وعتاداً . لغة ناصعة نقيـــة حافلة برموز شتى ، طوراً قرآنية وأحياناً شعرية. مادة طريفة مستقاة من ثقافة عميقة واسعة . تسيطر على كل ما في الكتاب ، شخصية قادرة لها أسلوبها الممتع فتجرف القارىء جرفاً . يستعين عمر على اخراج مقالاته بخيال خصب ، ويؤثر الفصل على الوصل حتى تكاد تنفصم العرى احياناً . مولع بتعابير معلومة يرددها كثيراً . ويا سوء حظ العصر ان لم يكن فيه عدة أخوة للباب المرصود .

هلم القلم والدواة يا عمر .

عمر فاخوري

عمر فاخوري أديب حسن السمت . في وجهه حــــيرة مقعدة ، وابتسامة مغلقة لا تدل على صاحبها أكثر من دلالة بعض الأعشاب على ينبوع مكبوت في حشا أمه . حديثه متقطع مفردات وجملا ، لا يكر في حديثه ، ولا يكركر في ضحكه ، فأخونا في الأمرين مكره لا بطل . ليس بالكهاكه ولا بالجهم ، وهو على سلامة البشر من يده ولسانه ، عقدة يصعب فكها .

أقوى سلاحه ، وأدل ما فيه عليه ، تلك الابتسامة التي نوه بهـــا عمر في « أديب في السوق » فقال : لكني ، لحسن الحظ ، ابتسمت ، فغاظته ابتسامتي الخفيفة كشيء ايجابي .

أفلا ترى مثلي كم في قوله « لحسن الحظ » من عرفان لقدر تلك الابتسامة الخرساء ؟

وقد ذرّ قرن هذه الابتسامة في الصبا فكلمت الناس في المهد ، إذ « أضاءت عتمة الصف ، فكسر الحساب عصا الجغرافيا على ظهر عمر » ، كما حدثنـــا في « لا هوادة » .

ان كيد ابتسامته لعظيم ، فهي شكته ، أديبا ناقداً ، في « الباب المرصود» و «الفصول الأربعة » وهي عتاده ، كاتبَ نضـــالٍ في « أديب في السوق » و « الحقيقة اللبنانية » و « لا هوادة » . انها لفي كل مكان ، تتحدث بنعمة رب عمر على الأدب . وان آسف ، فما آسف إلا على الحوار الذي جرى بينه وبين منكر ونكير ... أترى فعلت ابتسامة عمر فعلها هناك فأضاءت تلك العتمة الضيقة ... عتمة القبر ؟

من الخير ان نفي هذه الابتسامة الشاحبة حقهـــا من التصوير ، فقد كانت تشع في العينين والجفون والأنف والفم ، حتى تخالها تطل عليك من شرفات الحاجبين . انها موزعة في جميع قسمات الوجه ، ولكنها في كل مكان أبرز منها في مكانها ، أي الفم ، فقلما كان ينشق انشقاق القمر !

«الباب المرصود» و«الفصول الاربعة» أحلا عمر مقاماً رفيعاً في الادب. بصيرة نقاده تنفذ الى الاعماق ، وعينان كأشعة رنتجن ، واسلوب ملك صاحبه ولا غبار على عروبته ، متأثر بلغة الكتاب العزيز والسلف الصالح ، وفي جعبته ، دائماً ، لقاح جديد ، فيغرز ابرته الدقيقة برفق في الشرايين المتصلبة . واسع وعميق في الفصول الأربعة ، يشبع الفن تمحيصاً ، ويجول مع «ألن» صاحب نظام الفنون الجميلة ، كما سمّاه ، جولات جد موفقة .

يمزج أدب العرب بأدب الغرب ، فيزاوج ويقارن بين الأدمغة المختلفة . يجسها جميعاً كأنه يقلب رؤوس بطيخ لينتقي منها الانضج والأذكى . فبينما تكون في حضرة المتنبي اذا بك تصدم بأبي نواس والجاحظ والجرجاني والبحتري الخ ، وهيجل وفرانس ورنان ودوستوفسكي وبلزاك وفلوبير وديكنز . وكذلك شأنه في كتبه الاخرى فينقلك من عند كبلنغ شاعر الانكليز ، الى مارك توين فكاهي الاميركان ، الى هبنّقة نابغة العرب في الحمق ، ولا ينسى غاليلو .

نعى عمر على الادباء ترفعهم عن «الواقع» فسماهم ادباء من حبر وورق ، لا لحم ودم . ثم هجر البرج العاجي الذي تعود الادباء ان يكتنكنوا فيه بجترين .. ونزل الى الساحة عارضاً رمحه ، فأرانا كيف يسمن الأدب على الواقع . وهكذا اصبح عمر كاتب نضال ، ورجل عمل ، ولكنه ظل اديباً لم يتخلّ عن اسلوبه ولا عن خياله ، ولا عن الاخراج الفني لمقاله النضالي . فهو في النضال كرخّ الف ليلة وليلة ، ينهضك من أعماق الاودية ليحط بك على شماريخ الذرى . ان فحص القلب ضروري لقارىء عمر ، والا فمن يكفل سلامته اذا رافقه صُعُداً وقدماً ، وانقضاضاً ؟

يبدأ عمر مقاله النضالي فلا تدري الى اين يذهب بك حتى تصل . تخاله يحدثك عن الأدب المحض ، فاذا هو نضالي بكل ما بالنضال من شدة وقوة ، قوة يخلقها الاسلوب ، وشدة تولدها العاطفة الوثابة وفن تبدعه المخيلة ، فتخلق أشياء من لا شيء .

ان عمر في مقالاته النضالية كفحول شعرائنا الأقدمين ، كان اولئك يتغزلون

ويتخلصون الى الممدوح ، وعمر يبتدىء بغرائب عجائب ، تارة من عـــند ابن خلدون، وطوراً من عند ابن بطوطة . اسهم حادة تمده بها ثقافته الواسعة فيصوبها فكره الثاقب الى غرضه بزخم رائع ، فيهاجم الفاشستية او يمـــدح السوفيات والحلفاء . فاذا كان للشعراء المداحين تخلصاف غير حسنة ، فأشهد اني مــا وجدت لعمر تخلصاً غير ساحر .

يعجبني مزجه النضال بالادب، ونفحة الروح الفنية في هذه المواضيـــع التي تلوكها الاقلام في كل ساعــة . انها لتخرج من معرض جمال هـــذا المزين اللبق بأحسن تواليت .. حـــلي ، وغلائل فتانة تستر العورة ولا تخفي الجمـــال ، ولا تمفـتي على الفتنة .

لا يفارق عمود الأدب والفــن في أحرج ساعـــات النضال ، فهو السياسي الاديب ، والمدافع عن قضايا «الحمر» بقلب لو عمر يمثل هـــذا الإيمان لأمسى في الجنة، وهو في حلل خضر !! لا يقف عند الحوض ، ولا يروعه عبور الصراط .

قالو : ما دخلت السياسة شيئاً الا أفسدته . امــا أنا فأقول : حاشا أدب عمر . قد وطدت كتبه ايماني بان الأديب الأصيل لا يتخلى عــن خاصياته حتى في قاع جهنم ، حيث تسيل النـــار أنهاراً ، وتصطخب أمواجاً . أقرأ فصله «البرج العاجي» في أديب في السوق ، تعلم انك من الأدب في نقطة البيـــكار ، وان هناك درة ثمينة التقطها عمر من السوق . اقرأ كلمته عن لبنان في « الحقيقة اللبنانية » تعلم ان هناك مصوراً وشاعراً يحدثك عن هذا المليمتر مــن خريطة المسكونة .

قال الرسام الفرنسي النابغة دومه : يجب أن نكون مـــن زماننا . فقال عمر : يجب أن نكون مـــن زماننا، وفي زماننا ، ولزماننا . ثم كان كما تشاء ، وظل أديباً كبيراً .

يتكلم عـــن رسالة الأديب فيقول : « كان للأنبيـــاء ، وحدهم ، رسالة . فاذا كل مـــن عليها له رسالة : الطبيب ، والمعلم ، والصحافي ، والمحامي ، ويتبعهم الأديب ، حلة مبهرجة لستر الفاقة . حبذا لو أن هؤلاء يقلون من

التبجح برسالتهم أقل كثيراً ، ويكثرون من آداء وظائفهم أكثر قليلاً » .

فيتحدث عــن لبناننا فيقول باسلوبه المعهود : « لقـد أتى علينا زمن في لبنان وبين الطائفــة والاخرى ، أو بين أبناء دين وابناء الدين الآخر كالحدود التي تفصل وطناً عن وطن . كــدنا نحتاج الى جوازات سفر بــين الطوائف والأديان » .

اجل يا اخي عمر ، وبكل اسف اقول لـك : قلما نجد ، حتى اليوم ، من يؤشر على هذه الجوازات ، ولأقل نسمة ترفــع الطائفية اذنيها ، ولأقل بادرة تقفل الحدود .. كما كنت ترى بعينيك .

ان اسلوب عمر النضالي يحمل أبداً سمة الأدب الرفيع . اسمـــع كلمة من فصل عنوانه : كل شيء يتغير .

« كل شيء يتغير » حتى النازية التي كان لها لبدة الاسد ، تغيرت . ها قـد نبت لها في الصقيع الروسي صـــوف حمل للدفء ، وفي القيظ الافريقي ساقا نعامة للهرب .. اما الجيش الايطالي فقــد لبس بادىء بدء جلد الحمار لعــدم الفهم » .

وبعد ، ومالي والتعجب ، ان عبقرية الكاتب الكبير تقوده في جميع الآفاق والدرك . في مصنع يخرج منه كل مــا يدخله مطبوعاً بطابع الفن ، من ذبان الجاحظ الى الانتخاب في لبنان عند عمر .

ليهنأ الاتحـــاد السوفياتي ، فله في اللسان الروسي كاتبه العظيم الحي ايليـا اهرنبورغ ، وله في لسان العـرب عمر فاخوري ، اديب العرب ، الذي مات . كلاهما نضالي اديب ، والقول ينفذ مـا لا تنفذ الابر ، كما قال شاعر بني امية النضالي الاسبق .

عمر في يومه الأسود

لا أظنني امنح عمر فاخوري وساماً بعد المـوت اذ اكتب عنه هذه الكلمة المغمومة . لقد تناولت عمر في مـــا مضى جملةً وتفاريقَ ، والعهد بآخر كلمة

غير بعيد . كنت فيها مصوّراً ومقارناً وباحثاً جهد الطاقة .

لست آسف على سنوات عجاف يعيشها عمر ويمشي فيه أدبه مشية السرطان في بدنه . لقد أحسن القضاء صنعاً اذ جذب ثني الطوّل المرخى وأراح عمر من بقاء هو فيه .

عليل في مكانين من الاسقام والدّين

كما قال الجاحظ عن نفسه في آخر العمر .

عدت عمر في أول مرة فخلتني امام مومياء تحدثني ، فارتعت ثم تجلدت لئلا أريعه ، ولعله قد رأى ذلك في وجهي حتى قال لي : وجهك اصفر !!

فأجبته : الدرب طويل ، والسلم عال ، وانا ابن ستين ، فاصبر عليّ قليلاً يعد جمالي الهارب !

فابتسم ابتسامة دميمة جداً وقال: تتهكم عليك اذا لم تجد واحداً غيرك ...

فقلت ما وجدت ترياقاً لسمّ الحياة اشفى من الهزء بها وبناسها ...

●

رأيت اليرقان قد خلع على عمر كل ما عنده من زعفران ، فسألته عما به فأجاب بعد سكوت لا أجد له نعتاً : قلة العافية ، وعناء الحمية . الغمرة انجلت ، ولكن ...

قلت : دعنا من لكن . السلامه غنيمة يا أخي .

فأطرق ولم يجب ، وأطرقت مثله ألوم نفسي . وطال السكوت فقلت له : متى تعود الى عشك ؟

فأجاب بهزّ شفتيه ، فعلمت ان لليرقان احلافاً تشد ازره في حرب عمر .

ثم مشى بيننا حديث متقطع ، موجع ، انصرفت على اثره بامل قصير الخطى .

وبلغني ان عمر عاد من عند امه ، فهرعت لأهنئه بالسلامه فقالت لي الخادمة : معلمي في السبيتال .

فقلت : والست ؟

فأجابت : معه . فكملت طريقي الى المستشفى الامريكي فلم استطع

مقابلة عمر . وتلفنت مراراً اسأل عن صحته ، فكان الجواب برداً وسلاماً .

ثم فصل بيني وبينه الصيف ، فما ضيعت اللبن فيه . وعـــاد عمر الى بيته فجئته مستكشفاً ، فرأيته لا حيّا يرجى ولا ميتاً فيسلى . وتسقطت رأيــه في نفسه فوجدته عريض الامل ، كبير الرجاء . وقعدنا حيث اعتـــدنا ان نجلس فلم يشك عمر الداء بل شكا سوء الحال وقلة الوفاء .

رجونا ان يكون سفيراً احمـــر فإذا به يمسي شهيداً أخضر ... ويتباحثنا الغد ، فإذا بصاحبي متبرم ساخط . تعاون عسره ومرضه على هيكله الواهي . عاف عمله في الاذاعة انتصاراً لوطنه فذاعت القلة في كيسه ، وخسر موردين : الاذاعة و كلية الآداب ، وأثقـــل دينه ظهره . لم يبق له غير جرايــة وظيفته الحكومية وهي لا تسد ثغـــرة العقاقير ، فاضطر الى بيـــع أعز المقتنى ، وكانت مكتبته كبش المحرقة .

قال لي : غداً — وغداً بمعناها اللبناني الواسع — ادع كل هذا وانصرف الى العمل حراً .

فقلت : وما نويت أن تعمل ؟

قال : اعود الى المحاماة ، واعلّم معك اذا اقتضت الحال .

وحدقت اليه لعلي ادرك عمق يأسه ، ومدى ألمــه ، فرأيت بريق زجاجتيه قد تضاءل ، وزيت قنديله قد شح فقلت له : ياقليل العقل ، تعـود الى المحاماة والتعليم بعدما خيمت في الشاطىء يا أبا منذر !

فانفرجت شفتاه زهاء مليمتر ولم يجـــب ... فقلت له : كفاك الله شرهما ياعزيزي ، فالذي لم يسهل عليك عمله شاباً يعتاص عليك كهلاً . اما سمعت قول المثل اللبناني : بعد ما كبر وشاب حطّوه في الكتّاب ؟

قال : ولم لا تقول شيخاً ؟

قلت : لكيلا اصير انا هرماً .

فضحك ضحكة فزعتني ... ليس بينها وبـــين ضحكة الهيكل العظمي فرق كبير .

كان عمر قليل الكلام معافى ، فكيف به وقد هدّ حيله اليرقان ، وله كبد مقروحة لا يبيعه أحـــد بها كبداً ليست بذات قروح . كان يعاني مرضاً كالنعاس يهدّ ولا يؤلم .

وثنيت عنان الحديث صوب النوادر والفكاهة فوجدته لا ينشط لها، فعدت الى دار المكشوف احدث صديقنا الشيخ فؤاد حبيش عن الخطر المتبد .

●

وفي خطرة ثانية سألت الشيخ الحبيشي عـن حال عمر فقال لي : بخـــير ، كان هنا . فقلت في قلبي : اذن ما ابعد المـــوت عنك يا مارون ، ان صحّ عمر وسلم .

وذهبت اليه لاهنئه بالسلامة فوجدتني اقول عفواً : لا تخدع نفسك ، توق ما استطعت . ما اراك كما اشتهي .

فاجاب : ما كنت يومـــاً في حياتي كما تروم انت ... احس انني احسن ، ولا أدري إذا كنت أبلغ المرتبة التي اجلس فيها أمام قـدح من عرقك المثلّث ، وخمرتك الدهرية .

فقلت : الله كريم ...

ونظرت اليه فخلتني ارى ملامح رجل من وراء برقـــع ، وانني امام شبح يمثل عمر . وقرأت أن أحدهم حمـل الى عمر وسام الاستحقاق اللبناني فقلت : ولِمَ هذه العجلة . خامرني ريب فيهـــا فسألت أصحابنا فقالوا لا ، ولكنني رجعت الى نفسي وقلت : انه فأل غير مليح ...

وعدت من « فرصة الربيـــع » ومعي لأخي عمر شيء من تلـك التي شبه بها سليمان حب الشولمية في نشيد انشاده . ومـــا وضعت الأثقال لأفعل ، كما قال الأخطل عن قطار فلسطين ، حتى حمل الي الأثير صـوت الاستاذ رئيف خوري يؤبن صديقنا عمر . فضربت المكتب بجمع يدي وهجم الدمـــع الى الحدود ، ولكنه لم يتجاوزها ، كعادته في المصائب الجلّى .

ان حصة عمر محفوظة وستبقى مختومة على « السدة » ولا ترى النور الا حين

نشربها في عين كفاع مع اخوان عمر واصدقائـه ، صانعين هـــذا لذكر كاتب عظيم مات ...

سنصنع هذا الذكر ركن من اركان هـــذه النهضة ، لذكر موظف عاش نظيف اليد والجيب . ما مدّ يـــده قط ، ولا اشتهى مقتنى غيره . عاش لايفصل بينه وبين الناس ذاك التمغص الذي يتنكر بـه بعض الأدباء والمتأدبين لاصحابهم متى وظفوا .

كان لاطائفياً ، ولكنه لم يتشدق يوماً بـــذم الطائفية كأصحابنا الأشد تعصباً من الكهان ، ثم يتفانون غيرة على الأوطـــان . كان عمر لا يصيح ولا يماحك ولا يداهن ولا يصانع ، فظل حيث هو لانه لا يحسن المداجاة والمصانعة والمداهنة ، لانه أبيّ ثابت يزدري المنافقين والزنادقة الذين يكرون مـــع كل خيل مغيرة .

ترك ما ترك من موارد رزق تعصباً لبلاده ، وانتصاراً لهـــا ، ولم يشعر احد بما صنـــع ، ولو فعل ذلك غيره لأقام الدنيا وأقعدها .

عاف موارد رزقـــه وعاش مكثوراً عليه ليتضامن مـــع بلاده . فعل كل ذلك صامتاً لانه ليس من الذين يجعلون مـــن الحبة قبة ، ومن القبة جبة ... لانه من غير الذين يجمزون كالقبابيط في حقل المراتب ، ويدعسون على جثث اصدقائهم ليرتقوا درجة ويكسبوا ليرة ورق .

ان هذا الاستطراد يجرني الى الكلام عـــن شخصيته . لم يكن عمر حسوداً ولا حقوداً ، كان على مـــا فيه من شمم واباء لا يزهى ولا يتكبر . كان محباً واذا ابغض اعرض وازدرى ، وخرج بالصمت عن لا ونعم كصاحبة بشار .

كان فمه نظيفاً لا يتبدل حتى في المجالس الخاصـــة التي كنا نعطي فيها المرح حقه . فكان يقابل تلك النكات الصارخة بربع ابتسامة ، ويشارك بكلمات كان يستعد لتأديتها استعداد طالب غير واثق من ذاكرته .

ولم يكن عمر عـــدواً في ثياب صديق ، ولم يكن من الذين يقتلون الرجل ويمشون في جنازته شاقين الجيوب حزناً على الفقيد الغالي . اما في الأدب فكان

مؤمناً ولكنه غير ممارس الطقوس المنظمة . يصلي لآلهة الفن بمـا يدور على لسانه ... لم يكن أديباً محترفاً بل كان أديباً هاوياً . كان كسميه عمر ، غفر الله لهما ، موكلاً بالجمال يتبعــه . كان لعمر بن ابي ربيعة ، لذة النظر ، كما زعم ، وكانت لعمر فاخوري لذة العمل الفني ، ومـا معشوقاته غير الكلمات اللواتي يؤلف بينهن ولا يجعلهن ضرائر ... أولع بالجديد ولم يتنكر للقديم فـكان من خير من كتبوا بلسان العرب من المحدثين .

وأخيراً مات هــذا النسر وعينه الى القمة ، لم ينظر قط الى الأوحال التي يتمرغ بها بعض زرازير الأدب .

لا أقول ان خسارة الأدب العربي لا تقدر او لا تعوض ، فحسب الذرية ما تركه لها عمر من نماذج ، وقد لا يصنع اجمل منها لو عمر كمتوشالح ..

في ذكرى عمر [١]

لقد اشبعت عمر درساً في حياته وبعد مماته . اما الآن فسأتحدث اليـكم كما يطيب لي ان أتحدث ، ولعله يطيب لكم .

أفلا يعنينا من الأديب غير تعبيره وتفكيره ؟ فأين نحن من أخلاقــه ؟ ألسنا أحوج الى هذا منا الى غيره من الخصال ؟ .

مساكين أهل «الفن» حتى قبورهم   عليها تراب الذل دون الخلائق

أسرجوا الخيول،واقرعــوا الطبول . أي خيول ياسادة ؟ خيول الفكر لتجلي في ميادين الورق ، وطبول الخطب لتقرع في حفلات التكريم والذكرى، مسكين الأديب . يعيش على الكلام ويموت على الكلام . فكل مـا يُعمل للأدباء عندنا هو من بضاعتهم تلك . « حكي بحكي » والذي مات بداء الحكي غماً نحاول نحن أن نحييه بالحكي ، ثم نعد هذا خلوداً .

خلود ، نعم خـلود . قال جبران : يقولون لن تعرف قدرك حتى تموت . لقد اصابوا.فمن ياترى يعرف طبيعة البذور التي تطرح في الارض قبل ان تنبت؟

(١) القيت هذه الكلمة في دار المكتبة الوطنية ببيروت

هذي غير ذلك ياجبران ، وأنا لست على رأيك في هـــذا القول . لا بد أن اموت ليعرف الناس قدري . فيوم حلو جميل ، وامسية أو عشية نتمتع بها بمثل هذا الاجتماع بكم يا سادة ، يسوى ألف خلود أدبي بعد الموت . وما هذه الآمال والأماني الا تعلة البائسين ، وجلهم من الأدباء .

هذه علكة كالتي يلـهون بها الأولاد عن أكل لباب اللوز حين يستأجرونهم لتكسيره . ما لنا ولهـــذا الخلود الكاذب . أنعيش فقراء منكوبين بمحبوبنا ، أينعم سوانا بخيرات الأرض لننعم نحن فيما بعد بحفلة تكريم ؟ أليس كل راحل عظيماً ؟ أليس كل ميت عبقرياً ؟

انا لا أقول ما قاله الحجاج : والله ما احب ان ما مضى من الدنيا لي بعمامتي هذه . يظهر ان عمامته تلك كانت ارثّ وأعتق من عمامة نقولا الترك التي سأل الأمير بشيراً أن يعتقها مع ذلك الشروال ...

وبعد فلنفترض ان أديباً عظيماً مات ، فمن يشعر بموت هذا الأديب غير المصابين مثله بداء الكلام ؟ يموت رجل وراء الكيس ، منتفخ الصندوق ، فتهتز الأرض بالطول والعرض ، حكومة وشعباً . ويموت الأديب الألمعي فلا يشيعه غير جيرانه وأخوانه .

وبعد هذا ، ماذا ؟ اسمعوا . علينا ان نقيم لنوابغنا آثاراً مشهودة لنحث شبابنا على اقتفاء آثارهم ، فقـد كادت لحية لبنان ان تنصل . علينا ان نعزز الأديب حياً ليقتدي به النشء ويكون للوطن غيره ، وإلا انقطع النسل الأدبي . فهذا الأديب العظيم الذي اجتمعنا لاحياء ذكراه الليلة ، أتعرفون مـــاذا حل به قبل ان لفظ روحه ؟ لقد مات معوزاً وكفى ، ومـــا يوم حليمة بسرّ . فلننتقل الى أدبه .

قرأت ، بعد موته صفحة من انشائه فكدت انكرها لو لم يثبت لي ذلـــك خطه . تسمعون ، ولا شك بالعملية القيصرية . هكذا كان عمر يضع مواليده . اثنان كانا مقلين مجيدين : جبران وعمر ، وكلاهما كان صائغاً متأنقاً ، وقـــد عرفت ذلك بعد اطلاعي على مخلفاتها التي لم تبـع كمخلفات الجيش .

كان عمر صريحاً لا يواري ولا يوارب ، وحسبك منه قوله : « فاذا بما يفيض من عبقرية جبران يروي بطاح المستقبل ، بينما عبقرية شوقي مسفوحة على هضاب الماضي . شوقي من الشرق وجبران من الغرب ، فــلا يلتقيان الى يوم القيامة . ويغلب على الظن ان الشرق سيظل كامرأة لوط ، في موكب الزمان، ناظراً الى وراء فيمسخه الله صنماً من ملح ، أي من دمــوع جوامد ، على حد قول آندره جيد الذي يزعم ان لوط ضاجع ابنتيه في احدى منعطفات التاريخ ، وهو ناظر الى المستقبل ... »

اجل ، كان لعمر فصول ولكنها روائع حقاً لانها ملك صاحبها ، وعليها ماركته المسجلة .

اما وقد انتهيت من عمر ، فلا بد من كلمة دعت اليها الحال . أمــا حان للأدباء ان يدعوا الشكوى ؟ فاصحاب ارميا كفــوا عن البكاء ...

الادباء من المواطنين ، ولهم من الدولة ما يطالب به كل مواطن منكــوب بزلزال ، ولهم أسوة بمن ذهبت الثلوج والعواصف بموزه وليمونه ...

الادباء دعاة الامة ولهم على الدولة ما له عليها كل رجل من رجالها . فاناشد الله مَن يعنيهم الأمر ان لا يتركوا الأديب حتى يموت ليتبرعوا بتجهيزه ..

ان يوماً هانئاً على وجــه الأرض لخير من كل ما يعمل له وهو في بطنها . اذا ذهبت النفس فلا أسف على الجيفة .

وانتم أيها المحتفون ، بذكرى عمر ، هلموا بنا نعمل اثراً يحيي ذكرى عمر في غير هذه القاعة ايضاً . اخرجوا «الأديب الى السوق» فينعم بمشاهدة ابطاله . لقد كثرت ضيوف المكتبة الوطنية ، واني لأخاف أن تضيق صدورهم يوماً فتعلوا صيحتهم ، ويتكلم كل منهم على هواه ، فما يفهم الحــداث إلا التراجم . فهبوا بنا نخرج الخالدين الى الهواء الطلق .

رحم الله من سمع ووعى ، والسلام عليكم .

كرم ملحم كرم

وألف ليلة وليلة

أطلت على الوجود منذ ست سنوات، وها هي اليوم في مطلع عامها السابع، بالغة الرشد، بجتمع معظم أشدّها، دارجة في حياتها على ناموس النشوء والارتقاء، ولكن شريعة النمو كالشجرة المغروسة على مجاري المياه. ولو أتيح لمنشئها كرم ملحم كرم ان يعيد النظر ولو مرة واحدة فيما يكتب لأرانا عرائس فنه الروائي البارعات الجمال أشدّ فتنة.

فالرواية اليوم هي كل الأدب الحديث، رافقت الانسانية من المهد وستماشيها الى اللحد. كانت اسطورة حافلة بالجنّ والعفاريت والمردة، فأصبحت حقيقة، بل صارت قطعة من الحياة، إن لم نقل الحيـاة بعينها، فأعظم بالروائي الحاذق مبدعاً، يخلق عالماً لا يموت.

لا تستهوي الخطبة والمقالة الاطفال والصبيان والشباب، بل الرجال الذين نسميهم بحق — مع اغوسطينوس — اطفالاً كباراً، كما تستهويهم القصص الرائعة التي تلقي على الحياة أشعة ثاقبة تمزق ظلماتها ودياجيرها. ألم تر الى ابيك الشيخ كيف يرى كل اللذة في ان يقص على الناس حكايات حياته وما فيها من مغامرات تنبثق من طبائعه؟ ألم تر الى غضون وجهه كيف تتبلور حتى تمتلىء نوراً اذا رأى في وجوه السامعين اصغاء وارتياحاً؟

فالقصة حديث البشرية منذ تجمع الناس في الكهوف، بل الانسانية برمتها قصة ابدية، كثيرة الألوان مشتبكة الخطوط، أبطالها عباقرة. ومن تأملهـا رأى جمالاً كثيراً حتى في أشد مشاهدها قبحاً، وما هذه القصص «الدهرية»،

ذلك الميراث الخالد ، الا فصول رائعة من هذه القصة الكبرى .

وكلما دنت القصة من «الواقع» قاربت الكمال الفني ، فالروائيون مصورون بغير الألوان ، وكم رأينا الملهمين منهم يوحون الى نوابغ المصورين رسوماً وألواحاً خالدة . والمصورون كالروائيين ايضاً ، خيرهم من دنا اكثر من تقليد الاشباح والاظلال ، فكأنما حسن التقليد قمة الفنون الجميلة . فهنيئاً لمن أُوتي من الروائيين سلامة ذوق ليختار من اللغة الواناً ويبدع من تمازج ألفاظها ألوان قوس قزح .

وهذا ما أخذت ألمسه في روايات كرم ملحم كرم منذ عام وبضعة اشهر . أجل ، لقد صار يحسن تقليد الطبيعة ومحاكاتها ، ولم تكن أوليات رواياته في نظري غير محاولات في هذا الفن الرفيع ـ وإن كانت ناجحة ـ ومن يكبر هذا القول فكأنه يتمعض اذا قلنا له : كنت طفلاً تحبو ، ثم غلامـــاً تعدو ، فشاباً مكتمل الرجولة . وأي لوم على كرم في فن هو أشبه بمفازة لا اعلام فيها ، وقد كاد يكون بلا أصول حتى في الأدب الغربي .

فأكثر ما قرأنا قبل روايات كرم ملحم كرم مترجم الى العربية ـــ ما خلا نزراً يسيراً يعوزه فن كثير ـ لا يحدثنا عن شؤوننا بشيء ، فتلك إذن روايات غريبة عنا ، زيها غير زينا ، وعاداتها غير عاداتنا ، لا نلمح فيها شيئاً منا إلا تقاطيع الانسانية الشاملة ، فلا نستلذ طعمها ولا يفتننا لونها ، فكنا أشبه بشرقي في وليمة غربية .

أما التي أرضت الجمهور منها فملاكها المفاجآت والازمات وليست هذه كل الرواية ، فعهد المفاجآت والأزمات مضى وراح ، فالرواية العصرية ترمي الى غرض أسمى من التسلية . هي درس عميـــق يخفيه الروائي اللبق تحت ستار القصص ، ويدسه في سياق الرواية دساً كما تدس العقاقير للاطفال في قرص الحلوى. فالروائي النبيه يريك ما تراه كل يوم ولا تدركه ، ويلقي روايته من بين يديه تهتز كأنها جان ، مزينة بالرسوم والمشاهد البيانية فتلمح صورة المجتمع حية يجسمها لك التمثيل وتجسدها لك السينماء متحركة ناطقة .

ولا اخطىء اذا قلت ان الرواية اطروحة تقوّم بنبالة اشخاصها وسمو اخلاقهم .

يلقيها الكاتب النزيه على الناس مصلحاً ، لا مفسداً ولا مخدراً للاعصاب . فاعتماد الانسانية في نشدها المثل الأعلى اصبح يعتمد على نزاهة الروائي واخلاصه للاخلاق والفن ، فخير الروائيين من شق بقدم سفينة خياله عباب المفاسد متجهاً بقرائه الى ميناء الفضيلة الحصين ، دون ان ينسى ان الرواية للتسلية قبل ان تكون للوعظ الجاف ، والتحليل العقيم الممل .

قلنا اننا قبل روايات ألف ليلة وليلة لم نقرأ روايات قومية تحدثنا بلغتنا ، وتصور لنا عاداتنا أصدق تصوير ، ولكن يا للأسف ان معظم القراء لا تروقهم الرواية إلا اذا كانت حادة لاذعة ، غريبة كالأساطير ، ذات مفاجآت وازمات كروايات البوليس السري ، والذين يقدرون ما يقرأون نزر عددهم . ولا أراني مخطئاً اذا قلت انهم يقبلون على ألف ليلة وليلة بقدر ما فيها من اكسير الشباب ، لا بمقدار ما فيها من فن ، وان نفراً غير قليل منهم يحسبها كقصة الزناتي ونجمة السحور .

فما كان أشد ألمك يا كرم ، وما اعظم جهادك ، ولله صبرك ، بيد أنك ربحت المعركة ، والله مع الصابرين .

أما كيف ، فإليك الخبر : حبب الى الجمهور مطالعة قصصه الفصيحة ، ومال بهم عن تلك السفاسف فرقى ميولهم وعلمهم التفكير — وهذا اول دروس الحياة — ورغبهم في قراءة القصص المتصلة بحياتهم كل الاتصال ، وبسط لهم بمهارة الروائي وحذقه الحوادث التي تلابسهم كل حين فخدم اللغة والفكر ، وأرانا فناً روائياً عربياً ما رأينا مثله من قبل .

لم يسمع كرم ملحم كرم بحادثة رائعة ، بل لم تقع حادثة ذات شأن في البلاد إلا انبرى لها يسكبها بقالب روائي جذاب وأظهرها بعد اسبوع في مجلته ، وهذه لعمري جهود جبارة يقدرها لكرم الأديب الجسور كل من ادركته حرفة الأدب . فكأني بكرم معمل روايات لا تقف دواليبه هنيهة حتى يستطيع كل هذا الانتاج والاصدار . فأكثر الروائيين انتاجاً اليوم لا يصدر في عامه نصف ما يصدره هذا الشاب المقدام الخصب المخيلة .

والذي يتراءى لي ان كرماً لا يرسم لرواياته هيكلاً فهو كالحاسبين عن ظهر

قلبهم ، يجمعون ويطرحون ويضربون ويقسمون دون ان يلجـــأوا الى القلم والورق . ان كرماً لا يدبر الخطة اذن ، بل لا يراجع ما يكتب الا ساعة تصليح المسوّدة ، واذا صححها مرة صارت المبيضة ، هذا إن كان يكتب دائماً كما رأيته مرة . كان يسلم كلاً من منضدي الحروف قصاصة فيهـا بضعة أسطر حتى اذا نضدها رجع اليه . فالمنضدون الى مكتبه رائحون جيّاؤون وهو يكتب ويقص ويسلم . حرب سجال بينه وبين منضدي الحروف ، لا هدنة ولا نزع سلاح حتى يغشاهم الليل ، وعند الصباح يعودون كما بدأوا .

قرأت له تسعاً من رواياته ، اولها « ماذا فعلت أيها المحترم » وآخرها « في قبضة الجبار » . قصص مختلفة البيئات والشؤون ، اكثرها واقعية ، فرأيت اللون المحلي حتى في البعيد الدار منها . وتتبعت سياق الرواية السهل فاذا بي كلما دنوت من يومنا « هذا » أدنو من الجمال الفني في بروز الاشخاص التي تكاد تتحرك في سهولة القصص المترقرقة كالجدول الصافي ، في الألفاظ والتعابير التي ينطق بهـا اشخاصه ، وأفرحني تجنبه بث الآراء الشخصية كأنه يعلم ان القراء يستسمجون الرواية اذا كانت لحمتها وسداها فلسفة وآراء .

فلو كان كرم يكتب لغير من يكتب ، أي للأدباء فقط ، لأرضى الفن اكثر ، بل لجاءت روايته قطعة فنية لا « لو » فيها حتى في نظر اكـبر الروائيين ، على حداثة الرواية في الادب العربي ، وقلة البضاعة التي يحتاج اليها الروائي في لغتنا الغنية الفقيرة . ولكن هو الرأي العام عقبة في وجه كل متفنّن ، فهناك تقاليد ونظريات تكبل الأديب فلا يفلص منهـــا مهما حاول ، وأنـّى لمن يتوكأ على الرأي العام ، مثل كرم ، ان يغضبه .

ولو استطاع كرم ان يخصص لروايته حصة من الزمن لجارى روائيي الغرب وكانت روايته التي اتمنى ان يتفرغ لها ، رواية العام .

فما أدق نظره عندما يضع لك رواية لبنانية ، إذ لا يترك شاردة ولا واردة يتطلبها الفن ، فتبرز شخوص روايته ناتئة كأنها تماثيل ودمى من رخام كالبلور ، وهو الى ذلك كأولئك الرسامين المختزلين الذين يرونك سحنة اشخاصهم بخطوط

قليلة جداً .

اقرأ صفحة ٤ من العدد ٢٥٢ تتجل لك شخصية بطل روايته، واقرأ صفحة ٩ من العدد عينه تعرف كيف يكون الحوار وأي ألفاظ ينطق بهـا اشخاصه الروائي الحاذق الموهوب ، حتى اذا انتهيت من مطالعة الصفحة العاشرة قل معي: هذا ما يتمناه لنفسه اوفر الروائيين حظاً من الفن، حقاً ان من الفن لسحراً.

ولفت نظري في كرم قلة تحامله على ابطال رواياته فكأن لا علاقة له بهم ، يسرد الحدث وينطقك غير مخير بالحكم الذي يريده حتى تخاله محدثاً او «شاهداً» لا أكثر و لا أقل .

أما مواضيعه فيستقيها كما قلنا من المحيط ويلتقطها عن طريق الحياة فلا تتغير إلا قليلاً حسب الحوادث والاشخاص . ومعظمها واقعية او كالواقعية ، إلا بعض روايات غريبة الاشخاص مترجمة بتصرف واسع الخطة ، _ كما فعل تولستوي ببعض روايات موبسان _ وغالباً ما يشرقها . ان العاطفة تظل السيدة المطلقة في كل ما ينشر ويذيع .

وأراه يعطي أشخاصه احياناً شواعر غريبة وفضائل نادرة كما في رواية « قاهر الامير بشير » . فلو لم يكن في الغالب أسير أشخاصه لكيّفهم كما شاء، ولكن ما الحيلة وهم أحيـاء يعرفهم الناس ؟ إلا ان من يعرفهم يكاد يسمعهم يتكلمون ، وان كان كرم لا يعرفنا اليهم أكثر الأحيان .

واشهد انني تمثلت أمام عيني الشيخ عقلة القطامي _ الذي عرفته في عمان _ كأنه يحدثني في رواية « بعرضك يا باشا » كما سمعت الشيخ ابراهيم يتكلم في رواية « راهبة عبرين » والابتسامة الحائرة ملء فيه .

فلهذا أقول ان لغة الحوار او الحديث عند كرم لكأنها الواقع، وهذا مشكل لم يفك حتى في روايات الغربيين الذين يكتبون كما يتكلمون ، فكيف برواياتنا التي تكتب بلغتنا العربية ذات اللغتين الفصحى والعامية ؟

وأسلوبه الانشائي من طراز «السهل الممتنع» _ حسب التعريف البالي _ غير ان بعض فقرات تأتي من الطراز العالي، كأن كرماً نسي إذ ذاك أنه يكتب للجمهور،

وما هي إلا لحظة حتى ينقطع هدير الشلال وينساب جدولاً هامساً .

وكم أتمثله متى أقبل على نقض نقيصة يزأر المجرم بعينيه الحادتين وذلك الوجه العبوس الذي قلما يبتسم ،وان تبسم فابتسامة غير كاملة ، وهو في كل حال لا يريد إلا أن يكون روائياً قصصياً لا كاتباً اجتماعياً يتوسل بالرواية الى نشر بعض آراء يلأ بهـا أفواه اشخاصه والى أغراض يحشرها حشراً في سياق الرواية فتتفكك أجزاؤها ، ولا يتعمد الشعر الطليق فيأتي في قصته كرقعة جديدة في ثوب بال ، كما فعل ويفعل كثيرون من محاولي كتابة القصة ، فيصعدون بك الى الأولمب ويهبطون الى وادي جيهنّوم ، كل ذلك في عشرات من السطور .

ان مهمة الروائي في الأدب العربي شاقة جداً ، فلو أراد أن يدقق في الوصف ككتاب الغرب لعازته ألفاظ كثيرة وضعية ، فاللبيب من روائيينا من هرب ما استطاع من المحيط الذي يقلد المدنية الغربية فيدرك بذلك غرضين : الأول وهو الأهم أنه يرسم صورة شرقية صحيحة وهذه مهمة الروائيين اليوم ، والثـاني انه يتخلص ـ اذا شاء أن يصف ككتاب الغرب ـ من وصف أشياء لم تعرّب اسماؤها بعد . فعسى أن يكفينا المجمع العلمي المصري هذه المؤونة . وكيلا أكون حرجاً أقول ان كرماً لا يستطيع الفرار من هذه المعركة ، معركة الرواية الواقعيـة ، وهو حامل علمها الأعلم .

وقصارى الكلام ان كرم ملحم كرم ظل يجاهد حتى أرانا في مجلته « الف ليلة وليلة » ، وخصوصاً في الفترة الاخيرة ، روايات قيّمة بارعة لو كان كاتبهـا غير عربي لنعم بالشهرة والغنى .

فسر يا أخي ، بحراسة آلهة الفن وكفاك فخراً انك سددت ثلمة في جدران الأدب العربي ، وكأني أراك بعد سنوات تطبع فيها على هذا الغرار واقفاً على قمة الفن الروائي بين زعمائه العالميين .

ولي عود الى هذا الموضوع فأخص رواياته التي قرأتها بنقد وتقدير وإذ ذاك ننظر فيما لكرم الروائي وما عليـــه ، وأظن أن من لا يرحم أحداً حتى أعز أصدقائه في « عاصفته » التي تكتسح ابداً يفرحه نقد غرضه التمحيص ورائده

الاخلاص للادب والفن لا للاشخاص .

وحبذا الأديب هو لو مرحب فصولي العتيدة فتنزل على الرحب والسعة في «عاصفته» ، فخلّ التواضع يا كرم وقل أهلاً وسهلاً ، فالضيف خليق بالكرامة وأنت عربي لبناني ، فانا معك وعليك ، وهب انك قلت : يا ضيفنا ... فلك اقول : شرط في الحقل ولا قتال على البيدر ، أريد نشر فصولي « بحروفها » .

أقول هذا خوفاً من نشر النقد وطي التقدير ، وليس هذا بعدل .

وفاء الزمان - سجل التوبة

للريحاني

ألّف الريحاني رواية « وفاء الزمان » في الفردوسي ، واخرج مخائيل نعيمه كتاب « جبران خليل جبران » ، فكان الأول مسرحياً ، والثاني قصصياً وكلاهما لم يوفقا الى الفن .

الريحاني ونعيمه تقضى شبابهما في بلاد الدولار ، ونهلا من ينابيع الثقافة الاميركية الانكليزية ، لهما آثار واضحة في النهضة الحديثة لا ينقصها فقدانها بعض جدتها .

كان كتاب نعيمه أسبق ظهوراً فهو أولى بالتقديم ، ولكن هذه القافلة الفردوسية السالكة طريق التجارة القديمة حاملة الى بلاد فارس مرّاً ولباناً — كالمجوس من قبل — تخفى علينا آثارها اذا تباطأنا عن ترسم خطاها . والحمد لله في كل حال لم يفتنا « الموسم » وقلنا في الفردوسي نثراً وشعراً .

ما كنا لنعنى بنقد هذه المسرحية لو لم تكن للريحاني كبير كتّابنا والزعيم الأدبي الذي له في كل معركة غبار ، وفي كل عرس قرص ، ولولا ان ظهور المسرحيات في جونا الأدبي كظهور مذنب هالي .

للريحاني «الجديد» خطب ومقالات اجتماعية وسياسية حتى الصحية ...وله روايات وقصص وكتب رحلات عربية وانكليزية . وللريحاني « القديم » ترجمة نتف من لزوميات ابي العلاء ، وله شعر انكليزي ، وله كتاب « المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية » الذي شهره فتحدث الناس به ، وله أيضاً نبذة في الثورة الافرنسية ، وقصة المكاري والكاهن التي أعاد طبعها هذا العام .

قلنا ان الريحاني لم يوفق لتكوين مسرحيته الفردوسية ، وأنّى يوفق من يصبغ صبغاً ؟.. فالرواية فصلان في ست وثلاثين صفحة (قطع وسط حرف أول) يرفع فيها الستار اثنتي عشرة مرة ، فتأمل .

أما موضوعها فالأسطورة التي نسجتها عناكب التاريخ على شخصية الفردوسي ، وتناقلتها الصحف والمجلات بمناسبة ذكراه الألفية . لم يزد الريحاني عليها شيئاً غير شخصية « الزمان » و « الجمال » الذي رافقه الفردوسي ، فكان أبلغ من الشاعر والزمان ، مع ان المثل يقول : ان لم تعلّم ابنك فالزمان يعلمه .

واليك عرض الرواية :

في المشهد الأول يحلل الريحاني عقلية السلطان الروحية في حوار رائع مع الشاعر يكاد يدنو من الواقع . ويتدرج الى مجاملة الشاعر بلباقة وفن — وإن سمّاه الفردوسي قبل الاوان — أما حمل السلطان كلام الشاعر عنه وعن الرسول محمل الظرف فهذا كثير ، ولا يحدث مثله عندنا فكيف يكون منذ ألف عام ؟ وأغرب منه أن يكره سلطان فارسي « المجاملة » ويعدّهـا تبذلاً غير خليق بالشاعر . ان بدعة التبجيل والتعظيم كان الفرس دعاتها بين العرب ، فدنّا بها ولا نزال نركع ونقوم في هيكلها الرميم ...

فنحن — ولا فخر — اذا لم نسلم على الكتّاب والشعراء بألقابهم « بنصها وفصّها » عدّونا ممن يبخسون الناس أشياءهم ولا أدري ماذا .. وحمّلوا البريد الينا رسائلهم « اللقيطة » النامّة عن وجوههم المعظمية .

عفواً لقد شط القلم ... وينجلي المشهد الأول عن تعهد السلطان للفردوسي بدينار عن كل بيت تدفع ألفاً بألف ، أما الفردوسي فيرى ان يقبض المال جملة ويبني السد المزعوم الذي يتغنى به شعراؤنا ...

ويرخى الستار ليرفع عن وزير يفاتح السلطان الكلام ، وهذا لم يألفه الملوك القدماء ، وتبتديء محنة الشاعر فيكيد له حسن واياز ، ويغالط المؤلف نفسه فينسى ما قاله في المشهد الاول ، فنخبر في هذا المشهد وما يليه ان الفردوسي ملحّ ملحف .

وبعد المناقشة يخرج حسن واياز ويرخى الستار ليرفع عن المشهد الثالث

فيظهر السلطان وحده في المكان عينه ، ليتكلم دقيقة او أقل ، ويقول : ان الفردوسي مثل سائر الشعراء مسترفد ، لجوج ، شتّام .

لقد حيرني ارخاء الستار ورفعه هنا ولم أفهم حكمة الريحاني فيه .

أما المشهد الرابع ففي طوس . الفردوسي ببيته عاتب ساخط على السلطان ، يعجب كيف لا يأمر وزيره بقضاء حاجته فيقول : أأستدين ثم أستدين ثم أستدين ... أطلب من اللئيم الجالس في باب الخزنة مائة دينار فيرسل إليّ عشرة دنانير ...

وفي آخر هذا المشهد ، وهو خاتمة الفصل الاول ، يوزع الريحاني « الملبّس » فيقول بلسان الشاعر : لولا الحاجة اليها – أي الدنانير – لوضعت كل دينار في بعرة جمل وأرجعتها اليه .

الفصل الثاني : وهنا يبتدىء التقطع والتفكك ، ففي المشهد الاول ، وهو صفحة واحدة ، يجتمع السلطان ببطانته ليقول لوزيره حسن : « أرسل الى الفردوسي حمل فيل ذهباً ، ستين الف دينار » فيقنعه الوزير بإرسال ستين الف درهم من الفضة ، ويرخى الستار .

أما كان يقدر الريحاني على قول هذا بلسان احدهم في المشهد الثاني ، فيستريح ويريح ويرضي الفن ، رضي الله عنه ؟

وفي المشهد الثالث يدخل « الزمان » على الشاعر في بيته . في هذا المشهد روعة عظيمة لولا حدة في الشاعر تشبه الجنون ، فلو قللها أمين لكانت أبرع . لعل له عذراً فربما نسي أنه يحدثنا عن الفردوسي . لعله تخيل شاعراً آخر في تلك اللحظة فشوه الصورة .

وفي المشهد الرابع يهدر السلطان كالجمل الهائج ويسبّ الشعراء جميعاً . وضع أمين قصيدة الهجاء في يده ولم يبال بشكوك المؤرخين . يا ليته فعل هذا في كثير من المواقف فأنقذ روايته من القحط والجدب . وماذا عليه؟ فحياة الفردوسي أسطورة وشعره أساطير .

أما الطعن في الشعراء جميعاً ، والنيل منهم كلهم بلسان هذا السلطان ، فما أشبهه بعمل يوسف وهبه في روايته « الدفاع » . أفسد الرجل فنه وجعل الحكمة

المصرية ملهاة وملعباً ليغمز على اللبنانيين ، إذ أبرز ذلك الشاهد العنتري الدبابي الهلالي الذي أخذ صورته عن « صندوق الدنيا » .

أما المشهد الخامس ففي الطريق ، وعندي ان يجلس رفيقا السفر : الشاعر والجمّال ، لان ما قوّلها اياه المؤلف يقصر دونه المسرح ، مهما بعد مداه . وحديث كهذا أخلق بالجلاس منه بالمشاة . المشهد جميل ولا غرابة فيه إلا ان هذا الجمال ـ قاطع الطريق ـ كان يستجوب الفردوسي ويستنطقه كالممتحن ثم يقـــول له : أعد الرمي ... ولم يكن ينقصه إلا ان يربّته ...

وفي المشهد السادس يندم السلطان ، ويأمر رئيس الديوان بأن « يعـــدّ » ستين الف دينار ذهباً ، واذا نقص شيء فليرسل بقيمته نيلاً ...

وفي المشهد السابع تمر جنازة الفردوسي ، والجمّـــال واقف مع رفيق له يتذكر صحبته الشاعر منذ عشر سنوات . ويأتي رسول السلطان بالمال الخ ... ما شبّهت هذا المشهد إلا بما يمثله النصارى في القرى يوم « سبت العازار » وأظن امينا يتذكر مثلي ذلك ولا ينساه .

هوذا اليابسة . قد بلغنا المشهد الثامن وهو الأخير ، فتنفس معي أيها القارىء الكريم ، واستعد لتنظر « الاب نويل » ثانية ... فهذ الزمان قد ظهر بعد الفـ ـسنة . هنا تظهر شخصية الريحاني بكل خطوطها فيقول ما يريد ان يقول ، ويقرر مـــا يريد ان يقرر من « الحقائق » ، بلا شك ولا تجمجم . لا يحسب لتقلبات الزمان حساباً . أفلا يرى معي أمين ان زمانه خرف إذ يقول : المستقبل للعلم الذي فيه خير الناس أجمعين وحرية الأمم جمعاء ، لا للمال المستعبد للشعوب .

هل قضى على الشعوب المستضعفة وأقض مضاجعها واستعبدها واحتلبهـــا ـ فنياً ـ غير هذا العلم الجشع الميت الضمير ؟ أليس باسمه يعاني الضعيف ما يعاني ؟

كان على الاستاذ ان يأتينا بخير ما عنده من البضاعة الفنية ، ولا يضع بفم الزمان هذا المبتذل من الكلام ، ولا يسمعنا هذه التطويبات والدعوات والتمجيدات أيفكر الزمان يا ترى ان يفتخر بما جعله الريحاني يفتخر به ؟ لقد بذ أمين المتنبي ، وابن هانىء ، وكل شاعر عربي .

ويجمل الرأي في هذه المسرحية انها «كدرب الصليب» ولا ينقصها إلا النشيد واللازمة،وأبشع عيوبها قلة الخطوط التي تميز الأشخاص، وهذا أهم ما يتطلبه الفن من الروائي، فهو كالمثـال . واشهد انني لولا قصة الفردوسي المعروفة ما عرفته في رواية وفاء الزمان . انها لم تظهر لنا منه غير رجل متكالب على المال، أمـا مثله الأعلى في الحياة فما فهمته من هذه الرواية، ولا من قصائد الشعراء .

الوزير هنا يصلح ان يكون وزيراً في الهند او الصين ولا بأس عليه،والشاعر ككل الشعراء بل هو والجمال سواء، والبيئة ككل مصر من الامصار الاسلامية المستعربة . ان انطاق اشخاص من الفرس كما كانوا ينطقون منذ عشرة اجيال لمهمة شاقة لا يحققها إلا درس عميق طويل . ولهذا تاه الأمين في صحراء الفن مع انه لم يته في الدهناء ...

أما الحوار فكان يستقيم حيناً ويلتوي غالباً، وحديث الجمّال ـ لولا تلك الفلسفة العالية ـ كان خير الحوار، فكأني بأمين تمثّل مكارياً نبيهـاً يرافقه فأجاد ـ لولا التفاصح .

والختام لم يكن فيه شيء من «المسك»، فالزمان كان كخطيب فاته الختام البارع، فانقض كجلمود امرىء القيس، يتكلم ولا يعلم كيف ومتى ينتهي . لقد كان على الزمان ان يبقي شيئاً في نفسه، وان لم يفعل الزمان هذا فمن يفعله؟

ان الزمان في المشهد الاخير كان محاضراً لا ممثلاً .

وبعد،فقد تصادف هذه الرواية استحسان الناس ـ كما قالت الصحف الغراء ـ ولكن الفن لا يقوّم باستحسان الجمهور، فالناس يسرهم ويدهشهم شيخ كالزمان طويل اللحية يدب على العصا، وكم تدهش اللحى الطويلة، فهي وحدها رواية .

فليت اميناً كتب قصة ولم يؤلف مسرحية نيئة فجة،ليته فكر طويلاً ليقطع بالحجة اولئك الذين ينعون على العرب قلة الابداع والاختراع، منذ ايام الجاحظ .

وقصارى الكلام ليس في هذه الرواية جهود فنيـة بارزة تنبئنا ان صاحبها انخرط في سلك جوقة تمثيلية اميركية . فما هي غير عرض حكاية لا عمل للخيال فيها، ومشاهد متعددة، مفككة اسرع من جنازة بشار ... لا تؤلف مسرحية

ولا سيا ان الريحاني كان كالملقن الاجش، صوته لا يختفي ، وأكبر عيوب الرواية ظهور شخصية المؤلف في أبطاله .

أين اختفت شاعرية الريحاني ، وأين توارى خياله الخصب ؟ هذا ما سألتنيه نفسي واحترت بماذا أجيبها .

انا اعلم ان الريحاني مغامر يكتب في كل باب ـ حتى قال الشعر الموزون مرة في زحلة ـ وهو يخرج كتبه بسرعة مدهشة ، فما أظنه إلا اكتفى بلقب الفيلسوف وما اليه ، وكم يجني الاطراء الجزاف على الأدب والأدباء.. انني انصح له ان يتقن ويمحص ، فالغد هدام زلزال .

أما تصحيح الاخطاء المطبعية فليته تركه فقد عرف شيئاً وغابت عنه أشياء.

فالزمان نسأل ان يسدل على هذه المسرحية خصلة من لحيته الطويلة ، وقد كان على الريحاني قبل شحنها الى ايران ان يكتب عليها ـ سريعة العطب ـ.

اللهم ، انها شدة شديدة فاسترها .

سجل التوبة

هذا عنوان كتـاب « يتيم » ألـّفه فيلسوف الفريكة ، ابو الشعر المنثور . أبصرت هذه المجموعة القصصية النور، منذاسابيع، بفضل القيّم والوصيّ الوفي الأستاذ البير الريحاني شقيق امين ، وعناية دار المعارف بمصر .

خلق الريحاني مطبوعاً على القصّ فكان فيه غير متكلف ولا متعمل. ظهرت باكورة أدبه فيه يوم اخرج «المكاري والكاهن» و «المحالفة الثلاثية» فكان الامين فيهما كليهما كاتباً واقعياً وان تخيلها . ثم راعينا هذا النجم الذي تألق على منابر العالمين الغربي والشرقي ، فاذا بنا نرى أبرز عناصر أدبه في خطبه هو القص الذي يسترعي الانتباه ، بل يفتن ويغري .

فأمين لم يكن غير واقعي إلا في شعره المنثور الذي طبعـــه على غرار شعر ويتمان الامريكي ، ثم بهّره وفلفله بشيء من توابل الصوفيه الشرقية .

أجل كان امين في هذا اللون البكر من الادب متصوفاً، ثم عافه وصار نضالياً

صرفاً.عدّى عنه الى أدب الرحلات والروايات والاقاصيص فكان في هذه كلها كاتباً وشاعراً واديباً، وناقداً ادبياً، واجتماعياً، وفنياً، وسياسياً مخلصاً للعرب داعياً الى توحيد ملوكهم وامرائهم ورؤسائهم، كما يعرف كل من قرأ «ملوك العرب» وغيره. ولكن الأمين ظل في تصانيفه التي لا قرابة بينها وبين الشعر المنثور دائم الحنين الى هذا الحبيب الاول فرصّع كتب رحلاته به.

ورأى الريحاني، بعد «المحالفة» «والمكاري»، ان يكتب روايات فكتب «زنبقة الغور» و «خارج الحريم». أما عنوان الرواية الاولى فلعله ينظر الى احد عناوين بلزاك ولا أخالك تجهل لاقول لك ان اميناً حاول في فجر حياته محاولات جمة، فمن فتى يلتحق بقافلة مسرحية ليكون ممثلاً فلا يفلح، الى طالب حقوق لم يثبت، وانا لنحمد الله على فشله في تلك الميادين، فلولا ذياك الاخفاق ما كان لنا هذا الاديب العالمي.

وأخيراً وجد أمين ذاته فكان الكاتب الممثل حين يخطب، والمحامي الفيلسوف حين يكتب، وكأن حنينه الى المسرح لم ينقطع فكتب مسرحية «وفاء الزمان» بمناسبة ذكرى الفردوسي الالفية، وها نحن نقرأ له اليوم في «سجل التوبة» مسرحية رائعة عنوانها عبد الحميد، وهي إحدى أقاصيص السجل الخمس. ان هذه الأقاصيص مختلفة البيئة والالوان، فواحدة اسطمبولية، واخرى تسالونيكية، والثالثة بابلية، والرابعة نيويوركية، والخامسة لبنانية سورية، وهي جميعها نضالية تحارب الطغيان والرجولة المنحطة في كل مكان وزمان.

عاش أمين مكافحاً هذه الرذائل، وما ألقى سلاحه إلا ستة عشر يوماً غيب القبر بعدها ذلك الوجه الانساني النبيل.

قالوا في عمر بن ابي ربيعة: ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر، والريحاني الذي لم يفلح الفلاح كله في «وفاء الزمان»، لقد وفق جداً في مسرحية عبد الحميد المار ذكرها. وامين الذي كان قصاصاً عادياً في «المكاري والكاهن» أمسى قصاصاً فناناً في «نبوخذنصّر» وغيرها من أقاصيص سجل التوبة. ولا استثني من هذا القول إلا اقصوصة «بقضاء وقدر» لانها دون اخواتها، وقد تكون

السياسة هي التي أفسدتها... كان الريحاني في «خارج الحريم» و «الزنبقة» يحوم في جو غير جوه، أما هنا فكتب في شؤون عجنها وخبزها فلم يكن عنها غريباً.

وبعد، فيظهر لي ان « اليتيم » محروس معان، فاذا نظرنا الى بواكير قصص امين بإعجاب فليس لانها فنية أصولية، بل لأنها نادت بفكرة اصلاحية، وحملت على التقاليد الهرمة فكان امين طليعة كتّاب العقل في صبح القرن العشرين، فأعلنها حرباً عواناً.

ان القص هو ابرز خواص فيلسوف الفريكة، فهو اذا حدثك عن أتفه الأشياء أحسست بمتعة لا تجدها في كلام غيره من المتأنقين. كان أكره ما يكره امين شيئين: الاستبداد والتعصب الديني، فكانت مكافحتهما نجمة قطبه في خضم الحياة. فاذا قرأنا الاقصوصة الاولى « شريف افندي » وجدناها كفاحية، ترينا كيف يحن الشعب الى نيره، بينا هو ينتقل من مخالب نسر الى براثن نمر. أما أقصوصة عبد الحميد المسرحية التامة الالواح فغرضها معروف من عنوانها. لقد سلط امين على ذاك الطاغية الجبار اشباحاً شكسبيرية راعبة، فكادت ان تكون هي وأقصوصة نبوخذنصر من الروايات العربية التي تستحق ان يكتب على جلدها: لا تقرأ ليلاً، كبعض اقصوصات « بو » مثلاً.

واذا كانت اقصوصة عبد الحميد المسرحية رائعة جداً، فأقصوصة نبوخذنصر في القمة القصصية فناً وفلسفة. كأني بالريحاني قد تشبع من حكاية هذا الطاغية في التوراة، وأعجبته كثيراً حتى شبه حاله ببطلها في كتاب «ملوك العرب»، حين سئم اللحم الذي كان يصبّحه ويمسّيه مدة ثلاثة أشهر. وحن الى العشب فقال عن نفسه: تبعت «مبارك» الى مواطن المرعى الطيبة، ورحت أرعى كالبعير، بل رحت أدبّ على الاربع مثل نبوخذنصر آكل الحشيش (ص ١٣٤ جزء ٢ الطبعة الثالثة).

ربما لا يعرف القارىء العزيز حكاية نبوخذنصر. هذا الطاغية كان ملك بابل ايام سبي يهوذا، فتنبأ له دانيال انه يطرد من مملكته ويعيش دابّاً على الأربع كالبهائم، حتى ينقضي الزمن المفروض، ثم يعود الى ملكه بعد انقضاء زمن التوبة. لعل هذا قد ألهم الريحاني قصته هذه، ثم أوحى اليه هذا العنوان، سجل

التوبة ، الجامع شتات أقاصيصه الخمس .

وفق امين توفيقاً عظيماً في قصة نبوخذنصر التي اخترعتها مخيلته ، وقديماً كانت التوراة مصدر إلهام للكتّاب والشعراء الكبار ، وامين واحد منهم ، فجعل من نبوخذنصر عبرة للطغاة المستبدين . نصر عليه بالادان أحد أفراد رعيته ، فانتقم نبوخذنصر من هذا المتمرد انتقاماً غريباً عجيباً لم يرض له بالموت ، لأن في الموت راحة ، ولكنه اخيراً مات غصباً عن الملك ، وأخذت روحه تصارع الملك فتظهر له في كل آن وتعذبه ، وكان خاتمة هذه المأساة الرائعة ما قصته عليه هذه الروح من أخبار العالم الآخر فاضطرب نبوخذنصر ، ومات معذباً .

يمضي امين في تصور « الآخرة فيذكرنا برؤى اغوسطينوس وحكاية الانجيل عن الغني المعذب في النار » ، وظل يطارد نبوخذنصر حتى « شفي من أمراض الحياة كلها » أي مات ، وكم لأمين من تعابير جميلة كهذا !

أما أقصوصة « اكليل العار » فطريفة كأختها ، وتزيد عليها هذا السحر الناعم الذي يبدأ بالعنوان وينتهي بالختام . ان خواص القصة الأصيلة تتجمع في « اكليل العار » ، فهي متشابكة الحوادث بلا تعقيد ولا كلفة ، يصور فيها الشخوص تصويراً ممتعاً ، فيرينا حركات أناس كثيراً ما نراهـا ، فنكاد نقول : هذا فلان ! وان كان لي شيء يقال هنا فهو ان المؤلف قطع كل صلة بين بطل قصة « اكليل العار » ومعشوقته الاولى ، فزحلت عن عتب الطريق تاركة توفيق زيدون يمضي بسلام . ولكن هذا طبيعي لأنه يحدث في مجاري الحياة العامة .

أما أقصوصة « بقضاء وقدر » فليست كأخواتها ، ولهذا أقسم سجل التوبة ثلاث طبقات : الأولى نبوخذنصر ، وعبد الحميد ، واكليل العار ، والثانية شريف افندي ، والاخيرة ، وهي أخيرة حقاً ، قصة « بقضاء وقدر » ، ولعل الامين قد كتبها بعد المنفى فلمّح ولم يصرح .

ان فيلسوف الفريكة لم يكن مقلاً كجبران ، ولا متنوّقاً مثله ، ولهذا تجد في كلامه الرائع والعادي ، فهو في نثره كخليل مطران في شعره ، دنيا من الفن والفكر فيها القمم والشماريخ ، والأودية والكهوف والهوّى .

كان على الواقفين على طبع سجل التوبة ان يصححوا بعض تعابير مثل: «فاذا بتوفيق زيدون واقفاً هناك » ، فهي واقف لا واقفاً . ومثل : « كونوا اخواناً فتثرون وتسعدون » ، ومثل : واليك الاجرة ، وان كان الكثير من الكتّاب يستعملونها بمعنى خذ . ثم قوله : بخمر أرمني معتق . وتلصصني .

ان التعبير الصحيح شيخ السفرة في المآدب القلمية ، ولكن شيئاً آخر يسد سده عند امين الا وهو تلك العبارات الشخصية الطريفة التي يرسلها الريحاني هنا وهناك فتنعش وتحيي الكلام . ان خلق مثـــل هذه الروائع لا يستطيعه الا عبقري كالريحاني ، أما تصحيح ما ذكرت فيستطاع كل حين ، ولكن تصحيحه ضروري لأنه كالكلف في الوجه الجميل .

رحم الله الريحاني الأبيّ ، سفـــير العروبة المسخّر يوم لم تكن السفراء ، فعرف العالم بنا . لقد أعطى امين وأخذ ، وحلاوة الدنيا كلها الأخذ والعطاء ، شرط ان يكون ما يؤخذ ويعطى حلالاً زلالاً ...

ابو الهول وفنيانوس

لشكري الخوري

الاستاذ شكري الخوري مجاهد لبناني، بل هو شيخ المجاهدين في البرازيل. خدم وطنه بجريدته « ابو الهول » فجعل اللبناني يفكر بالوطن الأم كلما وقعت عينه على « الحرف » الذي كتب به جدوده معبرين عن أفكارهم .

كان علينا ان نتحدث عن عدد « ابو الهول التاريخي » فور صدوره ، لان صاحبه الجليل أخرجه تاريخاً للهجرة اللبنانية الثانية، بعد مرور عشرات القرون على الهجرة الاولى التي خططت المدن والمواصم عبر البحر المتوسط. أجل بذلك يقضي علينا عرفان الجميل والاقرار بفضل الجهاد المثمر ، ولكن جاء من الطبل ما أسكت الزمر ، فنمنا عنه حتى الآن .

وبعد، فلسنا ننقد أثراً أدبياً لنؤجله شهوراً ، كما جرت العادة، ولهذا نقدمه على ما عندنا من دواوين وقصص ، وآثار أدبية مختلفة . لسنا نعني بهذا ان «عدد ابو الهول التاريخي » ليس بالكتاب الأدبي ، ففي هذا الكتاب الطويل العريض كثير من الآثار الادبية كالمقالات ، والقصائد ، والملح ، وحسبه ان يشتمل على قصة « فنيانوس » الخالدة ليكون كتاباً أي كتاب . فهي قصة فريدة ، بل هي أمّ الباب ، كما يعبّر أصحابنا النحاة ، بل هي بكر الطباعة العربية في البرازيل، أندلس اليوم .

القصة مكتوبة باللغة العامية ولكن اشخاصها أحياء حقاً ، تقرأها فتخال انك تحادثهم وتؤاكلهم وتشاربهم ، وبكلمة طريفة ينقلك شكري الخوري الى المحيط الذي يصوره لك فتظن انك فيه ، وانك لا تقرأ فقط بل تسمع وتنظر ايضاً ، وهذا هو الروائي ، وليكتب بأية لهجة شاء .

ما احلى اعتراف ام سكحا عمة فنيانوس ، بطل القصة ! وما أروع حمله لها حين قصّرت على طريق مار عبدا المشمّر ، ورحم الله الياس الفرّان الشاعر العامي الذي قال مرة لزوار هذا القديس العظيم ، رزقنا الله شفاعته :

ان كان مـــار عبدا مشمّر   داعيكم من غـــير شنتان

قد لا يكون شكري الخوري من رؤوس النحاة وعلماء اللغة ، ولكنه دون شك ذو حظ كبير من الفن الذي ننشده ، وهو ممن يكتبون بالقلب واللسان . يتوخى الابداع فيبدع ، وله أسلوب شخصي ظريف خفيف . تقرأ الفصيح منه في هذا العدد التاريخي تحت عنوان « كيف تأسست الصحافة العربية في الارجنتين » وشكري هو مؤسسها . وتقرأ العامي تحت عنوان : « فاكهة جديدة » فتبدو صورة ناطقة لمجتمع لبناني في دار الغربة . وفي المقالين تبدو لك شخصية شكري الخوري من بين السطور ، مثل المليح يطل من شباك ، فتتضاءل أمامك أشباح كثيرة ممن هم عند انفسهم فحول الفصحاء .

قد تعجب لهذا التقريظ لرواية فنيانوس ولما يكتبه شكري الخوري ، ولكن عجبك يزول حين تعلم ان رواية فنيانوس تدرس في المدارس العليا الاوروبية للمتشرقين . ليس عندي ما يقال في هذه القصة إلا ان ملكة الكاتب زجت عبارتين فصيحتين في غير محيطها . الاولى : يقوض الممالك ويثـــل العروش ، والثانية : ولكن أيديهم مغلولة .

وتطالع عدد ابو الهول التاريخي فتعرف جهود الرجل التي ينفقها فيما يجدي وينفع . فشكري الخوري فعّال أكثر من قوال . ترى على جبين هذا الكتاب صورة الأرز بألوانها ، وشكري ثابت في عقيدته كالأرز ، وفي صبره كأبي الهول ، وفي عزمه كنسور لبنان .

لا أحصي آثاره فأعددها ، انها لكثيرة ، ولكني أقول اني سمعت منذ نشأتي بزعيمين لبنانيين يتحدث عنهما كل مهاجر ، ويرى فيهما نصيراً وملجأ في الشدة : نعوم المكرزل في الولايات المتحدة ، وشكري الخوري في البرازيل .

وتلي صورة الارز صورة ابتداعية رائعة تدل على بلاغة شكري وذوقه ، وتغني عن الف مجلد ضخم ، ففي شطر منها يرينا اللبناني أول فتحه البرازيل ،

يحمل بضاعته على ظهره ، والتاجر الكبير من اللبنانيين من يقني أو يستكري حماراً ...وفي الثاني كيف اصبح يسكن القصور الشاهقة وفي ساحتها السيارات الطريفة . وقد عرفنا بهذه الصورة إذ كتب تحتها : كيف كنا وكيف صرنا . وتمضي في الكتاب فتقرأ تاريخ الهجرة المجيد ، الذي أصدره الاستاذ شكري الخوري في البلايا والمحن، تمجيداً لأمته ، فتأخذك هزة الكبرياء ، ويستولي عليك عنفوان الفخر . ولا ينتصف الكتاب حتى ترى صور المعامل اللبنانية فتخال انك تطل على مصانع «سنت اتيان» «وناطحات السحاب»، وتزداد دهشة حين يريك شكري الخوري عمال هذه المعامل بالارقام فاذا هي ألوف مؤلفة .

ان من يقرأ هذا الكتاب يتعالى أمام أسمى أمم الارض ، فما أوفى شكري الخوري ، وأعظم خدماته التي يؤديها كل عام لهذا الوطن فيرفع قدره . وانما يتمجد الوطن بابنائه البررة الخيرين .

واليك الآن كلمة خالدة قالها شكري منذ نصف قرن في اللبناني، وقد نظمها حافظ ابراهيم شعراً ، فجاءت صورة رائعة : « والله ، ثم والله ، لو كان للقمر طريق لكنت ترى لبنانياً حاملاً كشته وصاعداً اليه ، وترى لبنانياً آخر قد شك دواته في زناره وسار لينشىء فيه جريدة أو مدرسة » .

صدقت يا استاذ ، وكتابك هذا بمقام الف شاهد ، فحيا الله شعباً صغيراً ناهضاً زرع لغته في تربة العالم أجمع ، وليس في الارض من يسأل عنه ، بينما مدارس رعايا الدول الاجنبية تتقاضاها الملايين ولا تفعل بعض ما فعله اللبناني .

ان عدد ابو الهول التاريخي نشيد العصامية اللبنانية الصامت ، وفي كل سطر منه عزية تلقي درساً على الدنيا . جزى الله خيراً هذا السباق لكل مأثرة عبقرية . وخير كلمة أختتم بها كلامي عن شكري الخوري هي ما قاله لي أحد أنسبائي المهاجرين : شكري الخوري لبنان في البرازيل .

ان من كان هكذا ليستحق شكر لبنان سبع مرات، فاذا كان لدى حكومتنا مرة تغني عن سبع فلتفعل ، وهذا أقل شيء يستحقه هذا المجاهد القائد البطل.

فلئن غنّى بنو اسرائيل مزاميرهم باكين في سبي بابل ، فنحن نسمع من وراء البحار أهازيج المجد، ونفخر بأن جاليتنا شيدت حيث حلّت مجداً عظيماً كلبنان.

الوعي القومي

للدكتور زريق

الجامعة الاميركية وقوميتنا

كما يرث الفتى عن أسرته غرائز شتى كذلك يرث عن مدرسته أشباه الغرائز فالمدرسة الرشيدة صيقل يجلو العقول المرهفة ، وأم تدرّب بنيها وتسيّرهم في اتجاهات عند غايتها الخير للفرد والمجموع .

يذكرنا الدكتور قسطنطين زريق بالبلد الطيب الذي أخرج نباته باذن ربه ، فهو ابن محيط أنبت ديك الجن في القدماء ، وكرامه والجندي في فجر نهضتنا. فالدكتور إذن عريق النسب في دنيا العلم لست أقول دنيا الادب لان قسطنطين كما يشتم من كتابه «الوعي القومي» راغب عن هذه الاسرة الثرثارة، وان كان منها في الصميم أسلوباً وتعبيراً .. ففي كتابه هذا بروق أدبية ورعود بيانية لا بد لنا في نهاية هذا المقال من ان نضع أصبع الدكتور عليها ليؤمن توما انه يجري في تيار الأدب الجارف من حيث لا يدري .

قلنا ان للمدرسة الأثر الثاني بل الثالث في تكوين الشخصية ، والجامعة الاميركية بيت العلم العتيق في ربوعنا ، يحج اليه المؤمنون بالثقافة ومعجزاتها . كانت هذه المؤسسة ولا تزال منبتاً للرجال ، ومزرعة تغرس فيها فسائل العقول الحرة ، فتصبح الحبة شجرة الجبلية تأوي طيور السماء الى اغصانها . وقد أجاد الدكتور فياض حين أشار الى هذا المعهد الرفيع العماد بقوله :

هذي منارة رأس بيروت وذا علم الهدى

يغتبط المرء وتستولي عليه عاطفة الاكبار والاجلال حين تقع عينه على تلك المدينة العلمية المنتثرة بيوتها على رأس بيروت كأنها الجنائن المعلقة . ولا عجب ان رأينا كتاب « الوعي القومي » يطل علينا من بوابتها فهي منذ ست وسبعين سنة تتاجر بهذه الوزنات ... فالى ربيبة فنديك المستعرب أصدق التحيات وأطيب التمنيات ، والى روح فنديك الذي أحب العرب ولغة العرب أسمى الاحترام وأبلغ التقدير بمناسبة مرور قرن كامل على مجيئه الينا ـ ١٨٤٨ ـ .

تمشرق الدكتور فنديك قلباً وقالباً حتى اذا نظرت الى رسمه المشهور تخالك بحضرة شيخ من بني تميم ، لا اميركي صميم . فالغرسة الاولى في حقل القومية العربية منشأها الجامعة الاميركية وبستانيّها فنديك . والجامعة أول معهد شرقي غربي اعتمد التأليف العلمي في لغة العرب ، ودرّس الطب وما يتبعه من فروع علميـة باللسان العربي المبين . ولا تزال طبعاتهـا العلمية القديمة في كل فن تحدث الناس بفضلها . وقد ضمت الى تليدها ذاك طارفاً مجيداً أعني « سلسلة العلوم الشرقية » وقد أربت حلقاتها على الاثنتي عشرة ، لصاحب الوعي القومي خمس منهـا : تاريخ ابن الفرات ٣ اجزاء ، وامراء غسان ، واليزيدية قديماً وحديثاً .

فالجامعة ، ولا شك ، هي اول مدرسة أجنبية عنيت بشؤون العرب وثقفت شبابهم ثقافة حرة متينة أقرب الى قوميتهم منها الى جنسيتها . وهؤلاء تلامذتها هم دعائم الثقافة الحرة في جميع الاقطار . واذا عدنا الى الماضي رأينا ان من بين حيطانها قد خرج ذلك الديك الفصيح الشاعر الياس صالح ، ومن على منبرهـا صالح في عهد الظلمة والاستبداد ـ ١٨٨٨ ـ .

لست عبداً أنا ولا أنت مولى أيهـا اللابس الحلى الذهبيـة

ثم سمعنا بعده الشاعر الآخر سليم عازر يمثل لنا مبادىء أمه وتربيتها بقوله :

لا خير فيمن ليس ذا ثقة من نفسه اسمعت يا نفسي ؟

كل هذه بذور صالحة ألقتها الجامعة الاميركية في حقل قوميتنا فحنت عليها راية النجوم تقيها لفحة الرمضاء . لا أستطيع ان أفتش عنها كلها في هذا المقال ولكنني أقول ان خواص هذه الذرية الطيبة تجمعت اليوم وتكتلت في كتاب

« الوعي القومي » الذي أخرجه الى العالم العربي استاذ ـ لا نغالي اذا قلنا انه نموذج الشباب الراقي ـ .

فكتابه هذا وليد بضع عشرات سنين تناوبت على الجامعة الاميركية في أطوارها العديدة ، من مدرسة تبشيرية ، الى كلية انجيلية ، الى جامعة اميركية ، وحسبها بهذا الاسم شرفاً ومجداً . فهو إذن عصارة فكرة موجات متعددة حبلت بها الأذهان فأنتجها الدكتور زريق سفراً جليلاً ألقى بها الى العالم العربي في نهزة موافقة ،فاستقبله بالحفاوة التي تليق به كما تستقبل كل رسالة سامية .فنحن اليوم أحوج الى الوعي القومي من كل شيء لأننا أمة بلا وعي .أو قل وعينا قليل جداً ، فاتحادنا نشأ عن فتوحات جبرية ألّفت مجموعنا الموقت ، فكان سريع الانحلال لأنه لم يكتسب الروح القومية .

قد تظنني استحلت بين ليلة وضحاها عالماً اجتماعياً ، لا يا مولاي ،فما انا منهم . هذا رأي لغوستاف ليبون في تكوّن الجماعات فحذار ان تنسبه لي . واسمح لي بالعود الى موضوعي لأقول بلا تحفظ : ان الجامعة الاميركية كانت أول موقظ للوعي القومي وما برحت . والوعي القومي لا يكون في ناحية واحدة من نواحي الثقافة ،وهذه النواحي كلها أبرزها للعالم تلامذة الجامعة الاميركية من الشميّل الى صروف ونمر وزيدان وغيرهم . فبارك الله في قسطنطين الذي فتح لنا هذه البوابة لنطل منها على مدينة العلم ، ونعرف الناس ، وهم يعرفون ، باسماء رجالها الذين كانوا قدوة حسنة ، والقدوة كبيرة معلمي الوعي القومي .

لا أظن ان مدرسة أخرى من مدارسنا أجنبية ووطنية عنيت بالتاريخ عناية الجامعة الاميركية به . فله فيها اساتذة اختصاصيون لا عمل لهم إلا درس تاريخنا والتأليف فيه ،لا نذكر لك إلا واحداً منهم هو الدكتور رستم الذي يستحق لقب الاستاذ في هذا الفن لتأليفه بل لاستنباطه كتابه الرائع «مصطلح التاريخ» الذي نحدثك عنه فيما بعد . أما الآن فنحن مع الدكتور زريق زميل رستم اليوم في تعليم التاريخ وتلميذه الأنبه أمس ما جرني الى ذكر التاريخ إلا كتاب الوعي القومي الذي لا يستطيع ان يصدره على حقه غير استاذ في التاريخ ، وأستاذ مفكر

كقسطنطين . فلدرس التاريخ ابعد أثر في تكوين الأمم والشعوب ، وفي تعلمه وتعليمه عبر وفوائد وتقويم اعوجاج وسد خلل... هذا اذا كان مدرّسه كحتّي ورستم وزريق فلا يعتمدون على الرواية والنقل : « حيث يلتقي البطلان كأنهما جبلان ويتنازل الفرسان اثنين اثنين ويحوم على رؤوسهم غراب البين » .

فدرس التاريخ النبيه لا بد له من ان ينتهي الى فلسفة اجتماعية كما انتهى الدكتور زريق في « الوعي القومي » .

« الوعي القومي » كتاب أخرجته «دار المكشوف» فيما أخرجت من طرف ونفائس ، فرحب به العالم العربي فنفدت طبعته الاولى فور صدوره وأعيد طبعه بعد بضعة اشهر وأظنه نفد ايضاً .

ان للكلمات حياة وموتاً . فكلمة الوعي واللاوعي قلقة مرحة ،وهي تسيل اليوم على اقلامنا كوثراً عذباً . رحم الله اسقف نجران القائل : ايها الناس اسمعوا « وعوا » ... وبعد أجيال تترى تخلع هذه الكلمة اكفانها وتنبعث فنحبّها ونعشقها . كثيراً ما أسمع الناس يقولون هذا حكي بلا وعي ، وكأني بقسطنطين قد رأى هذه الأمة تحكي بلا وعي فانبرى يعلمها كيف يجب ان تعتمد على عقلها الواعي فلا تسقط من على الجدران حيث تمشي بلا وعي .

فلندع هذا الى الفصل الآتي ، أما الآن فلننظر في صيغة الكتاب الفنية :

الكتاب كالرجل يستدل بصورته الخارجية على خفايا نفسه ومطاويها ،وكتاب «الوعي القومي» إن لم يكن أثراً فنياً بالقصد فهو أثر فني برغم صاحبه الذي لم يرده كذلك . وهذا الاستاذ على ثقافته الغربية العميقة ، وعلى تخرجه من جامعات أجنبية يلوح لي من أسلوبه في الوعي القومي انه ليس من رعايا الأجانب في أدبه وبيانه ، ولا يدفع الجزية لأميركا ولا للندن ، بل هو عربي تفكيراً وتعبيراً ، أي انه غير مديون بشيء ، تقريباً ، للغة التي توسل بها الى احراز درجاته العلمية الرفيعة . ولا خوف علي إن ذهبت الى أبعد من ذلك وقلت : انه غير مديون إلا بمقدار للتعابير العربية المعروفة ، ولا لتلك القوالب المألوفة ، فكثيراً ما أراه يتخلص منها مع انها في متناوله اذا شاء ، ولكنه يؤثر ان يعبر كما يحكي ونعم

العمل عمله ، فقد أراحنا من تلك الصور الهرمة الكزّة .

يثور قسطنطين إذ يرى محصولنا الأدبي يطغى على أسواقنا ، فيواجه التيار ليصده ،ولكن عبقريته الأدبية ترفع رأسها عندما يضطرم وجدان صاحبها فيتفجر حديثه تفجيراً فنياً ليس في التعبير فقط ، بل في الاخراج ايضاً ، وهاك المثل :

«في موقع ممتاز من الكرة الارضية ، وعلى ملتقى الطرق بين الشرق والغرب ، وفي وسط مجاري الثقافة والمدنية ، تحيا أمة قد تشربت عصارة ماضيها ،وتقبلت وحي تاريخها وأدركت كنه حاضرها ، وعرفت جوهر العالم الذي فيها والذي حولها ، وتطلعت الى مستقبلها بنظر ممدود ابداً الى الامام ، وقوة مستمدة من هدف منصوب وخطة مرسومة . أمة قد نالت الاستقلال فعرفت معنى الاستقلال واحرزت الوحدة فأدركت معنى غاية الوحدة . أمة قد اخترقتها أشعة الحرية فلم تقف عند المادة والجد ، بل أضاءت العقول وأثارت الارواح . أمة قد علمت ان السيادة الحقة هي سيادتها على نفسها الصادرة عن فهمها سبب وجودها وماهية كيانها . أمة قد امتلأت قلوب افرادها بإيمان كل حبة منه تنقل الجبال ، وعلى جبين رجالها ونسائها ضياء كل قبس منه يهدي الأجيال . أمة يكفينا في وصفها ان نقول : قد سرى في نفسها الوعي القومي الكامل . هذا ما نريد الأمة العربية ان تكون . بل هذا ما سوف تكون » (الوعي القومي ص٥٩) .

واليك نموذجاً آخر ، وما أكثرها في الوعي القومي ، فعند كل طغيان وجداني يقف الدكتور هذه المواقف الجياشة ، يهيب بأمته لتستيقظ :

« هذا الارتباط الوثيق بمثل أعلى ، هـــذه القوة التي تؤلف مدارك النفس ومشاعرها وتوجهها جميعاً الى غاية واحدة ، وتصهر كل ما ينبعث فيها من أهواء ورغبات في بوتقة الرغبة الوحيدة الكاملة التي لا تتبدل ولا تتزعزع ، هذه هي : العقيدة . أرأيت رجلاً يزدري ميوله الشخصية وأهواءه الفردية في سبيل ما يعتقد انه الحق ؟ أسمعت برجل يضحي بماله وراحته ـ بل بحياته ـ لنشر لواء الحرية والعدل ، أأدهشك شخص يحتقر جميع نعم الدنيا للعمل في خدمة بلاده ونهضة أمته ؟ هذا وذاك ، وذلك ، هم رجال العقيدة . هم قومة الله على أرضه وأوصياؤه

على شعبه . هم قبس النور العلوي يشع على النـــاس لينير الظلمات التي تكتنفهم ويهديهم سواء السبيل » (ص ٢٣٦) .

هذه شذرة من فصل « أزمة الروح » التي يبلغ فيها قسطنطين ذروة عاليـة جداً من ذرى الاخلاص ، وأخال وجدانه فيها وجدان نبي . فرّج الله أزمتنا وأزمتك يا قسطنطين .

ومع أن الدكتور هو أخو البيان الرائع الذي رأيته يقول في (ص ٤٩) أحد فصول كتابه : « وإن كنت أخشى شيئاً فهو هذا الطغيـان الأدبي الذي يسود حياتنا العقلية » .

أما أنا فأقول : كان الوعي القومي عندنا قصائد حماسية نطحن بها العـــالم طحناً .. ! ! فصار مع قسطنطين حكمة رائعة ، وفلسفة مطمئنة ، وثورة هادئة جارفة كنهر العاصي الذي أثر في ربيبه فطبعه بهذا الطابع الرصين . وكيفما دارت الحال بكتابه « الوعي القومي » فهو أثر أدبي رفيع يبحث في الاجتماع . وان نعى قسطنطين على قومه تفكيرهم المفكك المتقطع ، فهو في أثره هـذا لا يعدو ان يكون أديباً أصيلاً ، ولكن « تفكيره منظم » .

فالدكتور زريق أديب رغماً عنه ، كطبيب موليير وشتان ما بين اليزيدين في الندى ...

- ٢ -

أديل العرب من الفرس وانطفأت النـــار من ايوانهم فاستعربوا مكرهين . وأول ما حملوه في عهد عروبتهم تأريخ أيامهم وأمجادهم ليفاخروا بها أسيادهم العرب . ثم انتفض شاعرهم « الجاموس » يخور على شط العرب :

ألا أيها السائلي ، جاهـداً ، ليعرفني ، أنا أنف الكـرم
نمتْ في الكرام بني عامـر فروعي ، وأصلي قريش العجم

ثم انتفج في مقام آخر فاسمعنا :

وربّ ذي تاج كريم الجد كآل كسرى وكآل برد

هذا أول « وعي قومي » تنبه في ذلك الفرد فسرت العدوى الى الجماعة . ثم أسمعنا شاعر آخر :

ومن تميم ، ومن قيس ولفها ليس الاعاريب عند الله من أحد

وهكذا استحال وعي الشعوبية عثاً يأكل حواشي البساط العربي ، ثم ما انفك يقرضه حتى أتى عليه كله . لم ينفعنا الفتك بأبي مسلم ، ولا استئصال البرامكة ، ولا القضاء على ابن سهل ، لأن وعي تلك الدول المقهورة استيقظ بعد الكبت ، ففكك عرى ملك العرب وتفتق بمجادهم .

ان التاريخ معلم الشعوب ومن هذه الزاوية يطل الدكتور زريق على الوعي القومي ، فهو أستاذ التاريخ لحقبة في تاريخ الشرق كانت أشد الازم . فكأن كل ما كتبه وأذاعه هذا الأستاذ من تاريخ ابن الفرات الى تلك النبذة الطيبة « أمراء غسان» حتى كتاب اليزيدية ،رسالة نبيلة هدفها بعث روح القومية فينا،وتوجيهها في الطريق الأسد ، وتكوينها تكويناً علمياً بحيث تنطبق النتائج على المقدمات.

يرى الدكتور « اننا لا نزال مقصرين في حق الرسالة الفكرية واننا لم نتعود بعد ان نغذي عملنا الفكري بدم القلب وعصارة الروح» (ص٨) . وبكل اتضاع واتزان يعدُّ كتابه هذا « فصولاً متفرقة لا تستوعب جميع المسائل الأساسية التي تتصل بهذا الموضوع الخطير» (ص١٠). وككل امين من أفراد هذه الأمة آلمه ما رأى « من تشتت في الآراء والفكر ، ومن تصادم في النزعات والاهواء: «فكل منا يسير في وجهة ، وكل يتكلم بلسان ، وليس لنا موقف ثابت او رأي موحد إزاء هذا الاضطراب الهائل الذي يثور في العالم» (ص١٢) . وعنده: «ان حياتنا كلها تتوقف على ما نصيب من رأي جامـع ، وفكرة قوية واضحة لا تبقى في أذهاننا فحسب ، بل تتعمق الى صميم نفوسنا» (ص١٣). وآفتنا: «ان حظنا من الثقافة لا يزال في غاية الضآلة(ص١٤) فنحن في أزمتين اقتصادية وثقافية».ونحن أشد حاجة الى « وجوب الاسراع في معالجة مشكلتنا القومية ، والانصباب على البحث المنظم في مسائل حياتنا الأساسية لنصل بها الى العقيدة الموحدة الواضحة التي عليها ـ وعليها وحدها ـ يقام العمل المنظم لبناء الأمة وانهاض البلاد» (ص١٥).

فكل ما ينشده الدكتور في الوعي القومي هو العقيدة ، ويرى في العقيدة ، اللهم الصادقة ، كل خير وبركة لهذه الأمة .

وما هذه العقيدة يا ترى ؟ اني أرى اسم «الهدف» ألبق بها فتكون أقرب الى افهامنا جميعاً ، ثم لا تلتبس بغيرها ...

هذا ما يعنيه الدكتور ، وآفتنا نحن العرب ، ان لكل معشر منها هدفاً ، ومتى تعددت الأهداف تفرقت القوى المنصبة عليها فلا يدرك واحد منها،وهذا بلاؤنا الأكبر .

ولخص المؤلف،في مقدمة الطبعة الأولى،أركان كتابه، فاذا هي هذا المثلث : الفلسفة القومية ، والعقيدة القومية ، والتنظيم . وقد حدّده بقوله : « وانما هي نظرات القيتها على حياتنا القومية ، ثم لممتها وجمعتها بين دفتي كتاب »(ص٢٧).

انها لكذلك ، ولكنها نظرات نافذة لا تقصر عن أشعة اكس إلا قليلاً ... فمن هذه المقالة وتلك وهاتيك تتألف وحدة تامة ، فتداعي المعاني وتسلسلها وترابطها يؤهل مقالاته هذه لتحمل بكل جدارة اسم كتاب ، بل قل« كتاب الأمة» لمن يقرأ ويعي . ففيها «التفكير المنظم» والتناسق اللذان هما ضالة أديبنا المفكر التي ينشدها لأمته، ليستقيم وعيها القومي الذي هو : «فهم صحيح لماضي الأمة التي تحدرت منه شخصيتها ، وتقدير متزن لقوى الحاضر وعوامله، وايمان متين بهدف الغد ورسالة المستقبل » (ص ٥٦) .

ويصور الدكتور رسالتنا الماضية الكبرى،ثم يعتقد أن ستكون مثلها رسالة العرب المستقبلة،أي : «أن يتشربوا علم الغرب ويجمعوا اليه العناصر المختلفة التي تنشأ في الغرب والشرق كرد فعل له ، ويؤلفوا بينها كلها في وحدة جديدة تكون عنوان الحياة المقبلة ويفيض بها العرب على العالم كما فاضوا عليه بمدنيتهم الباهرة في القرون الماضية » (ص ٥٥) .

قلت : وبالله نستعين ، قد عودنا جلّ جلاله ان يكون معنا ، فلنسأله ، كروزفلت ، ظهراً قوياً . غير أنني أميل الى كلمة الأستاذ التي تليها وهي : « فحسبنا ان نعتقد ان لنا رسالة ما» (ص ٥٥) .

ولا يحصر المؤلف ايقاظ الوعي القومي بفئة دون أُخرى ، فليس هو من اختصاص قادة السياسة وأرباب الحكم فمجال العمل مفتوح لكل فرد، وبخاصة

المرأة . ولكن الدكتور يقف عند باب خدر المرأة العربية ولا يدخله تأدباً ... فيبحث تقصيرها في هذا الحقل بكل تؤدة ، كأنه يخاف ان تفلت منه كلمة ، فلا يلتام ما جرح اللسان ..

ذكرني وقوفي عند فصل « المرأة العربية في الحياة القومية » بصديقي ا. ل. أراد أن يكتب تاريخ الدولة العثمانيـــة . قلت له : وكيف تتخلص يا بك من انكساراتها ومن ومن ... فقال سأجعل عنوان تاريخي : انتصارات الدولة ، ثم فعل ، ولكن خاتمة الحرب الاولى خنقت ذلك الطفل في المهد .

وعالج الدكتور «التربية القومية» فأبدى آراء طيبة لا تستقيم لنا قومية بدونها وانحى على التربية الطائفية ، ذلك البرص الذي لا برء منه ، معتمداً على قول شارل مريام الذي يرى التربية القومية أجلّ أعمال القادة والعلماء الذين يبنون أمم المستقبل.

وبحث الدكتور موضوع «القومية والجنس» بحثاً علمياً يكاد يكون بكتريولوجياً ، فأظهر ان العرب والفينيقيين هم سلالة واحدة . وقد جعل « على هامش الدعوة الفينيقية في لبنان » عنواناً صغيراً لمقاله هذا. فعجبت جداً لاهتمام الدكتور بما لا يدرك ، ودهشت لخصه لبنان العربي بهذه الدعوة التي حلم بها نفر يزمرون للجالس سعيداً ، ويكسرون الجرة خلف المولّي ... فأين هم دعاة الفينيقية في لبنان ؟ وهل للفينيقية عندنا من أثر إلا في شعر من تغزلوا بالزهرة وأدونيس كما فعـــل شكسبير ولافونتين قبلهم ؟ واذا كان فينا نفر ممن غنوا هذا «الموّال» أيعني هذا ان لبنان يتخلى عن عروبته ، وله فيها ذلك المقام المرموق والتراث الذي يفاخر به كل ناطق بالضاد؟ ان نظر بعضنا الى ماضي فينيقية فكمن ينظر الى قلعة قديمة في قريته ، ولكن داره التي يعيش فيها هي غير تلك . ولماذا اختار الدكتور فينيقية لبنان ولم يذكر فرعونية مصر ، مع ان لتلك أنصاراً أعظم خطراً . ان المتفينقين منا لا يفهمون ما الدم ، ولا الجنس ، ولا الرأس المستطيل والمدور والمسطح والمقعر . هم فينا كأولئك الذين لا يسمون الرجل عربياً إلا اذا استوعب جميع المقومات التي يفرضونها . أما اذا كان قد استعرب منذ الف سنة ولم تجتمع فيه شروطهم فهو غير عربي . مع ان النبي العظيم الذي هو مجدنا وفخرنا من العرب

المستعربة ... فهؤلاء وأولئك عندي هم الذين جنوا ويجنون على قوميتنا .

ان من يقيم في اميركا خمس سنين يتأمرك ويصير منتخِباً ومنتخَباً، أما عندنا فيظل غير عربي الى ما شاء الله . وهذه جناية كبرى نرتكبها ونحسب اننا لم نأتِ أمراً فرياً . وهذا التفريق الذي رافق العقلية منذ عهد بني أمية هو الذي فسخ جسم هذه الأمة . والعرب والمستعربون ـ لا المتفينقون ـ يعرفون ان كلمة الشعوبية كانت أول شقّ في جدار الأمة العربية . فبعض العرب هم الذين دانوا بهذه الفكرة فأثموا وجنوا، في حين ان الدين سوّى بين الجميع . وهم لو ضحكوا على ذقون المستعمرين لضموهم اليهم راضين . فما كان ضرهم لو خلعوا عليهم العروبة واجتذبوهم الى صفوفهم ؟

ان ما بنته الأجيال لا نستطيع نحن ان نهدمـــه . فالعربي ، ـ وكلنا ذاك الرجل ـ يعتقد ان دمه صنع خصيصاً له دون سواه من البشر . اسمع كلام الجاحظ: « وأشد سرفـــاً منه قول ابي بكر الشيباني قال : كنت أسيراً مع بني عم لي من بني شيبان ـ وفينا من موالينا جماعـــة ـ في أيدي التغالبة . فضربوا أعناق بني عمي وأعنـــاق الموالي على وهدة من الارض فكنت ، والذي لا اله إلا هو ، أرى دم العربي يمتاز من دم الموالي حتى أرى بياض الأرض بينهما . فاذا كان هجيناً قام فوقه ولم يعتزل » (كتاب العصا ص ٣٠) .

الى أمثال هذا فلتسدَ النصائح . فاللبناني يفاخر بلغته وقد حملها الى هجرته العالمية وأذاعها في جميع بلاد الله . ونحن ، بعد ، غير مسؤولين عن البدع .

ويتمشى الدكتور فيعرج على «العمل القومي والمشاريع الاجتماعية» فيحدثنا عن مشروع انعاش القرى الذي نهض باعبائه فريق من شباب الجامعة الاميركية المثقف ، فربط بين الشباب والناس على اختلاف الملل والنحل . وينتقل الى القومية العربية والدين، فالى التراث الثقافي العربي، وما يجب علينا لحفظه واحيائه، ويحث الناس على حفظ المخطوطات القديمة، ولكن بعد ذهاب الوقت وتسربها الى مكاتب العالم هنا وهناك ، فكل ما كان في ديورتنا اصبح في غير حوزتنا، حتى حجارة كنائسنا الأثرية وعتبات ابوابها التاريخية سلخت من بنيانها منذ عشرات السنين.

وفي «احياء ثقافتنا» يحث الاستاذ أدباءنا الملهمين « ليتقلوها الى أبناء العربية بلغة هذا العصر وأساليبه وطريقة تفكيره » وهذا في نظري تمويت لا إحياء . كما فعلت فئة من أدباء مصر وغيرهم فسلخوا ومسخوا وشوهوا .

وفي فصل «ضآلة ثقافتنا العلمية» يرى الاستاذ،ورأيه حق،ان ثقافتنا العلمية ضئيلة، ويهيب بنا لنقبل عليها . ولكني ألتفت فأرى سلسلة العلوم الشرقية التي أصدرتها الجامعة الاميركية أكثرها أدبي . وعلى الضد كان الأمر في عهد فنديك أي في فجر حياة الجامعة عندنا . وما حدثت تلك الثورة الشهيرة وانتهت بتخلي فنديك عن منصبه إلا لهذا السبب . أما اقبالنا على الادب وأكلنا منه حتى البشم فكما وصفه الدكتور ، وهذا بعض ما قال :

«فلا يكاد يخرج الطالب الأدبي من مدرسته حتى يهرع الى الصحف والمجلات يتحفها ببنات أفكاره الفجة ، فتنشرها له هذه المجلات وتزيد بذلك غروره ، وغرور أمثاله من الذين يعتقدون ان الادب مطية سهلة ، وان مجال البحث متسع لمن شاء ، هذا مع ان الابحاث الادبية هي في الحق أشد دقة ويجب ان تكون أبعد منالاً من الابحاث العلمية » (راجع الكتاب ص ١٦٧) .

وينتقل بنا الأستاذ الى فصل«الأدب التوجيهي وحاجتنا اليه »وقد ظن بعض من نظروا في كتاب «الوعي القومي» ان الادب التوجيهي شيء لم يكن من قبل، مع ان أسلافنا في أواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن كانت كتاباتهم من هذا النوع ـ أدب المقالات ـ ولم يسموها بهذا الاسم .

ألا يشبه هذا ذاك الشامي ـ بلغة المصريين ـ الذي قرأ في بيان مطعم بالقاهرة: بطاطا بقميص النوم ، فأعجبه الاسم ، أمـــا المسمّى فكان مأكوله اليومي : بطاطا مسلوقة .

غير أن قسطنطين يريد،وهذا شعاره في الوعي القومي،ان تكون جميع أبحاث أدبنا التوجيهي عميقة منظمة ،وهذا ما ينقصنا في كل فن ومطلب ،وما أجمل قوله: «ان عصرنا عصر أزمة فكرية وضيق عقلي.وكما انه لا يسمح للناس في زمن الأزمة المالية ان يبذروا اموالهم في سبيل شهواتهم الخاصة ، وأمورهم التافهة ، كذلك

يجب ان لا يسمح لقادة الفكر في عصر الضيق العقلي والازمة الفكرية انيبددوا قواهم في المسائل الطفيفة والابحاث الجزئية » (ص ١٧٧) .

قلت وهذه « اعاشة » جديدة يفرضها الدكتـور في الفنون ، أراحنا الله من التقنين المادي والعقلي .

أما فصل «الثقافة الصحيحة وعناصرها» فجدير بأن نقرأه جميعاً ونتعلم منه درساً مفيداً . والدكتور يريد الثقافـــة للحق والخير والجمال ، ويتمثل بقول الغزالي : طلبنا العلم لغير الله ، فأبى ان يكون إلا لله .

وعلى ذكر الغزالي أقول انني لحت في «الوعي القومي» عنصراً فلسفياً عربياً في التعبير كالاشراق والفيض وغير ذلك فلا غرو ان اراد الثقـافة للحق والخير ، فاخلاصه لما يكتب ويعلم يجيز لنا ان نلقبه برجل العقيدة . وحسبك ان تقرأ « أزمة الروح » لتعلم انك تجاه رجل العقيدة و « الجهاد الاكبر » المتقد ايمانــاً واخلاصاً وصدقاً حتى يبلغ في «القومية» ما بلغ الصوفيون في حب الله. فيقول: «والرجل الأمثل هو الذي يشمل عالمه الكون بأسره والبشر بكاملهم» (ص ٢٢١) .

انا لا أفكر تفكيراً منظماً ولا فلسفياً ، ومع ذلك يجوز لي ان أقول انهذا الشمول ينافي الوعي القومي ، ويحق لنا ان نسميه وعياً عالمياً . والدكتور في « أزمة الروح » طبيب روحاني يبنّج بالايحاء فلا تنتهي من قراءة مقاله هذا إلا وأنت بريء من جميع العاهات القومية ، والامراض العارضة ، وقد رصّعه بكلمة رسول الأمم : ان كنت أتكلم بألسنة النـاس والملائكة ولكن ليس لي محبة فقد صرت نحاساً يطن او صنجاً يرن (٢٢٩) .

الكلام لبولس ولا أدري لماذا لم ينسبه الدكتور اليه بل قال : وقديماً قيل في الكتب . ومثل هذا فعل حين أخذ : تعرفون الحق والحق يحرركم .

اسمع قوله في ختام « أزمة الروح » :

« ما اكثر من ستعلو شفاههم ابتسامة الشك والهزء عند قراءتهم هذا الفصل ومتابعتهم حديث « الأزمة الروحية » لاعتقادهم ان معضلة أمتهم الكبرى هي المشكلة السياسية أو الأزمة الاقتصادية ، وان المادة هي أساس الحياة وان

الحديث عن النفس والروح ضرب من العبث او نوع من الهراء » (ص٢٣٠) .

لا والله ، ما يقول ذلك إلا السطحيون منا. فالمسيح ومحمد كانا فقيرين، وكل عباقرة العالم كذلك ، فقل ما شئت في «أزمة الروح». انما نحن بلاء أنفسنا لأننا ناس بلا محبة . الويل لكتابك يا أخي من الذين لا يقرأون ما بين السطور ، فما « أزمة الروح» فصلاً او مقالاً إن هي إلا « سفر » بمعناه المعروف في الكتاب المقدس .

وفي فصل « الجهاد الاكبر » تظهر لنا خصائص هذا الاديب الكبير المبنية على علم النفس وهو ايضاً فصل نفيس يبحث الاخلاق بحثاً جليلاً ، وان اراد الاستاذ فيه الرجل العربي كالساعة تؤدة بينا هو مخلوق كالعاصفة .

وبكلمة واحدة ان الدكتور زريق ينشد «التفكير المنظم» والتفكير المنظم قوام كتابه هذا . ولا أسرف ان قلت انه خير كتاب ينفع الأمة ولعله الحجر الاول في هذا البنيان ، وكيف لا يخرج أثر نفيس كهذا من بين يدي اديب مثقف وكاتب هادىء تجمعت في شخصيته الفذة قوى المنطق وعلم النفس والفلسفة ، فانتظم تفكيره واتسق ،وتساوت فيه قوى المرء الثلاث: العقل والوجدان والارادة.

ولئن طلب منا في «مقال ازمة الروح» ما طلبه يسوع فلا بأس عليه . ليت الأمم تعلم ، كما قال فولتير : ان هذه الفوارق التي لا تنتظر لا يجب ان تكون سبب البغض والجور .

مصطلح التاريخ

لأسد رستم

منذ بضع عشرة سنة رأيت الدكتور اسد رستم اول مرة . كان ذلـــك في «عبرة» التي فوق صيدا ، وكانت شهرة رستم في أول هبوبها، فقلت عند التعارف تلك العبارة المبتذلة : أشهر من ان يعرف . فبادهني بقوله : ان سوريا مجوَّفة . فذكرني الجاحظ والذي أجابه : هذا شعر لو نقر لطن . وكان حديث لم يخل من الملح البريئة .

هيكل رستم الركين ينم عن خصال مؤهـلة للتمحيص العنيف ، وفي حديثه نبرات كتلك التي يعبر بها المطرب عن فنه الرفيـع . واذا كان النبوغ يحتاج الى صبر وجلد ، بله الذكاء وبعد النظر ، فقد أبدى رستم كل هذا فيما حقق ونشر من «اصول تاريخية». اما كتابه «مصطلح التاريخ» فيجعله بحق استاذ التاريخ العلمي عند العرب ، وقد تجاوز صداه سوريا المجوفة فملأ الأمصار الاخرى .

مصطلح التاريخ او علم الميتودولوجيا علم وضـع للتثبت من الحقائق التاريخية وايضاحها وعرضها . استنبطه العلّامة برنهايم المؤرخ الألماني في النصف الثاني من القرن المنصرم. ثم سار على خطاه العلامتان لانجلو وسنيوبوس الفرنسيّـان ، وعلى هذين اعتمد رستم ، ولم يشر الى هذاك . امـا الذين ألفوا في هذا العلم بأميركا وانكلترا فقد قدموا كتبهم لذكرى برنهايم ابي الميتودولوجيا .

ان للعربية الفخر بظهور زميل لهؤلاء النوابغ فيها . اننا لم نقصر في مضمار التاريخ القديم وها نحن اليوم نجول في حلبة التاريخ الحديث بلسان عربي مبين .

وهذه مناسبة ثالثة او رابعة تحملنا على تجميم كيل الثناء للجامعة الاميركية .

التي أظلت الدكتور رستم وكشفت عن عبقريته، ففيها درس هذا العلم على أحدث اساليبه، وفيها يتبوأ اليوم كرسي علم الميتودولوجيا الذي ألف فيه كتابه هذا، فجاء شرقياً غربياً أحل صاحبه في التاريخ محل سيبويه من النحاة. فقبل ان يخرج رستم كتاب «مصطلح التاريخ» مطبوعاً على الورق طبعه في أذهان شباب سيكونون من مفاخر الأقطار العربية . وهـــذا فضل آخر نسجله للجامعة التي لا يجاريها معهد في هذا المضمار .

حدثني صديقي الاستاذ يوسف صوراتي استاذ اللغة الانكليزية والتاريخ عندنا، ان استاذه الدكتور رستم يؤمن بالاختصاص، وخصوصاً الضيق النطاق، وهو من الحاضين عليه، ولهذا جعل همه درس دور تاريخي خطير من أدوار تاريخ سوريا — دور الفتح المصري للبلاد الشامية — انهـا حقبة قصيرة من الزمن ولكن اخراج «الاصول العربية لتاريخ سوريا على عهد محمد علي باشا» في خمس مجلدات، اقتضى الاستاذ ألف مرحلة فلم تبق في القطرين مكتبة، خاصة او عامـة، كبرى أو صغرى، لم يشق رستم غبارها .

لقد نشر الدكتور رستم اكثر مما ألف، والأحجام عن التأليف التاريخي قبل توفر الاصول وتحريها هو من الفضائل النادرة بين المؤرخين وأخص الشرقيين منهم .

من مطالعة توطئة «مصطلح التاريخ» يبدو لنا ان مخيلة المؤلف حبلت بهذا الطفل الميمون مئة وثلاثة وخمسين شهراً . ثم خشي أن يجيء «طرحاً فتريث في الأمر «فبدأ بتدريس هذا الموضوع بلغة أجنبية ريثما تتوفر لديه الأمثلة التاريخية المحلية والاصطلاحات العربية الفنية فاضطر الى ان يرجع الى مصطلح الحديث الشريف لسببين : أولها الاستعانة باصطلاحات المحدثين، والثاني ربط ما يضعه لأول مرة في اللغة العربية بما سبق تأليفه في عصور المحدثين » .

لا يدعي رستم انه مبدع هذا العلم كما رأيت، اما نحن فندعي أن هذا المؤرخ الكبير أبدع كل الابـداع بوصله حاضرنا بماضينا، فأرانا ان علماء الحديث نهجوا نهج برنهايم ومدرسته . نبش عن منتوجات تلك الادمغة التي كان يحدوها الايمان ويزجيها اليقين، مطابقاً بين العملين بما توج به كتابه النفيس: الحديث علم ودراية،

والتاريخ علم ودراية . ففي كتاب رستم جدة وابداع : جدة اذ وضع لنا أصول علم طريف، والابداع في احياء فن عرفه علماؤنا القدماء قبل علماء التاريخ المعاصرين. ناهيك بما في الكتاب من أمثلة محلية كثيرة جعلها الاستاذ الكبير كتمارين للمؤرخ المستجد. ولو كان رستم يؤثر الراحة على الافادة والاتقان لاكتفى بترجمة الأمثلة التاريخية الواردة في الكتب التي يعلمها حتى حفظها كالماء الجاري .

تعودنا أن نلخص ما ننقد حتى القصص فكيف بنا ونحن ندرس كتاباً هـو الأول من طرازه بل من نوعه في مكتبتنا العربيـــة ، هو الابن البكر للتاريخ الحديث . ففي كلمة المؤلف يلمح الى قصر باع اكثر مؤرخينا الشرقيين في هــذا العلم ، والى زعمهم الخاطىء « ان كتابــة التاريخ لا تتعدى نقل الرواية والالمام بقواعد اللغة » .

قلت هكذا علمتهم مدارسهم التي تؤثر دائماً الفصاحة على العلم، فتعهد بتدريس التاريخ وغيره الى المتفيقهين وذوي الالمـام . كنت أتمنى على المؤلف ان يكتب لنا تاريخ المتيودولوجيا وآثار اقطابها العالميين الذين أصبح هـــو أحدهم بكل فخر ، ولكنه تنصل من هـــذه التبعة زاعماً ان كتابه هذا رسالة . وكم أضاع تواضع العلماء من فائدة . فمم يشكو كتابه ؟ ان صفحاته فوق المئتين من القطـع الوسط والكبير .

فبناء على ما يعلمنا رستم لا بد للمؤرخ ان يلج احـد عشر باباً أولها :

التقميش : والتقميش كلمة من اصطلاح المحدثين قالهـــا ابو حاتم الرازي ومعناها جمع المواد . قلت الم يكن الله سبحانـه وتعالى اول من قمّش ؟ من قرأ الفصل الأول من سفر التكوين يعلم انه ، جـل وعـلا ، فكر في خلق شيء على صورته ومثاله ، واذ لم يكن له ما يقمشه قال للمواد كوني فكانت ، ثم ابدعه من اتقه ما خلق ، من التراب ...

فالتقميش جمع الاصول التاريخية كلها «واذا ضاعت الاصول ضاع التاريخ معها. والحقيقة هي الحقيقة كلها» ومن هذا الباب يطل رستم على العالم العربي فيحث على التقميش ليس في العلوم التاريخية وحدها بل في كل فن ومطلب . فهل لادبائنا

الذين يعنينا أمرهم ان يقمشوا ليزفوا الى دنيا الفن عرائس مزينة ؟

العلوم الموصلة : وهي مـا على المؤرخ ان يعرفه ليحقق الاصول والمصادر ويفهمها . اولها اللغة او اللغات، وخصوصاً معاني الكلمات التي تتحول معانيها على الصور من معنى الى معنى ، ثم اجادة قراءة الخطوط والخبرة بأنواع الحبر والورق وما اليه ، ليستطيع نقد الاصول والمصادر ويميز زيفها من جيدها .

نقد الاصول : لا تثق «بالاصول» ثقة عمياء ، ولا تركن اليها ، لاتثق بكل احد ولا تصدق كلما تقرأ ، وقد ضرب للقارىء مثلاً تحقيقه «الوثيقة الذذدارية» ثم بحث تحقيق الاصول بحثاً علمياً وأشار بما يجب عمله اذا ضاع الاصل وبقيت نسخة واحدة او نسخ متعددة .

تنظيم العمل : يصف الاستاذ افضل الخطط لاستخلاص المعلومات مـن الاصول ، وذلك بتدوين النص او ملخصه على أوراق متفرقة لا على دفاتر ليزيد عليها ما شاء ، وترتب ترتيباً أبجدياً ليرجع اليها بسهولة .

تفسير النص : يشير باتباع الطرق التي اتبعها علماء التفسير ، وهي التي يتبعها اليوم المؤرخون المعاصرون ، «ان يعمد الى تفسير القرآن بالقرآن ، فان اعياه ذلك فعليه بالسنّة ، فإذا لم يجد التفسير في احدهما فعليه ان يرجـع في ذلك الى اقوال الصحابة» أي أن يعمد المؤرخ المستجد الى تفسير النص بالنص عينه ، وان اعياه ذلك فعليه بكتب المؤلف والا فليعد الى اقوال زملائه المعاصرين .

العدالة والضبط : ان امانـة المؤلف وتجرده عن الهوى لا يكفيان للأخذ بروايته ، فان كان شاهداً عيانياً فقد تخدعه حواسه . ثم ضرب مثلاً على خداع الحواس ، حادثة طريفة جرت ، او اجريت في الصف عندما كان يدرس علم النفس ، فكانت حواس جميع التلاميذ مخدوعة . وهناك امور كثيرة لا بد منها سنناقش بعضها في آخر هذا المقال .

الحقائق المفردة : أنقبل رواية الراوي بعـد التثبت من عدالته وضبطه ، الجواب لا . يحذر المؤلف مـن اعتبار رواية انفرد بها راوٍ واحد مهما بلغ من العدالة والأمانة ، ومهما توفرت لديه شروط المشاهدة العلمية ، وقد تتوافق الروايات

فلا يطمئن اليها المؤلف، ويمثل على ذلك بتزوير الخط «فحيث ينطبق امضاء معترض عليه، من جميع نواحيه وفي جميع دقائقه، على امضاء معترف به، يرجح وقوع التزوير».

الربط والتأليف : هنا تنتهي مرحلة الجمع والنقد ويبدأ التأليف . افتتح المؤلف هذا الفصل بالمقابلة بين حقائق التاريخ وحقائق العلوم الطبيعية . فحقائق التاريخ مبنية غالباً على رواية الآخرين ، وحقائق علم الطبيعة تقوم على الملاحظة المباشرة . الحقائق العلمية متجانسة متآلفة يسهل ربطها وتأليفها ، وبضد ذلك حقائق التاريخ . الحقائق العلمية ذات صفة عامة ، وهي لا تختص بزمان ومكان معينين ويستطاع اجراؤها في المختبر بينما الحقائق التاريخية تتعلق بزمان ومكان معينين يصعب ارجاعها . لا دوافع نفسية في العلوم الطبيعية وهي ذات شأن عظيم في المسائل الاجتماعية . هنا منبع العقبات التي تعترض طريق المؤرخ الى الربط والتأليف ، فيشير بالتمسك بالحقائق المفردة على أساس علاقتها بالحاضر . فما يعيننا على فهم الحاضر هو أهم بكثير من غيره ، اذ القصد من درس التاريخ انما هو فهم الحاضر واعداد العدّة للمستقبل .

ثم يشير الى تأثير فلسفة المؤرخ في انتقائه للحقائق اذ يختارها مستنيراً بفلسفته في الحياة ولو كان الدكتور يحدثنا بغير لغة العلماء لقال حسب ميله وهواه ...

الاجتهاد : قد تتوافر الحقائق المفردة في ناحية من نواحي الماضي ، وتنعدم من الناحية الاخرى فيتلافى المؤرخ باجتهاده ما قد يقع من فراغ . وفي هذا الفصل يعرف المؤلف الاجتهاد ويجعله قسمين : الاجتهاد السلبي — او السكوت حجة — والاجتهاد الايجابي . وبعد وصفهما يدلي بمثل على الاجتهاد السلبي فمثله هو : يقال ان المتوكل على الله آخر الخلفاء تنازل عن حقوقه للسلطان سليم . اثارت هذه القضية اهتمام الدكتور رستم على اثر خلع آل عثمان واعلان الجمهورية التركية ، فراجع التواريخ العربية والروايات التركية عن الفتح العثماني لمصر فلم يجد لهذا التخلي أثراً . وهنا يتساءل المؤلف هل لنا ان ننفي تخلي الخليفة العباسي عن الخلافة متخذين سكوت الاصول التاريخية حجة على ذلك ؟

قلت : ولعلها أول مرة ينفي فيها رأياً من آراء علماء الحديث .

التعليل والايضاح : يقول المؤلف انه اذا عالل المؤرخ وأوضح اسباب ما يروي تخطى من التاريخ الى فلسفته ، وعليه هنا ان يتبع طريقة علماء الطبيعة ، فيوضح بعض الحقائق بحقائق اخرى . ثم لا بد من الالتجاء الى الفلسفة اذا ما اردنا ان نقف على اسرار الحياة البشرية في الماضي . ومؤرخ من هـــذا الطراز لا بد له من اتقان الفلسفة والعلوم الاجتماعية والجغرافيا وعلم النفس ، ليوضح ويعلل على هدى .

قلت : وهل لنا أن نزيـــد درس الأرض التي تقلنا وتغذينا؟ فالانسان وليد وطنه ، وهذا مذهب ميشيله في الأسباب الطبيعية التي تكوّن الانسان .

العرض : اما عرض ما قمّشه المؤرخ وجمعه بعدما حلله وحققه ونسقه ونظمه وعلله واوضحه فله طريقتان : خاصة وعامة . فحين يكتب للخاصة ، أي للزملاء ، فلتكن رسالته وحدة تامة المعنى ، مرتبطة الأجزاء ، جيدة الكتابة . اما مايكتب للجمهور فهو كما يكتب للخاصة من حيث صحة القول وسلامة الاستنتاج ، والفرق بينهما ان هذه تعرض عرضاً واضحاً جداً لتقرب من افهامهم . ويحث على العرض بصورة جذابـة ترغب القارىء في الاستطلاع ، ويخص الاسلوب الشائق بالثناء منددا ببعض المحدثين مـن العلماء الذين كادوا يذهبون الى ان شروط الطريقة العلمية في البحث ان لا يعمد المؤلف الى الأساليب الشيقة في عرض الحقائق ، كأنهم يزعمون ان العلم يتنافى معها . والواقع أنه بإمـكان العالم أن يكون دقيقاً في كلامه واستنتاجه ، وجذاباً في اسلوبه وعرضه في آن واحد «ومن يدري فلعل الدافع عنـد هؤلاء الى مثل هذه الأحكام هو ضعفهم في الأداء وعدم تمكنهم من ناصية اللغة ، وقصورهم عن إيجاد التعابير الشيقة» .

قلت : مثل الذين أومأ اليهم الدكتور من المؤرخين مثل بعض الشعراء الذين يفرضون على الناس اصولاً تنطبق على أساليبهم . قصّر العقاد مثلاً في الاسلوب ، فأخذ والمازني يؤلهان ابن الرومي وشاعريته .

ثم قال : «فواجب المؤرخ إذن ان يجيد اللغة التي يصطنعها لتدوين حقائقه وعرضها بحيث لا تعوزه معرفة قواعد اللغة ومفرداتها وبيانها واساليبها ، وعليه ان

يتقن فن الرواية ، وقص القصص في اللغة التي يكتب بها حتى إذا قص أخباره وقعت موقعاً حسناً في قلوب القراء» .

فمرحى وألف مرحى لاستاذ التاريخ الحديث في العالم العربي ، ويا لها دعوة سامية لتطور التاريخ الجاف . اني أؤيد فكرته هذه، وهل عاب الاصبهاني اسلوبه البديع ، وهل قدحت فصاحته في صحة روايته ؟

هذا ما يتمناه على المؤرخ «المؤلف» ، واما المؤرخ «الناشر» فيقول له «فحيث يظفر المؤرخ بالاصل بخط واضعه ، او بتصديقه ، عليه أن يبقيه كما هو بحروفه وغلطاته . فكم وكم من الاصطلاحات العامية تفقد قوتها أو ضعفها عندما تبدل بما يفتكره الناشر مقابلاً لها باللغة الفصحى» (ص ٤٧) . انه يشير بترك التاريخ المنشور كالعاديات لا صقل ولا جلاء، وهكذا فعل الدكتور زريق حين نشر تاريخ ابن الفرات ، واليزيدية قديماً وحديثاً .

ان «التاريخ علم في تحريه الحقيقة ، وكعلم يطلب الحقيقة كما هي لا كما يجب أن تكون.» وان قال بجعله قصة طلية مشوقة ،فهو يريد تلك القصة كما وقعت ، لا كما يكونها القصصي تكويناً فنياً .

اما الفلسفة فيعدها من العلوم الموصلة في التأليف لا في النشر ، وقد أغلى في اطرائها حتى نقل عبارة المؤرخ الطلياني: التاريخ هو الفلسفة والفلسفة هي التاريخ.

هذا عرض كتاب «مصطلح التاريخ» وان صدقنا فلنقل مسخه . الكتاب طريف حقاً، بل هو نجمة الصبح في فجر هذه النهضة ، استنارت بهديه ثلاث عواصم : بيروت والقاهرة وبغداد . ولو كانت لغة العرب عالمية كغيرها لقلنا فيه مقال المتنبي في أميره الحمداني : وتفتخر الدنيا به لا العواصم . أما اسلوب الكتاب فناصع لا غبار عليه ، ولا تضيره بضع عبارات جرت على قلم الدكتور اقتباساً من الوف الوثائق التاريخية المكتوبة في القرن المنصرم ، كقوله : ويتضح مما تقدم ذكره اعلاه ، وكقوله : تجاه أمر واقع . وكقوله أيضاً : من حيث النوع او الموضوع ، أو الاثنين معاً .

أما من حيث التأليف فلا نستدرك عليه الا الافاضة في أخبار علماء الحديث

افاضة نشعر معها اننا ضللنا السبيل،فهو يقص علينا مثل : «وقدشرط في العدالة التوقي عن بعض المباحثات القادحة في المروءة نحو الاكل في الطريق ، والبول في الشارع ، وصحبة الارذال، والافراط في المزاح» (ص١٠٤) . لست أظن ترك هذا التزمت يقدح اليوم في مروءة أحد ، فشعار اليوم : الوقت ذهب ،واضحك يضحك لك العالم .

إن قوة تداعي المعاني، وهي عند علماء النفس من سمات النبوغ،ملموسة عند رستم ، وبهذه الخاصية وصل قديمنا بجديد عصرنا الطريف ، اخذ هذين البيتين :

فما كتب التاريخ في كل ما روت   لقرائهـــا الا حديث ملفق
نظرنا لامـــر الحاضرين فرابنا   فكيف بأمر الغابرين نصدق؟

ثم دار حول هذا الشاعر الهازىء فأحال سخريته حقيقة علمية اذ قال :وقد قال علماء التاريخ : شك المؤرخ رائد حكمته . وقالوا : الأصـــل في التاريخ الاتهام لا براءة الذمة (ص ٨٧) . رحم الله ديكارت .

وفي باب العدالة والضبط أيضاً ، وهو اضخم أبواب الكتاب ، سرد قواعد جليلة بعضها مبني على علم النفس . وفي هـــذا المعترك الحامي تكثر الشروط ، فللمؤلف منها ستة يختمها بهـذه العبارة «فكلما ازداد الراوي ابداعاً في اسلوبه الأدبي ازددنا شكاً في عدله وقل اطمئناننا اليه» (ص ٩٤) .

لست اخالهذا ينقض ما دعا اليه في آخر كتابه، أي الى الاسلوب الجذاب. فرب شاهد بالزور تمكن لتقبل شهادته ، ورب رجل طعنت فصاحته في صدقه وهو لم يقل الا الحق .

وتلي شروط المؤلف في العدالة والضبط شروط اخرى عديدة وضعها المؤرخ الفرنسي لانجلو ، ثم يعقبها صفحات مـن آراء علماء الحديث وأطولها ما قاله ابن الصلاح . ويختتم هـــذا الباب بتمحيص ابن خلدون لروايات غيره من المؤرخين، كالمسعودي، عن بناء الاسكندرية، وتمثال الزرزور الذي برومة، ومدينة النحاس والمدينة ذات الأبواب التي روى خبرها البكري .

لقد أصاب ابن خلدون فيما ضبط وحقق هنا ، ولكني أسأل الدكتور : هل

نهج في تاريخه هذا النهج ؟ وهل محص كل ما كتب ؟ وما قول استاذنا الكبير في حجج ابن خلدون مدافعاً عن هارون واخته العباسة؟! ان الدكتور لم يقف أمام ابن خلدون موقف المشاول، أو المؤمن المشدوه كما يقف غيره، بل ذكرنا بموقف الجاحظ من صاحب المنطق .

وبعد، فقد ترك رستم في سورية الجوفة دوياً متنبئياً، فهل للاستاذ الجليل، وهو يعيش في حقبة خطيرة جداً، أن يضع لنا تاريخها ليكون لنا تاريخ؟ اننا في حاجة الى أكثر من تحقيق وثائق وضبط تواريخ قديمة. ليس لنا تاريخ يركن اليه، تاريخ يدرس هذا الشعب وطباعه وما نهض به من اعباء أحلته المحل الأول في تاريخ العالم. ان العظمة الكبرى لا تخرج من دائرة النواميس الطبيعية كما زعم ميشيله، حين درس جاندارك، فهل لرستم أن يكون ميشليه العرب، فيستنطق جميع ما تركوه من دين وأدب وتاريخ وفن مشيداً تاريخنا العظيم على هذه الآثار ومسبباتها كالأرض وطبيعتها ؟ فالناس للأرض اتباع .. كما قال فيلسوف المعرة .

اني اقترح عليه وعلى تلميذه بالامس ، ورفيق سفرته اليوم الدكتور زريق تأليف هذا التاريخ . العمل خطير جداً ولكني أزعم أن كليهما كفوء له ، ونحن احوج ما نكون الى تاريخ كهذا .

الحب أقوى

لرئيف خوري

للاستاذ رئيف الخوري اثار عديدة طيبة ، شعراً ونثراً ، وربما كان رئيف اكثر لداته انتاجاً ، أما الآن فلا يعنينا مما خطه قلمه الخصب الا رواية «الحب أقوى».

الحكاية من عند الشيخ داود الانطاكي مؤلف كتاب «تزيين الأسواق بتفصيل اشواق العشاق» ، وقد صبها الاستاذ رئيف في بوتقة الفن القصصي الحديث فجاءت طرفة نفيسة رغم سرعة سير رئيف ، وفبركته لما يكتب . قال في مقدمتها ، متكلا على ذمة الشيخ الانطاكي ، انها تاريخية «تدور في فلك من العصر الأموي على عهد الخليفة معاوية بن ابي سفيان» ، ثم انذرنا كموسى حين سئل عن عصاه فأضاف : ولي فيها مآرب اخرى ...

الحكاية دونما شك صغيرة ، ولكن مخيلة القصاص البارع بسطتها وكبرتها فجاءت كتاباً يملأ العين والقلب . فرئيف قصاص موهوب نعمة الافاضة في الكلام ثم يبقى هذا الكلام ، على غزارته ، حلواً عذباً تلذ للقارىء مطالعته ، ولهذا جاءت روايته «الحب أقوى» سهلة التعبير حافلة بالصور والتعابير الشخصية ، تمشي الهوينا لا ريث ولا عجل ، رغم أنف موضوع الحب المبتذل . وان سألتني وكيف يستحلى الموضوع المبتذل ، أجبتك أن الطاهي الفنان يعطيك من المواد التي يستعملها غيره لوناً جديداً من الطعام غير ذاك بما يمزجه من أبزاره وبهاره .

نفخ رئيف من روحه المرحة في بطليه نصر وسعاد فتمثلا لنا جبارين عنيدين . فبعد ان كان البطل نصر صعلوكاً بائساً ، خرج من بين فكي القلم مناضلاً عنيفاً يغامر في حب مروم ، ولا يقنع بما دون النجوم ، حتى بزّ معاويه وواليه ابن ام

الحكم ... ليست الرواية تاريخية، ولكنها بنت الواقع أو مما يمكن وقوعه، واذا فقدت هذه الخاصة فكأنها لم تخسر شيئا ، فالرواية التاريخية حقاً تصبح كالوطواط، لا هو في الطير ولا هو في الحيوان. ان التاريخ حجر عثرة في طريق الفن القصصي اذ لا يدري القارىء ماذا يصدق وماذا يكذب فيضيع بين البينين .

في رئيف الكاتب القصصي خصلة حلوة وهي تفتيشه دائما عن الطريف الظريف وتهافته عليه . شعر ، وهو العارف بأصول الفن ، انه لا يحس محيط قصته الا في الكتب ، والكتب ، وحدها، لا تكفي ، فلجأ الى وصف الخوالج وتحليل نفسية شخصياته ، وتصوير مظاهرها بتعابير طريفة ، فارانا في ام سعاد تلك المرأة المستكلبة ، ومن أبي سعاد رجلاً إمّعة ، ومن الوالي ابن ام الحكم مخلوقاً كبطل المقامة المكفوفية : حزّقة كالقرنبى .

لقد أغنى هذا الوصف والتحليل عن الاطار وما يتطلبه من اسلوب شعري، ولكن الاطار وما يقتضيه من تصوير عنصر متمم للرواية ، فأنّى لنا هذا ونحن لا نعرف المكان الا من الكتب وهي لا تغني عن العيان ؟ فكتّاب القصة اليوم يحاولون أن يعيشوا، ولو حيناً، ما يكتبون، أو يروا المحيط على الأقل، لأن الكاتب كالنحلة يجني أوّلاً ثم يمج، وبدون هذا لا يكون العسل المشتهى .

اما الحوار العربي الأصيل فهو عقدة العقد ، وهذا لا يستطيعه احد منا ، لا رئيف ولا غيره، فمن أين لنا نحن أن نتكلم بلسان اعرابية منذ ثلاثة عشر قرناً؟ خذ مثلاً : قالت ام سعاد لبنتها : لئن رأيتك بعد اليوم تخرجين او تعودين مع هذا الصعلوك المنتوف فلأعاقبنك أقسى عقاب .

ان كلمة «المنتوف» لا بأس بها — مجازاً — اذا جرت على لسان لبنانية، واما ان تقولها اعرابية فهذا بعيد . وفي الصفحة عينها يستعمل رئيف كلمة «بائخة» بمعناها العامي. ان مثل هذه الألفاظ، وفي الرواية عدد غير قليل منها، تشوه قصة كتبت بلسان عرب أقحاح .

فالحوار واللون المحلي هما أقوى عناصر القصة ، فعلى الكاتب، اذا لم يضمنها، ان يفتش عن موضوع يلائمه . ولكن المؤلف أعاضنا عنها بشيء آخر هو حلاوة

تعابيره الخاصة، ووصفه الطريف،وسرعة جري قصته ، وحسن سياقها واتجاهها المستقيم نحو الهدف.وهنا لابد لي من الاشارة الى أشياء تتعلق بالاصول،اذ لا يسوغ لكاتب مجيد كالاستاذ رئيف أن يجاري «المهملين» منا فيشوه اثراً فنياً كروايته هذه. قال: حدق فيها، والوجه حدق اليها. واراد ان يخرج على المألوف فاستعمل الفاظاً كرتيب وغيرها قبل ان يستوثق منها.وسعاد ،ألا يعرف الاستاذ انها ممنوعة من الصرف ؟ فلماذا يقول سعاداً ، بينما طبيعة الحوار تقتضي أن يقول : سعاد .

وبينا اراه يقول «وحل الماء» ولا يبالي اذا بي اقرأ يتقصف مكتوبة بين هلالين. ثم يقول: وقفت تظلل عينيها بكفها من الشمس . ان هذه الجملة الطويلة العريضة تغنيه عنها لفظة واحدة : تستشرف أو ستكشف . ولو شئت التنطس والتقعر لقلت له: لماذا تقول أبيعاً تبيعانني،ولا تدع الجملة تمشي على الهينة فتصيب عصفورين بحجر واحد : طبيعة الحوار وسلامة التأليف؟ ثم ما الداعي الى القول : كاد يجن هو الآخر، فأية حاجة الى هو الآخر. ثم القول : اذا امسى المساء . الرجل يمسي اما المساء فلا. ومن هـــذا النوع : بطحا سلمان أرضاً، وتمدد أرضاً ، وازودها زاداً الخ ...

والضرف، وهو يعرف فصيحها، فما الداعي الى استعمالها؟فلو جاءت على لسان شخص من شخوص قصته لهان الأمر ولكنها من كلام المؤلف . والاستاذ يكثر جداً من وزن فعيل حتى يقول: بصوت خفيض،والمعنى الذي يقصده انما يجيء من المخفض، ناهيك ان كلمة خفيض قبيحة كيفما دارت بها الحال ، وقد أدرك ذلك ابن الأثير منذ أجيال . اني اكاد اقول ان رغبة المؤلف في هذا الوزن ناشئة عن اسمه ولهذا اكثر منه من حيث لا يدري ...

لقد نزلت مني رواية «الحب أقوى» بمنزلة المحب المكرم فاستقبلتها بهذا النقد. رأيت عند مؤلفها نفساً طويلاً يمكنه من كتابة الرواية ، فدونت ما دونت مرة واحدة لاعينه على الرواية الآتية : « وان كنت عنّي ذا غنى فاغن وازدد » .

اما في الفن فالاستاذ رئيف يمسك الخيط ولا يفلته،وهذه اولى صفات الراوئي. انه لا يحول النظر عن أهدافه ، بل يسيّر اليها أبطاله توّاً فلا يتعثرون بشيء .

ولكن الاستاذ طماع طماح يحب ان يستأثر بكل حكاية تعجبه ، ولهذا علق في ذيل رواية « الحب أقوى » حكاية اخرى استحلاها فاستأثر بها قبل أن ينبشها غيره، فجاء استطراده اليها شنيعاً . سماها خاتمة فكانت كالاعارة والتأجير في لغة الحرب الماضية ، فضاعت طائرته في سماء الخاتمة ولم تعد الى قواعدها سالمة . فما كان احلى خاتمة قصتك يا رئيف ، لو ظلت بدون خاتمة .

- ٢ -

حييتك عزة بعد الحج وانصرفت فحي، ويحك، من حياك يا جمل

عزيزي الأستاذ ...

اظن وسوء الظن، اثم،ان محلك من المقال الذي وجهته الى مارون عبود محل المدير المسؤول من الجريدة ، او محل المذيع بالنيابة ، وهذا التشبيه الاخير أقرب الى حالك. اني أرى على حفافي القفة «اذنين» بل آذاناً تلوح وتختفي كبرق امرىء القيس ... نجانا الله من الطوفان .

اخشى يا أخي أن تكونوا طلبتم الزيادة فوقعتم في النقصان، كما يقول المثل. يقول زهير :

سألنا واعطيتم، وعدنا فعدتم ومن اكثر التسآل يوماً سيحرم

هاكم الجواب على ما فاتكم وان لم تكن فصول النقد مدرسة نحـــو وصرف ولغة. فالكلام النقدي يفرض كاتبه انه يوجهه الى من لا يفوته ما فيه، اما صاحبنا فهو اما غير فاهم ، واما متجاهل مماحك . تمثل صاحب التوقيع بقول المتنبي : وهاد اليه الجيش أهدى ومـا هدى . فاحوجني الى تذكيره بقول المتنبي ايضاً : ومن البلية عذل ... الخ

فلنبدأ بكلمتي «منتوف وبائخة» وأخواتها . فهذه الالفاظ العامية المحلية لا تصح أن تكون مادة لرواية اعرابية، فالرواية عمل فني قبل كل شيء وهي ليست دون الشعر شأناً. ليست الرواية مقالاً في صحيفة يعالج الشؤون اليومية، ولا قصيدة

تقال في مناسبة ما . انها لاجلّ خطراً، ومتى كانت «تاريخية» ومن العصر الاموي عظمت المسؤولية وصار على كاتبها أن يطهرها من رجس الركاكة والرطانة، والا فليكتب روايات شعبية يتلهى بها العوام، ولا حرج عليه اذ ذاك . فلو عرفنا ان صديقنا رئيف خوري يكتب لهؤلاء ما كنا اعرنا قصته هـذا الاهتمام ، لاننا لا ننتقد الا من يرجى منه خير أدبي جزيل كرئيف خوري .

وما وصلت الى كلمة «التمع» حتى رأيتك تنقض ما قلت أولاً . قلت ان غاية رئيف «افهام القراء أياً كانوا باسهل الأساليب والوسائل»فأي أسهل يا ترى، افعل لمع أم فعل التمع ؟ فمن من قرائنا يقول التمع ؟ يظهر انك تنسى حالاً ما نقول، فالتمع ليست بمعنى لمع ، وان تكن مشتقة منها ، كما انك انت لست اياك وان تكن مشتقاً منه. وبما انك تحب الاستشهاد بقول المتنبي فهو يقول في هذا : «فان في الخمر معنى ليس في العنب». اذاً، فعلى كاتب كبير كرئيف خوري أن يدقق.

وأراك ذكرت ابن الاثير بمناسبة رتيب وخفيض « والتمع » وغيرها مما عند رئيف من هذه البضاعة . فابن الأثير قال : ألا ترى أنك تقول : قعدت الى فلان احدثه، ولا تقول : اقتعدت اليه . وكذلك تقول : اقتعدت غارب الجمل ، ولا تقول : قعدت على غارب الجمل ، وإن جاز ذلك . ولهذا أقول أنا : أن«رتيب وخفيض» ليس لهما جمال اسم صديقي رئيف وإن كانتا من وزنه . وإذا قلت انت: ما لنا ولابن الأثير ، أجبتك : ان ابن الأثير ختم كلامه بقوله: وهذا لا يحكم فيه غير الذوق السليم . .

أما «سماداً» فجاءت بضع عشرة مرة إن لم يكن عشرين وثلاثين، وما هكذا تكون غلطة الطبع . أما «وحل الماء» فهي مثل قـوله : «أمسى المساء» ، فكما يقال أمسى الرجل، أي دخل في المساء كذلك يقال وحل الرجل أي وقع في الوحل، ـ كما وقعنا نحن في وحل الرد عليك، مثلاً ـ لا يقال وحل المـاء لان التراب يصير وحلاً، ومتى خالط الماء شيء من الطين يقال: «عكر الماء» لا «وحل الماء».

أما ما أردت قوله حول «يتقصف»، فهو اننا عندما نرى لفظة موضوعة بين هلالين فنفهم انها غير فصيحة، في حين ان يتقصف فصيحة بنت فصيحة، ولا حاجة الى جعلها بين قوسين . كان أحرى بالمؤلف ان يعلّم بائخة وغيرها من الألفـاظ

بمثل هذه العلامة . أما الغريب فهو ان تذكرني «ان البيانيين اجازوا دخول الواو على استواء في كل منفي مع الجملة المضارعية الواقعـــة حالاً » فما خطب الواو حتى تذكر ذلك هنا ؟

وقد اضحكتني حين حمت حول كلمة «تستشرف » فقلت ان هـــذه اللفظة ذات معنيين، ومتى كانت اللفظة ذات معنيين حصل الالتباس والالتواء . أليس هذا عجيباً غريباً ؟

أما إذا كانت لفظـــة تستشرف لم تعجبكم فعندكم لفظة « تستكف » وهي مشتقة من الكف ، وربما كانت لازمة أكثر من في هذا المقام لان لا التباس فيها ولا التواء ...

قلت : سامحك الله ، اني «اعود بكم وباللغة الى عهد الانحطاط ، عهد الاهتمام باللفظة دون المعنى» مع اني لم ارشدكم الا الى وضـع المعنى في لفظة تؤديه كاملاً غير منقوص ، وتريحكم مـــن عفش الكلام ونفشه ... فلا يكون البيان خبصاً في خبص . وهنا لا بـد لي من أن أسالك : ممن تعلمت هذه الأمانة في البحث حين نقلت عن المعجم هذه العبارة : «استشرف الشيء رفـع بصره لينظر اليه» لماذا اكلت ما بقي من الجملة وهو : «باسطاً كفه فوق حاجبه» — المنجد (ص٣٩٥) العمود الثالث ، السطر ١١ طبعة ١٩٣٧ — افعلت ذلك لتوهم الناس اني اخطأت؟ فأنا اخطىء دائماً ، ولا ادعي العصمة .

ليس النقد مزحاً يا عزيزي ، انه عين الجد ، وان البسناه حيناً ثوب الفكاهة . وسألتني عن «ابيماً تبيعانني» ما بالها ؟ اسمع يا عزيزي ، انها ، أولاً ، ليست لغـة الحوار الطبيعية ، وهي ، ثانياً ، خطأ نحوي ، لان المصدر المؤكد لعامله بمثابة النعت ، والنعت لا يقدم على المنعوت . ولهذا قلتُ : لو قال اتبيعانني بيعاً لاصاب عصفورين بحجر واحد ، أي سلامة التعبير وواقع الحوار ... انه لم يخطر ببالي ابداً انني محتاج الى معلقة ... اسألني ايضاً مـــا معنى قولك هذا ! أي لأزقكم كما تزق العصفورة فراخها ، أو بلغة العوام : نشرّقكم بالملعقة .

أما « كاد يجن هو الآخر » فلا داعي فيها الى « هو الآخر » وهاك الجمـلة :

« وشاع في الحيّ ان سعاداً جنت ، وانتهى النبأ الى نصر فكاد يجن هو الآخر ، وأسرع الى خيمة عمه مستفسراً» . فقوله هو الآخر من بضاعة العوام، وهي زيادة لا خير فيها، تخالف ما وضع السلف من قواعد لأفعال المقاربة، أي ان خبر هذه الأفعال يكون فعلاً مضارعاً متضمناً ضميراً يعود الى اسمها . وهناك مشكلة ثانية هي مشكلة الاعراب ـ أقول هذا لئلا تستوضحني ثاني مرة . وأنا ، كما لا تعلم ، وقتي ضيّق جداً ـ فكيف نعرب هو الآخر ؟ فاذا قلنا هو فاعل يجن، او توكيد الفاعل المستتر ، فما يكون محل الآخر من الاعراب ؟ فاذا قلت نعت فالضمير لا ينعت ولا ينعت به · انها تعبير عامي وإن جرت على أقلام الكتّاب .

أما قولك لي : « وخلاصة القول، انك يا استاذ مارون حللت الرواية تحليلاً نفسياً واقعياً رائعاً ، ليتك اكتفيت به ... » .

ان كلمتك هذه لم تزدني معرفة بالمؤلفين ، فمارون عبود ناقد عظيم جداً متى أحرق على مذبح أنانيتهم الند والعنبر ، وخصوصـــاً اذا طاف بجمرته حولهم وحواليهم . اما حين أصوب انبوب الصائغ لأحرق خبث الحديد ، فأنا أكون حينذاك متعنتاً أردّ البشر الى عصر الانحطاط .

فأما وأنت تريد ان تتسلّى ، او ان تعمل بشرعة الاعـــارة والتأجير في الحروب الادبية ، فخذ بعض ما بقي من رواية أخينا رئيف لترد عليه ، ولكن ثق انك لن تفوز بجواب ، لأن الحصاد كثير والفعلة قليلون .

وجاء في رواية الحب أقوى : تقاعست ان تخف (ص ٨) وفعل تقاعس هنا يتعدى بعن . قال الشاعر :

تبهنس إذ تقاعس عنه مهري   محاذرة ، فقلت عقرت مهرا

وقال : تشاجع الزوج عم نصر (ص ٢٨) ثم قال : يتقاوى امام اهل المجلس (ص ١٤٢) . ان المزيد من الافعال سماعي لا قياسي ، والمدار فيه على كتب اللغة . ونحن لا نزال نقول ـ عاميـــاً ـ كما كانوا يقولون : تشجع وتقوّى ، والكلمتان فصيحتان تؤديان الغرض، فأي داع، إذن ، للقول: تشاجع وتقاوى، فالأولى منهما لم تسمع ، والثانية لم تقل بالمعنى الذي أراده الأستاذ رئيف .

ان كلمة سماعي لا تبعد كثيراً عن كلمة استعمال ، والاستعمال ينعّم الألفاظ ويملسها ، فلماذا تعود الى المقالع ؟

وقال: الفت ان تسير عليها كل يوم، ذهاب وإياب (ص ٨) والصواب ذهاباً وإياباً.

وقال: تحت وبر شاربين اسودّا ولم يكادا (ص ١٤) انني لم افهم كيف اسودا ثم لم يكادا ؟ فاما ان يقال : لم يكادا يسودان ، وأما اسودا او كادا .

وقال : يولم الناس على لحم شاة (ص ٣٠) وهذا تعبير غريب . قال عبد الرحمن بن عوف للنبي : تزوجت انصارية . فقال ، عليه السلام ، بارك الله لك . ولم بشاة . ان « أولم » فعل لازم ، فالوليمة لا تكون لغير البشر ... وهو يتعدى بالباء لا بعلى ، وحسبنا كلام أفصح العرب حجة .

وقال : أبينك شيء وهذا الفتى (ص٣٢) والصواب : أبينك وبين هذا الفتى شيء ، كما نتكلم اليوم .

وقال: لا شغل لهم الاه (ص٥٩) وهذا خطأ. قد عابوا على صاحبنا المتنبي قوله:

ليس الاك يا علي همام سيفه دون عرضه مسلول

ومتى امتنع هذا في الشعر فكيف بالنثر ؟ وقال : انبطح على أضلاع صدره (٦٣ ص). ان معنى انبطح انطرح على وجهه، فأي حاجة، بعد، الى أضلاع صدره؟ هل فينا من يقول : انبطح على اضلاع ظهره ليميز بين الانبطاحين؟ فقولنا انبطح واستلقى يعبر عن القصد، ولكن اذا كان الاستاذ يريد ان يفهم من ما لا يفهمون، كما ادعى الاستاذ ز ... فالجرح جبار ، كما قال بديع الزمان لاستاذه ابن فارس .

وقال : هل ما زال فاتك على حراسة المخيم (ص ٦٣) وفصيحها : أما زال ، او ألا يزال فاتك ... فمن يقول : هل ما درس فلان . ان الهمزة تستعمل في كل موضع ، اما هل فلا .

وقال ايضاً في هذه الصفحة : أترى يكون هذا الشيخ فاتكاً هو اياه؟ علينا هنا اما أن نحذف هو إياه ، او ان نكرر الاستفهام فنقول : أيكون هو إياه . وما أرى المؤلف إلا متأثراً بقول العوام «هوّي ياه» ، وهذه من نوع هو الآخر، أي « هوّي لـخْر » ، وما كل كلام العوام يعرّب .

وقال: وقد طاف الفرسان بالحي شارعين سيوفهم (ص٦٥) . والرماح تشرع لا السيوف .

وقال : لأنها رأت سدى ان تستثيره (ص ٧٣) . لا أدري اذا كان احد القراء يستسيغها ، اما انا فلا . ومن طراز هذه قوله ايضاً : ثم خالت الصباح سيحمل اليها فرجاً (ص ٧٥) .

وقال : ففص بها حلقه واسترخت حنكه (ص ١٠٢) . كما قال بعد ذلك: واسترخت حنكا العجوز (ص ١١٨) . وكأني بالاستاذ قد ترجم هذه ايضاً عن العامة « رخي حنكو . رخي نيعو » . فالحنك مذكر ، وهما فكان لا حنكان . واذا كان لا بد من هذا التعبير فاللفظة التي تستعمل هنا هي فكاه او لحياه. فالحنك هو سقف الفم ، وقد جاء في الزبور : ويلتصق لساني بحنكي .

ولست أدري لماذا أحب التأنيث هذا الحب الجارف حتى قال ايضاً: ولحيته ترتقص ارتقاصاً مع سفلى فكيه (ص ١١٧) .

وقال : وافق ان يحملها في مطبخه (ص١١٨) ، وعليه ان يقول : وافق على ان ... ثم عاد الى « أرضاً » التي أكثر منها في روايته فقال : فوجداها منكبة ارضاً على وجهها (ص ٣٧). ترى هل تنكب سماء ؟ أهي صاروخ ؟ ناهيك ان انكب لا تناسب، والفصيح: معفرة وجهها في التراب. أتجيز هذا التعبير يا ز.. ؟ أم تراه محتاجاً الى «قاموس» ؟ وقال الاستاذ: قاموس الشتائم (ص٦٦). وكاتب محترم كرئيف لا يعبر بكلمة قاموس عن المعجم. ان القاموس عنوان معجم بعينه وليس من مرادفاته كما نتوهم .

وقال: قهرته على ارادته (ص٤٠). وهذا الفعل يتعدى بنفسه. لعلها قيست على قولهم : غلبه على امره ، ولكن هذه غير تلك، وفي قهرته غنى عن على ارادته .

وقال: ان يلقاه رجالك فير كبوا عليه ذنباً تأخذه به فتسجنه (ص٧١). ان «ير كبوا عليه ذنباً » عامية سوقية ، ولكنها من البضاعة التي يريدها ز. ليفهم الناس عن الكاتب دون ان « يهديهم » ... ـ والصواب : يهدي اليهم يا استاذ ز ـ مع كل نسخة من روايته قاموساً مدرسياً . وقال : فعلام بقيت ثيابه القديمة هي إياهـا

(ص ١٤٨). أهي قضية استحلاء أم هي قضية اصول ؟ ! فالصواب: هي هي .

وقال: لقد مست القدر باطراف أصابعها ثم مسحت على وجهها (ص٣٧). فلا يقال هنا مسحت على وجهها ولا مسحت وجهها ، فمسحت على وجهها كلام عامي غير فصيح، ومسحت وجهها يراد بها التنظيف، فعليه إذن ان يقول: ثم مسحت بها وجهها ، او ثم مسحت بالحم وجهها . ان الاستاذ يعرف بيت الأخطل :

بني كل دسماء الثياب كأنما   طلاها بنو العجلان من حمم القدر

وكأني اسمع الاستاذ ز. حين قرأ هذا البيت، يقول: اسمعوا يا بشر ! يريد ان نقول كالأخطل ! نعم يا ز... ان كاتباً موهوباً كرئيف يطلب منه صحيح الكلام كالأخطل. وبعد أسطر من هذه الصفحة يقول: تشد ثيابها تريد تمزيقها (ص٣٧). وهو يريد قول العوام تشد بثيابها. فيا ليته عبر هنا مثلهم فقولهم اقرب الى الصحيح.

وقال: وينفق بذخاً واني ابذخ (ص١٤٣). وفي هذه العبارة ضعف من جهتين: الاولى ان فعل بذخ ليس بمعنى الاسراف ، والثانية انه لا يقال ينفق اسرافاً ليقول رئيف: ينفق بذخاً. وقال: كأن خنجراً طعنه في صدره (ص١٠٧). وهذه ايضاً تعريب تعبير العامة: «كأن خنجر طعني في صدري»، الخنجر يا سيدي، يطعن به ولا يطعن هو . اما اذا كان قد استحدث خناجر اوتوماتيكية من هذا النوع ولم اسمع بها ... فيكون الكلام صحيحاً .

وقال: فك هذا الوثائق عن يدي ضيفنا (ص ٨٣). والصحيح فك وثاق ، أما عامياً فيقولون « فك عنّو » .

وبعد هذا الكر والفر في رواية «الحب اقوى» اقول انه بدا لي اليوم ما لم يبد لي من قبل ، وهو ان تعبير الصديق رئيف متأثر جداً بالتعابير العامية ، وهذا لا يفعل إلا بحذر شديد، فعليه ان يتدارك ذلك في قابل. ولعلي اكون في نقدي هذا له ، قد أديت خدمة جلّى اذ اكتشفت في أدبه شيئاً لم يكن يظهر لولا التمحيص . رحم الله من قال : مذاكرة الرجال لقاح الألباب .

هذا ما حضرني — الآن — يا ز .. ، ولو كنت تعرف ، يا أخا الاذاعة ، خصائص لغة العرب لما استغربت انتقادي ذلك الاستغراب، بل لو كنت تعرف

ما تولده حروف الزيادة من زيادة ، ما قلت اني أعود بكم الى عصر الانحطاط .
ان العود الى عصر الانحطاط حقاً يكون حين لا نكتب صحيحاً بلغتنا ، فيصح فينا قول المتنبي : قد أفسد القول حتى احمد الصمم .

ان لغتنا لغة ايجاز ، بل قل لغة اختزال ، فما علينا إلا ان نتبحر ، ونقرأ كلام الفصحاء لتصح عبارتنا . ان من لا يكتب صحيحاً ليس بكاتب ، ولو نطق بحكمة سليمان وفلسفة توما وابن رشد .

كنت أردت ، اولاً ، ان اجعلها «من الجراب» ولما وجدتني محتاجاً الى عدل وضعتها في محلها هذا. واعدكم، منذ الآن، بأن اكون اكثر وضوحاً بعد اليوم، فلا أحوج احداً منكم الى الاستفسار والاستيضاح ... ان للغة اصولاً وقواعد يجب ان تحترم، وان اولى الكتب بالنقد الصارم أثر فني كرواية «الحب أقوى». واني لأعتذر للصديق العزيز الاستاذ رئيف اذا كان يعد عملي هذا اساءة . ان من يعطي كثيراً يطلب منه كثير. ورئيف أديبنا المرجّى فليدقق قليلاً . أما صاحبنا ز .. فأشكره جداً لأنه أثار هذا الصيد ...

حاشية ــ كتب إلي « قارىء » ــ لا أدري لماذا استحى باسمه ــ يقول : إذن كيف نعبر اذا اردنا القول : وكاد يجن هو الآخر .

الجواب : وكاد يجن هو ايضاً . ان ايضاً لم تخلق إلا لمثل هذا المحل .

مذكرات الأرقش

لميخائيل نعيمه

ميخائيل نعيمه أديب مسكوني، ولا ألقبه بالاستاذ لأنه لقب عمّ حتى خمّ. ولا أسميه فيلسوفاً لانه أديب قبل كل شيء، وتظل صبغته الادبية ثابتة مهما غسلها وطهرها بزوفى الفلسفة. وهذه المذكرات الارقشية، بدأ بهـا الاديب الكبير، في فجره الادبي، وقد قرأت منها فصولاً منذ ثلاثين سنة، وها هو قد أتمها لتخرج سفراً صغيراً في حجم اوراقه ولكنه كبير بما يحتوي عليه من الفلسفة النعيميّة التي أحبها قولاً واكرهها فعلاً.

على «الجندي المجهول»، و «مذكرات الارقش» و «العاقر» و «الغربال» أسس ميخائيل نعيمه صرح شهرته القلمية، ولسنا نقول بدعاً اذا ما قلنـا ان مذكرات الارقش ـ لولا حوادثها ـ هي مذكرات الاستاذ نعيمه، انها مذكرات أديبنا في مبادئها العامة لا في حوادثها الخاصة، ولا غرو في ذلك فكل ما يكتبه الفنان من خيال او واقع هو الفنان نفسه. فالنحلة حين تجني ما تجنيه من الزهر لا يكون أرياً حين تمتصه، ولكنه يصير حين تتمثله وتمجّه عسلاً شهياً فيه دواء نافع للناس.

لا استطيع تلخيص فلسفة نعيمه بمناسبة الكلام عن كتابه هذا، فهي متنوعة الالوان تتناول اكثر شؤون الحياة، وتنظر اليها احياناً نظرة لا تتفق مع نظرة البشر العاديين مثلنا ! ! فالموت في نظر المؤلف إكمال الناقصين، والناس اولاد الذين لم يدركوا رشدهم. ان الصوفية والمحبة ومقابلة الشر بالخير هي قوام الفلسفة النعيمية، ولعل هذه النزعات جاءت الاستاذ من الروسية التي تعلّم في مدارسها وقرأ كتابها

العظام . ولكن لماذا نبعد، بل لماذا نفتش عن جذورها في الغرب؟فهذه الفلسفة، فلسفة التغاضي والغفران، لبنانية يوحي بها وادي الجماجم وذرى صنين. فالموت إكمال الناقصين عقيدة لبنانية تعتقدها فئة غير قليلة في لبنان... وكذلك الافكار الخيالية التي يناجي فيها البحر بلسان الارقش :

« يا بحر يا قلبي وقلب الاله . يا نائماً لا يستيقظ ، ومستيقظاً لا ينام » .

« أبديتك لمحة ، ولمحتك أبدية . احبك ايها البحر . أحب سكونك الثائر ، وثورتك الساكنة، فثورتك ثورتي،وسكونك سكوني.فنحن بحران ايها البحر، ولكن الارقش هو البحر الاوسع والاعمق والأبقى. فأنت يأتيك يوم تتقلص فيه وتنضب ، أما الارقش فــلا يتقلص إلا لينتشر ، ولا ينضب إلا ليمتلىء بما لا ينضب » .

شؤون وشجون شتى يعالجها الكاتب بلسان الارقش،وانت تشعر حين تقرأها انك التقيت بها في مكان ما . أجل انها فوق ادراك الشخصية التي اختارهـــا المؤلف لبث مثل هذه الفلسفة الغريبة . انها افكار مثالية كالتي تعود ان يعالجها ميخائيل وإن لم يكثر من الصوفية في هذا المؤلف ، فهي لا تطغى هنا كما تطغى في مؤلفاته الأخرى . فها هو ينحدر من كهفه ويرى الناس وخصوصاً العمال ، فيخصهم بفصل شائق. كأني به قد رأى بعينه نقاوة اليد العاملة في قرية بسكنتا حيث تحرث الايدي الخشنة وتنقّي وتشذب ، وتداوي تلك الجنات الزهراء فتفيض على البلدة خيراً وبركة ، فقال بلسان ارقشه :

« اليوم عيد ــ عيد العمل ــ والارقش عامل ، ولكن العيد ليس عيده . وأي يوم هو عيدك يا ارقش ؟ .

« انت وحدك بين كل ما في الأرض من آدميين لا عيد لك . وهل العيد إلا ان تستمتع ولو بنعمة واحدة من نعم الوجود ؟ ! أما نعم الوجود جميعها فمن ذا يستطيع ان يستوعبها في يوم واحد، او عام واحد ، او عمر واحد ، بل في الف عمر وعمر ؟

«وأعياد الناس مع ذلك هي أعياد عيون،وآذان وأنوف،وجيوب،وبطون».

ثم يعدّد نعم العمل حتى يقول :

«يا نعمة تلجم البرق فتجعله مطية للفكر ومراجاً للعين، يا نعمة العمل الخلاق يا اكبر نعمة. بماذا أكافىء الذين زرعوا وحصدوا فأكلت، والذين نسجوا وخاطوا فاكتسيت، والذين خلقوا الحروف والمطابع والورق فتعلمت وقرأت وكتبت».

وقبل ختام مذكرات الارقش نسمع لغة انبياء التوراة ولهجتهم وتقريعهم كما في (الصفحة ١٢٦) .

وبعد، فقد نسيت ان أعرّفك بالارقش . الارقش خادم في قهوة لا نعرف من أمره، في اول الكتاب، غير ان له مذكرات عثر عليها بعد اختفائه. أما في الختام فنعلم انه رجل ذبح عروسه ليلة الزفاف ، وترك قرب سريرها هذه العبارة : « ذبحت حبي بيدي لانه فوق ما يتحمله جسدي ودون ما تشتاقه روحي » .

اراد الاستاذ ان يجعل من هذه المذكرات قصة ، فنعمت القصة كانت لو لم تظهر شخصية نعيمة فيها ظهوراً علنياً . اما مبادئها فلست اناقشها لان الآراء لا تفرض فرضاً، ولكنني اتعرض قليلاً، وقليلا جداً، للعبارة، فما الذي حمل الاديب الرصين على القول : كلني اليوم اضطراب . فلو كانت «كلني» من العامي الفصيح كثيرها مما استعمله لاستملحناها ولكنها ليست كذلك . فنون الوقاية لم تخلق لتقي الاسماء من الكسر ، لان الكسر من خصائصها . ثم قوله بعد ذلك قوقعة الدواليب ، وصوابها القعقعة اذا كان يريد هذا ، ثم قوله في مكان آخر : تحدق بي من خلف اهدابها ، وحقها ان تكون تحدق إلي ، ثم قوله : لا تنبح يا أباه ، فيا أباه غير مألوفة قبالة يا أماه . واذا كان استحلى الندبة فما يكون عليه إلا ان يقول : يا أبتاه .

ان كاتباً عظيماً كميخائيل نعيمة يطلب منه الكثير لانه قدوة للناشئين ، فاذا ما تجاوز حدود اللغة شبراً اجتاح اولئك حدودها وتخومها .

خمسة أيام في ربوع الشام

١

كنّا ننتظر من «معلّم المعلمين واستاذ المربّين !!» فؤاد افرام البستاني كتاباً أجلّ من هذا شأناً، فـ «خمسة أيام في ربوع الشام» عنوان مغرٍ، يوهم سامعه، قبل أن يقرأه، أنه مقبل على قراءة وصف لما شاهد استاذ الجيل!! في هذه «الشطحة» اللطيفة. ولكن الأمل يخيب حين تقع العين على هذه العناوين المضحكة المبكية. وكأن المؤلف، حفظه الله، ونفع لبنان بعلمه، وقد شعر مثلي بما في هذه العناوين من سخف، فأراح القاريء من رؤيتها مجمعة في فهرست، وحسناً فعل.

وأما وقد شوقناك اليها، فهاك، اولاً نموذجاً منها ولعله ابرعها!!: رحلة الموزاييك في سيارة بويك. وهذا الفصل هو فاتحة الكتاب فقل معي احسن الله الخاتمة. افتتحه الاستاذ بقوله :

خمسة أيام في ربوع الشام !

وما دمنا على التقليد الجاري في تسجيـــع العناوين فلم لا نقول : «احاديث السندباد في جزيرة ارواد»، او «العود المأنوس الى ساحل طرطوس[1]». ثم حقق الاستاذ القول ومشى على مهل يقصّ على هذا المنداز ويقول : نسج العفاريت في مغازل عمريت، وبيوت وقباب من طين وتراب، وشجر وماء في حلب الشهباء، ومن راميتا الفنيقيين الى عاصمـة العلويين، وانعطاف الطريق الى قبر الزنديق... عفواً، نسيت : الراحة والإيناس في حمامات بانياس الخ ...

---

(١) خمسة أيام ص٣ .

لقد حرت في أمر هذه العناوين ولم أدرِ على ما تدل .ففؤاد، كما عهدته ، من ذوي الذوق السليم ، وظللت أحسبه يهزل في سجعه هذا حتى بلغت آخر كتابه وقرأت : «وفي رواية الأمير المؤرخ – يريد المير حيدر – نكهة عتيقة ،وسجع ابتدائي ،لطيف[1]» .فأيقنت اذ ذاك أن الأمرمنه هو الجد،فهو اذن يحب السجع ويريد أن يبدعه «ثنائياً» لا ابتدائياً ... ألسنا في عصر القنابل ؟فلماذا لا نصنع من السجع قنابل ذرية ، نبيد بها من نشاء ؟..

وشاء الاستاذ الكبير ! أن يضم كل شاردة وواردة في كتاب « خمسة أيام » فشرع يعدد لنا في فصل «رحلة الموزاييك» كل ما مر به هو وتلاميذه وتلميذاته من مدن الشط اللبناني ، اسمع كيف قال : «هذه قهاوي نهر الكلب ... وهذه جونية ... وهذهطبرجا ... وهذانهر ابراهيم ... وهذه جبيل... وهذاساحل البترون...وهذه طرابلس ...وهذه بركة البداوي...وهذا النهر الكبير[2]...

ثم يعود الى مثل هذا الاسلوب الرائع الجميل مبارياً السيّارة البويكية ، ولا عجب في هذا ، ألسنا في عصر السرعة ؟

لقد ذكرتني هذه الهذه وهذه وهذه بما كنت اسمعه، حين كنت صبياً ، من صاحب صندوقالفرجة – صندوق الدنيا بلغة مصر– . تفرج يا حبيبي وشوف، تعا تفرج يا سلام ، هيدي عبلة بالتمام ، وهيدا عنتر الدرغام ، هيدي عنـــدك سطنبول ، هيدي لندن ياسلام ...

وبعد، أليست الطرافة من مقومات كتب الرحلات ؟ فأين هي يا ترى فيهذه الرحلة البستانية الجديدة؟ أفي ما شاهده الاستاذ في «سراقب» مناسلوب جديد للاستقاء لا يعرفه، ففهم حين وقعت عينه عليه، الصورة الشعرية فيقول عنترة :

يدعون عنتر والرماح كأنها   أشطان بئر في لبان الأدهم

اما كيف ؟ فاسمع استاذك يخبرك : «يركب أحد الولدان حماراً او بغلاً يشد في جلاله حبل الدلو ، ثم يسوقه مبتعداً عـــن البئر فتصعد الدلو حتى الحافـة

---

(١) ص ٢١٢   (٢) ص ٦ و ٧

فيتناولها أحد المستقين ويفرغها في دسوت النساء المزدحمات على الدرج . ويعود الحمار أدراجه فتنحدر الدلو على مهل[1]» .

حقاً انها ساعة فيض، اذا كان لأساتذة الأدب ساعات فيض ... وحقاً ان الغربة تلقح الأذهان الثقافية فتنتج لنا غلماناً خيراً من غلمان زهير ... والافكيف نفهم بيت عنترة لو لم يرَ الاستاذ فؤاد حمار مراقب ؟

ان كتاباً مثل هذا، يا معلم اسرائيل، يكتب دون تجشم أخطار ارواد التي نجاك الله منها، وأنت فيه تحاول التأريخ لا الوصف المطلوب من السوّاح. انه سياحة في الكتب لا في دنيا الله الواسعة، والأولى أن تسميه «خمسة أيام في كتب الاثام».

قد يقول غيري: هذا ما يسمونه الاسلوب العلمي، أما أنا فاشهد أنه يدق على فكري، وأرى، وقد أكون على ضلال، ان من يعجزون عن الاسلوب الشخصي هم الذين يتحصنون في قلاع الاسلوب العلمي المنيعة ...

اعجبني ما قرأته في هذا الكتاب عن شاعر الطبيخ الحمصي، فهو وان يكن منقولاً كغيره من تاريخ المدن ، ففيه فضل انقاذ قارىء هذه الرحلة من الاختناق في هذا المحيط التاريخي المقمّم ...

وشاء الأستاذ أن يتظرف فتغلغل، كعادته، في أنفاق الكتب القديمة مجمعاً من هنا وهناك ما ذكر عن الحمصيين من نوادر المغفّلين ، وقد نسبها الى اصحابها ابراء لذمة البحث العلمي ... وكأنه فطن الى ان ما ذكره من هـذه الأخبار قد جاء فاضلاً على الكفاية فحاول أن يجبر خاطر الحمصيين بذكر بعض النوابغ فقال : «ان اسرة اليازجي حمصية الاصل وان تكن لبنانية المقام، وكذلك القول عن المعلم بطرس كرامه، فانه نشأ في حمص قبل أن يتصل بالأمير بشير الشهابي الكبير[2]».

لأدري لماذا لم يأت على ذكر أمين الجندي ، وهو شاعر حمصي مشهور ومن معاصري كرامة واليازجي، بل كيف لم يأت على ذكر ديك الجن الحمصي الشاعر الاشهر . ولكن الأمر يهـون متى علمت ان الاستاذ لم يرض لحمص ببشر عاديين

---

(١) ص ١٣٥ (٢) ص ١٧٧

مثلنا . فراح يقلب صفحات مروج الاخيار – السنكسار – ليعود ظافراً لحمص بشهداء أبرار أطهار مثـــل البابا نيقيطيا ، والقديس غلقتيون وامرأته أبيسا ، والقديس اليان المتطبب ، أشهر شهدائها [١] .

وأخيراً بعد أن أضنته هـذه الرحلة في بطون أوديـــة التاريخ التي تجشم اهوالها – وقد يجشم الهـــول الاديب المورخ – قال لنا : ها ان الليل يتقدم ، وتاريخ حمص طويل ، وكذلك الاحاديث في سكانها ، ونحن على سفر في الغد نحتاج الى راحة وسكينة ، فلا بد من النوم [٢] .

نوم الهنا يا سيدي ، تصبح على خير ، والى اللقاء .

٢

ما أبطأنا على الاستاذ الجليل الا مكرهين ، ومن حضر ما غاب ، فلنبدأ .

لقد صعب على معـــلم المعلمين الخلق في « خمسة أيام » فالتجأ الى حنكليس – الجري – التاريخ وسردينه ، وقديده على اختلاف انواعه . والناس يرتجون من الرحالة أما السمك الطازج أو اللحم الطري . يحيرني جمود صاحب «لماذا» في هذا الكتاب ، فهو يكاد يكون فيه كابي منذر بشار ... ترى ألم تسرّ اليه تلك السهول المترامية الأطراف بكلمة طريفة ؟ ألم تقل له تلك الآثار شيئاً يقوله للناس ؟ ألم يقع في تلك الرحلة على غير ما احتوته الكتب ؟ لقد كان كالبوّ في ذلك الدوّ ... كان رجلاً من حبر وورق ، بل يا ليته كان كذلك ولم يجمع في كتابه الاضداد : من كلمة سوقية الى كلمة لغوية ، فمن دسوت اللبن الى «سوقا للامتيار شهيرة» ، ومن كبش العليق ، واشيار ، وطرابين ، وشمشوع ، زمزريق (ص ١٠٩) . الى «الزيّافة» العنترية التي جاءت في كلام معلم المعلمين كرقعة جديدة في ثوب بال ...

أما الجمل الضعيفة التأليف فيليق بها تحريف بيت النواسي : ذكرت شيئاً وقد

---

(١) ص ١٧٧ و ١٧٨ (٢) ص ١٧٩

فاتتك أشياء ... لانها لا تحصى .

قال الاستاذ ، نفعنا الله بعلمه : «فخفر الحـــدود صورة الدولة» (ص ١١) والصحيح خفراء لا خفر .

وقال: «هو النهر الابرش . وقد قطعنا احدى سواعده من دقيقتين» (ص١٢) متوهماً أن سواعده جمع ساعد، بينما هي جمع ساعدة، ولهذا وجب القول: احدى سواعده . ثم ليته قال منذ دقيقتين، لتصح عبارته ويزول اللبس .

وقال : «ونحتل الثاني في جمهور الطلاب» (ص ٢٣) والصواب بجمهور .

وقال : «وفيها العزبان» (ص ٢٤) فكان كلام العوام اصح من كلامه ، لانهم يقولون عزّاب. وقال: «وتراكم البيوت بعضها فوق بعض» (ص٢٨)، والصواب: تراكم بعض البيوت فوق بعض ، او تراكم البيوت فقط ، فمعنى ركم الشيء وضـع بعضه فوق بعض .

والذي يتفاصح ويعنى بالتدبيج، كما فعل الاستاذ في هـــذه الصفحة لا يغض النظر عن قـــوله : «مشحات الغيوم الجهم، ويفقش فيها الموج مشحاً صافقاً» . فالفقش للبيض، والمشحة سريانية لا عربية . أبعدها الله عني وعنه ...

وقال : «وكان للمطران ابراهيم أن يستدعى الى حلب، فينتخب» (ص٦٢). لعل هذا التعبير فينيقي ؟ أما في العربية فيقال : وكان قد استدعي الخ . وقال في هذه الصفحة ،متحدثاً عن النور : «يتخلل من النوافذ» (ص ٧٢) وهو تعبير فاسد اذ يقال : تخلله لا تخلل منـه . ثم ... على «نحو المعروف» (ص ٨٤) والصواب : على النحو المعروف .

وقال : «يقصدها الملوك والامراء من أقصى الحدود ، وتمر بها جماهير الزوار هدفاً من أهدافها في الأراضي المقدسة» (ص ٨٦) أما كيف تمر بها هدفاً فهذا مما لم أفهمه ايضاً من كلام الاستاذ .

وقال : «حتى تجمع شباب اللاذقية» (ص ٩٤) لست أدري من قال له أن كلمة شباب خطأ حتى صححها في آخـــر كتابه وجعلها «شبّان» . ألا يذكر «معلم الجيل» قول السموأل : شباب تسامى للعلى وكهول ؟

وقال : «حتى لا يكاد يبدو» (ص ١١٠) وصوابها حتى يكاد لا يبدو .
وقال في هذه الصفحة أيضاً : بيد أن الحقائب مشتملة على الزوادات» . لا أدري من أين جاء بهذه الزوادات ، زاد الله في عمره ومعرفته . انها من فصيح «ستنا» رحمها الله . وقال: «ينصرفون أكثرهم الى الزراعة في وادي العاصي» (ص١١١) وحقها أن تكون وينصرف أكثرهم ، فنحن في عصر الددت .

وعاد ايضاً الى القول : «مشحات الكلإ والشعير» (ص ١١٩) فمن مشحات غيم الى مشحات شعير ، ثم لا أدري الى أي مشحات اخر يؤدي به المطاف ... ترى أعجزت اللغة عن لفظة تؤدي معناه ؟

وقال : «وهو غريب فيمن يعيش في مثل بيئة حماة جمالاً طبيعياً ، ومناخاً سهلاً الخ» (ص١٥٠). لعله اراد شيئاً لم يحسن التعبير عنه ، فوجه الكلام هو: وهو غريب فيمن يعيش في بيئة مثل بيئة حماة جمالاً الخ ، أي بزيادة كلمة بيئة قبل مثل .

وقال: «يؤمونها لبيع منتجاتهم ، ولا سيا الخيول المشهورة بها حماة ، ومشترى حاجاتهم» (ص ١٥٤) . فاضطربت جملته لانه فصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجملة اطول من شهر الصوم .

وقال : «الدجاج الحمرة» (ص١٥٨) مع أن المطاعم تكتب «دجاج محمر» ! وكيف ينسى وهو استاذ أدب ، ومصنف «الروائع» ، قول صاحبه الأخطل : صاح الدجاج. وقول صاحبنا أبي النواس: صاح الدجاج ببشرى الصبح مرات...

وقال : «متمايلات بالفساطين الزرق على الشراويل الحمر» (ص١٧٠) فاذا كان يريد الشراويل لبنانية فهي لباس الرجال ، فلماذا ابتعد عن السروال ولم يقل كالمتنبي ، وبديع الزمان في مضيريته : ودخل في سراويلها عشرون ذراعاً .. ثم أين هذا من قول الريحاني : «وشمرت بكرم فضاح» ؟..

ان رحلة الاستاذ ، على كثرة عدد صفحاتها ، لاتساوي صفحة أو صفحتين مما كتبه الشدياق والريحاني في هذا الموضوع .

وقال : «يستحر الجوع» (ص ١٧١) ولعله اغتر بقول المتنبي : باجسام يحرّ القتل فيها . ان الجوع يبرّد ولا يحرّ ، فلماذا رغب في فعل حار ؟

قد يقول بعضهم : لماذا كل هذا التشدّد ؟ والجواب هو أن البلاغة تطلب من رجل يخرّج معلمين للوطن، فاذا كان هو هكذا فكيف يكونون هم ؟!

وقال : «وكأنه يتشامخ مترفعاً أن تمسه» (ص١٩٥) . ان فعل ترفع يتعدى بعن كقول المتنبي: «ترفع عن عون المكارم قدره ...» فكيف ينساه المعلم وهو قد نسخه لروائعه ؟

اما الجمل المخلّعة والكسيحة التي لا تقوم على أمشاط أرجلها فقد ضربت عنها صفحاً لانني لست مسيحاً لأقول لها احملي سريرك وامشي .

اعجبني الاستاذ حين وقف عند المعري وأخذ يعلّم شيخ الدهور القياس... ويناقشه في الملائكة ... والجن . فعل كل هذا في رحلة دامت خمسة أيام ، فكيف لو كانت اسبوعاً أو اسبوعين ؟ أفما كان أحرى بمعلم الجيل (!) ان يصف لنا ما رأى لا ما قرأ ؟ أيظن قراء كتب الرحلات طلاب بكالوريا ، أو ليسانس كلية الآداب الشرقية الليلية ؟

ان رغبة معلم المعلمين في تكبير حجم كتابه هذا حملته على نسخ ما نسخ من هنا وهناك وهنالك حتى أدت به خاتمة المطاف الى الأخذ عن تاريخ المير حيدر. واذا كان له عذر على هيامه في أودية تاريخ ارواد فأي عذر له في ما نقله عن بعير بيمر ؟

ولكن الاستاذ ، حرسه الله، تعود اللمّ والجمع في كتبه ومقالاته جميعها — ما عدا قصته «لماذا» — وعادة البدن لا تتغير ...

لما قرأت عنوان «أحاديث السندباد في جزيرة ارواد» انتظرت عجائب غرائب ولكني لم أظفر بشيء غير وضع الاستاذ كلمة «مثل الزيت» بين قوسين، ثم استعماله ما استعمل من ألفاظ سوقية . . . وأغرب من هذا كله ان يعمل «اصلاح خطإ» لكتاب لا تخلو صفحة منه من ركاكة أو خطإ ، فكتاب عليل سقيم ككتاب خمسة أيام يحتاج الى خمسة أعوام في مصح ضهور الباشق أو الشبانية ... لا الى اصلاح خطإ .

ان كتب الرحلات تحتاج الى طرافة وظرف ، والاستاذ المحترم يعرف هذا

ويحب أن يتظرف،ولذاك جاء بتلك العناوين المسجعة،وبنقل ما نقل عن شاعري حمص وحماة، فصح فيه قول المثل : العين بصيرة ولكن اليد قصيرة ...

وأخيراً اقول: لم يكن هذا الكتاب ليستحق النقد لانه هش فاض ،فخير ما فيه تحقيق تأريخ ارواد ... أقول هذا بالنسبة الى معرفتي أنا بالتاريخ ، أما رأي الدكاترة حتّي وزريق ورستم فلا أعرفه .

وهنا يحق لي أن أتساءل : ترى ماذا يقول مؤرخو النهضة الادبية ، بعد عشرات السنين،اذ يقرأون كتاب،«خمسة أيام في ربوع الشام»؟ ماذا يقولون حين يعرفون من مطالعته أن الاستاذ فؤاد افرام البستاني كان مدير دار المعلمين الصغرى، واستاذ العربية وآدابها في النصف الثاني من القرن العشرين ؟

اللهم نجّ لبنان من تلك الساعة، وأجز عنه تلك الكاس ...

مذكرات الاستاذ كرد علي

- ١ -

موضوعنا كتاب واحد ولكنه في الحقيقة اربعة كتب عدد صفحاتها ١٣٢٠ من القطع الكبير والحرف الدقيق . لقد غلب على كتب المذكرات ان تكون مذكرات فقط ، اما مذكرات « الاستاذ الرئيس » فمواضيع شتى لا يربطها هذا العنوان . ففيها تذكارات رجل يحبو الى الثمانين فدوّن كل ما مر على رأسه من احداث ،وكل ما عاني من شؤون وشجون معلقاً على ذلك كله تعليق مفكر بصير يشارك في كل موضوع حتى الفلسفة ،وان زعم انه يكرهها . وفيها الى جانب ذلك مقالات ومحاضرات لغوية وغير لغوية ليس بينها وبين المذكرات أبعد النسب...

صرف الاستاذ كرد علي حياته مناضلاً ومجاهداً في خدمة الوطن ،ولم يكن بينه وبين الشهادة غير خطوات شاء القدر ألا تكون لتظهر الى الوجود «مذكرات» تدل على نواحي تفكير الانسان جميعها ، وعلى علاتها ... فمن يقرأ مذكرات الاستاذ الجليل محمد كرد علي لا يعرف رجلا واحداً ، بل يعرف رجالاً ودولاً وشعوباً عرف الاستاذ من ميولها الشيء الكثير .

فمحمد كرد علي رئيس المجمع العلمي الدمشقي الدائم ، وعضو المجمع العلمي الملكي المصري ، قد استوزر مرات ، ولعله يحق له ان يقول مع الطغرائي :

تقدمتني أناس كان شوطهم ... وراء خطوي اذا أمشي على مهل

وقف الرجل حياته كلها على العمل المطرد ، طاف العواصم قديمها وجديدها واضعاً قبالة عينيه جميع حاجات أمته . وها هو في قيلولته يكتب «مذكرات» حياة تنضح ألماً ، وقد أفلت صاحبها من خروم شباك اعدائه وحساده .

عايش الاستاذ دولاً عظيمة : نشأ في عهد الاتراك وتعلم في مدارسهم ، فأتقن لغتهم كما أتقن الفرنسية والعربية ،ثم رأى الدولة التركية تسقط ، والدولة الفرنسية تنتدب على سوريا ولبنان ،ويلي هو الاحكام . ثم عاين تقلص ظل الانتداب ،وأبصر الاستقلال وما تبعه من انقلابات . وها هو يحدثنا في هذه الكتب الاربعة التي سمّاها «مذكرات» عن جميع من عرف وخالط من رجال أمر ونهي واصحاب سلطان.

لست أوافق الاستاذ الجليل على عنوان كتابه الضخم ، فهو جدير باسم أعم من المذكرات لانه تاريخ حقبة من اغزر الحقب احداثاً . وإذا صح ان يسمّى مذكرات فيكون ذلك كتسمية افعال القلوب ، لان اكثر ما خطه قلم الاستاذ صادر عن القلب ... ففي فاتحة كتابه التي سماها «روح المذكرات» يقول لنا : « أصور بهذا التقييد طائفة ممن عشت بينهم صورة صادقة ... ليشاركني ابناء هذا الجيل والذي بعده في الانكار على من اضجروني بقصورهم وآلموني بغرورهم » . فهو اذن ، لن يرحم في مذكراته من آذوه .

لست أناقشه فيمن وفيما ذم وقدح ، لان هاتيك الشخوص التي تناولها قلمه بعيدة عني ، لا اعرف عنها ما اعرف إلا بالسماع ، والسمع لا يكفي غيبة البصر ، إلا عند من كان أعمى كبشار ... واذا جاز لنا الحكم «غيابا» قلنا ان ليس عندنا لهؤلاء المذكورين اكثر مما اعطاهم ، وما انبأنا الاستاذ إلا بما شاع وذاع وملأ الابصار والاسماع .

أما اسلوب هذه المذكرات فطلي رائق ، ولعلها خير مما كنت اقرأ للاستاذ يوم كنت اطالع مجلته المقتبس الرصينة (١٩٠٨) . ثم لم اقرأ له شيئاً بعدها إلا فصولاً كنت اتناولها من هنا وهنا .

كان الاستاذ في «مقتبسه» كاتباً موضوعياً . اما هنا، في اكثر هذه المذكرات ، فهو كاتب ذاتي . والكتابة الموضوعية لا تلذ لي كالكتابة الذاتية ،وان كان غيري يتبهر بها ويسميها « اسلوباً علمياً » ، ستراً لعورتها وثقل ظلها وفجاجتها .

ان صاحب المقتبس ، اخا الاسلوب العلمي طول الحياة ، قد ادخلته مذكراته في عداد الهجائين ، وكثيراً ما يستحلي الناس الهجاء . ولست اتجنى على الاستاذ

الجليل ـ على غير معرفة ـ بما زعمت، فهو في مقدمة كتابه يقول: «ولعلي تعمدت هتك سترهم لانهم يهتكون بأعمالهم ستر هذه الأمة ولا يبالون» ثم يختم تلك المقدمة بهذه العبارة: «الجهر بالحـــق من اول مراتب النهوض، والساكت عن الحق شيطان أخرس».

لقد انكببت على مطالعة هذا الكتاب، مذ تفضل الاستاذ الجليل باهدائه إليّ، وسألني في رسالته لي التي بها شرفت، ان أكون ناقداً لا مقرظاً. فغير قليل ان يقدر كلامي رئيس مجمع علمي طائر الشهرة، فكأنه بهـــذا قد جعلني من «خالدي مجمعه الموقر». وأنا بدوري لم أخلع عليه غير لقب الاستاذ، وان كان «صاحب معالي سابق»، الا لأنه صرح في فصل ـ لقب أسرتنا ـ ان كلمة الاستاذ هي أحب الألقاب اليه. ولست استغرب هذا منه، أفما سبقه الخليفة عمر بن عبد العزيز الى مثله، وحرم كل شاعر مدحه ولم يسمّه ابن ليلى؟

لقد رأيت الاستاذ في هذه المجلدات الاربعة يتبع الاسلوب المقفعي قصاً وتعبيراً، فالانشاء ساذج عاطل لا تزيين فيه ولا تجميل، لأن المؤلف يحب الواقع ويكره الخيال، وقد أشار الى هذا حين علل جنوحه عن القصة بقوله: «لاعتقادي انها مختلقة. والاختلاق مما تأباه طباع من اعتاد التدقيق في النصوص». فهو إذن واقعي في كل شيء حتى في الانشاء والموضوع. يكره التجمل ولا تطيب نفسه لما يخالف الحقيقة. ولعل هذا كان سبباً أولياً في تكثير اعدائه وتقليل أصدقائه، فهو، كما بدا لي متبرم، لا متشائم. فالمتشائم لا يرضيه شيء، أما الاستاذ فراض عن أشياء كثيرة وان كره أشياء وثار عليها. انه عدو التقاليد البالية والخرافات السمجة والآراء الخاطئة ـ راجع صفحة ٨٦٢ و ٨٧٢ و ٨٨٣ و ١٠١٤ ـ فهو يهدم ويبني بجرأة حتى أنه عدّ ايداع مال المسلمين في المصارف الاجنبية بدون ربا من «الحنبليات الضارة» وتمنى لو أخذت الفائدة وأحسن بهـــا على البؤساء والمساكين. وهذا والله عين الصواب بل هو الزكاة.

والاستاذ يغضب بل يثور على من ولوا الاحكام لتوظيفهم غير ذوي الكفاءة، «وأخذهم من مطرودين من شركة ماكنات وزيرين في عهد الانتداب». ثم يعالج

تضخم الموظفين في سوريا ويرى الاقطار العربية كلها في هذا سواء .

وعدنا الاستاذ في مقدمة مذكراته « وقد رأى الدنيا مهزلة ، ان ينزع قيوداً قديمة أثقلته مراعاتها فهو يريد ان يهزل وان يسخر ، وأن يضحك وأن يبكي» . أما انا فقلما رأيت سخراً وهزلاً ، ولم أرَ لا ضحكاً ولا بكاء بل رأيت ألماً مراً ، وتهكماً كأنه الجد ، وهو غير لاذع . أما حين يحمل على من أساء اليه فتخاله بركاناً يقذف الحمم ، يسمي الاشياء « أبشع أسمائها » حين ينتقد الناس وعاداتهم ، ويرينا صدراً رحباً يتسع لكل جديد إذا لاءم المحيط ، ولكنه لم يرَ في الشعر الرمزي خيراً ،كما رأى أن ما كتب في مناقب الاولياء والصالحين،هو أبشع النثر. « أما أبشع الشعر فهو أماديح الأمراء والكبراء » . وأما انا فقد كنت أتمنى جداً ان اعرف رأيه في كتب المناقب والمثالب معاً ..

وبعد، فكتاب الاستاذ الجليل محك رجال وأجيال وبلدان واحوال ، يحمل العبر ويحدثك فيغريك، ويسليك ويفيدك . ولا تمله ـ إذا كنت غير عالم لغوي ـ إلا في تلك المحاضرات التي لا محل لها من الاعراب في هذه المذكرات ، ففي هذا المؤلف الضخم فكاهة ونكات وملح ، وفيه دراسة شخوص وتحليل نفسيات بمقدار، ومواضيع تعالج جميع الشؤون العالمية،واننا لنظلمه اذا عددناه مذكرات فحسب . فمن أمثلة نقده للرجال قوله في الجابري : « فانه خرج من الدنيا ولم يخلف غير ثيابه » امـــا الآخرون فيرى انهم أكلوا الدجاجة بريشها ، وابتلعوا الأمة بعفشها ونفشها ...

- ٢ -

والاستاذ صريح الى أبعد حد حتى تستطيع لأول وهلة ان ترميه بالتعصب اذا كنت متعصباً ، ولكنك حين تقرأ حكمه العادل على ما لا يعجبه في كل ملة ، تقر له بالترفع عن الهوى ، وتدرك أن شعاره : ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة. وفي الحقل الخاص ترى ان الاستاذ الناشر عيوب الناس ،لا يداري عيوبه ولا يحابي نفسه ، وخصوصاً عندما يحدثنا عن نشأة تأليفه وندمه على نشر رواية

«يتيمة الزمان» التي حال غرور الشباب وحب الظهور دون إلحاقها بكتاب «حرية العرب» الذي وأده... ويناوح هذا الاعتراف إعجابه بأسلوبه، حين يحدثنا عن «ملكة الانشاء» وحكاية حاله مع ذلك الوزير المرقعان. ثم قوله في موضع آخر: «اني لا أكتب لأتسلى او أنال شهرة او مظهراً، وربما كنت أمتنع عن التأليف لو سمعت ان في المؤلفين اليوم من يعاونون ذا الضرب من الكلام الحر».

أما هذا الضرب من الكلام الحر، فيمثل عليه الاستاذ بمسألتين صرف فيهما جانباً من اهتمامه، وهما: الاستثمار التركي والاستعمار الفرنسي [1].

وقد رأيته متمكناً، واثقاً لنفسه بالنصر حين يعارض قول نابغة بنابغة، فيبدي رأيه بلا وجل مخطئاً من تعود الكتّاب أن ينحوهم العصمة خوفاً من شهرتهم الطائرة.

قد حسبت حين طفت في مجلداته من الباب الى المحراب انه غير راض عن أحد، وانه لا يعجبه شيء، فكأنه يحاول وضع تصميم جديد لهذا الكون. ومع ذلك أشهد انني قرأت فيها أشياء كثيرة طالما كنت أتمنى ان أعرفها، وان كنت قد استغربت جداً ما رواه عن ذلك القصر الذي يصعد الى الطابق الأعلى منه بالسيارة! ولكني تقصيت الخبر فوجدته صحيحاً.

وفي هذه المذكرات حكم شتى، بعضها خطرات أفكار أوحتها الشؤون والشجون، وبعضها كلام مأثور تصرف فيه الاستاذ فلم يؤده على حقه كقوله مثلاً: الافكار كالجواهر صنها عن القائها في معالف الخنازير. وهو في كل حال يصور لنا أنفسنا عارية ولكن الذين يخجلون ماتوا.

وفي هذه المذكرات ايضاً كر وفر، ورواح ومجيء، ولهذا تراني أسايره وأماشيه. فبينا نراه، مثلاً، يرجو من النهضة الحاضرة خيراً جزيلاً، إذا به يتأسف لأنه ظل حياً. فهو لا يطيق الحياة بيننا وقد ذهب من ذهب من رفاقه العلماء... أما نحن فنتمنى طول بقائه لأن مثلنا يقول: من ليس عنده كبير

---

(١) ـ ص ١٠١٠.

فليشتر له كبيراً . ولعلّي بهذا القول أكرم نفسي، اذ لم أعد ابن اربعة عشر...

اما ما كتبه الاستاذ عن لبنان فله رأيه في ذلك . ولست أناقشه فيه بل لو شاء ان تؤلف جوقة مني ومنه ونغني : بلاد العرب أوطاني ، لما احجمت... أما بعد الاستراحة فاذكره باقتراح الريحاني ... وبتأليفه « وزارة تسلية » في ضيعته « جسرين » . قد يكون تأليف تلك الوزارة والكتب صورة عن الواقع . أفليست أكثر الوزارات للتسلية ، ان لم نقل ألقاب مملكة ؟ ..

والآن قد حان ان نتحدث عن الاستاذ كرئيس مجمع علمي . فأسلوب الاستاذ في مذكراته هذه مقفعي ، كما قلت سابقاً ولكنه سهل غير ممتنع . وليس يعني قولي هذا أن الاسلوب الوجداني غير طيّع ليراعة استاذنا العلامة . فاذا كنت تظن هذا فاني أدلك على مقاله الطيب « في عشر الثمانين » لتقرأ فصلاً من النثر المنمق الرفيع، الحافل بتحليل نفسي يعطيك ما له الصورة الفنية الكاملة للأستاذ كرد علي.

يكتب الاستاذ صفحات لا تقع فيها على كلمة غريبة عنك ، حتى اذا تذكر انه رئيس مجمع علمي ، كرّ على منجرد هيكل قيقيد الاوابد ويأتينا بـ « شق الابلمة ، وسجيس الليالي ، وأخرة، وزبر » وغيرها . يكتب بتعبير اليوم ثم يقول: « هل ألفت كتاباً قط ؟ » نعم ان هذا الاسلوب البسيط هو اسلوب المذكرات، والاستاذ يكتب في مجلداته سيرة حياة ، او تعليقاً على هامش الحياة، فحسناً عمل حين استعمل ، ولم يتذكر انه رئيس مجمع علمي، مثل كلمة « صرماية » . فبأي لفظة يمكننا أن نعبر اليوم عن تلك الحمراء التي كانت خير هدية لنا في الأعياد ؟ أنقول الجرموق ، او الحذاء ، او النعل في عصر صار فيه للباس الرجل الف اسم واسم ؟ واني أحببت منه استعماله لفظة «الطاقية» وكلمة «الجرد» اللتين لا يؤدي معناها غيرهما . أما كلمة «البائخ» وعندنا ما يؤديها، فلا نقبلها من رئيس مجمع علمي رأيناه ينتقد كلمة مثلها في محاضرة ما مدرجة في مذكراته .

أليس على من يكره الطبع على غرار العباسيين في تعريب الألفاظ، ويطلب منا ان نقول الطزر للبيت الصيفي، والشقب للسيفون، والمشن للدوش، وغيرها وغيرها.. ثم يصف لنا ما قاساه «المجمعيون» حتى وضعوا هذه الألفاظ، فاستعمل الكتّاب

بعضها وتركوا أكثرها . أليس عليه ان يدقق اكثر ؟ فلا يتأمل الاستاذ الرئيس لاعمال الكتاب أكثر مسميات الجامع ، فعلى « الجمعي » حين يريد وضع لفظة لمسمّى ان يفعل كالمهندس الذي يخطط الطرق العامة . فهو يسأل أولاً عن طريق القدم والحافر ، ثم يشرع في عمله . هذا ما أزعم ان على عضو المجمع العلمي ان يفعله ، عليه ان يسترشد بمسميات العوام قبل ان يستشير كتب اللغة . سمى عوامنا « الكريب » ابو الركب . وسألت يوماً بدوياً من عرب القلاوق عن سبب غيابه الطويل فقال : مرضت بـ « الهدّة » . وسمى الفصحاء هذا العارض الضنك ، وأخذها الفرنج عنا بلفظها ، فلماذا يمنع الجامع ان تفعل مثل هذا ؟

ومن هذا الباب قول الاستاذ الرئيس المفنّين بدلاً من الفنانين ، فكأنه يعارض التيار على غير جدوى ، ومن يحاول هذه المحاولة وينعى على الكتّاب عدم التحقيق أفلا يحق لنا أن نطالبه بجمعه مفتي على مفاتي . وبقوله رهبنات من رهبانيات ، وبكتابة جرؤ جرأ ، وباستعمال ينمي والمضارع ينمى ، وبقوله : « ورب قائل يقول » ، مع أن جواب رب يجب ان يكون ماضياً ؟

وألا يحق لنا ايضاً ان نسأله ألاّ يقول : مهما بلغ الرجل من مراتب التهذيب « لا يخلو من نقص » فالواجب هنا إدخال الفاء على جواب مهما . وان جوزوا هذا في الشعر ، فهو لا يجوز في الكلام المنثور لأن المجال واسع لادخال اكثر من فاء . وهذا التعبير الذي يرد كثيراً على أقلام بعض الكتاب لا أراه خليقاً بالرئيس : « يهتكون بأعمالهم ستر هذه الأمة لا يبالون » .

وقال الاستاذ : وكان أحد سادة القرية ابا سعيد درويش عند أبي يجلسان في دهليز بيتنا هناك . فأبا سعيد درويش ليست خبر كان لتنصب ، ولكنها عطف بيان ورفعها واجب . ولا أعد ذلك غير سهو وخطأ مطبعي ، وجل من لا يسهو . وقوله : ان هذه الملاحظة اذا صدرت منك يكن لها ، والصواب يكون ، لأن اذا لا تجزم إلا اضطراراً أي في الشعر فقط نحو : واذا تصبك خصاصة فتجمل . أما حدق بمعنى كرر النظر فتعدى بالى لا بفي ، واخيراً هـــذا التعبير « منذ وعيت على نفسي » فهو ليس من العامي الفصيح ليقبل من الرئيس الجليل .

أما التعريب فلي عليه ملاحظة ايضاً . عرب الاستاذ عنوان كتاب انكليزي « جريدة سياسية » والأصوب هنا أن يقال : يوميات سياسية . أما في تعريب الاعلام فما أعجبني قوله : سان توما داكين ، وقد عرب أسلافنا هذه اللفظة منذ أجيال وقالوا : القديس توما الاكويني ، وهي أقرب الى العروبة من سان توما داكين ...

وأخيراً أقف هنا مكبراً جهود الاستاذ الأجل ، ومقدراً فضله أعظم تقدير ، ولئن جحده شانئوه فالتاريخ لا يبغض ولا يحب وهو ينصف الأديب . أما انتقادي بعض هفوات فما كان إلا استجابة للرئيس المجاهد ، واعتماداً على الكلمة التي سبق ذكرها له : مهما بلغ الرجل من مراتب التهذيب لا يخلو من نقص .

ذكرى الاجداد ـ له ايضاً

صدقني إذا قلت لك اني وقفت اجلالاً لهدية المجمع العلمي الدمشقي، انها حمل ثقيل لم ينقله اليّ موزع البريد الا بالكد . سبعة ثمانية مجلدات ضخمة ، مطبوعة احسن طبع، ومضبوطة ادق ضبط، فحيّا الله رئيس المجمع ورفاقه أبطال الجهاد الأدبي، وليهنىء ابن الجهم، وابن حيّوس، وابن عنين، والوأواء، وعبدالقادر النعيمي، بل فليهنىء للأجداد جميعاً هذا البعث الجميل . فلو أثق أن البعث سيكون لي كما كان لهؤلاء لتمنيت ان تبقى جميع مخطوطاتي قروناً، غطاؤها العنكبوت وسميرها العثّ . ولكن من يضمن لنا أن سيقوم في المستقبل رجال ككرد علي ومردم وجبري والحسيني والدهان من رجال البعث والإحياء ؟

حقاً ان هذا المجمع، وله مجلته الرصينة، ومنشوراته النفيسة، ليستحق أسمى الاحترام وأرفع التقدير ، ولو كان هؤلاء الباعثون مجد دمشق الادبي في عهد عبد الملك بن مروان لوسّع لرئيسهم الأجل، وأجلسه حدّه على السرير ، وأقر رفاقه حوله في السلاطين . حقاً انهم كالبنفسجة التي ترسل عبيرها بتواضع عميق .

وبعد، فكنت قد تصفحت مذكرات الاستاذ الرئيس محمد كرد علي، وبُثّ ما كتبت من محطة الشرق الأدنى مصدراً بهذه الكلمة : تعودت ان اتحدث ، كما

هو المفروض، عن عدة كتب في ربع ساعة، اما اليوم فلست أتحدث الا عن كتاب واحد، ولكنه كتاب كعشرين من كتب اليوم، فهو أربعة أجزاء في ثلاث عشرة مئة من الصفحات الكبيرة، وإني لأظن ان شيخاً علاّمة جليلاً أنفق الثمانين في خدمة الأدب واللغة اصدق خدمة ليستحق ساعة لا ربع ساعة.

اما اليوم، وقد أصدر حضرته – لا معاليه – كتاب كنوز الأجداد، الذي هو بحق كتاب العام، فأرى ان من حق الأدب علينا ان نستقبله الاستقبال الذي يستحقه.

فكتاب كنوز الأجداد ألّفه لنا كنز حي، أمد لنا الله في أسباب حياته، ليخرج لنا دائماً من ذخائره جدداً وقدماء، كما يقول الانجيل. نعم ان الاستاذ الرئيس لم يكتب كتاباً لم يكتب أحد مثله بعد، ولا عالج موضوعاً لم يعالج، فلهذا الكتاب أخ من قبل، ولكن الجديد فيه هو أن مؤلفه يكتب لنا في موضوع مبتذل فنقرأه كأنه جديد طريف. يصدر الاستاذ في موضوعه عن شيئين: عن شخصية ربّا أولاً، وعن المصادر ثانياً، فإذا تكلم عن معلمه الشيخ طاهر الجزائري صوره لنا تصويراً ناتيء الخطوط. ان سفينة الاستاذ الجليل ذات شعارين، الحب والبغض، ولكن هذا الحب وذاك البغض لا يطوّحان بالسفينة. نعم انها تجري حيناً على حكم الهوى، مقصوراً وممدوداً، ولكنها ما ارتطمت قط بصخور الجور. يظل دائماً حكمه الحق، فلا يجور طوراً ويهتدي كملّاح طرفة.

تقرأ سيرة الشيخ طاهر، بل قل دراسة تلك الشخصية الفـذة النبيلة فتجد التلميذ قد كشف كل ستر مغطى وأراك استاذه في مباذله وآلته البحترية ...

إن التلميذ يجل استاذه الطاهر ولكنه لا يستر عليه، حين يعدو طوره، مثلاً، ويسأل الطبيب دواء يميته حالاً ليرتاح مـن آلام لا تطاق، ثم يقول للطبيب: ان في الشرع ما يبيح ذلك.

هنا يستيقظ الاسلام الصحيح في صدر التلميذ فيقول في معلمه: وهذا من أغرب ما سمع عن عاقل. فركن الطبيب الى الفرار وحلف ألا يعود الى تمريض الشيخ(١).

(١) ص ١٤

وبعد ما أملى الوفاء على الاستاذ الرئيس ستاً وأربعين صفحة من القطع الكبير والحرف الدقيق كتبها في التعريف بعلمه الجزائري، راح يتحدث عن ابن المقفع تحدث من يعرف ما في زوايا صدور النوابغ من خبايا، فختم الفصل بقوله: وبعد فان ابن المقفع في كل حالاته، مجموعة من الكمال المطلق، لا تدري من أي شيء تعجب فيه. وكل ما خص به ابن المقفع مــن بيان، كان مما يستغرب حقيقة لو لم يطبق على نفسه ما دعا اليه من الأخلاق، فهو في علمه وعمله سواء وغاية، لا يخدع ولا يكذب ... يعمل الصالحات من دون غرض يتوقعه، ويدعو الى الاصلاح ولا غاية له الا رفع شأن جماعة الاسلام. هو روح ندر ظهور مثله في القرون الطويلة [1].

لا تتعجب ان رأيت الاستاذ كرد علي يخالف الجماعة في ابن المقفع، فهو يقدس شيئين: العقل والخلق العظيم، ولذلك تراه في كنوز الأجداد وفي مذكراته عدو كل خرافة. انه في كتابيه هذين ناقد أدبي اجتماعي، انتقد ابن خلدون الذي أجمع الناس على كبر عقله فقال فيه حين رآه يثبت «الكشف» لاهل المجاهدة: «وبهذا التخريف قد أثبت -ابن خلدون- انه من المحافظين ... وكان يسعه لو لم يعتقد في هذه الخرافات أن يطرح هذا المبحث، فينقّي «المقدمة» من العوسج والبلّان». وأخيراً يرى أن المقدمة درة تاج اعمال صاحبها، وان هذه الهنات فيها كانت لها بمثابة عوذ لها من العين [2]. اما في تاريخه الكبير فيراه من المؤرخين المحافظين، وكالذين تقدموه.

ويمشي استاذنا في هذا الكتاب على سننه فتراه طوراً مهاجماً وتارة مدافعاً. يهاجم الخوارزمي، لتحامله على الأمويين والعباسيين حتى يقول فيه: وخير الأدب ما صدق قائله، ومن دوّن الكذب وقال انه أدب فهو مغبون الصفقة [3]. ثم يؤيد رأيه هذا بالكثير من أقوال الخوارزمي. وهذا يدلنا على تأييد الرئيس للحق أين وجده، وان كان يحلو له دائماً ان يجد مجال القول ذا سعة...

أما الجاحظ فبعدما عظم الاستاذ من قدره ووجد فيه رجل العقل الفذ رأى

---

(١) ص ٦٦ (٢) ص ٣٩٤ و ٣٩٥ (٣) ص ١٩٣

ان لا بد من أن يقمد للظالم فيقضي بالجاحظ وعدوه ابن قتيبة ،فيرى الدينوري رجل جمع لا رجل وضع كالجاحظ ، فيقول في احد كتبه : وكتابه هذا كأكثر كتبه منقول عن غيره وليس له فيه غير سطور معدودة[1] ولكنه، في مكان آخر يعترف له بالتحقيق والتنسيق والترتيب حتى أبرز تآليفه منقحة محررة[2] .

اما في دفاعه عن الجاحظ فكانت عدته من كتاب ابن قتيبة – مختلف تأويل الحديث – فكأنه بهذا يقول له : من فمك ادينك . قال : وما أخذ به الجاحظ بسبب قول الشيء وضده يعدّ من حسنات الجاحظ . وكيف لعمري قضى ابن قتيبة على خصمه في مذهبه هذا القضاء، وهو القائل في عيون الأخبار : «وليس الطريق الى الله واحداً، بل الطرق اليه كثيرة، وأبواب الخير واسعة» . ثم قال: هجن ابن قتيبة الجاحظ وكفره ورماه باعظم كبيرة وهي الكذب، وسجل عليه انه أكذبُ واحد في الامة لانه كتب اشياء تنفع في تربية العقول، كما كتب كل ما ينفع الدين، وابتدع أدباً يسلّي ويعلم[3] .

ان مثل هـــذا النقاش الرائع الحكيم هـو الذي يحيي وينعش كتاب كنوز الاجداد، واشهد اني اعرف أكثر ما تضمنه هذا المجلد، ومع ذلك وجدتني أقرأه بلذة ورغبة لأن مؤلفه يستعمل عقله، ولا يؤمن أبداً بكلمة ما ترك الأول للآخر. نعم انه لم يتجرد من عاطفته كل التجرد، وأي ناقد استطاع هذا قبله ليستطيعه هو.

وللاستاذ بصر ثاقب بأساليب الكتّاب ولذلك نسب كتاب المحاسن والاضداد لابي الأدب العربي ، غير عابىء بما حام حوله من شك، ولا عجب في ذلك فكل بصير كالاستاذ يرى اذني الجاحظ تظهران من بين سطوره .

وكما اعترف للجاحظ بالمحاسن والأضداد كذلك انكر أن يكون نقد النثر لقدامة . وبناء على هـذا القياس أثبت ان في معجم الادباء ما هو منحول ، ولا بدع ان صدقت احكامه فالانشاء هو الرجل، كما قالوا .

ودافع الاستاذ ايضاً عن ابن تيمية رجل العقل الآخر فقال : لو عمّت دعوة

---

(١) ص ٨٩ (٢) ص ٩٥ (٣) ص ٨٩

ابن تيمية لسلم هذا الدين من تحريف المحرفين على الدهر، ولا سمعنا أحداً في الديار الاسلامية يدعو لغير الله [١] الخ .

وقد اعجبني رفض الاستاذ الكبير ما نسب الى الصاحب من ردكتاب العقد الفريد كما أعجبتني جداً تسميته المقامة بالقصة المخنوقة . وأعجبني هذا الحكم الصادق : ولو ادعى مدع ان الكتابة ما ختمت بابن العميد ، كما قالوا ، بل بالهمذاني لكان حقاً ومذهباً. فمثل ابن العميد كثار غير قلائل ، وبعضهم اكتب وأشعر . اخملهم تخلف الدنيا عنهم ، وللشهرة اسباب قد تخطىء اعظم مستحق لها [٢] . والاستاذ في كل حال يكره السجع عموماً وسجع الحريري خصوصاً ، ويرى السجع غير صالح ومنافياً للطبع .

وكأني اراه في كنوز الاجداد يحمل بيمينه مصباحاً ويفتش عن رجال العقل فيقع على الراغب الاصفهاني وابن حزم فيدافع عن الأخير بقوله : وعابوا عليه انه خالف ارسطو في بعض آرائه ، كأن نقد صاحب الرأي من الكبائر [٣] . ولما أقبل على الذهبي رأى فيه رجلاًساير العقل فتفرد في تأليفه .

وقصارى الكلام ان هذا العلامة لايمر بشيء دون ان يعلق عليه. يتساءل ابداً ويجيب ، وتلك سمة المهتدين بنور العقل ، ولهذا كان الاستاذ الرئيس في هذا المصنف من تصانيفه النفيسة مثال العالم المفكر والاديب الأريب . كان واقفا على سلاحه دائماً فهو اما مهاجم مبادر ، أو مدافع مناصر . جمع فيه الموضوعية والذاتية. تعاون مع من درسهم تعاوناً كلياً، فأبرز شخصياتهم كالمصور البارع. وقد اوضح لنا هذا في أول سطر من كتابه فقال بعد البسملة :

«يحمل هذا التصنيف سيرة بعض من طالت عشرتي لهم ، واغترافي من معين اسفارهم من رجال الاسلام» ، وتلك سجية الادباء الكبار فانهم يدرسون من هم على شاكلتهم ،فتتجاوب الانغام وتتآلف. ومثلنا على هذا ما قاله الاستاذ في سيرة ابي عبيد البكري : هذا غاية ما عرف من سيرة فريد قطره ووحيد فنه ، ابن

---

(١) ص ٣٦٧ (٢) ٣٦٧ (٣) ٢٤٧

الاندلس العظيم في عهد ترديها السياسي ، وقد وقاه الله شر السياسة فلم ينغمس فيها كا انغمس اجداده ، واذا لم تكتب له الشهرة في السياسة وفيها مسا فيها من اضاعة العمر على الأكثر، فقد كتبت له الشهرة بتآليفه[1] .

افلا تظن معي أن المؤلف يتحدث عن نفسه من حيث لا يدري، أويدري ؟ ألا يعبر بهذا عن أسفه على أيام ضيعها في ميادين السياسة ؟ وأمـا قوله : رتب ابو عبيدة معجمه على حروف ابي جاد ، فليته ماشى الزمان وقال : «أبجد» ، فكلمة ابي جاد مهجورة ولا يفهمها واحد من ألف ممن سيستنيرون بآراء الاستاذ الرئيس في كنوز الأجداد .

وهناك أيضاً غير هـذه كلمات كانت اضافتها الى جدول التصويب واجبة ، مثل : الا اذا كان ثمة شيئاً لا يعرفه[2] ، فهي شيء لا شيئاً .

وفي ترجمة الخوارزمي عبارة لستأراها صالحة وان كتبها الثعالبي : وكانت حاله مع صاحبها كهي مع طاهر بن شاد[3] لاننا نحن اليوم لا نقول كهي .

وقد وقع أيضاً خطأ فيهذه العبارة: والسلطان لا يأمر ولا ينهي، والصواب لا ينهى[4] . ثم يجب حذف الياء من ابتغي في هـــذه العبارة : ابتغي زوجي قراطيس وقطعها رقاعاً صغيرة[5].

اقول هذا لاني قرأت في آخر الكتاب تصحيح هنات كهذه، فما هـذا خطأ ان هذا الا سهو، وجل من لا يسهو . وقد تكون خطيئته في رقبة المطبعة .

وختاماً اننا لنسأل لشيخنا الأجل الذي لم يسأم تكاليف الحياة كزهير ، ان يعمّر كلبيد ، لأنه ما زال يفوت القرّح المجتمع اشدُّهم في انتاجه الغزير السمين .

---

(١) ص ٢٦٧ (٢) ص ٢٧ (٣) ص ١٩٠ (٤) ص ٣١٦ (٥) ص ٣٣٦

شفتان بخيلتان

لرياض طه

عندما أصدرت دار العلم للملايين مجموعة الاستاذ رياض طه القصصية «شفتان بخيلتان» جاءتني تختال كما قال ابن الرومي : خيلاء الفتاة في الابراد .

يحق لرياض طه أن يتيه ويعجب بعرائسه الحسان ، ولكن ليس له ان يحمّلهن في جيوبهن بطاقة حافلة بالابتهار فيجر سلاحه على «مارون عبود» . ظن رياض ، كما ظن غيره ايضاً ، اني شيّخت فاتسع صدري ، وصرت حليماً ، كما قال مرة صديقنا الاديب محمد النقاش ، حين سمعني أنني من محطة الشرق الادنى على بعض الكتب ولا أنتقد الانتقاد المر .

أما ما كتبه إليّ صديقي رياض فما بدأت بقراءته حتى انتفضت كالعصفور بلّله القطر ، وركبني شعور لا أقدر أن أجد له نعتاً . خلت ان الرجل ينعى إلي نفسي ، حين ابتدأ هكذا :

« لزمن خلا كان المؤلفون يرهبون مارون عبود ، فيترددون لدى نشر كتبهم متهيبين الوقعة ...

« أما انا فلم أتهيب ، بل أسرعت الى نشر هذا الكتاب بكل جرأة وتحدٍّ ... وذلك لأن ابا محمد ألقى سلاحه على ما يبدو ... ولانني لست من اولئك «الفطاحل» الذين كان مارون عبود يعترضهم ليفرك مناخيرهم ...

« مع احترام وتقدير رياض طه . ٢٤/٤/١٩٥٠ » .

واالله العظيم ، ما آلمني إلا عبارتان : لزمن خلا ، وكان مارون عبود. لم تكن تهمني لفظة « كان » لما كانت لبطقي تهدّ الحيط ، أمـا اليوم فكل فعل ماض ،

وخصوصاً كان وخلا وما أشبهها ، يصح بي ان أقول عند سماعها : سمعت بأذني رنـّة السهم في قلبي .

ليس. فلندخل الموضوع. قرأت تلك الاقاصيص الرياضية وفي نيتي انأتناول «المهدّة» ولكنني رأيت أمامي بناء طريفاً ، وكاتباً في عز طلعته يرجى خيره ، قد أعرب في محاولته الاولى عن مقدرة فنية في اكثر أقاصيصه . وهذي خطتي مع الثنيان ، أما السدّس من الكباش وما فوق ، فالأجدى ـ متى أساء ـ ان يجعل عبرة وعظة للطري عودهم . أقول هذا لئلا يغتر احد ان شبابي ولى ، ثم هل يطلب منا ان نحطـّم بحق ، وبغير حق ؟ لا والله !

أظن انه حان لنا الآن ان ننقل ما كتبناه بالحرف عن « شفتان بخيلتان » ، بتاريخ ١٤ ـ ٦ ـ ١٩٥٠ ، وأذيع في وقته من محطة الشرق الادنى ، ولا تزال نسخته محفوظة عندها كما ان الاصل عندي وهذا هو :

«شفتان بخيلتان عنوان اقصوصة جعله مؤلفها الاديب رياض طه عنوانـــاً لمجموعة أقاصيص طريفة. قدم لهذه المجموعةالقصصي الشهير الاستاذ محمودتيمور، وأثنىعليها بالتي هي اهله. فأقاصيصرياض ذات لون محلي صارخ،وعبارة قصصية حقاً . تمشي القصة على رسلها حيث لا يتكلف رياض طه الخلق،أما حين يحاوله فتبدو الغرابة،ويقع المستحيل الممكن... وكثيراً ما تنتهي هذه القصصبالاطلاع على نبأ في جريدة ، ولا بدع فرياض ممن مارسوا الصحافة ونبه فيها شأنهم .

الحوار عند قصصينا الموهوب طبيعي لو لم يكن يفسده غالبـــاً بكلمات لا ينطق بها الناس عادة في المحاورة مثل : لقد ، وان ، وأمثال هاتين .

أما البدعة الجديدة التي لم أرَ مثلها من قبل،فهي ان الاستاذ رياضطه يمارض من قدّم لكتابه بأقوال غيره فيه . فاذا قال تيمور برفق : « وكأن هذا كله قد ألهاك شيئاً ما عن عنصر له مكانته في الفن القصصي ، ذلك هو التحليل النفسي للمشاعر والمواقف والشخصيات » علق رياض حاشية تنقض هذا القول وهي :

نشر الاستاذ صلاح الاسير مقالاً في نقد هذه المجموعة قـــال فيه : « ولقد استوقفتني قصة « بعد خيانتها » لانها تنبض بالتحليل النفسي العميق ، دون

تكلّف له او تصنّع » .

وهناك حاشية اخرى يدحض فيها ايضاً كلام صاحب المقدمة . قال تيمور : « ان الحياة على اختلاف ألوانها تهتف بنا ان نوليها حقهـــا من الوصف والعرض والتصوير ، فلا تلفتنا عاطفة الحب وحدهـا » ، فكانت حاشية اخرى للاسير ناقد هذه القصص، وهذا ما أحتاج اليه منها : « ان عنايته ـ أي رياض ـ بالحب في جميع قصصه تصبح حدثاً عارضاً في سياق الحياة الخافقة بألف لون ولون . ومن أجل ذلك يختفي الحب في قصصه ساعة ينبغي له الا يكون... فليس الحب عنده ـ ولله الحمد ـ ضرورة قصصية ... » (المقدمة ص ٧) .

أما الذي لاحظته انا فهو ان القصتين اللتين كتبتا عام ٤٩ هما دون اخواتها، ولعلهما كتبتا على عجل ، او لتكبير الحجم ، وان كنت أعلم حق العلم ان دار العلم للملايين ليست في هذا على رأي احمد فارس ..

رأيت رياض طه في القصص التي تلائم عمره أبرع منه في سواها، فقصة «بعد خيانتها » تجري على هينتها ، وهذا السير السريع المطمئن من مقومات القصة الفنية ، وهو يدلنا على ان ما ينبع من النفس تسهل تأديته .

قد أجاد صاحب « شفتان بخيلتان » سلمت يده ·

هذا ما أذيع بحروفه من محطة الشرق الادنى، لم أزد عليه مدحاً ولا قدحاً. وإنما زدت حواشي الاسير وكلام تيمور لان المجال في الاذاعة لم ينفسح لذلك ، والآن بما اننا ننشر النقد في جريدة صاحب « شفتان بخيلتان » فلا بد لنـا من زيادة ولو قليلة .

قصة « قلب من حجر » جميلة بدايتها ولكنها قصرت عن مستواها في النهاية ولا سيا حين تكلف رياض خلق الفاجعة التي أوحاها اليـك سمك بلده النادر الوجود ـ الهرملاني .

سخيف طلب تلك الآنسة التي علمتها عمتها المقهورة تلك التعاليم التي يقطر منها كيد النساء : عذّبي الرجال يا هيفا ، حطمي قلوبهم ... الخ . طبيعي جداً كان مطلع هذه الاقصوصة ،ولو ظل السياق مطرداً لكانت من أروع الاقاصيص.

ومع ذلك اقول: في الدنيا سخف كثير ، فقد توجد واحدة تتمنع وتتأبى كهيفاء ثم تطلب اخيراً السمك الهرملاني ... ولكن وفاء هيفاء لصاحبها يستر عليها .

اما ملاحظاتي على الأسلوب فأرى ان فيه بعض عبارات مدرسية ولغوية يزجها رياض زجاً فتشوه انشاءه القصصي الجميل مثلاً : تغذ في سيرها ، وكزتها بأظافرها ، ثم الفينة المنفلوطيـــة . فقوله تغذ أشبه بقول الشاعر صلاح لبكي امس ، في ذكرى الريحاني :

وأمة طـــارت بهاليلهـا بأجنح الصقر وعزم البزاة

لماذا آثر صلاح بهاليلها ولم يقل ، مثلاً ، مغاويرها ؟ من يدري ؟ وللناس فيما يعشقون مذاهب ... وكذلك لا يعلم أحد اي شأن لرياض في تغذ . فليفعل ما شاء ولكنني أرجو منه ان يـــترك السين وسوف في الحوار ، وان لا يكثر من استعمال « إنّ » فهي اكثر مما يلزم . ولينفر من العبارات المعلوكة وليكثر من مثل هذا التعبير : الثغر المتلىء الثائر . أما قوله : احتواها المقعد ، وان قالها شوقي ـ همت الفلك واحتواها المـــاء ـ اضطراراً ، فهي لا تحلو لحسنائه ولا لقصصي من طرازه .

واذا قلت يا رياض رأيت سامياً ، مثلاً ، فهذا كلام صحيح لا غبار عليه ، ولكن لأي سبب تقول : وما دمت أهوى نوالاً . قل أهوى نوال ، لأنه صحيح وطبيعي في وقت معاً . ان نوال ممنوعة من الصرف لانها اسم علم مؤنث . فلو كان زيد اسم علم لامرأة منع من الصرف ، كما قال ابن مالك : أو زيد اسم امرأة لا اسم ذكر .

وفي الحوار الذي تهنأ عليه أحر التهنئة اسمح لي ان أفصّل ما أجملت ، حين كتبت لمحطة الشرق الادنى ، تقول في قصة « يوم افترقنا » : لقد طالت غيبتك جداً يا استاذ ، أين انت في هذه الايام ؟

طيب ! ولكن ألا ترى (لقد) هنا مثل عقدة في قضيب خيزران ؟ ثم جواب الاستاذ : والله ، لقد كنت مشغولاً . ألا ترى لقد هنا أبشع وأبشع ! ! ناهيك ان أصول البلاغة لا تدعونا الى استعمال لقد . فبعد القسم بالله لا يحتاج اليهـا .

أنسيت قول النابغة حين حلف للنعمان وقال : وليس وراء الله للمرء مذهب .

نسيت ان أقول شيئاً ، وهو ان شخوصك كأنها ذات وجود ، نستطيع ان نميزها ونشعر كأننا نعايشها ، أي ان بعضها يحمل هوية ـ تذكرة نفوس ـ فيها علاماته الفارقة ، كما ان القارىء ينتقل معك الى حيث تنقله حين يقرأ قصصك، ولا سيما حين تحدد الأماكن ضمن إطار معين .

اهنئك ثاني مرة .

حاشية : أرأيت اني لم أرحمـــك ؟ فأرجو منك ان تعذرني إذ اني لم أرحم غيرك ...

تاريخ الادب العربي

للاستاذ ح. فاخوري

عندما مات لانسون قالوا في كتابه تاريخ الأدب الفرنسي : « انه شحيمة الادب » او « السواعية » ، أي كتاب الصلوات المفروضة تلاوتها على كل كاهن . وهذا الكتاب الجديد الذي ألفه الأب حنا الفاخوري البولسي سيكون شحيمة كل متأدب ، وسواعيّة طلاب البكالوريا ، فهو أوفى الكتب وأجمعها وأحدثها تصنيفاً في هذا الموضوع الحديث العهد عندنا .

كنا قبل ان صنفت هذه الكتب المدرسية المنهجية ،ندرس الادب في مراجعه العديدة ، فنجوب الادغال ولا نعرف الطرق المعبدة ، ولا هذه «القادوميات» . أما اليوم فالعصر عصر صندويش ، وفي استطاعة المتأدب ان يمر بالأدب العربي كله باسبوع ، ولكنها مرة كرام ...

وهذه الطريق في التأليف شقها لنا المرحوم جرجي زيدان متبعاً في رسمها الهندسة الانكليزية ، فقسم العصور الأدبية تبعاً للتطورات السياسية ، وترجم للشعراء والكتّاب فكان كتابه الصادر قبل الحرب العظمى الاولى مثالاً طبع على غراره باحثو الأدب العربي ومؤرخوه ودارسوه .

أما كتـاب الأب فاخوري الحديث فمعمول على أحدث طراز ، يجمع الى رصانة التعبير دقة التفكير والتحليل ، وجمال التصنيف والتبويب ، يعطيك في اول كل موضوع خلاصة ما ستقرأ ، وهي تكاد تكون ما يسمونه « خطة » ، ثم يمضي توّاً في التفصيل فلا يتنكب ولا يضل ، كأنه وضع نصب عينيه تلك الكتب التي كثرت في اوروبا. فطبع كتابه على غرارها . واذا لم ترَ عنده ذاك التطويل الفرنجي فلأن شعراءنا محدودو الآفاق ، وليس لهم ما لأولئك من مواضيع متنوعة .

ترى عند القوم القصصي ، والمسرحي ، والناقد ، والكاتب،والشاعر في شخص واحد ، ولا ترى عندنا إلا الشاعر والكاتب الضيق التخوم ، ما خلا بضعة اشخاص من أدباء منهجنا .

والمؤلف يتبع ايضاً خطة الفرنجة في ذكر المراجع عربية وأجنبية ، ثم يختم كل دراسة بمواضيع شتى للبحث فيخفف كثيراً من التعب على المدرس والدارس.

صدّر المؤلف كتابه بمقدمة نفيسة بحث فيها اللغة العربية ونشوءها وتطورها الى أن سادت لهجة قريش ونزل الكتاب الكريم بها فثبتها .

لا أظن ان القرآن ثبتها فقط ، بل انني ارى له في هذا شأناً أجل واعظم فهو الذي رفعها الى أعلى عليين في سموات الجمال الفني ، وحدد لكلمات كثيرة معانيها ، وهذا ما عجزنا عن الاتفاق عليه نحن اليوم . ثم أدخل عليها تعابير خاصة ، و كلمات جديدة منها عربية فتغير معناها للدين والشرع،ومنها غير عربية احتيج اليها . ولا ننس اسماء الأعلام التي عربت فكانت لها الرشاقة وحلاوة الجرس اللتان فاقت بها العربية اخواتها الساميات.ثم نشأت قواعد الوقف لتجويد تلاوة القرآن بل كل العلوم اللسانية حتى النقد الأدبي لأجل فهم القرآن وادراك سر جماله وتجويد تلاوته وقراءته . وهكذا صار القرآن الكريم دستور الدين والادب ، فهو الذي أوصل النثر الينا كما كان يحكى يوم نزّله الله على عبده ، فكان أعظم أثر أدبي يصل الأرض بالسماء .

قلت ان القرآن الكريم أدخل على اللغة العربية كلمات جديدة وحدد معانيها ومعاني غيرها من الكلمات العربية وهذا ما ينقصنا نحن اليوم. فأسماء الاعلام – مثلاً – يعربها كل واحد منا كما يشاء، فواحد يقول : غوت وآخر جوته،وذاك جيته وهذاك جوت . ومثل هذا يقال : هوغو ، هيغو ، وهوجو ، وهيكو .

أما الالفاظ الاخرى كالأدب الرومنتيكي فأحدنا يقول : الأدب الابداعي ، وثان يسميه الأدب الوجداني ، وهكذا دواليك، وها هوذا مؤلف هذا الكتاب القيّم يقول : الأدب الانشائي او الايجادي ، والأدب الوصفي، او الموضوعي ، ثم يسمي فن عمل التماثيل النقش ، ويسمي التصوير الرسم ، وهذا ما نرى مثله في

كل كتاب ، وعند كل مؤلف . هكذا ضاعت الطاسة ولم تتفق على كلمات لهذه المسميات التي نحتاج اليها كل ساعة ، فمتى نضع حداً لهذه الفوضى ومتى يفهم القارىء معنى كل لفظة كما حددها العرف الحديث ؟

وقد تكلم المؤلف الجليل عن « عناصر الأدب » فقال : « والآثار الأدبية الخالية من الفكر او المشحونة ضلالاً لا يمكننا ان تعد أدباً حقيقياً » .

اذا كان يريد حضرته بقوله « الخالية من الفكر » تلك الفقاقيع الصابونية البراقة من « انشاء » بعضهم فهو مصيب لأن هذا أدب زيزفوني ... اما قوله «المشحونة ضلالاً» فلا اظن ان للضلال شأناً يذكر في الفن ، فالأدب ، من حيث الفن ، لا يعنيه الضلال والهدى. فالصورة الرائعة رائعة ، سواء ألعشتروت كانت و للسيدة العذراء ، عليها السلام . ان الجمال الفني لا يفقد من الأثر اذا خلا من الحقيقة ، لأن الحقيقة مختلف عليها ، فما هو ضلال في نظر هذا ، ربما كان عين الحقيقة عند ذاك ، والله أعلم ، والحساب في ملكوت الله لا في دنيا الفن .

وقد تكلم ايضاً في هذا الموضوع عن « الذوق » فجعله آخر عناصر الأدب، فليته جعله الأول ثم اطنب وغالى في وصف أهميته ، فلو لم يكن الذوق الفني متأصلاً في نفس الفاخوري ما اخرج للمدرسة العربية هذا الكتاب الرائع . والفاخوري مسلط على طينه يجعل منه إناء للكرامة واناء للهوان ، كما قال بولس شفيع الأب فاخوري . ثم يتكلم عن أثر الدين في الأدب ويراه مكوناً للأديب، وهذا حق. فالدين، ان أحب الانسان او كره، يظل له الشأن الأكبر في منتوجات الأديب الحق، وبرهاننا على ذلك الجاحظ وابو نواس والمتنبي والمعري وغيرهم وغيرهم.

ان مطالعة هذا الكتاب تردني الى بحث الكلمات الوضعية Techniques فالمؤلف يسمي شعر زهير في من ومن ومن شعراً تعليمياً . أما الذي أراه انا فهو ان نطلق كلمة الشعر التعليمي Didactique على مثل الفية ابن مالك، والقصائد التي ذكرها الجاحظ في كتابه الحيوان . أما مثل شعر زهير وغيره فهو الحكمي . أما كلمة الجاهلية فهي لا تعني الوثنية ابداً ، بل هي تعني النخوة المتطرفة التي اشتهر بها العربي حتى قال : انصر أخاك ظالماً او مظلوماً . ولما جاء النبي بشيراً بالحق ،

علمهم بالمثل سعة الصدر والانتصار للحق ، ولما تحمس أحدهم في حضرته قـال للمجلس : ان أخاكم به جاهلية فانصحوه ، او ارشدوه لا أذكر . أما دراسة المؤلف للشعراء فكافية وافية فهو لم يترك شيئاً لا بد منه . خذ مثلاً درسه امرىء القيس، فهو يحدثك عن كل غضون تلك الشخصية الفذة ومنعرجاتها حتى «النقل الآلي الجامد» فينزه امرىء القيس عنه، وهذه نقطة حساسة جداً في الفن، فالأديب الحق مصور بدوي لا مصور شمسي . عليه ان يخلق ما يرى خلقـاً جديداً ويضع فيه الكثير من ذاته . انه كالنحلة ـ كما قلت غير مرة ـ التي تصنع الشهد بعد ان تأخذ مادته من هنا وهناك وهنالك .

وقد أعجبني جداً من الأب فاخوري إدراكه الدقيق للموسيقى في شعر يعده غيره أتفه ما قاله امرؤ القيس .

تطاول الليل علينا دمّون دمون إنّا معشر يمانون
وإننا لاهلنا محبون

ليس هنا جمال ولكن هنا موسيقى عميقة تترك في النفس ما يتركه رنين الجرس الضخم بعد انقطاع القرع والدق .

وبعد ، فلا يتسع المجال ، الآن ، لنقد الكتاب كله ، ولكنه كله على هذا النمط: زي فرنجي من قماش عربي مفصل على القد، فليت مؤلفه يقدمه الى معرض الشيلي للكتاب التعليمي فيبيض وجهنا وينال الجائزة ان كان لهـذا المعرض جوائز . واذا اطلع عليه المستعرضون الذين يجهلون العربية فلا شك ان ما فيه من رسوم فنية رائعة يعرفهم بالوجه العربي النبيل الذي أحسن الى الأدب والثقافة العالمية إذ حمل مشعلها أربعة قرون .

الفوضى العالمية على ضوء الانجيل

للخوري حنا مارون

« – يا جمجمة ، تفضلي ، الليلة ، تعشي عندنا .

قال هذا ورفسها برجله فتدحرجت . وعند الغروب ، يا اخوتي المباركين ، تجمعت الضيعة رجال واولاد ، ونسوان وبنات ، ودارت الكأس على صوت الدف والقصب . وفيما هم يشربون ويتنقلون دق الباب .

دخلت الجمجمة ، لبّت دعوة الشاب الطائش اللباط . ليتكم تعرفون يا أولادي ما جرى ، جنّت العروس ، وأغمي على العريس ، وهرب الناس كلهم ،واستحال العرس ليلة فزع ما سمعت بمثلها الضيعة . الموت ، يا أولادي ، الموت . ما أقوى شوكتك يا موت » .

كان عمري ثماني سنوات عندما سمعت هذه الموعظة عن الموت وتكريم الموتى ، فأحدثت في سروالي فزعاً ... أحسّت أمي بالكارثة ، فأخذت تشجعني ولكن هيهات ،فكنيسة عين كفاع معتمة ، ولامر ما أعدّ الخوري سراجاً فتيلته كفتيلة سراج بخيل الجاحظ ،وأوقد شمعتين فقط ،فكان له المشهد الذي شاءه عارم الرعب.

ما تعشيت تلك الليلة. ذهبت توّاً الى فراشي ونامت أمي الى جانبي ،وظلت تنثر فوق مخدتي أخبارها المضحكة حتى تركتني ظانة اني نمت على سرور . ما كدت أغفى حتى نفضتني الحمى فأفقت أرتجف ، فتركت المسكينة الموقد وترامت عليّ ، وهرول جدّي وانتصب عند فراشي يصلي على رأسي ، فازداد فزعي . حسبته ذلك الواعظ الجبار . ورأى هو ان صلاته لم تنفعني فانحنى فوق مخدتي فأجفلت ، فصاحت أمي : جدك ، يا ابني ، جدك . وكلمني هو بصوته المرتجف فأدركت انه غير ذاك . فسكنت اليه ، وهدأت أعصابي .

هذه إحدى المواعظ التي حفظت ايماني من تهور القلب...وعندي لها اخوات

(١٦)

نابغات . هذه الصغرى التي تيمها عمر ، أما الكبرى والوسطى فيأتيك نبأهما في « قصصي وأخباري » .

اللهم عفواً وغفراناً ، اللهم اغفر لي وللخوري يوسف اللاذقي الواعظ الشهير.

الشيء بالشيء يذكر . ذكرتني مواعظ الخوري يوحنا مارون بهذه النكبة التي حلت بي في طور التكون والتحول ، ومن يدري فربما كانت هي التي غيرت مجرى حياتي ، فليتني أولد ثاني مرة كما قال السيد المسيح لذلك السائل : كيف يرث ملكوت الله .

كثيراً ما تساءلت ماذا حدث، وماذا جرى ، حتى ان «اوغو» لم يعد اوغو كما خبرنا اورياما . ولكنني وجدت الجواب عند هذا الخوري العلامة صاحب «الفوضى العالمية على ضوء الانجيل» [1] : ان ارتداد بول كلوديل كان لي عذراً ورجاء ، ولعل ساعتي لم تأت بعد ، او لن تأتي . من يعلم .

عندما قرأت الفوضى العالمية عنّت لي ايامي السابقة ، ايام كنت أعيش في ظل الكنيسة ، في ظلة مار روحانا عين كفاع المطمئنة ، ورطوبتها الخشوعية المنعشة . اصغي الى صوفية مار افرام ، ومار يعقوب ، واسمعهما يتدللان على الله. فلو صحّ لنا وعّاظ كهذا الأب المثقف ، لما صحت فينا الكلمة المأثورة : ورب أكلة حرمت أكلات ...

الخوري يوحنا مارون في مواعظه السبع يحادث القلب والعقل معاً . ما هو بالمنطقي الجاف ، ولا بالمتفلسف المتقعر . يعلم انه يحدث الشعب فيوجه كلامه الى القلب ـ مستودع الايمان ـ ماراً بطريق الدماغ . ولا نعدو الحقيقة ان قلنا جعل الحمل عدلين، فما رجحت كفة على أختها فمن بعد عن القلب يرفض حديثه، ولهذا تقرأ مواعظ صاحب الفوضى العالمية وانفك راغم ـ غض الطرف .

تعجبني جداً مواعظه فهو رجل عاطفة وايمان ، وصاحب فكر وبيان ، فجاءت عظاته من طراز جديد في الكنيسة الشرقية . يحاول مؤلفها ان يدب الحياة الى المبادىء الدينية التي يراها الكثيرون مفلسة هرمة ، ولكن بيان هذا

---

(١) ـ طبع «دار المكشوف» ، بيروت .

الأب وبرهانه يقنعاننا ان الكمال المسيحي ليس مبدأ خيالياً يستحيل تحقيقه . فالمحبة حلم يتحقق إذا شاء البشر ، وان الفوضى العالمية لم تعد انشوطة ، وإنما هي عقدة العقد التي لا يحلها إلا الانجيل .

لم تتعود منابرنا مثل هذه اللهجة ، ولم تألف مثل هذا الكلام الذي يقرأه المؤمن والزنديق والكافر ويخرجون منه جميعاً معجبين بالقلم الذي خطه ، القلم المبشر بروح الانجيل أعجوبة العجائب .

من مقطع واحد من فصول الانجيل ـ او من انجيل واحد بلغة الكنيسة ـ اتخذ الخوري يوحنا مارون مادة عظاته ، فخلق من بضعة أسطر زاداً له وللمؤمنين ، مدة الصوم ، كما خلق السيد المعلم من السمكتين والخمسة أرغفة مأدبة للموعوظين عند الجبل ، قبل ان تثور بحيرة طبريا .

لقد اصبح لطبريا رائعتان ، رائعة المتنبي في الشعر ، ورائعة يوحنا مارون في الوعظ الديني والمدني ، وموضوع النابغتين الاسد : هـذا الأسد المنتصر من سبط يهوذا ، وذاك اسد بدر بن عمار بن اسماعيلا .

ما أشبه هذا الأب بلاكوردير فصاحة وبياناً. للكاهنين ـ الغربي والشرقي ـ هدف واحد هو الملاءمة بين الدنيا والدين . وجعل المسيحية عامة والكثلكة خاصة ملأى بروح العصر ، وقد عالج الأب مارون ، مثل لاكوردير ، انما في عشرات الصفحات، معظم مشاكلنا الحاضرة على ضوء الانجيل. عرض لنا بإيجاز مسهب جميع مبادىء زماننا وعقائده من سياسة وفلسفة واجتماع وعلم ببراعة لا عهد لنا بها في كنائسنا من قبل .

ان أسلوب الخوري يوحنا مارون متقد ، يجذب القارىء ، ويسوقه بعصاه السحرية الى حيث يشاء . لا أجادله فيما يتحدث عنه ، وحسبي النتيجة الاقناعية التي تؤدي اليها بحوثه . وكم أعجبت بالموعظتين الاخيرتين بل بكتيبه كله ، وتمنيت لو يكثر عندنا مثل هذا الوعظ الذي يأخذ الناس بالحيلة البولسية . أما احابيل واعظنا الكبير فهي غير تلك ، انها عصرية مصنوعة في معامل العلم ، لاتتكىء على سواعد الايمان فقط ، فيرفضها من يريد ، ولكنها تقفاً في عين الماحك حصرماً.

من فكاهات الجاحظ طرفته الفنية « آكل الرؤوس » فقد روى ان بطله ابا عبد الرحمن كان يسمي الرأس مرة «الجامع» ومرة «الكامل» فهل نؤاخذ اذا استعرنا هذا اللقب لكتاب الفوضى العالمية ؟ ، وهل من حرج اذا دعونا هذه العظات المعلقات السبع في الأدب «الطقسي»؟ ففيها خيال بديع وأدب رومنتيكي، وبلاغة لا تشوبها ركاكة ، ولو قرأها الفارياق لقال : هذا خوري فصيح وهذا وعظ مبين ، ثم حذف ذلك الفصل من كتابه الخالد .

ان صاحب الفوضى العالمية رجل مثقف، ومتى علمت انه قائد جحفل لجب من شباب البلاد، مدبراً ومعلماً لا تكبر صدور هذه المواعظ عنه، ففي ذلك الجسم النحيل عزيمة الجبال ، ورواء المدينة . انه ليصح ان يؤخذ وجهاً من وجوهنا في القرن العشرين ، فمعدته تامة ، وشخصيته مسلحة بقوى نفسية نادرة، فهو كالاب ديدون يحاول ان يجد في الكثلكة دواءً شافياً لبؤس العصر. وقد توصل بتأويله وتفسيره الى اقناع غير قليل، فأرانا ان بين الدين والدنيا قرابة دموية. وحسبك الموعظة السادسة لتؤمن بل لتصدق ما أقول انا ، وتؤمن بما قال هو. عالج هناك معجزة المعجزات ـ سر الافخارستيا ـ بتوفيق عظيم أغبطه عليه، وأهنىء الكنيسة. ولا بدع، فقديماً كان فم يوحنا ذهبياً. وطوبى للنقية قلوبهم فانهم يعاينون الله...

وإن كان لا بد من قول فيكون حول تفرنج الأسلوب ، ولكن ذلك قليل جداً . فالى الامام يا محترم ، احرث كرم ربك ، فالحصاد كثير ، والفعلة ـ اللهم المهرة ـ قليلون .

الرمزية والادب العربي

لأنطون غطاس كرم

ألـّف هذا الكتاب الاستاذ انطون غطاس كرم ، فسد فراغاً في المكتبة العربية كان لا بد له من سد ، فكثيراً ما يحاول الشعراء الذين قل رأس مالهم من اللغات الأجنبية ان يطلعوا على الحركة الادبية الرمزية في مصادرها فيتعذر عليهم تفهمها ويخبطون في تقليدهم كمنايا زهير .

الكتاب نافع ، وان جاء متأخراً ، وما مثلنا معه إلا كمثل « الموض » التي تبطل في بلادها فنأبه نحن لها ونعنى بها كحدث ظريف ، ونفصل قماشنا على طرازها ونلبسها مبتهرين ...

لا يبعد الأدب كثيراً عن ان تكون فيه موض وأزياء ، حتى ان المفردات تموت حيناً ، ثم تحيا ، ثم تموت ، تبعاً لسنن الحياة . ألا ترى مثلي ان هذا الشعر الذي يسمونه رمزياً يكاد يستأثر بمفردات لا تدور على ألسنة أقلام كتابه غيرها، ثم تسند الى أشياء بعينها فيخلق المولود الرمزي العجيب .

فما هو الرمز الأدبي ؟ لقد أورد الاستاذ انطون كرم تعريفات كثيرة يضيع القارىء بين سطورها . وأي عجب في ذلك ، أليست رمزاً ؟

عندما تسنم بول فاليري شاعر فرنسا العظيم كرسي الأدب في « كولج دى فرانس » افتتح دراساته بمحاضرة عن الأدب الرمزي استغرقت حصة طويلة من الزمن،واخيراً انتهى والسامعون لم يفهموا مراده ...فأقبلوا على زوجته يهنئونها، مجاملة ، بما قال زوجها ، وابتسامة الحيرة على افواههم ، فقالت لهم الزوجة النبيهة : ماذا تطلبون ؟ انه يحدد ما لا يحدد ...

وهذا ما فعله الاستاذ كرم في كتابه الرمزية . فقد رأى ، بعد ان أورد تحديدات عديدة ، ان « بوفيه » هو خير من حاول تحديد الرمز بكلام يفهم ،

فعربه كما يلي :

« الرمز هو بقية التصفية الفكرية ، والجوهر الاقصى في كل تشبيه » .

لا تسألني شرحاً فأنا، وحقك، لم أفهم اكثر مما تفهم انت من هذه الكلمات ، ولكنني احدثك بلغة صاحب الاغاني فأقول : حدثنا الاستاذ كرم عن بودلير ، عن ادغار بو ، قال تحت عنوان « المبدأ الشعري » :

١ – الشعر خلق من الجمال منغم . والجمال غرضه الاوحد .

٢ – هو تلهف نحو مثال اقدس ، وانطلاق من نفس متعبة تنهار على ذاتها في جو من الحلم ، وفي تعبير شعري موسيقي غنائي .

٣ – الحقيقة العميقة في الذات هي موضوع الشعر الحق . بحيث يصبح الشعر توقاً واشتياقاً .

٤ – ينبغي ان تكون القصائد وجيزة تهز الذات ، لان شعور الانسان الجمالي زائل عبوري لا يستمر حياً طوال القصيدة الطويلة ، فاذا طالت القصيدة باد هذا الشعور في كلام المبدع والقارىء وخبا .

ان الشاعر الاميركي بو رصف مبادئه هذه على نسق الوصايا العشر ، إلا انه جعل وصاياه اثنتي عشرة ، فاسمح لي ان أترك خامساً وسادساً وسابعاً واقول :

٨ – الابهام عنصر الشعر الاساسي كما انه عنصر الموسيقى الاولي : فالايضاح والبوح بكامل الاشياء يعري هذه الاشياء من مثاليتها وجمالها الارفع . ومن مسحة الحلم الجميلة . فليتف الشاعر الوضوح وليعد الى خلق جو ضبابي منطوٍ على كل عجيب مبهم .

انني استخلص مما تقدم ذكره ، ومن كل ما جاء في الكتاب : « ان هذا الشعر الرمزي لا يحفل إلا بالموسيقى والايحاء ولا يكاد يحفل بالمنطق » كما جاء في (الصفحة ١١٩) ، وهذا ما يذكرني بما قاله ، منذ الف عام واكثر ، شاعر عربي ربي بدوياً وتحضر في بغداد . لا تتهمني بالتعصب للعروبة اذا أريتك ان شاعرنا البحتري قد فهم الشعر منذ احد عشر قرناً واكثر ، كما فهمه هؤلاء المعاصرون الاوروبيون ، فقال يرد على خصومه ، ولعله يعني ابن الرومي :

كلفتمونا حـــدود منطقكم   في الشعر يلغى عن صدقه كذبه
ولم يكـن ذو القروح يلهـج   بالمنطق ، ما نوعه ومـا سببه
والشعر « لمح » تكفي اشارته   وليس بالهـذر طولت خطبه

لست أعني ان البحتري شاعر رمزي ، ولكنني أعني انه قرر مـــا قرره اساطين الرمزية .

ثم يغرب الرمزيون في تفصيل فنهم فيجعلونه « احوالاً » بالصوفيـة أشبه ، فيعدون طور المعقول ويرون الالوان والاصوات والعطور في الحروف .

لا نستطيـع مناقشة هذا الآن لأن المجـــال ضيّق ، ولكننا نثني على جهود الاستاذ كرم ونتمنى عليه حين يعيد طبع كتابه هذا ان ينقيه من التعابير الواهنة ، والخاطئة ، وخصوصاً الغامضة ، فهو لا ينظم شعراً رمزياً بل يكتب عن الرمزية.

اعلام الحرية

لقدري قلعجي

قدري قلعجي كاتب عامل ، وقد يكون الكاتب الباحث المحترف الذي لا يزوّق ولا ينمق . يعني ما يقول فيؤديه بتلك البساطة المركبة ، مبتعداً عن الرمز والايماء والتلاميح لأن له هدفاً يرمي اليه . اما أسلوبه فهو السهل الممتنع، وخصوصاً في سلسلة « اعلام الحرية » التي لم تكتب للخاصـــة وحدهم ، وان لم تنحط عن مستواهم .

ان سير الرجال العظام خير مدرسة لتعليم الشعب وحثه على التشبه بالكرام من البشر ، وهذا ما فعله الاستاذ قلعجي ، إذ حلل لنا شخصيات عالمية فذة فما تقيد بجنس ولا بقارة . كأن هدفه «تأميم» العظام من العالمين ، وهم أحق بالتأميم في نظري من النفط وغيره ... ان في سيرهم مواد اكثر التهاباً من ذاك . واذا كان النفط لتحريك الآلات ، ففي هذه السيَر ما حرك العقول حتى أبدعت مـــا ابدعت . ان هؤلاء المفارد من البشر هم الذين حققوا للانسانية ما صبت اليه من حرية ونعمة هما مصدر كل خير .

فاذا قرأنا احدى حلقات هذه السلسلة ، «ابو ذرّ الغفاري» ، علمتنا سيرة هذا الرجل الصالح كيف يمسي الرجل الساذج «مجتهداً» فاضلاً لانه يريد ، ولان نفسه متفتحة لاقتبال المبادىء الجديدة الصحيحة .

سمع ابو ذر بالدعوة النبوية فاستجاب لها وتاق الى رؤية النبي الجديد فقصده، وما رآه وتحدث اليه حتى آمن به ولزمه ، فكان من افضل صحابته . ثم عاش بعده لا يحيد قيد شعرة عما تعلمه من تلك السيرة الصالحة . لم يلن ابو ذر للحدثان، وما أصغى إلا الى صوت وجدانه . ثبت لما حل به من نكبات تقصم الظهور ، ولم تستطع المادة ان تأخذ شيئاً من تلك النفس الصلبة . وكيف يستخذي من يحمل في صدره ما حمل ابو ذر من يقين حتى آثر الجوع على مال السحت .

جاءه عبد يحمل اليه من الخليفة عثمان مئة دينار ، كان رفضها من قبل ، فقال له العبد : اقبلها ، يرحمك الله ، فان فيها عتقي . فقال له ابو ذر : ان كان فيها عتقك فان فيها رقي .

ومن يستغرب حدوث مثل هذا منه متى عرف انه لحق النبي راجلاً الى تبوك ، فقال النبي لاصحابه : ادركوا أبا ذرّ بالماء فهو عطشان . فيشرب شرب الجواد الصادي . ثم دنا من رسول الله وقدم اليه قارورة فيها مـــاء . فتعجب الرسول وقال له : « يا أبا ذر ، معك ماء وعطشت » ؟ فيقول : « نعم يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي !! انتهيت الى صخرة وعليها ماء السماء ، فذقته ، فاذا به عذب بارد ، فقلت لا اشربه حتى يشربه حبيبي رسول الله » .

أجل بمثل هؤلاء الابطـال ، ابطال اليقين والايمان تتوطد دعائم الدعوات والرسالات العليا . هذا بعض من فضائل هذا الحواري الطاهر في حياته ، امـا ختامها فعظة رائعة : احتضر ابو ذر وليس عند زوجه ثوب تكفنه به . فقيض الله له رجالاً يشهدون احتضاره ، فقال لهم : والله ما كذبت ولا كذّبت ، ولو كان عندي ثوب يسعني كفناً لي ولامرأتي لم أكفن إلا في ثوب هو لي ولها ، واني انشدكم الله ان لا يكفنني رجل منكم كان اميراً او عريفاً او بريداً او نقيباً .

فقال له فتى من الانصار : « انا أكفنك يا عم في ردائي الذي اشتريته بمـال كسبته بعملي ، وفي ثوبين من غزل أمي ، حاكتهما لي كي أحرم فيهما » . فقـال ابو ذر : « انت الذي تكفنني ، فثوبك هو الثوب الطاهر الحلال » .

هذا بعض ما في كتاب « ابو ذر الغفاري » من درس رفيـع وموعظة سامية وقد أجاد تأليفه الاستاذ قلعجي لو لم يلصق به الفصل الاخـــير الذي عنوانه «التاريخ». لم تكن هذه التعليقات ضرورية في نظري،فهي تنقص من جلال سيرة ابي ذر،فبطل عقيدة كهذا الصحابي الصالح لا تحتاج اخلاقه الوعرة الى من يلطف من صلابتها . فلندع الحوادث تتكلم ، أما الاستنتاج والحكم فللناس .

ومن أقدم مناضل في الاسلام تنقلنا سلسلة الاستاذ قلعجي الى أحدث أبطاله « محمد عبده » بطل الثورة الفكرية في الاسلام .

صدر المؤلف كتاب محمد عبده بالبيتين اللذين قالهما الامام في مرضه الأخير :

ولست أبالي ان يقـــال محمد ٌ أبل ّ أم اكتظّت عليه المآتم ُ
ولكنّ ديناً قد أردت صلاحه أحاذر ان تقضي عليه العمائم ُ

أما الأبيات الثلاثة الباقية وهي :

فيا رب ِ ان قدرت َ رجعى قريبة الى عالم الأموات وارفض ْ خاتم ُ
فبارك على الاسلام وارزقه مرشداً رشيداً يضيء النهج والليل قاتم ُ
يضارعني رأياً وفهمـــاً وحكمة ً ويشبه في ّ السيف َ والسيف ُصارم ُ

فأذكر ان أستاذنا الشيخ سعيد الشرتوني أجهش بالبكاء حين قرأناها له في الصف ، ثم انتفض مدافعاً عن صديقه فقال : البيت الأخير منحول لأن الشيخ محمد عبده أقل ّ البشر اعتداداً بالنفس .

أما هذا الكتاب فكاف ٍ واف ٍ يعرفنا ببطل الحرية المعاصر الذي قال فيه ايضاً معلمي الشيخ سعيد : هذا الرجل اذا تكلم يخرج النور من فمه .

فما أحوجنا الى مثل هذين الكتابين اللذين يصلان حاضرنا بماضينا ، ومـــا أحرانا باحياء ذكر أبطالنا بنشر آثارهم وإظهار فضلهم . فمجاهد عظيم كالامام محمد عبده يستحق كتباً لا كتاباً واحداً فقط . فسيرة حيـاته ، وما ترك من شذرات أدبية تكوّن عقولاً مستقلة ، وشباباً يستميت في جهاده .

تأمل ما يقول هذا الثائر على التقاليد البالية حتى في العلم . قال : لا ينبغي ان يذل الفكر لغير الحق ، والذليل للحق عزيز . نعم يجب على كل طالب علم ان يسترشد بمن تقدموه ،وسواء أ كانوا أحياء أم امواتاً، ولكن عليه ان يستعمل فكره فيما يؤثر عنهم ، فان وجده صحيحاً أخذ به ، وإن وجده فاسداً تركه . وحينئذ ٍ يكون ممن قال الله تعالى فيهم : « فبشّر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » .

فعسى ان يقتفي أثر الامام كثيرون ممن يقرأون هذا الكتاب ، فـلا يصح فينا قوله المختوم به هذا السفر النفيس : « يا ويح الرجل الذي ليس له أمة . وأشد التعب ان ترى من حولك مرضى ولا تستطيع معالجتهم » .

لقد أبللنا يا سيدي الامام ، وعسى ان لا نبتلي بالنكسة ، فنم مستريحاً فان تعاليمك أثمرت . فللمؤلف ولدار العلم للملايين أجزل الشكر على هـذه السلسلة الذهبية التي تحلّي الألباب والأذهان .

الاسلاك

لأميل حائك

أسلاك الكاتب اميل حائك شائكة ومكهربة في وقت معـــاً . تنظر الى صاحبها فتخاله بعيداً عنك وإن كان يحدثك وجهاً لوجه. انه معك، وإن لم يكن كله فجله. لا يجود لك إلا بمقدار ويحتفظ بالباقي لحين الحاجة. فهو لا يقتصد في الانتباه فقط بل يشحّ بالابتسامة ايضاً . فلا يتفضل عليك إلا بالنصف ، هذا اذا تكارم، واما النصف الآخر فيعلم الله متى يكون موعده ... عينان ساجتان في وجه غائم تشيع فيه بسمة حائرة. انك لست تدري ما تقول ابتسامته اذا كنت لا تعلم انها مدت هذه «الأسلاك» الملبسة بالمطاط ولم تعزلها كل العزل فظلت تكهرب.

ليس كتاب « اسلاك » بحديث العهد ، وقد يقول قارئه والمؤلف نفسه حين يطالعان كلمتي هذه : « تعيش وتفيق » ، أما انا وهذه عادتي فأجيبها : أأفاق صبّ من هوى فأفيقا ..!

وبعد فما لون هذا الكتاب ؟ انه كتاب نضال يا قارئي العزيز ، وقد قـال صاحبه حين دفعه الينا : هذه المختارات من المقالات ، وقد درجت في الصحف لم تجمع في كتاب، يقدم الى المكتبة العربية بتواضع كبير، إلا اعتقاداً بأنه سيكون، في الغد ، حافزاً لانتاج أقوى ... الخ .

وهذا هو الواقع ، وقد نضجت فكرة كاتبها اليوم واكتنزت عبارته فوقفت على قدمين ثابتتين . مدّ اميل حائك أسلاكه في كل جبهة، فالحكمة ، وإن كانت زاد طريق طويل، هي أول أسلاكه التي تطالعك . أليس لابن العشرين في الأدب العربي ما لابن الثمانين ؟ قد يوجد الحلم في الشبان والشيب ... وترى فيها نظرات وآراء في الأدب ، انه يريده نضالياً واقعياً « يعالج مشاكل الجماهير ، ويعبر عن آلامها وآمالها » . يعبر الاستاذ حائك عما يريد بتهكم مرّ وهزء موجع لعله وليد

تلك الشخصية التي رسمت لك بعض خطوطها الكبرى في مطلع كلمتي هذه .
اقرأ شذراته تحت عنوان «الأدب والأديب» لترى كم عند هذا الشاب «الجنتلمان» من آراء تقف عندها واجماً مفكراً . فهو يشن غاراته من وراء اسلاكه التي يعتصم خلفها . ويقول كلماته في الأدب بصيغ «المراسيم» . يريده «ثورة ونوراً وتوجيهاً وعملاً» واذا كان غير ذلك «فهو أدب محدود الفائدة ضيق الأفق تائه الفكرة، وقد يكون سيئ القصد » .

لا يا اميل ، اذا طلبنا هذا من جميع الأدباء كنا كمن يريد جميع الطيور بلابل وعنادل ... فهناك حد وسط لبعضهم. فليسوا كلهم يصلحون ان يدوروا في حلقة مفرغة من خيالاتهم الفلسفية ، أما قيل : الناس أجناس ؟

ولا تقف اسلاك اميل عند هذا بل تتجاوزه الى شؤون اخرى محلية تمس كلها الواقع ، ولا بدع فهو صحفي ، وميدان الصحافي هذا الواقع الراهن دون سواه ، وقد طغى حب اميل الواقع حتى بلغ الزبى فقال ، «لنفتح السجون ... إذن ، ولنختم المدارس ... بالشمع الاسود ! أقول هذا ، لا حباً بالسجن ... بل كرهاً للمدرسة ... مدرسة الشهادات » . لقد ساءته تلك العلوم النظرية التي لا تنفع صاحبها،فيكون في الحياة غريباً عن اورشليم كما قالوا قديماً،فقال ما قال: أما العلم في نظري فأرى ان يطلب بحسب المواهب لا بحسب أنانية الطالب .

وبعد،فان الاستاذ حائك سيكون كاتباً نبيه الشأن اذا اهتدى الى شخصيته، بل فلنقل ان هذه الشخصية، في كتاب أسلاك ، ما زالت نجمة سديمية والمستقبل كفيل ان يكشفها ويبلورها .

وأخيراً ما هي المآخذ على الأستاذ حايك ؟ وهنا لا بد من كلمة نوجهها الى القليلي الحظ من الأصول واللغة ، فنراهم مستخفين بها ، قائلين : المعاجم ! كتب الصرف والنحو !! لا أدري ماذا يريد هؤلاء . فأية أمة من أمم الأرض لا تحافظ أشد المحافظة على صيانة لغتها ؟ اننا لا نطلب من هؤلاء ثروة لغوية ولكننا نريد ان ننفي من نقودهم الدرهم الزيف،ولهم ، فيما بعد ، ان يدسوه حيث شاؤوا، اذا شاؤوا . أما من يريد ان يكون له شأن في الكتابة فهو مسؤول عن كل هذا .

ففي كتيب الاستاذ حائك اخطاء وافرة، في اللغة والاصول، بعضها طبيعي وبعضها اراده الكاتب هكذا . نراه يضع بعض الألفاظ بين قوسين حاسباً انهـا عامية وهي فصيحة مثل لفظـــة : بوز ، وقرض ، ولبط ، ونكع ، ونفضوا طوقهم الخ ... ثم نراه في موضع آخر يضع الكلمة العامية ولا يعلّمها بعلامة .

أما السريانية فيا له ولها ، في قابل . لقد اخطأ في التعبير ، وقال ما لم يقل ولا يقال ، فليته ظل يستعين بالالفاظ العامية التي خلقت في تعابيره الكثيرة جواً أنيقاً طريفاً .